العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٥١)

الإمام علي عليه السلام
في الفكر المسيحي المعاصر

راجي أنور هيفا

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

الإمام علي عليه السلام

في الفكر المسيحي المعاصر

- الكتاب: الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر.
- المؤلف: راجي أنور هيفا.
- الناشر: العتبة العلوية المقدسة ـ قسم الشؤون الفكرية والثقافية.
- الطبعة: الرابعة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
- رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢٥٧) لسنة ٢٠١١.

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتب : الرويس - بناية عروس الرويس - تلفاكس : 01/545182 - 03/473919

ص . ب : 24 / 140 - المستودع : بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - هاتف : 01/541650

www.daraloloum.com E-mail:info@daraloloum.com

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٥١)

الإمام علي عليه السلام

في الفكر المسيحي المعاصر

راجي أنور هيفا

النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية
عام ٢٠١٢

الإهداء

إلى الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً..

إلى الذين افترض الله مودّتهم على كل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة..

إلى أمناء الوحي وأبناء الرسالة..

إلى الذين بفضلهم وبذكرهم يقبل الله الدعاء..

إلى باب حطّة وسفينة نوح والعروة الوثقى التي تربط أهل الإيمان بعالم السماء..

وإلى السيد المسيح عليه السلام، رسول المحبة والرحمة والإخاء..

وإلى أمّه السيدة الطاهرة المطهّرة البتول، مريم العذراء..

إلى هؤلاء أهدي كتابي هذا، مع رجاء القبول..

راجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلائق بقدرته، واستعبد الأرباب بعزته وساد العظماء بجوده وصلى الله على محمد رسوله مشكاة الضياء وذؤابة العلياء وسرة البطحاء ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة وعلى آله الأطهار شجرة النبوة ومحط الرسالة ومختلف الملائكة ومعادن العلم.

من أجل نشر فكر وتراث ما كتب عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والاستعداد لتتويج النجف الأشرف عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢ شرعت الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة، بإعادة طباعة سلسلة من الكتب المتميزة التي كتبت بحق الإمام علي عليه السلام لمؤلفين عدة ومن اتجاهات مختلفة من أجل أن نضع ولو لجزء يسير من الفكر الخلاق للإمام عليه السلام بين يدي الوافدين لهذه المدينة المشرفة، والأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة لا تتبنى بالضرورة كل ما ورد في هذه الكتب من أبحاث لبعض المؤلفين...، لكنها تتبنى نشر الفكر الإسلامي الحقيقي والنظرة الشمولية للإنسان من الفكر الوهاج للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والله من وراء القصد.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

٧ذو الحجة١٤٣٢

النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و آله أجمعين .

يسرني ويشرفني أن تقوم الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة في العراق بطباعة كتابي:

(الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر) طبعة خاصة بمناسبة **(النجف الأشرف عاصمة الثقافة الإسلامية).**

آملاً من الله العلي القدير أن ينال الكتاب إعجاب القرّاء الكرام و رضاهم و أن يكون لنا حظ من دعائهم الكريم.

ومع تمنّياتنا الصادقة لإدارة العتبة العلوية المقدسة بالتوفيق و النجاح الدائمين.

خادم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم

راجي أنور هيفا

مقدمة قصيرة.. لابدّ منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله أجمعين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أخطّط لهذا العمل الفكري الفريد الذي لم يجرؤ أحد بعد على الإتيان به أو الخوض فيه. فعملٌ من هذا الوزن يحتاج - بلا ريب - إلى الكثير من الروية والتأنّي، كما يحتاج أيضاً إلى امتلاك روح الجرأة والإقدام من أجل تقديم الحقائق كما هي، لا كما كان يجب أن تكون عليه في الماضي أو حتى في الحاضر. فحقيقة الحدث، أو حقيقة الشخصية يجب أن تقدّم كما هي، لا كما يجب أن تكون.

ومنذ أكثر من عشر سنوات وأنا أجمع كل ما يمكن جمعه من مراجع ومصادر تتعلق بدراسة شخصية الإمام علي عليه السلام من وجهة نظر المفكرين والأدباء والباحثين المسيحيين في الشرق والغرب، فاستعنت بالمراكز الثقافية وبالمكتبات العامة وحتى بالأصدقاء، من مسلمين ومسيحيين، من بلدان مختلفة، ولم يضنّ أحد منهم عليّ بمدّ يد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل وإخراجه إلى النور بأفضل ما يمكن أن يكون عليه شكلاً ومضموناً.

ولما شعرت أن مخطّط العمل قد نضج تماماً في فكري، وأن صورته النهائية قد اكتملت وتكاملت في مخيّلتي شرعت بالكتابة متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، ووضعت في اعتباري أن التسلسل الزمني للأحداث المطروحة ليس مهماً، بل المهم حقاً هو الرؤى المسيحية لتلك الأحداث الإسلامية، وفعلاً فقد بدأت من حيث يجب أن أبدأ، ولا أخفي أنني كنت خائفاً وجلاً وكان القلم يرتجف بين أصابعي كارتجاف طفل صغير متعثّرٍ بخطاه في ليلة شتائية باردة.

كنت أمسك بالقلم وأكتب سطراً أو بضع سطور، ثم أقف عن الكتابة لأتأمّل فيما كتبت، فلا ألبث أن أمسك بالورقة لتتحول بين يديّ إلى مزقٍ صغيرة، ومن ثم أمسك بورقة بيضاء جديدة وأحاول الكتابة من جديد.

وكنت أتساءل دائماً:

ما السرّ في الخوف من كتابة هذا الكتاب؟

ولماذا أخاف الكتابة الآن تحديداً، مع العلم أن هذا الكتاب الذي عقدت العزم على كتابته ليس بالكتاب الأول الذي أكتبه؟

لقد كتبت ونشرت العديد من الكتب في لندن وبيروت، ونشرت الكثير من الأبحاث والمقالات، وحتى القصائد، في العديد من البلدان العربية والأجنبية، فلماذا الخوف إذاً؟!!

وأخيراً، أدركت بعض أوجه السرّ في ذلك، فأنا أكتب عن شخصية استثنائية وغير عادية أبداً، وما يزيد الصعوبة في ذلك هو أنني لست أنا الكاتب، بل الكاتب الحقيقي هو ذلك المفكر المسيحي المعاصر. وبالتالي، فإن دوري في الكتابة يأتي من خلال قيامي بدراسة وتحليل هذه الأقوال لكل أديب

أو مفكّرٍ أو مستشرقٍ من المسيحيين المعاصرين. ولو أن الكتاب يقوم على مجرد جمع ما قاله أولئك المسيحيون المعاصرون في شخصية الإمام علي عليه السلام لكان الأمر سهلاً وهيناً، ولكن الأمر ليس كذلك. فهو كتاب قائم على الدراسة والتحليل، على النقد والمقارنة، وقائم أيضاً على رصد المصادر الإسلامية التي يأخذ منها أولئك المسيحيون المعاصرون مواد وأساس كتاباتهم ومؤلّفاتهم، وكل ذلك يزيد الأمر تعقيداً وصعوبةً.

ومن أكثر النقاط التي واجهتها صعوبةً هي تلك التي تتعلق بوجهات نظر المستشرقين عن الإسلام، كرسول وكرسالة. فالبعض منهم كان غامضاً في آرائه وفي تقييمه للأمور، والبعض منهم أيضاً كان يستعين بمصادر ومراجع إسلامية ليس لها وجود أساساً!! وهذا ما كان يفعله (مرجليوث) و(غولدتزيهر) و(لامانس) وغيرهم. وقسم ثالث منهم كان أقلّ عدائية بكثير من القسم الثاني حيث اعتمد هذا الصنف منهم على الأخذ من مصادر إسلامية محددة تخدم اتجاهاً أو تياراً إسلامياً محدداً على حساب بقية الاتجاهات أو التيارات الإسلامية الأخرى. وهذا النوع من المستشرقين كان ينظر إلى الأحداث الإسلامية وإلى السيرة النبوية بعين واحدة فقط، وهذا ما كان يجعل من تقييمهم للأحداث وحكمهم عليها تقييماً ناقصاً وحكماً جائراً، ولكن بالرغم من هذا لم أكن ألوم هذه الطائفة من المستشرقين بل كنت ألقي باللوم على أولئك المسلمين الذين حشوا وملأوا كتبهم وصحاحهم بالكثير من الأحاديث والأحداث المزيفة التي لم تُوضع وتُكتب في صحاحهم ومؤلفاتهم إلا لتخدم هذا الخليفة أو ذاك الحاكم، الذي كان بحاجة إلى من يبرّر له سوء أعماله ولو عن طريق تزييف التاريخ وتشويه صورة وسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

ولهذا كنت أقول دائماً: لماذا ألوم مستشرقاً مسيحياً على ما يكتبه عن الإسلام بطريقة سلبية، ولا ألوم ذلك المسلم الذي تعمّد تشويه الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وآله من أجل إرضاء هذا الخليفة الأموي أو ذلك الخليفة العباسي؟!

وهل يُلام الذئب في عدوانه إذا كان الراعي هو عدوّ الغنم؟!

أما الصنف الرابع والأخير، فهو تلك المجموعة المتميزة من المستشرقين الذين حاولوا جاهدين أن يكونوا منصفين في طروحاتهم الفكرية وفي تحليل وتقييم الأحداث الإسلامية وفي دراسة ونقد الشخصيات الإسلامية الهامة التي لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الرسالة سواء كان ذلك الدور سلبياً أم إيجابياً.

هذا ما يتعلق بالمستشرقين في الغرب، فماذا عن المفكرين المسيحيين في الشرق؟

إن الأمر مختلف تماماً في الشرق عما هو عليه الحال في الغرب. فالمفكرون المسيحيون في الشرق، هم في المحصلة، أبناء هذا الشرق وهم أيضاً أبناء تاريخه وحاضره ومستقبله، هم أبناء آلامه وآماله وهم جزء لا يتجزأ من وحدته الكلّية.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة التي لا يستطيع أحد أن ينكرها أو أن يتنكّر لها، فإن الفكر المسيحي في شرقنا هذا هو فكر منفتح ومستنير، وهو بلا ريب فكر قائم على تقبّل (الآخر) والانفتاح عليه، وهذا ما يجعل المفكّر المسيحي المعاصر أكثر حكمة في التعامل مع تاريخ المنطقة، ومع من صنع جزءاً كبيراً من ذلك التاريخ، وأقصد بذلك الإسلام.

فالفكر المسيحي المعاصر في الشرق فكر ملتزم بالكثير من القضايا الوطنية والقضايا الإنسانية العامة. إنه فكر يدافع عن الوطن والأرض والكرامة وعن حرية الهوية وهو بذلك لا يختلف عن الفكر الإسلامي الأصيل إلا في بعض النقاط البسيطة.

وبما أن الفكر المسيحي المعاصر في شرقنا فكر أصيل وملتزم، كان لا بدّ لهذا الفكر الأصيل أن يبحث في أصالة هذه الأمة وفي جذورها وفي صيرورتها التاريخية، وهذا يعني أن يبحث المفكر المسيحي في الرسالة الإسلامية التي لعبت دوراً بارزاً وحاسماً في تاريخ المنطقة بأكملها، وربما أبعد من ذلك بكثير.

ولذلك فإن الأدباء والمفكرين المسيحيين في شرقنا العربي عموماً وقفوا موقف الدارس والباحث الحيادي في تحليلهم للكثير من الأحداث المفصلية الهامة في تاريخ ومسيرة الرسالة الإسلامية، وكانوا أقرب للأحكام الموضوعية والمنطقية النابعة من حب البحث عن الحقيقة في تقييمهم لأبرز الشخصيات المسلمة التي لعبت أدواراً حاسمة على مسرح التاريخ الإسلامي المحلي والإنساني العالمي.

فكم من مرة جلست فيها وحيداً أقرأ بإمعانٍ ما كتبه الفيلسوف والأديب جبران خليل جبران عن شخصية الإمام علي عليه السلام وعن ابنه الإمام الحسين عليه السلام، بل وعن الفكر الإسلامي الصافي والنقي الذي نادى به علناً الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام الأطهار عليهم السلام.

وكم من مرة قرأت فيها ما قاله الأديب المفكر ميخائيل نعيمة والباحث شبلي شميّل من تفرّد الإمام علي عليه السلام بصفات الكمال التي لم تجتمع في أحدٍ

سواه، لا في الشرق ولا في الغرب. فهو عليه السلام النسخة الفريدة التي لا يوجد لها مثيل ولا شبيه.

وهل أنسى تلك الليالي الحالكة والعاصفة التي كنت أقضيها مع بعض الأصدقاء بجانب الموقد ونحن نتذاكر ما نظمه الأديب والشاعر عبد المسيح الإنطاكي في فضائل الإمام علي عليه السلام وفي خصال أهل البيت المحمدي عليهم السلام ودورهم في تفعيل المبادئ الرسالية والتعاليم النبوية بين عموم المسلمين. وبالطبع لم تكن تلك الجلسات الشتائية الليلية تقتصر على استذكار أشعار الإنطاكي التي تجاوزت الخمسة آلاف بيت من الشعر العربي الأصيل، بل كنا نستذكر عن ظهر قلب أيضاً أشعار الأديب الملحميّ بولس سلامة وخليل فرحات وغيرهم من الشعراء المسيحيين المعاصرين الذين أفردوا للإمام علي عليه السلام صفحات وصفحات في دواوينهم الشعرية ومؤلفاتهم النثرية.

ولا أريد هنا أن أستعرض أسماء كل أولئك المفكرين والأدباء المسيحيين المعاصرين في الشرق الذين تحدثوا وكتبوا بعمق وصدق عن شخصية الإمام علي عليه السلام، ليس بصفته شخصية إسلامية فحسب، بل بصفته شخصية إنسانية عالمية لا تزال آثارها ماثلة بوضوح في ضمير ووجدان كل إنسان مستنير فكراً وقلباً في هذا العالم اللاهث وراء آمال الخلاص من الآلام والمعاناة التي خلقها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ولكن ما أردت قوله في هذه المقدمة القصيرة إن كل ما كتبه جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وشبلي شميل وروكس بن زايد العزيزي وجرجي زيدان وسليمان كتّاني وفيليب حتّي وأنطون بارا ونصري سلهب وبولس سلامة

وجورج جرداق وعبد المسيح الإنطاكي وسعيد عقل وجوزيف الهاشم وأمين الريحاني وخليل فرحات وأمين نخلة، وغيرهم كثير، هو في المحصلة نداء صادق وصريح إلى كل المسيحيين في العالم كي يتمثّلوا شخصية الإمام علي عليه السلام فكراً وعملاً لأن الإمام علياً عليه السلام في محصلة الأمر، هو الطريق إلى النور والخلاص، وهو الهادي الحقيقي لكل إنسان إلى الخير والحق والفضيلة. فالإمام علي عليه السلام، بالنسبة إلى أولئك المفكرين المسيحيين، ليس إماماً لكل مسلم فحسب، بل إمامٌ لكل إنسان يبحث عن خلاصه.

هذا، باختصار شديد، ما اكتشفته وما أردت قوله للقارئ الكريم. وأرجو أن أكون قد وُفقت في كل ما كتبت وفي تحليل كل ما أوردته من أقوال وشواهد مع الأخذ بعين الاعتبار الابتعاد عن لغة الانفعال السلبية ولغة الأهواء الجوفاء التي تحرف صاحبها عن لغة العقل والمنطق السليم. وكان شعاري في كل سطرٍ كتبته هو قول الشاعر إيليا أبو ماضي:

حُرٌّ ومذهب كلّ حرٌ مذهبي   ما كنتُ بالغاوي ولا المتعصّب

وكنت أسأل الله دائماً التوفيق والقبول لهذا العمل الذي شغلني طويلاً، وآمل منه سبحانه وتعالى أن يتقبله مني قبولاً حسناً.

والحمد لله أولاً وآخراً..

وحدة الكلمة وارتقاء العقول

عندما تتحاور العقول بلغة الكلمات والحروف تسقط أمام هذا الحوار لغة النار والعنف وتصمت السيوف في أغمادها، فبداية الوجود كانت من الكلمة، ومن الكلمة الطيبة وُلد التوأمان المكان والزمان، وابتدأت عجلة الحياة بالدوران وبالمسير نحو الأمام.

ومع دوران عجلة الحياة وولادة الإنسان على مسرح الوجود هبطت رسالات سماوية وانبثقت ديانات وفلسفات أرضية عديدة على امتداد الوجود البشري. ولكن ما يميز تلك الرسالات السماوية وما يجمعها سوية هو اتفاقها العلني على فكرة أن الوجود الإنساني على الأرض قد وُلد من رحم الحوار بين الله وملائكته المقرّبين، وأن المشيئة الإلهية قد اقتضت أن يجعل الله سبحانه وتعالى خليفةً له في أرضه وأن يستخلفه على مُلكه فيها بحيث يتصرّف بذلك المُلك بما يخدم وجوده، ذلك الوجود القائم على مرضاة الله وعلى إغناء مفهوم الإنسانية والارتقاء به إلى مستوى الإحساس بالقيمة الوجودية التي خُلق الإنسان من أجلها ومن أجل العمل لتحقيقها وترجمتها على أرض الواقع بشكلها العملي الصحيح والمتوازن.

نعم، نحن بني البشر نعيش على كوكبٍ كثيف يتناسب مع طبيعة أجسادنا

الترابية، وهذه الطبيعة تختلف عن عوالم السماوات اللطيفة وعن طبيعة أهلها المختلفة عن طبيعتنا وبيئتنا بشكلٍ لا يقبل النقاش أو الشك.

ولذلك، فإن الله عز وجل عندما يخاطب الخلق من خلال أنبيائه ورسله وآياته فإنما يخاطب كل كونٍ بلغة يفهمها أو يكون قادراً على فهمها واستيعابها.

فالرسل كثر والأنبياء أكثر وأكثر، وكل رسول أو نبي كان يحدّث قومه بلغتهم حتى يدركوا معنى رسالته التي جاء بها من عند مُرسلها. فما من نبيّ أو رسول بُعث في قوم إلا بُعث بلغة ذلك القوم. والاستثناء الوحيد الذي يخرق هذه القاعدة هو الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي لم يُبعث لقومه فحسب، وإنما بُعث للعالمين جميعاً، فليس هناك قوم أحق به من قوم ولا أرض أولى به من أرض، فهو صلى الله عليه وآله لكل قوم على كل أرض.

وعندما شاء الله أن يجعل محمداً المصطفى صلى الله عليه وآله خاتم الرسل والأنبياء، وكلّفه بتبليغ الرسالة الإسلامية إلى الناس كافة، فقد جعل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم كتاب خاتم الرسالات والبعثات الإلهية إلى الأرض.

وكان خطاب الله عز وجل - من خلال آخر الكتب السماوية - لأهل الأرض ولأهل السماء خطاباً واضحاً جليّاً بفضل الرسول المختصّ بحمله وترجمة أحكامه وبفضل أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين جاهدوا مخلصين من أجل إبقاء جذوته الإلهية مضيئة في قلوب وصدور المؤمنين على رغم أنف المعاندين والمتجبّرين من فراعنة الأمة وطواغيتها.

فالإمام علي عليه السلام الذي قاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله، هو القرآن الناطق الذي يبيّن للناس ما اختلفوا فيه بعد رسول الله، وكذلك الحال

بالنسبة للأئمة الأطهار عليهم السلام من ولده وولد فاطمة الزهراء (عليها السلام) بنت الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأم الأنوار القدسية الإلهية المودعة في الهياكل الترابية.

والذي يتتبع مسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مع القرآن الحكيم يستطيع أن يستنتج بكل يسر أن القرآن الكريم قد أكد على حقيقة أن الحوار هو العمل المطلوب مع كل الأطراف الإنسانية. فالحوار القرآني الذي تمثله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خير تمثل، قام على تعليم المؤمنين كيفية الحوار مع إخوانهم في العقيدة الإسلامية ومع الكافرين، ومع أهل الكتاب ومع من لا كتاب له، مع الأبيض ومع الأسود، مع الجبابرة والمتكبرين ومع المستضعفين والمساكين، لأن الحوار في نهاية المطاف هو الصورة الحقيقية لعقولنا ولما نفكر فيه مع كل ما يمكن أن يحمله هذا الفكر من سلبيات وإيجابيات.

فعندما يأمرنا الله عز وجل من خلال كتابه السماوي الأخير قائلاً: ﴿ **ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [1]، وعندما يأمرنا في مكان آخر من كتابه الكريم أن نتحاور مع أهل الكتاب وأن نجتمع معهم على كلمة سواء وهي رفض العبودية لغير الله سبحانه وتعالى وعدم الاعتراف بربوبية أحد سواه، فإنما يريد الله بذلك أن نجعل الحوار في حياتنا منهجاً وعقيدةً وعملاً، وأن يكون ذلك الحوار طريقاً عريضاً للتفاهم ولاحترام (الآخر) وعدم الاعتداء والنيل من هويته الروحية وقيمته الإنسانية.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

وما يصدق على الفرد يمكن أن يصدق أيضاً على المجتمع. فكما أن الفرد بحاجة للحوار السلمي مع الفرد الآخر ونبذ الحوار الدموي المسلح، فكذلك الحال بالنسبة للأديان والأحزاب والإيديولوجيات المختلفة وحتى بالنسبة للمجتمعات والحضارات المختلفة.

ولا ريب في أن إحدى القيم التي تتمتع بها الرسالة الإسلامية هي تلك القيمة الفكرية الداعية إلى الانفتاح على الآخرين والتلاقح معهم فكرياً وعلمياً، بل وروحياً أيضاً.

نعم، القرآن الكريم الذي يمثل دستور الرسالة الإسلامية يأمر المسلمين بفتح باب الحوار مع الإنسان (الآخر) انطلاقاً من قاعدةٍ أخلاقيةٍ راقيةٍ في انطلاقتها وفي غايتها. إنها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾[1].

فعندما ندفع بـ﴿ **بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ فإنما نقوم بعملية صهرٍ للكره أو الحقد الذي يحمله لنا الطرف الآخر، كما وأننا بذلك نقوم باستئصال الشر من صدور الآخرين عن طريق استئصاله من صدورنا، فيتحول العدو اللدود إلى وليٍّ حميم، وينقلب الحقود الغريب إلى صديق قريب، وتذوب الأضغان والأحقاد كالشمع أمام شعلة الإنسانية الممتدة بدفئها ونورها إلى أعماق صدور أبناء التراب الآدمي الناسوتي الممتزج بأطياف ورحيق العبير الإلهي الخالد.

فلا الإسلام في جوهره يدعو إلى نفي (الآخر) وتهميشه، ولا (الآخر)،

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

كائناً من كان، يستطيع أن يلغي الإسلام أو أن يقدر على إطفاء نوره كما يتصور البعض. ولا نبالغ إذا قلنا إن هناك الكثير من المفكرين المسلمين وغير المسلمين يرون في الإسلام دعوة صريحة للثورة على الجمود والتقوقع والانغلاق على الذات لأن أحد وجوه الحكمة الإلهية من الاستخلاف على الأرض هو معنى الخطاب الإلهي الجلي: ﴿جَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[١]. إذاً، فالتعارف وجه من وجوه الوجود الإنساني على الأرض لأن التعارف بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان يشكل أحد الطرق السليمة لارتقاء العقل البشري وتكامل خبراته وإغناء تجاربه في ميادين الحياة المتنوعة.

ولذلك، فعندما يقول المفكر والفيلسوف الهندي (رادها كريشنان):

«إذا ما تعالينا عن مظاهر الاختلاف بين المعتقدات والثقافات، فسنجدها جميعاً واحدة، لأن الإنسانية في جوهرها واحدة وإن تنوعت وتعددت ثقافاتها»[٢]، فإن ذلك يعني أن الثقافة ضرورة حيوية من ضرورات الوجود الإنساني، وهي بنفس الوقت أيضاً حاجة طبيعية لحفظ وتدوين ذاكرة الشعوب المختلفة مع كل ما تحمله تلك الذاكرة من عادات وأعراف وعلوم وعقائد وفلسفات وخبرات جماعية وجذور تراثية موغلة في القدم.

ولو أخذنا - على سبيل المثال - العلاقة بين ديانتين سماويتين عريقتين في وجودهما وفي الآثار الإنسانية التي خلفتاها، ونقصد بذلك المسيحية والإسلام،

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) مايكل كاريذرس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ ترجمة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٩، الكويت ١٩٩٨، ص١٥.

فسنرى أن العلاقة بين أتباع هاتين الديانتين السماويتين لم تكن دائماً على حال واحد، بل كانت العلاقة بين أتباعهما في حالة مد وجزر دائمين. وبالطبع، ليس مردّ ذلك إلى جوهر الديانتين وإلى تعاليمهما السماوية، بل كان مرد ذلك إلى الفهم الخاطئ لكثير من النقاط التي شاء البعض من الأتباع أن يسيئوا فهمها أو أن يتعمدوا التضليل والتحريف، وتشويه صورة الطرف الآخر لغايات وغايات وأهداف ومصالح قد لا تتعدّى أحياناً حدود الحفاظ على منصب أو كرسي أو واجهة اجتماعية أو مصلحة مادية.

فالله الذي يتصف بالحكمة والعلم، حتى أن من أسمائه الحسنى (الحكيم) و(العليم)، لا يمكن أن يرسل لبني البشر رسالتين متناقضتين، ولا يمكن أن يجعل محمداً المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يتبنى مواقف عدائية تجاه الرسالة الحقيقية التي جاء بها السيد المسيح عليه السلام من عند نفس المرسل.

فحقيقة الرسالات السماوية وجوهرها واحد، ولا يجوز، وفق الحكمة المنبثقة عن الحقيقة الإلهية، أن يكون هناك تعارض أو تضارب بين ما جاءت به الرسل كلها عليهم السلام أو بعضها.

ففي الإنجيل، يقول السيد المسيح (عليه وعلى والدته السلام):

«الويل لكم يا علماء الشريعة، قد استوليتم على مفتاح المعرفة، فلا أنتم دخلتم، ولا الذي أرادوا الدخول تركتموهم يدخلون»[1] وهذا يعني أنه كانت هنالك شريعة واضحة وجلية، وأن السيد المسيح عليه السلام كان يعرفها قبل أن تمتد

---

(١) العهد الجديد: إنجيل لوقا، ١١: ٥٢.

إليها يد التشويه والتحريف. فالشريعة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام هي نفس الرسالة التي حملها موسى عليه السلام لقومه، وقد أعلن السيد المسيح هذه الحقيقة وأكد على أنه مجدد للرسالات السابقة وليس مبطلاً لها، فها هو عليه السلام يقف أمام الناس ويخاطبهم قائلاً:

«لا تظنوا أني جئت لأبطل كلام الشريعة والأنبياء. ما جئت لأبطل بل لأكمل»[1].

فهو عليه السلام بذلك يقوم بعملية تجديد وتعديل للديانة السماوية السابقة بعد أن كادت معالمها الأساسية تندرس ويعلوها الغبار الذي نثرته عليها أيادي المرابين والصيارفة والتجار الذين حولوا بيوت الله إلى حوانيت ومصارف وتحول رجال الدين إلى باعة يتاجرون بكلام الله كما يتاجرون بأبخس وأنجس البضاعات والحاجيات.

ولو تركنا الإنجيل جانباً وأمسكنا بالقرآن الكريم وقلبنا صفحاته، فهل سنجد أن الكتاب يأمر أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم باضطهاد أتباع الديانات الأخرى، أم أننا سنجد أن القرآن يأمر شيعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالانفتاح على الأديان الأخرى واحترام أتباعها؟

لا شك أننا من خلال قراءتنا المتأنية له سنقع على كثير من الآيات التي تبين لنا أن الأديان ذات جوهر إلهي واحد وأن الرسل عليهم السلام لهم جوهر واحد أيضاً، فنورهم واحد وهدفهم واحد وإن تعددت المظاهر والأدوار.

---

(١) العهد الجديد: إنجيل متّى، ٥ : ١٧.

ولذلك دعونا الآن نقرأ هذه الآيات المباركة سوية، ولكن لتكن قراءتنا لها قراءة مترويّة مقرونة بالتأمل والتفكر. يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في محكم تنزيله:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ❖ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ❖ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[1].

فعند ربط هذه الآيات الكريمة بعضها ببعض نرى أن الوحي واحد والموحى به أيضاً واحد، ولذلك فإن الإسلام، الإسلام الحقيقي، في جوهره يقوم على عدم التفريق بين الأنبياء والمرسلين، بل نرى أن المؤمنين من المسلمين هم أولئك الذين يعتنقون قول الله لفظاً وعملاً: ﴿... وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ..﴾[2]. وهذا يعني بلا ريب أن المسلم الذي يرتقي إلى درجة الإيمان لن يستحق لقب (المؤمن) حتى يكون صادق الإيمان بالله ومقراً بوجود الملائكة ومعترفاً بكل الكتب السماوية السابقة، وفضلاً عن ذلك، لن يكون مؤمناً حقيقياً ما لم يعتقد بوحدة النور الإلهي المتلألئ في مقام النبوة عند كل الأنبياء والمرسلين، المتوحدين بالجوهر والمتعددين

---

(١) سورة النساء: الآيات ١٦٣-١٦٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

بالمظهر.

وبالطبع، فإننا لا نستغرب، تبعاً لذلك، أن نرى الرسول الكريم ﷺ يؤكد مراراً وتكراراً على ضرورة احترام أهل الذمة وعدم التعرض لهم أو النيل منهم.

ألم يقل (صلوات الله عليه وعلى آله): «من آذى ذمياً فقد آذاني»؟!!.

ألم يتلُ ﷺ على أتباعه ما جاءه به الوحي الأمين عن رب العرش العظيم: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1]. وبقليلٍ من التفكر ندرك أن معنى ذلك هو أن كل أولئك المذكورين في الآية الكريمة هم من أهل الأمان والسكينة والاطمئنان طالما هم بعيدون عما يغضب الله في كل ما يتعلق بجوهر العقيدة الصحيحة وبشأن صالح الأعمال التي أمروا القيام بها واجتناب ما سواها من الأعمال السيئة والمنكرات.

ولما كانت الشريعة السماوية حقيقة لا ريب فيها، فهذا يعني أن كل الشرائع التي هبطت إلينا من السماء هي شرائع تجديدية لحقيقة واحدة، تلك الحقيقة التي يقوم كل نبي مرسل بالسعي لتثبيتها، وبالعمل الحثيث لتطبيق الجانب العملي منها حتى تغدو تلك الشريعة حقيقة واقعة ونظاماً شاملاً ينظم علاقات الإنسان الخاصة والعامة مع ذاته، ومع مجتمعه، ومع خالقه. وبالتالي، فإن تجديد الشريعة الجديدة للشريعة القديمة لا يعني هدمها أو نسفها، وإنما يعني

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٢.

ذلك إزالة الغبار عنها ووضعها في إطار جديد يتناسب مع المتغيرات الحركية للحياة.

ولا أريد هنا أن أطيل الكلام عن موقف الإسلام من أهل الكتاب عموماً ومن المسيحيين خصوصاً لأن جوهر كتابنا هذا، كما هو مبين من عنوانه، يمثل صورة الإسلام الجوهري المتمثل بشخصية أمير المؤمنين عليه السلام كما يراها أرباب الفكر والأدب من إخواننا المسيحيين المعاصرين.

وقد يلاحظ القارئ الكريم أنني أكثر من استخدام عبارتي (الإسلام الحقيقي) و(الإسلام الجوهري)، وربما قادته ملاحظته إلى السؤال التالي:

هل هناك إسلام شكلاني وإسلام حقيقي يؤكد على المضمون أكثر مما يؤكد على الشكل؟ وهل هناك إسلام سطحي وآخر جوهري؟

وقد يستغرب القارئ إذا كان جوابي: نعم، هناك إسلامان.

أقول: نعم، هناك إسلامان ولكن ليس هناك شريعتان.

فالشريعة واحدة ولكن شتان ما بين من يأخذ بظواهر الأشياء ويكتفي بقشورها وما بين من يخرق قشرة الشيء من أجل الوصول إلى الجوهر الثمين والكنز الدفين.

ولا يسعني هنا إلا أن أضرب المثال التالي حتى تتوضح الصورة أكثر قبل انتقالنا إلى نقطة هامة جديدة:

شخصان يقومان بقراءة رواية تدور أحداثها حول شخصية عظيمة ونبيلة.

وما أن ينتهي الشخصان من قراءتهما للرواية نفسها حتى يبدي كلاهما

إعجابهما الشديد بأحداثها وبالشخصية الأساسية التي تمثل محور القصة ومحرك الأحداث باتجاه الغاية المنشودة والأهداف المطلوبة.

ولكن شتان ما بين إعجاب القارئ الأول وإعجاب القارئ الثاني.

فالقارئ الأول أعجبته الأحداث وأعجبته الشخصية المحورية، ولكن إعجابه بالشخصية لم يتجاوز الإعجاب بطريقة كلام تلك الشخصية وبطريقة وأناقة ملبسها وبالطريقة التي افترشت بها منزلها ومكتبها، وربما نالت السيارة التي تستقلها تلك الشخصية - بطل الرواية - إعجاب القارئ الأول واهتمامه.

في حين أن القارئ الثاني قد أعجبته أيضاً حبكة الرواية وقد أعجبته أيضاً بلا شك، تلك الشخصية المحركة للأحداث. ولكن ما الذي أعجبه في تلك الشخصية؟ بل لو طرحنا عليه هذا السؤال بشكل مباشر، فبماذا سيجيب؟

إنه سيجيب على سؤالنا المطروح قائلاً:

أعجبتني طريقة تفكير تلك الشخصية، وأعجبتني الكيفية التي تتحرك بها لتحقيق ما تصبو إليه من أهداف وقيم نبيلة.

إنني معجب بالوسائل والغايات التي تسعى تلك الشخصية للتفاعل معها ومن ثم لتحقيقها وترسيخها في محيط حركتها وفي دائرة واقعها.

كما وأن قدرة تلك الشخصية على تحويل نقاط الضعف إلى نقاط قوة وتسخير تلك النقاط من أجل دفع عجلة الأحداث للأمام لهي نقطة مثيرة للدهشة والإعجاب أيضاً.

وربما يختتم القارئ الثاني كلامه بالتعبير عن رغبته في اتخاذ تلك الشخصية

النبيلة مثلاً أعلى له، يمشي على خط سيرها محاولاً التشبه بها لتحقيق غايات نبيلة مشابهة.

ومن هذا المثال البسيط نستطيع أن نتبين الفارق الكبير بين القارئ السطحي والقارئ الحقيقي أو الجوهري.

ولا نعتقد أننا بحاجة لنربط بين مثالنا عن الرواية والقارئين، وبين حديثنا عن الفرق بين ما هو سطحي وما هو جوهري في ساحة الفكر والعمل الإسلاميين.

ولذلك، أجد لزاماً علي عندما أتكلم عن نقطة إسلامية حساسة من خلال ارتباطها بالواقع أن أشير إلى ضرورة التفريق بين القشور وبين اللب والجوهر.

فالمسلمون السطحيون - وما أكثرهم - لا يزالون بعد ألف وأربعمئة عام ونيف يجادلون ويناقشون وربما يؤلفون العديد من المؤلفات والمجلدات عن قضايا باتت من مخلفات الماضي البعيد. ولا نزال نرى الكثير منهم على شاشات القنوات الفضائية يلعنون ويشتمون وينهالون سباً على الحضارة الغربية التي تفسد عقول أبنائنا في حين أنهم هم، أولئك الدعاة، أشد خطراً على النشء الإسلامي من خطر الغرب ذاته. فالكثير منهم، كما نسمع ونرى، يحاول أن يبني دروعاً فولاذية حول صدور وعقول الشابات والشباب المسلمين لتحول تلك الدروع دون دخول أي فرع من فروع العلم إلى صدورهم ورؤوسهم باستثناء علم (الدين المسطح) والشريعة الجوفاء التي يفهمونها كما يريدون لا كما هي على حقيقتها الفعلية.

ولا تعتبر هذه الظاهرة ظاهرة جديدة على ساحة الفكر الإسلامي، أو

بالأصح على ساحة فكر أولئك الذين كانوا يدعون أنهم حماة وأهل الفكر الإسلامي. ولا نريد هنا أن نذكر بالتفصيل كيف أن الكثير من الفلاسفة وأرباب الفكر قد رُموا بالكفر والزندقة ومن ثم قطعت أوصالهم ورؤوسهم لا لشيء إلا لأنهم لم يكونوا على وفاق فكري أو حتى مذهبي مع أولئك أصحاب العقول المتحجرة و(المتسطحة) إسلامياً.

ويكفي أن أذكر مثالاً واحداً على مدى تحجّر العقل عند بعض أولئك الذين كانوا يظنون أنفسهم حملة الرسالة الإسلامية إلى أرجاء المعمورة، في حين كان معظمهم ممن يحاول أن يقوم بعملية تفريغ الشريعة الإسلامية من محتواها الروحي والفكري بل والحضاري أيضاً.

فلا أعتقد أن أي مثقف يجهل اسم صاحب مدرسة الإشراق شهاب الدين السهروردي، وبنفس الوقت لا أعتقد أن اسم صلاح الدين الأيوبي اسماً غريباً عن ذهن نفس ذلك المثقف أيضاً.

فالاسمان معروفان جيداً لكل واحد منا في مشرقنا العربي والإسلامي، وهما أيضاً معروفان جيداً عند أبناء المجتمع الغربي الممسك بزمام الحضارة اليوم بكل ثقة واعتداد بالنفس.

فالسهروردي حكيم ومتصوف فارسي الأصل ولد عام (١١٥٤م) وقد برع في العلوم الحكمية والفلسفية والفقهية والكلامية وغيرها... ونشا أول ما نشأ على مذهب (الشافعي) وتفقه في ذلك المذهب إلى درجة نالت إعجاب معاصريه من الفقهاء ورجال الدين وأرباب الدولة في كل بلد كان يحط رحاله فيه. ولكن عندما حط السهروردي رحاله في مدينة حلب التي كانت تحت حكم الملك

الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي، فقد تحول مجلسه في بداية نزوله في حلب إلى قبلة للفقهاء والدارسين والمشتغلين بعلم الكلام، والحكمة، وعلم التصوف وما شابه ذلك. وما أن مضت فترة وجيزة على وجوده في تلك المدينة حتى حدث تحول غريب.

فما هو ذلك التحول وما هو سببه؟

لقد ذكرنا أن السهروردي كان شافعي المولد والنشأة، ولكن ما أن اكتملت ملكاته العقلية وقطع شوطاً لا بأس به في مجال تحرير العقل من القيود الثقيلة التي كانت مفروضة عليه في تلك الفترة، حتى راح يبحث في أمور عقائدية وفلسفية لا تروق لفقهاء ورجال دين ذلك العصر ممن كانوا حول السهروردي يتناقشون معه حيناً ويناظرونه حيناً آخر وهذا يعني أن هناك تحولاً غير معهود في مذهب وطريقة تفكير الحكيم السهروردي.

أما النقطة الثانية، وهي النقطة التي تتعلق بالتعصب الفكري والمذهبي الذي كان يتصف بهما صلاح الدين الأيوبي، فهذا الأيوبي صلاح الدين - كما يؤكد الأستاذ سامي الكيالي - كان مبغضاً للفلاسفة وأرباب المنطق[(١)]، وباختصار شديد كان متزمتاً في حواره مع (الفكر الآخر) لأنه أساساً لم يؤمن قط بوجود ذلك الآخر حتى ولو كان من أهل الفكر والمنطق السليمين.

وعلى أية حال، فما أن وصل إلى أسماع صلاح الدين أن الحكيم السهروردي قد انحرف عن مذهبه الذي هو نفس مذهب صلاح الدين الأيوبي

(١) سامي الكيالي: السهروردي (نوابغ الفكر العربي) دار المعارف بمصر ١٩٦٦، ص٣٥.

حتى استشاط غضباً وكان رد فعله أن أرسل إلى ابنه الملك الظاهر رسالة يأمره فيها قائلاً - كما جاء في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة: «... إن هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل انه يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه»[١]. وبالفعل، فقد تم تنفيذ الحكم فيه وهو دون الأربعين من عمره، ويقال إنه رمي من أعلى قلعة حلب ثم قاموا بعد ذلك بإحراقه[٢] جزاء له لأنه قام بتحرير عقله من لجام التعصب والجمود من جهة، ولسبب آخر لا يقل أهمية عن السبب الأول، فالسبب الثاني الذي أدى إلى إصدار صلاح الدين الأيوبي الأمر بقتل فكر السهروردي قبل جسده، فهو تحوله من مذهبه - الذي ترعرع عليه إلى المذهب الشيعي القائم على احترام العقل وتبجيل المنطق وتقديس الشريعة. وقد أكد المفكر الفرنسي (يان ريشار) على هذا الكلام واعتبر أن قرار القتل الذي اتخذه صلاح الدين الأيوبي قد يكون نتيجة لاتهام الحكيم السهروردي باعتناقه المذهب الشيعي[٣]. والحقيقة، فإن هذا التصرف من صلاح الدين الأيوبي غير مستغرب لأنه هو نفسه من قام بحملة همجية شعواء فتك من خلالها بآلاف الناس الأبرياء والعلماء الكبار من أهالي مصر لا لذنب ارتكبوه إلا لأنهم كانوا من الفاطميين المخالفين له في مذهبه، حتى أنه قد عرف تاريخياً

---

(١) راجع: ديوان الإمام شهاب الدين السهروردي، تحقيق وتقديم: أحمد مصطفى الحسن، دار يعقوب د.ت ص٢٧

(٢) نفس المصدر: ص٢٨.

(٣) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطية - بيروت ط١ / ١٩٩٦، ص١٠١.

ببغضه الشديد لهم[١].

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل بلغ الأمر بصلاح الدين الذي قضى على آلاف المسلمين الشيعة في مصر أن وقف موقفاً آخر لا يمكن لعاقل أو غيور أن يتخيله، ونقصد بذلك موقفه من قضية وجود اليهود في بيت المقدس.

وهنا يحق لكل واحد منا أن يتساءل قائلاً:

إذا كان صلاح الدين قد أزهق أرواح الشيعة في مصر على الرغم من أنهم من أبناء دينه، فما هو موقفه من اليهود المعروفين بأنهم قتلة الأنبياء، وهم من أبناء دين قد حرفوه وشوهوا تعاليمه ومعالمه حتى صار أقرب إلى الديانات الوثنية منه إلى الديانات السماوية؟

فهل بلغت غيرة وروح الإيمان عند صلاح الدين أن يشهر سيفه ويفتك بأرواح اليهود المناصبين الإسلام العداء ويقضي عليهم كما قضى على الشيعة المسلمين؟!

وقبل أن أعطيك الجواب - أيها الصديق القارئ - أقول لك:

قد تنتابك قشعريرة عندما تقرأ هذه السطور القليلة القادمة، وقد تمسك بمنديلك وتمسح به من عرق جبينك من هول الصدمة. ولكن لا بأس، فالصدمة الكهربائية قد تعيد الحياة إلى جسد قد قارب مفارقة الحياة.

فهل تعلم يا صديقي القارئ أن صلاح الدين الأيوبي الذي أباد المسلمين

---

(١) الدكتور عبد الرحمن زكي: بُناة القاهرة في ألف عام، دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٩، ص١٩.

الشيعة في مصر قد أصدر عام ١١٩٠م مرسوماً دعا فيه اليهود إلى الاستيطان في القدس؟!(١)

ألا يعني ذلك أن (بطلنا) صلاح الدين هو أول من سعى وساهم في بناء أوائل المستوطنات اليهودية في القدس الشريف؟

ألم يذكر المفكر والباحث جورج طرابيشي أنه: بعد أن فتح صلاح الدين القدس، استحصل ابن ميمون - وهو طبيب صلاح الدين وكان يهودياً - لأبناء ملته على الحق في التوطن فيها، وفي فلسطين بصفة عامة؟!(٢).

وإذا كان البعض يرى في هذه البادرة مظهراً من مظاهر روح التسامح عند صلاح الدين تجاه اليهود في فلسطين، فأين كانت روح التسامح تلك في علاقته مع المسلمين الشيعة في مصر وفي كل مكان كانت تصله يده ويد قادته وجنوده؟!

وإني أعتذر من القارئ على هذا الإسهاب في الكلام عن بعض ما قام به (البطل) صلاح الدين ولكنني لم أفعل ذلك إلا لأقول إن مشكلتنا مع ذاتنا هي أننا نتعمد الخطأ في قراءتنا للتاريخ ولرجال ذلك التاريخ. فمن البديهي أن نعرف قيمة الرجال الحقيقية من خلال الحق، أي أن يكون الحق هو ميزان الرجال. ولكن للأسف، فإننا درجنا واعتدنا على أن نعرف الحق وأن نقيمه من خلال الرجال، فكان من نتيجة ذلك أن جعلنا رجال تاريخنا هم الميزان الذي بموجبه يتم تفصيل الحق كما نشاء وبالمقاييس التي نريدها، وهذا ما أدى إلى انهيار

---

(١) نبيل فياض: يوم انحدر الجمل من السقيفة، إصدار Exact بيروت - ليماسول، ط٣/ د.ت ص٧٩.

(٢) نفس المصدر: ص٧٩.

صرح الحق وسقوط عرش الحقيقة على رؤوس الأجيال المتعاقبة من أبناء أمتنا.

ومن هنا أقول إنه علينا أن لا نلوم المستشرقين ولا رجال الفكر (الآخر) الذين كتبوا عنا وعن تاريخنا بطريقة سلبية، بل كيف لنا أن نلومهم في حال كتابتهم عنا بأسلوب تهكمي لاذع أو انتقادي جارح بعد أن قمنا نحن بتشويه تاريخنا وتقديم تلك الصورة المشوهة إليهم؟

ومهما يكن من أمر، فقد روج بعض المستشرقين لتلك الأفكار السوداء عن الإسلام مستشهدين على ذلك بآلاف الأحاديث المحرفة والمدسوسة على رسول الله صلى الله عليه وآله في صحاح المسلمين وفي أسانيدهم ومختلف مؤلفاتهم التي تدعو المسلم إلى الانصياع والخنوع أمام جبروت وطغيان الحاكم المسمى بـ (الخليفة) وعدم الخروج عليه حتى ولو فعل الكبائر وقاد الأمة إلى أحضان الشيطان وإلى الهلاك المبين.

وليست فكرة الخضوع والانصياع للحاكم، أو ما يسمى بالخليفة، بأقل خطراً من فكرة الجبرية التي تبناها الخلفاء الأمويون لتبرير أعمالهم السوداء بحق المسلمين عموماً والمسلمين الشيعة خصوصاً. وفكرة الجبرية تلك التي صاغها الفقهاء المعتاشون على الفتات الذي كان يلقيه إليهم خلفاء بني أمية، كانت ولا تزال إحدى المآخذ التي يتناولها بعض المستشرقين بالدراسة والتشريح ومن ثم بالتشنيع على المسلمين قبولهم بتلك الفكرة التي تتناقض مع منطق العقل السليم من جهة ومع مبدأ العدل الإلهي من جهة أخرى.

أما لماذا وكيف استغل الخلفاء الأمويون فكرة الجبرية، فهذا ما سنعرفه عند قراءتنا لكتاب (نشأة الفكر الفلسفي) للأستاذ الدكتور سامي النشار حيث يقول

فيه: «إن انتهاء حكم الخلافة الراشدة، وانتقاله إلى الأمويين، وتسلطهم على العباد، وابتعادهم عن تطبيق العدالة الإسلامية، كان مقدمة طبيعية للحركات المضادة، مما دفعهم إلى العنف الدموي، فاحتاجوا حينئذٍ إلى تأويل بعض الآيات القرآنية التي يدل ظاهرها على الجبر لتسويغ أعمالهم والقول بأن الإرادة الإلهية اقتضت أن يفعلوا ذلك، وأنهم مجبرون في أعمالهم، أو أن تلك الإرادة هي التي قدرت أن يأتوا إلى الحكم ليفعلوا ما فعلوا»[1].

ولذلك أرى من الإنصاف عدم إلقاء اللوم بشكله الكامل على ما كتبه بعض المستشرقين عنا وعن تاريخنا الإسلامي المليء بالمتناقضات والمفارقات العجيبة، بل الإنصاف الحقيقي هو حكمنا على أنفسنا بأن الحكام الذين تقمصوا الخلافة وقاموا باستعبادنا والتحكم بمصائرنا وعقولنا ولم يوفروا جهداً في مصادرة الحريات واغتيال الحقوق وتصفية أصحاب الأصوات المعارضة لسياسات الظلم والبطش هم من قام حقاً بتمزيق الدين من أجل ترقيع الدنيا، فخسروا بذلك الدين والدنيا على حد سواء.

وغني عن القول أن سياسة الحكام التي اتبعها أولئك الحكام مع رعاياهم من المسلمين، وهي في المحصلة سياسة دموية - كما وصفها الدكتور سامي النشار- تقوم على فرض الفكرة بقوة السيف والحديد والنار وليس بقوة المنطق والعقل والحوار.

وبالطبع فإن سياسة كهذه كفيلة بأن تخلق انطباعاً سيئاً وقاتماً عند غير المسلمين تجاه تلك العقيدة الدموية التي تتنكر لأبسط قواعد وحقوق وحتى

---

(١) صائب عبد الحميد: حوار في العمق، الغدير للدراسات والنشر - بيروت ط٢/١٩٩٥، ص٧٤.

أدبيات الحوار البناء المؤسس على احترام الآراء وصيانة الحريات الشخصية التي لا تتعارض مع الأخلاقيات العامة في المجتمع.

وبتقديري الخاص، ولا ألزم القارئ بقبول هذه الفكرة واعتناقها، أن أحد أهم الأسباب التي أدت فيما مضى إلى التنافر المسيحي - الإسلامي هو قراءة المسيحيين لتاريخنا الإسلامي الذي خطته أيادي حكام الجور وسلاطين النساء وفي قصور بني أمية وقلاع بني العباس. فالذي يقرأ ذلك التاريخ المليء بالأغاليط والتناقضات الرهيبة، بل والمضحكة المبكية بآنٍ واحد، والذي سيقرأ تلك الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، فسيخرج بعدة نتائج هامة، ومن هذه النتائج العديدة إيمانه بأن الإسلام دين يدعو إلى السيف والدم وليس إلى الكلمة والرسالة الإنسانية.

وسيؤمن بلا شك بأن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله لم يكن أكثر من رجل عادي يحمل بذور الخير لتغيير مجتمعه القبلي، أي إنه صلى الله عليه وآله ليس أكثر من مصلح اجتماعي جادت به الصحراء العربية على أبنائها، بحيث لا يمكن أن يكون محمد صلى الله عليه وآله رسول السماء إلى الأرض. فسيرته وأحاديثه - كما خطتها أقلام الرواة المأجورين - لا تليق في بعض جوانبها برجل عادي يحترم نفسه، فما بالك برسول سماوي!!!

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقرأ بعض تلك الأحاديث المخجلة عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، فعليه قراءة ومراجعة كتب (الصحاح) ليتأكد من صدق كلامنا وثبوت حجتنا، أما أنا، فإنني أرفض أن أذكر شيئاً من هذه الأحاديث التي يندى لها الجبين خجلاً لأني لا أريد أساساً أن أشوِّه كتابي هذا بذكر أحاديث

زائفة مكذوبة تمس بقداسة النبي الكريم ﷺ.

ورحم الله الشيخ الجليل (محمود أبو رية) إذ إنه قال مخاطباً شيوخ الأزهر وأتباعهم الذين يهاجمون المستشرقين دون وجه حق:

«... إن هؤلاء المستشرقين الذين تنحطّون عليهم وترمونهم دائماً بأنهم يطعنون في ديننا ويشوهون ديننا وعلمنا، هم في الحقيقة لم يتجنوا علينا ولم يفتروا شيئاً من عند أنفسهم، وإنما وجدوا مادة خصبة من الخرافات والأوهام قد انبثت في ديننا ونسب بعضها - وا أسفاه - إلى النبي ﷺ فتشبثوا بها وانتقدونا من أجلها»[1].

وباختصار شديد، إذا أراد المسلمون أن يرتقوا بمستوى الكلمة الإسلامية والرسالة الإنسانية إلى المستوى اللائق من التطبيق العملي الذي أراده الرسول وأهل بيته عليهم السلام، وإذا أرادوا أن يكتب عنهم المستشرقون ما يسرّ خاطرهم بحيث تعود لدينهم الإسلامي صورته الحقيقية الناصعة التي عرفها الغرب عنهم عندما كان الغرب نفسه لا يزال يغطُّ في نوم عميق، فما على المسلمين إلا أن يعودوا إلى ماضيهم وتراثهم، وإلى الأحداث الخطيرة التي حفل بها تاريخهم ويعيدوا تحليلها ودراستها بروح موضوعية حيادية بعيدة عن التعصبات المذهبية والمصالح الفئوية. وعلينا أن نكون صادقين مع أنفسنا قبل أن نكون صادقين مع غيرنا. وحتى نحقق ذاتنا ونثبت وجودنا أمام بقية المجتمعات الحديثة المعاصرة والتي سبقتنا بأشواط كثيرة في مضمار الجري الحضاري علينا أن نطبق على أنفسنا عدة

(١) الشيخ الأزهري: محمود أبو ريّة، شيخ المضيرة أبو هريرة، دار المعارف بمصر، ط٣/١٩٦٩، ص٢٣.

نقاط هامة يمكننا أن نذكر منها بعضها :

- علينا أن نكف عن الوقوف على الأطلال والتغني بالماضي المجيد، لأن الذي يعيش في الماضي ويبقى أسيراً له، فسوف يفوته، بلا شك قطار الحاضر الذي سيوصله إلى محطات المستقبل. نعم، علينا أن نزور الماضي لنستفيد من التجارب فيه، لكن علينا بنفس الوقت أن نرفض الإقامة والعيش في أقبيته وأروقته لأن الحياة تسير إلى الأمام ولا تقبل، قطعاً، العودة إلى الوراء.

- بعد منع الوقوف على الأطلال والبكاء عليه، علينا أن نشكل محكمة عادلة تعيد فتح ملفات الماضي العربي والإسلامي دون أدنى حرج من ذلك الماضي ومن شخصياته الصانعة له. وباختصار نقول إنها المحكمة التي سيحاكم فيها تاريخنا. نعم، علينا أن نحاكم تاريخنا العربي والإسلامي على حد سواء. وعندما نقول علينا محاكمة تاريخنا فهذا يعني أيضاً محاكمة من كتب ذلك التاريخ بكل أحداثه وصوره المشوهة. فتاريخنا - وللأسف - قد خطّته يد الجلاد والطاغية مستبدلين المداد بالدماء والأقلام بالسياط والقرطاس بجلود الأبرياء الذين انتفضوا على الظلم والذل والجوع وقالوا للذين قلبوا الحقائق وبدلوا القيم حتى جعلوا التاريخ سيلاً من الأكاذيب : «لا، لن نقبل ذلك».

فعلينا إذاً، أن نضع المتهم في قفص الاتهام أولاً، ثم ندعه يعترف بكل ما اقترفت يداه من تزويرٍ للفكر واغتيالٍ للعقل وتشويه للأحداث ثانياً، وبعد ذلك نودعه السجن حتى يكفر عما اقترفه وارتكبه، وليخرج بعد ذلك، بعد أن يصلح حاله كي يمارس الحياة من جديد.

فمحاكمة التاريخ متماثلة في حركتها وحيويتها لمحاكمة الفرد. فكما أن المتهم

الذي أثبتت إدانته يودع في السجن بعد استنطاقه ونزع الاعتراف منه، من أجل إصلاحه وإعادة تأهيله حتى إذا قضى ما عليه وحسنت سيرته خرج إلى الحياة والحرية من جديد ليمارس دوره المنوط به في مجتمعه ومحيطه كفرد صالح قادر على الاستفادة من المجتمع وإفادته من خلال تفاعله الحياتي معه، كذلك يكون الحال بالنسبة لمحاكمة التاريخ ورجاله وكتبته.

إن مهمة كل مثقف مختصّ اليوم هي العمل الصادق والدؤوب على إعادة كتابة تاريخنا من جديد دون اللجوء إلى سياسة «إرضاء الخواطر» أو إلى منهج قول «نصف الحقيقة» بغية إرضاء هذا الطرف أو تلك الطائفة أو المذهب. فالحقيقة التي يمكن أن يكون لها أكثر من عمق لا يمكن أن يكون لها أكثر من وجه.

- والنقطة التالية التي علينا تطبيقها من أجل الارتقاء للأعلى وتحقيق الوجود الذي نحلم به ونتغنى بصورته المستقبلية المرسومة في أذهاننا، هي ضرورة الإقرار بأن المجتمعات العربية والإسلامية، بشكل يكاد أن يكون شاملاً، تقوم على وضع (السلطة) فوق (القانون). وهذا الأمر هو أخطر عقبة يمكن أن تواجهها أية أمة في طريق الرقي والتقدم. فالسلطة وجدت من أجل دعم وتطوير وخدمة القانون، وليس من الحكمة والعقلانية أن نقول إن القانون قد وجد من أجل حماية السلطة وخدمة أهلها.

أما النقطة التالية التي يمكن أن أذكرها هنا، ولا أقول إنها النقطة الأخيرة، فهي قضية ارتباط العروبة بالإسلام. يخطئ الكثير من الدعاة (المسلمين - العرب) في ربطهم بين الدين والقومية لدرجة أنهم يعتبرون أن القومية العربية

هي الهوية القومية للمسلم، وأن الإسلام هو دين العروبة[١]، وينسى هؤلاء أو يتناسون أن الإسلام رسالة إنسانية عامة وقد تجلت هذه الحقيقة بالقول الصادق: «إنما بعثت للناس كافة».

ولكن على ما يبدو، فإن هذا الكلام لا يروق للمتعصبين لقضية ربط مفهوم القومية العربية بالرسالة الإسلامية. وها هو أحد المؤمنين بهذه الفكرة يطلق صرخته قائلاً:

«وإذ إن العروبة هي الحقيقة القومية المطلقة للأمة العربية، والإسلام هو عقيدتها الكونية المثلى، فإن العروبة تكون هي أصل الإسلام الواحد ومصدره الأوحد وكيانه الوحيد، وإن الإسلام يكون هو روح العروبة الفرد وكنهها المفرد ومحتواها الفريد، ذلك أن القوميات هي أم العقائد وحاملتها. وأن العقائد هي وليدة القوميات ومحمولها.

الأمر الذي يقتضي، من ناحية، أن الأمة العربية هي عروبة وإسلام لا غير»[٢].

وهنا يحق لنا أن نسأل أمثال هؤلاء سؤالين بسيطين واضحين:

إذا كانت القومية العربية هي أصل الإسلام الواحد - كما تقولون - وهي كيانه الوحيد، فما هي مكانة بقية الأمم أو القوميات التي اعتنقت أو ستعتنق

(١) راجي أنور هيفا: محاكمة العقل العربي، (النور) العدد ١٠٧، نيسان ٢٠٠٠، دار النور - لندن، ص١٢.

(٢) إسماعيل العرفي: مقالة في العروبة والإسلام، توزيع دار الفكر - دمشق، ط/١٩٨٠، راجع ص١٤-١٥.

الإسلام؟!! هل وجودها واعتناقها للإسلام مجرد تحصيل حاصل، وبالتالي هل هي علاقة تبعية للقومية العربية؟!

والسؤال الثاني هو: إذا كان الإسلام هو روح العروبة ومحتواها الفريد، فأين مكانة أولئك الذين يقيمون معنا على أرضنا ويدافعون عنها وعن ماضيها، وهم غير مسلمين؟!

فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر عروبة المسيحيين في ديارنا؟

ومن ذا الذي يستطيع أن ينفي دورهم ومساهمتهم في دفع عجلة الحضارة الإسلامية للأمام من خلال مفكريهم وأطبائهم وفلاسفتهم ومترجميهم الذين نقلوا لنا الكثير من مؤلفات أهل الحضارات العظيمة السابقة؟

فالذي يضع يديه على عينيه عند الظهيرة لا يستطيع أن يقنع الآخرين أن الشمس قد غابت وقد حلّ الظلام.

فالعقل الذي ينطلق في محاكمة القضايا من أسسٍ منطقية بعيدة عن لغة الانفعال والعاطفة الجارفة سيرفض بلا أدنى شك - إذا كان ذلك العقل متفهماً لأخلاقيات الرسالة الإسلامية - فكرة أن العروبة مصدر الإسلام الأوحد وأن الإسلام روح العروبة، وذلك لأن في ذلك إجحافاً وتقليلاً لأهمية بقية الشعوب والقوميات غير العربية. فولادة الرسول الكريم ﷺ على أرض عربية، لا يعني ذلك أن تتحول العلاقة بين الأرض العربية التي وُلد ﷺ عليها وبين بقية الأراضي والأوطان إلى علاقة بين سيدٍ ومسودٍ أو إلى علاقة بين السيادة والتبعية.

والعقل المنطقي أيضاً لا يقبل أن نعمل على تهميش أو إلغاء من ليسوا بمسلمين لأنهم يقيمون معنا على نفس الأرض العربية. فهل من الضروري أن يسارع المسيحي

العربي إلى إعلان إسلامه حتى نتأكد من إخلاصه وصدق ولائه للعروبة؟!!

فلا أعتقد أن الإنسان المنصف، أياً كان دينه أو مذهبه، سيقبل ذلك.

وللحقيقة أقول إن للمفكرين والأدباء المسيحيين في الشرق فضلاً لا ينكر على الثقافة العربية في شتى مجالاتها وميادينها. ولا أبالغ إذا قلت إن الكثير من رجال الفكر المسيحي قد كتبوا عن الإسلام ورسالته، بعد دراستهم وفهمهم العميق لهما، بروحٍ موضوعية وبروحٍ إيمانية أكثر من العديد من الكتاب المسلمين الذين كتبوا عن الإسلام بروحٍ تعصبية تفتقر إلى الموضوعية وإلى الحجج والبراهين في إثبات وجهات نظرهم وآرائهم الشخصية.

وإذا كان العديد من المستشرقين قد تناولوا الإسلام فكراً ونهجاً وتاريخاً من خلال تلك الكتب التاريخية التي خطتها أقلام الرواة ورجال التأريخ الذين يأكلون من مائدة السلطان الحاكم ويضربون بسيفه ويكتبون سيرته بقلمه، فإن المسيحيين في الشرق قد وعوا وأدركوا الخطأ الذي وقع فيه العديد من المستشرقين المسيحيين في الغرب، فلم يقرأوا ولم يدرسوا الإسلام من وجهة نظر الحاكم الطاغية، بل درسوا الإسلام من خلال أهل الرسالة الذين جسدوا أخلاق وتعاليم القرآن الكريم والإرادة الإلهية من خلال أقوالهم وأفعالهم وسيرتهم التي حاول الملوك الأمويون والعباسيون طمسها وإخفاء معالمها، ولكن الله كان دائماً يأبى إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون.

وبهذا نرى أن العقول، على مختلف مشاربها وانتماءاتها، كلما سعت إلى الحقائق انطلاقاً من حبها الصادق لطلب تلك الحقائق، كلما ازدادت ارتقاءً. وكلما ازدادت تلك العقول ارتقاء، كلما ازدادت اقتراباً ولحمة من بعضها البعض. وغني

عن القول إن تلك العقول التي ترتقي بنور الحقيقة وتتقارب طلباً للحق، فإنها، بلا ريب، ستتّحد وستشرق، وعندئذٍ لن يكون هناك فرق بين أبيض وأسود أو بين عربي أو أعجمي إلا بمقدار الارتقاء والاقتراب والإشراق بنور الله.

وعند بلوغ هذه الدرجة من ارتقاء العقول المتوجهة في انطلاقتها للبحث عن الحقيقة وعن الكمال في المعاني الإنسانية، والتي ما كان لها أن تصل إلى ما تصل إليه من الاقتراب والإشراق دون فتح أبواب العقل على الطرق المؤدية للهجرة إلى الله، تلك الهجرة القائمة على السعي المعرفي والعملي بآنٍ واحد، فسوف تسقط عندئذٍ الألوان وتتهاوى، وربما تتماهى، القوميات، وتتوحد جواهر الأديان، وتتساقط القشور عن الجواهر المشيرة إلى وحدة الحق.

وإذا كان القرآن الكريم يصرح قائلاً: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾[1] للدلالة على أن اليهود قد انحرفوا عن الجوهر إلى القشور والمظهر، ومن ثم إلى الانحراف الكلي حتى أصبحوا في نفس درجة المشركين بل أشد كفراً وذلك لقتلهم أنبيائهم مثل النبي يحيى عليه السلام والنبي زكريا عليه السلام[2]، فإن القرآن الكريم يتابع قائلاً في نفس الآية الكريمة: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً**

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

(٢) راجع على سبيل المثال ما فعله اليهود بأنبيائهم عليهم السلام في:

أ) السيد نعمة الله الجزائري، قصص الأنبياء، دار البلاغة - بيروت، ط١٩٩٣/٢، ص٤٢٤-٤٣١.

ب) علي فكري، أحسن القصص، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١٩٧٥/٥، ج١ ص١٦٧.

وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١].

وهذا يدل دلالة واضحة على عمق العلاقة الروحية بين النصارى المؤمنين وبين المؤمنين من المسلمين منذ فجر الرسالة الإسلامية عندما كانت تلك الرسالة تشق طريقها بقوة الكلمة وبحرارة الإيمان المستقر في القلوب والجنان والمنعكس عملياً تبليغاً باللسان وعملاً بالأركان.

وربَّ قائلٍ يقول: ولكن النصارى قد ذكروا في القرآن في أكثر من موضع بالذم وبالنقد، فكيف نقول عنهم بأنهم مؤمنون؟

فنقول ردّاً على ذلك القول وعلى صاحب السؤال:

رويدك قليلاً، ولا تستعجل في إطلاق حكمك على الآخرين. أعد قراءة الآية الكريمة السابقة مرة ومرتين وربما أكثر حتى تتأكد من فهمك لها ولكل معنى من معانيها. ولا تغفل عن الوقوف على جزء هام منها وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ ﴾. فالله العزيز الحكيم لم يقل: «ذلك بأنهم» ولم يقل (ذلك بأنهم كلهم) بل أكد على أن منهم وليس كلهم من شرع نوافذ فكره وقلبه للأنوار المحمدية التي أكدت لهم أن عيسى المسيح عليه السلام هو رسول الله وهو كلمة الله التي ألقاها سبحانه وتعالى إلى السيدة البتول مريم العذراء عليها السلام، وأن محمد المصطفى صلى الله عليه وآله هو أخ عيسى المسيح عليه السلام بالنورانية والجوهر، وأنه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين والرسل بالتجلي والمظهر.

ونضيف إلى هذا الرد قولنا إن هناك بعض الآيات القرآنية تدلّ على أن

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

الإسلام الحقيقي ذاته إذا فرغ من محتواه الروحي والحضاري ومن مقوّماته الفكرية الأساسية، فسوف يتحوّل إلى إسلام أجوف بعيد عن الإيمان المنشود الذي أراده محمد الرسول ﷺ للمسلمين. ولعلّ قوله تعالى: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[1] هي خير مثال وخير دليل على ذلك.

وبالتالي، فإن (الأعراب) الذين يسكنون الأرض العربية ويتكلمون اللغة العربية قد ورد ذكرهم بهذه الطريقة السلبية في أكثر من موضع في القرآن. هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فإن معنى الإسلام في الآية السابقة، وهو إسلام الأعراب، يدل على أن هناك احتمالاً لوجود فاصل أو هوة تفصل بين الإيمان الحقيقي وبين الإسلام الشكلاني الذي يمكن أن يعتنقه أي شخص بطريقة ظاهرية كما فعلت الأعراب، أو كما يفعل ذلك أي شخص الآن، في هذا العصر وفي كل عصر، بحيث يعتنق الإسلام لمجرد أنه ولد من أبوين مسلمين.

أقول قولي هذا مؤكداً، عوداً على بدء، على أن ولادة الإنسان على أرض عربية وبهوية إسلامية ورثها عن أبويه لا يعني أن هذا الإنسان قد امتاز عن غيره من غير العرب قومياً، ومن غير المسلمين دينياً. بل على العكس من ذلك، فرب عربي مسلم قد عمل على اغتيال شريعة محمد المصطفى ﷺ عن طريق الفتك بأهلها وحملتها ورموزها الحقيقية، في حين أن الآخرين من غير العرب ومن غير المسلمين قد حاولوا حقاً إزالة الغبار عن وجه الرسالة الإسلامية السمحاء وإعادة البريق إليها عن طريق فضح زيف وأكاذيب وأفعال الخلفاء

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

المزيفين من جهة، وعن طريق تسليط الأضواء على حملة الرسالة الحقيقيين وأهلها من جهة أخرى، مؤكدين على أن الإسلام الحقيقي والرسالة الإسلامية الإنسانية الصادقة هي تلك الرسالة التي حملها وتناقلها وصانها أولئك الذين ارتضاهم الله سبحانه وتعالى ورثة للنبي المصطفى ﷺ من أهل بيته الغر الميامين الذين أذهب عنهم - عزّ وجلّ- الرجس وطهرهم تطهيراً.

وآخر ما يمكن أن نقوله هنا لأولئك الذين يحاولون أن يقفوا حجرة عثرة بين وحدة الكلمة الإلهية التي تدعو إلى الخير والحق والفضيلة وبين ارتقاء العقول إلى مرابع النور والرحمة: تذكروا أن الحوار الإسلامي - المسيحي - ودفعه للأمام هو أمانه عندنا وعلينا أن نصون هذه الأمانة. وتذكروا قول رسولنا الأعظم ﷺ رسول الإنسانية جمعاء من العرب وغير العرب: «ألا من ظلم معاهداً أو نقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[1]. وكلمة (المعاهد) تعني كل أهل الكتاب من المسيحيين وغيرهم، وتعني أيضاً المشركين وغيرهم من الملحدين العرب وغير العرب سواءً بسواء.

فهل هناك من إنسانية بعد هذه الروح الإنسانية العظيمة التي تضم جميع أبناء آدم تحت جناحيها؟!

وأودّ أن أذكر بنفس الوقت أيضاً أن الرسول الكريم قد خاطب سادة العرب من أبناء قومه بعد معركة (أحد) قائلاً:

---

(١) محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف - بيروت، ط١٦/١٩٨٢، ص٤٧٣.

«كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟!»[1]. وذلك بعد أن خضب أبناء جلدته العرب وجهه الكريم بالدماء بعد أن خذله كبار صحابته من العرب المسلمين.

ولنتساءل أخيراً، والسؤال ليس حراماً وليس إثماً:

من قتل ريحانتي رسول الله ﷺ وسيدي شباب أهل الجنة عليهما السلام؟

ومن هتك المدينة المنورة، مدينة رسول الله ﷺ، واغتصب فتياتها؟

ومن رمى الكعبة بالمنجنيق وأحرق أستارها؟

من فعل ذلك؟

هل فعل ذلك المسيحيون والأغراب أم المسلمون العرب والأعراب؟!!

سنحتفظ بالجواب، وسنبدأ بالكتاب الآن.

وها قد بدأت رحلتنا..

فمن كان له عينان فليبصرْ، ومن كان له أذنان فليسمعْ..

---

(١) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان - بيروت، ص٥١٥.

لماذا علي عليه السلام؟

لا ريب في أن هناك عشرات الكتب، بل ربما أحياناً مئات الكتب التي تكتب سنوياً عن الإسلام بأقلام مسيحية، سواء كنت تلك الأقلام المسيحية من الشرق أم من الغرب.

ولا ريب أيضاً في أن هناك تبايناً جلياً بين وجهات نظر أولئك المفكرين المسيحيين تجاه العقيدة الإسلامية وتجاه السيرة النبوية ذاتها.

وبغض النظر عن تلك التباينات في وجهات النظر المسيحية، إلا أننا نستطيع أن نقول إن جهل المسيحيين الغربيين بطبيعة الإسلام الحقيقي جاء نتيجة لعدة عوامل مهمة، ومن هذه العوامل: الظروف السيئة التي عاشتها الكنيسة في الماضي وانشغالها عن غيرها بانشقاقها على ذاتها وبصراعاتها الداخلية الدامية.

أما العامل الثاني، فهو الدراسات الاستشراقية غير النزيهة التي قام بها بعض المستشرقين - وليس كلهم كما أوضحنا سابقاً - وذلك لأغراضٍ استعمارية ولأهداف عقائدية العداء في منطلقاتها وفي غاياتها. وخير مثال على ذلك، المستشرق البلجيكي (هنري لامنس١٨٦٢-١٩٣٧)، صاحب المؤلفات الشهيرة مثل: (مهد الإسلام)، (مكة قبيل الهجرة)، (الطائف قبيل الهجرة)،

(الإسلام)، إلى غير ما هنالك من أبحاث ومؤلفات فكرية أخرى. فالمستشرق (لامنس) خير مثال على المستشرقين الذين ناصبوا الإسلام العداء من خلال مؤلفاتهم، حتى أنه كان يذكر في مؤلفاته عن الإسلام أسماء مراجع ومصادر غير موجودة مطلقاً[١]، وذلك لتضليل القارئ المسيحي ولإعطائه فكرة مشوهة عن الإسلام وعن حقيقة رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وآله. وبالطبع، ليس (لامنس) هو المثال الوحيد المعبر عن الروح العدائية تجاه الإسلام، بل هناك أيضاً المستشرق الفرنسي (فانتور) الذي لعب الدور الرئيسي في غزو نابليون بونابرت لمصر، وهناك المستشرق الإسباني المعروف (ريموند مارتيني)، صاحب كتاب (خنجر الإيمان في صدور المسلمين واليهود)، وهناك غيرهم أيضاً من المستشرقين الذين لعبوا دوراً هاماً وأساسياً في تعميق الهوة وتحطيم جسور التقارب بين المسيحية والإسلام، وتفهم كل منهما لإرادة وفكر الطرف الآخر. وقد عبّر المفكر الفرنسي المعاصر (مارسيل بوازار) عن هذه الفكرة بقوله في كتابه القيم (إنسانية الإسلام): «... وقد حكم المسيحيون على الإسلام لضعفهم الفكري وجهلهم، حكمهم على الرسالات السماوية السابقة والأديان القائمة... وسرعان ما أدت الدعاية والخوف الناشئ عن جهل الناس إلى انتشار أفكار وبقائها رائجة بالرغم من أن التجربة السياسية قد أكدت بطلانها»[٢]، وهذا ما أكده أيضاً الباحث والطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) في كتابه الذائع الصيت

---

(١) حامد حسن: وجهاً لوجه أمام التاريخ، مطبعة عكرمة - دمشق، ١٩٩٢، ص٥٩.

(٢) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقية، منشورات دار الآداب - بيروت، ط١/١٩٨٠، ص٧٩.

(دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة والعلم)، بقوله: «إن الأحكام المغلوطة التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه العامد حيناً آخر. ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة، تلك التي تخص الأمور الفعلية. وإذا كنا نستطيع أن نغفر أخطاءً خاصة بالتقدير، فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافي الحقيقة»[1].

أما العامل الثالث، فهو حالة الصراع بين الشرق والغرب تحت ظلال ما سمي بالحروب الصليبية، أو ما اصطلح عليه في الغرب باسم (الحروب المقدسة)، وهو ما أوضحه المفكر (ستيفن رنسيمان) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) المؤلف من مجلدين ضخمين، حيث بيّن من خلال كتابه المذكور نشوء فكرة الحرب المقدسة، واتخاذها الطابع العملي الهادف إلى توحيد جهود السلطات الكنسية من أجل قتال جماعة المسلمين، أو ما يطلق عليهم في الغرب اسم (الكفرة)[2]. وبالطبع، فإن هذه الحروب التي اتخذت الدين ستاراً لها في بعض وجوهها، كانت كفيلة بزرع بذور الشقاق والتباعد بين الجانبين ربما لقرون عديدة ودون تكليف العقل لاحقاً عناء التفكير بالعودة إلى فتح قنوات جديدة للاتصال مع الطرف الآخر وتفهم أيديولوجيته الكاملة والوقوف على حقيقة أمره وأهدافه.

---

(١) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة والعلم، دار الأفكار - بيروت، ط١/١٩٦٧، ص١٣٧.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د. السيد الباز العُرَيني، دار الثقافة - بيروت، ط١/١٩٦٧، ج١ ص١٣٧.

ولكن بالرغم من كل ذلك، نرى أن هناك عدداً لا بأس به من المستشرقين الغربيين ومن المفكرين والأدباء المسيحيين في الشرق قد كتبوا عن الرسالة الإسلامية بروح موضوعية تتناسب مع مدى اطلاعهم على هذه الشريعة وعلى سيرة نبيها ورجالها وأعلامها الأوائل.

ونعود هنا للتأكيد ثانية على أنه في حال أن أحداً ما من أولئك المفكرين المسيحيين أو المستشرقين قد كتب شيئاً سلبياً عن الرسالة الإسلامية أو عن بعض أعلامها، معتمداً في ذلك على ما نقله هو عما دوّنه المسلمون أنفسهم في صحاحهم وفي كتبهم التاريخية والتراثية، علينا أن لا نلوم ذلك المفكر أو المستشرق المسيحي، بل علينا أن نلوم أنفسنا على ذلك، وعلينا أن نلوم، بنفس الوقت، تلك العقول السقيمة التي لا تزال، إما لضعفها أو لتعصبها الأعمى، تعتبر أن أبا هريرة هو سيد رواة الحديث النبوي الشريف، وأن معاوية، وما أدراك ما معاوية، هو أحد كتّاب الوحي!!!

وعلى كل حال، ما نريد قوله الآن، في محضر حديثنا عن كتابات أولئك المفكرين المسيحيين حول الإسلام وحول سيد تلك الرسالة الغراء، سيدنا محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وآله هو أننا نادراً ما نقرأ لهم مديحاً للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله إلا ونقرأ لهم أيضاً، بنفس المكان، مديحاً مماثلاً لأخيه وابن عمه، وصنوه بالنورانية، الإمام علي المرتضى، أمير المؤمنين عليه السلام، حتى كأن ذكر محمد صلى الله عليه وآله هو بالضرورة ذكر علي عليه السلام ذاته.

ومن هنا ينبثق السؤال الجوهري التالي:

لماذا نرى في كتابات كبار المفكرين المسيحيين أن ذكر الإمام علي عليه السلام

مقرون دائماً بذكر الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أكثر بكثير جداً من بقية أصحابه، هذا إذا لم نقل إن ذكره صلى الله عليه وآله، قد أطفأ ذكرهم كما تطفئ الشمس بنورها الذاتي تلك الكواكب التي تستمدُّ النور من غيرها وليس من ذاتها؟!!

لا شك في أن الجواب ماثل أمامنا في الصفحات القادمة من هذا الكتاب، ولكن يمكن القول دائماً إنه لا يستطيع أحد أن يجرؤ على الإمساك بالقلم والاندفاع للكتابة عن شخصية مرموقة دون دراسة تلك الشخصية دراسة عميقة تتناول الكثير من جوانب حياتها وميادين أفكارها، ومن ثم آثارها التي خلّفتها على الأجيال المعاصرة لها واللاحقة بها.

هذا يصحُّ دائماً بالنسبة للكتابة عن شخصية متميزة لها دورها الفعّال في واحدٍ من جوانب الحياة أو في ميدان من ميادين الفكر، فما بالك بشخصية عظيمة مثل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي أعطى الحياة نفسها معانٍ جديدة أكثر سمواً ونبلاً، وكان في كل قولٍ له وفي كل حركة منه تجديد حقيقي لمعاني الحياة وكشف للقيم المعرفية الدينية التي حملتها الرسالة الإسلامية للبشرية طولاً وعرضاً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

ولذلك فمن الطبيعي جداً عندما يقدم أي كاتب على الكتابة عن صاحب الرسالة الإسلامية، خاصة إذا كان ذلك الكاتب حيادياً وموضوعياً أو غير منتمٍ للديانة الإسلامية، فإنه سيسهب في البحث والتنقيب والتدقيق في كل شاردة وواردة تخصّ سيرة ذلك الرسول صلى الله عليه وآله حتى يعطي لقارئ كتابه انطباعاً قوياً أنه قد أحاط علماً ومعرفةً بالجوانب التي قصد الكتابة عنها في تلك الشخصية العظيمة.

وعلى سبيل المثال، عندما يمسك أحد الباحثين القلم ويكتب عن حياة شخصية لها وزنها في التاريخ المعاصر، ولتكن تلك الشخصية (المهاتما غاندي) على سبيل المثال، فإن ذلك الباحث إذا لم يحترم نفسه ولم يحترم معنى كلمة (باحث) وغاية تلك الصفة التي يحملها، لن يقدم على كتابة كتابه ما لم تتوفر له أكبر كمية ممكنة من المعلومات والمعطيات الصحيحة التي تتناول سيرة حياة غاندي بدءاً من ولادته وحتى وفاته، كيف كانت طفولته، وأين تلقى علومه ومن كان أصدقاؤه المخلصون، ومن كان أعداؤه، وكيف بدأ نشاطه السياسي، وما هي أهدافه وماذا حقق من هذه الأهداف، وما هي الآثار التي خلفها وراءه؟. وإلى غير ما هنالك من دقائق الأمور التي تفيد الباحث في تقديم بحثه للقارئ بصورة موضوعية ومقنعة بحيث يتم إغناء فكر القارئ بمعلومات وحقائق لم يكن على اطلاع عليها من قبل، وربما يقوم بتصحيح معلومات هامة وجوهرية كانت منطبعة في ذهن القارئ عن تلك الشخصية العالمية بشكل خاطئ مجانبٍ للصواب.

وهذا ما حدث مع العديد من الباحثين المسيحيين الباحثين عن الحقيقة، الذين جنّدوا عقولهم وشحذوا هممهم وجعلوا طلب الحق شعارهم عندما أرادوا أن يدلوا بدلوهم في التعبير عن المعاني السامية التي نادى بها رسول السماء صلى الله عليه وآله وسلم وعمل من أجل تحقيقها على الأرض.

ولكن، بنفس الوقت، كان هناك دائماً سحر إلهي خاص وجاذبية قدسية متميزة تجذبهم للحديث عن ذاك السحر والجاذبية في معرض حديثهم عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعن رسالته، ولم يستطع أحد منهم أن يفلت من حقل

تلك الهالة القدسية المرافقة للحديث عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله في كل حركة من حركاته وسكناته، لم يكن ذلك السحر الإلهي وتلك الجاذبية القدسية الآسرة غير الحديث عن أخ المصطفى صلى الله عليه وآله وابن عمه وزوج ابنته ووالد سبطيه وريحانتيه في الدنيا والآخرة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولو وقفنا أمام كل مفكر أو باحث مسيحي ممن كتبوا عن سيرة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله عموماً، وعن الإمام علي المرتضى عليه السلام خصوصاً، واستنطقناهم سائلين:

لماذا الإمام علي عليه السلام؟!!

أو بتعبير آخر: ماذا وجدتم في شخصية الإمام علي عليه السلام حتى كتبتم عنها دون غيرها على الرغم من أنه لم يكن رسولاً مرسلاً كالسيد المسيح أو كالنبي المصطفى عليهما السلام؟

لا شك في أننا لا نملك الحق في الإجابة نيابة عنهم، ولكن الذي يملك الحق في الإجابة عنهم حقاً هو ذلك الكم المميز من كتبهم التي خطتها أقلامهم المحايدة عن شخصية الإمام عليه السلام.

فهم بلا ريب، وكما ذكرنا سابقاً، قد غاصوا في كتب التاريخ وفي مؤلفات الرواة، وحتى في الكثير من دواوين الشعر العربي، باعتبار أن الشعر ديوان العرب، ثم أعملوا فكرهم واستخدموا نور بصائرهم إلى جانب نور أبصارهم في تدقيق وتمحيص الأحاديث والروايات الواردة عن أهم وأدق الأحداث المفصلية الهامة في تاريخ الرسالة الإسلامية، أي منذ ولادة الرسالة وحتى ما بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. ولا ريب أيضاً في أنهم قد استطاعوا بعد أن اجلسوا

العقل على كرسي القاضي وأخرجوا العاطفة من محكمة العقل، أن يميزوا الأحاديث التي قالها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله حقاً من الأحاديث التي وضعت على لسانه في أوائل عهد المحنة الإسلامية الثانية، محنة استلام الأمويين للحكم وتحكمهم بالعبادة وتسلطهم على الرقاب، وهي المحنة الثانية التي أعقبت محنة الإسلام الأولى، ونقصد بذلك الاجتماع في سقيفة بني ساعدة الذي أدى إلى حرف الإسلام الذي جاء به المصطفى صلى الله عليه وآله عن مساره الصحيح وعن غاياته الإلهية المنشودة.

وبعد أن انتهى أولئك المفكرون المسيحيون من عملية التحقيق والتدقيق وسمحوا للعقل بالنطق بالحكم، وقف ذلك العقل المسيحي المحايد ليطلق حكمه قائلاً:

إذا كان مفهوم الإسلام قد ارتبط بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وآله، فإن مفهوم الإيمان قد ارتبط بولاية الإمام علي عليه السلام[1].

---

(١) سنلاحظ لاحقاً أن اقتران مفهوم الإيمان والحق بعلي عليه السلام واقترانه بهما هو جوهر العديد من مؤلفات المسيحيين من أمثال: بولس سلامة وخليل فرحات وجورج جرداق وسليمان كتاني وروكس بن زايد العزيزي وعبد المسيح الإنطاكي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونصري سلهب والفيلسوف الألماني يوهان ثموته والمستشرق الفرنسي هنري كوربان والفيلسوف الإيرلندي توماس كارليل، وغيرهم من مسيحيي الشرق والغرب، وذلك انطلاقاً من صدق إيمانهم بحقيقة قول الرسول صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث العظيمة في بيان فضائل علي عليه السلام ومكانته الفريدة المتميزة، كأقواله صلى الله عليه وآله المشهورة في كتب السنة، والتي استشهد بها العديد من المفكرين المسيحيين المذكورين أعلاه في مؤلفاتهم ودواوينهم الشعرية إيماناً منهم بحقيقة معناها. ونصُّ الأحاديث النبوية الأكثر شهرةً والتي تتعلّق بضرورة موالاة علي عليه السلام هي قوله صلى الله عليه وآله لأصحابه: «هذا المُقبل - أي الإمام علي- حجّتي على أمتي يوم القيامة».

←

والحقيقة، إن هذه النتيجة التي خرج بها المفكرون المسيحيون لم تأت من فراغ ولم تبن على أوهام، بل أتت من حقائق ثابتة مبنية على أسس راسخة وحجج مقنعة لا تقبل الرد أو الطعن. ويكفي أن نقول إن المفكرين والأدباء المسيحيين لم يأتوا بحججهم القوية إلا من القرآن الكريم أولاً، ومن الأحاديث النبوية الشريفة ثانياً.

وعلى سبيل المثال، ماذا سيقول الباحث المسيحي عندما يقرأ ما نقله أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: «حبك إيمان، وبغضك نفاق، وأول من يدخل الجنة محبك وأول من يدخل النار مبغضك»[1]؟!!

وماذا سيقول أيضاً عندما يقرأ ما نقله أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما قال أمام أصحابه: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب»[2]؟!

بل، وما هو الموقف الذي سيتخذه عندما يقرأ عشرات الأحاديث النبوية

راجع الجزء الثاني من كتاب (الرياض النضرة) للمحبّ الطبري. مطبعة الاتحاد المصري، الطبعة الأولى ص١٩٣.

أو كقوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «يا علي أنت وليّ كل مؤمن بعدي». راجع كتاب (كنوز الحقائق) للحافظ زين الدين المناوي الشافعي، مكتبة الزهراء، القاهرة ١٩٨٥ ص١٩٣.

هذا بالإضافة إلى الكثير من الأحاديث النبوية الأخرى والتي يضيق المكان هنا بذكرها، ولكن سنذكرها لاحقاً في مكانها المناسب من هذا الكتاب، وغنيٌّ عن القول إننا سنتوقّف سوية في محطة خاصة ومستقلة مع حديث (الغدير) الذي بلغت شهرته الآفاق لنرى كيف كانت رؤية الفكر المسيحي المعاصر لذكرى ذلك اليوم الأغرّ الخالد.

(١) توفيق أبو علم: الإمام علي بن أبي طالب، دار المعارف بمصر، ط١٩٨٦/٢، ص٧١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٧٥.

الشريفة التي قيلت في أهل البيت عليهم السلام عموماً، وفي علي أمير المؤمنين خصوصاً؟!

ثم، لو أن ذلك الأديب أو الباحث المسيحي وقف وتمعن في قراءة تفاسير معظم الآيات القرآنية الشريفة التي تخاطب المؤمنين، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾[1]، ألن يرى فيها الشيء العجيب والمثير نتيجة تبيان الله سبحانه وتعالى لفضائل الإمام علي وأهل بيته الأطهار الكرام عليهم السلام؟!

وعلى أية حال، دعونا الآن - أيها الأحبة القراء - نقوم بجولة خاطفة جداً مع باقةٍ صغيرة من الأحاديث الهامة التي جاءت تصف مكانة الإمام علي وأهل بيته عليهم السلام، والتي كان لها الدور البارز في جعل الكتّاب المسيحيين يشمّرون عن سواعدهم ويجاهدون بأقلامهم ومدادهم من أجل إجلاء الغبار عن وجه بعض الحقائق الهامة، ومن أجل مساندة الحق منطلقين في ذلك من قول رسول الإنسانية الكريم، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله: «مداد العلماء خير من دماء الشهداء» ومن قوله المشهور أيضاً: «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء»[2].

وانطلاقاً من ذلك، فما من مفكر مسيحي إلا وكان له رأي خاص مبني على عدة عوامل، ومن هذه العوامل جملة الأحاديث النبوية الشريفة المنتشرة في كتب السنة والشيعة على حدٍّ سواء. ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة بشأن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٣ وغيرها.

(٢) محمد رضا الأنصاري: مختارات من الأحاديث النبوية، منشورات معاونية العلاقات الدولية، طهران/١٩٨٦، ص١٥.

مكانة الإمام علي وأهل بيته الكرام عليهم السلام يمكننا أن نذكر هذه الباقة الصغيرة منها، والتي أخذناها من كتب السنة، وكان لها الدور البارز في دراسة وتحليل واستنتاجات المفكرين المسيحيين عن المكانة الحقيقية للإمام علي عليه السلام.

فقد روى الحافظ أبو جعفر أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري في كتابه (الرياض النضرة) أنه قال: وعن أبي بكر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله خيم خيمة وهو متكئ على قوسٍ عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، فقال: «معاشر المسلمين، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد، طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقي الجد، رديء الولادة»[١].

أما الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي فينقل لنا في كتابه (إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى) أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وتكون عترتي أحب إليه من عترته، وأهلي أحب إليه من أهله، وذاتي أحب إليه من ذاته»[٢]. وأورد الصبان الشافعي في كتابه المذكور، أيضاً، قوله صلى الله عليه وآله: «من أبغض أهل البيت فهو منافق»[٣].

ولا ريب في أن أولئك الباحثين والمفكرين المسيحيين قد قرأوا الكثير مما جاء

---

(١) الحافظ أبو جعفر أحمد بن عبد الله (المحب الطبري): الرياض النضرة، مطبعة الاتحاد المصري، ط١، ج٢ ص١٩٩.

(٢) الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي: إسعاف الراغبين (بهامش كتاب نور الأبصار للشيخ الشبلنجي الشافعي)، دار الفكر - بيروت، د.ت ص١٢٣.

(٣) راجع: أ) نفس المصدر السابق: ص١٢٣.

ب) تقي الدين المقريزي: معرفة ما يجب لآل البيت النبوي، دار ذو الفقار - بيروت، ص٢٣.

في كتاب (نور الأبصار) للشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي الشافعي حيث روى عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قوله الشريف: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا من مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة... ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة»[1].

ولو تركنا كتاب (نور الأبصار) جانباً، وأخذنا كتاباً آخر، وليكن كتاب (إحياء الميت بفضائل أهل البيت) للحافظ جلال الدين السيوطي، فماذا سيجد الباحث المسيحي فيه؟ سيجد فيه قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لعموم المسلمين: «الزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله تعالى وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمل عمله إلا بمعرفة حقنا»[2].

ومما لا شك فيه أيضاً هي تلك الدهشة التي ستعتريهم عندما تقع أبصارهم

(١) الشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، دار الفكر - بيروت، ص١٢٧.

(٢) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: إحياء الميت بفضائل أهل البيت، نشر منظمة الإعلام الإسلامي - طهران، ١٩٨٨، ص٤٦.

على العديد من الأحاديث النبوية الشريفة الأخرى التي تحمل الكثير من المعاني الروحية العميقة والتي أشار الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من خلالها إلى أهل بيته عليهم السلام الذين ثبت لهم حقاً أنهم منبع الهداية والحكمة والجود وسبب كل موجود[1]، غير أن مصدر دهشتهم تلك ليس من طبيعة تلك الأحاديث النبوية فقط، بل من معرفتهم أن هناك العديد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين الذين لا يزالون في حالة سعي دؤوب لوضع غرابيلهم أمام ضوء الشمس في محاولات يائسة لإطفاء نور الحق بأفواههم وأقلامهم على الرغم من معرفتهم بوجود هذه الأحاديث المتفق عليها عند كل المسلمين، على مختلف مذاهبهم ومشاربهم، وانتشارها واشتهارها في كتبهم.

ولكن سرعان ما سيدرك أولئك الباحثون المسيحيون أن تلك الزمرة من المفكرين المسلمين يدخلون ضمن دائرة قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحبني، ولا يحبني حتى يحب ذريتي»[2]. ولا شك في أن المنتقص لمقامهم الكريم والكاتم لفضلهم العظيم هو من المبغضين لهم، بل وللرسول نفسه صلى الله عليه وآله، وبالتالي فهو من المنافقين الذين يدعون حب النبي صلى الله عليه وآله.

وكما وعدنا القارئ الكريم بعدم الإطالة عليه، فها نحن قد قدمنا إليه باقة صغيرة جداً من الأحاديث النبوية الشريفة حول مقام ومكانة آل بيت النبوة

---

(١) الشيخ كاظم حمد الأحسائي النجفي: السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، مؤسسة الهادي - بيروت، ١٩٩٩، ص٦٢.

(٢) السيد مرتضى الفيروزآبادي: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٤١٣، ج٢ ص٨٠.

ومهبط الملائكة ومعدن الرسالة. أما الآن فإننا سننتقل إلى نقطة جديدة وحساسة، ولكن قبل أن ننتقل إلى تلك النقطة الجديدة، سأتوج هذه الباقة من الأحاديث النبوية بزهرة نبوية كريمة لا يمكن لعبيرها أن يزول أو يندثر مع الأيام والدهور. وما هذه الزهرة النبوية العطرة غير قوله الشريف: «إنما مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له»[1]. وللإنسان أن يختار إما أن يلجأ إلى السفينة مع نوح وإما أن يأوي إلى الجبل الذي ظن ابن نوح أنه سيعصمه وينجيه من الأمواج والأهوال.

أما بالنسبة للنقطة الجديدة التي سنطرحها الآن بين أيدينا هي فكرة العلاقة الوثيقة القائمة بين أهل البيت عليهم السلام كوحدة كلية متكاملة، وبين علاقة كل منهم بالآخر كوحدة جزئية مستقلة.

وحتى لا نشتت أفكارنا يميناً وشمالاً، وحتى لا نرسلها بعيداً إلى عوالم الظنون، نستطيع القول إن كلام وأشعار المسيحيين التي سنعرضها ونشرحها قريباً تدل على أنهم قد وعوا وأدركوا حقيقة هامة كانت قد غابت حتى عن أذهان الكثير من المسلمين ممن قد كتبوا عن تلك العلاقة بين الوحدتين، الوحدة الكلية والوحدة الفردية المستقلة.

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) الحافظ نور الدين بن علي بن أبي بكر الهيثمي: مجمع الزوائد، مكتبة القدسي - مصر، ١٣٥٢هـ، ج٩ ص١٦٨.

ب) الحافظ جلال الدين السيوطي: إحياء الميت بفضائل أهل البيت، مصدر سابق، ص٥٣.

فالعلاقة بين الوحدتين علاقة وثيقة جداً بحيث لا يمكن وضع حد فاصل إلا على سبيل التمييز في اللفظ فقط. فالكلام عن أهل البيت عليهم السلام عموماً هو كلام عن محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، بل عن وجميع أئمة أهل البيت، إمام تلو إمام. والعكس أيضاً صحيح، لأن الكلام عن الإمام علي أو عن الرسول محمد أو عن فاطمة الزهراء أو عن أحد أولادها من الأئمة الكرام هو حديث عن هؤلاء جميعاً دون استثناء. فكل واحد منهم عليهم السلام أمة في إمام.

ويمكننا فعلاً أن نلاحظ ذلك وأن نقف على هذه الحقيقة الثابتة عند الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إذ إنه بيّن في الكثير من أحاديثه النبوية الشريفة أنهم وحدة جوهرية كلية لا تنفصم عراها أبداً، وأنهم هم وحدهم عليهم السلام لا يقعون تحت أي مقياسٍ، وليس لهم أي شبيه وهم خارجون عن نطاق أي مقارنة، وهذا ما عبر عنه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بقوله: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»[1].

وعبارة (لا يقاس بنا أحد) تعني هنا أنهم لا يندرجون تحت أي مقياس من المقاييس البشرية أبداً.

ولذلك فعندما يقول أمير البيان وتاج الإيمان، الإمام علي عليه السلام: «أنا من رسول الله كالضوء من الضوء»[2]، فهذا يعني أن الذي يريد أن يفصل بين هذا

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، مكتبة الزهراء - القاهرة، ١٩٨٥، ص١٥٨.

ب) محبّ الدين الطبري: ذخائر العقبى، مكتبة القدسي بمصر، ١٣٥٦هـ، ص١٧.

(٢) راجع مثلاً:

أ) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، تحقيق: د. صبحي الصالح، دار الكتاب ←

النور الواحد يكون كمن يريد أن يفصل ذات الشيء عن الشيء، أو الماهية عن الهوية، وهذا محال.

فلا يمكن، بالنسبة لمن وعى حقيقتهم الواحدة، أن يفصل في حديثه عنهم بين وحدتهم من جهة وبين وحدة أهدافهم وغاياتهم السامية من جهة ثانية على الرغم من اختلاف أدوارهم وتنوعها.

فهم عليهم السلام ، كما بيّن لنا ذلك الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، نور واحد من أجل هدف واحد، حيث قال عليه السلام: «نحن الآخرون ونحن الأولون، ونحن النور بنور الروحانيين، ننور بنور الله ونروح بروحه، فينا مسكنه وإلينا معدنه، والآخر منا كالأول والأول منا كالآخر»[1]، فدل بذلك على أنهم بأجمعهم حقيقة نورانية واحدة مودعة في هياكل آدمية ترابية، آخرهم كأولهم، وأولهم كآخرهم، متصلون في عالم الأنوار، متعددون في تحمل المسؤوليات وممارسة الأدوار.

ورب قارئ يتوقف عن قراءة ما بين يديه الآن ليتساءل بغرابة: وهل وصل بعض المسيحيين فعلاً إلى شيء من هذه الحقائق بشكل مباشر أم أنهم وصلوا إليها بالتدريج بعد عناء ومشقة وجهد بليغ؟

المعاصر - بيروت، ص٤١٨.

ب) الدكتور عمر موسى باشا: نهج البلاغة من مرآة القرآن، وهي عبارة عن مقال منشور في كتاب بعنوان (نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر) لمجموعة من المفكرين والأدباء، طبع المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق. إصدار عام ١٩٩٣، يرجى قراءة المقال بالكامل لما فيه من فائدة كبيرة.

(١) الشهيد حسن الشيرازي: كلمة الإمام الحسن عليه السلام، مؤسسة الوفاء - بيروت، ص٢٩.

والجواب البديهي الذي يتوقعه القارئ هو أنهم قد توصلوا إلى الكثير من هذه الحقائق بعد عناء طويل وجهد بليغ، ولكن يمكننا أن نضيف إلى هذا الجواب المتوقع أن ذلك الباحث المسيحي الذي صمم على الوصول إلى ما تصبو إليه نفسه في نهاية بحثه لم ينطلق -كما ذكرنا سابقاً- من فراغٍ أو من أوهام، بل انطلق بادئ ذي بدء من دراسة التراث الإسلامي، وربما في بعض الحالات أيضاً من دراسة الكتاب المقدس ذاته، بشقيه المعروفين باسم العهد القديم والعهد الجديد. فالعديد من أولئك المفكرين المسيحيين قد انكبوا أولاً على دراسة العهدين، القديم والجديد ولا بد أنهم قد توقفوا مطولاً عند بعض النقاط المهمة التي تستدعي الوقوف والتأمل باعتبار أن تلك النقاط تحمل إشارات واضحة لديانة لاحقة ستأتي كخاتمة لكل الرسالات السماوية السابقة، وسيبلغها رسول قوي وحكيم وسيكون هذا الرسول هذه المرة من نسل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وليس من نسل أخيه إسحاق عليه السلام.

وفي واقع الأمر، لو أننا وقفنا عند بعض هذه الإشارات الواردة في الإنجيل حول مجيء رسول جديد بديانة جديدة، لاستطعنا أن نفسرها بطريقة منطقية كما فسّرها بعض المسيحيين المستنيرين الذين اعتبروا أن هذه الإشارات هي نقطة الانطلاق الأولى للبحث في نشأة الإسلام وفي حقيقة الرسول الجديد القادم وفي حقيقة أهل بيته الأبرار الذين يمثلون منار الهدى ومصابيح الدجى وسفينة نوح وباب حطة.

وعلى سبيل المثال، يقول سيدنا عيسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل ومذكراً إياهم بما قد ورد في كتابهم: «أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه

البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه»[1].

وهنا، لنا أن نقدح زناد فكرنا متسائلين عن مجموعة معانٍ وردت في القول المذكور للسيد المسيح عليه السلام:

ما هو الحجر المرفوض في عملية البناء تلك؟

وربما كانت الصيغة الأكثر صواباً لنفس السؤال هي: من هو ذلك الحجر المرفوض؟

وكيف يصبح ذلك الحجر المهمل رأس الزاوية في البناء، وما المقصود أساساً بالبناء؟

وما هو ذلك الملكوت الذي سينزع من بني إسرائيل، ومن هي الأمة التي ستعطى ذلك الملكوت بدلاً منها؟

ثم لماذا يهدد السيد المسيح عليه السلام اليهود بقوة وعنفوان ذلك الحجر؟

إنها أسئلة تستدعي، كما قلنا، الوقوف والتأمل ومن ثم الإجابة عليها.

فمن المعروف أن السيدة (سارة)، زوجة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، كانت عاقراً لا تلد، وكان ملك مصر قد أعطاها جارية مصرية اسمها (هاجر)، فوهبتها سارة، بدورها، لزوجها إبراهيم، فولدت له سيدنا إسماعيل عليه السلام.

ولكن بعد ردحٍ من الزمان أكرم الله سبحانه وتعالى سارة بطفلٍ بعد أن

(١) راجع العهد الجديد: إنجيل متّى. ٢١: ٤٢-٤٣.

تجاوزت التسعين من عمرها، فأسمته (إسحاق)، وصار إسحاق أباً ليعقوب المعروف عنه أنه أب الأسباط الاثني عشر[١] الذين تسلسل منهم أنبياء بني إسرائيل جميعاً. أي إن إسحاق بنظر اليهود، هو جد أنبيائهم، في حين أن إسماعيل لم يكن أباً لأي نبي من أنبيائهم أبداً، فهو بنظرهم لم يكن مؤهلاً لهذه المهمة، ولذلك لم يكن إسماعيل ذا شأن يُذكر عندهم لدرجة أن كتبة العهد القديم قد عبروا عن تجاهلهم الكلي لسيدنا إسماعيل فيما كتبوه عن قصة سيدنا إبراهيم وقضية الذبح والفداء[٢]، بل واعتبروا أن الشخص الذي أمر سيدنا إبراهيم بذبحه هو إسحاق وليس إسماعيل لأن إسحاق، أساساً، هو ابن إبراهيم الوحيد[٣] وهذا يعني بدوره أن كتبة بني إسرائيل قد رفضوا سيدنا إسماعيل رفضاً كلياً، وأنهم أيضاً قد نفوا وتجاهلوا دوره المستقبلي بشكل مدروس ومتعمد.

وبالطبع، فليس من المستغرب أن يتم استخدام كلمة (الحجر) للدلالة على شخص سيدنا إسماعيل، لأن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله قد وصف نفسه بـ (المدينة) ووصف ابن عمه بـ (الباب)، وذلك من خلال قوله المشهور عند عموم المسلمين: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[٤]. ومن المعروف تماماً أن هذه التشبيهات والصور أمر طبيعي جداً في علوم البلاغة

(١) علي فكري: أحسن القصص، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٥، ج١ ص٦٣.

(٢) الكتاب المقدس: العهد القديم، تكوين ٢١ [١-٧]، ٢٢ [١-٨].

(٣) راجع كتاب (كتابي لقصص الكتاب المقدس)، النسخة العربية، إصدار:
Watchtower Bible and Tract Society of New York, INC. International Bible Students Association, Broohbyn. New York, USA. 1989, p.14.

(٤) الحافظ الموفق بن أحمد الحنفي (أخطب خوارزم): المناقب، مكتبة نينوى الحديثة - طهران، ص٤٠.

اللغوية في كل لغة من اللغات القديمة البائدة والحية السائدة على حدٍّ سواء.

أما المقصود بالبنائين فهم كتبة بني إسرائيل وعلماؤهم وأحبارهم الذين يدوّنون أمور الشريعة وأخبار أصحابها. وأما قوله عليه السلام: «إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره»، فيعني ذلك أنه يا بني إسرائيل أن الله القادر والحكيم سينزع منكم النبوة والرسالة لعدم أهليتكم لها ولعدم احترامكم لأنبيائكم ورسلكم، وسوف يعطيها لأمة أكثر حرصاً عليها منكم، وهذا ما قد تحقق فعلاً من خلال إرسال رسول من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام، وهو المرموز إليه بـ «الحجر المرفوض من قبل البنائين». وفي هذا دلالة واضحة على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وسيدنا إسماعيل عليه السلام المرفوض من قبل اليهود أتباع الرسل والأنبياء من نسل (إسحاق).

وبالطبع، لا أريد هنا أن أناقش وأحلل كل ما جاء في الكتاب المقدس من رموزٍ ودلالات تؤكد مجيء نبي من نسل إسماعيل. ولا أريد أن أذكر هنا كل ما قاله سيدنا عيسى عليه السلام عن مجيء أخيه الرسول المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وتسميته بـ (الفارقليط) «periklytos» والتي تعني باللغة اليونانية القديمة (الأشهر أو الجدير بالحمد = محمد أو أحمد)(١)، في كتاب (بشائر الأسفار) للباحث تامر مير مصطفى، وفي كتاب (محمد في الكتاب المقدس) للقسيس

---

(١) راجع ما جاء في:

أ) تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار عليهم السلام، مؤسسة الغدير - بيروت، ط١/١٩٩٨، ص١٩٦.

ب) وللمزيد من المعلومات راجع أيضاً كتاب (محمد في الكتاب المقدس) تأليف: البروفيسور القسيس دافيد بنجامين الكلداني، والذي عُرف لاحقاً باسم عبد الأحد داؤد، الكتاب إصدار دار الضياء - قطر، ط١٩٨٥/٢م، ففيه فوائد جمّة.

البروفيسور دافيد بنجامين الكلداني ما يغني القارئ ويثلج صدره، ولكن أردت أن أقول من خلال كلامي هذا إن حب المسيحيين لمحمد أو لعلي أو لأهل البيت عموماً لم يكن مبنياً على أساس متين وعلى أرض صلبة، فهو حب مغروس في قلب كل مسيحي يؤمن بحقيقة رسالة السيد المسيح عليه السلام الأساسية، ويؤمن بما بشر به عيسى المسيح عليه السلام أصحابه قبيل رحيله وفراقه لهم: «إنها البشارة التي احترمها وصانها حواريّوه، وزورّها وخانها لاحقاً معظم الكتبة وبعض من ادعى أنه من أصحاب الأناجيل. وعلى الرغم مما أصاب الأناجيل الباقية من تبديل وتشويه، إلا أن هناك الكثير من المواضع، خاصة رؤيا يوحنا، تحوي الكثير من الرموز والإشارات الواضحة التي تدل على مجيء رسول بعد عيسى عليه السلام، وأن هناك (اثني عشر كوكباً) وأن هناك من سيعود لاحقاً في آخر الزمان من أجل العدل وإحقاق الحق ومن أجل قتل التنين الذي وأد الحق وظلم المرأة العظيمة ونسلها»، وإلى غير ما هنالك من رموز وإشارات تخص آل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله[1].

ومما يدلّ فعلاً على أن النصارى الأوائل كانوا من المحبين لمحمد وعلي ولكل أفراد البيت النبوي الشريف عليهم السلام، وذلك لما بلغهم من حب عيسى المسيح عليه السلام لهم وتبشيره بهم، هي تلك الأشعار الكثيرة التي وردت على لسان الشعراء النصارى في مدح محمد وآل بيته الأطهار عليهم السلام منذ فجر الرسالة الإسلامية.

ولو أردنا أن نضرب مثالاً واحداً على هذا الكلام، لوقع اختيارنا على ما بيّنه لنا الإمام اللغوي ابن يوسف الأنصاري الشاطبي ما قاله ابن إسحاق

(١) تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار، مصدر سابق، راجع البشارة العاشرة (آل بيت رسول الله في رؤيا يوحنا) ص٢١٩-٢٧٢.

الموصلي (النصراني) عن عشق هذا الوجود كله للنبي الجديد، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وللإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، ولأهل بيته العظام الكرام عليهم السلام:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم ... بسوء ولكني محبٌّ لهاشمِ
وما يعتريني في علي ورهطه ... إذا ذكروا في الله لومة لائمِ
يقولون ما بال النصارى تحبهم ... وأهل النّهى من أعربٍ وأعاجم
فقلت لهم: إني لأحسب حبهم ... سرى في قلوبِ النَّاسِ حتى البهائمِ[1]

وهذا يعني أن حبهم، كما يرى ابن إسحاق النصراني، قد تجاوز القوميات وحطم حواجز الأديان، فهم قبلة العربي والأعجمي، وهم أيضاً سكان قلوب المؤمنين من المسلمين والنصارى الذين آمنوا برسالة المصطفى وبكتابه الكريم. وهم أيضاً، لعظيم قدرهم وعلو كعبهم، قد جعلوا حبهم يسري في الخلق جميعاً، في البشر والشجر والحجر، وذلك لأنهم السر الساري في الكون، وهذا ما عبر عنه الشاعر (عبد الباقي العمري)، سليل عمر بن الخطاب، في ديوانه (الترياق الفاروقي)، قائلاً عنهم عليهم السلام، وواصفاً إياهم بأنهم هم فقط عين الحقيقة في الوجود، وأما ما سواهم فهو كالوهم والخيال. وهو، بكلامه هذا، يؤكد ما قاله عنهم ابن إسحاق النصراني.

---

(١) راجع مثلاً ما جاء في:

أ) محمد بن علي الصّبان الشافعي، إسعاف الراغبين، مصدر سابق، ص١٢٧.

ب) روكس بن زايد العزيزي، علي أسد الإسلام وقدّيسه، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٩٧٩، ص١١.

وها هو الشاعر (العمري) يقول عنهم عليهم السلام :

إن الوجــودَ وإن تعــدَّدَ ظــاهراً ‏ ‏ ‏ مـا فِيـه غَيرُكُمـو لِمَـن يتوسَّـمُ
أو صــحَّ في الإمكــان ثَمَّـة عــالم ‏ ‏ ‏ وحيــاتكم مَـا فِيـه إلا أنتُمـو
فحقيقــةُ الأعيــانِ أنْــتُم عينهــا ‏ ‏ ‏ وجميعُ مـا في الكائنـات تـوهّمُ[1]

وهذا يعني أن للوجود حقيقتين: الحقيقة الأولى جوهرية، والحقيقة الثانية عرضيّة ظلية. وهذه الحقيقة الثانية العرضية هي عبارة عن ظل مترشح عن الحقيقة الأولى الجوهرية التي حباها الله سبحانه وتعالى بصفات كمالية خاصة لم يعطها أحداً غيرهم من ولد آدم عليه السلام. وهذا باختصار ما أراد أن يقوله الشاعر (العمري) عن حقيقة أهل البيت النبوي الكريم عليهم السلام، الذين يمثلون بنظره الحقيقة الخالدة التي لا تقاس بها بقية الكائنات والموجودات التي تمثل بدورها الحقيقة الظلية العرضية الزائلة.

وسواء توصل كل الكتّاب المسيحيين أو بعضهم إلى الحقيقة التي توصل إليها عبد الباقي العمري بشأن حقيقة أهل البيت عليهم السلام، فإن الشيء الذي لا خلاف عليه بينهم هو أن الإمام علياً عليه السلام هو خير ممثل لأهل البيت عموماً في منطلقهم ونهجهم وغايتهم، ولذلك فإن الكلام عنه عليه السلام يعني الكلام عن الجميع دون استثناء. فهو عليه السلام رأس البيت العلوي وشقيق النور المحمدي، وهو الذي أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله في أكثر من مناسبة أن حبه حسنة لا تضر معها سيئة[2].

(١) عبد الباقي العمري: التِرياق الفاروقي، دار النعمان - النجف الأشرف، ط٢/ ١٩٦٤، ص١٣٥.

(٢) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ج٢. ص٤.

وأنه عليه السلام إحدى الكلمات الخمس التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه بها[1]. وهو عليه السلام الذي ذِكره عبادة[2].

وأنه هو عليه السلام الهادي الذي به يهتدي المهتدون في كل زمان ومكان[3].

وهو عليه السلام الذي أنزل الله عز وجل فيه ثلاثمئة آية في كتابه الكريم[4].

وهو عليه السلام رأس أهل البيت الذي لا يقبل الله من عبد عملاً إلا بمعرفتهم عليهم السلام[5].

---

(١) راجع مثلاً ما جاء في كلٍّ من:

أ) الإمام جلال الدين السيوطي الشافعي: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور في ذيل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾ (من سورة البقرة: الآية ٣٧) المطبعة الميمنية بمصر، ١٣١٤هـ.

ب) المتقي الهندي الحنفي: كنز العمال، دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد- دكن، ١٣١٢هـ، ص١٣٤.

ج) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، مصدر سابق، ج١ ص٩٥.

(٢) راجع:

أ) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، المكتبة الإسلامية - طهران، ط٢/١٣٠٢هـ، الحديث ٢٤٣ ص٢٠٦.

ب) العلامة سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، مصدر سابق، ج١ الباب الأربعون ص١٢١.

(٣) مؤمن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار، مصدر سابق، ص٨٧.

(٤) يرجى الرجوع إلى:

أ) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: تاريخ الخلفاء، دار الفكر - بيروت، ص١٦١.

ب) محمد بن علي الصبّان الشافعي: إسعاف الراغبين، مصدر سابق، ص١٧٦.

(٥) ميرزا جواد الملكي التبريزي: السير إلى الله، ترجمة: ياسين الموسوي، دار التعارف - بيروت، ١٩٩٠، ص٦٧.

وهو عليه السلام تاج الذين نورهم من نور ربهم كشعاع الشمس من الشمس[1].

وأنه هو عليه السلام الذي لو اجتمع كل الناس على حبه لما خلق الله النار[2].

من أجل كل هذا، وما هذا إلا غيض من فيض، فقد كتب الأدباء والمفكرون المسيحيون عن الإمام علي عليه السلام دون غيره ممن كانوا حول الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله.

ومن أجل نوره الذي أضاء قلوبهم وأنار بصائرهم فجعل للحياة بنظرهم معنى جديداً آخر، فقد اختاروا علياً عليه السلام مثالاً أعلى لهم في نهجه وفكره وفي رؤيته للحياة والوجود.

ومن أجل من رسم الطريق للوصول إلى الخالق سبحانه وتعالى وإلى رضاه ومحبته، فكان متألهاً به ونموذجاً عملياً لتعاليمه ولآدابه السماوية الخالدة، فقد وقفوا في صفه عليه السلام وارتضوه إماماً وسيداً، ومن أجل من أعطى الإنسانية المتعبة هويتها الروحية الصحيحة بعد أن علمنا وعلم كل إنسان جاد في بحثه عن ذاته وعن هويته أن الناس صنفان: إما أخ لنا في الدين أو نظير لنا في الخلق، من أجل كل هذا كتبوا عنه بكل حب وشغف حتى لتحسبهم من شيعته وأنصاره.

وهل لنا أن نسأل - بعد كل هذا - الأديب أو المفكر المسيحي، ونقول له:

لماذا علي؟!!

(١) نفس المصدر السابق: ص٨٥.

(٢) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٨٩.

وليد الكعبة

عندما تناول سلطان العارفين محيي الدين بن عربي في فتوحاته المكية مسألة بداية الوجود الكوني وكيف انبثق هذا الوجود عن واجب الوجود، قال:

«كان الله ولا شيء معه... فلما أراد وجود العالم... انفعل عن تلك الإرادة المقدسة... حقيقة تسمى الهباء... وهذا هو أول موجود في العالم.

... ثم إنه سبحانه تجلى بنوره إلى ذلك الهباء... فقبل منه تعالى كل شيء في ذلك الهباء على حسب قوته واستعداده، فلم يكن أقرب إليه قبولاً في ذلك الهباء إلا حقيقة محمد ﷺ المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره وأول ظاهر في الوجود، فكان وجوده من ذلك النور الإلهي ومن الهباء ومن الحقيقة الكلية وفي الهباء وجد عينه وعين العالم من تجليه وأقرب الناس إليه علي بن أبي طالب وأسرار الأنبياء أجمعين»[1].

وإذا كان ابن عربي قد قرن ذكر محمد ﷺ بذكر أقرب موجود إليه، أي الإمام علي عليه السلام وبذكر الأسرار النبوية جميعها، فإن الإمام علياً عليه السلام هو في

(١) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر - بيروت، د.ت ج١ ص١١٩.

حقيقة الأمر سر الأنبياء جميعاً[1].

ويتجلى هذا السر مع الإمام علي عليه السلام منذ لحظة ظهوره وليداً محمولاً بين يدي فاطمة بنت أسد وهي خارجة من الكعبة المشرفة، من بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس مثابة وأمناً.

ولا ريب في أن لهذه الولادة المباركة مكانة هامة في مؤلفات ودواوين رجال الفكر من المسيحيين المعاصرين، حيث رصدوا هذه الحادثة الفريدة وأدركوا أبعادها الروحية العميقة وما ستعنيه في المستقبل ولذلك فقد نظروا إليها نظرة الإعجاب والإكبار.

ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الحادثة الفريدة في التاريخ الإسلامي، بل في التاريخ البشري بأكمله، دعونا أولاً نتحدث عن مكانة هذا المهد العظيم، الكعبة الشريفة، ومن ثم ننتقل سوية للتعرف على آراء ووجهات نظر المفكرين المسيحيين حول ذلك الحدث العظيم. .

فالقرآن الكريم يحدثنا من خلال العديد من الآيات البينات عن الكعبة الشريفة وعن علو مكانتها وعظيم منزلتها.

وقد ورد اسمها بألفاظ متعددة، مثل: البيت، والبيت الحرام، والبيت العتيق.

وعلى سبيل المثال، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الحكيم: ﴿إِنَّ

(١) راجي أنور هيفا: مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت، ٢٠٠٣، ص١٧١.

أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾[١]، فوصف سبحانه وتعالى الكعبة بالمكان المبارك لأنه أول بيت وضع للناس من أجل العبادة وممارسة الطقوس الروحية التعبدية.

وقد جاء أيضاً في كتاب الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية المباركة قوله عليه السلام: «من أمّ هذا البيت وهو يعلم أنه البيت الذي أمره الله عز وجل به وعرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمناً في الدنيا والآخرة»[٢].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد وصف البيت - الكعبة- بأنه (مبارك) في الآية التي ذكرناها سابقاً، فإننا نرى أنه جلَّ وعلا يؤكد على تلك الحقيقة بقوله في آية أخرى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[٣]، فلم يكتفِ بوصفه بـ(المبارك)، بل وصفه أيضاً بأنه (مثابة) و(أمن) للناس.

وبطبيعة الحال، فقد اقترن ذكر الكعبة، أو البيت العتيق بذكر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ولكن مع تقادم السنين ومع التحولات العقائدية الناتجة عن جملة من التغيرات التي حدثت في شبه الجزيرة العربية فقد نمت وترعرعت الطقوس الوثنية حول الكعبة ذاتها.

وهنا يمكننا القول إن للمستشرق الفرنسي المعاصر (دومينيك سورديل)، صاحب المؤلفات الكثيرة عن الإسلام وعن التاريخ الإسلامي، وجهة نظر في ما يتعلق بالكعبة الشريفة وبتاريخها القديم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٢) الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، مكتبة الصدر - طهران، ط١٣٧٤/٢، ج١ ص٣٦٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٥.

يرى سورديل في كتابه (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي) أن الحج الأكبر يرقى في أصوله إلى عصر ما قبل الإسلام حيث كانت مكة آنذاك مركزاً لأسواق موسمية وموضعاً لطقوس واحتفالات دينية تدور حول حرم الكعبة. ولئن دمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم لاحقاً تلك الأصنام الوثنية التي كانت فيها، فقد عزز ذلك الحدث قداسة المبنى وربطه بقصة إبراهيم محاولاً بذلك أن يستعيد، في مواجهته لليهود، حقيقة ديانة ذلك النبي. ويضيف سورديل قائلاً: «لذلك زار المسلمون الكعبة باعتبارها (بيت) الرب الذي شيده بأمر إلهي والد جدهم إسماعيل»[١].

وعلى الرغم من مرور تلك المنطقة بمرحلة العبادات والطقوس الوثنية، إلا أن العقل البشري كان دائماً وأبداً يبحث عن نور التوحيد وراء كثرة الآلهة، وعن الوحدة الإلهية وراء التعددية التي كانت سائدة في أيام الجاهلية.

ويرى كل من الدكتور عادل العوّا والمستشرق الإنكليزي (هاملتون جب) في كتابهما المشترك (علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي) أن «في العقل البشري ميلاً إلى التوحيد، فهو يطلب دائماً الوحدة وراء التنوع. ولذا نشاهد بعض المفكرين الذين رقوا بقوة عقولهم وحدها إلى مفهوم إله واحد، على الرغم من وجودهم في البيئات المشركة الهندية أو اليونانية (آناكساغور، سقراط، أفلاطون)»[٢].

---

(١) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ترجمة: حسني زينة، دار الحقيقة - بيروت، ١٩٨٠، ص١٦٨.

(٢) د. عادل العوّا والمستشرق هاملتون جب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات - بيروت، ١٩٨٩، ص٧٩.

بل إننا نستطيع أن نلحظ بوضوح تام من خلال قراءتنا للتراث الروحي للأمم الماضية أن الديانات غير السماوية، وإن تعددت آلهتها، فإنها كانت تنصب دائماً إلهاً سيداً يدير شؤون مجمع الآلهة، وهي بدورها تدير شؤون الخلق، وهذا يعني أن تلك الديانات غير السماوية كانت تميل في جوهرها إلى عملية التوحيد أيضاً.

وعلى كل حال، فإن وجود الأصنام بكثرة حول الكعبة، في الماضي، لا يعني إلغاء قداستها، ولا يعني ذلك أيضاً أن الوثنيين آنذاك كانوا في حالة جهل روحي تام بالديانات السماوية التوحيدية السابقة. ولكن ما يهمنا الآن هو اتفاق الوثنين والحنفاء ومن ثم المسلمين على حقيقة قداسة ذلك المكان وحرمته وارتباطه بعالم السماء من خلال إدراكهم أنه بيت الله الموضوع للعبادة وللارتقاء الروحي.

ولم يخطر في بال أحد أبداً أن يتحول ذلك البيت الإلهي الموضوع أساساً للعبادة إلى مهد للولادة!!!

ورب سائل يتساءل قائلاً:

وما الحكمة في أن يتحول بيت العبادة إلى مكان للولادة؟

وهل هناك أحد قد ولد قبل علي عليه السلام أو بعده في ذلك البيت العظيم؟

وما الرؤية أو التحليل الديني الفلسفي لوقوع تلك الحادثة الفريدة؟

وقبل الإجابة على هذه التساؤلات الهامة والجديرة بالمناقشة، نقول إنه لا خلاف بين الرواة على أن مكان ولادة الإمام علي عليه السلام كان داخل البيت

الحرام، أي داخل الكعبة ذاتها[١]، وقد اتفقت الروايات السنية والشيعية على هذه الحقيقة.

ومن هنا بدأ الطرفان في إدراك حقيقة أن الإمام علياً عليه السلام ذو شخصية استثنائية تتمتع بهالةٍ من القداسة المتناسبة مع حجمها وعظمتها، وما ولادته المباركة داخل الكعبة إلا فاتحة أنوار تلك الهالة القدسية التي ولدت معه داخل الكعبة الشريفة.

وكما تناول المسلمون تلك الصفحة البيضاء من كتاب حياة الإمام علي عليه السلام الناصع البياض، فإن الأدباء والمفكرين المسيحيين قد تناولوا تلك الصفحة أيضاً وقرؤوها وحلّلوها ثم أعادوا صياغتها في مؤلفاتهم وأبحاثهم بأسلوب أدبي رفيع يفيض بالإعجاب والتقدير.

فعندما أورد الأديب (روكس بن زايد العزيزي)، وهو أحد الأدباء المسيحيين المعاصرين، قصة ولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة المشرفة، علّق على تلك الحادثة الجليلة بقوله في كتابه (علي أسد الإسلام وقديسه): «كانت ولادته في البيت الحرام إيذاناً بأن الأصنام قد هزمت إلى الأبد»[٢].

---

(١) راجع على سبيل المثال من كتب القدماء:

أ) ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، دار الكتب التجارية - النجف، د.ت ص٣٠.

ب) مؤمن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار، دار الفكر - بيروت، ص٨٥.

وراجع أيضاً من كتب المعاصرين:

ج) توفيق أبو علم: علي بن أبي طالب، دار المعارف بمصر، ط٢/١٩٨٦، ص٩.

د) عبد الرحمن الشرقاوي: علي إمام المتقين، مكتبة غريب - القاهرة، د.ت، ج١ ص١٢.

(٢) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقدّيسه، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٢/١٩٧٩، ص٢٥.

ولا شك في أن هزيمة الأصنام للأبد قد اقترنت، عند المسلمين والمسيحيين، بصورةٍ عميقة المعاني في الحقول المعرفية والعرفانية، إنها تلك الصورة التي اعتلى فيها الإمام علي عليه السلام منكبي الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من أجل تحطيم أكبر وأجلّ الأصنام عند القرشيين.

فالإمام الشافعي نفسه قد قرن صورة اعتلاء الإمام علي عليه السلام منكبي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بصورة أخرى لا تقل عنها روعة ورفعة، إنها صورة عروج الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إلى عوالم السماء في الليلة المعروفة باسم ليلة الإسراء والمعراج حيث خاطب المولى عز وجل رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بلسان الإمام علي عليه السلام حتى يطمئن قلبه الطاهر صلى الله عليه وآله[1].

وقد صوّر لنا الإمام الشافعي بأسلوبه الشعري البديع كيف أن الله سبحانه وتعالى قد لمس بيده المباركة- جل عن التشبيه والتصوير والتجسيد- أعلى ظهر محمد صلى الله عليه وآله، وهو المكان نفسه الذي وضع علي عليه السلام رجليه حتى يستطيع أن يصل وينال من أعظم الأصنام والأوثان ويهزمها مع ابن عمه المصطفى صلى الله عليه وآله للأبد.

وقد وصف الإمام الشافعي هذه الحادثة، حادثة الإسراء والمعراج، ثم قرنها بحادثة صعود علي عليه السلام على منكبي الرسول الشريف صلى الله عليه وآله لإسقاط أعظم الأصنام عن ظهر الكعبة. ذلك البيت الإلهي الذي كان مهداً له عند ولادته.

يقول الإمام الشافعي:

---

(١) القندوزي الحنفي: ينابيع المودة: مصدر سابق، ج١ ص٨١ الباب ١٥.

قيل لي قُل في عليٍّ مدحاً ... ذِكرُهُ يُخمِدُ ناراً موصده
قلتُ لا أُقدِمُ في مدح امرئٍ ... ضلَّ ذو اللبِّ إلى أنْ عبده
والنبيُّ المصطفى قال لنا ... ليلة المعراج لمّا أصعده
وضع اللهُ بظهري يَدَه ... فأحسَّ القلب أنْ قد بَرَده
وعليٌّ واضعٌ أقدامُه ... في محلّ وضع اللهُ يَدَه(١)

وإذا كان الإمام الشافعي قد رأى في الربط بين نتائج الصورتين، أو الحادثتين، أن للإمام علي عليه السلام مكانة سامية تعجز العقول عن فهم حقيقتها وبلوغ معرفتها، إلا أن أدنى ما يمكن أن يدركه العقل في ذلك الموقف هو الإيمان المطلق بكماله وبتمام خصاله ومحامد فعاله التي لا تبلغها الهمم العلية ولا تدركها العزائم القوية.

هذا بالنسبة لأحد أئمة المذاهب الإسلامية، فماذا عن أرباب الفكر والأدب عند المسيحيين المعاصرين؟

يرى المفكر والأديب المسيحي (نصري سلهب) صاحب الأبحاث المطولة عن الإسلام والمسيحية، وصاحب كتاب (في خطى علي)، أن الإمام علياً عليه السلام قد ولد مسلماً قبل الإسلام، شأنه في ذلك شأن الرسل والأنبياء الذين كانوا مسلمين بالفطرة السليمة قبل ولادة الرسالة الإسلامية بشكلها العلني على يدي الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، تلك الرسالة التي لخصت وصححت كل انحراف فيما تقدمها من رسالات سابقة.

(١) نفس المصدر السابق: ج١ ص١٣٩ الباب ٤٨.

ويرى الأستاذ (سلهب) أن هناك دلالات وإشارات لا تخفى على ذوي الألباب بشأن ولادته في الكعبة، فيقول: «ولدته أمه في الكعبة، تلك التي جعلها الله قبلة المصلين، الركع، السجود، المستسلمين لمشيئة الله، المسلمين له نفوسهم والمصائر»[١]. فولادته المباركة في بيت الله، في الكعبة التي يتّجه المسلمون إليها في صلاتهم، في ركوعهم وسجودهم، مع الاستسلام الكامل لمشيئة الله وإرادته، لهي إشارة عظيمة إلى أن الإيمان الكامل الذي ظهر متجسداً بعلي عليه السلام منذ لحظة ولادته في الكعبة سيستمر في الانطلاق والاتساع إلى جانب صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله الذي بعث للناس كافة هدى ونوراً ورحمة.

ولم تختلف وجهة نظر الأديب والمفكر (جورج جرداق) صاحب موسوعة (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) عن وجهة نظر الأستاذ الأديب نصري سلهب بشأن ولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة الشريفة. غير أن المفكر المسيحي (جرداق) يرى أن الإرادة الإلهية الكونية شاءت أن يكون هناك ارتباط ذاتي وثيق بين ذات محمد صلى الله عليه وآله وذات علي عليه السلام إلى حد أن ذات كل منهما تصبح شيئاً من الذات الأخرى.

أما كيف كان الأستاذ (جرداق) يعتقد ذلك، فهذا ما يمكننا أن نعرفه عندما نقرأ قوله: «ومن الروايات الثابتة، ما يلقي نوراً ساطعاً على هذه الإرادة الكونية التي شاءت أن يكون عليّ شيئاً من ذات الرسول. وقد هيّأت هذه الإرادة ظروفاً ومناسبات برزت فيها خصائص ما كان لأحد أن يشارك بها علياً: فها إن علياً ولد في الكعبة التي أصبحت قبلة أشواق المسلمين وكان مولده فيها بعد أن

(١) نصري سلهب: في خطى عليّ، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٧٣، ص٣٥.

أصبحت الدعوة الإسلامية شيئاً موجوداً بذات محمد وإن لم يكن قد أفصح عنها بعد»[1]، ويرى (جرداق) أيضاً ان الإرادة الكونية الإلهية ذاتها شاءت أن تجعل الرسول صلى الله عليه وآله يوجه أنظار المسلمين قاطبة إلى العظمة الإنسانية التي تتمثل في شخصية علي المتميزة بكيفية ظهورها من الكعبة وبنهجها، وكذلك بقدرتها الخارقة على أن تكون خير من يستطيع أن يتحمل أعباء الرسالة من بعده.

ولكن الأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) لم يقف عند حدود ذكر حادثة ولادة أمير المؤمنين في الكعبة وعند حدود الدلالات والإشارات التي جاءت نتيجة طبيعية لتلك الولادة اليتيمة التي شهدها بيت الله، بل راح يذكر العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول أهمية تلك الولادة التي قدر لصاحبها أن يلعب لاحقاً الدور الأبرز في تحريك وتحويل عجلة التاريخ إلى مسارها الصحيح.

ولكن قبل أن نقف مع ما ذكره الأديب والشاعر (الإنطاكي) عن علاقة الإمام علي عليه السلام بالكعبة، لا بد لنا من أن نعرّف القارئ الكريم على شخصية عبد المسيح الإنطاكي، ولو بسطور قليلة عنها.

هو عبد المسيح الإنطاكي الحلبي، من أبوين مسيحيين، نشأ في حلب، وقد اجتمع بالكثير من المفكرين والأدباء المسلمين، وتلقى تعليمه على يد العديد من المفكرين الكبار وعلى رأسهم العلامة (عبد الرحمن الكواكبي) صاحب كتابي (أم القرى) و(طبائع الاستبداد). ويعتبر (الإنطاكي) أول من نادى بالقومية

---

(١) جورج جرداق: موسوعة (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) راجع الجزء الأول الذي يحمل عنوان (علي وحقوق الإنسان) منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٧٠، ص٦٥.

العربية وإنشاء دولة عربية واحدة مستقلة عن الأتراك وعن الشرق والغرب. كان عدواً لدوداً للسلطان التركي عبد الحميد، ولم يكن يهادنه أبداً من خلال الهجوم عليه في جرائد (المؤيد)و (العلم)و (الشعب) الصادرة سنة١٩٠١- ١٩١١م. زار معظم البلدان العربية بهدف الاستقلال عن الأتراك وإنشاء (الولايات المتحدة العربية) على غرار الولايات المتحدة الأمريكية. كان محباً للأدب والشعر، فنظم ملحمة شعرية طويلة بعنوان (ملحمة الإمام علي عليه السلام) وقد بلغ عدد أبياتها (٥٥٩٥) بيتاً من الشعر، وقد طبعت للمرة الأولى في مطبعة رعمسيس بمصر عام ١٩٢٠ وطبعت للمرة الثانية في بيروت عام١٩٩١.

وهكذا نرى أن هذا المفكر المسيحي لم يكن إنساناً عادياً بل كان حقاً أديباً وسياسياً متميزاً في كل ما يقوم به أو يقوله. ولذلك، فعندما يتحدث إنسان من هذا الوزن عن الإمام علي عليه السلام فإن حديثه عنه هو حديث الإنسان العاقل والمتفهم لحقائق الأمور ودقائقها.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدث الأستاذ الإنطاكي في ملحمته العلوية عن علاقة الإمام علي عليه السلام بالكعبة الشريفة، نراه يفتتح كلامه عن تلك الولادة المباركة بحديث للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله يقول فيه بعد أن بلغه نبأ ولادة علي عليه السلام في داخل الكعبة العظيمة: «لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»[1]، كما وأن الرسول صلى الله عليه وآله كان يسمي السنة التي ولد فيها الإمام علي عليه السلام (سنة الخير وسنة البركة). ومن جملة ما ذكره المفكر والأديب (الإنطاكي) شعراً عن ظهور الإمام علي عليه السلام من الكعبة التي كانت بمثابة المهد

(١) عبد المسيح الإنطاكي: الملحمة العلوية، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط١٩٩١/٢، ص٥٢.

الطاهر له، قوله:

في رحبة الكعبة الزهرا قدِ انبثقتْ أنوارُ طفلٍ وضَاءتِ في مغانيها
واستبشرَ النَّاسُ في زاهي ولادتِهِ قالوا: السعود له لا بدَّ لاقيها
وعام مولده العام الذي بدأت بشائرُ الوحي تأتي مِنْ أعاليها

وبإمكاننا أن نلاحظ كيف يلفت (الإنطاكي) أنظارنا في البيت الثالث إلى حقيقة أن الرسول صلى الله عليه وآله قد سمى عام ظهور أمير المؤمنين عليه السلام من بيت الله بعام الخير والبركة. لأنه في العام الذي انبثقت فيه الأنوار العلوية من جدار الكعبة الشريفة، بدأ الوحي الإلهي الأمين بالنزول على الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله. وهذا فعلاً ما يستدعي الانتباه والتأمل.

ولكن لو انتقلنا الآن من الحديث عن الكعبة الشريفة التي تحولت، ولمرة واحدة فقط، إلى مهدٍ للولادة إلى حديث آخر وثيق الصلة بالكعبة نفسها، ونقصد بذلك الحديث عن المولود فيها، فماذا عسانا أن نقرأ في كتب المسلمين والمسيحيين عن ذلك المولود المبارك عليه السلام؟

بالطبع، يمكننا أن نقرأ الكثير عن وليد الكعبة، ويكفي أن نذكر، قبل كل شيء أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قد بيّن لنا عمق العلاقة القائمة بين المولود ومكان الولادة، وقد أشار صلى الله عليه وآله بالعبارة الصريحة إلى أن الكعبة التي هي قبلة المسلمين يقابلها الإمام علي عليه السلام الذي تمثّل ولايته قبلة المؤمنين.

وقد عبَّر الرسول صلى الله عليه وآله عن هذه الحقيقة بقوله: «يا علي أنت بمنزلة الكعبة»[1]،

---

(١) الحافظ عبد الرؤوف المناوي الشافعي، كنوز الحقائق، مكتبة الزهراء - القاهرة ١٩٨٥، ص١٩٣.

وهذا يعني أنه كما أن المسلمين يتوجهون في صلواتهم إلى جهة الكعبة التي هي قبلتهم بحيث لا تقبل صلاة المنحرف عنها عمداً، كذلك يكون الحال بالنسبة للمؤمنين الذين لا يمكنهم أن يحملوا صفة الإيمان ما لم يكونوا متوجهين بقلوبهم وبصدق سرائرهم إلى ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام. وبالتالي، فإن المؤمن المستكمل الإيمان هو ذلك المؤمن الذي يتوجه بصلاته إلى الله سبحانه وتعالى، فييمّم وجهه شطر بيت الله ويستحضر بقلبه ولاية ولي الله عليه السلام الذي جعل الله حبه براءة من النار وباب حطة الذنوب والخطايا.

ومن هنا تتجلى القيمة المعرفية لظهور ولي الله عليه السلام من بيت الله.

ولو أخذنا أقوال أو أشعار أحد الأعلام والأدباء المسلمين وقارناها مع أقوال وأشعار المفكرين والأدباء المسيحيين، فسنلاحظ مدى التشابه بين الرؤيتين حول ولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة، وهذا يدل على أن هناك من المسيحيين من يعرف ويؤمن بحقوق الولاية العلوية والإمامة المرتضوية.

ولو أخذنا على سبيل المثال ما قاله الشاعر المسلم (إسماعيل الشيرازي) نضّر الله وجهه بشأن ولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة وقارنا ما قاله مع بعض أقوال الأدباء والشعراء المسيحيين فسنرى أن هناك اتفاقاً واضحاً على قيمة ذلك الحدث وعلى عمق دلالاته في رسم خريطة المستقبل الإسلامي إلى جانب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله.

ولا بأس في أن نذكر جملة من أبيات إسماعيل الشيرازي التي تلعب، إلى جانب الكثير من القصائد الإسلامية الأخرى، دوراً هاماً في تعميق الرؤية المعرفية المتعلقة بتحليل تلك الحادثة الخالدة. وسنلاحظ بعد ذلك أن الشعراء

المسيحيين المعاصرين قد استطاعوا أن يضاهوا في قصائدهم الرقيقة الكثير من الشعراء المسلمين في تحليل وشرح العمق المعنوي للعلاقة الوطيدة بين الوليد ومهده المقدس.

يقول السيد إسماعيل الشيرازي:

آنَستْ نفسي من الكعبة نورْ   مثلما آنس موسى نار طورْ
يوم غشى الملأ الأعلى سرورْ   قرع السمَع نداءٌ كنداء
شاطئ الوادي طِوى من حرم
كُشِفَ الستر عن الحق المُبينْ   وتجلّى وَجهُ رب العالمين
وبدا مصباح مشكاة اليقينْ   وَبَدَت مشرقة شمس الهدى
فانجلى ليل الضلال المظلمِ[1]

❖ ❖ ❖

وبالطبع، لسنا هنا بصدد إيراد قصيدة الشيرازي بأكملها، ولسنا أيضاً بصدد شرح كل كلمة أو عبارة فيها بالشكل المفصل، ولكن قطعاً لكلّ شك ومنعاً لكل ارتياب، نقول إن المعنى الذي أورده الشاعر الشيرازي في قوله (وتجلى وجه رب العالمين) فهو الإشارة الواضحة إلى قول الإمام الصادق جعفر

(١) راجع مثلاً:

أ) أحمد الرحماني الهمداني: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، المنير للطباعة والنشر - طهران، ط١/ ١٣٧٥هـ، ص٥٢٨.

ب) الشيخ جعفر النقدي: غزوات أمير المؤمنين عليه السلام، منشورات الشريف الرضي - إيران، ١٤١٢هـ، ص١٠.

ابن محمدعليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ﴾[1]. قال عليه السلام: «نحن وجه الله الذي لا يهلك»[2].. أما قوله «كشف الستر عن الحق المبين»، فالإمام علي عليه السلام هو وجه الحق وهو- كما وصفه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله - الإيمان كله، وهو ما قاله صلى الله عليه وآله عن الإمام علي عليه السلام عندما برز للقاء عمرو بن ودّ العامري: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[3]. وبالطبع لا يمكننا أن ننسى قوله صلى الله عليه وآله المشهور عن ارتباط الحق بعلي عليه السلام: «الحق مع علي حيث دار»[4].

ونظراً لهذا الارتباط الوثيق جداً والبالغ حدّ الترادف بين مصطلحي (الإيمان) و(الحق)، نرى أن الأديب المسيحي نصري سلهب لا يفرق أبداً بين الحق والإيمان من جهة، ولا بين الحق والإيمان وبين الإمام علي عليه السلام من جهة أخرى. ولذلك، يرى أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عندما قال: «خرج الإيمان كله إلى الشرك كله»، فإنما كان يعني (خرج الحق كله إلى الباطل كله)[5].

ومهما يكن من أمر، فإن الشاعر المسيحي المحلق بولس سلامة (١٩٠٢-١٩٧٩) صاحب ثاني أعظم ملحمة باللغة العربية والمسماة (عيد الغدير) يرى أن

(١) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٢) العلامة ميرزا جواد ملكي التبريزي: السير إلى الله، ترجمة: ياسين الموسوي، دار التعارف - بيروت، ١٩٩٠، ص٦٣.

(٣) محمد كاظم القزويني: الإمام علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، دار التيار الجديد - بيروت، ١٩٩٢، ص٧٣.

(٤) القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٨٨.

(٥) نصري سلهب: في خطى عليّ، مصدر سابق، ص٢٤.

تلك الولادة التي تمت في بيت الله بأمر من الله، هي في حقيقتها ولادة النور الذي سيغير حركة التاريخ ومجرى الزمان.

وعن هذه الحقيقة الثابتة، يقول الأستاذ سلامة تحت عنوان (مولد علي)، واصفاً ولادة فاطمة بنت أسد للإمام علي عليه السلام داخل البيت العتيق:

حرةٌ ضامها المخاضُ فلاذت بستار البيت العتيق الوطيد
كعبة الله في الشدائد تُرجى فهي جسرُ العبيد للمعبودِ

ويتابع الأستاذ سلامة كيفية خروج فاطمة بنت أسد من البيت العتيق المبارك وهي تحمل بين ذراعيها النور المقدس عليه السلام وعودتها إلى بيت زوجها أبي طالب عليه السلام، والاختلاف على الاسم الذي سيطلقونه عليه:

دَعَت الشبلَ (حيدراً) وتمنت وأكبَّت على الرجاء المديد
بل (عليّاً) ندعوه، قال أبوه فاستفز السماءَ للتأكيد
يهرم الدهر وهو كالصبح باقٍ كل يوم يأتي بفجرٍ جديد[1]

فالإمام علي عليه السلام ابن الكعبة العظيمة، هو الصباح الذي أشرق بنوره القدسي فانجاب الظلام منقشعاً عن كاهل الإنسانية المرهقة تحت نير الأوثان والعبودية المذلة، فمولده الشريف مقرون بمولد النور، وذكره مقرون بالعبادة، وخط العبادة الذي رسمه مع ابن عمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله باقٍ بقاء الدهر ذاته. فالدهر يفنى ولا يفنى ذكر علي عليه السلام.

فالحقيقة العلوية التي برزت نوراً وهداية من بيت القبلة المحمدية، وإن كانت

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٦، ص٣٧.

عصية على الفهم، إلا أنها هي إحدى الحوادث الهامة التي حفلت بها سيرة الإمام المرتضىعليه السلام والتي اختلف الناس في نتائج تحليلها وفي إدراك حقيقتها.

ولكن إن رأى الأديب والشاعر بولس سلامة فيها شيئاً يسيراً من تلك الحقيقة العميقة الغَور وذلك بقوله (يهرم الدهر وهو كالصبح باقٍ)، فإن الأديب المسيحي الآخر، الشاعر (خليل فرحات)، قد رأى في الإمام عليعليه السلام شيئاً أبعد من ذلك بكثير. نعم هو وليد الكعبة بلا شك، ولكن هو أيضاً - بالنسبة لهذا الأديب المسيحي المعاصر- سيد وفريد الدهور، وهو أيضاً نور كل ديجور، وانه المبتدأ وما سواه الخبر، وأنه الفاروق الأعظم وصاحب مفاتيح الجنة والنار.

ولا ريب في أن هذه الرؤية الصادقة للأديب الشاعر خليل ناشئة عن عدة عوامل، ولكن قبل أن نذكر بعض هذه العوامل التي بلورت عنده تلك الرؤية الصافية العميقة بشأن شخصية الإمام المرتضىعليه السلام لا بد لنا من أن نذكر شيئاً مما قاله عن رؤيته ووجهة نظره بعليعليه السلام.

إذاً، دعونا نصغي إليه بانتباه، ولنفكر ملياً بهذه العبارات الشعرية الرقيقة والعميقة:

وأنت على الأدهار مستهلك لها	كما كنتَ في الأذكار مستقدَم الذكرِ
وقد جاء في الأخبار أنك مبتدأ	وأنك قسَّامٌ بغاشية الحشرِ[1]

ويمكننا القول باختصار عن أهم العوامل التي لعبت دورها في معرفة

(١) خليل فرحات: في محراب علي، راجع القصيدة في (مجلة الموسم) العدد السابع، صدر العدد في هولندا ١٩٩٠، ص٨٧٩.

والقصيدة مطبوعة أيضاً بشكل مستقل وكامل وهي تحمل نفس العنوان، راجع الصفحة ٢٠.

الأديب الماروني (فرحات) بالإمام علي عليه السلام هي أن العامل الهام فيها يعود أساساً إلى ثقافته الموسوعية المتميزة والتي كان للتاريخ الإسلامي نصيب بارز في تكوينها وإغنائها. أما العامل الثاني الأكثر أهمية هو معاناته الطويلة مع مرض عضال دام عدة سنوات وقد أعجز الأطباء والمختصين عن إيجاد بارقة أمل بالتحسن والشفاء. ولما شعر بأن كل أبواب الأمل قد أغلقت في وجهه، قرر أن يقرع الباب الأخير وهو باب الإمام علي عليه السلام.

وحتى لا نقول عنه شيئاً لم يقله هو، دعونا نسمع باختصار إلى ما حدث معه كما يروي هو القصة بنفسه إلى صديقه المقرب الشاعر المرحوم (نجيب جمال الدين)، والذي يقول عنه (فرحات) في مقدمة كتابه الشعري (في محراب علي): «نجيب جمال الدين هو شقيقي في الولاء لعلي، وصديقي بالرؤية الواحدة له، القاصرة عنه...».

وبعد إيراده لهذه الكلمات التي تعبر عن علاقته بالشاعر (جمال الدين)، نراه يسارع إلى ذكر ما حدث معه والذي لعب لاحقاً دوراً بارزاً في نظم مطولته الشعرية المشهورة بعنوان (في محراب علي).

وها هو يروي قصته قائلاً لصديقه الشاعر (جمال الدين): «بقيت يا صاحبي عشرة أيام، ورجلي مرفوعة إلى العلاء بحبل، بعد أن احتبس الدم فيها، واعتصم وأبى أن يدور، وذلك بسبب انخفاض السكر أو ارتفاعه.. لا أدري... وتهدد الجسد كله لا الرجل وحدها، عندما اجتمع الأصدقاء من الأطباء في البيت وكان القرار بالقطع... ولم أعترض، إنما قلت: لدي مشوارٌ إلى عليّ، فإن قطعتم فكيف أمشي؟ ولم يفهموا... إلا صديقتك (جورجيت) -

يعني زوجته- فقد قالت: كفى بربك!.. ودعنا الآن من الشعر فالمسألة فيها حياتك.... وأجبتها: ولأنها كذلك فهذا موقفي!... وبعد يوم واحد فككت رجلي من المشنقة، وقمت ولم أعد بعدها للفراش، أفلا ترى أن الإمام هو الذي أمرني بالرحلة فكيف أتخلف؟ ثم ألا ترى أنه كان كما يجب، فكيف لا أكون أنا كما يجب، وبخاصة كما يجب؟»[1].

هذه باختصار، قصة الأديب والشاعر المسيحي (خليل فرحات) مع الإمام علي عليه السلام الذي فتح له باب الاستجابة لحاجته، وكيف لا يستجيب الإمام عليه السلام لمسيحي محتاج طرق بابه في الهزيع الأخير من الليل يرجوه أن يكون شفيعاً له عند الله الشافي الكافي المعافي الذي وسعت رحمته كل شي؟

وكيف لا يشفع الإمام علي عليه السلام له وهو العارف كم ليلة سهر فيها ذلك الأديب المسيحي وهو ينهل من بحار علومه وبلاغته، ويستمد الصبر وعنفوان الرجولة من سيرته ومبادئه عليه السلام؟

وبالطبع ستكون لنا لاحقاً محطات عديدة مع الأديب خليل فرحات، ولكن دعونا الآن نتوقف قليلاً مع محطة جديدة حول محور بحثنا الآن، وما هذه المحطة الجديدة إلا رأي المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) الذي عاش فترة لا بأس بها في العراق وإيران في مطلع القرن الماضي، وقد خرج من إقامته هناك بعدة أبحاث عن الإسلام وعن بعض مذاهبه الأساسية. وفي الثلاثينيات من نفس القرن، قدم كتابه (عقيدة الشيعة) كأطروحة دراسية لينال عليها شهادة

---

(١) راجع المقدمة التي وضعها الشاعر نجيب جمال الدين لكتاب (في محراب علي) للشاعر خليل فرحات، ص١٠.

الدكتوراه في الفلسفة. ولا ريب في أنه قد تناول في كتابه المذكور قضية ولادة الإمام علي عليه السلام المباركة في البيت العتيق، ولكنه تناولها بشكل مقتضب بعض الشيء، ورأى أن الإمام علياً عليه السلام قد ولد حقاً في الكعبة[١]، وأن ولادة الإمام عليه السلام ترتبط بحالاتٍ مميزة واستثنائية وذات دلالات إيمانية خاصة كما حدث، على سبيل المثال، في ولادة الإمام علي عليه السلام وولادة ابنه البكر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

ولئن جاهد الأدباء والمفكرون المسيحيون من أجل بلوغ القيمة المعرفية والتفسير الأمثل لحادثة ولادة أمير المؤمنين عليه السلام في الكعبة الشريفة، إلا أن معظمهم، كما نرى قد اتفقوا على أن ولاية علي عليه السلام والتي هي جزء هام لا يتجزأ من شخصيته المتكاملة، هي في المحصلة الولاية التي سيأمر الله سبحانه وتعالى بتبليغها لكل المسلمين، عن طريق رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وهي الولاية التي ستكون أيضاً محط أسرار الرسالة السماوية والبعثة المحمدية، إنها الولاية التي لا يعي حقيقة أمرها إلا الصدور الأمينة والأحلام الرزينة، وهذا ما أراد المفكر المسيحي (جورج جرداق) قوله مؤكداً على صعوبة بلوغ المعنى الحقيقي للولاية المفروضة إلهياً من خلال حديث الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي يقول فيه: «إن أمرنا صعب مستصعب، ولا يعي حديثنا إلا صدور أمينة وأحلام رزينة»[٢].

---

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، تعريب: ع.م، مؤسسة المفيد - بيروت، ط١/١٩٩٠، ص٨٩.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص١٠٥.

وآخر محطة يمكن أن نقف عندها الآن هي محطة عرفانية مسيحية، لها رؤيتها الخاصة حول الكعبة ووليدها الأوحد العظيم. وما هذه المحطة الأخيرة إلا رؤية الأديب والباحث الأرمني الدكتور (أواديس استانبوليان) عضو الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية خارج الوطن العربي، ولهذا الباحث المسيحي قصة طويلة مع الإمام علي عليه السلام تبدأ من إدراك معنى الحياة وفلسفة الوجود وتمتد إلى معاني الحياة الأخرى وأبعاد الخلود.

ولذلك، فإن رؤية هذا الباحث المتميز لها طعمها الخاص ولونها الخاص، وبالتالي ما علينا إلا أن نقف وندرس بعمق تلك العبارات البليغة عن علي عليه السلام، ومهده الذي جهزه له سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام.

وها هو يقول عن يوم مولد علي عليه السلام:

«مولد علي عليه السلام فاتحة علاقة مميزة بين أهل السماء والأرض..

إبراهيم عليه السلام أرسل أهله إلى وادٍ لا زرع فيه...

ولكن فيه مهد مكعبة الجهات.. لاستقبال علي.

لتصبح بذلك وجهة كل وجه مع كل العصور...

إبراهيم عليه السلام كان يريد زراعة الكلمة..

الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين...

وكان إبراهيم عليه السلام يرى في الكعبة نقطة التقاء عمد السماء، وعلي عليه السلام هو

إشعاع تلك النقطة»[١].

فما أجملها من جملٍ وما أصدقها من عبارات تقول للمتخلفين عن ولاية علي عليه السلام: ما أشد ظلمكم أيها الغافلون لأنفسكم وما أكثف الظلمات التي تريدون لها أن تعيش فيها بعيداً عن ولاية أهل البيت المحمدي وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

فهل وصلت رسالة الأستاذ (استانبوليان) ورسائل غيره من المفكرين المسيحيين إلى كل الغافلين من المسلمين؟!!!.

نأمل ذلك..

(١) الدكتور أواديس استانبوليان: يوم مولد علي عليه السلام، وهي كلمة ألقيت في مهرجان الإمام علي عليه السلام بدمشق بتاريخ (١/١٠/٢٠٠١م) وهذه الكلمة موجودة ضمن كتاب (في رحاب مهرجان الإمام علي عليه السلام)، إعداد: الفردوس للثقافة والإعلام، دمشق ٢٠٠١م، ص١٠١.

إيمان علي عليه السلام وإشراقات الروح

ما كنت أريد أن أكتب هذا الفصل بشكله المستقل أبداً، وما كنت أريد أيضاً أن أتوقف طويلاً عند هذه النقطة وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول هو أن أسبقية علي عليه السلام في الإيمان قضية لا يستطيع أحد أن ينكرها إلا إذا كان معانداً أو منكراً أو أعمى بصيرة. فقضية سابقته في الإيمان وبكل ما جاء به الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من تعاليم وقيم سماوية هي بلا شك من الأمور المسلم بها عند كافة المسلمين.

أما السبب الثاني فهو إمكانية ذكر مسألة إيمانه عليه السلام في معرض الحديث عن جوانب أخرى من شخصيته الكريمة مما لا يستدعي أن أفرد باباً مستقلاً لما قاله المفكرون والأدباء المسيحيون عن إيمانه المبكر والسابق على إيمان كل المسلمين شيباً وشباناً.

ولكن سرعان ما عدلت عن الفكرة إلى نقيضها وذلك بتأثير قوي وحاسم من المفكرين المسيحيين أنفسهم، فقد وجدت تأكيداً شديداً في كتب أولئك المسيحيين المعاصرين على فكرة إيمان الإمام علي عليه السلام المبكر وعلى أنه السباق إلى إعلان إيمانه وتصديقه بالرسالة السماوية الأخيرة التي بعث الله بها هداية ونوراً لكل الناس أجمعين.

وعلى أية حال، فسوف نقوم سوية بجولة سريعة في رحاب مؤلفاتهم لنقرأ ما كتبوه عن إيمانه وعن فلسفة ذلك الإيمان العميق بما جاء به وحي السماء إلى أهل الأرض.

وقبل أن ندخل في جوهر موضوعنا، أحب أن أذكر أن المفكر الفرنسي (فولتير) الذي أثر على الفكر الأوروبي قاطبة خلال القرن الثامن عشر حتى أنه، وبسبب تأثيره الفكري الشديد على ذلك العصر، فقد أعطى اسمه لذلك القرن من الزمان حتى أنه عرف باسم (عصر فولتير)، قد قال عبارة جريئة هاجم فيها التعصب الديني الأعمى المبني على العاطفة لا على العقل، وما تلك العبارة الجريئة إلا قوله: «إن الذي يعتنق ديناً من الأديان من غير تفكير، شأن الأغلبية من الناس، لهو أشبه بالثور الذي يستسلم للنير ويحمله على عنقه راضياً مختاراً»[1].

ولا نعتقد أن فولتير قد جانب الصواب أبداً، ولكن الذي دعاني إلى الاستشهاد بهذه المقولة القصيرة والمعبرة للفيلسوف الفرنسي فولتير هو أن البعض من المفكرين والدعاة المسلمين لا يزال حتى أيامنا هذه يحاول، وبدافع التعصب الأعمى، أن يقلل من أهمية إيمان علي عليه السلام، معللاً ذلك بأنه كان أول من آمن (من الصبيان) وليس من الرجال محاولين بذلك أن يقولوا لعامة الناس إن إيمان علي عليه السلام المبكر كان نابعاً من العاطفة وليس من العقل.

وبالتأكيد، فإن هذا التعصب من قبل مناوئي الإمام علي عليه السلام في الماضي والحاضر ما هو إلا محاولة يائسة منهم للتخفيف والانتقاص من منزلة الإمام

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ ص١٤٧.

ومكانته من جهة، ولرفع شأن من هم دونه في كل الصفات والفضائل من جهة أخرى. ويمكننا أن نشبه ذلك المتعصب الأعمى الذي يريد أن يحط من قدر الإمام علي عليه السلام كي يرفع من قدر من هم دونه بمن يحاول أن يقنع الناس أن الشمس هي التي تستمد نورها من كوكب ضئيل يقبع بعيداً بين آلاف الكواكب الأخرى المنتشرة في سمائنا وليس العكس؟!!

وعلى كل حال، فإن الشيء اللافت للنظر في كتابات المسيحيين المعاصرين عن مسألة إيمان علي عليه السلام هو تأكيدهم الدائم على وجود علاقة قوية بين إيمان علي عليه السلام وإيمان أبيه أبي طالب عليه السلام، شيخ البطحاء ومؤمن قريش، فالأديب أو المفكر المسيحي لا يرى في شخصية أبي طالب عليه السلام إلا صورة الرجل المؤمن الذي يدفع أولاده لحمل أعباء الرسالة الإسلامية مع ابن عمهم الذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى وجعله للناس نبراساً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

فالإمام علي الذي تكلمنا سابقاً عن ولادته داخل الكعبة، وتكلمنا عن بعض معاني تلك الولادة الفريدة كما يراها الفكر المسيحي المعاصر، هي في محصلة الأمر الولادة القادرة على إعطاء مؤشرات واضحة على مدى عمق ارتباط مكان الولادة بالوليد. فالكعبة التي هي قبلة كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، هي المكان المقدس الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى بشد الرحال إليه من أجل الحج ولو لمرة واحدة في رحلة العمر. وكما نعرف جميعاً فإن الله قد جعل الحج إلى بيته، مهد علي عليه السلام، واجباً على كل مسلم، ولكن بنفس الوقت فإن الله قد ربط ذلك الواجب بالاستطاعة. ومصداق ذلك قوله في

محكم تنزيله الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1] أي إن الله قد أمر المسلمين بإبقاء عقولهم مهيأة دائماً للتفاعل مع واجب الحج إلى بيته الشريف، فيبقى الحج بذلك هاجس كل مسلم مقتدر على تحمل أعباء السفر وعنائه من أجل تلبية النداء الإلهي.

وهنا يمكن أن يتبادر إلى ذهن أي واحد منا السؤال التالي:

ماذا بشأن حج علي عليه السلام إلى الكعبة التي ولد فيها وظهر منها، وهل لذلك علاقة بإيمانه؟

في الحقيقة، إن الإمام علياً عليه السلام بالمنطق السليم قد ولد مؤمناً وحاجاً بنفس الوقت. فلحظة ولادته هي لحظة حجته، أما ما يتعلق بإيمانه، فهذا أمر سنحيله إلى بعض كتب الرواة والمؤرخين من أجل أن نعرف القارئ على التاريخ الحقيقي لإيمان علي عليه السلام في السماء قبل إيمانه على الأرض.

فعلى سبيل المثال، ينقل لنا المحب الطبري في كتابه (الرياض النضرة) حديثاً لخير الأنام، الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أول خلق الله وخاتم رسله، يقول فيه:

«كنت أنا وعلي نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف عام..»[2].

وهناك أيضاً جملة من الأحاديث النبوية الشريفة المشابهة لمعنى الحديث الذي ذكرناه الآن والتي تؤكد كلها على قدم النور المحمدي - السابق على وجود

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) المحب الطبري: الرياض النضرة، مطبعة الاتحاد، ط١، ج٢ ص١٦٤.

النور الآدمي لسيدنا آدم عليه السلام.

وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن الله خلقني وخلق علياً وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام حين لا سماء مبنية ولا أرض مدحية ولا ظلمة ولا نور ولا شمس ولا قمر ولا جنة ولا نار»[1].

ومن خلال هذين الحديثين النبويين اللذين أوردناهما على سبيل المثال لا الحصر، نستطيع أن نقول إن الذي خُلِقَ نوره قبل آدم عليه السلام، لا حاجة لنا لإثبات إيمانه لأن نوره هو في الحقيقة نور الإيمان.

وبالتالي، فإن المعادلة الإيمانية بين علي وآدم تصبح كالتالي:

بالنسبة إلينا، نحن البشر، إنّ آدم عليه السلام أقدم من علي عليه السلام في الوجود المكاني الأرضي، بينما الإمام علي أقدم من آدم في الوجود الزماني السماوي، فآدم بالنسبة إلينا أقدم في الظهور، بينما الإمام علي عليه السلام سابق على آدم بالنور.

وقد عبّر الشاعر الأديب عبد الباقي العمري، سليل عمر بن الخطاب، عن هذه الحقيقة بقوله عن علي وعلاقته بآدم عليهما السلام:

إن لله في معانيك سراً ... أكثر العالمين ما علموه
خلق الله آدمَ من ترابٍ ... فهو ابنٌ لك وأنت أبوه[2]

ولكن نستطيع أن نتبين هنا رفض الشاعر (العمري) حتى الحقيقة أن يكون

---

(١) ميرزا جواد ملكي التبريزي: السير إلى الله، مصدر سابق، ص٨٣.

(٢) عبد الباقي العمري: ديوان الترياق الفاروقي، دار النعمان - النجف الأشرف، ط١٩٦٤/٢، ص١٢٦.

آدم هو الوالد وعلي هو الولد، بل نرى العمري، في محاولة ذكية منه للفت انتباهنا إلى نقطة هامة، يحاول أن يقول لقرّائه إن الإمام علياً عليه السلام الذي لقبه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي تراب، فقد لقب بذلك لغاية غير خفية عند العارفين والمحبين لأهل البيت عليهم السلام، فعلي عليه السلام الملقب بأبي تراب هو والد آدم الترابي لأنه هو الأقدم ونوره هو الأعظم. وباختصار، فإن العمري قد أراد أن يقول لنا إن الإمام علي أقدم من سيدنا آدم بالوجودين المكاني والزماني.

وإذا كان كل المفكرين والأدباء المسيحيين في الشرق والغرب قد تحدثوا عن أسبقية إيمان علي عليه السلام برسالة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، فإن ذلك لا يعني أنهم كلهم قد تحدثوا عن هذه المسألة من نفس الزاوية ومن نفس المنطلق. ولو تصفحنا كتاب (تاريخ العرب والشعوب الإسلامية) للمستشرق (كلود كاهن)، بإمكاننا أن نرى كيف صوّر لنا (كاهن) الظروف الصعبة المحيطة بولادة الرسالة الإسلامية والظروف العسيرة التي واجهتها في مراحلها الأولى. وبإمكاننا أيضاً أن نقرأ كيف أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد جوبه من قبيلته بكل ازدراء واحتقار نتيجة محاولته الثورة على الأعراف والتقاليد والعقائد الدينية البالية. وقد اعتبر المستشرق (كاهن) أن أول مصدق برسالة المصطفى صلى الله عليه وآله هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام [1] ونتيجة أسبقية الإمام علي عليه السلام في إيمانه بتعاليم رسالة السماء، وكونه ابن عم النبي وصهره ومن المقربين جداً منه - كما يقول (كاهن)- فإن الإمام علياً عليه السلام كان لاحقاً «في رأي المسلمين الرجل الذي خبر سنة الرسول

(١) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة - بيروت ١٩٧٢، ص١٦.

خبرة تامة فكان الضمانة الكبرى لبقائها على قيد الوجود»[١].

وإذا كان المستشرق المعاصر (كلود كاهن) يرى أن الضمان الأقوى والوحيد لبقاء الإسلام حياً على قيد الحياة ومسرح الوجود هو الإمام علي عليه السلام دون سواه، فإن الدكتور المصري (نظمي لوقا) يرى أن أبا طالب، والد الإمام علي عليه السلام، يمثل في الرسالة الإسلامية دور الجندي المجهول لأنه كان دائماً نعم الكفيل والمحامي عن ابن أخيه صاحب الرسالة السماوية الخالدة التي آمن بها ودفع ابن أخيه صلى الله عليه وآله للتشبث بدينه السماوي قائلاً له بكل إيمان وقوة: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً»[٢].

وقد أراد الدكتور المفكر (لوقا) أن يبيّن للقارئ من خلال ذلك أن أبا طالب عليه السلام، عم الرسول ووالد الإمام علي، كان سنداً قوياً وركناً وثيقاً يلجأ إليه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله عند النوائب والمحن، وإلا لما دعى الرسول الكريم صلى الله عليه وآله العام الذي توفيت فيه خديجة بنت خويلد وعمه أبو طالب بـ (عام الحزن)!!!

أما المستشرقان الفرنسيان المعاصران (دومينيك وجانين سورديل) فقد تكلما عن إيمان علي عليه السلام وسابقته إلى الإسلام بشكل واضح وجلي، ولكنهما ربطا وبشكل وثيق بين إيمان أبي طالب وإيمان ابنه الإمام علي عليه السلام. وقد أكد هذان الباحثان على أن محمداً صلى الله عليه وآله والمسلمين الأوائل ومن بينهم الإمام علي عليه السلام قد

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٣.

(٢) د. نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة، ط١/١٩٥٩، ص١١٣.

تعرضوا لضغوط شديدة لا يمكن احتمالها من قبل القرشيين، ولكن هذه الضغوط الهائلة ما كان لها أن تظهر وتمارس بشكل واضح وبطريقة استفزازية قاهرة إلا بعد وفاة أبي طالب سنة ٦١٩[١].

وهذا بلا ريب، يفسر ويوضح دور أبي طالب عليه السلام في رفع راية التوحيد تحت شعار لا إله إلا الله، محمد رسول الله، خاصة وأن أبا طالب هو الذي قام بجمع الأنصار الأوائل لمحمد صلى الله عليه وآله وحضهم على اتباع الديانة الجديدة التي جاء بها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله عن الوحي الأمين هداية ورحمة للعالمين[٢].

وقد نستغرب لأول وهلة عندما نعلم أن فيلسوف ألمانيا وشاعرها الأعظم (يوهان غوته) كان له باع طويل في التحدث عن الإسلام وعن أعلامه العظام مثل محمد وعلي وفاطمة الزهراء عليهم السلام وعلى الرغم من أن هذا العبقري الألماني لا يندرج تحت قائمة المفكرين المسيحيين المعاصرين، إلا أننا أردنا أن نستشهد بما قاله عن الإسلام وعن أهل البيت عليهم السلام نظراً لما لهذا الأديب والفيلسوف من أثر كبير على كل أدباء أوروبا قاطبة وليس على أدباء ألمانيا فقط، هذا بالإضافة إلى عامل آخر سأذكره لاحقاً.

وهذا المفكر الألماني العملاق غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) هو عبارة عن إنسان موسوعي الفكر. فهو أديب وسياسي وعالم وفيلسوف ومرجع ثقافي عام. وهذا المفكر الشاعر الذي تغنى بالشرق منذ صباه الباكر واهتم بروائعه وآثاره الفكرية والروحية، فقد اهتم أيضاً، من خلال أدبه، بشخصية الرسول

(١) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، مصدر سابق، ص٢٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٧.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعلي وفاطمة عليهما السلام، ومن المعروف عنه أيضاً أنه قد درس القرآن الكريم وحفظ قسماً كبيراً منه وآمن بالكثير مما جاء فيه، وقد صاغ ذلك شعراً ونثراً مثل قوله:

«لله المشرق ولله المغرب، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعاً. هو الحق، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه، له الأسماء الحسنى، وتبارك اسمه الحق وتعالى علوا كبيراً، آمين»[1].

وقد تحدث الأديب عباس محمود العقاد عن إيمان (غوته) بالكثير من التعاليم والمبادئ الإسلامية، وقد ذكر في كتابه (مجموعة أعلام الشعر) أن غوته كان إنساناً موسوعياً من حيث سعة اطلاعه على العديد من أبواب العلوم والمعارف، وقد أكد على أن (غوته) قد «نهل من الآداب الشرقية مع الناهلين، وقرأ السيرة النبوية وهو في نحو الرابعة والعشرين، واطلع على القرآن وأمعن فيه إمعان الأديب وإمعان الباحث عن الأديان، فاصطبغت كتاباته الدينية بصبغة قرآنية كما يرى القارئ في كلامه عن الله ودلائل وجوده»[2].

وهنا يمكنني أن أذكر العامل الثاني الذي دفعني للاستشهاد بما قاله (غوته) عن الإسلام وعن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إن النمط الفكري (لغوته) والآثار الفكرية الهائلة التي خلفها وراءه قد فتحت أبواب الثقافة على مصراعيها أمام أدباء ومفكري أوروبا المسيحية كي يعيدوا حساباتهم عن الإسلام وعن رسالة

(١) جميل جبر: من الأدب الألماني، دار الريحاني للطباعة والنشر - بيروت، د ت، ص١٧

(٢) عباس محمود العقاد: مجموعة أعلام الشعر، دار الكتاب العربي ... ت، ط ... ص٥٢٣.

محمد صلى الله عليه وآله ، ومن ثم أن يحسنوا ظنهم بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي جاء ليخرج الناس جميعاً من كهوف الظلام إلى مرابع النور والضياء.

وبالعودة إلى جوهر موضوعنا ثانية ، نرى أن غوته يصف الإمام علياً عليه السلام في كتابه (الشعر والحقيقة) بالمؤمن الأول بالرسالة السماوية إلى جانب السيدة خديجة زوجة الرسول محمد صلى الله عليه وآله ، ويصف غوته ذلك الإيمان المبدئي من الإمام علي عليه السلام بأنه الانحياز الكلي والمطلق إلى رسالة محمد صلى الله عليه وآله [1]، وغنيٌ عن القول إن غوته لا يقول كما يقول بعض المسلمين المتعصبين إن علياً كان أول مسلم من (الصبيان)!!! فهو أرفع وأسمى أن يتناول تلك القضايا التي لا تعكس الا ضحالة فكر صاحبها.

بل على العكس من ذلك تماماً ، فقد كتب غوته مسرحية قصيرة تفيض رقة وعذوبة ، وتتناول تلك المسرحية دور الإمام علي عليه السلام الإيماني إلى جانب زوجته الزهراء فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله في محاولتهما الصادقة والدؤوبة لجعل الدين الجديد ينتشر خارج حدود القبيلة والعشيرة.

ولا بأس هنا في أن نذكر شيئاً منها ، كما ذكرتها الأستاذة (كاتارينا مومزن) أستاذة الأدب الألماني في جامعة استانفورد الأمريكية في كتابها القيم (غوته والعالم العربي).

وقبل أن تذكر الأستاذة (مومزن) تلك المسرحية الموضوعة على لسان الإمام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام هذين المؤمنين والمبشرين بقوة الرسالة الإسلامية

(١) يوهان غوته: الشعر والحقيقة، ترجمة: محمد جديد، وزارة الثقافة - دمشق، ١٩٩٢، ج٢ ص٣٧٨.

القادمة بعزم وإصرار، فقد علقت على تلك المسرحية القصيرة بقولها إن تلك المسرحية «تصور النبي بوصفه هادياً للبشر في صورة نهر يبدأ بالتدفق رقيقاً هادئاً، ثم لا يلبث أن يجيش بشكل مطرد ويتحول في عنفوانه إلى سيل عارم، وهي تصور اتساع هذا النهر وتعاظم قوته الروحية في زحفه الظافر الرائع ليصب أخيراً في البحر المحيط، رمز الألوهية... وجاءت (هذه المسرحية) على شكل حوار يدور بين فاطمة ابنة النبي الحبيبة وزوجها علي الصحابي الشجاع كرم الله وجهه»[1].

أما المسرحية ذاتها، فيمكننا أن نذكر شيئاً منها الآن، وذلك للتأكيد على دور علي عليه السلام الإيماني في التبشير والدعوة إلى رسالة محمد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والحث على اتباعه والإيمان به بعمق مثلما آمن هو به باكراً في الوقت الذي سفهه فيه الآخرون.

وإليك الآن بعض ما جاء في تلك المسرحية المذكورة:

علي: انظروا إلى السيل العارم القوي، قد انحدر من الجبل الشامخ العلي، أبلج متألقاً كأنه الكوكب الدري.

فاطمة: لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير في مهده بين الصخور والأدغال.

علي: وإنه لينهمر من السحاب، مندفعاً في عنفوان الشباب، ولا يزال في

---

(١) كاتارينا مومزن: غوته والعالم العربي (عالم المعرفة) العدد ١٩٤، ترجمة: د. عدنان عباس علي، الكويت عدد شباط ١٩٩٥، ص٢٠٤.

انحداره على جلاميد الصخر، يتنزى فائراً، متوثباً نحو السماء، مهللاً تهليل الفرح.

فاطمة: جارفاً في طريقه الحصى المجزع، والغثاء الأحوى.

علي: وكالقائد المقدام، الجريء الجنان، الثابت الخطى، يجر في أثره جداول الربى والنجاد.

فاطمة: ويبلغ الوادي، فتتفتح الأزهار تحت أقدامه، وتحيا المروج من أنفاسه.

علي: لا شيء يستوقفه، لا الوادي الوارف الظليل، ولا الأزهار تلتف حول قدميه وتطوق رجليه، وترمقه بلحاظها الوامقة، بل هو مندفع عجلان صامد إلى الوهاد.

فاطمة: وهذه أنهار الوهاد تسعى إليه في سماح ومحبة، ومستسلمة له مندمجة فيه. وهذا هو يجري في الوهاد، فخوراً بعبابه السلسال الفضي.

علي: الوهاد والنجاد كلها فخورة به.

فاطمة: وأنهار الوهاد، وجداول النجاد تهلل جميعاً من الفرح متصايحة.

علي وفاطمة (في صوت واحد): خذنا معك! خذنا معك!

فاطمة: خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلي، الذي ينتظرنا باسطاً ذراعيه، لقد طال ما بسطهما ليضم أبناءه المشتاقين إليه.

علي: وما كان هذا الفيض كله ليبقى مقصوراً على الصحراء الجرداء، ما كان هذا الفيض ليفيض في رمال الرمضاء، وتمتصه الشمس الصالبة في كبد

السماء، ويصده الكثيب عن الكثبان، فيلبث عنده غديراً راكداً من الغدران. أيها السيل، خذ معك أنهار الوهاد.

فاطمة: وجداول النجاد.

علي وفاطمة (في صوت واحد): خذنا معاك! خذنا معك!

علي: هلمَّ جميعاً، هو ذا العباب يطمُّ ويزخر، ويزداد عظمة على عظمة. هو ذا شعب بأسره، وعلى رأسه زعيمه الأكبر، مرتفعاً إلى أوج العلا، وهو في زحفه الظافر يجوب الآفاق ويخلع أسماء على الأقطار، وتنشأ عند قدميه المدائن والأمصار.

فاطمة: ولكنه ماضٍ قُدماً لا يلوي على شيء، لا على المدائن الزاهرة، ولا على الأبراج المشيدة أو القباب المتوهجة الذرى، ولا على صروح المرمر، وكلها من آثار فضله.

علي: وعلى متن عبابه الجبار تجري منشآت السفن كالأعلام، شارعة أشرعتها الخافقة إلى السماء، شاهدة على قوته وعظمته. وهكذا يمضي السيل العظيم إلى الأمام بأبنائه.

فاطمة: ويمضي إلى الأمام ببناته.

علي وفاطمة (في صوت واحد): إلى أبيهم، ذلك البحر العظيم، الذي ينتظرهم ليضمهم إلى صدره، وهو يهلل ويكبر زاخراً بالفرح العميم[1].

ولا شك في أن الذي يقرأ هذه المسرحية الموجزة مع الدراسات النقدية

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٠٤-٢٠٦.

والتحليلات الأدبية الكثيرة التي كتبت عنها، سيعرف مباشرة مدى تأثر (غوته) بأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة. فالنبي محمد صلى الله عليه وآله هو رسول السماء إلى أهل الأرض، والإمام علي عليه السلام، ذلك المؤمن الأول هو - بالنسبة لغوته - الناشر والحافظ لتعاليم ومبادئ الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في أمته، وهو الهادي إليها قولاً وعملاً، وذلك من خلال أخلاقياته وسلوكه وقيمه النبيلة داخل وخارج حدود العشيرة والقبيلة وحتى الأمة، وفاطمة عليها السلام هي البتول الطاهرة وابنة الرسول وزوجة الإمام التي تذوب شوقاً لتبليغ هذه الرسالة مع زوجها المرتضى وأبيها المصطفى صلى الله عليه وآله[1].

وقد رأى المستشرق الفرنسي، العلامة (جان جاك سيديو ١٧٧٧-١٨٣٢) في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) أن إيمان علي عليه السلام المبكر حقيقة لا سبيل إلى الطعن بها، وذلك لأن الإمام علي عليه السلام كان حقاً أول المؤمنين وأول المؤازرين لمحمد الرسول صلى الله عليه وآله. ومما لا يمكن نقضه أو الانتقاص منه هو أن الرسول صلى الله عليه وآله قد عيّن علياً ونصّبه أخاً ووصياً وخليفة على كل المسلمين أمام زعماء قريش، وذلك عندما عرض عليهم أمر رسالته وطلب مؤازرتهم فرفضوا جميعاً عرضه إلا علي عليه السلام الذي قبل ذلك العرض وأعلن وقوفه الكامل إلى جانبه[2] من أجل رفع راية التوحيد وإعلاء كلمة الحق.

وقد ربط العلامة (سيديو)، شأنه في ذلك شأن الكثير من المستشرقين، بين

(١) راجي أنور هيفا: أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله في فكر الفيلسوف يوهان غوته، النور العدد ١١٠، لندن، تموز ٢٠٠٠، ص٦٣.

(٢) العلامة سيديو: خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار - بيروت، ١٤٠٠هـ، ص١٤.

دور علي عليه السلام المبكر في الإسلام وبين دور أبيه، أبي طالب عليه السلام، فأبو طالب هو كهف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وملاذه، وهو سيفه القاطع ودرعه المانع، وهذا ما عبر عنه (سيديو) بقوله: «وحفظ الله رسوله بعمه أبي طالب»(١). ولكن بعد وفاة ذلك العم الجليل عليه السلام استطاعت قريش أن تنال من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأن تصب جام غضبها وحقدها القديم عليه، وكان من دعائه المأثور عنه بعد وفاة حاميه وسنده أبي طالب عليه السلام، واجتماع أعدائه عليه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين..»(٢). وبهذه الكلمات القصيرة والمعبرة، استطاع العلامة الفرنسي (سيديو) أن يلخص دور أبي طالب عليه السلام في رفع لواء الإسلام، وفي الدفاع عن مبادئ خاتم الرسل والأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يختلف رأي المستشرق الفرنسي (سيديو) عن رأي المؤرخ والناقد الايرلندي (توماس كارلايل ١٧٩٥-١٨٨١) الذي كان معاصراً له ومتشابهاً معه في الكثير من الأفكار بشأن الرسالة الإسلامية وكيفية قراءة تاريخها والتعامل معها.

ويرى هذا المؤرخ الايرلندي ذو النظرة الثاقبة والذي يلقب في الغرب بـ(الفيلسوف) أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم هو أحد أعظم الرجال الأبطال في تاريخ البشرية الطويل، وليس هذا فحسب بل نراه يؤكد بنفس الوقت على الدور الريادي الذي قام به الإمام علي عليه السلام إلى جانب ابن عمه من أجل إيجاد هوية

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٤٥.

روحية جديدة للإنسان على مدى امتداد ما تبقى من عمر البشرية المعذبة بنير العبودية لغير الله وظلم الإنسان لأخيه الإنسان. وهذا ما عبر عنه الفيلسوف (كارلايل) من خلال وصفه للإمام علي عليه السلام وهو يجاهر بإيمانه ويعلن قبوله التام لتحمل أعباء الرسالة السماوية المقدسة إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله. ويرى (كارلايل) أنه في الوقت الذي التقت فيه يد علي الصغير بيد محمد، عندئذٍ فقط، أصبح للحياة معانٍ أخرى جديدة، وعند ذلك تغيرت أيضاً مسيرة التاريخ[1].

لقد تغيرت مسيرة التاريخ حقاً لأن أحد الأهداف الأساسية للرسالة الإسلامية التي جاء بها الرسول الأمين صلى الله عليه وآله هو تغيير الوجه الروحي للإنسان محلياً، ومن ثم الارتقاء بذلك التغيير إلى مستوى التغيير الشامل للإنسان أينما وجد، لأن حدود الرسالة الإسلامية التي تمثل الكلمة الإلهية الأخيرة لبني الإنسان هي البشرية بأكملها، حيث إن هذه الرسالة قد جاءت تشمل كل بني البشر[2] -كما يقول المستشرق الفرنسي المعاصر مكسيم رودنسون - ولم تأت من أجل أمة واحدة دون غيرها من الأمم والشعوب.

وهذه الرسالة السماوية الشاملة لكل المفاهيم الإنسانية هي الرسالة التي يراها المستشرق (رودنسون) جديرة بالانطلاق والانتشار كي تلفَّ العالم بأكمله بكل عوامل الاستقرار الروحي والاجتماعي.

(١) د. علي شريعتي: منهج التعرف على الإسلام، طهران ١٩٨٠، ص٢٢.

(٢) مكسيم رودنسون: العرب، ترجمة: د. خليل أحمد خليل، دار الحقيقة - بيروت، ط١/ ١٩٨٠، ص٣٧.

وهذا ما يؤكده بدوره المستشرق (ليوبولد فايس)، والذي أسلم لاحقاً وعرف باسم (محمد أسد)، على ما قاله (رودنسون) معبراً عن وجهة نظره، هو الآخر، تجاه الرسالة الإسلامية التي جاء بها المصطفى صلى الله عليه وآله لتكون الحجة الأخيرة على الناس أجمعين:

«إن علينا ألا ننسى أبداً أن رسالة الإسلام رسالة خالدة، وأنها لذلك يجب أن تظل مفتوحة أمام العقل الإنساني الذي لا يكلُّ عن البحث والدراسة، كما أننا كلما ازدادت ثقافتنا وانداحت دائرة علومنا استطعنا أن نفهم بصورة أوضح من ذي قبل كنوز الحكمة التي ينطوي عليها القرآن الكريم وأسوة الرسول صلى الله عليه وآله»[(١)].

وإذا تركنا جانباً ما يقوله مكسيم رودنسون أو ليوبولد فايس بشأن طبيعة الرسالة الإسلامية وعالميتها، أو حتى ما يقوله الفيلسوف الألماني يوهان غوته الذي يرى أن كل إنسان بطبيعته مسلم، لأن الرؤية الخاصة لغوته تتلخص بقوله عن الإسلام وعن معنى هذه الكلمة: «إذا كان الإسلام معناه التسليم لله، فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعاً»[(٢)].

فإذا تركنا كل هذا جانباً واتجهنا بفكرنا إلى سؤال حساس يمكن أن يطرق أبواب أفكارنا بإلحاح وإصرار بالغين، والسؤال هو:

---

(١) ليوبولد فايس (محمد أسد): منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور ماضي، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٥٧، ص٦٠.

(٢) يوهان غوته: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط٢/ ١٩٨٠، ص٣٧.

ألا يمكن أن تكون قضية إيمان علي عليه السلام المبكر جداً، والتي تناولها المفكرون المسيحيون في مؤلفاتهم مستوحاة من مؤلفات ذات منظور عقائدي أحادي الجانب، أي وبكل وضوح، من مؤلفاته خطتها أيادٍ وأقلام شيعية فقط دون التأكد من وجودها في مؤلفات السنة؟!

في الواقع، لا يخلو الأمر من وجود بعض المتحاملين على الإمام علي عليه السلام وعلى كل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله. وهذا برأيي شيء طبيعي قابل للحدوث في كل زمان ومكان، وفي ظل أي ظروف أخرى من شأنها أن تهدد مصالح فئة ما أو شريحة ما في حال وجود ذلك الشخص المميز الذي ينادي بإقامة العدل وإحقاق الحق بين الناس ما يشكل تضارباً واضحاً مع منافعها الخاصة ومع مصالحها المادية المبنية على استغلال جهود وحقوق الآخرين.

ألَمْ يحدثنا التاريخ عن وجود أعداء جهال ومرتزقة وأصحاب مصالح أشاروا بأصابع الاتهام إلى الفيلسوف الحكيم (سقراط) الذي كاد بإنسانيته السامية وبمبادئه النبيلة أن يكون نبياً؟!! ألم يحكم أولئك الجهال عليه بالسجن، ومن ثم بالإعدام بتهم مختلفة وأبعد ما يكون عنها!!

ألم يكن هناك أيضاً أعداء حقيقيون للزعيم الهندي الكبير (المهاتما غاندي) الذي كان رمزاً للتسامح الإنساني والزهد الحقيقي حيث إنه كان يتخذ من الإمام الحسين عليه السلام مثله الأعلى في الحياة من خلال تكرار قوله الشهير أمام الجماهير الهندية: «تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر»[1].

---

(١) عبد الله المتفكي: الثورة الحسينية في الفكر العالمي، راجع مجلة الثقافة الإسلامية العدد ٥٠، إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، عدد تموز ١٩٩٣، ص٤٥.

ألم تنته حياته المثقلة بالثمار اليانعة بعدة طعنات غادرة من متعصب معاند لمسيرة الحياة ومخالف لأبسط القيم الإنسانية؟!!

نعم، لقد قتل الكثير من العلماء والأدباء والفلاسفة، وطرد مئات الشرفاء والمصلحين ورجال المبادئ الفاضلة والقيم النبيلة السامية من بلدانهم وشردوا عن أوطانهم بتهم شتى وادعاءات باطلة زائفة.

وبالطبع، لا يمكننا أن ننسى أو أن نتناسى نصيب الرسل والأنبياء والرجال الصالحين من العذاب والاستضعاف، بل حتى ومن القتل أيضاً، كما كان الحال في بني إسرائيل وعلاقتهم بأنبيائهم الذين كانوا يقتلون وينحرون كما تنحر الخراف الضعيفة التي لا حول لها ولا قوة.

وعلى الرغم من هذه الحقيقة المرة والواقع الأليم، يبقى السؤال قائماً دائماً وأبداً:

لم كان يعذب ويقتل الكثير من الأنبياء والصلحاء ويشردوا عن ديارهم وأهليهم بغير وجه حق؟

وهل يستطيع أحد ما أن ينكر أن الكثير من الثوار والمصلحين قد دفعوا أرواحهم ودماءهم ثمناً لمبادئهم ومواقفهم التي تدعو إلى النزاهة والفضيلة وإلى اعتناق كل القيم الخيرة النبيلة؟!

إنه شيء طبيعي أن يحارب صاحب المبادئ بمبادئ مضادة، وصاحب القيم بقيم مناقضة، وصاحب الرسالة والعقيدة بعقائد مغايرة ومختلفة شكلاً ومضموناً.

ويكفي أن نذكر قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أنه ما أوذي نبي في قومه قط

مثلما أوذي هو شخصياً!!

ولذلك فمن الطبيعي جداً أن يكون الأذى والتحامل الذي لحق بالإمام علي عليه السلام شيئاً طبيعياً لأنه صاحب قضية ومبادئ وقيم ورسالة، إنها الرسالة التي تمثل عمق الرسالة المحمدية وصداها. أو بتعبير آخر، إنها كالرسالة التي حملها هارون مع أخيه موسى عليهما السلام.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الأمر قد وصل بالبعض من الكتاب المسلمين المعاصرين إلى حدّ أنهم حاربوا الإمام علياً وأهل البيت عليهم السلام عن طريق التحريف المتعمد للكثير من الحقائق الإسلامية الهامة التي تبين فضلهم ومكانتهم لدرجة أن بعضهم قد شوّه الصلاة الإبراهيمية التي أمر رسول الله بها، حيث من المعروف تماماً بالنسبة لكل مسلم أن الصلاة الإبراهيمية قائمة ومبنية على طلب الصلاة والسلام من الله سبحانه وتعالى على محمد وآل محمد مثل صلاته سبحانه وتعالى على إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم. وقد قام البعض بتحريف نص الصلاة من أجل نزع وتشويه وحذف ذكر أهل بيت النبي عموماً وعلي خصوصاً من تلك الصلاة.

وها نحن نذكر مثالاً واحداً على من قام بالتشويه المتعمد في الصلاة الإبراهيمية. إنه أحد علماء الهند المعاصرين، إنه المؤلف والمفكر المعروف باسم (مولانا محمد علي) الذي أبدى محاولات دؤوبة للنيل من إيمان علي عليه السلام وللتقليل من فضائله وخدماته الجليلة للإسلام وذلك في كتابه (حياة محمد ورسالته). فالذي يقرأ هذا الكتاب المذكور يشعر أن الإمام علياً عليه السلام، من خلال تصوير المؤلف له، عبارة عن إنسان عادي وربما أقل من عادي لم يصل

إلى مرتبة الأخوة مع محمد ولا إلى درجة الإمامة ولا حتى إلى درجة الصحبة الصادقة لمحمد صلى الله عليه وآله !!! فلا نرى له عليه السلام ذكراً في بيعة الدار ولا في حادثة المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله من أجل افتدائه، ولا نقرأ له حادثة واحدة عن شجاعته في المعارك والغزوات، ولا نبصر ونقرأ ولو حديثاً واحداً عن عدله ولا عن بلاغته أو عن علومه لأنه لم يكن أكثر من شخصية عادية لا داعي للوقوف عندها من أجل الحديث عنها!!!

أما الصلاة الإبراهيمية عند ذلك المؤلف (المبدع) المبتدع فهي:

«اللهم صل على محمد وعلى من استن بسنة محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»[1].

فلاحظ أيها القارئ الكريم كيف بدّل ذلك المبتدع عبارة (اللهم صلِّ على محمد وآل سيدنا محمد) بعبارة (اللهم صلّ على محمد وعلى من استن بسنة محمد) ضارباً بالعبارة الأصلية عرض الحائط!!

ألا يذكرنا هذا التحريف المتعمد للصلاة الإبراهيمية الوارد فيها ذكر أهل بيت النبوة عليهم السلام بالكتاب الذي كتبه معاوية بن أبي سفيان والذي يدعو فيه كل عماله - بعد عام الجماعة - إلى تحريف وتشويه كل فضيلة لأهل البيت عليهم السلام وبشكل خاص للإمام علي عليه السلام. وقد روى أبو الحسن بن أبي سيف المدائني في (كتاب الأحداث) نص كتاب معاوية الذي يقول فيه: «برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب (علي) وأهل بيته». وأضاف المدائني معلقاً على ذلك

(١) محمد علي: حياة محمد ورسالته، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط١٩٧٦/٣، ص٤٤.

بقوله: «فقامت الخطباء في كل مكان وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه»[(١)].

ومن الطبيعي جداً ألا يستقيم الأمر لمعاوية حتى يحاول جاهداً أن يمحو كل أثر لإيمان أهل البيت عليهم السلام ولفضائلهم وسابقتهم في الإسلام. وها هو يدعو أتباعه من أقربائه الأمويين أن يعيثوا في الأرض فساداً، يسرقون ويقتلون ويغتصبون ويأخذون الناس بالتهم والظنون والشبهات، وقد تجاوز الظلم في عهده كلّ حدٍّ ووصف، فلم يكتف بظلم علي وأهل بيته عليهم السلام والانتقاص من حقوقهم، بل راح ينتقص من كرامة وحقوق كل من يواليهم أو يدافع عنهم، ولم يدخر جهداً في ظلم واضطهاد من لم يقبل الانخراط في صفوف التبعية له والدفاع عن أفعاله السوداء وتجاوزاته المخزية، أي إنه كان يعتبر أن كل من ليس معه فهو عدوه، إذ لا حل وسط في سياسته الأموية السفيانية.

وبما أن هذا الفصل ليس معداً للكلام عن فضائح معاوية بل عن فضائل إيمان علي عليه السلام وعن دوره في نشر النور الإلهي فوق دياجير الجاهلية والعقائد الوثنية، لذلك سنكتفي بما ذكره الأديب المسيحي الدكتور (جورج جرداق) عن سياسية معاوية وأتباعه الأمويين وذلك في كتابه (بين علي والثورة الفرنسية) كمثال واحد فقط على محاولة معاوية والأمويين تحريف أهداف الرسالة الإسلامية وتشويه رموزها وأعلامها، وها هو يصفهم ويصف أعمالهم قائلاً:

«يطلقون السيوف ترعى في رقاب العباد ولا تشبع، وينهبون الأموال والمتاع

(١) الدكتور نوري جعفر: الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام، مطبوعات النجاح بالقاهرة، ط١٩٧٨/٢، ص٨٥.

والضياع ويسترقون أصحابها، ويبعثون ولاتهم وعمالهم في حواشي البلاد يقتلون ويسلبون ويجورون. فهذا معاوية يعطي عامله على مصر- عمرو بن العاص الذي أعانه على الكيد لعلي - الأرض والأموال والناس ملكاً حلالاً له، وقد جاء في صك هذا العطاء أن معاوية«أعطى عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف بها كيف يشاء» [١].

وعلى كلٍّ حال، ما كان لمعاوية وأمثاله أن يقدروا على محو الرسالة الإسلامية أو تفريغها من محتواها الفكري والروحي طالما أن الناس في كافة أرجاء الأرض الإسلامية يصلون في كل يوم خمس مرات على محمد وآل محمد.

وها نحن الآن نرى كيف أن المسيحيين في مشارق الأرض ومغاربها يكتبون بلهفة وشوق وحماس شديد عن أهل البيت النبوي عليهم السلام وعن فضائلهم بنفس الوقت الذي يكتبون فيه عن بني أمية وعن بني العباس، بل عن كل من عادى علياً عليه السلام وانتقص من حقوقه وحقوق أهل بيته الشريف، وما هذا الكتاب الذي بين يدي قارئنا الكريم والذي يحمل عنوان (الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر) إلا خير دليل وأقوى برهان على ذلك.

وهنا أحب أن أذكر أن المفكر والباحث (مكسيم رودنسون) قد كتب عدة كتب عن العرب وعن تاريخهم العرقي وتاريخهم الإسلامي، وقد اختصت بعض كتاباته بالحديث عن الرسالة الإسلامية كمجموعة من العقائد التي جاء بها آخر نبي على الأرض، وقد ذكر (رودنسون) في كتابه الذي أسماه (محمد) قصة إيمان علي بالتفصيل الدقيق، حيث ذكر أن الإمام علياً عليه السلام هو الصديق

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ ص٧١.

الأول بما جاء به ابن عمه المصطفى صلى الله عليه وآله[(١)]، وقد ذهب إلى تأييد هذه الفكرة وتأكيدها لاحقاً المفكر والباحث الفرنسي المعاصر (يان ريشار) في كتابه (الإسلام الشيعي)[(٢)] وكذلك الحال بالنسبة للباحث والمستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) في كتابه (عقيدة الشيعة)[(٣)].

وإذا كان الكثير من المستشرقين في الغرب قد كتبوا عن مسألة إيمان علي عليه السلام المبكر من وجهة نظر تاريخية دون تحليلها بعمق أو التعليق عليها بما تستحقه، فإن المسيحيين في الشرق لم يقبلوا أن تتوقف أقلامهم عند حدود العرض التاريخي لقضية تلبية الإمام علي عليه السلام لنداء رسالة محمد صلى الله عليه وآله السماوية، بل راحت أقلامهم تعمل بلا كلل أو ملل على دراسة وتحليل الأبعاد الشاملة الناتجة عن ذلك الإيمان العقلاني العميق الذي أبداه علي عليه السلام في سبيل تلبية نداء السماء الأخير لأهل الأرض جميعاً من مشارقها إلى مغاربها. وقد أكد جميعهم على صدق ما جاء على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من قول:

«صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لأنه لم يكن من الرجال غيره»[(٤)].

ولا ريب في أنهم قد قرأوا وأقروا بصدق قول الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أيضاً

---

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطية - بيروت، ط١/١٩٩٦، ص٣٥.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٥.

(٣) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص٦١.

(٤) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودّة، ج١ باب١٢ ص٥٩.

عندما خاطب أصحابه مبيناً لهم مكانة علي عليه السلام ومقامه الرفيع عنده وعند الله سبحانه وتعالى، وما ذلك القول النبوي الشريف إلا قوله صلى الله عليه وآله المشهور: «إن الله تبارك وتعالى اصطفاني واختارني وجعلني رسولاً، وأنزل علي سيد الكتب، فقلت: إلهي وسيدي، إنك أرسلت موسى إلى فرعون، فسألك أن تجعل معه أخاه هارون وزيراً، تشدّ به عضده، وتصدق به قوله، وإني أسألك يا سيدي وإلهي أن تجعل لي من أهلي وزيراً تشدُّ به عضدي. فجعل الله لي علياً وزيراً وأخاً، وجعل الشجاعة في قلبه، وألبسه الهيبة على عدوه، وهو أول من آمن بي وصدقني، وأول من وحَّد الله معي، وإني سألت ذلك ربي عز وجل، فأعطانيه، فهو سيد الأوصياء، اللحوق به سعادة، والموت في طاعته شهادة، واسمه في التوراة مقرون إلى اسمي، وزوجته الصديقة الكبرى ابنتي، وابناه سيدا شباب أهل الجنة ابناي، وهو وهما والأئمة بعدهم حجج الله على خلقه بعد النبيين، وهم أبواب العلم في أمتي، من تبعهم نجا من النار ومن اقتدى بهم هدي إلى صراط مستقيم، لم يهب الله محبتهم لعبد إلا أدخله الله الجنة»[1].

ولذلك، فإننا لا نشك في أن المفكرين المسيحيين قد قرأوا الكثير من هذه الأحاديث النبوية الشريفة التي تبين لأولي النهى والبصائر أن الإمام علياً عليه السلام كان دائماً وأبداً العمق والبعد الاستراتيجيين لرسالة النبي الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في حياته وعند غيابه ومماته. وقد رأى الأديب اللبناني المعاصر (سليمان كتاني) صاحب المؤلفات الكثيرة عن أهل البيت عليهم السلام، أن محمداً

(١) العلامة السيد هاشم البحراني: حلية الأبرار، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، ١٤١٣، ج٢ ص٣٧.

المصطفى صلى الله عليه وآله قارئاً وعالماً حقيقياً لخفايا وأسرار النفس الإنسانية، وكان عارفاً أيضاً للكثير من خبايا تلك النفس من خلال ما أبدعته اليد الإلهية من ملامح وسمات تميزت بها كل صورة إنسانية. ولذلك، فإن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد استطاع بقوة بصيرته وبعلمه اللّدنيّ الإلهي أن يقرأ في ملامح وقسمات الإمام علي عليه السلام منذ أن رأت عيناه ضوء الحياة صورة الرجل القادر على أن يجعل الرسالة السماوية رسالة مستمرة بحيويتها ودائمة بروحانيتها وذلك من خلال إيمانه العميق ومن خلال أولاده الأئمة من فاطمة الزهراء عليها السلام ابنته التي أطلق عليها لاحقاً لقب«أم أبيها» أي أم الرسالة، لأن محمداً صلى الله عليه وآله هو الرسالة نفسها، وهي ستكون، بالتالي، أم الأئمة الحاملين للرسالة والمستمرين بحملهم لها وبصونهم لمبادئها وتعاليمها السماوية الخالدة.

وقد عبر الأستاذ الأديب (كتاني) عن إيمانه العميق بأن الإمام علياً عليه السلام الذي ولد في الكعبة، هو ذلك الشخص العظيم الذي كانت ملامحه وأساريره تدل بكل وضوح وتأكيد على كثرة الأدوار التي يمكن لسيد الرسالة وصاحبها صلى الله عليه وآله أن يسندها إليه في المستقبل. وقد عبر الأديب المسيحي الأستاذ (كتاني) عن ذلك بقوله في كتابه (محمد شاطئ وسحاب):

«إن قراءة الأسارير علم، ولكنه لا يؤخذ أيضاً إلا عن طريق الطوية. هكذا لمح محمد في علي - وهو طفل يلعب - كل ما حققه فيما بعد علي في مضمار وجوده. لهذا انتقل الفتى إلى حجر ابن عمه ليكون أحد أعمدة الفكرة التي تتنزل الآن خيوطها على المتحنث في غار حراء. كل شي يشتغل الآن في إجراء

التحضير: إن علياً اليوم هو عدة الغد»[١].

نعم، إن الإمام علياً عليه السلام اليوم هو عدة الغد، بل هو عدة كل غد، وهو الأمل لمحمد في كل وعد إلهي وفي كل عهد. فالإمام علي عليه السلام، بإيمانه وإخلاصه، هو جيش محمد صلى الله عليه وآله المعد لكل شدة ولكل ليلة ظلماء.

ألم ينقل لنا عمر بن الخطاب ما قاله الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، كما جاء في كتاب (المناقب) للخوارزمي الحنفي، أنه قال عن إيمان علي عليه السلام: «لو أن السماوات والأرض وضعت في كفة ميزان ووزن إيمان علي لرجح إيمان علي على السماوات والأرض»[٢].

وإذا كان هذا هو حال إيمان علي عليه السلام فما هو إذاً حال من يتمسك بحبل ولاية صاحب ذلك الإيمان الذي يعدل، بل يرجح على إيمان أهل السماوات والأرض؟

إن الجواب على هذا السؤال موجود بشكله الجزئي في قول المصطفى صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام وذلك بعد مقدمة طويلة يعدد من خلالها الكثير من فضائل علي عليه السلام التي تفوق العد والوصف:

«... أنت تؤدي ديني وتقاتل على سنتي وأنت في الآخرة أقرب الناس مني، وأنت غداً على الحوض خليفتي تذود عنه المنافقين، وأنت أول من يرد علي الحوض وإنك أول داخل يدخل الجنة من أمتي، وإن شيعتك على منابر

---

(١) سليمان كتاني: محمد شاطئ وسحاب، ص١٢١.

(٢) أخطب خوارزم الحنفي: المناقب، ص٧٧.

من نور رواء مرويين مبيّضة وجوههم حولي. اشفع لهم فيكونون غداً في الجنة جيراني. وإن غداً ظماء مظمئين مسودة وجوههم مقمحين. يا علي حربك حربي وسلمك سلمي وعلانيتك علانيتي وسريرة صدرك كسريرة صدري، وأنت باب علمي وان ولدك ولدي ولحمك لحمي ودمك دمي وان الحق معك والحق على لسانك، ما نطقت فهو الحق... والإيمان مخالط لحمك ودمك كما خالط لحمي ودمي. وأن الله عز وجل أمرني أن أبشّرك أنت وعترتك ومحبيك في الجنة وأن عدوك في النار. يا علي لا يرد الحوض مبغض لك ولا يغيب عنه محب لك»[(١)].

فعندما يكون الإمام علي عليه السلام كذلك، وهو بلا شك أكثر من ذلك، فلا بد أن يكون هو العدة للغد ولكل غد.

وقد تكون العبارة التي سنذكرها الآن للأستاذ (نصري سلهب) حول إيمان علي عليه السلام من أبلغ العبارات التي تصور حقيقة ذلك الإيمان الذي ولد مع علي عليه السلام قبل ولادة الإسلام ذاته على مسرح الوجود. وعن ذلك يقول الأستاذ سلهب: «وعلي ليس أول من أسلم فحسب، بل هو الوحيد بين رفاق الرسول، الذي ولد مسلماً قبل الإسلام، قبل أن ينشر ابن عمه الدعوة»[(٢)].

وبلا شك، فإن ولادة علي وإيمان علي وأخلاق وسلوك علي وتحليق علي في المستوى الذي لا يرتقي إليه فكر البشر ولا ينال حقيقته بعد النظر هو الذي جعل منه إماماً كونياً شمولياً، لا للمسلمين فحسب، بل للمسلمين والمسيحيين

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٧٦.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٥.

وغيرهم من أبناء الديانات والقوميات المختلفة.

ولذلك فقد أكد الأديب والمفكر، الأستاذ (سلهب) على هذه الحقيقة بقوله:

«غير أني وأنا المسيحي قد ألفت الجو، بل المناخ الروحاني في الإنجيل، وتعاليم المسيح في العفة ومحو الذات والمحبة والغفران وطهر الروح إلى آخر ما هنالك من قيم روحية ترقى بالإنسان من ظلمة الأرض إلى غبطة السماء، أشهد وأقرّ أن من كان تلميذ القرآن وربيب الرسول، كعلي بن أبي طالب، ليس لقوم دون قوم آخرين، بل هو للدنيا بأسرها لا زمان يحتويه ولا مكان»(١).

وقول الأستاذ سلهب إن علياً هو للدنيا بأسرها حيث لا زمان يحتويه ولا مكان هو الدليل على أن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام الذي يحتاج إليه الكل في الوقت الذي هو فيه في حالة استغناء عن الكل. وما قوله عليه السلام: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»(٢) إلا أحد الأدلة والحجج التي تثبت أنه قد تدرج في مراقي الإيمان حتى صار على درجة السلم الأخيرة والعليا منه، أي إلى درجة (قاب قوسين أو أدنى)، فلا حجاب بينه وبين الحقيقة المعنوية الذاتية. وهذا ما عبر عنه المتصوف الشهير (أبو المعالي صدر الدين القونوي) في كتابه الثمين (شروح الأربعين حديثاً) من خلال شرحه لحديث أمير المؤمنين عليه السلام السابق الذكر، حيث قال عنه: «أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بقوله: لو كشف

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٤١.

(٢) الجاحظ: ١٠٠ كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، اختارها الجاحظ وشرحها أبو الثناء أحمد بن محمد الزيلي السيواسي، طبع دار المختارات العربية - بيروت، ص١٧.

الغطاء ما ازددت يقيناً. أي لو رفع الحجاب المسدل على أبصار الجمهور وبصايرهم ما ازددت يقيناً، لأن الحجاب مرفوع عني الآن»[١].

ولما كان الأمر في حقيقته كذلك، فقد أصاب الأستاذ (سلهب) في وجهة نظره السابقة بل إنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال: «هو أمير المؤمنين، جميع المؤمنين، مسيحيين ومسلمين، لأنه عاش إيمانه في أعماقه والروح.... فسما بنا إلى أجواء لو كان لنا القدرة على أن نعيش فيها، لزالت الحواجز بين البشر»[٢].

ونحن ندرك تمام الإدراك أنه حيث تزول الحدود والحواجز بين بني البشر- ولو أن ذلك على سبيل الافتراض - فلا بد لهم من قائد أو موجه أو إمام حتى يأتم أولئك البشرية في كل الأخلاقيات والنظم السلوكية، ولو سألنا الأستاذ (سلهب) عن ذلك الإمام القائد الذي يجب على البشرية أن تأتم به، لقال بلا تردد: إنه الإمام علي.

ولو وجّهنا نفس السؤال إلى مفكر مسيحي آخر له باع طويل في دراسة شخصية الإمام علي عليه السلام وجميع شخصيات أهل البيت المحمدي من جهة، وشخصيات أعدائهم ومناوئيهم من جهة أخرى، وقلنا له:

ما هو، برأيكم الكريم، موقع الإمام علي عليه السلام من الرسالة الإسلامية الإنسانية التي جاءت لكل البشر دون استثناء؟

---

(١) أبو المعالي صدر الدين القونوي: شرح الأربعين حديثاً، تحقيق: د. حسن ييلماز، انتشارات بيدار - قم، ١٣٧٢هـ.ق، ص٤٧.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٤١.

هذا هو نص السؤال، وبقي علينا أن نعرف الجواب الذي سيعطينا إياه الأديب الأستاذ (سليمان كتاني) كرد على السؤال المطروح.

فالجواب، وبكل بساطة، مشابه لجواب الأديب (نصري سلهب)، إذ إنه يرى أيضاً أن إمام البشر جميعاً هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لأن موقع الإمام علي عليه السلام من الرسالة الإسلامية العالمية هو بمثابة القطب من الرحى[1].

أما الأديب الشاعر (بولس سلامة) فلا داعي لسؤاله عن هذه المسألة، لأنه هو الذي يعطينا الجواب المباشر دون أن نسأله عن الإمام الحق الهادي للخلق. وها هو يقول دون تردد: «إذا كان التشيع حباً لعلي وأهل البيت المطيبين الأكرمين، وثورة على الظلم وتوجعاً لما حلَّ بالحسين وما نزل بأولاده من النكبات في مطاوي التاريخ، فإني شيعي»[2].

وهذا يعني أنه بالرغم من كونه مسيحياً إلا أن حبه لعلي ولأخلاق ونهج علي جعله شيعياً مأموماً بولاية وإمامة علي عليه السلام.

ولو سألنا أنفسنا قائلين: لا شك أن شخصية علي أمير المؤمنين عليه السلام كانت وستبقى فوق كل وصف وتعبير، ولكن لماذا يميل معظم المثقفين المستنيرين من المسلمين والمسيحيين ممن يهتمون بالتاريخ الإسلامي وبالدراسة النزيهة عنه، لماذا يميلون إلى احترام المذهب الشيعي واحترام رموزه كما هو الحال عند نصري سلهب وسليمان كتاني وبولس سلامة وغيرهم كثير؟!

(١) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس (ضمن مجموعة محمد شاطئ وسحاب) ص٣٣٩.

(٢) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١٢.

ويمكننا أن نجد الجواب المقنع بأنفسنا بعد قليل من الجهد والتفكير، ولكن يفضل أن نبقى على الحياد فيما يتعلق بالإجابة على أسئلة هامة كهذا السؤال المطروح، وعلينا أن نحيل السؤال إلى المفكرين المسيحيين كي يجيبوا عنه. ولعل أفضل من يجيبنا على هذا السؤال هو المستشرق الفرنسي المعاصر (هنري كوربان) الذي يقول مجيباً: «في اعتقادي أن مذهب التشيع هو المذهب الوحيد الذي استطاع أن يحفظ علاقة الهداية الإلهية بين الله والخلق دائماً»[1].

فمن أجل هذا، وغير هذا يُعشق علي ويُقبل قائداً وإماماً إنسانياً عاماً عند أبناء النور في كل المذاهب والأديان.

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الشيعة، نص الحوار مع المستشرق كوربان، ترجمة: جواد علي كسّار، طبع مؤسسة أم القرى - بيروت، ط٢/ ١٤١٨هـ، ص١٨.

ليل الفداء العظيم

عندما كتب الفيلسوف والمفكر (توماس كارلايل) كتابه الشهير (الأبطال) لم يغفل عن ذكر سيدنا محمد ﷺ وعن ذكر سيدنا علي عليه السلام في ذلك الكتاب الذي ترجم إلى الكثير من اللغات العالمية الحية نظراً لقيمته الفكرية ولمعلوماته الثقافية العالية.

وبإمكاننا أن نلاحظ أن كارلايل عمد إلى ربط شخصية محمد وشخصية علي برابطة البطولة المستندة إلى قوة الحق التي سعت جاهدة، وبشكل دائم، إلى تغيير مسيرة البشرية ودفعها قدماً إلى الأمام، إلى عالم الخير والحق والفضيلة.

ومن خلال هذا الكتاب، كتاب (الأبطال)، نلاحظ أن الشعوب والأمم كانت تمجد وتعظم أبطالها العظام بصورٍ ومظاهر شتى. فالبطل يمكن أن يكون بصورة رسولٍ أو نبي، ويمكن أن يكون أيضاً متجلياً في صورة كاتب أو شاعر أو قديس، أو ربما أحياناً في صورة ملك صالح.

ولذلك، فعندما يتكلم كارلايل عن البطل في صورة رسول، نرى أن البطل الأمثل والنموذج الأكمل، بالنسبة لكارلايل، هو الرسول البطل محمد بن عبد الله ﷺ. وقد بدأ كارلايل الحديث عن الرسول المصطفى ﷺ بقوله:

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فردٍ متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خدّاع مزور. وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة. فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً... فوا أسفاه ما أسوء مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة»[1].

إذاً، يمكن للرسالة أن تكون موقعاً ومنطلقاً للبطولة، فالرسول بطل لأنه يعيد صياغة الأمم والشعوب روحياً ومعنوياً ومن ثم اجتماعياً، ولأنه أيضاً يبدأ في انطلاقته من مواقع الضعف في الحركة والقلة في الأنصار ولينتقل بعد ذلك إلى مواقع المنعة والقوة. يبدأ دائماً وحيداً وغريباً ولكنه لا يلبث أن ينتهي إلى التفاف أقوام وجماعات كثيرة حوله بعد أن عجنتهم يداه الطاهرتان بماء الوحي الإلهي وبندى الكلمات السماوية الخالدة.

وبالرغم من هذه الحقيقة الثابتة عن البطولة وعن كيفية بدء الرسول بتحمل أعباء الرسالة وحيداً، إلا أن كارلايل يعتبر أن الإمام علياً عليه السلام حالة استثنائية في كل شيء، فهو أيضاً، كالرسول تماماً، بطل استطاع أن يعبر مع ابن عمه محمد صلى الله عليه وآله وجه التاريخ ومسيرته وذلك لأن الرسالة الإسلامية التي جاء بها الوحي الأمين إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله لم تكن لتحيا وتعطي ثمارها لولا بيعة الدار الخالدة حيث التقت يد محمد بيد علي، فولد التاريخ من جديد.

والنقطة الثانية التي أكد عليها كارلايل في كتابه السابق الذكر، بشأن دور

---

(١) توماس كارلايل: الأبطال، ترجمة: محمد السباعي، دار الرائد العربي - بيروت، ط١٩٨٢/٤، ص٥٥.

علي في تبليغ رسالة السماء إلى أهل الأرض، هي أن روح البطولة عند الإمام علي عليه السلام والتي فاقت حدود التصورات العقلية لم تكن متناقضة أبداً مع رأفته ورحمته، بل كانت البطولة عنده تسير جنباً إلى جنب مع الرحمة، وكانت الشجاعة عنده في حالة عناقٍ مع الحنان، وكانت يده التي تحمل السيف (ذو الفقار) الذي ارتوى من دماء أرباب الجبروت والكفر والطاغوت هي نفس اليد التي كانت تمسح على رؤوس الأيتام وتجفف دموع الفقراء والمساكين.

وهذا ما أراد كارلايل تأكيده بقوله المختصر عن شجاعة الإمام علي عليه السلام وعن قوته الريادية في شق الطريق أمام الرسالة الإسلامية السماوية:

«أما علي فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه، فإنه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة، وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان»[1].

وبما أننا في معرض الحديث عن البطولة والشجاعة والإقدام، فلا بد من الإشارة إلى أن جميع الأقوام والشعوب في العوالم القديمة كانت تربط دائماً وأبداً بين البطولة والقداسة، فالكائن المقدس، سواء كان رجلاً أم إلهاً، لا بدّ وأن يكون بطلاً، والبطل بدوره لا بدّ وأن يكون كائناً مقدساً، وربما في كثير من الأحيان كانوا يعتبرون البطل العظيم إلهاً من آلهتهم أو على الأقل من نسل تلك الآلهة.

وبالطبع، فإننا لا نريد أن نغوص في المعاجم والقواميس التي تتناول سير

---

(١) نفس المصدر السابق.

أبطال وآلهة الملاحم الإغريقية والرومانية والفارسية، ولا نريد أن نخوض في بحار الأساطير الفرعونية وما سبقها من أساطير وملاحم تخص الحضارات الشرقية القديمة الأكثر قدماً من أجل الوقوف على معاني البطولة ومعالمها ودلالاتها من خلال تلك الأساطير التي كانت تعكس في مجمل تفصيلاتها العلاقة بين البطولة والألوهية والقداسة، والتي تعكس بنفس الوقت تصورات العقل البشري الذي كان لا يزال رضيعاً في المهد وهو يبحث عن غذاءٍ روحي جديد ينقله من حالة الطفولة في التفكير إلى حالة ومرحلة النضج الفكري التام.

وبالفعل، فقد تحقق للإنسان الباحث عن غذائه الروحي الجديد ما أراد، فقد هبطت وتوالت الرسالات السماوية في هبوطها عليه، وتوارت واندثرت الديانات البدائية الأولى التي عرفتها البشرية منذ أقدم العصور.لقد انقرضت معظم تلك الأفكار وانقرض معها معتنقوها، ولكن أساطيرها وقصصها لم تزل حية في ذاكرة الجنس البشري، يتناولها علماء التاريخ والأجناس البشرية وعلماء الميثولوجيا والأديان المقارنة بالدراسة والبحث والتحليل بغية التعرف على المستويات الفكرية والثقافات الروحية التي عرفتها تلك الشعوب والأقوام.

وعلى الرغم من هبوط العديد من الرسالات السماوية على الإنسان في أرضه، وإزاحة اللثام عن الكثير من الخرافات والمفاهيم الخاطئة التي ورثها الإنسان عن تلك العقائد الوثنية البائدة، إلا أن البعض من أصحاب وأتباع الديانات السماوية ذاتها كانوا يلقون على رسلهم صفات الألوهية الكاملة والربوبية المطلقة، ولا ريب في أن كلام الدكتور (نظمي لوقا)، الأديب المسيحي المصري صاحب المؤلفات العديدة عن الإسلام وعن قضايا فكرية أخرى، لا

ريب في أن كلامه كان صحيحاً تماماً عندما قال في كتابه (محمد الرسول والرسالة) وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، أو بنسب من الأنساب»[١].

وفي واقع الأمر، لم يتوقف هذا الحال عند الرسل والأنبياء فحسب، بل تعداهم إلى من هم ليسوا برسل ولا أنبياء، وإنما مرد ذلك إلى أسباب عديدة ومتشعبة في تفصيلاتها وشروحاتها. ولا نرى من الواجب علينا أن نخوض فيها الآن لأن ذلك سيقودنا إلى الحديث عن العديد من الشخصيات الرسالية وغير الرسالية في الديانات السابقة على الرسالة الإسلامية، وبالتالي سيطول بنا الحديث عن العديد من الشخصيات التي لا نرى أن هذا المكان هو المكان المناسب لذكرها والحديث عنها.

وبناءً على كل ما سبق من قول، فإننا نؤكد عوداً على بدء على الدور الذي تلعبه مسألة البطولة والشجاعة في حياة الشعوب وفي عقائدها الروحية. ولعل الرسالة الإسلامية قد أبرزت لنا العديد من صور الأبطال الذين لعبوا دوراً أساسياً وحاسماً في دفع العجلة (الجيوبوليتيكية)- الجغرافية والسياسية- للرسالة الإسلامية المولودة حديثاً، ومن ثم تم تحويل هؤلاء الأبطال إلى رموز ومثل عليا يمثلون البطولة والشجاعة في أسمى معانيها وأنبل أهدافها وليعيشوا بعد ذلك في ضمير الأمة ووجدان الشعوب الإسلامية كأبطال عظماء قاربوا أن يكونوا أبطالاً خياليين كالأبطال الذين نصادفهم ونقرأ عنهم في الأساطير الشعبية وفي الملاحم

---

(١) الدكتور نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، ص٥٥.

الأدبية القديمة عند كل الأقوام والأمم.

فبعض الناس يمكن أن تتوفر عندهم فضيلة الشجاعة وعشق البطولة، وبعض الناس يمكن أن يتمتعوا بملكة العقل وبالإبداع العلمي، والبعض منهم يمكن أن يحوز بجهده وكفاحه الشخصي على صفة السمو الروحي الخالص والارتقاء المعنوي الكامل، أي يمكن أن يصل بجهوده الشخصية إلى مرتبة الأولياء الصالحين، كما ويمكن للبعض الآخر أيضاً أن يكون حجة على أهل عصره بالفصاحة والبلاغة أو بضروب أخرى من العلوم والمعارف، وربما بالصفات الأخلاقية الحميدة والخصال النبيلة التي تجعل منه وجهاً من وجهاء عصره وعلماً من أعلام دهره.

كل ذلك معقول ومقبول ومنطقياً، ولكن أن تجتمع كل هذه الصفات والخصال والميزات في فردٍ واحد، فهذا، بلا ريب، مما يبهر العقول ويأسر الألباب والقلوب، وربما مما لا تتقبله بعض العقول القاصرة ولا تطيقه بعض الصدور الضامرة.

وعندما نتكلم عن هذا التفرد في الوجود الإنساني وعن هذه الظاهرة التي قلما يجود تاريخ الإنسانية بمثلها، فإنما نقصد بذلك ما كان عليه أمير المؤمنين علي المرتضى عليه السلام. فالإمام علي عليه السلام الذي نطق الله سبحانه وتعالى - من خلال ذكره الحكيم - بفضله وبولايته في الكثير من الآيات القرآنية الكريمة والتي أجمع فقهاء السنة والشيعة على نزولها في علي عليه السلام دون سواه، ما هو في الحقيقة إلا الإمام المبين الذي حاز على جميع الصفات والخصال وجمع كل المآثر والأعمال التي ترفع الفرد إلى مصاف المتألهين الربانيين الذين يقولون

للشيء، بسبب قربهم من الله وطاعتهم المثلى له، كن فيكون.

ومهما تحدثنا عن أولئك المتألهين والربانيين وعن علاقتهم بالله سبحانه وتعالى، يبقى الحديث عن الإمام علي عليه السلام له طعم آخر وعمق آخر لأنه، كما سنرى من خلال كتابات المفكرين المسيحيين، هو سيد الربانيين وإمام المتألهين.

وبما أننا تحدثنا فيما سبق عن بعض صفات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما رآها وتحدث عنها أهل الفكر من المسيحيين، نرى أنه علينا أن لا نغفل هنا عن ذكر الإمام علي في مجال القوة والصلابة والشجاعة، تلك الخصلة التي حيرت بخوارقها أرباب النهى والبصائر مما جعل بعض المسيحيين في الشرق والغرب يصنفون الإمام علياً عليه السلام في قائمة أرباب القوة والشجاعة في القواميس والمعاجم التي تتناول حياة وسير ومآثر الأبطال الذين تركوا بصمات لا تنسى في صفحات التاريخ وأسفار ملاحمه.

وقبل أن نتوقف عند هذه النقطة المتعلقة بالشجاعة والإقدام، لا بد لنا من الوقوف أولاً عند قضيةٍ حساسة جداً وذات دلالات معنوية هامة تدل على عمق إيمان الإمام علي عليه السلام ومدى شجاعته وصلابته في الحق أمام الطاغوت الباطل. وبسبب تلك الدلالات الإيمانية العميقة نرى أن بعض الكتّاب والباحثين من المسلمين المتعصبين يحاولون جاهدين أن يسقطوا ورقة هامة من أوراق التاريخ الإسلامي أو على أقل تقدير يحاولون التقليل من أهميتها ومن أبعاد دلالاتها.

فما هي تلك الصفحة التي أبرزها المفكرون المسيحيون في الوقت الذي حاول البعض من المفكرين المسلمين إخفاءها وطمس معالمها؟!!

إنها الصفحة الأولى من كتاب البطولة والشجاعة في حياة الإمام علي عليه السلام.

إنها ليلة المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله.

فالعلامة والمؤرخ الفرنسي (سيديو) يرى في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) أن أول درس في البطولة والفداء هو ذلك الدرس الذي علمنا إياه الإمام علي عليه السلام عندما قبل أن يؤازر ابن عمه صلى الله عليه وآله وأن يقف إلى جانبه محامياً عنه ومدافعاً عن رسالته وأن يكون أخاه وخليفته ووصيه من بعده. ولكن هذا الدرس القائم على الجرأة والإقدام والاستعداد لبذل أغلى ما يملكه الإنسان في سبيل نصرة الحق لم يكن إلا المقدمة والبداية لخطوة عملية أكثر وضوحاً وأعمق إيماناً، إنها الخطوة الحاسمة التي تمثلت في قبول الإمام علي عليه السلام النوم في فراش النبي صلى الله عليه وآله كي يفديه بدمه وروحه في حال هجوم الكفار على بيت النبي ليلاً من أجل الظفر به وقتله ووأد رسالته. وهذا ما دفع العلامة الفرنسي (سيديو) على تأكيد حدوث هذه الحادثة حيث صور لنا كيف أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد جعل ابن عمه الإمام علياً عليه السلام يتشح ببرده وينام في فراشه من أجل أن يحميه ومن أجل أن يؤدي عنه ما عنده من الودائع والأمانات[1].

ويذكرنا هذا الكلام للمؤرخ (سيديو) بكلام لابن عباس حول تخصيص الرسول الكريم صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بالعهود والأمانات، حيث يقول: «كنا نتحدث أن النبي صلى الله عليه وآله عهد إلى علي بن أبي طالب عليه السلام سبعين عهداً لم يعهدها إلى غيره»[2].

ويكفي أن نذكر مثالاً واحداً فقط على هذا الكلام، وهو ما حدث في مكة

(١) العلامة سيديو: خلاصة تاريخ العرب، ص٤٧.

(٢) الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، ص٢٩١.

عند تبليغ سورة (براءة) إذ روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ أرسل بالبراءة مع أبي بكر ثم دعاه بعد ذلك قائلاً: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»، فدعا علياً فأعطاه إياها[1].

وعلى كل حال، فإن نظرة الباحث والمفكر (يان ريشار) لا تختلف كثيراً من وجهة نظر المؤرخ والعلامة (سيديو) حول الدرس الأول من دروس البطولة الإسلامية والشجاعة العلوية.

ولكن الباحث (ريشار) الذي يرى أن الخليفة الشرعي بعد الرسول هو الإمام علي دون منازع، يبدأ الحديث عن ولاية علي عليه السلام واستخلافه على المسلمين بعد طرحه سؤالاً استفسارياً، وهو سؤال العالم العارف، عن سبب استخلاف محمد المصطفى ﷺ للإمام علي عليه السلام من بعده خليفة ووصياً وولياً على كل المسلمين.

وقد أجاب (ريشار) نفسه على هذا السؤال المطروح، وكان من جملة الأسباب التي ذكرها في جوابه والتي تجعل من الإمام علي عليه السلام - برأيه - الخليفة المؤهل لاستلام مقاليد الخلافة والإمامة بعد رسول الله ﷺ هو أن الإمام علياً عليه السلام أخ النبي المصطفى ﷺ وهو الأقرب روحياً إليه، وهو أول من آمن برسالته، وهو أيضاً البطل الصنديد الذي لا يشق له غبار، وهو الفدائي الأول في الإسلام حيث وقى رسول الله ﷺ بنفسه ليلة مبيته في فراشه في شهر أيلول من عام (٦٢٢م)[2]. وليس هذا فحسب بل هو أيضاً زوج ابنته

---

(١) القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٨٦.

(٢) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ص٣٥.

فاطمة الزهراء عليها السلام والتي أصبحت لاحقاً أمّاً للإمامين العظيمين الحسن والحسين عليهما السلام اللذين سيحملان لاحقاً راية رسالة جدهما الرسول الصادق الأمين. وفوق كل هذا فالإمام علي عليه السلام- كما يؤكد المفكر ريشار - هو أمين سر النبي المصطفى صلى الله عليه وآله[(١)].

وللسيد (ريشار) كل الحق في أن يؤكد على ذلك ويثبته في كتابه، وذلك لأن الرسول الكريم نفسه صلى الله عليه وآله قد أكد على هذه الحقيقة أمام أصحابه قائلاً: «صاحب سري علي بن أبي طالب»[(٢)].

وعندما يكون الإمام علي المرتضى عليه السلام صاحب سر النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، فهذا يعني الشيء الكثير، وأبسط ما يمكن أن يعنيه ذلك هو أن الأمين على السر الإلهي كصاحب ذلك السر، ليس في المنزلة وإنما في الطبيعة، إذ لا يمكن لصاحب سر سماوي أن يجعل لنفسه أميناً على سره ما لم يكن ذلك المؤتمن على السر من نفس طبيعة صاحبه، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالأسرار الإلهية والحقائق الخفية السماوية. ولذلك، فعندما نقرأ ما ورد في الكثير من كتب السنة عن وحدة النور المحمدي - العلوي وثبوت وحدته في العوالم السماوية قبل خلق آدم عليه السلام، وافتراق ذلك النور لاحقاً واستقراره أخيراً في صلبي عبد الله وأبي طالب، والدي محمد وعلي، ومن ثم اجتماعه ووحدته مجدداً في ذرية الجوهرة الفاطمية الجامعة للأنوار المصطفوية - المرتضوية المنزَّهة عن الرجس والعار والمبرّأة من النار، عندها نستطيع أن نفهم قول المصطفى صلى الله عليه وآله السابق (صاحب

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٥.

(٢) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص٨٨.

سري علي بن أبي طالب).

ونعتقد أن الحديث الذي أورده (القندوزي الحنفي) في كتابه (ينابيع المودة) هو حديث كافٍ في دلالاته ومعانيه لما أسلفنا من قول. وهذا الحديث الذي أورده القندوزي في كتابه هو حديث مرفوع إلى النبي الأمين ﷺ حيث يقول فيه مبيناً وحدة الطبيعة التي تتفرع منها النبوة والإمامة:

«... يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني ومن سبك فقد سبني لأنك كنفسي وروحك من روحي وطينتك من طينتي، وأن الله تبارك وتعالى خلقني وخلقك من نوره واصطفاني واصطفاك، فاختارني للنبوة واختارك للإمامة، فمن أنكر إمامتك فقد أنكر نبوتي. يا علي أنت وصيي ووارثي وأبو ولدي وزوج ابنتي. أمرك أمري ونهيك نهيي. أقسم بالله الذي بعثني بالنبوة وجعلني خير البرية إنك لحجة الله على خلقه وأمينه على سره وخليفة الله على عباده»[1].

وهكذا نرى أن قضية نوم علي عليه السلام في فراش محمد ﷺ ليلة الهجرة ليست بالقضية العارضة وليست بالأمر البسيط الذي يمكن تجاوزه أو تجاهله كلياً أو جزئياً. فالأمر أعمق من أن ينام رجل في فراش رجل آخر ليدفع عنه الموت أو ليرد عنه كيد الأعداء والظالمين.

فالسيد المسيح يقول لحواريه: «الحق الحق أقول لكم، ليس لأحدٍ حب أعظم من أن يبذل الحياة عن أصدقائه»[2]، هذا بالطبع شأن إنسان عادي مع

(١) القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٥١.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٥١.

إنسان عادي آخر أراد أن يبذل له الحياة ويقدم له الدم والروح، فما بالنا بوصيٍّ يبذل حياته من أجل نبي؟!!

وقد يفاجأ القارئ الكريم عندما يدرك أن الوصي علي بن أبي طالب عليه السلام لم ينم في فراش النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة فقط، بل نام أكثر من ذلك بكثير، ولذلك فإننا سنترك الحديث عن تلك النقطة للأديب نصري سلهب كي يحدثنا عن ليالي الفداء عند علي عليه السلام.

يقول الأستاذ (سلهب):

«نام علي في فراش النبي، راغباً في أن يموت فداه إذا هاجمه أعداء الإسلام والله يرومون قتله... كان علي بن أبي طالب في بيت ابن عمه رسول الله، بل في فراش ابن عمه ليوهم حزب الشيطان بأن محمداً في مكة لم يبرح منزله، فتطلق السهام عليه لتستقر في صدر علي أو تنهال عليه السيوف فتقطع أوصال علي».

وهنا أريد من القارئ الكريم أن يركز انتباهه على ما سيكمل به الأستاذ سلهب كلامه، وذلك لما لهذا الكلام من أهمية ودلالة في مسيرة الرسالة الإسلامية وفي حمايتها من الاغتيال من قبل جحافل الظلام والطغيان: «تلك التضحية الكبرى لم تكن الأولى. ففي روايات صحيحة الإسناد أن علياً بات في فراش الرسول ثلاث سنوات، عهد أقدمت قريش على مقاطعة بني هاشم، فغدوا معرضين للغارات الليلية باستمرار. فكان ذلك الاستبدال كل ليلة»[1].

وهنا يحق للقارئ أن يتساءل بكل حريةٍ ودون أدنى تحفظ:

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٥١.

أيـن كـان أصـحاب رسـول الله (المخلـصون) طيلـة تلـك الـسنوات الـثلاث ليناموا بدلاً من رسول الله ﷺ في فراشه ولو لليلة واحدة؟!!

أليس كل أصحاب الرسول ﷺ مخلصين لـه - كما يقـول المتعـصبون مـن المسلمين - وأنـه ﷺ قـد وعـدهم جميعـاً بالجنـة وبـشر الـبعض مـنهم بمتعهـا وملذاتها على الـرغم من حـدوث خلافـات داميـة بين أولئك الأصحاب بعـد غياب الرسول ﷺ ، وإذا كان الأمر كذلك - وهو غير ذلك بالطبع - فأين كان أولئك المخلصون في ليلة المبيت في فراش النبي ﷺ ، بل أيـن كـانوا في كـل محنـة ألـمَّت بالنبي الكريم ﷺ على مدى امتداد رسالته التي كانت بأمس الحاجة إلى فـدائيين حقيقـيين كالإمـام علـي عليه السلام وحمـزة وجعفـر الطيـار وزيـد بـن حارثـة عليهم السلام وغيرهـم ممـن وقعـوا وثيقـة إخلاصـهم وولائهـم للرسـول المصطفى ﷺ بدمائهم الذكية العطرة؟!!

وهل تجلت لاحقاً شجاعة أولئك الأصحاب (المخلصين)، المبشرين بالجنة، في وقعة بدر وأحد وخيبر وحنين؟!

لن نجيب على هذه الأسئلة لأننا نعتقد أن الإجابة عليها هي حق للقارئ وحده ولا نريد أن نفرض عليه إجاباتنا وتفسيراتنا الخاصة. فللقارئ الحق في أن يتنبأ النتيجة المستخلصة من خلال إعمال فكره وتعميق دراساته فيما جرى في فجر الرسالة الإسلامية وفيما جرى أيضاً بعيد وفاة الرسول ﷺ لأولئك الأصحاب (المبشرين بالجنة)؟!

ولكن قد يقول القارئ معترضاً على كلام سابق ذكرته حول قضية المبيت في فراش النبي ﷺ حيث قد ذكرت أن مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النبي

الكريم ﷺ ليس عبارة عن قضية استبدال شخص بشخص من أجل أن يدفع عنه الموت أو من أجل أن يرد عنه كيد الطواغيت والمتجبرين. أما وجه الاعتراض من القارئ على هذا الكلام فقد يتجلى بضرورة تقديم تفسير واضح لهذا الكلام الذي يبدو غامضاً في بعض جوانبه.

نقول للقارئ العزيز: إنك على حق، ونحن نؤيدك في هذا الأمر، ولكن حتى نزيح الستار ونميط اللثام عن معاني تلك الفكرة التي ذكرناها، لا بد لنا من الوقوف على بعض التفسيرات التي تخدم غرضنا وتوصلنا إلى هدفنا دون عناء ومشقة، غير أننا لن نبوح بهذه التحليلات والتفسيرات لأن تفسيراتنا وأحكامنا قد يكون مطعوناً فيها، ولذلك سنترك تفسير عبارتنا السابقة لإخواننا في الفكر النيِّر الحر، سنترك التفسير المناسب إلى أقلام الضمائر الحية، ولتكن محطتنا الأولى مع المفكر والأديب (جورج جرداق).

يقول الأستاذ جرداق معلقاً على أبعاد ليلة الفداء العلوي:

«لقد كان علي بمغامرته هذه استمراراً لمحمد. وكانت تضحيته من روح المقاومة التي عرف بها ابن عمه العظيم، وكان مبيته في فراش النبي تزكية للدعوة وحافزاً على الجهاد الطويل! ثم إن في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الإمام وطباعه ومزاجه، فإذا هي صادرة عنه كما تصدر الأشياء عن معادنها دون تكلفٍ ودون إجهاد».

ولا يتوقف الأستاذ المفكر جرداق عند حدود هذه التفسيرات الصائبة لمعاني البطولة والفداء، بل يحاول أيضاً أن يسبر أغوار تلك الحادثة ليقع على مرامٍ أكثر عمقاً، وهذا ما حققه فعلاً بقوله:

«ففيها- أي حادثة المبيت - نموّه الذهني المبكر الذي جعله يدرك حقيقة الدعوة التي يدقُّ فهمها فهماً صحيحاً على من كان في مثل سنه. وفيها زهده بالحياة إذا لم تكن عمراً لمكارم الأخلاق. وفيها صدقه المرّ وإخلاصه العجيب. وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من أهل الجهاد، وما يتوخاه بذلك من نصرةٍ للمظلومين والمستضعفين إذا قتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة. وفيها مواجهته للأمور بسماحة وبساطةٍ لا يعرف معهما إلى الكلفة سبيلاً. وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثلها علي بن أبي طالب. بل هي شيء من استشهاده المقبل»[1].

إذاً، هذه هي بعض الأبعاد المتولدة عن تلك الليلة البيضاء التي أضاءها الإمام علي عليه السلام بنور إيمانه، فسطرها بأحرفٍ من نور في سفر الرسالة الإسلامية الخالدة.

ولكن يمكننا القول بصراحة تامة إن المفكر والباحث الفرنسي المعاصر (مارسيل بوازار)، الذي خصص جزءاً لا بأس به من نشاطه الفكري عن الأبعاد الفلسفية والأخلاقية للعقيدة الإسلامية، قد استطاع أن يختزل في كتابه (إنسانية الإسلام) الدروس المستفادة من مبيت الإمام علي عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله، وقد استطاع أن يعبر بنفس الوقت أيضاً عن دلالات تلك التضحية العلوية العظيمة وذلك بالتأكيد على أن الرسالة الإسلامية، المتمثلة بشخص الرسول محمد صلى الله عليه وآله، ما كان لها أن تنمو وتستمر في حياتها لولا تلك المعجزة البطولية

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٦٩.

الكبيرة التي قام بها علي[١].

ومعنى هذا الكلام المختصر والمكثف هو أن ذلك الموقف البطولي من الإمام علي عليه السلام هو عبارة عن تجسيد الإرادة الحرة القائمة على التضحية بالنفس في سبيل إرادة أعلى، وهي إرادة السماء التي شاءت أن ترسل نداءها الأخير ورسالتها النهائية إلى أهل الأرض جميعاً وليس إلى أهل العربية دون غيرهم. إنها إرادة الفداء التي لا يمكن أن نجد لها مثيلاً أو شبيهاً إلا في تلك الظروف النادرة جداً حيث تتولد في ظل هذه الظروف القاهرة والنادرة نفس قادرة على العيش بمستوى المسؤولية التي تفرضها هذه الظروف الاستثنائية، وتكون هذه النفس قادرة أيضاً على تحديد موقفها الواضح من بين حالتين اثنتين: إما الوجود والاستمرار وإما الفناء والاندثار، وبتعبير آخر: «إما أن تؤثر لهذا الجسد عيشاً يقر به دون ما يُحييه ما قيم الحياة الصاعدة، فتنكر هذه القيم وتفضّل عليها وجوداً هو أشبه بالفناء من حيث إن الوجود حياة تُحيا! وإما أن تؤثر لهذا الكيان الإنساني انصهاراً بكليات القيْم دونما نظر إلى وجودٍ عضوي لا يتصل بروح الوجود الفذ. فتأتي هذه القيم سالكاً إليها طريق التهلكة. وما فناؤك آنذاك إلا دليل على أن الوجود إنما هو لديك حياة تُحيا، لا عيش يُعاش»[٢].

وعلى الرغم من اتفاق الكثير من المفكرين المسيحيين على صحة هذه التحليلات والتأويلات فيما يتعلق بقضية المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله، وعلى الرغم من اتفاقهم على سمو دلالاتها الروحية وأبعادها العملية، إلا أن الأديب

---

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص٤٤.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص١١٤.

(عبد المسيح الانطاكي) قد انفرد بتأويل خاص عن معاني تلك الحادثة الجليلة.

فبالإضافة إلى اتفاقه مع التأويلات التي أبداها وأكدها المفكرون المسيحيون عن معاني ليلة الفداء، إلا أن الأديب الشاعر «الإنطاكي» رأى أن تكليف الرسول المصطفى ﷺ الإمام علياً عليه السلام المبيت في فراشه وتوصيته بأداء الأمانات والودائع إلى أهلها نيابة عنه ﷺ لهي دلالة واضحة وإشارة بليغة على أن الخليفة والوصي الحقيقي بعد غياب رسول الله ﷺ هو الإمام علي عليه السلام، وذلك لأن الإمام علياً كان دائماً وأبداً هو المكلّف بأداء الأمانات وبإعادة الودائع إلى أهلها في كل مرّة يغيب فيها رسول الله ﷺ غياباً مؤقتاً من أجل غزوة أو هجرة أو ما شابه ذلك. فالذي يوصيه الرسول الحكيم ﷺ بدفع الأمانات والودائع لأهلها بشكل دائم في غياباته المؤقتة، لا بدّ وأن يكون هو الوصي والخليفة الموصى له بإدارة شؤون وأحوال المسلمين عموماً بعد الغياب الدائم للرسول ﷺ وارتفاعه إلى الرفيق الأعلى.

وقد عبر الأديب الشاعر الأستاذ (الإنطاكي) عن ذلك بنظمه الشعري واصفاً ما أوصى به محمد ﷺ الإمام علياً عليه السلام ليلة العزم على الهجرة:

وقال نَمْ في فراشي غير مكترث ... إلى الخطوب إذا تدهى دواهيها
والبسْ ثيابي وكن فيها الأمين على ... هذي الحياة التي الرحمن يحميها
وفي صباحك بادرْ يا أخي كرماً ... إلى الأمانات أرجِعها لأهليها
إن العليَّ على سامي شجاعته ... لبى الأوامر حالاً باتَ مجريها

هذه هي الإشارة الواضحة والحجة الدامغة عند الأستاذ (الإنطاكي) على أن الرسول الكريم ﷺ قد جعل الوصاية والولاية من بعده، وفي حال غيابه ،

للإمام علي عليه السلام. وما الذي حدث في ليلة المبيت السابقة لهجرة الرسول صلى الله عليه وآله إلا الدليل الواضح والبرهان القاطع على صحة ذلك.

ولكن الأديب (الإنطاكي) يتابع قصيدته السابقة ليؤكد على أن الناس، كل الناس في المجتمع الإسلامي وقتذاك، كانوا يعلمون أن الوصي الفعلي والخليفة الشرعي بعد مضي الرسول الكريم صلى الله عليه وآله هو الإمام علي عليه السلام دون غيره من الأصحاب، وقد تابع (الإنطاكي) معبراً عن ذلك بقوله في نفس القصيدة السابقة:

وأقبلت عجلاً أهل الودائع ... تنشد الوصي عليها كي يؤديها
تقول: أين وصيُّ المصطفى ليعيـ ... ـدها إلينا فنحن الآن نبغيها
لذاك أصبح بين الناس مشتهراً ... باسم الوصي يناديه مناديها
وصاية حكمها حكم اليقين وما ... غير المكابر من يجرا وينفيها[1]

وبالفعل، لن يجرؤ أحد على أن ينكر أو أن ينفي حقيقة وصاية وخلافة علي عليه السلام إلا إذا كان الناكر لها أو الرافض لحقيقتها مكابراً أو معانداً لصدق ما جاء في التنزيل الحكيم وما نطق به الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

والحقيقة، إن هناك تقارباً كبيراً في وجهات النظر بين جميع المفكرين والأدباء المسيحيين فيما يتعلق بالآثار المترتبة على نوم علي عليه السلام في فراش النبي الكريم صلى الله عليه وآله بعد أن أجمعت معظم القبائل على ذبح محمد صلى الله عليه وآله في فراشه قبل شروق الشمس.

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، ص٨٦.

وبالرغم من تفرد الأديب الشاعر عبد المسيح الإنطاكي بالتركيز الدائم على الإقرار بوصاية علي عليه السلام وولايته في غياب الرسول صلى الله عليه وآله، إلا أن هناك من نظر إلى تلك الظاهرة الفدائية من زوايا أخرى متعددة وإن كانت تلك الزوايا الأخرى لا تتناقض ولا تتعارض مع نظرات ورؤى بقية المفكرين والأدباء المسيحيين.

فالأديب والباحث المسيحي (روكس بن زايد العزيزي) يرى أن تلك الحادثة تدل على أشياء وأشياء يصعب عدّها ووصفها، فهي الرمز الحقيقي للبطولة والشجاعة القائمة على الحق، وهي البسالة بأرقى وأسمى معانيها وهي أيضاً ذلك اليقين الضارب جذوره في أعماق الإيمان المستقر، لأن قلب الإمام علي عليه السلام النابض بالإيمان الخالص لم يعرف في تلك الليلة العصيبة الوهن أو الخوف[1].

هذا ما رآه وأدركه الأديب والباحث (العزيزي) في (أسد الإسلام وقديسه) ولكن الأديب الشاعر (بولس سلامة) أكد من خلال إحدى قصائده الرائعة أن الإمام علياً عليه السلام قد تدرع بالحق عند نومه في فراش النبي صلى الله عليه وآله، وقد تسلح باليقين الأبيض الخالص في هجعته. ولذلك، كيف يهزم من كان درعه الحق وسلاحه اليقين؟!!

وبطبيعة الحال، فالإمام علي المرتضى عليه السلام لم ولن يهزم أبداً، كما يؤكد على ذلك الأستاذ سلامة، بل يرى أيضاً أن يد القضاء الإلهي لو وهبت الإمام علياً عليه السلام الحياة ألف ألف مرة، فإن الإمام علياً عليه السلام سيبذل حياته مرة بعد مرة في سبيل الرسالة والرسول صلى الله عليه وآله. وقد بيّن الأديب والشاعر (سلامة) وجهة نظره

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص٢٦.

تلك بقوله :

هـو يفديـه بالحيـاة ويرضـى ألـف مـوت بـه لـو اللهُ ناشـرْ
كلمـا عـاش مـرَّة مـات أخـرى باسم الثغر باسِمَ الوجه الشاكرْ
إن يَـنَمْ في مـضاجع المـوت حبّـاً بـالنبي العظـيم فـاللهُ سـاهرْ[1]

وغني عن القول إن هذه الأبيات القليلة ليست هي كل ما كتبه الأديب الشاعر (سلامة) عن ليل الفداء العظيم، بل هي عبارة عن بعض الأبيات التي قيلت من أجل تخليد تلك الليلة العلوية البيضاء، ولذلك فإننا لا ننصح القارئ العزيز بالرجوع إلى تلك القصيدة الرائعة وحسب، بل ننصحه بالعودة إلى ملحمة (عيد الغدير) بأكملها ليقف على حقائق هامة كثيرة ما كان له أن يقف عليها من خلال الاقتصار على قراءة ما جاء في كتب ومؤلفات ودواوين الكثير من المؤلفين والأدباء المسلمين!!

ولو تركنا الشعر والشعراء جانباً، وأتينا إلى باب آخر من أبواب الإبداع الأدبي وأنْخنا ركابنا ووضعنا رحالنا، وسألنا زاهد وناسك قرية (الشخروب) اللبنانية، ونقصد به الأديب والمفكر (ميخائيل نعيمة) عن علاقته الفكرية بالإمام علي عليه السلام، وتحديداً عن علاقته وعن نظرته إليه من خلال ما عرفه عنه وما قرأ له من خطب ومن أحاديث عن فلسفته في الحياة بشقيها الديني والدنيوي.

وبالطبع، يحق لنا أن نسأل الفيلسوف والأديب (ميخائيل نعيمة) سؤال كهذا، وذلك لأنه أديب ومفكر متميز في كمية ونوعية إنتاجاته الفكرية. فالمفكر

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص٤٥.

(نعيمة ١٨٨٩-١٩٨٨) واحد من أبرز رواد النهضة الفكرية والأدبية الحديثة. درس في روسيا ومن ثم هاجر إلى أمريكا في عام ١٩١١. وهو من مؤسسي الرابطة القلمية مع (جبران) وغيره. له الكثير من الأعمال مثل: (الآباء والبنون) (الغربال) (البيادر) (جبران خليل جبران) (كتاب مرداد)، وغير ذلك كثير.

وبالعودة إلى سؤالنا السابق الذي يمكننا أن نطرحه على الأديب المفكر ميخائيل نعيمة، فما هو الجواب الذي نتوقعه منه؟ لا ريب في أنه سيجيبنا على سؤالنا المطروح بالقول إن صفاء بصيرة الإمام علي عليه السلام لا يعدله صفاء أي بصيرة أخرى، حتى لكأن الإمام علياً عليه السلام على اتصال مستمر بينابيع الحياة والحرية والحركة العمودية المرتبطة مباشرة بالسماء. وما اتصاله بهذه الأشياء إلا كاتصال النهر بينبوعه ونبت الأرض بماء السحاب. ولا ريب في أن (نعيمة) سيكمل كلامه مؤكداً على أنه - كما يقول هو عن الإمام عليه السلام - ليس لفكر علي بن أبي طالب، ولروحه وبيانه، حدود من زمان ومكان[1].

وهكذا، فالروح العلوية والبصيرة المرتضوية في شخصية الإمام علي عليه السلام لا يماثلها شيء في الوجود قوةً وثباتاً، وهما اللتان تدفعانه دائماً للارتقاء والسمو نحو السرمدي المطلق.

وليس هذا الدافع في الارتقاء مقتصراً على ما أقدم عليه الإمام علي عليه السلام بشأن المبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله فحسب، بل كان ذلك الدافع موجوداً في كل موقف من مواقف الإمام عليه السلام في الحياة وعلى طول مسيرة الرسالة السماوية

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٨.

الأخيرة التي رفعت شعار أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمداً رسول الله وعبده.

إذاً، فالمبيت في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليس هو كل شي وليس هو النهاية، بل هو البداية، وهو الشرارة التي أزكت لهيَب الشوق في صدر علي عليه السلام للاقتراب أكثر فأكثر من الروح الكلية ومن الذات الأحدية المحيطة بحدود الأبدية. انه ذلك الاقتراب الذي سنتعرف على تفاصيله في الأبواب القادمة، والذي عبر عنه الفيلسوف اللبناني المسيحي (جبران خليل جبران) بقوله: «في عقيدتي إن ابن أبي طالب هو أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها، وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوا بمثلها من ذي قبل»[1].

فليبصر من كان له عينان، وليسمع من كان له أذنان، فهذا هو علي أمير المؤمنين عليه السلام كما يراه المسيحيون.

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقدّيسه، ص١٠.

بيعة الدار بين المنذر والهادي

يقول الفيلسوف أرسطو: «أفلاطون حبيب إلى نفسي، بيد أن الحقيقة أحب إلى نفسي من أفلاطون»[1].

إنها، بلا ريب، حكمة خالدة خلود الحقيقة ذاتها.

فطلب الحقيقة، أياً كانت وفي أي مجال، يجب أن تكون دائماً وأبداً فوق كل الاعتبارات الأخرى. وإذا كان كل من الشك والظلم والظلام أبناء الجهل، فإن النور والفضيلة والحقيقة هم أبناء المعرفة.

ولسنا الآن بصدد الكلام عن الحقيقة المطلقة أو عن فلسفة الحقيقة التي أريقت دماء الكثير من الناس تحت شعار الدفاع عنها وامتلاكها وصونها، وتناحرت لأجلها عشرات الملل والمذاهب والتيارات الفكرية بحجة أن كل حزب أو فرقة أو حتى جماعة هي المالكة الوحيدة لخيوط تلك الحقيقة المنشودة.

والكثير من الفلاسفة والمفكرين والمنظّرين أيضاً كانوا يميلون إلى رمي أصحاب الفكر الآخر المناقض لهم بالجهالة والسفه وبالعجز الفكري عن الوصول إلى الحقيقة التي باتت واضحة وضوح الشمس كما يرونها هم وكما

---

(١) الدكتور نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، الشركة العربية - القاهرة، ١٩٥٩، ص٦.

يعتقدونها هم.

والمشكلة مع هؤلاء، أشخاصاً وأحزاباً وفرقاً، هي أنهم يصنفون الناس إلى صنفين لا ثالث لهما. فالصنف الأول هو الصنف المؤيد لهم في أفكارهم وآرائهم، وهم بالتالي أتباع أصحاب الحقيقة. أما الصنف الثاني والأخير، فهم المخالفون لهم في وجهات نظرهم وفي آرائهم ونظرياتهم، وهم بالتالي أهل الوهم والخديعة والضلال. فالناس إذاً، بنظر هؤلاء، إما أن يكونوا مبصرين مستبصرين لدرجة اليقين العيني والقلبي، وإما أن يكونوا تائهين ضالين لدرجة العمى الكلي الذي لا يعرف للنور طريقاً ومخرجاً.

وللأسف، لو قمنا بعملية إسقاط لهذا الكلام على أرض الواقع الإسلامي، قديمه وحديثه، لرأينا أن صراعاتنا من أجل الاستئثار بامتلاك الحقيقة كاد يجعلنا نفقد تلك الحقيقة، وأن صراعنا على امتلاك مفاتيح الجنة في السماء جعلنا نعيش في جحيم حقيقي على الأرض.

فهناك حقائق كثيرة في التاريخ الإسلامي يقر ويعترف بها القاصي والداني، وربما كل الشيع والفرق تعترف بها جملةً وتفصيلاً، ولكن المشكلة هي المحاولة الدؤوبة لإيجاد تأويلات شخصية وتبريرات وتفسيرات مذهبية تحاول أن تضع أمام تلك الحقائق الثابتة مرايا عاكسة مقعرة حيناً ومحدبة أحياناً أخرى وذلك بهدف تشويه تلك الحقائق وإظهارها بشكل مضحك ومشوه ولتضيع الحقيقة وصورتها الصادقة بعد ذلك.

ولذلك نقول: لو أن أحداً ما سألنا السؤال التالي قائلاً:

هل تعتقدون أن هناك شخصاً أسوأ من الأعمى؟

فإننا سنجيبه قائلين: إذا كنت تقصد بكلمة (أسوء) فقدان الرؤية وخسارة إحدى الحواس الخمس المؤدية إلى المعرفة، فإننا نقول لك: نعم، إن هناك من هو أسوء من الأعمى، إنه ذاك الذي لا يريد أن يرى!!!

والذي لا يريد أن يرى حقاً، هو ذلك الذي لا يريد أن يقر ويعترف بالكثير من الحقائق التاريخية المبثوثة في كتب التاريخ وكتب السيرة النبوية على الرغم من المحاولات اليائسة التي قام بها الحكام والملوك لطمس تلك الحقائق وتقديم الصور المشوهة بدلاً عنها.

ومن أوائل تلك الحقائق التي أدركها المفكرون والأدباء المسيحيون المعاصرون، والذين هم حجر الأساس في كتابنا الذي بين أيدينا الآن، وأيقنوا أنها حقيقة قائمة وجلية لا غبار عليها هي الرسول الكريم ﷺ منذ الأيام الأولى لدعوته الإسلامية قد جعل من الإمام علي عليه السلام أساساً ومنطلقاً لدعوته الجديدة. وليس هذا بالأمر الغريب أو العجيب، وذلك لأن الرسول ﷺ والإمام عليه السلام، كما بيّنا سابقاً في هذا الكتاب، نور واحد وهو النور الأول المشتق من نور ذات الله سبحانه وتعالى. فهما، إذاً، نور واحد أساساً، وقد أخذ الله لهما العهد بالولاية من بني آدم يوم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى. وكان الله سبحانه وتعالى وقتها قد أخذ أيضاً ميثاق النبيين جميعاً على ولاية الإمام علي عليه السلام[1].

ولما شاء الله عز وجل أن يجعل الإنسان بجسده وروحه خليفة له على الأرض، ولما أراد أيضاً إمضاء أمر آخر رسالاته إلى بني آدم عن طريق الرسول

---

(١) محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٦ الحديث ٢٦.

المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، كان لا بد من أن تكون هناك ترجمة عملية على هذه الأرض ، بحيث تكون هذه الترجمة العملية بمثابة المرآة الصافية التي تعكس ما حدث يوم أخذ المواثيق في عالم السماء.

وباختصار نقول ، إن كل من قبل ولاية محمد وعلي في السماء أو رفضها هناك ، فإن الميدان العملي على هذه الأرض سيظهر قبول تلك الولاية أو رفضها. وتتجلى عملية الترجمة تلك من خلال عدة مواقف وأحداث وليس من خلال حدثٍ واحدٍ أو موقف واحد. وربما حادثة بيعة الدار هي واحدة من تلك الحوادث التي تبين وتكشف الكثير من صدق المواقف والحقائق.

وقبل أن نذكر موقف المفكرين المسيحيين من هذه البيعة الأولى للإمام علي عليه السلام ، وكيف أنهم ، أي المسيحيون ، قد أقروا بولاية علي عليه السلام على المؤمنين ، لا بدّ أن نذكر شيئاً من تلك البيعة كما وردت في كتب التاريخ المعتبرة.

ولنأخذ على سبيل المثال ما جاء في كتاب (تاريخ الطبري) أو (تاريخ أبي الفداء) فيقول صاحبا هذين التاريخين في تفسير ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ : «... حيث اجتمعت عشيرته - أي عشيرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم - ودعاهم لدينه الجديد فقال : «...إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟

فيقوم علي بعد أن أحجم القوم جميعاً ويقول : أنا يا نبي الله ، أكون وزيرك عليه.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[1].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام هو أخ رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيه وخليفته الشرعي على أمته من بعده حيث أراد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بيان ذلك لعموم الناس منذ اللحظات الأولى لشروق الرسالة، وهنا لا بد لنا من طرح السؤال التالي:

هل لهذه الحادثة الهامة في التاريخ الإسلامي ذكر في كتابات ومؤلفات المفكرين والأدباء المسيحيين؟

ويأتينا الجواب: نعم، وبكل تأكيد، فإن لهذه الحادثة العظيمة ذكراً ومكانة رفيعة في كتاباتهم وأبحاثهم. وإن لقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا» تفسيرات مدهشة عندهم، وتدل هذه التفسيرات على مدى معرفتهم بعظمة ومكانة ودور الإمام علي عليه السلام في رفع راية الإيمان المحمدي ونور الحق الإلهي.

فعندما يتكلم، على سبيل المثال، المستشرق الفرنسي (الفونس إيتين دينيه) (١٨٦١-١٩٢٩) في كتابه (محمد رسول الله) عن ولادة الرسالة الإسلامية في المهد المحمدي، نراه يؤكد وبعمقٍ على حقيقة أن أول من لامست قلبه الخيوط

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان - بيروت، د.ت، ج٢ ص٣٢١.

ب) تاريخ أبي الفداء: الجزء الأول، طبع دار الفكر - بيروت، ١٩٥٦، ص١٤.

الأولى لشمس الرسالة الإسلامية هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[١]. وينطلق هذا المفكر بعد ذلك، ليصور لنا ما فعله الإمام علي عليه السلام من أجل سيد الرسالة صلى الله عليه وآله حيث عمد إلى تنفيذ ما أمره به الرسول صلى الله عليه وآله فيما يتعلق بالإعداد لعقد جلسةٍ تضم عشيرة (الأقربين) بهدف تبليغهم أمر ولادة آخر رسالة سماوية. وبعد أن يصور لنا (دينيه) ما حدث بصورةٍ مشابهة لما جاء في كتب السيرة والأخبار التاريخية، نراه يؤكد للقارئ من جديد -أياً كانت عقيدة ذلك القارئ- على حقيقة أن الخليفة الحقيقي والشرعي للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هو أخوه وابن عمه (علي)، وذلك عندما «وضع - محمد - يده على كتفه في حنان، وأعلن: ها هو ذا وصيي ووزيري، ها هو ذا أخي»[٢].

ومن الجدير ذكره أن لهذا المستشرف الفرنسي (الفونس إيتين دينيه) مؤلفات عديدة عن الإسلام والشرق، منها: (الشرق كما يراه الغرب)، (حياة الصحراء)، (حياة القلوب)، (أشعة خاصة بنور الإسلام)، (محمد رسول الله)، (الحج إلى بيت الله الحرام).

هذا هو شأن المفكر والمستشرق الفرنسي (دينيه) مع الإسلام، وتحديداً مع هذه الصفحة الرائعة من التاريخ الإسلامي، فهل هناك من المستشرقين أو المفكرين الغربيين من كتب عن هذه الصفحة المشرقة أيضاً؟

وحتى لا نتعجل الإجابة، دعونا نقرأ وجهة نظر المفكر والفيلسوف

---

(١) الفونس إيتين دينيه، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية - صيدا، ص٩٠.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٩٦.

الإنكليزي (توماس كارلايل) كما جاءت في كتابه (الأبطال).

إن الفيلسوف (كارلايل) يبين لقرائه المسوغات الأساسية كي يكون الإمام علي عليه السلام، هو الأخ والخليفة الفعلي لآخر رسول سماوي إلى أهل الأرض. وهو يرى أن كل من يعرف الإمام علياً عليه السلام، ذلك الفتى الذي يفيض نوراً وحكمة وشجاعة، لا يسعه إلا أن يحبه ويتعشقه، فهو «فتى شريف القدر كبير النفس»[1]. ولم يكن الإمام علي عليه السلام علياً بقدره وكبيراً بنفسه من أجل الخصال التي تمتلكها نفسه فحسب، بل كان علياً وكبيراً أيضاً من أجل الله ومن أجل نوره وخطابه السماوي الخالد لجميع أبناء الطينة الآدمية على وجه هذه البسيطة.

ولما عرف هذا الفيلسوف المفكر، (كارلايل)، هذه الحقيقة المبدئية عن الإمام علي عليه السلام، أدرك بنفاذ بصيرته أن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله والإمام علياً عليه السلام هما أساس الإسلام وعنوان الإيمان. وقد عبر (كارلايل) عن هذه الحقيقة بقوله إن العناق المبكر بين روح محمد وروح علي، والتقاء يد محمد بيد علي الصغيرة وقتذاك في بيعة الدار، كان له أبلغ الأثر في تغيير مسيرة التاريخ[2].

فلقاء يد النبي مع يد الوصي أنتج للبشرية تاريخاً جديداً بجسد جديد وروح جديدة. فالتاريخ الإنساني بأكمله قد تحول تحولاً جذرياً وذلك عن طريق الانتقال من غياهب الظلمات إلى مرابع النور والضياء.

ولذلك، فعندما يصور الأديب والمفكر الفرنسي الكبير (الفونس دي

---

(١) توماس كارلايل: الأبطال، مصدر سابق، ص٧٦.

(٢) د. علي شريعتي: منهج التعرف على الإسلام، منشورات طهران، ١٩٨٠، ص٢٢.

لامارتين) (١٧٩٠-١٨٦٩) الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في كتابه (السفر إلى الشرق) قائلاً:

«إن محمداً فوق البشر ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعاجز تعضد ذلك، وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته فكشف فيها عن القيم الروحية ثم قدمها لأمته العرب ديناً سماوياً سرعان ما اعتنقوه، هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر»[1]، فإن هذا يعني أن الرسالة السماوية التي رسمها الخالق لمحمد صلى الله عليه وآله كي يبلغها إلى البشرية كافة بكل ما في تلك الرسالة السماوية من قيم روحية وفكرية تتناسب مع كل المتغيرات الحركية للحياة، هي بحد ذاتها تغيير جذري وجوهري في مسيرة التاريخ وصيرورته التي شارك فيها الإمام علي عليه السلام مشاركة فعالة وذلك عندما قبل أن يكون الأخ والوصي والخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وأن يوازره على ذلك الأمر مهما كان الثمن ومهما كانت النتيجة.

وهذا يعني أن كلام الأديب والمفكر الفرنسي (لامارتين) هو التفسير المنطقي والموضوعي لكلام الفيلسوف والمفكر الإنكليزي (كارلايل).

أما الأديب المحلّق (جورج جرداق)، فقد أفرد مكاناً خاصاً في مؤلفاته القيمة لهذه الحادثة الهامة والتي تتسم بدلالات روحية ومعانٍ فكرية عميقة. وقد ذكر الأستاذ (جرداق) بيعة الدار وتفاصيلها الدقيقة في المجلد الأول من موسوعته القيمة (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية)، وذكر أيضاً كيف أن الإمام علياً عليه السلام قد وقف تلك الوقفة البطولية المشرفة عندما عرض الرسول صلى الله عليه وآله أمر

(١) خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء - بيروت، ط٢/١٩٨٣، ص١٠١.

رسالته السماوية على عشيرته الأقربين، وقال بكل ثقة بالنفس ملبياً دعوة الرسول ﷺ: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت»[(١)].

وكان الأستاذ جرداق قد أكد قبل إيراد هذه الحادثة وبعض الوقائع الأساسية الأخرى على أن هناك دلالات وإشارات واضحة هيأت الإمام علياً عليه السلام ليكون الشخص المعد بشكل فعلي من قبل الإرادة النبوية المعززة بالمشيئة الإلهية كي يتولى منصب الإمامة والولاية على كافة المسلمين. وفي ذلك يقول جرداق: «ولاستجلاء هذه الوقائع بأرقامها لا بد من ذكر بعض الأحاديث التي تؤيدها وتضمن وجودها، وتخبرنا إلى أي مدى كان التآخي الروحي بين النبي وابن عمه العظيم، كما تخبرنا إلى أي مدى كان علي وارثاً لمزايا الرسول، مصطبغاً بصبغته، أثيراً لديه، حبيباً إليه، عظيماً في جنانه وعلى لسانه. ويمكننا بعد ذلك أن نستنتج أن الرسول إنما كان يمهد لعلي سبيل الخلافة ضمن الحدود التي تشترطها ثورة الإسلام والتي يتم بها سلطانه وانتشاره. يمهد لعلي سبيل الخلافة لأنه رأى فيه صورة عنه من حيث سمو الخلق ونبل المقصد وسائر المكارم»[(٢)].

وباختصار شديد، فإن صورة الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر هي صورة ذلك الإمام والقائد المتمتع بكافة الخصال والأخلاق النبوية، والمتميز بروحه الرسالية الشاملة التي جعلت منه مجمعاً لفضائل وخصال كل الأنبياء والرسل الذين سبقوه، أولئك الرسل الذي لعبوا دوراً إنسانياً بارزاً في تغيير

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، مصدر سابق، ج١ ص٦٦.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٢.

مسارات التاريخ ووجوه الحضارات.

وقد ذهب الكثير من الفلاسفة والشعراء وأرباب الفكر إلى الاعتقاد بأن الإمام علياً عليه السلام هو الممثل الصادق والجوهر الصافي لأفكار ومبادئ كل الرسل والأنبياء عليهم السلام ، وأن أخلاقه وسجاياه النبيلة هي خلاصة المنظومة الأخلاقية لكل الرسالات السماوية السابقة. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر أن ابن أبي الحديد المعتزلي، شارح نهج البلاغة، قد ملأه الاعتقاد أن الإمام علياً، الأنزع البطين، هو في حقيقته الممثل والجامع الأوحد لكل نبي ورسول، فهو الإمام الذي اجتمع في شخصه الكريم شخص موسى بن عمران عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام، وكذلك الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أيضاً. ثم أضاف على ذلك أيضاً أن الإمام المبين علياً عليه السلام هو الشخصية الفريدة التي اجتمع فيها، بالإضافة إلى أشخاص الرسل والأنبياء، شخصية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، بل الملأ الأعلى برمته[1]، وحتى تبدو الصورة بشكل أكثر وضوحاً، فهو عليه السلام مجمع وجوهر كل ما هو مقدس في شخصيات عالمي الأرض والسماء. ولو لم يكن الإمام علي عليه السلام كذلك حقاً، لما قال الرسول صلى الله عليه وآله في جوابه لأحد السائلين: «أتاني ملك، فقال: يا محمد واسأل من أرسلنا من قبلك على ما بعثوا، قال: قلت: على ما بعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب»[2].

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: القصائد العلويات، مؤسسة الأعلمي - بيروت، راجع القصيدة السادسة.

(٢) محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام - طهران، ط١٤٠٤/٣هـ، ص٧٥.

فإذا كان الأنبياء والرسل قد بعثوا على ولاية محمد وعلي، فما هو حال بقية الناس الذين هم دون مستوى الأنبياء والمرسلين؟

والجواب الواضح والبسيط هو ما رواه الحافظ الحسكاني الحنفي في كتابه (شواهد التنزيل) في معنى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]، حيث إنه أورد تفسير ذلك بأن سؤال الله للناس غداً سيكون «عن ولاية علي»[٢].

ولهذا، فإن مبايعة الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام منذ اللحظات الأولى لولادة الرسالة الإسلامية لم تكن عن عبث، بل بإمكاننا القول إن العبث الحقيقي هو أن يترك الراعي الحكيم خرافه تائهة وغير آمنة في حال غيابه دون أن يكل أمرها إلى راعٍ آخر لا يقل عنه وعياً وحكمة كي يقودها ويحميها من هجوم الذئاب وأهواء الطامعين والمتربصين.

ولا ريب في أن الشاعر المسيحي (بولس سلامة) قد فطن لهذه الفكرة، وأيقن أن ولاية علي عليه السلام التي فرضها الرسول الأمين ﷺ على المصدقين به وبرسالته الغراء إنما هي ولاية الرسالة الإلهية ذاتها. وقد صور شاعرنا المسيحي هذه الحقيقة في كتابه الملحمي (عيد الغدير)، فقال - بعد أن ذكر أحداث بيعة الدار بطريقةٍ نثريةٍ مفصلة - واصفاً دعوة الرسول الكريم ﷺ لعشيرته الأقربين من أجل الدخول إلى مملكة التوحيد وعالم النور والرحمة:

ودعاهم لله، للنور، للجنـ ـات خضراً على الزمان الأبيد
قال: قد جئتكم بإيمان إبراهيم، بالوحي، بالضياء الرشيد

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٢.

(٢) الحافظ الحسكاني الحنفي: شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، طبعة بيروت، ج١ ص٣٢٥.

أيُكـــم يتَّبـــع هُـــداي ويمـــشي في لـــوائي يكـــن أخـــي وعمـــودي
قال: إني لها، وإن كنت غضَّ العمر، فالـــسيف للعُتـــاةِ بريـــدي
وإذا بـــالنبي يرســـل قـــولاً رنَّ في مـــسمع الزمـــان البعيـــد
«أنـــت مـــني وارثـــي ووزيـــري وعلى الحوض أنت بكر شهودي»(١)

فالشطر الأول من البيت الأخير واضح المعنى، أما المعنى في الشطر الثاني، فقد قصد به الشاعر ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وآله للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «... وإنك غداً على الحوض خليفتي، وأنت أول من يرد علي الحوض، وأنت تزود المنافقين عن حوضي»(٢).

ولو وقفنا وقفة قصيرة في محطة من محطات الأديب والمؤرخ (جرجي زيدان) لرأينا أن ذلك المفكر والمؤرخ المسيحي قد عرض الكثير من الوقائع والأحداث الإسلامية الهامة بأسلوب قصصي وشيق بغية إيصال تلك الأفكار إلى أذهان القراء دون تكلف أو تعقيد، أو بعبارة أوضح، دون تزييف أو مواربة.

لقد عرض ذلك المؤرخ المسيحي كل تلك الأحداث الجسيمة في التاريخ الإسلامي ضمن سلسلته الروائية المشهورة (روايات تاريخ الإسلام)، ولعل روايته المؤثرة (١٧ رمضان) واحدة من أهم تلك الروايات التي تعالج شخصية الإمام علي عليه السلام ودورها في توجيه وقيادة التاريخ الإسلامي في فترةٍ من أشد الفترات حساسية في فجر الإسلام.

---

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٨٦، ص٤١.

(٢) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص١٣٠.

ولئن أراد ذلك الأديب والمؤرخ المسيحي المعاصر (زيدان) (١٨٦١-١٩١٤) أن يعرض ويعالج المبادئ والقيم التي استشهد الإمام علي عليه السلام من أجل تحقيقها وترسيخها في نفوس الناس، إلا أنه أراد بنفس الوقت أن يعرض من خلال شخصيات تلك الرواية التاريخية، والتي استقى أحداثها من تاريخ ابن الأثير وتاريخ المقريزي وأسد الغابة وإلى غير ما هنالك من أشهر كتب التاريخ والسيرة، أراد أن يعرض بعض فضائل الإمام علي عليه السلام وبعض الخصائص التي اختصه الله ورسوله بها دون غيره.

ونستطيع القول إن المؤرخ (زيدان) قد نجح إلى حد مقبول في إعطاء القارئ شيئاً مهماً عن طبيعة شخصية علي عليه السلام وعن مبادئه وقيمه الإسلامية التي يدافع عنها. وليس هذا بالشيء الغريب عن المؤرخ زيدان، هذا إذا عرفنا عنه أنه أديب ومؤرخ وواحد من أعلام النهضة العربية. فهو الذي أسس مجلة (الهلال) عام ١٨٩٢ والتي لا تزال تصدر في القاهرة حتى اليوم. وهو أيضاً صاحب الأبحاث والمقالات والكتب التاريخية المشهورة مثل (روايات تاريخ الإسلام) و(تاريخ التمدن الإسلامي) وغير ذلك من التصانيف والمؤلفات الأخرى.

وعلى كل حال، فإن الأستاذ (زيدان) قد أعطى القارئ لروايته (١٧ رمضان) صورة واضحة المعالم للخصال التي يتمتع بها أمير المؤمنين علي عليه السلام. وقد عرض جرجي زيدان هذه الفضائل في بداية الرواية على لسان شيخ (أموي) - وهذه لفتة ذكية من المؤلف - وكان من جملة ما رواه جرجي زيدان على لسان ذلك الشيخ الأموي وهو يخاطب حفيده (سعيد):

«فأنت ترى يا ولدي أن علياً أولى بالخلافة من سائر الصحابة لقرابته

وصهره ووصية الرسول له»[١].

وهذه إشارة واضحة وصريحة لا ريب فيها من هذا المؤرخ المسيحي يؤكد لنا من خلالها أنه حتى الأمويون أنفسهم يعترفون ويقرون أن الأخ والخليفة والوصي الحقيقي الذي أوصى له الرسول الأمين صلى الله عليه وآله بالخلافة والولاية هو الإمام علي عليه السلام بلا منازع.

بل ذهب المفكر والأديب المسيحي (سليمان كتاني) إلى أبعد من ذلك بكثير، وذلك عندما أرخى العنان لقلمه ليكتب بصدق ما يشاء عن عموم أهل البيت المحمدي الشريف عليهم السلام، وبشكلٍ خاص عن الإمام علي عليه السلام. فأمير المؤمنين عليه السلام الذي بايعه الرسول صلى الله عليه وآله على الخلافة والوصاية هو الإمام الذي ارتقى فوق مستوى عقول العارفين وطار محلقاً بين شغاف قلوب المحبين وليحط رحاله في جوار الغاية الكلية المطلقة بعد رحلة طويلة ومليئة بالألم والمعاناة من أولئك الذين جحدوا أفضاله وتنكروا لمحامد خصاله وأرادوا منه أن يعود بهم إلى ظلمات الجاهلية في الوقت الذي كان يريد هو أن يخرجهم إلى عوالم النور الأقدس، إلى حيث يريد الله ورسوله صلى الله عليه وآله لهم أن يكونوا.

فالمؤمنون يخشعون ويسجدون تحت القباب وهم متدثرون بالهيبة والرهبة أمام عظمة الله، أما الإمام علي عليه السلام، بالنسبة للأديب (كتاني)، فلا يسجد تحت قباب العبادة والذكر، لأن ذلك لا يليق به، بل إن الإمام علياً عليه السلام هو «الساجد فوق القباب»[٢] وليس تحتها، بل كيف يسجد الإمام علي عليه السلام تحت

(١) جرجي زيدان: ١٧ رمضان (سلسلة روايات تاريخ الإسلام) مطبعة كرم - دمشق، ص٢٨.

(٢) سليمان كتاني: الإمام زين العابدين عنقود مرصع، دار الروضة - بيروت، ط١/١٩٩٣، ص٢١.

قبة العبادة إذا كان هو المولود الوحيد في أول بيت للعبادة، بل كيف يكون ذلك طالما أن ذكره - كما يقول الرسول الأعظم ﷺ - عبادة؟![1]

بل كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك إذا كان الإمام علي عليه السلام، على ما رواه ابن المغازلي الشافعي في حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: «مثل علي فيكم كمثل الكعبة، النظر إليها عبادة، والحج إليها فريضة»[2].

أفلا يجوز لمن كان بمنزلة الكعبة ومكانتها أن يسجد فوق القباب لا تحتها؟!!!

بلى، يجوز له ذلك، فهو الإمام الأعظم الساجد فوق القباب، وهو - كما وصفه سليمان كتاني أيضاً (نبراس الإسلام ومتراسه)[3]. وهو مصباح الدجى ونور الهدى وسفينة النجاة وعين الحياة. وهو الإمام الذي تشرفت الكعبة بظهوره منها بعد ولادته فيها، وهو «... النبأ العظيم والصراط المستقيم والقرآن الكريم وهو إمام المسلمين وأمير المؤمنين ووصي رب العالمين وقائد الغر المحجلين ونور الله المبين وباب حطة رب العالمين وجنب الله في خلقه ووجهه في أوليائه أجمعين.... وهو معدن الأسرار ونور الأنوار والمولود في البيت ذي الأستار.. وهو صاحب الدلالات والآيات الباهرات والمعجزات القاهرات الزاهرات

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٨١.

ب) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، المكتبة الإسلامية - طهران، ١٤٠٢هـ، ص٢٠٦.

(٢) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، ص١٠٦.

(٣) سليمان كتاني: الإمام زين العابدين عنقود مرصع، ص٢١.

والمنجي من الهلكات الذي ذكره الله في محكم الآيات، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

ولأن الإمام علياً عليه السلام كل هذا، بل وفوق هذا، فقد نظم الأديب والشاعر المسيحي (عبد المسيح الإنطاكي) أبياتاً عديدة تتناول مسألة بيعة الدار وذلك ضمن ملحمته الشعرية (ملحمة الإمام علي عليه السلام) لافتاً نظر القارئ إلى المعاني الروحية الجليلة التي تختزنها تلك البيعة المباركة.

ولا نشك في أن لهذه الحادثة معانٍ روحية عظيمة ستبقى حية في ضمائر المفكرين المستنيرين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، ولكن عندما نقول هذا الكلام ونحن متأكدون منه، فإننا نقصد من وراء ذلك أن هناك البعض ممن يروي الشيء ولا يدري معانيه وأبعاده، فهو بالتالي كالآلة الصماء التي تقوم على تسجيل الأشياء وترديد الأقوال ذاتها لكن دون أية دراية ومعرفة لما ترddده على الأسماع.

ولذلك، وقبل أن أذكر ما أورده الأديب الشاعر عبد المسيح الإنطاكي بشأن ولاية الإمام علي عليه السلام وقيامه بدور الهادي إلى جانب ابن عمه صلى الله عليه وآله القائم بدور المنذر، لا بد لي من أن أذكر أن هناك العديد من المفكرين والكتاب المسلمين ممن لا يقيمون وزناً لكرامة الكلمة ولشرف المبدأ، ولذلك نرى أن هؤلاء، وإن عرفوا ورووا وكتبوا، إلا أن معرفتهم بالأمور وروايتهم لها لا تتجاوز حناجرهم، بل إنهم مستعدون أن يبيعوا الحقيقة وشرف المبدأ وقدسية

(١) ميرزا جواد ملكي التبريزي: السير إلى الله، ترجمة: ياسين الموسوي، دار التعارف - بيروت، ١٩٩٠، ص٢٩.

الكلمة الصادقة مقابل ثمنٍ بخسٍ.

وعلى سبيل المثال: عندما طبع الدكتور (محمد حسين هيكل) كتابه (حياة محمد)، أورد في الطبعة الأولى قصة مبايعة محمد ﷺ للإمام علي عليه السلام بشكلها الكامل والصحيح، لكن ما إن أصدر الطبعة الثانية منه حتى بدت الحادثة، حادثة بيعة الدار، مشوهة تشويهاً عجيباً ومناقضاً لما جاء في الطبعة الأولى من الكتاب المذكور. وبالطبع، يحق لنا ولكل باحث عن الحقيقة أن يتساءل قائلاً: لماذا قام الدكتور (هيكل) بهذا التصرف؟

وما هو الدافع أو بالأصح الثمن المقابل لما قام به من عملية تشويه واضح لصفحة هامة من صفحات التاريخ الإسلامي؟!

وللأسف، فإن الجواب على هذين السؤالين بسيط جداً وواضح جداً.

لقد فعل الدكتور (هيكل) ما فعله من تشويه وتزوير لتلك الحقيقة مقابل خمسمائة جنيه مصري قبضها من إحدى الجهات الرسمية[1].

وبالتالي، لا أعتقد أنني سأكون من المبالغين إذا قلت: إذا كان الدكتور هيكل قد قبل أن يبيع حقيقة مبايعة الرسول المصطفى ﷺ للإمام المرتضى عليه السلام مقابل خمسمائة جنيه، فلا شك في أنه سيكون مستعداً أيضاً ليبيع حقيقة نبوة محمد ﷺ مقابل ألف جنيه أو ربما أقل من ذلك بكثير! فالذي يبيع صفحة واحدة من صفحات سفر الرسالة الإسلامية سيكون مستعداً في كل وقت ليبيع

(١) محمد علي إسبر: الإمام علي أمير المؤمنين (ع) ونهجه في الحياة. مطبعة النور - جبلة، ٢٠٠٢، ص٢٢٩.

الإسلام برمته بالثمن الذي يراه مناسباً من أجل تحقيق أغراضه ونيل مآربه.

ولذلك، أجد من المخجل حقاً أن يعترف الأدباء والمفكرون ورجال التاريخ والفلاسفة من المسيحيين بالكثير من الحقائق الإسلامية في حين أن البعض من مفكرينا المسلمين يحاولون جاهدين وضع الغربال أمام قرص الشمس لإخفاء تلك الحقائق والأحداث!!

فما الذي يجبر الأديب والمفكر المسيحي عبد المسيح الإنطاكي على ذكر بيعة الدار المباركة بحذافيرها نثراً وشعراً مع التأكيد على قيمتها الروحية ومعانيها الحركية في دفع عجلة الرسالة الإسلامية للأمام؟ وما الدافع عنده كي يصور شعراً ما قاله الرسول الأمين صلى الله عليه وآله لعشيرته الأقربين بشأن ولاية علي عليه السلام بأسلوب شعري رقيق ينم عن صدق الأحاسيس وسمو الروح في عملية نقل ذلك الحدث التاريخي والأمانة الفكرية لكل الأجيال اللاحقة؟!

وها هو يقول مصوِّراً دعوة محمد صلى الله عليه وآله لعشيرته الأقربين من أجل نصرته ومؤازرته:

فمن يؤازرني منكم فذاك أخي ... وذاك يخلفني في رعي ناميها
فلم يجد من لبيبٍ راح مقتنعاً ... بصدق بعثته أو راح راضيها
إلا (العلي) فنادى دونها: فأنا ... نعماك يا هادي الأكوان باغيها

ثم يصور لنا بعد ذلك رد فعل الرسول الأمين صلى الله عليه وآله من خلال قوله:

وقال: هذا أخي ذا وارثي وخليفتي ... على أمتي يحمي مراعيها
وقال: فرضٌ عليكم حسن طاعته ... بعدي وإمرتُه ويلٌ لعاصيها[1]

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق، ص٧٤-٧٥.

إنها أبيات شعرية صادقة وشفافة تنساب من قلبٍ صادقٍ نبيل. وربما استطاع هذا الشاعر العبقري أن يقول من خلال هذه الأبيات الشعرية القليلة ما يغنينا عن قراءة الكثير من المقالات والأبحاث عن هذه الحادثة المشهودة. وقد صدق الشاعر الإنكليزي (كوليريدج) عندما قال واصفاً الفرق بين النثر والشعر في تصوير الأحداث والوقائع، فقال: إن النثر عبارة عن كلمات موضوعة في أفضل نظام بينما الشعر عبارة عن أفضل الكلمات موضوعة في أفضل النظام.

ومع ذلك نقول إن الكتابات المسيحية المتنوعة التي تناولت شخصية الإمام علي عليه السلام كانت كتابات موفقة بشكل عام في رسم صورة متكاملة لأعظم شخصية إسلامية رأى رسول الله فيها الامتداد الحيوي والارتقاء الروحي المستمر للرسالة السماوية الأخيرة الموجهة لعالم الملائكة في السماء ولكل النسل الآدمي على وجه الأرض.

ويمكننا القول أيضاً إن ذكر حادثة بيعة الدار التي تمت فيها مبايعة الإمام علي عليه السلام خليفة ووصياً ووليا على كل المسلمين والتي وردت في كتابات ودواوين المفكرين والأدباء المسيحيين، تحمل في طياتها دلالات روحية ومغازٍ معنوية عظيمة استطاع أولئك المسيحيون إدراكها مثلما أدرك تلك الأبعاد والمعاني الكثير من المسلمين من ذوي الأقلام النيرة والضمائر الحرة.

ومن الطبيعي أن ترتبط تلك الحادثة الخالدة وأن تقترن بالعديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على عمق تلك الحادثة وعلى أهميتها. فعندما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام أمام جموع المسلمين «أنت مني

وأنا منك»[١]، فإن هذا يعني أن الوحدة النورانية الجامعة للحقيقتين: الحقيقة المحمدية والحقيقة العلوية هي في المحصلة وحدة رسالية إمامية، فالرسول فيها إمام مبين يفسر للناس حقائق وأحكام الشريعة الإلهية، والإمام بدوره رسول مكلف بالجهاد على التأويل كجهاده على التنزيل، وهو أيضاً الامتداد الطبيعي للجهاد الرسالي الشامل من أجل بناء أفق جديد يحيط بكل تفاصيل الرسالة السماوية الأخيرة التي أعلن ظهورها أول خلق الله وخاتم رسله صلى الله عليه وآله.

ومما يؤيد ذلك أنه لما نزل سبحانه وتعالى مخاطباً رسول الكريم صلى الله عليه وآله ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[٢]، قال الرسول صلى الله عليه وآله مفسراً ذلك بقوله: «أنا المنذر وعلي الهادي»[٣]. وهذا يدلُّ دلالة قطعية على وحدة وتلازم الحقيقتين العظيمتين المتجليتين للخلق بالإنذار وبالهداية.

وقد انتبه الأديب والشاعر المسيحي الماروني (خليل فرحات) إلى هذه النقطة الفلسفية الحساسة وعبَّر عنها بشكلٍ لافت للنظر في مطولته الشعرية الرائعة (في محراب علي)، إذ إنه وصف القرآن الحكيم بالقاسم المشترك الذي يجمع بين دفتيه أسرار الرسالة المحمدية المتماهية مع أسرار الولاية العلوية. وها هو يوضح ذلك من خلال خطابه للإمام علي عليه السلام بقوله:

ولما كتابُ الله أعجز قومَه ... وأُغلق لم يفتح على الجلّة الكبرِ
فتحتَ عليه الباب فالضوءُ مُبهرٌ ... ولكن فتى الأضواء ما ضجَّ للبهرِ

---

(١) صحيح الإمام البخاري: مطابع الشعب - القاهرة، ط١/١٩٨٥، ج١ ص٢٢، ص١٨٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ٧.

(٣) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، مكتبة الزهراء - القاهرة، ط١/١٩٨٥، ص٤٧.

كأنَّكما من قبلُ قد كنتما معاً ومر زمان بعد آذن بالهجرِ

ثم ينتقل بعد ذلك ليجعل «النيرين» ، علي والقرآن ، يتحدان مع محمد ﷺ لتشكل وحدةً نورانية هي الأساس في إيجاد الكون وإظهار الوجود بفضل الله ورحمته :

وعاد لقاء النيِّرين بأحمد وعزَّ بك الإسلام كالشمس في الظهر
فمصحف رب الناس قولٌ وفعله إمام ، ومن لم يدر ذلك فليدر
وفي سفر هذا الكون تكتب ما تشا فإن أخطأ القراء ما أخطأ المقري[(١)]

وفي القصيدة بعض الأبيات التي يرى فيها البعض صوراً عرفانية رقيقة وعذبة يندر أن نراها في الشعر الإسلامي الحديث.

وأياً كان الأمر ، فإن الرسول المصطفى ﷺ كان يؤكد دائماً على أنه هو وعلي عليه السلام أبوا هذه الأمة ، وكان ﷺ يقول دائماً في الكثير من المواقف مذكراً المسلمين بحق علي عليه السلام عليهم قائلاً : «حق علي على المسلمين كحق الوالد على ولده» [(٢)]. فالمنذر والهادي هم والدا الرسالة الإسلامية التي ختم الله بها جميع رسالاته السماوية السابقة. وبختام تلك الرسالات السماوية كان قول الرسول الصادق الأمين ﷺ : «أنا خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء»[(٣)] هو القول الفصل في تحديد الهوية الإيمانية لكل مخلوق ذي عقل على وجه البسيطة بدءاً من ظهور وولادة رسالة محمد بن عبد الله ﷺ وانتهاءً بمحيي الشريعة محمد

---

(١) خليل فرحات : في محراب علي ، مجلة الموسم العدد (٧) ، هولندا ١٩٩٠ ، ص٨٧٧-٨٨٠.

(٢) ابن المغازلي الشافعي : مناقب علي بن أبي طالب ، ص٤٨.

(٣) الحافظ المناوي الشافعي : كنوز الحقائق ، ص٤٧.

بن الحسن، حجة الله على الخلق (عجل الله فرجه الشريف)، وما بين هذين المحمدين، محمد الرسول ومحمد الحجة، يكون الإمام علي عليه السلام هو الحجة الدائمة على امتداد الفترة الزمنية التي تفصل بين غيابهما عليهما السلام وهذا ما عبَّر عنه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله بإعلانه للملأ أن الإمام علياً عليه السلام هو «حجة الله على عباده»[1].

وهكذا نرى أن بيعة الدار التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام وبحضور الأقربين من عشيرة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله هي البيعة التي رسمت الخطوط العريضة الأولى للتحول في التاريخ الإنساني المرتقب. وقد أدرك المفكرون والأدباء المسيحيون هذه الحقيقة مثلما أدركها الكثير من المفكرين المسلمين من غير المسلمين الشيعة.

لقد أدرك المفكرون المسيحيون أن المنذر والهادي، محمد وعلي، هما من عملا بجد وصدقٍ من أجل صياغة التاريخ الإنساني الجديد، ذلك التاريخ الذي يأخذ بحسبانه العناصر الأساسية الثلاثة: الإنسان والمكان والزمان. فالإنسان هو حجر الأساس في الوجود وهو الخليفة المؤتمن على ما استخلفه الله عليه. أما المكان فهو المجال الحيوي لحركة ذلك الإنسان، وهو الجزء المكمل للحدث الإنساني إذ إن قيمة المكان ليست في ذاته بل قيمته مستمدة من وجود الإنسان فيه. أما الزمان، فهو ابن المكان وابن الحدث إذ إنه يأخذ قيمته من الحدث ذاته[2]. ولذلك فمن

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٨.

(٢) الدكتور مهدي أمبيرش: نحو الإنسان الكامل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية - طرابلس، ليبيا، ط١/١٩٨٧، ص٩٣.

الصحيح تماماً القول إن الزمان الذي لا يترك الإنسان عليه آثاره وبصماته الإنسانية البارزة، سيكون زمناً وهمياً خالياً ومجرداً من القيمة الإنسانية، وبالتالي سيكون زمناً جنينياً كامناً في رحم النسيان. وهذا ما انتبه إليه الرسول المصطفى ﷺ وأدركه تمام الإدراك هو وابن عمه الإمام علي عليه السلام، فعملا سوية على إعطاء كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة حقه الكامل من أجل أن يكون الإسلام رحمة للإنسان، لكل إنسان في كل مكان وفي أي زمان.

علي عليه السلام أمة في إمام... وخلافته المصادرة

في شهر نيسان من عام ١٩٤٣ وعلى مدرج الجامعة السورية وقف المفكر السياسي المسيحي (ميشيل عفلق) يخطب في الناس خطبةً بليغة المعاني بمناسبة ولادة الرسول المصطفى، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وكان من جملة ما قال فيها عن رسالة ذلك النبي المرسل والذي يمثل السفير الإلهي الأخير على الأرض:

«الإسلام كائن حي متميز بملامح وحدود ظاهرة بارزة... الإسلام عام وخالد ولكن عموميته لا تعني أنه يتسع في وقت واحد لشتى المعاني والاتجاهات، بل إنه في كل حقبة خطيرة من حقب التاريخ وكل مرحلة حاسمة من مراحل التطور يفصح عن واحد من المعاني اللامتناهية الكامنة فيه منذ البدء، وخلوده لا يعني أنه جامد لا يطرأ عليه تغير أو تبدل، وتمر من فوقه الحياة دون أن تلامسه، بل إنه بالرغم من تغيره المستمر، ومن استهلاكه لكثيرٍ من الأثواب، وإفنائه لعديد من القشور واللباب تبقى جذوره واحدة، وقدرتها على النماء والتوليد والإبداع واحدة لا تنقص ولا تفنى»[1]. هذه باختصار وجهة نظر المفكر المسيحي (ميشيل عفلق) عن الرسالة الإسلامية التي جاء بها

---

(١) ميشيل عفلق: في سبيل البعث، دار الطليعة - بيروت، ط١٩٦٣/٣، ص٥٦.

خاتم الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله للإنسانية جمعاء.

وإذا كانت هذه هي صورة الإسلام عند المفكر (عفلق)، فما هو الدور المبدئي الذي أسند إلى الإمام علي عليه السلام من أجل إعلاء راية هذا الدين ومن أجل إيصال نداء وحدانية الله إلى أقصى حدود الممكن بين صفوف أبناء البشرية على مدى امتداد أمواج العصور؟

لقد عرفنا كيف كان الإمام علي عليه السلام إماماً وسيداً للمتقين منذ أن كان طفلاً ولم يعرف أحد من المقربين من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ومن صحابته بلقب (الإمام) إلا الإمام علي عليه السلام. ولذلك فإن الكثير من أرباب الفكر والأدب من المسيحيين المعاصرين رأوا في الإمام علي عليه السلام صورة الشخصية الفريدة التي لا يمكن أن يأتي الزمان بمثيل لها من خلال تكامل صفاتها واكتمالها. ولذلك، فقد رأى المفكر السياسي والأديب الشاعر (جوزيف الهاشم) في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حقيقة ثابتة لا تقبل الطعن ولا يمكن للتاريخ أن ينشر غباره الكثيف عليها أو أن تقتلع عواصفه وأمواجه الجذور القوية لها مهما تقادمت السنون: فالإمام المرتضى عليه السلام هو السيد المطلق والإمام الأوحد لكل ميدان من ميادين الحياة وهو - كما يراه الأستاذ (الهاشم)- سيد من حمل السيوف وإمام من تكلم بلغة الحروف، فهو عليه السلام السيف الإلهي الذي لا ينبو، وهو الكلمة الإلهية والجذوة السماوية التي لا تخبو، وبتعبير آخر هو ما وصفه الأستاذ (الهاشم) بقوله:

هو الإمام «حسام الدين»، فارسه ... ما زغرد السيفُ إلا بين قبضته
يد النبوة شدت عزم ساعدِهِ ... وأطلقته إماماً من طفولته

سيِّد البيانِ، «باب العلم» مشترعاً، والفقه مذ كان نهجٌ من بلاغته
هو العلي، وصي الإرث، فابتهجوا ووزعوا البُشر، واحكوا عن ولايته(١)

فإذا كان الإمام علي عليه السلام بالنسبة للأستاذ جوزيف الهاشم هو: الحسام وهو الإمام وهو سيد البيان وباب العلوم وهو الوصي العام على الإرث المحمدي العام.

وإذا كان الأستاذ (الهاشم) ينظر إلى الإمام علي عليه السلام على أنه «العلي» في كل المحامد والخصال ومراتب المجد، وفوق كل ذلك ولي المؤمنين، فماذا بقي بعد ذلك من أوصاف؟! بل ماذا بقي لغيره عليه السلام من أصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بعد كل ما قاله الأستاذ الهاشم؟! ثم، ألا يذكرنا وصف الأستاذ جوزيف الهاشم للإمام علي عليه السلام بوصف الشيخ عبد الله العلايلي له عليه السلام عندما تكلم عنه قائلاً:

«شاء الحق أن يقدم نموذجه فكان علياً..

وشاءت الإنسانية العليا أن تعترض متألقة في أفق الأحياء فكانت علياً...»(٢).

فالإمام علي عليه السلام هو أنموذج الحق الإلهي الذي بعثه الله سبحانه وتعالى بيننا ليثبت لقلوبنا أن رب السماوات والأرض المرموز إليه بالكمال والجمال والجلال هو حق لا مراء فيه، وأنه سبحانه وتعالى فوق كل النعوت والصفات،

---

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ١٩٩٣، ص٣٨-٤٠.

(٢) الشيخ عبد الله العلايلي: أيام الحسين عليه السلام، دار العلم للملايين - بيروت، ص١٦٥.

بل وهو أيضاً فوق ما يخطر في بالنا، وهو غير ما تتوهمه عقولنا ، وقد شاء الله الواحد الأحد عز وجل أن يدلنا على كماله وجلاله في سماواته. فأهدى إلينا ترجمة حية وصورة صادقة لنموذجه في السماء، فكان ذلك النموذج الحي هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على الأرض.

وقد عبر ابن أبي الحديد المعتزلي عن هذه الفكرة قبل الأستاذ جوزيف الهاشم وقبل الشيخ العلامة السني عبد الله العلايلي بوقت طويل، فقال واصفاً الإمام علي عليه السلام في قصائده (العلويات):

صفاتك اسماء وذاتك جوهر   بريء المعاني من صفات الجواهر
يجل عن الأعراض والأين والمتى   ويكبر عن تشبيهه بالعناصر[1]

أما الراهب الفرنسي (لويس غارديه)، المولود في عام /١٩٠٤/ والمتخصص في دراسة الفكر والحضارة الإسلامية، فلا يكتفي باعتبار الإمام علي عليه السلام محط أسرار الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ومستودعه، ولا يتوقف عند حدود اعتبار أن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله قد كشف للإمام علي عليه السلام حقيقة الكلام السماوي الإلهي الخالد والمعاني العميقة له لدرجة أن جوهر علي عليه السلام قد تألق بأطياف المعاني القدسية للحقائق الإلهية المتجلية في كتابه الكريم، بل يعتبر (غارديه)أن «الأئمة الاثنا عشر معظمون جداً، فكلهم وهب العصمة والمعرفة المطلقتين اللتين تجعلان منه - من الإمام - أشبه بانعكاس لصفاء العلم الإلهي

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: القصائد العلويات، مؤسسة الأعلمي - بيروت، راجع القصيدة الخامسة.

على الأرض»[١].

وإن دلّ هذا الكلام على شيء فإنما يدل على أن الإمام علياً عليه السلام قد بلغ - في نظر العديد من المفكرين والأدباء المسيحيين - درجة الكمال في قربه من الله سبحانه وتعالى حتى أنه بلغ درجة قاب قوسين أو أدنى من العلي الأعلى.

وما من أحد يبلغ هذه الدرجة العالية إلا من أخلص فخلص ، واتقى فارتقى ، فتحولت نفسه إلى مرآة أمينة للتجلي الكمالي والصفاء الجلالي ، فكان هو المقصود بقوله تعالى في حديثه القدسي : «عبدي! أطعني ، أجعلك مثلي. أنا حي لا أموت ، أجعلك حياً لا تموت.. أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك تقول للشيء كن فيكون»[٢].

ولذلك ، فعندما نقول إن الإمام علياً عليه السلام الذي أراقت أقلام المفكرين والأدباء المسيحيين مدادها في سبيله وفي سبيل نشر فضائله ومبادئه ، هو حقاً أمة في إمام ، فإننا نعني بذلك أن نموذج شخصيته الفريد ، وتكامل ذلك النموذج إلى الحد الأقصى الذي يمكن أن يتقبله العقل البشري ، هو الذي جعل منه - بنظر المسلمين والمسيحيين - تلك النسخة الفريدة التي لم يكررها الله بين خلقه وعباده. وهذا ما عبر عنه المفكر والفيلسوف اللبناني (شبلي الشميل) (١٨٥٣-١٩١٧) بقوله : «الإمام علي بن أبي طالب ، عظيم العظماء ، نسخة مفردة لم ير

(١) لويس غارديه : أهل الإسلام ، ترجمة : صلاح الدين برمدا ، وزارة الثقافة - دمشق ، ١٩٨١ ، ص٢٥٢.

(٢) السيد حسن الشيرازي : كلمة الله ، دار الصادق - بيروت ، ط١/١٩٦٩ ، ص١٤٠.

لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل قديماً ولا حديثاً»[1].

والحقيقة، إن هذا المفكر المسيحي (شبلي الشميل) هو طبيب وفيلسوف اجتماعي بارز، نادى بالانفتاح على العلم والحضارة العلمية في الغرب، واشتهر بنقده للظلم الاجتماعي، وهو رائد نظرية التطور في العالم العربي، وله مؤلفات فكرية كثيرة، مثل: (فلسفة النشوء والارتقاء) ورسالة (الحقيقة) و(شرح أرجوزة ابن سينا) و(الحب على الفطرة)... الخ. وهذا يؤكد مدى ثقافة هذا المفكر.

ولذلك، فإن رأي هذا المفكر والفيلسوف المسيحي المعاصر لم يأت نتيجة لموقف عاطفي أو نتيجة لقراءةٍ عابرة لسيرة علي عليه السلام ولمبادئه وأهدافه النبيلة، بل أتى ذلك الرأي عن دراسة جدية وموضوعية واسعة لسيرة سيد الأوصياء وخليفة آخر الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قراءته للتراث الإسلامي.

وليس من الغريب، طبعاً، أن يكون الإمام علي عليه السلام نسخة فريدة لا شبيه لها في هذا الكون، لا في الماضي ولا في المستقبل، بل الغريب هو أن لا يكون الإمام علي عليه السلام كذلك.

فالحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام هو الحديث عن كرامة الإنسان وعن سموه ورقيه، وهو كلام عن الإمام الكامل المتأله الذي هو -كما نرى صورته المرسومة بالمداد المسيحي- النموذج الأرقى والمثال الأعلى، والذي هو صورة

---

(١) راجع ما جاء في كل من:

أ) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٣٥.

ب) أحمد الرحماني الهمداني: الإمام علي من حبه عنوان الصحيفة، ص١٤٠.

الحقيقة الإيمانية الثابتة والخالدة خلود الحياة. ولذلك، فإن معرفة الإمام علي عليه السلام والاقتراب منه هو اقتراب من الله سبحانه وتعالى لأن علياً عليه السلام، بسيرته ومبادئه وأهدافه، هو شرع الله، وبالتالي نستطيع القول عنه عليه السلام إن ولايته جذب واقتراب، وجحوده بوار واغتراب.

وتأكيداً على هذا الكلام، فقد رأى المفكر والأديب (جورج جرداق) أن الصفات والشمائل في شخصية الإمام علي عليه السلام الفريدة تأتي مشابهة للسور في القرآن الكريم حيث إنها تشد بعضها بعضاً وتؤيد بعضها بعضاً، ولا يفسر بعضها إلا ببعض. وقد كتب الأستاذ (جرداق) تحت عنوان (التماسك في شخصية علي) قائلاً: «وأما أقواله وأعماله فواحدة لا تتناقض ولا تتعارض، بل تنبع من معين واحد كما تنبع المياه من الأرض لا يتبدل طعمها بين ليل ونهار! وهي لا تتجزأ، ولا يفسر بعضها إلا ببعض»[1].

وقد أبدى المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) استغرابه ودهشته من كثرة الأحاديث الواردة في كتب المسلمين السنة عن فضل علي عليه السلام وسمات شخصيته المتميزة، وقد نقل هذا المستشرق الكثير من الأحاديث عن فضائله عليه السلام في كتاب (عقيدة الشيعة) واعتبر (رونالدسن) أن ما قام به الإمام علي عليه السلام في سبيل الإسلام قد حوله إلى ما يشبه الأسطورة مما أثار حقد وحسد بني أمية وكرههم له، وقد استشهد (رونالدسن) على كثرة فضائل الإمام علي عليه السلام وتكامل شخصيته وكمالها بحديث للإمام أحمد بن حنبل مأخوذ من الجزء الأول من «مسنده» والذي يقول فيه: «لم تردْ رواية بفضل أحدٍ من

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ ص٢٠٧.

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بقدر ما ورد في فضائل علي»[١].

وبسبب من الإرادة الإلهية الحكيمة التي قضت أن تجعل من ذات علي عليه السلام الوعاء الجامع لكل الكمالات والفضائل، فقد جاءت إمامته ووصايته تأكيداً على استمرار النهج الرسالي السماوي الذي أرادته المشيئة الإلهية وأكدته الحكمة المحمدية عل طول وامتداد المساحة الزمنية التي اكتملت فيها الرسالة الإسلامية.

فالإمامة تعني قيادة أمة، والأمة ليست بأمةٍ ما لم تقتد بإمام. وللأمة أيضاً حقوق يجب أن تعطى، وعليها واجبات عليها أن تقدمها بصدق وإخلاص، وما ينطبق على الأمة ينطبق على الإمامة من حيث وجود حقوق وواجبات. وعلى سبيل المثال، يرى المفكر والأديب المسيحي (سليمان كتاني) أن من حق الإمامة «أن تكون رأساً كبيراً وعيناً وسيعة وقلباً رحيماً، من حقها أن يكون لها ثقل السداد وبُعد النظر وقطب العدالة وروح السماح، من حقها أن تكون هذا الرأي وهذا العطف وهذا التفاني، من حقها أن تكون هذا الكل وهذا التوجيه وهذه الرفعة، من حقها أن تكون ترجيح عصمة»[٢].

وعندما تكون الإمامة عصمة أو ترجيح عصمة، فهذا يعني أن الإمام الموكل بالقيام بأعبائها، وإعطائها كامل حقوقها هو إمام معصوم عصمة مطلقة

(١) راجع ما جاء في:

أ) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص٦١.

ب) أخطب خوارزم: المناقب (وقد جاء الحديث باختلافٍ يسير) ص٣.

(٢) سليمان كتاني: فاطمة الزهراء وتر في غمد (ضمن مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٦٢٩.

أو شبه مطلقة كما يراها الأستاذ (كتاني).

وفي رأي الأستاذ (كتاني) أيضاً أن أهلية وكفاءة الإمام علي عليه السلام جعلت منه الإمام القادر على إعطاء منصب الإمامة جميع الحقوق المستحقة، وأن هذه الكفاءة العالية كانت باديةً لكل ذي بصيرة منذ انبلاج الخيوط الأولى للفجر الإسلامي. بل في رأيه أيضاً أن تعيين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأئمة أهل البيت عليهم السلام كخلفاء له، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام، هو الضمان الأوحد للمد الفكري الإيماني والإنساني الذي يجب أن يستمر متدفقاً بقوةٍ في أوردة وشرايين جميع الأجيال المتعاقبة.

وعندما يتكلم الأستاذ (كتاني) عن فلسفة الإمامة والولاية، فإننا نسمعه يقول بإسلوب تحليلي رزين بعيد عن لغة الأهواء والانفعالات العاطفية: «إن تربية المجتمعات الإنسانية تلزمها الأجيال الطوال حتى تصبح الثقافة فيها أصلية المعدن، ومهما تعمقت تلك الثقافة في المجتمعات، فإن الأفراد فيها تتفاوت مفاهيمهم ولا يجمعهم كلهم صواب الإدراك، ليبقى هناك واحد تنفرد فيه صفات القيادة»[1].

ولو توجهنا إلى هذا المفكر المسيحي المعاصر بسؤالٍ مباشر: ومن هو ذلك (الواحد) الذي تنفرد فيه صفات القيادة، ومن هو ذلك الواحد الجامع للآداب الإلهية والفضائل الرسالية بحيث يقود الأمة - في حال طاعتها له - إلى شاطئ الوحدة الإنسانية والأخوة الإيمانية التي خطط لها رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله؟

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٢٩.

وما أن نطرح عليه هذا السؤال، حتى يجيبنا برحابة صدرٍ وبثقة كبيرة قائلاً: «لقد وجد (محمد ﷺ) في علي كل انصباب الصفات المؤهلة. ولقد جليت هذه الصفات وبرزت جلوتها... وهكذا حصر (محمد ﷺ) الإمامة في علي لتكون من بعده وحي ولاءٍ عن ولاء، وفهم عن فهم، ومراسٍ عن مراس، وتوليدٍ عن توليد، وكفاءة عن كفاءة»[1]. وبعبارة أوضح وأكثر اختصاراً: إن الرسول المعصوم لا يمكن أن ينصب بعده على رسالته وعلى أمته إلا إماماً معصوماً وإلا فإن تعيين إمام غير معصوم من قبل رسول معصوم يجعل عصمة الرسول في موضع الشك والريبة.

فالإمامة ضرورة من ضرورات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها بحالٍ من الأحوال، فمن خلالها يقام ما اعوج من نظام الدين والدنيا، وبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله على أرضه. ويمكن القول أيضاً أن من أهم الأمور الداعية والمستوجبة لوجود الإمام الحقيقي هو إيصال الناس إلى حالة الكشف والبيان للهوية الروحية المطلوبة وبالتالي ، إلى قيادتهم السوية إلى عبادة الله الواحد وإلى نشر تعاليمه وأحكامه وسائر خفايا شريعته، وإلى تغذية المجتمع بروح الإيمان والتقوى من أجل رفع لواء الكرامة الإنسانية ومن أجل إحقاق الحق والخير والفضيلة في ذات الإنسان، وبنفس الوقت أيضاً، من أجل إخماد نار الشرور والباطل في الجانب الوحشي من نفسه.

وحتى يتحقق ذلك بشكله الأمثل، يجب على كافة أفراد الأمة الانقياد إليه والامتثال لأوامره كي يكون قادراً على تحقيق الأهداف المرتبطة بمنصب الإمامة

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٣٠.

والولاية كأن يقيم أودها ويلم شعثها ويهديها إلى سواء السبيل[1].

وقد توقف الأستاذ (عباس محمود العقاد) طويلاً أمام قضية إمامة وولاية الإمام علي عليه السلام. وقد علق الأستاذ (العقاد) على تلك الإمامة وعلى تفرده بتلك المكانة وبلقب (إمام) دون بقية المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بقوله: «.... وخاصة أخرى من خواص الإمامة ينفرد بها علي ولا يجاريه فيها إمام غيره، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو مُنشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه، وندرت فرقة في الإسلام لم يكن علي معلماً لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعاً لها ومحوراً لمباحثها»[2].

وعلى الرغم من أن الأستاذ (العقاد) من المفكرين والأدباء المسلمين السنة، إلا أن هذا الكلام منه يدل على أن الإمام علياً عليه السلام كان بالنسبة للفكر الإسلامي بمكانة القطب من الرحى والنقطة من (النون)، وبسبب البحث عن حقيقة مكانته وعظمة إمامته فقد نشأت الفرق والشيع، وعلى فهم معنى ولايته وخلافته تمحورت الدراسات واتسعت البحوث والمؤلفات. ولم يختلف الناس على فهم حقيقة نبوة محمد صلى الله عليه وآله بقدر اختلافهم على فهم حقيقة إمامة ولاية علي عليه السلام.

وعندما يتحدث بدوره المفكر والباحث الفرنسي (يان ريشار) عن إمامة وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في كتابه (الإسلام الشيعي)، نراه

(١) توفيق أبو علم: الإمام علي بن أبي طالب، دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٨٦، ص٣٦.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٨.

يسلط الأضواء الفكرية بشكل ملحوظ على الثمار المعرفية والإنسانية التي حملت وجادت بها إمامة علي عليه السلام على كافة المسلمين وغير المسلمين على حدٍّ سواء.

وانطلاقاً من هذه النقطة الجوهرية التي امتازت بها إمامة علي عليه السلام يرى (ريشار) أن الإمام الأمثل لحمل أعباء الرسالة بعد غياب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هو الإمام علي عليه السلام الذي كان قادراً على الدوام - بحكم كفاءاته التي يفتقد إليها الآخرون - أن ينال ما يريد ممن ظلموه بقوة الحق وبحد السيف، ولكنه عليه السلام كان دائماً فوق كل ذلك من أجل الحفاظ على وحدة الكلمة ومن أجل نبذ العنف بين الأخوة المسلمين أيضاً. ويؤكد المفكر (ريشار) على ذلك بقوله:

«فإذا نظرنا إلى عامة المسلمين، وجدنا أن علياً هو النموذج الأمثل للحاكم الواعي والملهم: وفي الأصل فإنه كان يقوم بما يشبه وظيفة الوزير في حكومة النبي: وكان قوياً كأسد، ومسلحاً بسيفه «ذو الفقار» الذي كان له حدان، ولكنه تحول بحكم الأيديولوجيا المناضلة إلى شهيدٍ في سبيل العدالة. وحقاً فإنه كان في وسعه أن يثور على تعيين الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وعلى العزل الكامل الذي وضعه في عثمان، وكان في وسعه أن يحتال على معاوية، كمقدمة لإضعافه: أي موالاته أولاً، للهجوم عليه، فيما بعد، بصورة المفاجأة، وكان في وسعه أن يتجاوز بالحيلة، ما علق في رؤوس الرماح من وريقات القرآن، في معركة صفين، واستخدام تفوقه العسكري فيها حتى النهاية»[1].

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطية - بيروت ١٩٩٦، ص٤٠.

لقد كان الإمام علي عليه السلام - كما يقول ريشار - قادراً على فعل كل ذلك، ولكن لماذا لم يفعل أي شيء من هذا؟!!

لم يفعل الإمام علي عليه السلام أي شيء من ذلك لأنه كان إماماً عظيماً استطاع صدره الشريف أن يتسع لكل هموم الأمة، واستطاع أن يجعل ثقافته السماوية الدينية تتسامى وتتفوق على ثقافة أهل الدنايا والمطامع الدنيوية، فوقف طوداً شامخاً رافضاً للخداع والغدر ولكل محاولة إغراءٍ باستخدام القوة والعنف[1].

وعندما يكون الإمام علي عليه السلام متحلياً بكل صفات الكمال وقادراً على فعل ما يريد فعله بما يخدم رسالة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله فإننا لا نستغرب عندئذٍ أن تكون أقواله وأعماله مرآة صافية لإرادة الله ومشيئته على أرضه. ولذلك نقول إنه من الطبيعي جداً أن نقرأ في كل من التفاسير الإسلامية أن المقصود بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[2] هو الإمام علي عليه السلام، إذ إن هذه الآية الشريفة قد نزلت من أجل تثبيت ولاية علي عليه السلام على المسلمين عموماً لأنه هو عليه السلام المقصود بالمتصدق الراكع[3] دون غيره من الملتفّين حول محمد صلى الله عليه وآله.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٣) راجع على سبيل المثال لا الحصر، ما جاء في الكتب التالية:

أ) ابن جرير الطبري: تفسير القرآن الكريم (جامع البيان) ج٦ ط١/ مصر، ص١٨٦.

ب) الحافظ السيوطي الشافعي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، في ذيل تفسير آية (إنما وليكم الله..).

ج) الحافظ السيوطي الشافعي: أسباب النزول، سلسلة كتاب الجمهورية - القاهرة، ج١ ص١٢٥.

د) المتقي الهندي الحنفي: كنز العمال، ط/ حيدر آباد ١٣١٢، ج٦ ص٣١٩.

وهذا من أقوى الدلائل على ثبوت ولايته إلهياً، ومن ثم تأكيدها نبوياً من خلال عددٍ لا يستهان به من الأحاديث النبوية الشريفة التي تغص بها كتب السنة والشيعة على حدٍّ سواء.

ويكفي أن نذكر هنا حديثاً واحداً عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في وجوب ولاية الإمام علي عليه السلام وطاعته، ونقصد بذلك الحديث الذي أورده الحافظ الموفق بن أحمد (الحنفي) المعروف بأخطب خوارزم في كتابه (المناقب) مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يخاطب فيه علياً قائلاً: «يا علي لو أن عبداً عبد الله عز وجل مثل ما قام نوح في قومه، وكان له مثل أحدٍ ذهباً فأنفقه في سبيل الله ومد في عمره حتى حج ألف عام على قدميه ثم قتل بين الصفا والمروة مظلوماً ثم لم يوالك يا علي لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها»[1].

وانطلاقاً من العديد من الأحاديث النبوية الشريفة الأخرى المشابهة لهذا الحديث المذكور أعلاه، فقد رأى المفكرون المسيحيون في علي عليه السلام صورة الإمام الذي تجسدت فيه المثل الإلهية بأعلى درجات كمالاتها، حتى أن البعض منهم قد تجاوزوا بحبهم له عليه السلام حبهم للسيد المسيح ذاته عليه السلام. وسنذكر في الباب المخصص لهذا الموضوع بعض الشذرات الفكرية العرفانية التي فاضت بها نفوس وأقلام العديد من أرباب الفكر المسيحي المعاصر.

وقد سبق لنا الكلام من شاعر وأديب وسياسي مسيحي نذر جهده الفكري وكرس وقته وكامل طاقته من أجل إحياء مبادئ وتراث أهل البيت عليهم السلام، إنه الأديب والمفكر المسيحي (عبد المسيح الإنطاكي) الذي نظم أول ملحمة إسلامية

---

(١) الحافظ الموفق بن أحمد الحنفي: المناقب، مكتبة نينوى الحديثة - طهران، ص٢٨.

في تاريخ اللغة العربية وجعل عنوانها (ملحمة الإمام علي عليه السلام). ولم يكتف في تلك الملحمة التي بلغ عدد أبياتها (٥٥٩٥) بيتاً من الشعر بتدوين كل الأحداث الإسلامية الهامة بطريقة شعرية رائعة، بل قام أيضاً بوضع الكثير من الشروحات النثرية المفيدة بغية تقديم صورة توضيحية شاملة للكثير من الأحداث المفصلية الهامة في تلك الملحمة الشعرية العظيمة.

وغني عن القول أن مفهوم الولاية أو الإمامة المنصوص عليها إلهياً في محكم تنزيله الكريم هي حجر الأساس في تلك الملحمة العلوية التي خطتها ونظمتها بكل صدقٍ ورقةٍ أنامل مسيحية.

وقد أورد (الإنطاكي) عدداً من الخطب البليغة للإمام علي عليه السلام تلك الخطب التي تبين الصورة الحقيقية لواجبات وحقوق منصب الإمامة التي أثبت لنا التاريخ أن الوحيد الذي كان قادراً على تحمل أعبائها والقيام بواجباتها هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام دون المقربين والأصحاب.

ومن الخطب القصيرة التي ذكرها ذلك الأديب المسيحي للإمام علي عليه السلام قوله عند مبايعة الناس له: «لم تكن بيعتكم إياي فلتةً، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم لله، وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيها الناس أعينوني على أنفسكم، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم من خزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً»[1]. وقد علّق الأستاذ (الإنطاكي) على هذه الخطبة بقوله: «نقول هذه هي الخطط التي وضعها سيدنا علي لنفسه في خلافته ولم يكن مبتدعاً مجتهداً ولكن كان مقلداً لرسول الله عليهما الصلاة السلام

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي، ص٣٢٤.

وهي الخطط التي يقررها الشرع وتنطبق على أحكام القرآن الشريف. فإذا كان المسلمون قد أبوا السير عليها فما الذنب ذنبه. ووالله لو كان علي يريد الدنيا لما فاته السير فيها ولا كان عاجزاً عن مراضاة الناس عليها، ولكن هيهات هيهات ما أبو الحسن ببائع أُخراه بدنياه، ولا هو راضٍ للمسلمين إلا ما يرضاه الله ورسول الله»[١].

وهنا يقصد الأديب (الإنطاكي) وبكل وضوح أن الإمام علياً عليه السلام هو كلمة الله العليا التي تمثل الحجة الكبرى على الناس بعد غياب الرسول صلى الله عليه وآله الذي أدّى مهمته وبلغ رسالته وأكملها بولاية علي عليه السلام واستخلافه على أمته.

وقد عبر (الإنطاكي) عن وجهة نظره تلك من خلال صياغته لخطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام شعراً، وذلك بقوله في ملحمته الغراء:

فـإنَّ بيعتكم إيَّايَ لم تك فلتةً ... ولا كنتُ في ذا العهد باغيها
أنتم تريدونني من أجل أنفسكم ... إرادةً لم أكن أصلاً مُجاريها
وما أنا مثلكم، إني أريدكُمُ ... لله نِيَّةُ صدقٍ ظِلتُ أنويها
على مناهج هادي الخلق حامِلكم ... وخيركم يا عباد الله قاريها
وموضعي من رسول الله ظَلَّ كما ... لو كان حياً به وُجِّهتُ توجيها
فإن لي العذر عمّا تنكرون ولا ... أمضي أموراً كتابَ الله ينفيها[٢]

ولذلك يرى الإنطاكي عبد المسيح أن الحكمة الإنسانية والمنطق العقلي السليم يقتضيان موالاة الإمام علي عليه السلام والائتمام به طالما أن الإنسان، أياً كان

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٢٦.

ذلك الإنسان، يريد النجاة بنفسه من السقوط في منزلقات الحياة وإغراءاتها الدونية التي تعرقل وتعيق سموه الروحي الذي يجب أن ينهض بالإنسان إلى مستوى الكرامة البشرية والقيم الإنسانية الراقية.

ويبقى الإمام علي عليه السلام دائماً وأبداً في نظر عبد المسيح الإنطاكي وفي نظر غيره من عمالقة الفكر والأدب المسيحي المعاصر الصنو والشقيق التوأم لابن عمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، فذكر أحدهما يعني بالضرورة ذكر الآخر.

وقد يقول قائل ما:

من أين حصل هؤلاء المفكرون والأدباء المسيحيون على مادتهم الإسلامية؟

ألا تدل كتاباتهم التي تعبق بذكر فضائل علي عليه السلام أنهم قد اقتصروا في الحصول على موادهم الفكرية من كتب ومصادر المسلمين الشيعة دون سواهم؟

نعم، ربما يتساءل القارئ ويقول أكثر من هذا أيضاً.

ولا شك في أن له الحق، كل الحق، في أن يسأل ويقول ما يريد.

وليس لنا أن نجيب القارئ الكريم إلا بعبارة واحدة تُغنيه عن أحاديث طويلة ومطولة. إننا نقول له: انظر إلى المراجع والمصادر التي استخدمها أولئك المسيحيون، أرباب الفكر والأدب، واسأل الصفحات التي كتبوها وذكروا فيها أسماء مراجعهم المعتمدة، هل هي إلا كتب خطتها أقلام السنة من الأوائل المعاصرين؟!!

فهل كتب (الصحاح) كتبٌ للشيعة أم للسنة؟

وهل تاريخ الطبري وابن الأثير وسيرة ابن دحلان وابن هشام ومختصر

تاريخ البشر لأبي الفداء هي كتب شيعية أم سنية؟

فالأدباء والمفكرون المسيحيون جعلوا مادتهم مستقاة من كتب السنة، لكنهم أخذوا المادة الخام منها وعجنوها بعصارة منطقهم، ومن ثم عرضوها على شموس بصائرهم فعرفوا عندئذٍ الحديث السليم من الحديث السقيم، فأخذوا زادهم وكامل احتياجاتهم مما استقام أمره، ونبذوا وراء ظهورهم كل ما يتعارض ويتناقض مع المنطق القويم ومع أقوال وسنة النبي الكريم ﷺ الحقيقية التي تُعتبر الترجمة الصادقة لأدبيات وأخلاقيات القرآن الكريم.

وهنا أريد أن أقول كلمة مختصرةً لأولئك الذين سألوني سؤالين هامين، وهما:

لماذا تُكثر من الغوص في التاريخ الماضي الذي مضى وولى، وهل أنت قادر على تصحيح ما فات منه؟ والسؤال الثاني: ألا تعتقد أنك تحترم المفكرين المسيحيين المستنيرين والأدباء منهم في الشرق أكثر من اللازم؟!

أما الجواب على السؤال الأول، فأقول بكل بساطة أنا لست قادراً وحدي على تصحيح ما فات من الماضي، ولست قادراً وحدي أيضاً على صياغة التاريخ وإعادة كتابته من جديد. ولكن استطيع أن أقول إن تعاملي مع التاريخ واستخراج الحقائق من باطنه أمر ضروري تمليه احتياجات الحاضر وضرورات المستقبل. ويمكنني أن أشبه ضرورة التعامل مع التاريخ بضرورة وجود مرآة صافية بجانب سائق السيارة لتعكس له صور وأبعاد ومسافات السيارات والأجسام التي يُخلفها وراءه.

فلولا وجود تلك المرآة العاكسة للأجسام وراءه، لأصبح عرضةً هو

وسيارته للكثير من الحوادث والفجائع، ولكن وجود المرآة هو الذي يجعل السائق يُصحح مساره ويتلافى وقوع الكثير من الحوادث التي يمكن أن تأتيه من الوراء.

وأنا شخصياً أتعامل مع التاريخ من هذا المنطلق، فتصحيح حياتنا الحاضرة من أجل الانطلاق إلى فضاءات المستقبل الرحيب لن يتم ما لم نضع بجانبنا المرايا الصافية والمصقولة جيداً كي نرى حركة ماضينا الذي خلفناه وراءنا والذي- إذا لم ندرسه ونعرفه جيداً- قد يعود ويجدد ذاته ويحمل لنا المزيد من الكوارث والمآسي لتعيش معنا في زمننا الحاضر.

أما عن جواب السؤال الثاني، فأقول للسائلين: أنا لم أُبالغ بحبي واحترامي للمفكرين والأدباء المسيحيين المستنيرين في الشرق أبداً. فأنا أحترم فيهم صفاء عقولهم ووضوح سرائرهم وانفتاحهم واحترامهم لعقائد (الآخر)، أنا احترم كل باحثٍ عن الحقائق سواء كان ذلك الباحث مسلماً أو مسيحياً أم حتى بوذياً وهندوسياً.

ومن هنا أرى أن أولئك المفكرين والأدباء، في الشرق تحديداً، عملوا على استخراج الكثير من الحقائق والوقائع من كتب التاريخ التي كتبت بأقلام سنية بهدف إقناع القارئ بصدق وعمق الحقائق التي توصلوا إليها.

ولذلك، فعندما يقرأ الأديب أو الباحث المسيحي - على سبيل المثال لا الحصر- ما كتبه العلامة سليمان البلخي القندوزي (الحنفي المذهب) عن مآثر وفضائل وصفات الإمام علي عليه السلام في كتابه الشهير (ينابيع المودة) والذي يُعتبر سجلاً عظيماً وسفراً نفيساً للأحاديث النبوية الشريفة في فضائل جميع أفراد

البيت النبوي المقدس عليه السلام، سيدرك دون أدنى شك أن تلك الأحاديث النبوية قد خرجت حقاً من فم رسولٍ كريمٍ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وذلك لأن الذي نزلت فيه وفي أهل بيته عليهم السلام آية التطهير لا بد أن يكون حقاً كذلك مُطهراً ومنزّهاً عن اللهو واللغو.

ثم، كيف سينظر رجل الفكر المسيحي إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام عندما يقرأ عنه ما رواه القندوزي الحنفي في (ينابيعه)، الذي اتخذناه مثالاً عن حديثنا، والذي يقول فيه: «عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا كان يوم القيامة قال الله تعالى لي ولعلي بن أبي طالب: أدخلا النار من أبغضكما وادخلا الجنة من أحبكما، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[١] أي كفار بنبوتي وعنيد عن طاعة علي»[٢].

وماذا يمكنه أن يقول أيضاً عندما يقرأ عن علي عليه السلام ما رواه الحافظ الفقيه زين الدين المناوي (الشافعي) المذهب في كتابه (كنوز الحقائق) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا وعلي حجة الله على عباده»؟[٣]

وبالطبع، فإننا لسنا بصدد أسماء الكتب والمؤلفات التي كتبها وصنفها رجال السنة في ذكر مناقب وفضائل الإمام علي عليه السلام، ولكن أردنا أن نقول إن المفكرين المستنيرين من رجال الفكر المسيحي قد وجدوا مادة خصبة في شخصية الإمام علي عليه السلام من خلال ما كُتب عنه في مؤلفات رجال السنة، فاغترفوا منها ما ساعدهم

(١) سورة ق: الآية ٢٤.

(٢) الشيخ العلامة سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٨٣.

(٣) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق ص٤٨.

على رسم صورة متناسقة ومتناغمة عن صورة أعظم إمام عرفه الزمان.

فالفيلسوف والشاعر الألماني (يوهان غوته) يرى أن الشخص الذي لعب الدور الأعظم في نشر الرسالة الإنسانية العالمية التي جاء بها محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وتهيئة الجو المناسب لها هو الإمام علي عليه السلام وزوجته البتول فاطمة الزهراء عليها السلام ابنة الرسول محمد صلى الله عليه وآله صاحب الرسالة وسيدها. وقد أوضح (غوته) رأيه هذا بالإمام الأعظم علي أمير المؤمنين عليه السلام من خلال مسرحية كتبها خصيصاً لهذا الغرض وقد أطلق عليها اسم (تراجيديا محمد)[1].

ويرى هذا الفيلسوف الشاعر أن دور الإمام علي عليه السلام في نشر الإسلام يتجلى من خلال أخلاقه السامية، أي عن طريق «توسيع نطاق الرسالة الإسلامية التي جاء بها المصطفى صلى الله عليه وآله وتحويلها بالتدريج إلى دين عالمي»[2]، أي دينٍ إنساني عام غني بالمعاني الإنسانية الراقية، دينٍ بعيدٍ عن لغة الدماء والسيوف.

أما المفكر والباحث الألماني الآخر، ونقصد به المفكر المسيحي المعاصر (جرهارد كونسلمان) صاحب كتاب (سطوع نجم الشيعة)، فيرى في كتابه المذكور أن الإمام علياً عليه السلام كان دائماً وأبداً موضع سر الرسول صلى الله عليه وآله ومحطّ ثقته الكاملة، وأنه الإمام الذي سعى منذ ولادة الرسالة الإسلامية إلى أن يكون

---

(١) كاتارينا مومزن: غوته والعالم العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٤، ترجمة: د. عدنان عباس علي، الكويت، شباط ١٩٩٥، ص٢٠٣-٢٠٦.

(٢) راجع أنور هيفا: أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله في فكر الفيلسوف والشاعر الألماني يوهان غوته، مجلة النور، العدد ١١٠، إصدار: مؤسسة النور - لندن، تموز ٢٠٠٠، ص٦٣.

الفدائي الأول في الإسلام حيث يكون مستعداً في كل وقتٍ لفداء الرسالة والرسول بروحه ودمه وبأعز ما يملك في هذا الوجود، ولكي تستمر هذه الروح الفدائية معه من أجل رفع لواء الحق حتى بعد رحيل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والتحاقه بالرفيق الأعلى، حيث يقوم علي عليه السلام، كما يقول كونسلمان: «بترتيب بيت النبي صلى الله عليه وآله مباشرة بعد موت النبي المفاجئ، فقد كانت وريقات من القرآن مبعثرة على الموائد والرفوف. وقد أحس علي بأنه مسؤول عن ترتيب وتأمين هذه الأوراق. ولم يعرف أنه في بيت آخر كانت تُتخذ قرارات سياسية»[1].

فالإمام الذي نذر حياته لخدمة الرسالة وصاحب الرسالة، يُفاجأ بعد أن قام بغسل وتكفين الرسول صلى الله عليه وآله والصلاة عليه ودفنه بأنّ أقرب الأصحاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله كانوا منشغلين عن الصلاة عن الرسول وعن دفنه بشيء آخر، لقد كانوا منشغلين عن حال رسولهم الكريم صلى الله عليه وآله بتوزيع المناصب وإرضاء الخواطر بينما تركوا جثة الرسول صلى الله عليه وآله للذين لا تشغلهم المناصب والكراسي عن أمر رسولهم والصلاة عليه ودفنه، وربما كانت جثته قد بقيت مدةً أطول لو لم يكن علي عليه السلام موجوداً يقوم بواجبه تجاهها على الوجه الأمثل.

وقد صدق الباحث (كونسلمان) عندما رأى أن الأمر كان قد خرج حقاً من يد الإمام علي عليه السلام وذلك لأن الإمام علياً عليه السلام الذي كان مشغولاً بواجباته تجاه محمد صلى الله عليه وآله بعد رحيله إلى ربه الكريم، عاد بعد إتمام واجباته ليرى أن

(١) جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي - القاهرة، ط١/١٩٩٢، ص١٥.

الخلافة التي فقدها أو أخذت منه غدراً ومكراً إلى يد غيره في سقيفة بني ساعدة لم تكن ناتجة عن عملية شورى بل كانت ناتجة عن مؤامرة[1].

ويرى كل ذي بصيرة أن المؤامرة التي حصلت في سقيفة بني ساعدة والتي كان من نتائجها المباشرة إقصاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن الخلافة الشرعية التي يعترف له بها الشيعة عموماً والكثير من علماء وفقهاء السنة أيضاً، كانت فاتحة التبرير للقيام بمؤامرات ودسائس لا حصر لها في التاريخ الإسلامي بدءاً بالسقيفة ذاتها وانتهاءً بالمؤامرات التي تشهدها الساحات الإسلامية اليوم، قيادات وحركات، بانشقاقها على ذاتها من جهة، وبابتعادها عن روح الإسلام الحقيقي من جهة أخرى.

وقد أوضح الباحثان الفرنسيان المعاصران (دومينيك وجانين سورديل) في كتابهما (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي) أن سبب الشقاق في الأمة الإسلامية عائدٌ بجذوره وأصوله إلى أن الخلفاء الذين تسلموا الخلافة بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله لم يتسلموا السلطة إلا بعد مبايعات وصفقات أثارت الكثير من الجدل والاستفسارات وسيطرت عليها لعبة التحالفات والمصالح الظاهرة[2]. أما السبب المبدئي والمباشر لذلك الصراع الذي شهدته الساحة الإسلامية وقتذاك، فهو- كما يراه المؤلفان سورديل في كتابهما المذكور- «إبعاد علي، ابن

(1) نفس المصدر السابق: ص16.

(2) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ترجمة: حسني زينى، دار الحقيقة - بيروت، ط1/1980، ص32.

عم النبي وصهره، الذي لم يزل يناصره ويشدُّ أزره منذ بداية الإسلام»[1].

وهنا تحديداً، يمكن أن يقول قائلٌ ما بدهشة واستغراب: هل من المعقول أن يكون إبعاد علي عليه السلام عن الخلافة هو السبب الجوهري لحدوث تلك النزاعات والصراعات في الإسلام؟

الجواب، بكل بساطة: نعم، إن الأمر كذلك.

ونقول: إن الأمر كذلك وذلك لعدة أسباب، نذكر منها:

أولاً: إن إقصاء الإمام علي عليه السلام عن الخلافة المنصوص عليها والمعهود بها إليه في محكم التنزيل وفي العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، ومخالفة هذه النصوص من خلال إسناد الخلافة إلى غير الإمام علي عليه السلام، تُعتبر عملية إلغاء واضح للنص الإلهي بكل قداسته، ذلك النص الذي لا يجوز المساس به أو الاجتهاد فيه أبداً. ولذلك نقول، لو أننا تركنا آية التطهير وآية المتصدق الراكع التي تحدثنا عنهما سابقاً، وتوقفنا قليلاً عند قوله تعالى في محكم تنزيله الحكيم:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[2]، فلو توقفنا عند هذه الآية الكريمة وتساءلنا قائلين:

كيف يمكن للمفكر المسلم أو حتى للباحث أو الأديب المسيحي أن يفهمها؟

ثم ما هو ذلك الشيء الأساسي والجوهري الذي إذا لم يفعله الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ستكون كل رسالته الغراء دون معنى وبلا طائل، وذلك من خلال

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

قوله سبحانه وتعالى في نفس السورة أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[(١)]؟!!

فالبلاغ الجوهري والأساسي الذي يجب على الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله القيام به حتى تصبح رسالته السماوية الإنسانية الشاملة ذات معنى كامل هو ضرورة إعلان البيعة الإلهية للإمام علي عليه السلام[(٢)]، وذلك لأن عملية استخلاف علي على عموم المسلمين هي عملية إكمال للدين وإتمام للنعم الإلهية على المسلمين وهي الرضى التام عن الإسلام من قبل رب العالمين وباعث الأنبياء والمرسلين[(٣)].

إذاً، فإبعاد علي عليه السلام عن خلافته الشرعية الموكلة إليه بنصوص إلهية واضحة وبأحاديث نبويةٍ شريفة لا تقبل الطعن أو النقض، هو بالدرجة الأولى، تمرد واضح على النص الإلهي، وبالتالي هو تمرد على مشيئة السماء الحكيمة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) راجع على سبيل المثال ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ...﴾:

أ) الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن أحمد المشتهر بـ(الواحدي)، أسباب النزول، مطبعة هندية/١٣١٥هـ، ص١٥٠.

ب) الإمام (الرازي) محمد فخر الدين: مفاتيح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، ط/ دار الطباعة العامرة، راجع تفسير الآية المذكورة أعلاه وسبب نزولها في علي عليه السلام.

(٣) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ في الكتب التفسيرية للقرآن الكريم عند السنة. وراجع على سبيل المثال ما جاء في:

أ) الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: تفسير القرآن المسمى بالدر المنثور، المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٤هـ، وقد نقل السيوطي التفسير بأكثر من طريق.

ب) الحافظ أبو بكر أحمد بن خطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، ١٣٤٩هـ، ج٨ ص٢٨٠.

ولذلك، فمن الطبيعي أن تدفع الأمة الراضية بهذا التمرد ضريبة العصيان على مر الزمان. وعلينا أن لا ننسى أن الذي عقر ناقة صالح عليه السلام رجل واحد، ومع ذلك فإن الله عم القوم بالعذاب كلهم لما كان منهم من رضى بما قام به أشقاهم.

ثانياً: إن التبريرات الواهية التي جاءت لاحقاً لتسويغ ما حدث في سقيفة بني ساعدة كالقول، مثلاً، بجواز (ولاية المفضول على الأفضل) لهو أبشع تسويغ وأسخف تبرير لأية مؤامرة أو مكيدة من شأنها أن تُلهب أوار البغضاء بين البشر من أجل زعامة سياسية أو من أجل وجاهة اجتماعية أو حتى من أجل التسلط على الآخرين لإشباع وإثبات (الأنا) المتضخمة عند ذلك المتسلط تحت ذلك الشعار الواهي المتعلق بين الفاضل والمفضول. ولو افترضنا أن ذلك الشعار صحيح، فلماذا نطيع إذاً (أولي الأمر) منا طالما أن الضباب قد غلف المفهوم الحقيقي للولي الواجبة علينا طاعته؟!

ألم ينهد عشرات الأشخاص بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستلام ولاية وإمرة جماعة المسلمين تارة بحد السيف وإراقة الدماء، وتارة أخرى بطريق الترهيب والترغيب حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تهديد أهل البيت عليهم السلام بإحراق دارهم عليهم إذا لم يبايعوا؟!!

ألم ينهد معاوية طلباً لولاية المسلمين طمعاً في كرسي الشام حتى أنه قال عن نفسه وعن قومه بني أمية- والبعض يفخر بما قاله ويعتبر أن ذلك مفخرة له: «نحن الدهر، من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتضع»[1]، فاعتبر نفسه وقومه

---

(١) محمد بهاء الدين البيطار: كتاب النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية، دار الجيل - بيروت، د.ت، ص٣٣٥.

خالدين مخلدين، بل اعتبر نفسه (خافضاً)، (رافعاً)، العياذ بالله!!!

فهل تجوز ولاية أمثال هذا، مع كل ما عُرف عنه من قيامه بأعمالٍ يرفضها الضمير الإنساني، على ولاية الإمام علي عليه السلام، أو على ولاية الإمام الحسن المجتبى عليه السلام الذي لم يكن هدفه في يوم من الأيام الكرسي ولم تكن الدنيا مطلبه[1]، وإنما هو كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما الحسن فإنه ابني وولدي ومني، وقرة عيني وضياء قلبي وثمرة فؤادي، وهو سيد شباب أهل الجنة وحجة الله على الأمة، وأمره أمري وقوله قولي، فمن تبعه فإنه مني ومن عصاه فليس مني»؟[2]

وهل تجوز ولاية يزيد اللعين على ولاية الإمام الحسين عليه السلام الذي قال عنه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، كما جاء في العديد من كتب السنة: «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط»؟[3]

وهنا أترك حرية الإجابة للقارئ المسلم والمسيحي دون أي تعليق.

ثالثاً: إن إبعاد علي عليه السلام عن الخلافة وتجاهل ما حدث في يوم الغدير الأغر- وهذا ما سنتوقف عنده لاحقاً في فصل مستقل- واللجوء إلى سياسة العنف والإرهاب وإجبار الناس على البيعة هو الفاتحة الحقيقية لحركات العنف في الإسلام. وما العنف الذي تشهده الساحات الإسلامية اليوم في عملية الحوار

(١) عبد الحميد جودة السحَّار: أهل بيت النبي، دار مصر - القاهرة، د.ت، ص٢٠٨.

(٢) توفيق أبو علم: الحسن بن علي، دار المعارف بمصر - القاهرة، ط٣/١٩٩٠، ص٢٥.

(٣) الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي: إسعاف الراغبين (بهامش نور الأبصار) دار الفكر - بيروت، ص٢٠٢.

الدامي بين المسلمين أنفسهم من جهة وبين المسلمين والغرب من جهةٍ أخرى، إلا النتيجة الطبيعية لعملية اغتيال قضية الإمام علي عليه السلام. ومن ثم لعملية تغييب الحوار بالكلمة الطيبة التي أمرنا بها الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله كي نتعامل من خلالها مع أنفسنا نحن المسلمين كأخوة في الإيمان، ومع (الآخر) من غير المسلمين كأخوةٍ في الإنسانية.

ولكن، وللأسف، فإن الأسلوب السلبي في الحوار بين الأطراف المتنازعة ولجوء البعض إلى سياسة الحصار والإرهاب والاستعداد التام لتجاوز أبسط المفاهيم القرآنية التي تدعو المسلم إلى الحوار والمجادلة بالحسنى وإلى الدفع (بالتي هي أحسن)، هو سبب رئيسي لتبرير الممارسات الدمائية التي كان يتبناها الحكام الأمويون، ومن بعدهم العباسيون في أساليب حكمهم منطلقين في ذلك من أنهم قد وجدوا أن ما أقدم عليه الأوائل من أعمال ومكائد ودسائس وخرق واضح للدستور الإلهي- القرآن- هو أفضل وأقوى مبرر لما يقومون هم به اقتداءً بما فعله أولئك الحكام الأوائل من وصولهم إلى الخلافة.

وإذا ما توقفنا عند هذا الحد وضربنا صفحاً عن بقية النقاط التي تولدت عن عملية اغتيال خلافة الإمام علي عليه السلام، وتساءلنا قائلين:

هل يمكننا أن نسمع أصداء قوية أو أن نقرأ آراء مشابهة في كتابات ومؤلفات المفكرين المسيحيين بشأن ما أسلفنا ذكره ولما نراه من نتائج سلبية كانت بمثابة تداعيات دائمة الأثر نتيجة لإبعاد الإمام علي عليه السلام عن مقامه اللائق به وإقصائه عن الواجهة؟

قبل كل شيء، نستطيع أن نقرأ ما ذكره المستشرق (رونالدسن) عن اللجوء

الفاضح إلى منطق القوة وإلى سياسة تغييب الحجة والدليل، وقد ذكر كيف أن الخليفتين الأول والثاني قد هجموا بمساعدة جماعة من أنصارهما مسلحين بالسيوف على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام من أجل إجبارها وإجبار زوجها الإمام علي عليه السلام على مبايعة الأول، وكيف حدث هناك اشتباك سريع وقصير مع الزبير، وكيف أن فاطمة بنت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله خرجت وقالت للمهاجمين: «والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجنّ إلى الله»[1]، وكفى بهذه الحادثة دليلاً على افتتاح عهد الخلافة (الراشدة) بسياسة غير راشدة.

وقد علق الأديب المسيحي (نصري سلهب) على مسألة إبعاد الإمام علي عليه السلام عن مكانه المنوط به، وعلى مسألة الهجوم على بيت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بقوله: «ولقد بلغ بهما- بأبي بكر وعمر- الخطأ حداً جعلهما يلجآن إلى العنف والتهديد ليحملا علياً على مبايعة أبي بكر، ولقد اقتحم عمر، برفقة بعض أنصاره، منزل ربيب الرسول وهدده بالقتل وبحرق المنزل، إن هو لم يبايع»[2]. ويؤكد الأستاذ (سلهب) على حقيقة أن ليس هناك مجال لإنكار هذه الواقعة لأنها قد ثبتت في كتب الكثير من الرواة والمؤرخين والأدباء مثل: الطبري وأبي الفداء واليعقوبي وابن أبي الحديد والمسعودي، وإلى غير ما هنالك من أدباء وشعراء قدماء ومعاصرين، حتى أن الشاعر المصري المعروف (حافظ إبراهيم) قد تناول تلك الحادثة في قصيدة طويلة يقول من جملة ما يقول فيها عن لسان عمر بن الخطاب مخاطباً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

---

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، تعريب: ع.م مؤسسة المفيد - بيروت، ١٩٩٠، ص٣٣.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص١٠٠.

حرقتُ دارك لا أُبقي عليك بها إن لم تُبايع وبنت المصطفى فيها[1]

والغريب في الأمر أن هذا الشاعر المصري المعروف يعتبر أن ما حدث من محاولة للإقدام المتعمد على إحراق بيت فاطمة بنت النبي عليها السلام هو مدعاة للفخر!!

وعوداً على بدءٍ نقول: إن الأديب الأستاذ نصري سلهب قد اعتبر أن الخليفتين الأولين قد أخطآ في ما أقدما عليه من أجل الاستئثار بالخلافة ومنازعتها أهلها، فلأنه رأى أن الإمام علياً عليه السلام، بما يمتلك من مؤهلات وكفاءات استثنائية، كان حقاً أمة في إمام، ولذلك فهو يؤكد على موقفه هذا بقوله: «فإن لم يُقدر للدين الجديد خليفةٌ أعطي من المؤهلات ما يمكنه من أن يكمل ما بدأه الرسول، فمعنى ذلك أن الدين نفسه مهدد في مستقبله، وأن الرسالة نفسها قد تغدو في خطر. من هنا نفهم معنى هذه الكلمات: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»[2].

وإذا كان الأستاذ الأديب (نصري سلهب) قد رأى أن كلاً من الخليفتين قد أخطأ عمداً في ما ارتكبه بحق الرسالة الإسلامية ووصاياها، فكيف كان تقييم المفكر والأديب (سليمان كتاني) لنفس الحادثة ولنفس الأشخاص؟؟

يرى الأستاذ (كتاني) في كتابه (فاطمة الزهراء وتر في غمد) أن «كل شيء- بعد موت النبي- مسه الخلل، مسه التبديل والتحوير- لقد ظهر الاحتجاج- أول ما ظهر في باحة المسجد، لقد نجح المخطط، ولكن النجاح كان آنياً- سوف تظهر

(١) نفس المصدر السابق: ص١٠٠.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٧٩.

السحب في الأفق- إن لم يكن الليلة ففي غدٍ- إن العاصفة بدأت تنشر أمامها سحب الغبار....»[١].

فالعاصفة التي بدأت تنشر الغبار أمامها، والتي جاءت نتيجة حتمية للخلل وللتحوير الذي مس كل شيء بعد وفاة الرسول ﷺ، ما هو إلا النتيجة المؤكدة والطبيعية لإعطاء دفة قيادة السفينة إلى غير رُبانها.

أما لماذا ستنتشر سحب الغبار الكثيف في الغد القادم، فهذا ما سنعرفه من خلال ما كتبه الأستاذ (كتاني) وهو يشرح للقارئ في كتابه (الإمام الحسن الكوثر المهدور)، وهو كتاب متمم في معلوماته للمعلومات التي وردت في كتاب (فاطمة الزهراء وتر في غمد)، عملية اغتصاب الخلافة التي أدت إلى حدوث النكبة الأولى في الإسلام السياسي.

فبعد أن يذكر لنا الأستاذ (كتاني) ما حدث بالتفاصيل الدقيقة وبشكل مستفيض لحظة وفاة النبي الكريم ﷺ وما كان بعدها، وبماذا كان كل طرفٍ مشغولاً، سواء علي أو مناوئيه، نراه يمهد بطريقة منطقية للحكم على ما حدث تحت ستار (الشورى) في الأمر والديمقراطية في الانتخاب، فيقول: «من البديهي أن نحكم أن عملية كهذه هي عملية تعيين لا عملية انتخاب، فالانتخاب هو استشارة الجماهير، والاستشارة هي وعي معزز بثقافة. ولست أظن أن انتخاباً واحداً من هذا النوع قد حصل في تعيين أي خليفة من خلفاء الإسلام، لا بل إنه كان يحصل بمبايعاتٍ مقهورة ومهدور فيها الدم! لم يُنتخب - إذاً- أبو بكر، بل

(١) سليمان كتاني: فاطمة الزهراء وتر في غمد، (مجموعة شاطئ وسحاب)، دار المرتضى، ط١٩٩٠/٢، ص٦٤٦.

جاء نتيجة تمثيل خفيف جداً، قام على صراع بين بعض الصحابة وبعض الأنصار، ولم يحصل أبداً على إجماع، وبهذا يكون رفض التعيين وقوعاً في تعيين ممهد للخلاف»[١].

وهذا التمهيد للخلاف قد أعطى ثماره الحقيقية بدءاً من تلك اللحظة التي تم وضع الدين فيها تحت خدمة السياسة. فالدين تحركه المبادئ والقيم أما السياسة فتحركها المصالح والصفقات، ولذلك فالدين في جوهره وحقيقته مبادئ وثوابت، أما السياسة ففي جوهرها مصالح ومتغيرات.

وقد أثبتت قضية وفاة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وأحداث السقيفة استمرارية الروح القبلية بين المسلمين بِمَنْ فيهم الأصحاب المقربين من الرسول صلى الله عليه وآله. وإن كانت المفاهيم السياسية غير متبلورة ولا تشكل علماً مستقلاً عند العرب وقتذاك، إلا أن الأحداث الجارية قد أثبتت فعلاً أن الذي يحرك أولئك الناس الطامحين للخلافة هو المصلحة الشخصية والأطماع الذاتية المعتمدة على المتغيرات، وليس المصلحة العامة المبنية على الثوابت والمبادئ والقيم الرسالية.

وإذا كان الأديب والباحث المسيحي المعاصر (انطوان بارا) يوافقنا في كتابه (الحسين في الفكر المسيحي) على أن غياب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد كشف النقاب عن خفايا الصدور، إلا أنه يرى أن الصراع بين الإمام علي عليه السلام ومناوئيه لم يكن وليد اللحظة الحاضرة وقتذاك، بل كان صراعاً موروثاً وممتداً في جذوره إلى انقداح الشرارة الأولى للعداوة التي اندلعت بين هاشم وأمية، واستمر اتقاد لهيبها إلى ما بعد علي عليه السلام ومعاوية. ولكنه يؤكد لنا مراراً على

(١) سليمان كتاني: الإمام الحسن الكوثر المهدور (مجموعة محمد شاطئ وسحاب) ص٦٨٤.

أن شرارة الفتنة في الإسلام إنما مردها إلى نكسة سقيفة بني ساعدة.

وبإمكاننا ملاحظة الأستاذ (بارا) وهو يستعرض الحوادث التي جرت تحت غطاء من (الديمقراطية) أو الشورى المزيفة بشكل تحليلي مثير. ويخلص، كما هو متوقع فعلاً، إلى نتيجة حاسمة مفادها أن الساعات القليلة الأولى لغياب الرسول صلى الله عليه وآله هي التي أرادت تحويل الإسلام جذرياً من عقيدة دينية إلى مصلحة سياسية، تلك المصلحة التي كشفت أن الولاء عند الكثيرين كان لا يزال قائماً للقبيلة وليس للعقيدة.

ويؤكد الأستاذ الباحث (بارا) وجهة نظره قائلاً: «وقد جاءت وفاة النبي صلى الله عليه وآله لتكشف عن استمرارية تمكن روح القبيلة بين المسلمين، إذ لم تمض ساعات على وفاة الرسول الأعظم، حتى بدأت المداولات هنا وهناك بمعزل عن جموع أمة الإسلام العريضة،.... وكان عامل الذهول الذي أصاب المسلمين بوفاة النبي صلى الله عليه وآله، قد جعلهم يتناسون عهد النبي إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وكانت هذه الروح القبلية التي تأججت يوم السقيفة، هي البذرة الأولى للفتنة التي نشبت بين المسلمين»[1].

وهنا أهيب بالقارئ الكريم أن يعود ويقرأ هذه السطور القليلة التي كتبها الأستاذ (بارا) وأن يعيد قراءتها والتأمل فيها مع التركيز على عبارة (يتناسون عهد النبي إلى علي). فبقدر ما هي عبارة قصيرة وصادقة، بقدر ما هي عبارة جارحة يتحول كل حرفٍ فيها إلى سهم صائب يغوص في أعماق الصدور بحثاً وتنبيهاً لتلك الضمائر التي لا تزال نائمة منذ أكثر من ألف وأربعمئة عام.

---

(١) انطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، انتشارات الهاشمي، قم - إيران، ١٤٠٤هـ، ص١٩٧.

نعم، إن مصادرة خلافة الإمام علي عليه السلام لا تعني مصادرة إمامته ولا ولايته، فهو دائماً وأبداً أمة في إمام، ولكن الغريب والمضحك المبكي بآنٍ واحد هو أن نسمع البعض يقول إن الرسول صلى الله عليه وآله مات ولم يوص بالخلافة لأحدٍ وإنما ترك الأمر شورى بينهم، في الوقت الذي نقرأ في كتبهم قول الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله: «من قاتل علياً على الخلافة فاقتلوه كائناً من كان»![1]

ولا أريد أن أطيل على القارئ أكثر من ذلك في هذا الموضوع، ولكن أقول، وباختصار شديد، إن المفكر والأديب نصري سلهب قد أجاد وأصاب عندما تحدث عن مكانة علي عليه السلام وعن تفريط المسلمين بإمامهم ووليهم الذي عيّنه الله لهم رحمة ورأفة بهم، فجحدوا هذه النعمة ورفضوا تلك الرحمة غير آبهين بكتاب إلهي حكيم أو بوصايا رسولٍ سماوي كريم.

وها هو الأديب (سلهب) يقول مقولته الصائبة عن ذلك الإمام العظيم عند ربه، الغريب عند قومه، والذي لم يُقدر حق قدره في أمته:

«علي مدرسة، بل عالم قائم بذاته، مجموعة قيم، قطعة من سماء، شاء الله أن يرصع بها الأرض. غير أن الأرض أثبتت أنها غير جديرة بذاك العطاء.

لقد آثرت الظلمة على النور، والعهر على الطهر، والمكر على المروءة، والجبن على البطولة، والغدر على نبل الخُلق»[2].

وليس هناك أفضل من أن نختتم هذا الفصل بقول الإمام علي أمير

(١) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص١٥٠.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٩٦.

المؤمنين عليه السلام وهو يصف حال خلافته التي صودرت منه في وقتٍ كان المسلمون فيه بأمس الحاجة إلى وجوده عليه السلام بينهم إماماً وخليفة وسيداً مطاعاً ووصياً. ولو أنهم أعطوا الإمام علي عليه السلام حقه لحملهم على المحجة البيضاء ولجعل منهم أمةً تبلغ بأمجادها وعزها وبراية (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) عنان السماء.

ولكن للأسف، لقد آثروا الظلمة على النور، وها هو عليه السلام يقول راثياً حقه الإلهي المهدور: «أما والله لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليّ الطير. فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقتُ أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه. فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى. فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً أرى تُراثي نهباً، حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده» [١]. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعلى كل حالٍ، إذا كان الإمام علي عليه السلام شعر أن حقه قد استلب منه وهو الولي والوصي والخليفة الشرعي للرسول الكريم صلى الله عليه وآله، فإن الأديب والفيلسوف المسيحي (جبران خليل جبران) كان يرى بروحه المسيحية وبصفاء بصيرته ونقاء سريرته أن الإمام علياً عليه السلام الذي صودر حقه في الولاية والخلافة، ولم يُقدر حق قدره في قومه، لهو في مرتبة واحدة مع النبي ومع كل نبي أو رسول. وكان يرى فيه أيضاً صورة كل نبي ورسول عذب في قومه، وما الإمام علي عليه السلام إلا كأي واحدٍ منهم إذ إنه عليه السلام قد جاء إلى بلد ليس ببلده

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الدار الإسلامية ـ بيروت، ط١/ ١٩٩٢ ص٣٩.

وإلى قوم ليس بقومه وفي زمن ليس بزمنه، ولكن ذلك تم وانقضى وإن لله في ذلك شأناً وهو أعلم[١].

وقد صدق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عندما قال منبهاً المسلمين إلى ما يمكن أن يحدث لهم في المستقبل: «ما ولت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه، إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً، حتى يرجعوا إلى ما تركوا»[٢].

فلننظر إلى ما بذر المسلمون في الماضي، بُعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، ولننظر الآن إلى الثمار المريضة التي يجنيها المسلمون اليوم. أوليس أمرهم يذهب سفالاً يوماً بعد يوم؟

فللقارئ الحق في أن يجيب بما يريد وأن يعلق بما يشاء.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٧.

(٢) الشهيد السيد حسن الشيرازي: كلمة الإمام الحسن عليه السلام، مؤسسة الوفاء - بيروت ١٩٨٣، ص٨٦.

علي عليه السلام ظاهرة فوق إنسانية

ليس الإسلام نظرية جامدة، وليس هو مجموعة من المبادئ المسبقة الصنع التي وضعت من أجل تقييد الإنسان بمجموعة من القواعد والسلوكيات التي تتنافى مع فطرته الإنسانية السليمة.

فالإسلام ليس عبادة فقط، أو بالأصح ليست العبادة ذاتها في العقيدة الإسلامية محصورة ضمن إطارٍ من الطقوس والأعمال العبادية كالصلاة خمس مرات يومياً وكالصيام في شهر رمضان، وإلى غير ما هنالك من بقية الفروض الواجبة. فالإسلام أيضاً عقيدة حياتية كاملة متكاملة تقوم على إدارة دفة الحياة في كل ميادينها وجوانبها. ولو أردنا أن نفلسف الأمور قليلاً كما نراها من خلال تحليلنا للعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة على لسان محمد صلى الله عليه وآله وعلى لسان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، نستطيع أن نقول إن الإسلام يدعونا إلى أن نحسن كل عملٍ نقوم به لأن قيمة كل امرئ تكمن في ما يحسنه وفي ما يتقنه. إذاً، فالعمل الذي يقوم به الفرد المسلم يجب أن تكون نوعاً من العبادة، وذلك لأن الانطلاقة الأولى في عمله يجب أن يكون نابعة من عرض ذلك العمل على الميزان الإلهي والمعيار النبوي وذلك من خلال تأكيد الله سبحانه وتعالى على هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

وقد أدرك المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس) هذه الحقيقة عن الإسلام، فعبر عن إدراكه لهذه الحقيقة الثابتة بقوله في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق): إن الإسلام «نهج من الحياة حسب قوانين الطبيعة التي سنها الله لخلقه، وما عمله الأسمى سوى التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإنسانية. وإنك لترى هاتين الوجهتين في تعاليم الإسلام تتفقان في أنهما لا تدعان تناقضاً أساسياً بين حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية فحسب، ولكن تلازمهما هذا وعدم افتراقهما فعلاً أمر يؤكده الإسلام، إذ يراه الأساس الطبيعي للحياة»(٢).

وقد عمل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على تعزيز هذه العقيدة وعلى إقامة توازن حقيقي بين متطلبات الجسد والروح من أجل ربط الإنسان في الأرض بالحبل الموصول بالسماء. وكانت غايته صلى الله عليه وآله أيضاً أن يرفع الفرد المسلم إلى مستوى الإنسان الكامل المستحق للخلافة الإلهية على الأرض. وقد عمل المصطفى صلى الله عليه وآله بنفس الوقت على تعليم أهل بيته عليهم السلام أن يتمثلوا أفكاره بكل أبعادها ومضامينها وأن يكونوا هم بدورهم المرايا الصافية التي تعكس السلوك النبوي الشريف في كل مجالات الحياة وفي كل تفاعلاتها وتشعباتها.

وقد رأى العلامة الفرنسي (غوستاف لوبون) (١٨٤١ - ١٩٣١) في صاحب

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٤.

(٢) ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق طرق، ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٩٥، ص٢٠.

الرسالة الإسلامية الداعية إلى الحياة الواقعية التي تتماشى مع الروح الحركية للحياة وانطلاقها المستمر للأمام صورة الرسول المتفهم للذات الإنسانية وصورة الرسول الجديد بالاتباع حتى من قبل النصارى أنفسهم.

وقد عبَّر العلامة (لوبون) عن وجهة نظره تلك، بقوله: «فرسول كهذا جدير باتباع رسالته والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ إنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق والحض على الخير والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح. والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»[1].

وإذا كان العديد من المستشرقين في الغرب قد اتفقوا في وجهات نظرهم تجاه إنسانية الرسالة الإسلامية، فإن المسيحيين في الشرق قد أجمعوا على ذلك، بل وربما رأى البعض منهم في تفسير بعض المبادئ التي نادى بها وترجمها محمد وأهل بيته عليهم السلام عملياً على أرض الواقع ما لم يستطع أن يراه العديد من الباحثين والمفكرين الإسلاميين ذاتهم، أي إن بصائرهم وعمق تفكيرهم، بالإضافة إلى منطقهم في دراسة وتحليل الأمور والقضايا، كان أعمق وأصوب مما جاء به بعض المفكرين المسلمين من تحليل ونتائج.

وعلى سبيل المثال، بعد أن يتكلم الباحث الأديب (سليمان كتاني) في كتابه (الإمام الحسن الكوثر المهدور) عن المعاني الإنسانية التي تحملها الرسالة الإسلامية بين جوانحها، والتي لخصها بقوله: «وجاءت الرسالة من أجل

---

(١) خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء - بيروت، ط١٩٨٣/٢، ص١٠٦.

الإنسان التائه المفتش عن كتاب يقرأ فيه حقيقة وجوده»[(١)].

فبعد أن يلخص الأديب (كتاني) وجهة نظره تلك، نراه يؤكد في بقية كتاباته ومؤلفاته على دور الإمام علي عليه السلام في حمل أعباء الرسالة إلى جانب الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم ولا نغالي إذا قلنا إن السيد (كتاني) يرى في الإمام علي عليه السلام الرسالة الإسلامية ذاتها، ولذلك فقد قال واصفاً أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتابه (الإمام علي نبراس ومتراس): «فعلي بن أبي طالب، هو ركيزة الأساس، وهو بالنسبة للرسالة كل الرسالة في تأسيسها وفي طريقة المحافظة عليها، في نشرها وفي مجالات الدفاع عنها... وإن له أطول سلسلة من النعوت الكريمة يتجلى بها، فهو قوة وإرادة وشجاعة وبطولة وعقل ومعرفة وحق وعدالة ومثال وكمال...»[(٢)].

وعندما يتحدث الأستاذ (كتاني) عن الإمام علي عليه السلام كرمز للحق والعدل والكمال، فإنه لا يكتفي بالوقوف عند هذه الأوصاف التي استفاض بشرحها والتعليق عليها، بل نراه يخلص إلى نتيجة هامة توجب على كل من يريد أن يكون مؤمناً أن يعمل بها إذا أراد أن يسير على النهج القويم والصراط المستقيم. ويمكن إيجاز هذه الخلاصة بتأكيد السيد (كتاني) على أن دستور الحياة هو دستور علي عليه السلام ونهجه، لأن الدنيا برمتها أصبحت ترجع إليه عند كل سانحة تشعر فيها بأنه قد غصّ بها الطريق، فعلي بن أبي طالب عليه السلام هو دستور الوجود وهو

---

(١) سليمان كتاني: الإمام الحسن الكوثر المهدور (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، مصدر سابق، ص٦٨٨.

(٢) سليمان كتاني: الإمام علي نبراس ومتراس (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٢٧٦.

مرجع الإنسانية الوثيق[١].

ولكن الأديب والباحث المسيحي (انطون بارا) يرى أن إنسانية الإمام علي عليه السلام هي معجزة الأجيال على مر العصور والدهور. وعلى الذي يريد معرفة الكثير عن عموم أهل البيت عليهم السلام وعن علي خصوصاً، ما عليه إلا أن يغوص في بطون الكتب التي أوردت مئات الأحاديث النبوية الشريفة التي تكشف عن خصيص مكانتهم وعلو مقامهم. وقد ذكر الأستاذ (بارا) قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً»[٢]. وقد علق على هذا الحديث بعد أن ذكره مباشرة، بقوله مؤكداً على أن في هذا الحديث دلالة كافية على حتمية التمسك بالشريعة التي هي السبيل البيّن إلى فهم الحياتين وتحقيق الذات وتأكيدها إيجابياً في الدارين. وبالطبع، فإن التمسك بالشريعة يكون من خلال التمسك بها عملياً عبر الامتثال الكامل والفهم الواعي لتعاليم أهل البيت عليهم السلام ومبادئهم النظرية وسلوكياتهم العملية، وذلك لأن أهل البيت المحمدي عليهم السلام، في المحصلة، هم تراجمة وحي الله ومحل سره وحجته على خلقه. وهم حقاً كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وآله، رسول الحق إلى الخلق بقوله: «بي أنذرتم ثم بعلي بن أبي طالب اهتديتم، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ[٣]﴾. وبالحسن أُعطيتم الإحسان وبالحسين تُسعدون، وبه تُشفون..»[٤].

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٦٦.

(٢) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، مصدر سابق، ص١٧٢.

(٣) سورة الرعد: الآية ٧.

(٤) توفيق أبو علم: الحسين بن علي، دار المعارف بمصر - القاهرة، ط٢/١٩٨٢، ص٢٩.

واعتبر الأستاذ (بارا) أن وصايا الإمام علي عليه السلام الخالدة لأبنائه ولعماله وولاته على البلدان والأمصار هي دلالة الكمال والتكامل في شخصية الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام المتربعة على عرش الكمال الإنساني. وقد استشهد الأستاذ (بارا) بوصية مطوّلة للإمام علي عليه السلام يوصي بها ابنه الإمام الحسين عليه السلام بوصايا عديدة حول شؤون الحياة المختلفة. ثم انتقل الأستاذ (بارا) بعد ذكره لوصية الإمام علي عليه السلام إلى ذكر وصية أخرى، ولكن هذه المرة ليست من الإمام علي إلى أحد أبنائه الكرام عليهم السلام ، وإنما هذه المرة من معاوية بن أبي سفيان إلى ابنه يزيد اللعين يوصيه فيها بمجموعة من الوصايا والنصائح التي تتناقض كلياً مع أبسط القواعد والمبادئ الإنسانية. وما أن ينتهي الأستاذ الأديب (أنطون بارا) من ذكر الوصيتين، حتى يطلق حكمه النقدي قائلاً:

«وصيتان الفرق بينهما شاسع كالفرق بين الظلمة والضياء. فرجل يوصي ابنه بالقناعة وذكر الله، وآخر يوصيه بالطمع والتكالب على الدنيا. رجل يوصي ابنه باستقبال وجوه العمل والآراء تفادياً للوقوع في الخطأ، وآخر يبلغه بالاسترخاء بعد أن كفاه [أي معاوية] الرحلة والترحال»[1].

ونستطيع أن نتبين من كلام الأستاذ (بارا) أن النزعة الإنسانية عند أمير المؤمنين هي صفة شديدة البروز والوضوح في شخصيته الكريمة وهي التي تمثل عنده - كما وصفها الأستاذ (بارا)- النور أو (الضياء)، في حين أن افتقاد معاوية لأبسط المبادئ الإنسانية هو ما يمكن وصفه بـ (الظلمة).

ويعود الأستاذ الباحث (بارا) مرة أخرى للمقارنة بين الوصيتين، ولكن هذه

(١) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، ص١٥١.

المرة من الناحية الأخلاقية، ومن جهة حيادية لا تقيم وزناً إلا للحق وللإنصاف في إطلاق الأحكام واستخلاص النتائج. ومن هذه الزاوية يرى الأستاذ (بارا) أن النظر إلى هاتين الوصيتين ودراستهما بعمق ورؤية سيقودنا، بلا شك، إلى استخلاص صورتين متناقضتين لشخصيتين متصارعتين كلٌّ منهما تدعو إلى نهج معين وأهداف محددة وواضحة تعكس بشكل مباشر المكنونات النفسية والتركيبة الداخلية المجبولة عليها كل من هاتين الشخصيتين المتناقضتين.

ومن هذه النقطة يرى الأستاذ (بارا) أن هاتين الوصيتين تمثلان الفارق بين الثريا والثرى، وذلك من خلال تعليقه عليهما قائلاً: «وصية رحومة أخلاقية تدعو إلى خشية الله تقبلها شاب من أبيه فغدت له نبراساً ينير طريقه، فمشى على هديها حتى غالبته الحتوف وضيّقت عليه النوازل. ووصية مغرورة متراخية تقطر لؤماً ولا أخلاقية قدمها طاغية مريض لابن فاسق يُنبئه فيها بصفاقةٍ ما بعدها صفاقة، بأنه ذلل له الأعداء، وأخضع له أعناق العرب»[1].

وبناءً على ذلك، وعلى كل ما تقدم، نستطيع القول إنه إذا كان الإمام علي عليه السلام يمثل كهف الإنسانية وملجأها، فإن الطرف الآخر يمثل زنزانة قهر الإنسانية وإذلالها ووضعها في موضع العبودية لكل شيء إلا في موضع العبودية لله.

فالإسلام، أولاً وأخيراً، رسالة متكاملة لا ثغرة فيها، وهذه الرسالة تشتمل على مفاهيم أخلاقية كثيرة تتناول علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان ذاته بربه وبتعاليمه. ومفهوم الإنسانية أو الإنسان في الإسلام- كما يراه

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٥١.

المستشرق الفرنسي المعاصر (مارسيل بوازار)- هو مفهوم مثالي مرتكز على رسالة سماوية سامية، وهو مفهوم ذو هدف محدد، ويزداد هذا المفهوم وضوحاً نظراً لإلحاح القرآن الكريم بشكل دؤوب وبلا انقطاع على الطابع الفردي للمسؤولية الإنسانية. ويضيف المستشرق (بوازار) على ذلك، قائلاً: «ومع ذلك ينظر النظام الإسلامي إلى الإنسان، على الصعيدين الفردي والجماعي، من خلال مفهومين غير متباينين وإن كانا غير متشابهين. وليست الموازنة بين حق الفرد وبين ضرورة وجود الخير المشترك مفقودة، لكنها ماثلة من خلال رؤية إسلامية بحت، وينبغي أن تتوازن عن طريق تطبيق الشريعة المنزلة تطبيقاً صحيحاً»[1].

وهذا التطبيق الصحيح للشريعة المنزلة من السماء يتجلى بشكله الأمثل في سلوك ومنهج الإمام علي عليه السلام. وقد استفاض الأديب (جورج جرداق) في شرح هذه النقطة في كتابه (علي وحقوق الإنسان)، ورأى أن الإمام علياً عليه السلام من خلال إحدى وصاياه الخالدة لعامله على مصر والتي يقول فيها موصياً ذلك العامل بضرورة معاملة الرعية بالحسنى وبالكلمة الطيبة والسياسة الحسنة:

«... أشْعِرْ قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق... فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: د. عفيف دمشقية. منشورات دار الآداب - بيروت ١٩٨٠ ص٩٩.

ولاّك»[١]، لقد جسّد الأديب (جرداق) في هذا الكلام الخالد للإمام علي عليه السلام صورة رائعة للإمام الوالي الذي يريد ويطلب من كل عاملٍ من عماله وولاته أن يتمرد على كل نوازع التسلط والتكبر والاستئثار بالمقدرات المؤتمن عليها، بل على العكس من ذلك تماماً فهو عليه السلام يريد من عماله وولاته على البلدان والأمصار أن يدركوا أن مناصبهم الموكلة إليهم لا ترفع ولا تزيد من امتيازاتهم بل ترفع وتزيد من مستوى مسؤولياتهم وتعمق شعورهم وإحساسهم بما تريده وتحتاجه رعيتهم. وبالتالي، فالإمام علي عليه السلام عند الأديب المسيحي (جرداق) هو ذلك الإمام الذي تمرد على سلطان المال والجاه والقوة من أجل إقامة صرح العدالة بين الرعية كلها، وهو صاحب ثروةٍ أنكرها ورفضها كلها إلا القرص الذي يمسك عليه الحياة، وما الحياة لديه إلا نفع إخوانه في الخلق والإنسانية، أما الدنيا فلتغر سواه[٢].

وبعد أن يستشهد الأديب (جرداق) بخطبة أخرى قصيرة وبليغة للإمام علي عليه السلام تمثل إحدى الصفحات الإنسانية الناصعة البياض في كتاب حياة الإمام علي عليه السلام والتي ينهى فيها أصحابه عن سب وشتم أهل الشام الذين أساءوا إليه وآذوه وناصبوه العداء في دفاعه عن رسالة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، واتبعوا في التعامل معه كل وسائل الغدر والمكر والنفاق، فقال عليه السلام موصياً أصحابه:

«إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم

---

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، الدار الإسلامية - بيروت، ط١/١٩٩٢، ج٣ ص٤٧٢.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٤٥.

حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به»[1].

فبعد أن يستشهد الأديب (جرداق) بهذه الوصية الإنسانية البالغة الشفافية والرقة، ينتقل مباشرة إلى ذكر نماذج من المواقف الإنسانية المحفورة على جبين التاريخ، أو بالأصح، المواقف (الفَوإنسانية)، والتي يمكن أن نصفها بأنها (SuperHuman)، وهي في جملتها مواقف صدرت عن الإمام علي عليه السلام تجاه أعدائه الذين ناصبوه العداء حسداً وحقداً وغيرة لا يخمد أوارها أبداً.

ومن الإنصاف والواجب أن نذكر بعضاً من هذه المواقف (فوق الإنسانية) للإمام علي عليه السلام كما رواها (جورج جرداق) في كتابه الذي أسماه (علي وحقوق الإنسان) تأكيداً منه على أن الإمام علياً عليه السلام هو الذي أعطى الإنسان قيمته الوجودية الحقيقية ورفعه إلى مستوى التطبيق العملي لقوله عليه السلام المشهور: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية»[2] والذي يعني عين قوله في حديث آخر له عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله سبحانه حُراً».

يقول الأديب والمفكر (جرداق) في الصفحة (٧٨) من كتابه السابق الذكر:

---

(١) آية الله علي المشكيني: الهادي إلى موضوعات نهج البلاغة، وزارة الإرشاد الإسلامي - طهران، ١٩٦٣، ص٢٩٢.

(٢) الإمام الخميني: الأربعون حديثاً، ترجمة: محمد الغروي، دار التعارف - بيروت، ط١٩٩٦/٥، ص٢٨٩.

إن علياً عليه السلام أبى على جنده وهم في حالٍ من النقمة والسخط أن يقتلوا عدواً تراجع، وأن يتركوا عدواً جريحاً فلا يسعفوه. كما أبى عليهم أن يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالاً. ومنها أنه عليه السلام صلى في وقعة الجمل على القتلى من أعدائه وطلب لهم الغفران. وأنه عليه السلام حين ظفر بألد أعدائه الذين يتحينون الفرص للتخلص منه، وهم عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على أنصاره أن يتعقبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون. ومن حوادث المروءة تلك أن علياً ظفر بعمرو بن العاص، وهو لا يقل خطراً عليه من معاوية بن أبي سفيان، فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته ويستمر في مؤامراته ضده، لأن عمراً هذا رجاه، على أسلوبه الخاص، أن يعفو عنه وقد أصبح ذو الفقار فوق هامته! ولو قضى علي عليه السلام على عمرو آنذاك - كما يقول جرداق- لكان قد قضى على المكر والدهاء وجيش معاوية! وفي معركة صفين، حاول معاوية وجماعته أن يُميتوا علياً عطشاً، فحالوا بينه وبين الماء زمناً وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً! ولكن، ما كان من أمره وأمر جيش معاوية بعد ذلك؟ ويجيبنا (جرداق) على هذا السؤال المطروح بقوله: كان أن حمل عليهم الفارس العظيم فأجلاهم عن الماء، ثم أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده. وهو لو منع عنهم الماء لانتصر عليهم واضطرهم إلى التسليم خشية الموت عطشاً! وعرف مرة أن رجلين من أنصاره ينالان في موقعة الجمل من عائشة التي أدارت تلك الحرب الجائرة للقضاء عليه عليه السلام، فأمر بجلدهما مائة جلدة، ثم أقبل على عائشة بعد انتصاره عليها في تلك الحرب وودعها أكرم وداع، وسار هو نفسه في ركابها أميالاً، ثم أوصى بها وأرسل من يخدمها ويوصلها إلى المدينة مكرمة محترمة، وأرسل معها عشرين امرأة من نساء

عبد القيس عممهن بعمائم الرجال وقلدهن السيوف. فلما كانت عائشة ببعض الطريق ذكرت علياً بما لا يجوز أن يُذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي! فلما وصلت إلى المدينة ألقت النساء عمائمهن وقُلن لها: إنما نحن نسوة!

وما هذا الذي ذكرناه من مواقف مشرقة للإمام علي عليه السلام إلا غيض من فيض، وما هو إلا حفنة من اللآلئ العلوية التي ذكرها المفكر والأديب المسيحي (جورج جرداق) في كتابه (علي وحقوق الإنسان)، وهو الجزء الأول من موسوعته (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) ذات الأجزاء الخمسة. وعلى كل حال، فإن هذه المواقف الإنسانية الشفافة من شخصية أمير المؤمنين علي عليه السلام قد تركت أعمق الأثر في الكثير من نفوس المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب على حدٍّ سواء. وقد روى أحد الكتاب والأدباء اللبنانيين للأستاذ (جرداق) حادثة جرت معه شخصياً في أوربا أثناء مقابلة له مع وزير معارف ذلك البلد الأوروبي حيث دار الحديث عن العدالة الإنسانية وعن التكافؤ بين الأفراد في المجتمع الطبقي وضرورة ردم الهوة بين الطبقات في المجتمعات المبنية على التكوينات والمراتب الطبقية التي تحجم مفهوم الإنسانية إلى المستوى الذي يعترف بإنسانية الإنسان من خلال ما يملك فقط. ويقول صديق الأستاذ جرداق ناقلاً أحداث تلك القصة:

يوم كنت في أحد البلدان الأوروبية التي تسعى في تحرير الإنسان من العوز والفاقة وويلاتهما، قلتُ لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب، سبقناكم أكثر من ألف عام إلى إدراك حقيقة المجتمع الطبقي التي تعملون أنتم اليوم على

توضيحها. قال الوزير الأوروبي: وكيف كان ذلك؟ قال: منذ بضعة عشر قرناً قال علي بن أبي طالب: «ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع». فقال الأوروبي: إنما نحن أفضل منكم! قال: لمَ، وكيف؟ قال: لأن عربياً منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرناً وأنتم ما تزالون في مظلمة اجتماعية، فيما طبقناها نحن قبلكم. فأنتم متأخرون عنا بضعة عشر قرناً في هذا المعنى[1].

ولا أعتقد أنني أجانب الصواب عندما أقول إن الفكر الأوروبي قد استفاد كثيراً من فكر الإمام علي عليه السلام، وكذلك الحال بالنسبة للتيارات الفكرية الإنسانية في أمريكا[2]. وعندما نقول ذلك، فإننا لا نمنن الأوروبيين ولا الأمريكيين بذلك، لأن الإمام علياً عليه السلام في نهاية المطاف - كما قلنا سابقاً - إمام كوني وليس إماماً مُقتصراً في إمامته على المسلمين فحسب.

وبإمكاننا أن نورد هنا، على سبيل المثال، شيئاً يسيراً يتعلق بالأديب والمفكر والفيلسوف الأمريكي (إمرسون) الذي كان بمثابة الأب الروحي لعملية استقلال أمريكا عن بريطانيا العظمى، فقد كان هذا الفيلسوف الأمريكي (١٨٠٣ - ١٨٨٢) شديد التأثر بمبادئ الإمام علي عليه السلام الإنسانية وبمنظومته الفكرية الشاملة، وقد حاول أن ينقل شيئاً من أفكار ومبادئ الإمام علي عليه السلام إلى عقول وقلوب الشعب الأمريكي من خلال مقالاته وقصائده ومؤلفاته

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٢٠٣.

(٢) مجموعة من المفكرين والأدباء: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، مصدر سابق، راجع مقالة الدكتور أسعد علي: الكنز المهجور والآثار الإنسانية، ص٧٧.

الفكرية الأخرى[١].

إن هذا الفيلسوف الأمريكي (إمرسون) الذي كان يؤمن أن كل إنسان هو باب ومدخل إلى العقل الكوني[٢]، كان على صلة وثيقة بالإمام الكوني وبكل كلمة من كلماته الخالدة، وقد صرح بذلك في مقالة له بعنوان (الذات الحق). وعندما اطلع ذلك الفيلسوف الأمريكي على كلمات حكيم الإسلام عليه السلام تغير فكره وكيانه... وكانت الومضة المضيئة... وولد الشخص الذي يعدل مدينةً أو قارة[٣].

ومن الجدير بالذكر أن إمرسون هذا كان بالإضافة إلى كونه فيلسوفاً وشاعراً وأديباً، كان أيضاً رجل دين عالي المقام في (كنيسة بوسطن الموحدة). وبالرغم من احترامه وتقديره لديانته وعقيدته المسيحية وللسيد المسيح عليه السلام، إلا أنه لم يقبل أن يفرض على عقله أي حصار أو حَجْرٍ فكري بحيث يمنعه من تقبل أي فكر نيِّر يمكن أن يأتيه من الخارج.

ولما كان فكر الإمام علي عليه السلام الموسوعي إنساني النزعة، فمن الطبيعي إذاً أن ينتقل هذا الفكر الخلاق وينتشر في أصقاع الأرض انتشار الأريج في فصل الربيع. وعلى الرغم من كل عمليات التعتيم التي حاول أعداؤه أن يقوموا بها للحد من انتشار تلك الأفكار النيرة والمبادئ الإنسانية السامية إلا أن الفشل كان

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٧٧.

(٢) Dagobert D.Runes, Treasury of Philosophy Philosophical library New York, 1955, p.361

(٣) مجموعة من المفكرين، نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، مصدر سابق، ص٧٧.

حليفهم دائماً وذلك لأن الإنسان الجاهل أو الحاقد قد يستطيع أن يسحق زهرة الياسمين إلا أنه لا يستطيع أن يسحق عطرها.

وإذا كان (إمرسون) ذلك الأديب والفيلسوف الأمريكي قد توحد مع كلمات علي عليه السلام حتى ذاب فيها شوقاً وحماسة لفهم وتمثل كل حرف فيها وكل معنى من معانيها، فإن المفكر الألماني (جرهارد كونسلمان) قد أكد في كتابه (سطوع نجم الشيعة) على حقيقة أن الإمام علياً عليه السلام قد استطاع أن يكون الإمام الإنساني الكامل طوال فترة حكمه وولايته على المسلمين. وقد بيّن المفكر (كونسلمان) ذلك بقوله في كتابه المذكور:

«واستطاع (علي عليه السلام) في هذه البلاد أن يطبق مبادئ حكمه. وأن يحقق مبادئه المثالية كحاكم عادل. ولم يستطع أحد أن يقول عنه إنه ارتكب باطلاً. إلا أن استقامته كانت مكمن نهايته»[1].

ولو حللنا هذه الجمل القليلة للمفكر (كونسلمان) لوجدنا أنه يرمي إلى عدة نقاط هامة يمكن إيجازها بما يلي:

أولاً: الإمام علي عليه السلام كان إماماً بكل ما تحمله كلمة إمام من معانٍ. فالحكم عنده مرهون بالعدل والعدل بدوره مرتبط بالمبادئ النبيلة والقيم العالية التي جاء بها الرسول الأمين صلى الله عليه وآله عن وحي رب العالمين.

ثانياً: استطاع علي أمير المؤمنين عليه السلام أن يبرهن من خلال فترة حكمه على حقيقة أنه إمام معصوم، لأن الذي (لم يستطع أحد أن يقول عنه إنه ارتكب

(١) جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، مصدر سابق، ص٣٥.

باطلاً)- كما يقول عنه المستشرق كونسلمان- لهو إمام معصوم حقاً مع الأخذ بعين الاعتبار أن مرضاة كل الناس غاية لا تُدرك.

ثالثاً: يمكن أن نفهم من خلال العبارة الأخيرة لكونسلمان أن استشهاد الإمام علي عليه السلام طعنة في صميم الإنسانية وذلك لأن الإمام علياً عليه السلام الذي أثبت للجميع أنه رمز للعدل والفضيلة والاستقامة الإنسانية الكاملة أصبح لاحقاً شهيد تلك المبادئ والقيم التي كانت سبباً أساسياً ودافعاً رئيسياً في عملية استشهاده.

ويحاول كونسلمان بنفس الوقت أن يرسم صورةً واضحةً ومتكاملة الأبعاد لإيمان علي عليه السلام من خلال التأكيد على الجوانب الإنسانية في شخصيته العظيمة على الرغم من أن هذه الشخصية قد عاصرت كمّاً هائلاً من التغيرات والانقلاب في المفاهيم والقيم التي شهدتها الساحة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك، فإن هذا الباحث والمفكر، كونسلمان، يرى أن هناك نخبة من المنتفعين اقتصادياً حاولوا بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن يزيدوا من ثرواتهم ومكاسبهم المادية بفعل الفتوحات العسكرية التي قاموا بها حيث كان انتفاعهم الاقتصادي والمادي على حساب مبادئهم التي جاء بها إليهم محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك فقد تمّ التنازل التدريجي عن الأفكار والقيم الإنسانية والمبادئ الإسلامية لصالح مظاهر الترف والرفاهية.

ولما تعاظم أمر هذه النخبة التي وجدت في ظل (الخلفاء) الراحلين كان لا بدّ من القيام بعملية ثورية جذرية لإعادة الحق إلى نصابه من خلال العودة إلى النهج

الأصيل لمحمد الرسول صلى الله عليه وآله. وكان لا بدّ أيضاً من الانتظار حتى يأتي من يكون الباعث والمحيي لمعالم الدين الإنساني الذي يدعو إلى أخوة (الدين) بين كل المسلمين، وإلى أخوة (الطين) مع غير المسلمين.

فمن هو، إذاً، ذلك الذي سيعيد إحياء معالم الدين الذي شاء البعض أن يشوّهوه عمداً من أجل مصالحهم الخاصة التي تتعارض كلياً مع الهوية الروحية للإسلام؟!

ويمكننا العثور على الجواب الموجز والمختصر عند (كونسلمان) الذي يقول:

«وقد حاول علي كخليفة إعادة فكر المؤمنين مرة أخرى إلى أصوله الأولى أي إلى المبادئ التي أرساها النبي صلى الله عليه وآله، فأحسّت النخبة في مكة والمدينة بثورية هذا الرجوع إلى الأصل بالذات»[1]. وبرأي المستشرق المعاصر (كونسلمان)، كانت خلافة الإمام علي عليه السلام محاولة جادة ومستمرة من أجل إعادة وجود محمد صلى الله عليه وآله بين صفوف المسلمين وذلك من خلال جعل إمامته وولايته عليهم الصورة الناطقة والمطابقة لشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بكل أبعادها المعنوية والعملية.

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ما نقوله عن صفات وخصال الإمام علي عليه السلام ينطبق بشكل كلي وشامل على كل فرد من أفراد البيت المحمدي الطاهر عليهم السلام، فكلامنا عن الإمام علي عليه السلام هو كلام عن كل الأئمة وعن السيدة الزهراء فاطمة عليها السلام أيضاً. فهم عليهم السلام، كما أوضحنا سابقاً، نورٌ واحد متحدٌ. وقد عبَّر أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه عن هذه الحقيقة بقوله لسلمان

(١) نفس المصدر السابق: ص٣١.

الفارسي (رض): «يا سلمان نحن سر الله الذي لا يخفى ونوره الذي لا يُطفى ونعمته التي لا تُجزى، أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد وكلنا محمد، فمن عرفنا فقد استكمل الدين القيم»[1].

إذا، فالكلام عن الإمام علي المرتضى عليه السلام هو كلام عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهو بنفس الوقت كلام عن الحسن والحسين وعن الزهراء فاطمة وعن بقية الأئمة من نسلها الشريف، من أولاد الحسين (عليهم السلام جميعاً).

وبالتالي، عندما كتب الأديب والشاعر (بولس سلامة) ملحمته المطولة (عيد الغدير)، لم يكتف بوصف الإمام علي عليه السلام من خلال وصف محامد فعاله ومكارم خصاله، بل جعل ملحمته الشعرية تلقي بأضوائها الساطعة على كل أفراد أهل البيت المحمدي الطاهر عليهم السلام الذين يمثلون، بالنسبة للشاعر (سلامة)، الاستمرار الصادق والأمين لرسالة المصطفى صلى الله عليه وآله.

ومهما يكن من أمر، فإن الشاعر (سلامة) كان محقاً تماماً في تساؤله عن نقطة هامة قد تخطر على بال كل من يقرأ ملحمته الرائعة، أو على الأقل، كل من يقرأ عنوان ملحمته الذي يوحي مباشرة باختيار علي عليه السلام للكتابة عنه وعن بيعته الخالدة قرب غدير خم. فالبعض يمكن أن يتساءل بعد أن يقرأ تلك الملحمة الطويلة:

لماذا كتب هذا الأديب والشاعر المسيحي بولس سلامة هذه الملحمة العلوية

---

(١) الشيخ كاظم حمد الأحسائي النجفي: السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، مؤسسة الهادي - بيروت، ١٩٩٩م، ص١٦.

في علي عليه السلام دون غيره من الأصحاب المحيطين بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله؟؟

ولكن، على ما يبدو، فإن الشاعر يريد أن يوفر علينا عناء البحث عن الجواب على سؤاله، ولذلك فهو يعطينا الجواب مباشرة مُبدياً من خلاله الإعجاب الشديد بالقيم الإنسانية التي كان يتحلى بها الإمام عليه السلام وبمدى تمسكه بمبادئه وثوابته التي تجعل المسيحيين يخشعون أمام هذه العظمة العلوية المتجلية في المرتبة الإمامية، وقد عبر الأستاذ الشاعر (سلامة) عن ذلك بقوله:

«قد يقول قائل، ولم آثرت علياً دون سواه من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله بهذه الملحمة؟ ولا أجيب على هذا السؤال إلا بكلمات، فالملحمة كلها جواب عليه، وسترى في سياقها بعض عظمة الرجل الذي يذكره المسلمون فيقولون: (رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، وعليه السلام). ويذكره النصارى في مجالسهم فيتمثلون بحكمه ويخشعون لتقواه، ويتمثل به الزهاد في الصوامع فيزدادون زهداً وقنوتاً، وينظر إليه المفكرُ فيستضيء بهذا القطب الوضاء»[1].

وبعد أن يذكر الأديب (سلامة) في قصيدته التي تحمل عنوان (أهل البيت) شيئاً من فضائلهم، وبشكل خاص الحديث النبوي الشريف الذي يحض المسلمين على التمسك بالقرآن الكريم وبأهل البيت عليهم السلام، الذين يشكلون مع بعضهم البعض وحدة متكاملة، نراه ينتقل للحديث عن إمام الإنسانية الذي يمثل حقاً حكمة السماء وصوت الحق على الأرض.

وها هو يقول معبراً عن ذلك:

---

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١٠.

عــترة الطهــر يــا ورود الخمائــل عطّـري الجـو بالـشذا والفـضائل
يا شروق الأنوار في غيهب الأزمـ ـان ظلي على العصور مشاعل
قال طه: تركتُ فيكم كتاب اللـ ـه بعدي وأهل بيتي وسائل
سـبني مـن سـبهم ورمـاني من رماهم فالقلب أوحد كامل
جمـع الله خمـسة في كـساء ليس فيهم إلا الجسوم فواصل

ثم يختم وصفه لعلي عليه السلام بقوله في نفس القصيدة:

رأيه حكمة السماء ونبع الحق فأنزل على صفي المناهل[1]

فإذا كان الإمام علي عليه السلام بعلومه وقيمه وبقوته وإنسانيته، حتى بإيمانه القديم قدم النور المحمدي قد تحول عند الكثيرين إلى (سر الأسرار)[2] العظيمة للإرادة الإلهية، فإن الكثير من المفكرين قد رأوا فيه هذه الحقيقة، وقد رأوا فيه أيضاً وفي أهل بيته الميامين الأغرار عليهم السلام التجسيد الكامل للمثل الإنسانية العليا التي هي- كما يقول عنها الأستاذ المفكر خالد محمد خالد- تجسيد للربانية التي يريدها الله[3].

إنه عليه السلام التجسيد الأمثل والأكمل لكل ما هو إنساني على مسرح هذا الوجود الفسيح. ولكن عندما نقول إن الإمام علياً عليه السلام وجميع أفراد أهل البيت المحمدي المطهرين من الرجس هم المثل الأعلى للإنسانية بجميع أبعادها والتي يمكن أن يرى فيها البعض- كما هو الحال عند خالد محمد خالد- البلوغ الكامل

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٠١-١٠٢.

(٢) كاظم حمد الأحسائي: السفينة السائرة، ص٥٩.

(٣) خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء، مطبوعات دار الشعب - القاهرة، ١٩٦٨، ص١٩.

والوصول الأكيد إلى درجة (الربانيين) انطلاقاً من قول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله الشريف: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1]، فإن البعض الآخر كان له رأي آخر أكثر عمقاً وأسمى علواً وارتفاعاً.

فالشاعر (العمري)، عبد الباقي العمري الموصلي المتوفى سنة ١٢٧٨هـ، هو شاعر مسلم بلا شك، وله أيضاً صولات وجولات في ميادين الأدب والدين والسياسة، وعلى الرغم من أن هذا الشاعر الحصيف الأريب هو شاعر سني، إلا أن الحقائق العميقة التي ذكرها في ديوانه الشهير (الترياق الفاروقي) حول عظمة أهل البيت عليهم السلام وعلو مكانتهم، بالإضافة إلى أقوال وأشعار بقية المفكرين والأدباء والشعراء المسلمين الذين تعمقوا في معرفة أهل البيت المحمدي عليهم السلام، سيكون لكل هذه الأقوال والأشعار أثرها الفكري العميق على النتاج الأدبي والفكري عند المسيحيين كما سنرى ذلك لاحقاً.

ولو أخذنا على سبيل المثال، قول الشاعر عبد الباقي العمري، سليل عمر ابن الخطاب، عن حقيقة أهل البيت الميامين عليهم السلام الذين يمثلون (عين اليقين) في الوجود وذلك من خلال قوله عنهم عليهم السلام:

إن الوجود وإن تعدد ظاهراً ... ما فيه غيركمُ لمن يتوسمُ
أو صحَّ في الإمكان ثمة عالمٌ ... وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
فحقيقة الأعيان أنتم عينها ... وجميع ما في الكائنات توهّمُ[2]

فلو تناولنا هذه الأبيات الشعرية بالدراسة والتحليل، فسندرك أن الوجود

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٩.

(٢) عبد الباقي العمري: الترياق الفاروقي، مطبعة النعمان - النجف الأشرف ١٩٦٤، ص١٣٦.

الحقيقي، أو الوجود اليقيني، الذي لا ريب فيه هو الوجود (المحمدي- العلوي) وما نتج عنه من أنوار أخرى تمثل الامتداد الطبيعي لهذا الوجود اليقيني المتمثل بالحقيقة (المحمدية- العلوية)، وما هذه الأنوار المنبثقة عن تلك الحقيقة إلا الأنوار التي ظهرت نتيجة عودة اتحاد نور محمد الرسول صلى الله عليه وآله، من خلال ابنته الزهراء فاطمة عليها السلام، مع نور علي المرتضى عليه السلام من جديد حيث كان زواج الإمام علي من فاطمة بنت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ناتجاً عن أمر إلهي ثابت لا رجعة فيه. فالله هو الذي أمر محمداً أن يزوج علي من فاطمة[1]، أو بالأصح، أمر محمداً صلى الله عليه وآله أن يزوج النور بالنور، أي فاطمة من علي، كما جاء في كتاب «مناقب علي بن أبي طالب» لابن المغازلي الشافعي[2] وفي غيره من كتب السنة المعتبرة.

إن هذه النظرات العميقة والمدروسة تجاه حقيقة ومعرفة أهل البيت عليهم السلام قد لاقت صداها الإيجابي عند الكثير من المفكرين والباحثين المسيحيين المعاصرين. وبالطبع، فإن الأثر العميق أو الصدى البعيد الذي تركته هذه النظرات والدراسات ووجهات النظر الإسلامية عن أهل البيت عليهم السلام في قلوب وضمائر المثقفين المسيحيين في الشرق تحديداً لم يكن مجرد صدى عادي أو مجرد إعادة ببغائية لصياغة الأفكار التي قرأها أولئك المسيحيون عند بعض المفكرين

---

(١) الحافظ الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، دار إحياء تراث أهل البيت - طهران، ط٢/١٤٠٤هـ، ص٢٩٨.

(٢) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، المكتبة الإسلامية - طهران، ط٢/١٢٩٣هـ.ق، ص٣٤٥.

والشعراء المسلمين ذوي البصيرة الثاقبة والطوية النظيفة، بل تجلى ذلك الأثر العميق والصدى الروحي البعيد من خلال إعادة قراءة التاريخ الإسلامي بعمق أكثر وبحيادٍ أكبر ومن ثم الخروج بتلك النتاجات الفكرية العظيمة التي استطاعت أن تعيد رسم معالم التاريخ الإسلامي بصورة صادقةٍ كادت أن تكون متطابقة تماماً لما حدث في رحلة الإسلام الطويلة والشائكة والتي تعمد تشويه معالمها العديد من المؤرخين والمفكرين وشعراء البلاط الذين دأبوا على كتابة التاريخ الإسلامي متخذين من سيوف الحكام أقلاماً ومن دماء ضحاياهم مداداً، ولتغرق الحقائق بعد ذلك في رمال التاريخ!!

وحتى لا نبتعد كثيراً عن موضوعنا المطروح هنا، نرى لزاماً علينا العودة إلى ما سطرته بعض الأقلام المسيحية عن ذلك الإمام الذي حار الورى في فهم كنهه وفي حجم قلبه العظيم الذي اتسع للإنسانية بكل آمالها وآلامها.

وعندما نقول إن قلب الإمام علي عليه السلام قد اتسع حتى أصبح بحجم آمال الإنسان وآلامه، فإننا نقصد بذلك أن ذلك القلب الدافئ والكبير لم يتسع لتلك الآمال والآلام في زمنه فحسب، بل كان قلبه الكبير دائماً وأبداً ذلك المحراب العظيم الذي تلوذ به وتلجأ إليه كل الأجيال المتعاقبة لتشكو إليه آلامها وأحزانها، ولتلقي بين يديه الكريمتين رجاءها وآمالها وحلمها الدائم بعالم لا يظلم الحاكم فيه رعيته، ولا يحكم فيهم بقوة السيوف والنيران بدل سياسة الكلمة الحسنى وعدالة الميزان. ويلقون إليه عليه السلام بأحلامهم في وطن عزيز يأويهم ويحميهم، لا يشعرون فيه بالغربة والوحشة، ولا يعتقل فيه الفكر بتهمة الكفر والزندقة، ولا تباح فيه الدماء والأعراض، ولا تنتهك فيه القوانين

والشرائع ولا تداس كرامة الإنسان فيه ولا تصادر أملاكه ومبادئه وهويته الفكرية والروحية بتهمة الارتداد والإلحاد، لا لشيء إلا لأنه قال: «لا» للحاكم الظالم!

ألم يلخص لنا الأديب الشاعر (توفيق جرداق)، الشقيق الأكبر للأديب والمفكر جورج جرداق، الآمال التي يعلقها كل إنسان على الإمام علي عليه السلام، إمام الإنسانية ومعقلها الحصين، بقوله:

كلّما بي عارضُ الخطب ألَمّ ... وَصَماني من عَنَا الدهرِ ألَمْ
رحت أشكو لعليٍّ علّتي ... وعليٌّ ملجأ من كل هَمْ
وأنادي الحقَّ في أعلامه ... وعليٌّ عَلَمُ الحقِّ الأشمّ
كلما عذب بالجور فتىً، ... ودعاه في دجى الخطب، نَجَمْ
فهو للظالم رَعدٌ قاصف، ... وهو للمظلوم فينا معتصم
وهو للعدل حمىً قد صانه ... خلقٌ فَذٌّ، وسيف، وقلم
مَنْ لأوطانٍ بها العسف طغى، ... ولأرضٍ فوقها الفقر جَثَمْ
غيرُ نهجٍ عادل في حُكمِهِ ... يرفعُ الحَيفَ إذا الحيفُ حَكَمْ[1]

إذاً، فالإمام علي عليه السلام ليس بالإمام العادي الذي يمكن أن يُطوى ذكره بعد عدة أجيالٍ متلاحقة، بل هو- كما نلاحظ في كتابات المسيحيين- فوق كل الاعتبارات الزمانية وفوق كل الحواجز المكانية وحتى فوق الفوارق المذهبية بين جميع الأديان.

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢١٣.

فالمسلم المؤمن يرى فيه الخلاص الأمثل من كل أنواع الظلم والجور والجهالات في كل زمان ومكان. والمسيحي بدوره أيضاً يرى فيه عليه السلام: (الملجأ من كل هم) و(علم الحق الأشم)، وهو أيضاً (صاحب الخلق الفذ والسيف والقلم). وباختصار شديد، هو بالنسبة للكثير من المثقفين المسيحيين، وليس للأديب الشاعر توفيق جرداق فحسب، شاطئ الأمان للإنسان وللأوطان.

وعلينا، بنفس الوقت، ألا نستغرب ذلك الموقف أو تلك النظرة من الأدباء والمفكرين المسيحيين المعاصرين. فالحقيقة ابنة المعرفة، ولذلك فإن كل المستنيرين ثقافياً في صفوف المسيحيين سيدركون، من خلال استنارتهم الثقافية، أن الإمام علياً عليه السلام هو صوت الله الخالد في الضمير الإنساني القويم. وبالتالي، فمن الطبيعي أن يقف محبو الحق والعدل والخير والفضيلة في صف الإمام علي عليه السلام وتحت لوائه سواء كانوا من المسلمين أم من غيرهم من بقية الطوائف والأديان.

وعندما يقول الأديب (جورج جرداق): «وأعظم برجل يراه الناس مقياساً للناس، فإن والوه وتشيّعوا له والوا الخير والعدالة والحق والمروءات وتشيّعوا لها. وإن تعيّفوا هذه الموالاة فإنما يتعيفون خيراً كثيراً»[1]، فإنه يقصد بذلك أن مفهوم الولاية المنصوص عليها إلهياً والمؤكدة أيضاً بالأحاديث النبوية الشريفة، لهو مفهوم قائم على جعل الإمام بمثابة المرآة القرآنية العاكسة للعلوم الإلهية والآداب النبوية. ولذلك كان المستشرق الفرنسي الكبير (هنري كوربان) يرى دائماً أن منصب الإمامة الخاص بأئمة أهل البيت عليهم السلام هو منصب يمكن أن يُلقب صاحبه وحامله باسم «المكتمل الحكمة والعقل، أو العقل المطلق الذي

(١) نفس المصدر السابق: ج٥ ص٢١٥.

يتمثل في الأربعة عشر الأفضلين، أي في النبي محمد صلى الله عليه وآله وابنته فاطمة، والأئمة الاثني عشر»[1]. وغني عن القول أن المستشرق (كوربان) يرى هنا أن مفهوم الإمامة متلازم مع مفهوم الولاية، ولهذا فقد أراد من ذكر السيدة الزهراء فاطمة عليها السلام هنا تثبيت عصمتها باعتبارها أحد أفراد البيت المحمدي المنزهين من كل رجس والمطهرين تطهيراً حسب النص الإلهي الأقدس.

وبالطبع، فإن هذا المستشرق الفرنسي المعاصر لم يتوصل إلى ما توصل إليه من تحليلات ونتائج حاسمة كهذه النتيجة الهامة والمتعلقة بمقام الإمام لمجرد أنه قرأ بعض الكتب التي تتناول طبيعة المعتقدات والأفكار في المذهب الإسلامي الشيعي بأبعاده الروحية والفكرية المختلفة، ولم ينته إلى هذه النتيجة أيضاً لمجرد سماعه عن طبيعة أتباع ذلك المذهب ومدى تعلقهم بمحمد وأهل بيته عليهم السلام، بل إن (كوربان)، الذي عاش فترة طويلة من الزمن في إيران حيث كان أستاذاً محاضراً في جامعتي طهران والسوربون، قد تمكن بحكم عمله الطويل من الاطلاع الواسع على مذهب أهل البيت عليهم السلام وعلى سيرة حياتهم ومبادئهم، وأيضاً على دورهم القيادي في توجيه وقيادة المسلمين المؤمنين تحت لواء الشهادتين الخالدتين من أجل الحفاظ على روح الرسالة الإسلامية التي جاء بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله كي يبلغها كاملة ومستوفاة إلى كل أبناء آدم على الأرض.

لقد ذهل (كوربان) كثيراً عندما عرف أن ما قرأه في وطنه الأم (فرنسا) عن بعض الشخصيات الإسلامية التي عاشت في فجر الرسالة الإسلامية وكانت

---

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق، ص١٩.

معدودة من صحابة النبي الكريم صلى الله عليه وآله لم يكن صحيحاً أبداً وذلك لأن العديد من المستشرقين الأوائل الذين قرأ لهم كوربان مؤلفاتهم وما تركوه من تراث فكري كبير، كانوا يعتمدون في دراساتهم ومؤلفاتهم عن الإسلام على مصادر ومراجع إسلامية ذات اتجاه واحدٍ محددٍ لا غير، فجاءت دراساتهم ومن ثم مؤلفاتهم فجة غير ناضجة وغير شاملة، وذلك لأن الذي ينظر إلى الأمور بعين واحدة ومن زاوية واحدة ستظلّ رؤيته للحقائق ناقصة ومشوهة وغير واضحة المعالم أيضاً.

فالمصدر الوحيد الذي اعتمده العديد من المستشرقين هو المصدر التاريخي الذي كُتب بإشراف وتوجيهات رجال السلطة وأرباب النفوذ المادي والمعنوي الذين تربعوا على كرسي الحكم باسم الإسلام وهم، في حقيقتهم، أبعد ما يكونون عن مبادئه وأحكامه وروحانيته، فهم الذين اغتصبوا الخلافة وحولوا كرسي الخليفة إلى عرش ملك[1].

وبما أننا كنا نتكلم عن موقف المستشرق الفرنسي المعاصر (هنري كوربان) من شخصية الإمام علي عليه السلام، وتحديداً من الجوانب الإنسانية فيها، لا بد لنا من الوقوف قليلاً مع هذا المستشرق الذي لعب دوراً أساسياً في نقل الصورة الصادقة للمذهب الشيعي إلى العالم الغربي بأكمله.

لقد كان من أكثر الأشياء تأثيراً في إعادة بناء شخصية كوربان بعد دراساته المعمقة من أهل البيت عليهم السلام، وبعد لقاءاته المتكررة مع عظماء الفكر الإسلامي

---

(١) راجي أنور هيفا: رحلة المستشرق الفرنسي هنري كوربان مع المذهب الشيعي، النبأ العدد (٦٢)، إصدار: المستقبل للثقافة والإعلام - بيروت، ٢٠٠١، ص١٦٣.

الشيعي في إيران من أمثال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي الذي يُعتبر رائداً ومعلماً في منهج البحث العقائدي الحديث، وهو النهج الذي سلكه الإمام علي عليه السلام في صياغة وبلورة الفكر الإسلامي ومن ثم القيام بترجمة ذلك النهج إلى واقع عملي في كل موقف من مواقفه وفي كل حركة من حركاته في شتى ميادين الحياة على الرغم من كل المصاعب والمصائب التي واجهته والتي انتهت باغتياله غدراً في مسجد الكوفة عند صلاة الفجر.

فالشخصية (الفَوإنسانية) للإمام علي عليه السلام التي تجاوزت كل الموازين والمعايير في الإيمان والفكر والعلمين الديني والدنيوي، بالإضافة إلى الشجاعة والبطولة المتوجة بقوة الحرف وبلاغة الكلمة التي يعتبرها الكثير من المفكرين المسيحيين الكلمة المرادفة لبلاغة الكلمة القرآنية المنزلة، كل ذلك ساهم في إعادة الهيكلية النفسية للمستشرق الفرنسي كوربان مما جعله في نهاية المطاف، وكنتيجة لإبحاره العميق في بحر معرفة علي عليه السلام وفي المبادئ والتعاليم التي نادى بها طوال حياته والتي تصلح أن تكون دائماً دستوراً ثابتاً للمجتمع الإنساني، كل ذلك جعل كوربان يرى في مذهب أهل البيت عليهم السلام، الذي يمثل الإسلام الحقيقي الذي أراده محمد النبي صلى الله عليه وآله وعلي الوصي عليه السلام، صورة الدين الإنساني الشامل الذي يمثل العروة الوثقى التي تربط وتجذب، بقوة الإيمان والعمل، أهل الأرض نحو عالم الصفاء والخلاص والرحمة في رحاب السماء. وانطلاقاً من ذلك، فقد قال كوربان مؤكداً على حقيقة ذلك، بعد جهده الجهيد في معرفة فلسفة مبادئ مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وفي العمق المعرفي والبعد الفلسفي لشخصية الإمام علي عليه السلام التي حار الأولون والآخرون في فهم حقيقتها وإدراك كنهها:

«في عقيدتي إن التشيع هو المذهب الوحيد الذي حفظ بشكل مستمر رابطة الهداية بين الله والخلق، وعلقة الولاية، حية إلى الأبد. فاليهودية أنهت العلاقة الواقعية بين الله والعالم الإنساني في شخص النبي موسى عليه السلام، ثم لم تذعن بعدئذٍ بنبوة السيد المسيح والنبي محمد صلى الله عليه وآله، فقطعت الرابطة المذكورة، والمسيحية توقفت بالعلاقة المذكورة عند المسيح عليه السلام، أما أهل السنة من المسلمين فقد توقفوا بالعلاقة المذكورة عند النبي محمد صلى الله عليه وآله، وباختتام النبوة به لم يعد ثمة استمرار في رابطة العلاقة (في مستوى الولاية) بين الخالق والخلق. التشيع يبقى هو المذهب الوحيد الذي آمن بختم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وآمن في الوقت نفسه بالولاية- وهي العلاقة التي تستكمل خط الهداية، وتسير به بعد النبي- وأبقى عليها حية إلى الأبد»[1].

وهذا يعني أن شخصية علي أمير المؤمنين عليه السلام التي تمثل عماد الجانب الإنساني في الرسالة الإسلامية، هي شخصية تسعى بكل قدراتها وطاقاتها إلى تحقيق معادلة الإنسان الكامل الممثل للخلافة الإلهية، وهي أيضاً شخصية رسالية خالدة استطاعت أن تكون محط أسماء الله الحسنى ومحل أسراره ومنبع أنواره. ولذلك فقد قال عليه السلام يوماً لسلمان الفارسي (رضي الله عنه): «نحن أسرار الله المودعة في هياكل البشرية، يا سلمان انزلوا عن الربوبية ثم قولوا فينا ما استطعتم، فإن البحر لا ينزف وسر الغيب لا يُعرف وكلمة الله لا توصف»[2].

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الشيعة.. نص الحوار مع المستشرق كوربان، ترجمة: جواد علي، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١/ ١٤١٦هـ، ص٤٩.

(٢) الشيخ كاظم أحمد الأحسائي النجفي: السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، ص١١٦.

وغنيٌّ عن القول أن قول الإمام «نحن» هو أن هذا الضمير يعود على كل أفراد أهل البيت المحمدي الطاهر من الرجس. فالضمير «نحن» يعود إلى كامل أئمة أهل البيت عليهم السلام، بالإضافة إلى أم الأئمة، السيدة البتول فاطمة الزهراء عليها السلام، ولكن بنفس الوقت، فإن هذا الضمير يمثل بالدرجة الأولى وحدة النور المحمدي- العلوي الذي أسلفنا الحديث عنه. وهذه الحقيقة الثابتة لم تغب عن أذهان الباصرين من رجال الفكر والأدب من المسيحيين. وعلى سبيل المثال، فقد رأى الأديب (سليمان كتاني) في كتابه (فاطمة الزهراء وتر في غمد) أن شخصية الإمام علي عليه السلام التي انطوت على كثير من الأسرار والمعادلات الصعبة الحل، تلك المعادلات التي اكتسبت الصعوبة في الحل نظراً لارتقائها وارتفاعها عن مستوى التقييم والوصف، رأى فيها الأستاذ (كتاني) صورة الانعكاس المتبادل بين النبي والوصي، حيث تحول علي عليه السلام إلى «انعكاس نور... وبيكار هندسة ومدى انطلاقٍ... وأصبح إرثاً ووسع مجال»[1].

أي إن علياً ومحمداً هما نور منعكس عن نور كلي مطلق. ولا أريد أن أشرح هنا معنى قول (كتاني) عن الإمام علي عليه السلام إنه «بيكار هندسة» وذلك لما لهذه العبارة الوصفية من معانٍ دقيقة وحقائق عميقة عند أهل المعرفة الربانية والعلوم العرفانية، وبالتالي سنرجئ شرحها إلى مكان آخر نراه مناسباً لذلك الشرح والبيان.

وعلى كل حال، وحتى لا نجنح كثيراً عن النقطة المطروحة على بساط البحث الآن، نؤكد على أن تاريخنا العربي والإسلامي قد امتلأت صفحاته

---

(١) سليمان كتاني: فاطمة الزهراء وتر في غمد (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٥٥٨.

بالكثير من الصراعات المريرة بين الخير والشر، بين الإنسانية والهمجية، بين الحق والباطل، ولكن كانت كل تلك الصراعات عبارة عن عملية إعادة واستحضار الصراع الأبدي الدامي بين ولدي آدم عليه السلام، هابيل المظلوم عليه السلام وقابيل القاتل والظالم. ولكن الصراعات هذه المرة هي صراعات أيديولوجية كاملة، فليس الصراع صراعاً شخصياً ولكنه صراع متجذر في المبادئ والأفكار، وعلى المستوى الجماعي وليس على المستوى الفردي فحسب.

وإذا كان المفكر الفرنسي المعاصر (روجيه غارودي) يعتبر أن استلام الأمويين لمقاليد الحكم في الإسلام هو الطعنة القاتلة لهذا الدين السماوي في صميمه[1]، وذلك لأن الأمويين انحرفوا بالإسلام عن مساره الإنساني السليم، ودأبوا على اعتناق مبادئ خاصة بهم لا تمت إلى روحانية الإسلام وإنسانيته بأدنى صلة، فإن الأديب والمفكر اللبناني (جرداق) يرى «أن علي بن أبي طالب وأنصاره الأولين وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري، يمثلون الجانب الإنساني الكريم في مرحلة واسعة من مراحل تاريخنا الذي شُحن بأحداث الاعتداء على حقوق الإنسان وبإنكار هذه الحقوق في أبسط مفاهيمها»[2].

وبما أننا في معرض الحديث عن الظاهرة فوق الإنسانية في شخصية الإمام علي عليه السلام، فمن الواجب علينا أن نقف مع قضية التلازم بين مبادئ علي عليه السلام وحقوق الإنسان ضمن إطار تلك المبادئ التي طرحها الإمام علي من خلال

---

(١) روجيه غارودي: ما يعدُ به الإسلام، ترجمة: قصي أتاسي - ميشيل واكيم، دار الوثبة - دمشق، د.ت ص٧٠.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ ص١٤.

سيرته العطرة ومن خلال أقواله وخطبه ووصاياه التي كان يوصي بها عماله في جميع البلدان والأمصار.

وقبل الكلام عن العلاقة الوطيدة بين شخصية الإمام علي عليه السلام وحقوق الإنسان، لا بد من الإشارة، ولو بشكل سريع، إلى مسألة إعلان حقوق الإنسان في ظل المدنية الحديثة إبان الثورة الفرنسية التي غيّرت وجه أوروبا بأكملها في العصور الحديثة.

ومن المعروف للجميع أن الثورة الفرنسية قد استمدت أفكارها ومبادئها من الأفكار التي طرحها جماعة من الفلاسفة والمفكرين من أمثال: (جان جاك روسو) و(فولتير) و(مونتسكيو). وقد ركزت تلك المبادئ على السلطة وطريقة ممارستها، وعلى الحريات العامة والفردية التي تعمل على تطوير المجتمع ودفعه للأمام. وقد أجمع أولئك الفلاسفة على أن القانون هو تعبير عن الإرادة العامة وأن من حق المواطنين المشاركة في صنعه.

وهنا، لنا أن نتساءل:

ماذا يتضمن إعلان حقوق الإنسان؟

إن إعلان حقوق الإنسان الصادر بتاريخ (٢٦ آب ١٧٨٩) يتضمن مقدمة وسبع عشرة مادة. وتشير المقدمة إلى أن «جهل حقوق الإنسان أو ازدراءها هي الأسباب الوحيدة للمصائب العامة وفساد الحكومات»[1].

---

(١) الدكتور خضر خضر: مدخل إلى الحريات العامة وحقوق الإنسان، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، د.ت، راجع الصفحة ١٠٨.

أما مواد الإعلان ذاته، فسنذكرها بشكل موجز جداً معتمدين في ذلك على كتاب (مدخل إلى الحريات العامة وحقوق الإنسان)، وذلك قبل الانتقال للحديث عن علاقة الإمام علي عليه السلام بهذه المبادئ كما تراها وكما تتحدث عنها الأقلام المسيحية المعاصرة.

فالمادة الأولى تشير إلى أن كل الناس يولدون ويبقون أحراراً ومتساوين في الحقوق.

والمادة الثانية تشير إلى أن حقوق الإنسان الطبيعية غير القابلة للتقادم هي الحرية والملكية والأمن ومقاومة الاضطهاد والظلم.

والمادة الثالثة تشير إلى أن مبدأ «السيادة» يقوم أساساً في الأمة.

والمادتان الرابعة والخامسة تشيران إلى الحرية وإلى أن تلك الحرية تتحدد بقدرة المرء على القيام بكل ما لا يلحق ضرراً بالآخرين. وأن كل ما لا يحرمه القانون لا يمكن منعه، وبنفس الوقت لا يمكن إجبار أحد على فعل ما لا يأمر به القانون.

والمادة السادسة تشير إلى أن القانون يجب أن يكون تعبيراً عن الإرادة العامة، ولكل المواطنين الحق في أن يساهموا مباشرة أو بواسطة ممثليهم في صياغته، ويجب أن يكون ذلك القانون واحداً للجميع في حالة الحماية والعقاب.

أما المواد السابعة والثامنة والتاسعة فهي مستوحاة من أفكار (فولتير)، وتؤكد هذه المواد الثلاث على عدم جواز اتهام أي إنسان أو توقيفه أو اعتقاله إلا في الحالات المحددة في القانون، وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

والمادة العاشرة تؤكد على منع وتحريم إزعاج أي إنسان بسبب آرائه الدينية.

أما المادة الحادية عشرة فتشير إلى أن حرية الاتصال وإيصال الأفكار والآراء هي واحدة من أغلى حقوق الإنسان.

والمادة الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة تتحدث عن تشكيل قوة عامة من أجل الدفاع وضمان حقوق الإنسان، وعن الضرائب والنفقات العامة ومحاسبة الموظفين عن أعمالهم وإداراتهم.

أما المادة السادسة عشرة فترى أن أيّ مجتمع لا تكون فيه ضمانة حقيقية لحقوق الإنسان ولا فصل محدَّد للسلطات ومسؤولياتها، فهو مجتمع بلا دستور على الإطلاق.

أما المادة السابعة عشرة والأخيرة فتعتبر أن الملكية الخاصة حق مصون ومقدس، وأنه لا يمكن حرمان أحد منها إلا عندما تقتضي الضرورة العامة المثبتة قانونياً ذلك وبصورةٍ واضحة وشرط التعويض العادل والمسبق[1].

ومما لا يخفى على القارئ أن هذه المواد قد تم تعديلها والتوسع فيها لاحقاً، ولكن وتبقى هذه هي الصيغة الأساسية والجوهر العام لوثيقة حقوق الإنسان التي بشرت الثورة الفرنسية بها.

وهنا تحديداً، يحلو لنا الوقوف مع بعض وجوه المقارنة التي أجراها العديد من المفكرين والأدباء المسيحيين حول الشبه بين مبادئ الإمام علي عليه السلام وإعلان وثيقة حقوق الإنسان.

---

(١) راجع المصدر السابق: ص١٠٨-١٠٩.

وعلى سبيل المثال، يرى الأديب جورج جرداق أنه من الصعب جداً على أي مفكر أو باحث أن يجد اختلافاً جوهرياً بين المبادئ العلوية والوثيقة الدولية لحقوق الإنسان وذلك من حيث الروح والجوهر، أما الفوارق في الفروع، ثم في الصيغ، فمحتومة مع اختلاف الزمان. أما الأسس، فليس هناك من أساسٍ في وثيقة حقوق الإنسان التي نشرتها لاحقاً هيئة الأمم المتحدة إلا وتجد له مثيلاً في دستور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم تجد فيه ما يعلو ويزيد.

أما ما يتعلق بالفوارق الأساسية بين دستور علي ووثيقة الحقوق الدولية، فقد لخصها لنا جورج جرداق بعدة نقاط واضحة. وها نحن نذكر نقطتين اثنتين فقط من تلك النقاط.

يقول جرداق:

الفرق الأول: هو أن الوثيقة الدولية لإعلان حقوق الإنسان وضعها ألوف من المفكرين، ينتمون لمعظم دول الأرض، فيما وضع الدستور العلوي عبقري واحد هو علي بن أبي طالب!

والفرق الثاني هو أن علي بن أبي طالب قد سبق واضعي هذه الوثيقة ببضعة عشر قرناً[1].

وبعد أن يذكر الأديب جرداق المبادئ والقيم التي نادى بها الإمام علي عليه السلام من أجل الإنسان ومن أجل رفعته وإرساء دعائم كرامته على الأرض التي جعلها الله مهبطاً لآدم عليه السلام وذريته وتفضيلاً لهم على غيرهم تحقيقاً لقول الله

---

(١) جورج جرداق: علي وسقراط (موسوعة صوت العدالة الإنسانية)، ج٣ ص٦.

سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلنَاهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ وَرَزَقنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلنَاهُم عَلَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقنَا تَفضِيلاً** ﴾[1]، فبعد أن يذكر جرداق فضل علي عليه السلام وأسبقيته في وضع ذلك الدستور الإنساني الخالد، نراه يعلق بطريقته المنطقية المعهودة والبعيدة عن روح العاطفة والانفعالات السلبية على الكثير من المواقف التي عاشها الإمام علي عليه السلام بكل أبعادها الوجدانية والإنسانية حتى مع ألد أعدائه وخصومه. ولكن قبل أن نذكر خطبة هامة من خطب الإمام علي عليه السلام والتي يبين الإمام من خلالها لجموع المسلمين على ماذا يجاهد، ومن أجل من، وما هي شروط الولاية على الناس، وما هي مواصفات القائد أو الإمام الذي يجب أن يعطي الناس هوياتهم الإنسانية، وأن يفتح أمامهم سبل الارتقاء إلى حيث الشعور الكامل بالنضج الوجداني والإيماني من أجل أن تكتمل المعادلة الإنسانية بين الإمام والمأموم.

وها نحن نقتطف جزءاً من خطبةٍ رائعة للإمام علي عليه السلام كما وردت في نهجه العظيم:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك.

اللهم إني أول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة، وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل، فتكون في أموالهم نهمته، ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول (أي المال) فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم، فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع (الحدود)، والمعطل للسنة فيهلك الأمة»[1].

إذاً، وباختصار شديد، نقول إن هذه مجرد صورة موجزة وسريعة لما يعتقده علي أمير المؤمنين عليه السلام قولاً وعملاً. وغني عن القول أيضاً أن هذه الخطبة البليغة الموجودة في (نهج البلاغة) هي واحدة من عشرات الخطب والأقوال التي تساهم في رسم الصورة المناسبة للدستور الإنساني عند علي عليه السلام ، وبالطبع، ستكون لنا وقفات مطولة مع كتاب (نهج البلاغة) الذي يمثل بعضاً من فكر الإمام عليه السلام وعلومه وأدبياته ومواعظه التي شغلت الناس قروناً طويلة وفتنتهم علماً وأدباً وبياناً حتى راح البعض يعتبره - كما سنرى- قبساً إلهياً وصنواً معنوياً وروحياً للقرآن الكريم.

وعلى كل حال، فإن الراصد والدارس لسيرة علي عليه السلام ونهجه في الحياة، يستطيع أن يستخلص الحكم والمواعظ الثمينة التي لا تقدر بثمن وذلك لأن القيمة الإنسانية من تلك الدروس التي سطرها علي عليه السلام هي فوق كل الاعتبارات والمعايير المادية التي تستهوي كل ضعاف النفوس.

فعندما نقرأ المؤلفات الضخمة للمفكر والأديب جورج جرداق حول شخصية الإمام علي عليه السلام الفريدة، ندرك أنه عندما قرأ جرداق سيرة الإمام علي عليه السلام من الألف إلى الياء، وعندما غاص في بحر (النهج) الخالد وفي عبقات

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، مصدر سابق، ج٢ ص٢٢٥.

بلاغته المشبعة بأريج القرآن وعبير البيان المحمدي، وقرن ذلك بالوقائع والحوادث والمواقف التي جسدت معاني الإنسانية الراقية بأبهى صورها، أدرك جرداق عندها أن الإمام علياً عليه السلام كان يريد أن يعلم الناس أن أول هوية حقيقية يجب على الإنسان أن يحملها هي الهوية الإنسانية لأن المرء في نهاية المطاف يولد وهو حامل لهويته الإنسانية قبل أن يكون مسلماً أو مسيحياً أو حتى وثنياً.

وبناءً على ذلك، فقد علق الأستاذ (جرداق) على ما عرفه عن إنسانية علي عليه السلام التي تستحق أن تكون سراجاً نيِّراً يضيء ظلمة البشرية المعذبة وليلها الحالك الطويل بقوله:

«وأدرك علي أن منطق الحنان أرفع من منطق القانون، وأن عطف الإنسان على الإنسان وسائر الكائنات، إنما هو حجة الحياة على الموت، والوجود على العدم»[(١)].

وإذا كان كتاب (الأوبانيشاد) الهندي يذكر حكمة لأحد الحكماء الهنود يقول فيها: «عندما تقتلع حشيشة فإن الكون كله يهتز»[(٢)]، والتي تعني أن هناك تناغماً وتناسقاً في الكون بين جميع المخلوقات والكائنات، وأن الإنسان هو المسؤول الأول والأخير عن استمرار ذلك التناسق والتناغم، فإن الإمام علياً عليه السلام بدوره قد أكد على تلك الحقيقة، وقد أكد الإمام علي عليها- كما

---

(١) جورج جرداق: علي وسقراط (موسوعة صوت العدالة الإنسانية)، ج٣ ص٤٩.

(٢) جون كيهو: العقل الباطن، ترجمة: د. مصطفى دليلة، دار الحوار - اللاذقية، ٢٠٠١، ص١٧.

يقول عنه جرداق- من خلال الإحساس المباشر والعميق بوجود روابط قوية بين كل الكائنات، وأن تلك الروابط والعلائق لا تزول إلا بزوال تلك الكائنات، وأن كل ما ينقص هذه الروابط ينقص من معنى الوجود ذاته. وإذا كان الإنسان أحد هذه الكائنات، فإنه مرتبط بها ارتباط وجود. وقد استدل الأستاذ جرداق على هذه الحقيقة وعلى هذا التفكير الإنساني النبيل عند الإمام علي عليه السلام من خلال الكثير من حكمه وأقواله، مثل قوله في إحدى خطبه: «اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم»[1].

وهذا يعني بلا ريب، أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الإنسان ومفردات وجوده، وأن ارتباط الكائن بشبيهه أجدر وأولى. أما الإنسان الذي يتربع على عرش الوجود في أرض الله فإنه يمثل من خلال ارتباطه بأخيه الإنسان الضرورة الأولى لوجوده الفردي والجماعي.

ولا ريب في أن إنسانية الإمام لم تقتصر في تجلياتها الواضحة على المواقف التي يمكن أن تحدث في تيار مجريات أحداث الحياة اليومية في حالة السلم، بل كانت تلك الإنسانية عند الإمام علي عليه السلام متجلية ومتجسدة بأبهى صورها في الأحداث التي عاصرها عليه السلام في أوقات الحرب وأزمنة المحن.

وبما أن الإمام علياً عليه السلام قد عاصر فترة عصيبة من تاريخ الرسالة الإسلامية، فقد اضطر إلى خوض العديد من المعارك والحروب الحقيقية ضد جيوش النفاق تارة، وضد جيوش الضلال تارة أخرى. ولكن، وعلى الرغم من المواقف العصيبة والحرجة التي مرَّ الإمام عليه السلام بها في تلك الحروب،

---

(١) جورج جرداق: علي وسقراط ص٥٦.

وبالرغم من التصرفات والسلوكيات اللا أخلاقية واللا إنسانية التي عانى منها الإمام عليه السلام من قبل المعسكر المضاد له، إلا أن إنسانية الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أبت عليه أن يقابل قادة وأفراد المعسكر الآخر بالمثل. فحكومة الإمام علي عليه السلام تقوم على الإيمان بأن نور الكلمة وسلطة الحروف أقوى وأمضى من بريق الرماح وصليل السيوف.

وقد ركز على هذه الحقيقة الثابتة الكثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين في العصر الحديث. وها هو المفكر والأديب المسيحي (روكس بن زايد العزيزي) يتحدث عن صفحة من صفحات إنسانية ولطف وحلم الإمام علي عليه السلام في حربه مع أهل الشام، وكيف أن الإمام عليه السلام كان يرفض مقابلة الإساءة بالإساءة، واللا إنسانية بلا إنسانية مماثلة. ويقول الأستاذ (العزيزي) مؤكداً على ذلك: «حقاً إن كل حلم وكل لطف وكل صفح يتصاغر عند حلمه يوم ملك عليه أهل الشام الشريعة (مورد الماء) ومنعوه وأصحابه من الماء، ثم ملكها عليهم وأشار عليه أصحابه أن يمنعهم واحدة بواحدة، فأجاب: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم»[١].

ولو أردنا أن نستنطق الإمام نفسه عن هذه الحقيقة وعن مفهوم المواجهة العسكرية مع (الآخر)، وعن خروجه إلى الحرب، فهل كان عليه السلام يخرج إلى الحرب وهو راغب بها أم أن الحرب كانت بالنسبة إليه الخيار الوحيد والأخير؟؟!!

دعونا، إذاً، نستمع إليه عليه السلام وهو يتحدث عن ذلك عندما استبطأ أصحابه

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٢٩.

إذنه لهم في القتال بصفين:

«أما قولكم (أكل ذلك كراهية الموت)؟ فو الله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي. وأما قولكم (شكاً في أهل الشام)؟ فو الله ما دفعت الحرب يوماً، إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة، فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها»[١].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام يضع الحرب على جدول أعماله كخيار أخير ووحيد، وذلك بعد فقدان المعسكر الآخر للاهتداء والعودة إلى جادة الحق والصواب ورفضه التخلي عن سياسة الكيد والعداء.

وعلى الرغم من أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن يشق له غبار في الحروب والمعارك، إلا أن شعوره بالنصر بعد القتال كان أكثر ألماً ووجعاً من شعور مناوئيه بالهزيمة والإخفاق. وقد عزى روكس بن زايد العزيزي هذه الحقيقة إلى كون أن الأبطال الشجعان والبواسل المتسامحين هم أقرب الناس إلى الإنسانية لما ركب في طباعهم من الشمم والتسامي. ثم أردف (العزيزي) كلامه قائلاً عن علي عليه السلام:

«حقاً إن إيصاءه لجيشه أن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، وعدم منعه الماء لعسكر معاوية يوم صفين لما استولى عليه بعد ما منعوه منه أعظم دليل على الإنسانية التي لا تكلف فيها»[٢].

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب: نهج البلاغة، ج١ ص١٠٠.

(٢) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٣١.

وإذا كان هذا هو حال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام مع ألد أعدائه وخصومه، فما هو موقفه وما هي وصيته الأخيرة بشأن أعدائه الخوارج الذين انشقوا عن جيشه وانقلبوا ضده وتحولوا إلى خصوم مناوئين؟

يقول الإمام علي عليه السلام بشأنهم، بعد أن أجبروه على خوض حرب دامية أدت إلى تمزيقهم وتفريقهم: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»(١).

ولذلك، نرى من الحكمة والصواب أن نضم أصواتنا إلى صوت روكس العزيزي عندما راح يعدد الكثير من مواقف الإمام علي عليه السلام الإنسانية تجاه أعدائه وخصومه، وقد خرج بالنتيجة التالية قائلاً: «فرجل عرف بالشجاعة والبطولة تبلغ فيه السماحة النفسية والحلم إلى هذه الدرجة، بعد أن مكنه الله من خصومه، لا بد أن يكون طرازاً خاصاً من الرجال»(٢).

ولكن، أي نوع من الرجال هو ذاك الذي قصده روكس العزيزي؟

هل هو الرجل الذي يُقاس بالعظماء أم أن العظماء هم الذين يُقاسون به؟

لا شك في أن الجواب واضح عند الأديب الباحث روكس العزيزي، ولكن ماذا لو أردنا أن نحصل على جواب السؤال المطروح عند غير السيد العزيزي؟

فلو أخذنا على سبيل المثال الأديب الشاعر (خليل فرحات) وما قاله عن شخصية الإمام علي عليه السلام وذلك من خلال مقارنته مع شخصية عظيمة يدين

---

(١) الإمام علي: نهج البلاغة، ج١ ص١٠٣.

(٢) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٣٠.

الملايين من الناس بمبادئها وتعاليمها، فأين سيكون موقع شخصية الإمام علي عليه السلام من تلك الشخصية الرسالية العظيمة؟

إننا سنعرف موقع شخصية الإمام علي عليه السلام عندما نعرف أن المقارنة قائمة بين الإمام علي عليه السلام من جهة وبين السيد المسيح عليه السلام من جهة أخرى، وعندئذٍ سنعرف أين سيضع الأديب المسيحي (خليل فرحات) شخصية الإمام علي عليه السلام.

فلنستمع إليه إذاً، وهو يجري تلك المقارنة، من وجهة نظر إنسانية، بين الإمام علي عليه السلام والسيد المسيح عليه السلام الذي يمثل كل قيم الإنسانية والمحبة والتسامح.

يقول (فرحات) مقارناً بينهما عليهما السلام:

وقيلَ مسيحُ الحب ضاق بحبّه ... وَكَرَّ على الرائين بالسوط والزَّجرِ
وَصَاحَ: دعوا بَيتي... دعوني فإنما ... سواكم أنا، والبيتُ شردتم قِطري
لقيد شيدَ بيتي للتعبُّد والهدى ... فحولّتموه للتلصُّص والفجر
وكَمْ داسَ أرزاقاً وعَفّر أوجُهاً ... وَأغرقَ عبَّادَ الدوانقَ بالسُّخْرِ

إذاً، حتى السيد المسيح عليه السلام، المعروف بشدة تسامحه وكثرة محبته، يمكن أن يخرج عن طوره وأن يُلقي بالمحبة والتسامح جانباً أمام الخطأة والعصاة وأمام أولئك الذين يحاولون أن ينتقصوا من قدره وقدر رسالته.

هذا ما قاله، باختصار، الأديب الشاعر خليل فرحات عن السيد المسيح عليه السلام، ولذلك دعونا الآن نقف مع نفس هذا الأديب المسيحي المعاصر لنرى كيف رسم بكلماته الشعرية صورة الإمام علي عليه السلام.

وها هو يخاطب علي عليه السلام بقوله له:

وأنتَ وسعتَ الناسَ دوماً برحمةٍ ... وقد أمطروك الوِتر في أثر الوترِ
عَلوتَ وكنتَ النفس أكبر قادرٍ ... على قهرها، تلك المليئة بالكبر
وَقصَّرَ عقلُ الناسِ عن قهر مَيلِهم ... فبوركت قَهَّاراً على النفسِ يستجري[1]

وكعادتي، لن أعلق على نتائج مقارنة كهذه، بل سأترك استخلاص النتائج للقارئ الكريم. ولكن أقول، إذا كان الأديب والشاعر المسيحي خليل فرحات قد رأى أن الإنسانية عند الإمام علي عليه السلام قد فاقت إنسانية السيد المسيح ذاته، فإن الأديب والفيلسوف المسيحي (جبران خليل جبران) لم يكن ليستغرب أحكاماً كهذه، بل لم يكن ليقبل أن يصنف الإمام علي عليه السلام إلا مع الرسل والأنبياء.

ولذلك، فعندما يتحدث الفيلسوف (جبران) عن الإمام علي عليه السلام وعن جوهر ذات علي وعن إنسانيته التي استطاعت أن تكتنف جراح كل المعذبين وتنهدات كل المظلومين والمحرومين- وهو عليه السلام الذي فقد حياته من أجلهم ومن أجل أن تشرق الأرض بنور ربها عدلاً وحرية ومساواة- فعندما يتحدث (جبران) عن كل ذلك، نراه يقول بحسرة وأسف:

«مات (علي) قبل أن يبلّغ العالم رسالته كاملة وافية. غير أنني أتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض.

مات (علي) شأن جميع الأنبياء والباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس

---

(١) خليل فرحات: في محراب علي، مصدر سابق، ص٢٥.

ببلدهم وإلى قوم ليس بقومهم، وفي زمن ليس بزمنهم. ولكن لربك شأن في ذلك وهو أعلم»[١].

إذاً، فعلي عليه السلام عند جبران الفيلسوف ليس إماماً للمسلمين فحسب، بل هو أيضاً رسول وصاحب رسالة ككل الرسل السابقين، وهو، فوق ذلك، ليس حكراً في رسالته الإنسانية على بلد دون بلد أو وطن دون وطن، بل إن رسالته الإنسانية هي رسالة عالمية شاملة لكل بلد ولكل وطن ولكل إنسان أينما كان، وإلا ماذا قصد جبران الفيلسوف بقوله السابق «مات (علي) قبل أن يبلغ العالم رسالته»؟

ولا ريب في أن رسالة الإمام علي عليه السلام التي تكلم عنها جبران، هي تلك الرسالة التي تحدث عنها الإمام علي عليه السلام طوال حياته، وهي تلك الرسالة التي كلمنا الإمام علي عن أحد جوانبها الهامة عند ما آلمه أن يرى الموت يرفرف بجناحيه الأسودين فوق شفاه الأطفال الجياع وصدور الفقراء الذين صودرت منهم لقمة عيشهم وانتزعت تلك اللقمة من أفواههم بمخالب الأغنياء والمترفين، أولئك الذين يمثلون بطانة الحاكم ودعائم سلطانه وأوتاد عرشه.

إن أحد جوانب تلك الرسالة التي تحدث جبران عنها هي تلك الصرخة المدوية التي أطلقها الإمام علي عليه السلام مستنكراً الواقع المرير بقوله:

«اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص١١.

بأذنه عن سمع المواعظ وقراً. أين خياركم وصلحاؤكم؟ أين أحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتنزهون في مذاهبهم؟.... فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ظهر الفساد فلا منكر مغيِّر، ولا زاجر مزدجر، أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه، وتكونوا أعز أوليائه عنده؟ هيهات لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به»[1].

إن هذه الصرخة العلوية، كما ذكرنا سابقاً، هي إحدى جوانب الرسالة الإنسانية التي حدثنا عنها الفيلسوف (جبران) بعمقٍ وصدق. إنها أحد جوانب الرسالة التي أراد الإمام علي عليه السلام أن يحمل أعباءها ويبلغها كاملة للناس في كل مكان دون تمييز بين قوم وقوم ودون تفريق بين بلد وآخر. فرسالة علي عليه السلام هي رسالة قائمة على دعوة الإنسان إلى إدراك هويته الإنسانية من جهة، وعلى دعوة الإنسان إلى محبة أخيه الإنسان من جهة أخرى، فالكل عند علي عليه السلام أبناء آدم الترابي، وكلهم أخوة برابطة التراب الذي ورث فاجعة هابيل الكبرى، تلك الفاجعة الأليمة التي كانت الفاتحة للمصائب التي واجهها كل الرسل والأنبياء والأوصياء وصولاً إلى المحن والمصائب التي واجهها الإمام علي عليه السلام في عصره، ومن ثم وصولاً إلى فاجعة كربلاء العظيمة التي أكدت للناس، من خلال ما أظهره الإمام الحسين عليه السلام من صبر وإيمان وثبات على المبادئ التي ورثها عن أبيه عليه السلام وجده صلى الله عليه وآله وسلم، أنه هو أيضاً- كما يقول عنه المفكر أنطون

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، ج٢ ص٢٢٣.

بارا- في عداد الرسل والنبيين[١].

وإذا كان المشروع الإنساني والحضاري للإمام علي عليه السلام قد وجد صعوبة في اختراق عقول بعض الناس في زمنه بحيث لم يستطع البعض، وقتذاك، أن يفهموا أبعاد ذلك المشروع ولم يستطيعوا أن يسبروا أعماقه انطلاقاً من أن الإمام علي عليه السلام كان سابقاً ومتفوقاً على عصره وزمنه، فإن الكثير من ذوي البصائر النيرة والضمائر الحرة الخيّرة قد استطاعوا لاحقاً أن يدرسوا ويكتشفوا الكثير من الحقائق عن ذلك المشروع الإنساني العظيم الذي أراد الإمام علي عليه السلام تحقيقه على مستوى المجتمع الإنساني الشامل، ثم ليتجاوز بإنسانيته السامية الإنسان ذاته حتى يصل إلى مرحلة الرفق بكل شيء ذي روح دون الإنسان مرتبة حتى أن الكثير من الروايات والأحاديث قد وردت عن الإمام علي عليه السلام تنص على الرفق بالحيوانات، ومنع قتلها إلا عند الضرورة، وخير مثال على ذلك، قوله عليه السلام: «كل طير استجار ببيتك فأجره»[٢].

وقوله في حديث آخر عن حرمة أذى الحيوانات التي سخرها الله للإنسان ومنع ضربها على وجوهها: «لا تضربوا الوجوه، ولا تلعنوها...»[٣]، ولا أريد بالطبع أن أستفيض في ذكر الأحاديث العديدة التي وردت عن الإمام علي عليه السلام

(١) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، ص١١٧.

(٢) السيد محمد الحسيني الشيرازي: الصياغة الجديدة، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت، ط١٩٩٢/٣، ص٣٢٧.

(٣) السيد محمد الحسيني الشيرازي: اللاعنف في الإسلام، مؤسسة المجتبى - بيروت، ط٢٠٠٢/١، ص١٨١.

بشأن الرفق بالحيوانات المسخرة لنا، والتي تمثل في حقيقتها صفحة مشرقة من صفحات كتاب الإنسانية عند علي عليه السلام، ولكن أريد أن انتقل بسرعة إلى عبارة موجزة وواضحة سطرها الأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) عن المشروع الإنساني الكبير الذي أراد الإمام علي عليه السلام الانطلاق به لتحقيقه كلياً بدءاً من مجتمعه المحمدي الخاص وانتهاءً بالمجتمع الآدمي العام.

والعبارة الموجزة التي نود ذكرها هنا هي قول الأستاذ: الأديب (عبد المسيح الإنطاكي) عن الإمام علي عليه السلام في نهضته الإنسانية: «إنه كان المثال الأجلى للاشتراكية المحمودة التي بثها الإسلام»[1].

وكيف لا يكون الإمام علي عليه السلام كذلك وهو الذي قال المقولات الخالدة والتي أصبحت فيما بعد دستوراً ووقوداً لكل الأحرار الثائرين على الظلم والقمع والإرهاب في ظل الحكومات الجائرة!!!

ألم يبد الإمام عليه السلام تعجبه من كل من لا يجد القوت في بيته ولا يخرج على ظالميه ومانعيه شاهراً سيفه؟!!

ألم يؤكد على أنه ما جاع فقير إلا بما متع به غني!!

ألم يعلمنا سيدنا وإمامنا وإمام كل المظلومين والمستضعفين في الأرض أن النعمة الموفورة لا بدّ وأن يكون إلى جانبها حق مضيع!!

ألم يعلمنا الإمام علي عليه السلام أننا لا نغص بلقمة قط إلا لأن غيرنا يكون أولى بها منّا؟!!

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق، ص٧٠٨.

ألم يعطنا قبساً من حكمته القرآنية السماوية الخالدة عندما بيّن لنا أن كل قصرٍ يبنى ستكثر من حوله الأكواخ؟!!

لقد كانت هذه الدروس التي أعطانا إياها الإمام علي عليه السلام من خلال الكثير من خطبه وأقواله الخالدة، ومن خلال مواقفه الإنسانية التي تمثل صوت الله في الضمير الإنساني، هي في حقيقتها الوثيقة أو الدستور الذي وسع كل مفردات الوجود.

إن هذا الدستور العلوي العميق بجذوره في التربة المحمدية، والباسق بأغصانه في أطباق المعارف السماوية، هو الدستور الذي رأى فيه الأستاذ (جوزيف الهاشم) صورة الدستور السماوي العظيم الذي يتسامى على كل دساتير الوجود الأرضية ذاتها. وما كان لدستور علي عليه السلام أن يصل إلى ما وصل إليه من سمو ورفعةٍ وإنسانية راقية إلا لأن علياً عليه السلام جعل إنسانيته تمتد في أكثر من اتجاه.

فالاتجاه الأول هو الاتجاه الأفقي، أي إن إنسانيته امتدت واتسعت لكل شيء بدءاً من الإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان وانتهاءً بالحيوان وحتى بالمياه وبالنبات والأشجار، ومن ثم بالبيئة عموماً.

أما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه العمودي، إذ إن الإمام علي عليه السلام عمل على ارتقاء سلم الإنسانية صعوداً نحو المقدس المطلق حيث أراد الإمام عليه السلام أن يعلم الناس من خلال دستوره الإنساني أن المرء الذي يجاهد نوازع النفس ويجعل رضى الله سبحانه وتعالى قبلةً له في كل حركة من حركاته وفي كل سكنة من سكناته، ويجعل من قلبه أيضاً حرماً لله جل وعلا ومن جوارحه خدماً له

سبحانه وتعالى في الإقبال على ما أمر الله به وفي الإدبار عما نهى عنه، وعندئذٍ سيصل بلا شك إلى مقام الخلافة الإلهية في الأرض، فيصبح الإنسان مرآة لصفات الله، ويغدو- كما في الحديث القدسي- سامعاً بالله وباصراً به ومتحركاً ومحركاً به، وهو مصداق قوله سبحانه وتعالى في حديثه: «ما يتقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنوافل حتى... أحبه، فإذا ما أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[1].

وقد يستغرب القارئ العزيز من محتوى هذا الحديث القدسي المذكور على الرغم من اتفاق كافة الطوائف الإسلامية على صحته، ولكن قد يزول هذا الاستغراب تماماً عندما نعرف أن العلاقة بين الله وبين خليفته الإنسان المؤمن هي تلك العلاقة التي وصفها سيدنا الإمام جعفر الصادق بقوله: «إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[2].

ويكفي أن نقول مؤكدين على عمق العلاقة العمودية بين الإنسان المؤمن والله هو أن الله قد تكرم علينا عندما قبل أن يذكر ويصف الإنسان التقي والصالح بـ(المؤمن) في الوقت الذي أعلمنا الله فيه أن (المؤمن) اسم من أسمائه الحسنى!!!

وأعود هنا ثانية إلى رأي الأستاذ الأديب جوزيف الهاشم بعد أن توقفنا

(١) ميرزا جواد الملكي التبريزي: السير إلى الله، ترجمة: ياسين الموسوي، دار التعارف - بيروت، ١٩٩٠، ص١١٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١١٦.

قليلاً مع العلاقة التي يريدها علي عليه السلام أن تكون قائمة بين الإنسان وربه. أعود ثانية إلى رأي الأستاذ الهاشم لأقول مؤكداً مرة أخرى إن معرفة الأستاذ (الهاشم) بنظرية علي عليه السلام الإنسانية وفكره الإبداعي العام جعله يرى فيه صورة الدستور السماوي الخالد الذي تزول أمامه كل الدساتير والوثائق والتوصيات الأرضية الأخرى.

ويمكننا أن نسمع الأستاذ الهاشم هنا وهو يلخص وجهة نظره عن ذلك قائلاً عن الإمام عليه السلام:

كأن دونك دستور الوجود، فما ... زلت شرائعه في دنيويّتهِ
هو الفتى، نبويٌّ العبق، محتدهُ ... (كالملح في الأرض)، فاذكر بعض قصّتهِ

وكي يؤكد لنا الأستاذ الأديب جوزيف الهاشم أن دستور علي عليه السلام ليس فقط لجيل دون جيل، وليس لأتباع دين دون أتباع دين آخر، بل هو للإنسان عموماً أينما كان وكائناً من كان، فقد أضاف قائلاً على ما سبق:

ليس الإمام فتى الإسلام وحدهم ... وليس وقفاً على أبناء شيعته
من كان بالشِّيمِ الغراء معتصماً ... بالبر، بالرفق، بالتقوى، بخلّته
بالنبل، بالحق، بالأخلاق مكرمة ... وبالشموخ فهذا ابن بيعتهِ[1]

وهذا يعني بالنسبة للأديب والشاعر جوزيف الهاشم أنه ما على الذي يريد أن يكون إنساناً حقيقياً إلا أن يتخذ من أمير المؤمنين علي عليه السلام إماماً له وأن يسرع إلى مبايعته على ذلك حتى ولو كان ذلك الشخص مسيحياً أو غير

---

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص٣٩-٤٠.

مسيحي.

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، ألا يذكرنا قول الأستاذ (الهاشم) عن إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام وسيادته في كل المجالات وفي شتى الميادين وتربعه على عرش الإمامة الإنسانية الشاملة بقول الأديب والشاعر (بولس سلامة) عندما تحدث عن كمال الإمام علي عليه السلام وارتقائه إلى عالم الأنوار السماوية الملائكية وإلى تجاوزه حدود وحواجز الأمكنة والأزمنة والأديان والأوطان، فقال واصفاً الإمام علي عليه السلام:

يا إلهَ الأكوان أشفق عَلَيّا ... ولا تمتني غبَّ العذاب شقيّا
مصدر الحق لم أقل غير حق ... أنت أجريته على شفتيّا
أنتَ ألهمتني مدح عليٍّ ... فهمى غيدقُ البيان عليّا
هو فخر التاريخ لا فخر شعبٍ ... يدّعيه ويصطفيه وليّا
لا تقل شيعةٌ هواة عليٍّ ... إن كل منصفٍ شيعيّا[1]

هذا هو الإمام علي عليه السلام، وهذه هي صورته الإنسانية النبيلة الجلية والمتجلية نوراً وجمالاً وكمالاً كما يراها الأديب المسيحي (سلامة) وغيره من أرباب الفكر والأدب المسيحي المعاصر. وبالطبع، فإن كلام المسيحيين عن هذه الصورة المتألقة لن يتوقف عند هذا الحد، بل يمكننا أن نتابعه فور الانتهاء من الاستراحة القصيرة التي سنمضيها مع مفكر معاصر من مفكري إخواننا السنة المعاصرين لنرى موقفه من تلك الشخصية العلوية الخالدة خلود القرآن محاولين الوقوف على معرفة شيء من عظمتها وسمو مكانتها.

---

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص٣٠٦-٣٠٧.

فالشخصية التي سنتوقف عندها قليلاً هي شخصية المفكر والأديب، الدكتور (مصطفى الرافعي). فالدكتور الرافعي حاصل على شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون وعلى دكتوراه في الحقوق من جامعة باريس عام (١٩٥٠). وقد مارس العديد من المناصب الشرعية والقانونية في لبنان، بالإضافة إلى عملية التدريس في العديد من المعاهد والجامعات.

وما دفعني للوقوف معه هنا في هذه الاستراحة القصيرة هو أن ظروفي الدراسية في لبنان قد جمعتني به مرات كثيرة، فقد تعرفت عليه عن كثب في أواخر عام (١٩٩٣) في معهد الرسول الأكرم ﷺ للعلوم الإسلامية في بيروت، وقد كنت وقتها طالباً للعلوم الإسلامية في ذلك المعهد، وقد كان الدكتور (الرافعي) مدرساً لمادة تاريخ التشريع الإسلامي.

وقد نشأت بيننا، نحن الطلاب، وبين الدكتور الرافعي علاقة أبوية حميمة إذ إنه لم يكن يضن علينا بأي جواب على أي سؤال محرج يتناول قضايا الفروق بين المذاهب الإسلامية، أو حتى تقييم بعض الشخصيات الإسلامية المرموقة من أصحاب الرسول الكريم ﷺ والتي يعتبر البعض أن مجرد الاقتراب منها شيء محرم وغير وارد على الإطلاق.

وبعد فترة وجيزة من الزمن نشأت بيني وبينه علاقة ودية خاصة، وربما اختصني بالمودة أكثر من غيري لأنه عرف أنني أنا الوحيد بين الطلاب الذي كنت أحمل شهادة جامعية وشهادة أخرى ما بعد جامعية، وربما أيضاً لأنه عرف من خلال الأحاديث الثنائية المتبادلة أنني قد تركت بلدي وقصدت بيروت بهدف طلب العلم والمعرفة فقط وليس لشيء آخر، كالعمل مثلاً كما كان يفعل

البعض أحياناً، وربما أيضاً لأسباب أخرى تتعلق بطبائع النفوس وهذا يكون من الأسباب التي يصعب شرحها أو تفسيرها.

ويبقى المهم هو أن هذه العلاقة قد نشأت، وقد نشأ معها وفي أحضانها الكثير من الأحاديث الثقافية المتنوعة والتي كانت تحمل أحياناً طابع الخصوصية نظراً لحساسية المسائل المطروحة في النقاش.

وما يهمنا من تلك النقاط التي كنت قد طرحتها عليه هي تلك النقطة التي تتعلق بشخصية الإمام علي عليه السلام، وكيف ينظر هو شخصياً إليها من خلال ما عرفه وقرأه عنها.

فكان جوابه الدائم، والذي كرره أمامي مرات عديدة، هو أن الإمام علياً عليه السلام عبارة عن مدرسة فكرية وموسوعة معرفية متكاملة لا يمكن أن ترقى إلى مستواها أية مدرسة أخرى وذلك لسبب واحدٍ وهو أن مدرسة علي عليه السلام هي مدرسة محمد صلى الله عليه وآله ذاتها الموحى بها من السماء. وكان كلما كرر الدكتور الرافعي هذا العبارة أمامي، كنت أذكر قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

«أوصي من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله عز وجل»[1]. لقد كنت أشعر دائماً أن هناك علاقة وطيدة في المعنى بين قول الدكتور الرافعي وبين حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله.

وكان الدكتور الرافعي، بنفس الوقت أيضاً، يؤكد في أحاديثه لنا على

(١) الحافظ الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، مصدر سابق، ص٧٤.

ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية المتعددة. وعندما سألته في إحدى المرات عن الدور الذي لعبه هو شخصياً في هذا المجال وفي تفعيل تلك الفكرة عملياً، ابتسم ابتسامته الرقيقة المعهودة، وقال لي بصوته الهادئ: سأختصر جوابي إليك من خلال إهدائي نسخة من كتابي (إسلامنا) إليك، فهو كتاب قد قمت بكتابته بكل روية من أجل التوفيق بين السنة والشيعة، وقد تمت ترجمته في لندن إلى اللغة الإنكليزية، وهو يترجم حالياً إلى اللغة الفارسية واللغة الأوردية[1].

وكنوع من التأكيد على محاولاته الجادة والصادقة في عملية التقريب بين المذاهب الإسلامية، كان يقول لي دائماً:

انظر يا بني، أنا رجل سني أقوم بتدريس مادة تاريخ التشريع الإسلامي في هذا المعهد الشيعي الذي يغص بعشرات المدرسين من علماء الشيعة من لبنان والعراق وإيران، ولا يمكنك أن تتصور كم أنا فخور بذلك. فكما أنتم، تلامذتي الشيعة، تتقبلون مني أفكاري ووجهات نظري وأنا في موضع المعلم السني لكم، كذلك الحال بالنسبة لي كطالب علمٍ سني أتقبل بكل فخر واعتزاز وأنهل بكل ثقة الكثير من علومي ومعارفي من إمام الأمة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) من نصّ رسالة كتابية بعث بها إليّ فضيلة الدكتور مصطفى الرافعي بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٢٠ وهي رسالة قد وجهها إليّ الدكتور الرافعي كردٍّ وجوابٍ على طلب شخصي مني لإعطائي معلومات مفصلة عن تاريخه العلمي وعن مؤلفاته الفكرية الكثيرة، وهناك ملحق لهذه الرسالة يحمل عنوان (حول الثقافة) وهذا الملحق عبارة عن مجموعة من الأفكار للدكتور الرافعي عن الثقافة عموماً، وهذا الملحق بدوره، إجابة على عدّة أسئلة كنت قد وجّهتها كتابياً الى فضيلته في بيروت بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٧.

يا بني أنا سني وأبي سني وجدي سني ولكن إمامي هو علي بن أبي طالب.

إن هذه الكلمات الرقيقة والشفافة للدكتور الرافعي عن الإمام علي عليه السلام لا تزال وستبقى تملأ أذني وقلبي ما حييت أبداً. إنها كلمات صدرت عن قلب نقي سليم يرى في الإمام علي عليه السلام صورة محمد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، رسول الإنسانية، بل يرى فيه صورة الإمام الذي يجب على كل الأمة أن تقتدي به كإمام لها وكربان ماهر قادر على أن يقودها إلى شاطئ الأمان والإيمان.

ولا ريب في أن الدكتور الرافعي محق ومصيب في هذه النظرة تجاه شخصية الإمام علي عليه السلام، أمير المؤمنين وإمام المسلمين.

ولم لا يكون محقاً في نظرته تلك وهو يعلم أن علياً- وباعتراف الصحابة- هو إمام الأمة؟!!

أوليس هو عليه السلام كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنا وعليّ من شجرة واحدة والناس من أشجار شتى»؟[1] فدل بذلك على أن حكمه حكم رسول الله، وعدله عدل الرسول، وقوله قول الرسول أيضاً، لأنه في محصلة الأمر هو الوصي وصنو النبي صلى الله عليه وآله.

ثم، أليس هو أيضاً كما وصفه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بقوله: «علي مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»!!![2] وهل يؤدي عن رسول السماء

(١) الحافظ المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص٤٨.

(٢) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، ص٢٢٢.

إلا من كان، حقيقة، من أهل السماء؟!

ولذلك، فعندما يكون الإمام علي عليه السلام بهذه المكانة عند رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى، فلا بد وأن يكون هذا الرسول الذي لا ينطق عن الهوى قد أخبرنا عن مكانة علي عليه السلام أيضاً عند رب العالمين سبحانه وتعالى. وبالفعل، فإن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد أخبرنا في الكثير من أحاديثه الشريفة عن مكانة الإمام علي عليه السلام عند الله سبحانه وتعالى. ويكفي أن نذكر حديثاً واحداً من تلك الأحاديث النبوية الشريفة حتى ندرك شيئاً من عظمة علي عليه السلام عند رب العالمين. فعندما يقول الرسول الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله: «عنوان صحيفة المؤمن حب علي بن أبي طالب»[1]، هذا يعني أن الوصول إلى الإيمان بالله وكتبه ورسله، وأن الدخول إلى جنانه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحب وموالاة الإمام علي عليه السلام. وبتعبيرٍ آخر، إن الوصول إلى مرضاة الله الكاملة لن يكون ما لم يكن الإيمان مؤسساً وقائماً على موالاة وحب علي بن أبي طالب عليه السلام.

وبعد هذه الاستراحة القصيرة مع الأستاذ الدكتور مصطفى الرافعي، نعود ثانية إلى ما ذكره المفكرون المسيحيون عن الظاهرة غير الطبيعية وفوق الإنسانية لشخصية الإمام علي عليه السلام.

ولو توقفنا قليلاً مع المفكر والباحث الفرنسي (يان ريشار) لنتعرف على موقفه من مبادئ الإمام علي وتعاليمه النبيلة المجبولة في شخصيته الإنسانية المتفردة الصفات والمؤهلات، فسنلاحظ أن السيد (ريشار) يركز على الجانب الإنساني الفعال عند علي عليه السلام، والذي برز جلياً طوال فترة خلافته التي

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٤٣.

كانت تعاني من كثرة المؤامرات والدسائس. وبالرغم من كل تلك الدسائس والمؤامرات التي حاولت أن تفت في عضد الإمام عليه السلام وأن تثنيه عن سياسته الإنسانية العادلة مع الجميع، والتي كانت مغايرة لسياسة أولئك الذين سبقوه في الحكم، إلا أنه عليه السلام بقي النموذج الأمثل للحكومة التي أرادها الله ورسوله صلى الله عليه وآله على الأرض.

وعن هذه النقطة بالتحديد، يقول (يان ريشار): «والحق إن المسلمين، السليمي النية، يتخذون من علي نموذجاً، كما لو أنه، حتى في القرن العشرين، لا يزال أمثل صورة للنظام الإسلامي السياسي»[١].

وليس هذا فحسب، بل نرى أن هناك تعاطفاً وتقارباً كبيراً بين وجهات نظر (يان ريشار) ووجهات نظر المفكر والباحث الدكتور (علي شريعتي)، ذلك المفكر الذي لم يُخف (ريشار) إعجابه الشديد به وبأفكاره، ونستطيع أن نلمس ذلك التعاطف والتقارب في وجهات النظر بينهما، عندما نقرأ ما أورده الباحث (ريشار) بشأن أهداف وغايات علي، (الإنسان)، وعلي، (الحاكم)، إذ إنه عليه السلام: «شق طريقاً وأنشأ نموذجاً خالداً للإنسانية، وقد أظهر دوماً لكل إنسان، أنه إنسان نموذجي.... وهكذا نرى نحن أنه كل يوم، يزداد حياة، وأننا بحاجة إليه دوماً، وأن القلوب التي تهتز للإنسانية، والحرية، والعدالة والنقاء... تتجه أكثر فأكثر إليه، وإلى إمامته»[٢].

ويرى (ريشار) أيضاً أن رسالة علي عليه السلام خلال فترة حكمه، تمثلت في

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ص٣٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٤٠.

التصدي الدائم للظلم والطغيان ولعصابة الأمويين الذين أرادوا الاستئثار بكل شيء دون سواهم، والنظر إلى كل من يخالفهم الرأي أو من يعارضهم في سياستهم على أنه كافر ومارق، والنظر إلى كل من هو غير عربي نظرتهم إلى مواطنٍ من الدرجة الثانية أو الثالثة.

ويؤكد الباحث (ريشار) على أن نهج الإمام علي ورسالته الأخلاقية النبيلة قد استمر بعده من خلال ابنه الإمام الحسين عليه السلام ، ولذلك، فإن (ريشار) يرى أن: «الإمام علي والإمام الحسين حاربا الظلم والعنف لدى الأمويين، الذين كانوا ينسون الفضائل الاجتماعية والأخلاقية للرسالة الإسلامية، ويمارسون التحيُّز والمحاباة للأقرباء والأنصار، ممارسة شاملة»[1].

وغني عن القول إن المفكر الفرنسي (يان ريشار) ليس بالمفكر الوحيد الذي يرى في نهج الإمام علي عليه السلام النهج الإنساني المتكامل والمتجه نحو بناء الشخصية الإسلامية الواعية والمتوازنة من جهة، والمتجه بقوة وثبات إلى تقويض وهدم أركان الظلم ودعائم الطغيان من جهة ثانية، بل نرى أيضاً أن المستشرق الهولندي المعاصر (فان فلوتن) يسير في تفسيره للعديد من الحوادث التي شهدتها الساحة الإسلامية في نفس المسار الذي سلكه وانتهجه (يان ريشار) في تفسيره لتلك الأحداث.

ويورد المستشرق (فلوتن) في كتابه (السيطرة العربية) عبارة هامة للإمام علي عليه السلام يبين الإمام من خلالها المكانة الخصيصة لأهل البيت عليهم السلام الذين يحملون نفس الأفكار والمبادئ وكأن كل واحد منهم نسخة مطابقة لشخصية

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٦٥.

الإمام علي عليه السلام بكل تعاليمها ومبادئها وقيمها. والعبارة التي يوردها المستشرق (فلوتن) للإمام علي عليه السلام هي قوله: «ألا وإنا أهل البيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا. فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، معنا راية الحق، ومن يتبعها لحق ومن تأخر عنها غرق»[1].

وعندما يورد المستشرق (فلوتن) هذه العبارة للإمام علي عليه السلام، فإنه يوردها بعد أن يستشهد بالعديد من المواقف التي أثبت الأمويون من خلالها أنهم الآفة الكبرى التي لحقت بالإسلام، وأنهم السبب المباشر في تشويه مبادئه وتعاليمه الروحية، وبالتالي فإن الوقوف في وجه طغيانهم هم بحد ذاته رسالة إنسانية تستدعي من كل عشاق الحق والخير والفضيلة السعي لتحقيق تلك الرسالة وتثبيت أركانها.

وعلى سبيل المثال يذكر (فلوتن) كيف أن الحكومة الأموية قد نكلت وطردت موالي البصرة والمناطق المجاورة لها، حتى تجمعوا في أحد المعسكرات معبرين عن مأساتهم بترديد ندائهم: (وامحمّداه) حيث لم يعرفوا آنذاك أي طريق يفضون إليه، وكيف أن هؤلاء قد لعبوا لاحقاً دوراً مهماً في إزكاء نار الثورة على السلطة الأموية الغاشمة، وكان من أقوال أحد قادتهم في إحدى خطبه الملتهبة حماساً وتحريضاً على المقاومة ضد السلطة وأعوانها، قوله الجريء: «فوالله ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور منهم

---

(١) فان فلوتن: مدخل إلى كتاب السيطرة العربية. وهذا الكتاب مطبوع بشكل ملحق مع كتاب: الدولة الأموية والمعارضة، تأليف الدكتور إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت، ١٩٨٥، ص١٣١.

في الحكم. فليكن لهم البدار قاتلوهم ولا تأثموا من قتلهم بنية ويقين، وعلى آثامهم قاتلوهم وعلى جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين»[١].

وبالفعل، فقد أدى جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين إلى إظهار حقيقتهم وكشف سوء ضمائرهم. وقد بلغ الاضطهاد الأموي لمن سواهم- كما يقول المستشرق رونالدسن- درجة لا تطاق حيث انتشر الاستياء العام من جورهم في طول البلاد وعرضها[٢].

لقد أدرك المسلمون عموماً أن الأمويين قد اتخذوا الدين مطية ذلولاً لهم بهدف الوصول إلى مآرب شخصية ومكاسب مادية لا تتجاوز في أبعد مدى لها حدود الأقارب والبطانة المخلصة للسلطة.

هذا بالنسبة للجانب الأموي في الحكم، أما بالنسبة للحكم عند الإمام علي عليه السلام، فالأمر مختلف تماماً. فالإمام علي عليه السلام، كما رأينا سابقاً، كان يعمل دائماً وأبداً على تجاوز حدود (الأنا) و(الذات) إلى (الآخر) و(الغير). فهو إمام الإنسانية الذي أراد أن يفك ويخلص الإنسان من قيوده الثقيلة ومن أغلاله التي تشده إلى الأرض، ومن ثم ليحرره من سلطتها المادية عليه وليجعله يرنو ببصره ويرفرف بأجنحة قلبه محلقاً إلى أعالي السماء.

فالإنسان ولد على الأرض ومن الأرض، ولكنه لم يولد على الأرض كي يبقى عليها وكي يتحول إلى سجين وراء قضبانها. بل ولد الإنسان عليها كي يكمل الرحلة التي بدأها من عالم الطين في الماضي البعيد المفقود ولتستمر في

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١١٣.

(٢) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص١٣٠.

الحاضر المشهود، ولتنتهي تلك الرحلة، بعد ذلك، بالاستقرار الآمن في ملكوت السموات غداً في اليوم الموعود.

ولذلك، فإن الإمام علياً عليه السلام - كما يقول جورج جرداق في كتابه (علي وعصره)- كان خير من يمثل «إنسانية التفكير وخيرية العمل وديمقراطية الحكم وإباحة الأرزاق للشعب وحده دون الوجهاء والزعماء والمتنفذين والمترهلين»، في حين كان الأمويون «من أبرز من يمثلون الملوك في التاريخ وميلهم إلى الحكم الفردي الاستبدادي وخصائصهم في الاستئثار والاحتكار وجعل الأرض والناس منهبة لهم وعبيداً»[1].

ويمكن للقارئ الكريم أن يلحظ معنا أن هذه المقارنة البسيطة التي أجراها (جورج جرداق) بين إنسانية علي عليه السلام وأهدافه النبيلة من جهة وهمجية أعداء علي وغياب مواقفهم الثابتة والمبدئية من جهة أخرى، قد أعطت نفس النتيجة التي استخلصها الأستاذ (نصري سلهب) في مقارنته بين علي عليه السلام وخصومه. ومن جملة ما يقول الأستاذ الأديب (سلهب) عن تلك المقارنة بين الطرفين المتضادين هو قوله البليغ:

«علي من أولئك البشر الذين كتب عليهم أن يموتوا لتحيا، بموتهم، شعوب وأمم. وأعداء علي من أولئك النفر الذين آثروا الحياة على الموت فأماتوا، بحياتهم، كل إباء وشمم»[2].

وليس هذا كل شيء بالنسبة للمفكر والكاتب المسيحي نصري سلهب.

---

(١) جورج جرداق: علي وعصره (صوت العدالة الإنسانية)، ج٥ ص٩٥.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص١٧.

فالإمام علي عليه السلام الذي أعطى الإنسانية دروساً لا تنسى في الفضائل الكريمة والخصال الحميدة، وفي الكمالات الأخلاقية قولاً وعملاً، تلك الدروس التي لم تضعف قوتها ولم تبرد حرارتها ولم يخف وهجها على مدى ألف وأربعمئة عام هي اليوم الغيث الذي يبلل شفاه الصحراء التي نعيشها نحن في فكرنا وفي واقعنا، بل وفي افتقارنا إلى مثل أعلى نقتدي به في مسيرة حياتنا كأفراد وكمجتمعات.

ونعود هنا ثانية لنؤكد على أن ارتقاء العقول أساس قوي لإعلاء صرح الوحدة والالتقاء بين هذه العقول. فصاحب العقل السوي والراقي في فهمه لمعاني الحياة ومبادئ الإنسانية، ولحركية الواقع المتجه نحو الأمام والمستقبل والرافض للإقامة الدائمة بين أطلال الأمس، لن يضع في حسبانه أن يكون مثله الأعلى محصوراً ضمن إطار قوميته أو محدوداً بحواجز ديانته، بل سيتجاوز في اختياره لمثله الأعلى كل الحواجز والحدود التي يمكن أن تقف حجرة عثرة في مضمار الفكر والوجدان.

فكم من مفكر مسلم ومسيحي اتخذ من الزعيم (غاندي) مثلاً أعلى له في سياسة الانفتاح الفكري على (الآخر) وفي سياسة المسالمة والابتعاد عن سياسة العنف والإرهاب!!!

وكم من مسلم يعتبر أن السيد المسيح عليه السلام المثل الأعلى في الرحمة والزهد والتسامح!! وبالمقابل، كم من مسيحي يرفض في السيد المسيح عليه السلام تسامحه المبالغ فيه ومثاليته المفرطة، ويعتبر أن مثاله الأعلى الذي يجب الاقتداء به هو الرسول محمد صلى الله عليه وآله وليس السيد المسيح عليه السلام، وخير مثال على هذا النوع من

المفكرين المسيحيين هو الشاعر (رشيد سليم الخوري) المعروف باسم الشاعر (القروي) الذي يقول:

إذا حاولتَ رفعَ ضَيمٍ فاضربْ بسيفِ محمدٍ واهجرْ يسوعا
فَيا حَمَلاً وَدِيعاً لم يُخلّف سوانا في الورى حَمَلاً وديعا
ألاَ أنزلتَ إنجيلاً جديداً يعلمنا إباءً لا خنوعا[1]

وعلى الرغم من أنني لا أتفق مع الشاعر (القروي) في نظريته للسيد المسيح عليه السلام، إلا أن عدم اتفاقي معه لا يغير من حقيقة أنه يعتبر أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هو المثال الأعلى للتغيير الثوري الأمثل في المجتمعات وليس السيد المسيح عليه السلام الذي يتبع سياسة الموادعة والتسامح التي لا تعطي ثمارها إلا في ظروف محدودة وفردية خاصة، في حين أنها لا تثمر على مستوى علاقة المجتمعات بعضها ببعض.

ولا ريب، أيضاً، في أن هناك الكثير من المسيحيين وحتى من الهندوس يتخذون من علي أو ابنه الحسين عليهما السلام المثل الأعلى في وجودهم وفي كل حركة وموقف من حركاتهم ومواقفهم في حياتهم وكيانهم!!

ألم يطلب (المهاتما غاندي) من الأمة الهندية أن تتخذ من الإمام الحسين عليه السلام مثلاً أعلى لها إذا أرادت أن تنهض من أجل المسير إلى الأمام، وذلك بقوله مخاطباً أبناءها على اختلاف مذاهبهم: «على الهند إذا أرادت أن

(١) فؤاد الشايب: كيف عرفت الشاعر، مجلة الثقافة، العدد ٦، دمشق، تشرين الأول ١٩٥٨، ص٤.

تنتصر، أن تقتدي بالإمام الحسين»[1].

ثم، ألا نرى من خلال كتابنا هذا أن الكثير من رجال الفكر والأدب من المسيحيين قد رأوا في الإمام علي عليه السلام نبراساً للبشرية متراساً لها؟!!

ألم يكن نصري سلهب محقاً في قوله عن احتياج الإنسانية في كل عصر إلى الإمام علي عليه السلام: «فكما استبد بنا عطش إلى السماء عدنا إليك يا علي، يا أمير المؤمنين، وخليفة خير نبي. لكأنك واحة في صحراء الدنيا نردها فننجو من نار جهنم.

أيكون الله، يوم ولدت، قد أفرغ في روحك بعضاً من روحه؟ وإلا كيف استطعت أن توقف الزمن؟»[2].

وعندما يعتبر نصري سلهب أن النموذج الأمثل والأكمل لكل الإنسانية هو الإمام علي عليه السلام، ذلك العظيم الذي لا تزال أقواله وأعماله ومآثره الخالدة وساماً رفيعاً في ضمائر الأحرار وفي وجدان كل العظماء من المفكرين والعباقرة والمصلحين الأخيار، فإنه يعتبره المثال والكمال لأنه عليه السلام كان يريد من كل إنسان أن يصارع ويجاهد من أجل إيجاد موقع له في السماء، لا من أجل كرسي زائل أو مجد زائف على الأرض.

ولو أن الناس، على الأقل المسلمين منهم، حملوا راية الإمام علي عليه السلام

---

(١) عبد الله المنتفكي: الثورة الحسينية في الفكر العالمي، مجلة الثقافة الإسلامية، إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، عدد تموز - آب ١٩٩٣، العدد ٥٠، ص٤٤.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٠.

وساروا وراءه، لكانوا وقتها قادرين على إدارة دفة الحياة الحضارية وقيادة إرادة إثبات الوجود أمام كل المجتمعات البشرية الأخرى. ولو أنهم تدبروا أمر قرآنهم الحكيم واستمسكوا بأقوال ووصايا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لكانوا قادرين على أن يكونوا «خير أمة أخرجت للناس» حقاً، ولكانوا قادرين على إخراج هذا المعنى الجليل للآية الكريمة من حيِّز اللفظ القرآني والمعنى النصي إلى حيِّز الواقع العملي والتطبيق الفعلي الذي أراده الله منا ترجمة صادقة لإرادته فينا والتي عبر عنها بكوننا (خير أمة أخرجت للناس).

فعلي عليه السلام ، ذلك المثال الأعلى، بالنسبة للمنظومة الفكرية عند الأديب والمفكر (نصري سلهب)، هو «ذاك العظيم الذي شرف السيف يوم سلّه، والكلمة يوم قالها، والأمة يوم قادها. علي الإمام الذي لو سارت الأمة وراءه صفاً واحداً، لكان صنع المعجزات»[1].

ولئن رأى الأستاذ (سلهب) في الإمام علي عليه السلام مجد الكلمة الإلهية التي تدعو للتآخي الإنساني والانفتاح الوجداني، ولئن رأى في الإمام صورة الكمال التكويني الذي أثبت بوجوده معنا على الأرض وجود الكمال المطلق والكمال الوجوبي الذاتي في السماء، فإن الأديب الباحث (سليمان كتاني) ذهب إلى أن وجود الإنسان، أي إنسان، يمكن أن تتحدد قيمته الروحية والإنسانية بقدر اقتراب تلك الهوية من الإمام علي عليه السلام ، وذلك لأن شخصية الإمام علي عليه السلام وهويته الإنسانية هما «في وجود الإنسان دعامة تتشبث بها قيمة

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٩٥.

الإنسان»[١].

وهنا أجد أن الوقت قد داهمنا وأن الحديث قد أخذنا وحلق بنا في سماوات علي عليه السلام وآفاقه الإنسانية، ولكن قبل أن نطفئ السراج وقبل أن يتنفس الصباح، نعود ونذكر مؤكدين على أن الإمام علياً عليه السلام الذي كان وسيبقى إماماً للإنسانية بكل أبعادها ومعانيها السامية، والذي كان يؤكد دائماً لولاته على البلدان والأمصار أن الإنسان، مهما كان وأياً كان، هو في المحصلة أخ للمسلم في (الطين)، هذا إذا لم يكن ذلك الإنسان أخاً للمسلم في (الدين) أيضاً. فالإنسان أخ الإنسان شاء أم أبى. وفي القرآن الكريم خير دليل وأصدق مثال على ذلك.

فتعال، أخي القارئ، قبل أن نختتم هذا الفصل، لنقرأ هذه الآيات القليلة سوية، ولنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى قد جعل من الإنسان أخاً للإنسان في الرابطة الطينية والنشأة الترابية حتى ولو كان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً.

إذاً، فلنستمع سوية إلى تلك الحكم الإلهية:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُم هُوداً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيرُهُ إِن أَنتُم إِلا مُفتَرُونَ﴾[٢].

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فِيهَا فَاستَغفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ

(١) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس، ص٣٢٨.

(٢) سورة هود: الآية ٥٠.

مُجِيبٌ﴾ (١).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٢).

فهل هود وصالح وشعيب إلا أنبياء من أنبياء الله سبحانه وتعالى؟!

وهل قوم عاد وثمود ومدين إلا من الأقوام المذمومة والموسومة بالكفر والعصيان في القرآن؟

ثم ما هي، بعد ذلك، الرابطة التي تربط بين أولئك الأنبياء وأقوامهم العاصين المتكبرين؟

إنها رابطة (الأخوة) التي أكد الله عليها في تلك الآيات الثلاث، إنها رابطة الروح الإنسانية التي يجب علينا تبجيلها واحترامها، وذلك لأن الصورة الإنسانية التي أكرمنا الله بها وشرفنا بإعطائنا إياها هي تلك الصورة التي وصفها لنا أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله:

«الصورة الإنسانية هي أكبر حجج الله على خلقه، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من اللوح المحفوظ، وهي الشاهدة على كل غائب، وهي الحجة على

(١) سورة هود: الآية ٦١.

(٢) سورة هود: الآية ٨٤.

كل جاحد، وهي الطريق المستقيم إلى خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار»[١].

وليس لنا إلا أن نطفئ السراج ونسدل الستار، فقد لاحت الشمس وتبسم النهار.

(١) الشيخ كاظم حمد الأحسائي النجفي: السفينة السائرة في مناقب العترة الطاهرة، ص١٧٩.

علي عليه السلام قوة الحق التي لا تقهر

في إحدى الليالي الشتائية المطيرة والعاصفة، كنت أجلس وحيداً في ساعة متأخرة جداً من الليل بجانب مدفأتي المتقدة وأنا أكتب بعض الصفحات من هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن، وكان لهب المدفأة يتراقص بعنفوان بالغ وبطريقة تعطي الإنسان شعوراً بالأمان من غضب الطبيعة وزمجرتها في الخارج. وفجأة شعرت أن قلبي قد فر من بين أضلعي وغادر صدري للأبد، ولم أجد، حتى هذه اللحظة، التفسير المنطقي لتلك الموجة من الخوف الذي اجتاح كياني والذي لم يتناسب حجمه إطلاقاً مع صوت القرع العنيف على باب غرفتي الكئيبة في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

وقد انحسرت موجة الخوف الغامض تلك بعد أن دخل عليّ أحد أصدقائي وهو مبلل بمياه الأمطار من رأسه وحتى أخمص قدميه. دخل وهو يخفي شيئاً تحت إبطه وداخل سترته الخارجية، وقبل أن يلقي علي السلام، أخرج ذلك الشيء من داخل سترته واتضح فوراً أنه كتاب قديم وقد بدت عليه فعلاً علامات القدم وآثار الزمن، ثم ابتدرني قائلاً بلهفة:

لقد أحضرت لك كتاباً رائعاً لم تقرأ مثله من قبل، ولم أستطع أن أصبر حتى الصباح كي آتيك به، ولذلك جئت إليك الآن في هذا الوقت المتأخر من

الليل، خاصة وأنت تؤلف كتاباً متميزاً حول رؤية المفكرين المسيحيين حول شخصية الإمام علي عليه السلام ، وقد عثرت على هذا الكتاب النفيس اليوم صباحاً عند أحد بائعي الكتب القديمة والمستعملة على أحد أرصفة مدينة دمشق.

وبالفعل، ما أن وقعت عيناي على ذلك الكتاب القديم وعلى عنوانه حتى أيقنت أنه فعلاً كتاب نفيس كما وصفه حامله. وما أن قرأت الصفحة الأولى منه حتى غبت عن كل ما هو حولي، عن الأمطار وهزيم الرعد، عن عويل الرياح في الطرقات وعن زمجرة اللهب في المدفأة، بل غبت عن صديقي نفسه.

لقد كان ذلك الكتاب الصغير يحمل عنوان (الشرق والإسلام في أدب غوته) للأديب والمفكر المصري (عبد الرحمن صدقي)، والكتاب من مطبوعات القاهرة عام ١٩٦٧.

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل ما حدث بعد ذلك، ولكن كل ما أريد أن أذكره هو أن صديقي القادم تحت الأمطار من أجل تقديم ذلك الكتاب رفض الجلوس وختم زيارته السريعة بقوله: أنا لم أحضر لك هذا الكتاب لتقرأه الآن، بل أتيت به إليك كهدية للذكرى والفائدة.

ولا يُخفى على القارئ مدى سروري بهذه الهدية الصغيرة بحجمها والكبيرة بقيمتها وفائدتها.

وعلى كلّ حال، أعدت، فور مغادرة صديقي، قراءة الصفحة الأولى ولم أرفع رأسي عن الكتاب المذكور إلا عند نهاية الصفحة الأخيرة منه مع شروق الشمس وإطلالة فجر اليوم التالي.

وبعد تلك القراءة الأولى لذاك الكتاب، بدأت الأسئلة المختلفة تزدحم

وتتصارع في رأسي: كيف استطاع فيلسوف ألمانيا وشاعرها الأعظم أن يتوصل إلى تلك الحقائق العميقة عن الإسلام وعن النبي المصطفى وأهل بيته الأبرار عليهم السلام؟

ما هي الدوافع التي جعلت ذلك الفيلسوف والشاعر، يوهان غوته، يُقبل على نظم ديوان شعري ضخم معطر بعبق الشرق وسحره، وبأنفاس الإسلام وروحانيته، حتى أنه أطلق عليه عنواناً مميزاً وهو (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، وقد جمع بين دفتيه قصائد عذبة عن الشرق والإسلام تعد من نفائس الأدب العالمي الرفيع؟

وهل الجوانب التي أعجبت الفيلسوف والشاعر العظيم (غوته) في شخصية علي أمير المؤمنين عليه السلام هي نفس الجوانب التي أعجب بها جبران ونعيمة وجرداق وسلامة والإنطاكي وماسينيون وكوربان وكارلايل وديفو وغيرهم من فلاسفة ومفكري الشرق والغرب؟

ثم، كيف يمكننا أن نفهم هذه المقطوعة الشعرية القصيرة والمعبرة للشاعر (غوته) عن الإسلام والتي يقول فيها:

«من حماقة الإنسان في دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه
وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم،
فإننا أجمعين، نحيا ونموت مسلمين»؟!![1]

---

(١) عبد الرحمن صدقي: الشرق والإسلام في أدب غوته (سلسلة كتاب الهلال)، العدد ١٩٥، القاهرة، ١٩٦٧، ص٣٥.

فهل كان هذا العبقري الألماني مسلماً حقاً؟ وإذا كان هو حقاً كذلك، فمن هي الشخصيات الإسلامية البارزة العظيمة التي جعلته يحرر يراعه الجريء من براثن التعصب لدينه الذي نشأ عليه، ولقوميته التي ترعرع في أحضانها، ولينطلق بعد ذلك ليكتب بمداد الحقيقة عن تلك الشخصيات العظيمة التي صنعت مجد الإسلام الحقيقي القائم على الحوار بالكلمة الطيبة وعلى الدعوة من خلال العمل الصالح واحترام كرامة الإنسان وهويته الآدمية التي يتساوى أمامها كل البشر؟

وباختصار، لقد انطلق يراع ذلك الفيلسوف والشاعر ليسطر مآثر محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، وعلي المرتضى عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، هؤلاء الذين لولاهم لما قامت للإسلام قائمة ولما استمر حياً لولا دماؤهم ودماء أولادهم وأحفادهم الذين بذلوا أغلى ما يملكون من أجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وبالطبع، لم تكن تلك الأسئلة هي كل ما دار في رأسي عن ذلك الفيلسوف العظيم (غوته)، ولكن السؤال الأكبر إلحاحاً علي كان السؤال التالي:

لماذا كتب غوته وغيره من الأدباء والشعراء والفلاسفة المسيحيين عن دور الإمام علي عليه السلام وأهل البيت المحمدي في إعلاء شأن الرسالة الإسلامية دون غيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله؟

كل هذه الأسئلة الحساسة كانت تتصارع في داخلي وتتفاعل بعمق تحت تأثير ارتفاع وتيرة البحث عن الأجوبة الشافية والتي من شأنها أن تجعل مركب الفكر يرسو بأمان على شاطئ الحقيقة والمعرفة.

وبعد فترة طويلة من البحث والعناء وإجراء الكثير من المقارنات بين كتابات المسيحيين عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، توصلت إلى نقطة هامة جداً، وهذه النقطة الهامة يمكنها أن تجيب على الكثير من الأسئلة والاستفسارات.

فالغالبية العظمى من رجال الفكر والأدب من المسيحيين المعاصرين يرون في الإمام علي عليه السلام صورة رسول ونبي أكثر مما يرون فيه صورة خليفة أو ولي. بل لا نبالغ إذا قلنا إن البعض منهم في الشرق قد تاهوا وابتعدوا عن رسم الصورة الصحيحة والصادقة له وذلك عند ما رأوا فيه، نتيجة حبهم الشديد له عليه السلام ، أنه شبيه بالسيد المسيح عليه السلام من حيث إنه تجلٍّ لاهوتي في هيكل ناسوتي[1]. وراح البعض الآخر من الباحثين والمفكرين في الغرب يدونون اسمه الشريف في معاجم الآلهة والأرباب[2]، شأنه في ذلك شأن الآلهة والأرباب عند الإغريق والرومان والشعوب البدائية البائدة.

وعلى الرغم من الموقف السلبي الواضح الذي وقفه الإمام علي عليه السلام من مسألة الغلو فيه، والنهي القاطع عن اتخاذ أو تبني أي موقف نابع من المغالاة التي قد تخرج المرء من دائرة الإيمان إلى دائرة التيه والضياع وفقدان الموقف الإيماني الصحيح واختلال الميزان الروحي السليم، إلا أن السؤال الذي يفرض نفسه علينا وعلى كل مفكر وأديب مسيحي خاض تجربة الكتابة عن الإمام علي عليه السلام ومعاجزه الفكرية وخوارقه البدنية:

---

(١) خليل فرحات: في محراب علي، مصدر سابق، ص١٨.

(٢) مجموعة من الباحثين الألمان: قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة: محمد وحيد خياطة، دار مكتبة سومر - حلب، ١٩٨٧، ص١٨٤.

هل جاءت نظرة أولئك المسيحيين عن الإمام علي عليه السلام من الفراغ، أم أنها جاءت من خلال ما عرفوه عنه من كتب السير والأخبار التي تتناول السيرة النبوية الشريفة وعلاقته عليه السلام بها بأدق تفاصيلها ومعطياتها؟

والجواب بكل بساطة، هو أن وجهات نظرهم جاءت بناءً على أسس ومعطيات مستمدة من أمهات الكتب المعتبرة للعلماء والمؤرخين المسلمين. غير أن الشيء اللافت للنظر هو أن أولئك المفكرين المسيحيين الذين رفعوا الإمام علي عليه السلام إلى مرتبة تفوق مستوى الرسل والأنبياء الذين قلما يجود الزمان بأمثالهم، إنما اعتقدوا ذلك لأنهم وجدوا في الإمام علي عليه السلام صورة ومرآة الكمال، ولسان وترجمان الجلال، واليد العليا التي تفرق بين الحق والباطل والحرام والحلال.

فهو باختصار- من وجهة نظرهم- ذاك الإمام الكامل في كل جانب من جوانب الوجود حتى إنك لتخاله، بكماله المتكامل الجوانب، المرآة الصادقة لإرادة واجب الوجود والفكر المبدع والمدرك لأسرار كل ما هو موجود!!!

وقبل أن ندخل سوية إلى إحدى البوابات التي استوقفت كل الأدباء والمفكرين الكبار من المسيحيين المعاصرين، دون استثناء، ونقصد بذلك بوابة القوة الإعجازية عند الإمام علي عليه السلام والتي لعبت الدور الأعظم في رفع راية الإسلام وفي تثبيت أسس الدين الحق في عالم الخلق، لا بد لنا من الوقوف قليلاً عند أحد كبار رجال التصوف في التاريخ الإسلامي لنتعرف على صورة الإمام علي عليه السلام عنده حتى ندرك أن الكثير من العلماء والفقهاء والمتصوفة المسلمين قد حاروا في فهم الإمام علي عليه السلام وإدراك مكانته السامية التي خصه الله

سبحانه وتعالى بها دون غيره. وعندئذٍ يمكننا القول إنه إذا كان هذا حال العلماء والمتصوفة والفقهاء المسلمين في ما يتعلق بشخصية الإمام علي عليه السلام ، فكيف سيكون الحال، إذاً، مع المفكرين المسيحيين الذين طاروا محلقين حائرين في فضاءات الإمام علي عليه السلام ومداراته الإعجازية؟!!

دعونا، إذاً، نتوقف أولاً مع ابن عربي، ذلك المتصوف المسلم الشهير، ثم لننتقل بعد ذلك إلى أقوال وآراء العديد من المفكرين المسيحيين الذين استفاضوا وأسهبوا في الكلام عن القوة المذهلة عند أمير المؤمنين علي عليه السلام .

يقول ابن عربي واصفاً الإمام علي بأنه «سر الأنبياء والمرسلين وسيد الأوصياء والصديقين، ... الظاهر بالبرهان، الباطن بالقدرة والشأن، بسملة كتاب الموجود فاتحة مصحف الوجود، حقيقة النقطة البائية والمتحقق بالمراتب الإنسانية، حيدر آجام الإبداع الكرار في معارك الاختراع، السر الجلي والنجم الثاقب»[1].

وإذا كانت هذه هي صورة الإمام علي عليه السلام عند ابن عربي وعند غيره من المتصوفة والعلماء وأرباب الفكر والمعرفة من المسلمين- وإن كان هناك تفاوت في نظرتهم إليه وفي تقدير مقامه الحقيقي- إلا أن هذه النظرات والآراء قد تبلورت بمجملها عند أهل المعرفة والفكر من المسلمين والمسيحيين على حد سواء نتيجة إيمانهم العميق بأن أحاديث الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام لم تكن إلا

(١) راجع مجلة الثقافة الإسلامية: العدد ١٣، شوال - ذو القعدة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، ودعاء ابن عربي الذي أخذنا منه المقطع المذكور في بداية العدد١٣.

غيضاً من فيض، ولم تكن إلا بمثابة باقة صغيرة من ورود جمعت من بستان فسيح. وقد أيقن أولئك المفكرون من المسلمين والمسيحيين أيضاً أن هدف الرسول صلى الله عليه وآله الأساسي من تقديم تلك الباقة الجميلة من الورد الجميلة التي اقتطفها من بستان فضائل علي عليه السلام، هو أن يعطينا صورة جلية عن أعلمية علي عليه السلام في كل حقل من حقول الحياة، وعن عمق ورسوخ إيمانه بالله الذي لم يبلغه أحد قط.

ويمكننا أن نقع على هذه الحقيقة من خلال أحاديث كثيرة، ليس من خلال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله فحسب، بل من خلال كبار أصحابه الذين عرفوا الكثير أيضاً عن علي عليه السلام. وها هو ابن عباس، على سبيل المثال، يخبرنا قائلاً: «ليس آية من كتاب الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلا وعلي أولها وأميرها وشريفها»[1]، ويكفي أن نذكر أيضاً قول عمر بن الخطاب الذي يخبرنا من خلاله عن الدور البطولي الفعال الذي أداه الإمام علي عليه السلام على مسرح الرسالة الإسلامية والذي كان بمثابة يد الله القاهرة وسيفه المشرع من أجل الحق والفضيلة.

يقول ابن الخطاب في حديث طويل له: «.. والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام، وهو بعد أقضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها»[2].

ولأن الإمام علياً عليه السلام حقاً كذلك، فقد رأى المستشرق الفرنسي (لويس

(١) الشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار، ص٨٧.

(٢) العالم الأزهري الدكتور موسى الخطيب: سيدات نساء أهل الجنة، دار التضامن - بيروت، ١٩٩٢، ص١١٧.

ماسينيون) (١٨٨٣- ١٩٦٢)، الذي اهتم كثيراً بالتصوف الإسلامي وكانت معظم مؤلفاته تتمحور حول تلك المسألة وحول حياة العديد من المتصوفين المسلمين كالحسين بن منصور الحلاج والسهروردي وغيرهما من أئمة التصوف والفكر العرفاني والإشراقي، لقد رأى أن الناس قد انقسموا في الإمام علي عليه السلام إلى قسمين، قسم محب للإمام علي ولآله عموماً، وهذا القسم يمثله بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله المخلصين والذين حولوا مودتهم نحو (الخمسة) إلى حب معرفة وتمثل قيم ومبادئ وإلى تقديس كامل، بينما القسم الآخر هو القسم الذي يمثل الطرف المناوئ والمعادي لعليٍ ولآل بيته عليهم السلام حيث إن بغضهم وعداءهم له يعود إلى أسباب عديدة، ومن أهم هذه الأسباب شجاعة علي عليه السلام وقوته التي فتكت بالكثير من شجعانهم الكفار الذين قتلوا بسيفه الفيصل في (بدر) بأمر من الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله [1].

أما المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن)، فقد رأى أن شجاعة علي عليه السلام قد تحولت إلى ما يشبه الأسطورة من خلال ما ورد عنه من أخبار وأحاديث في الحروب وفي المبارزات الفردية. وقد لخص (رونالدسن) دور الإمام علي عليه السلام في المعارك التي تمت في فجر الرسالة الإسلامية بقوله: «وكان (علي) صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله في غزواته، في بدر والمشاهد كلها، وتردد ذكره كثيراً في حمله الراية في غزوة خيبر، وهو فخر عظيم ولا وجه لتكذيبه لما عرف عن إخلاصه وشجاعته»[2].

---

(١) عبد الرحمن بدوي: شخصيات قلقة في الإسلام، وكالة المطبوعات - الكويت ط٣/ ١٩٧٨، ص٤٥.

(٢) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص٦١.

وهنا نحب أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن المستشرق (رونالدسن) قد اعتمد في حديثه عن شجاعة الإمام علي عليه السلام وبطولاته ومآثره القتالية الخارقة، وعن قضية حمله لراية رسول الله صلى الله عليه وآله في غزواته وفي المشاهد كلها على كتاب (طبقات ابن سعد) وقد اعتمد في ذلك أيضاً على كتاب (تاريخ الخلفاء) للحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي، أي أن (رونالدسن) قد اكتفى في حديثه عن قوة علي عليه السلام القاهرة وبطولاته على المصادر الإسلامية غير الشيعية.

وبطبيعة الحال، فإن (رونالدسن) لم يكتف بتلك السطور القليلة عن قوة علي عليه السلام، بل راح يتكلم أيضاً عن سيفه ذي الفقار وعن دوره الحيوي وهو في قبضة الإمام الذي لم يشهره أبداً إلا من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل، ولذلك فقد تابع (رونالدسن) كلامه عن القوة الإعجازية التي أظهرها علي عليه السلام بسيفه ذي الفقار قائلاً:

«وكان يضرب به الهامات فلا تخطئ ضربته، ويحمل به على عدوه وهو راكب فيقدّه إلى نصفين، يسقط الأعلى ويبقى الأسفل فوق ظهر الحصان»[1].

وعلى الرغم من أن رونالدسن قد اكتفى بالأسلوب السردي في وصف معاجز أمير المؤمنين عليه السلام بحيث لم يقم بأي تحليل أو تعليق كافيين على تلك الظاهرة البطولية التي اتصف بها علي عليه السلام دون غيره من الكثير من الأصحاب الذين كانوا يلازمون الرسول صلى الله عليه وآله في حالة السلم ويفرون عنه في حالات الخطر والحرب، إلا أن كلامه يعطي دلالة واضحة وإشارة صريحة إلى الموقع الاستراتيجي الذي وضع الإمام علي عليه السلام نفسه فيه حيث استطاع من خلاله أن

(١) نفس المصدر السابق: ص٦١.

يُثبت للقاصي والداني أن شجاعته في الحق إنما هي، في نهاية المطاف، مستمدة من الحق ذاته وفي سبيله.

ومهما أوردنا من أقوال وأشعار للعديد من المفكرين والأدباء المسيحيين، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز بعض الأقوال التي ذكرها بعض رجال الفكر والمعرفة من المسلمين الذين لا ينتمون إلى مذهب الشيعة، مذهب أهل البيت عليهم السلام، وذلك لما لهذه الأقوال المأثورة من دورٍ بارزٍ في تدعيم وجهات نظر المسيحيين تجاه شخصية الإمام عليه السلام ودوره الحاسم في إعادة ولادة التاريخ وتوجيه خط سيره من جديد.

وعلى سبيل المثال، عندما يفرد ويخصص الأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) في كتابه (علي أسد الإسلام وقديسه) باباً للحديث عن شجاعة علي وعن أدواره البطولية في حماية الرسالة الإسلامية المولودة حديثاً، نراه أول ما يفتتح به الحديث عن قوته وبسالته، قوله: «جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد قوله: أما شجاعة علي، فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة. وهو الشجاع الذي ما فر قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى ثانية، إذا علا قدَّ وإذا اعترض قطَّ. ولا دعي إلى مبارزة فنكلَ، وهذا كله من الأمور العجيبة التي لم تتفق لغير علي بن أبي طالب»[1].

وبعد أن يذكر الباحث (العزيزي) ما قاله ابن أبي الحديد المعتزلي عن

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص٢٦.

شجاعة الإمام علي وبطولاته المنقطعة النظير، نراه ينتقل في حديثه لتعداد وذكر تلك المآثر الخالدة التي لولاها لما ارتفع للإسلام ركن ولا عماد.

هذا ما يتعلق بالأديب والباحث (روكس العزيزي)، أما ما يتعلق بالأديب والشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) فالأمر مختلف تماماً. فالشاعر (الإنطاكي) لا يقبل أن يتكلم عن قوة الإمام علي عليه السلام الإعجازية بطريقة سردية نثرية خالية من العمق في الدراسة والتحليل والاستنتاج، بل نراه يبدأ حديثه عن تلك المآثر الجليلة والأفعال الإعجازية البطولية التي حيرت الورى في فهمها واستيعابها على الرغم من كثرة الأحاديث المتواترة والمؤكدة لحدوثها.

وأول ما يبدأ به (الإنطاكي) حديثه عن معجزات علي عليه السلام وخوارقه، هو ذلك الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «لا نبي بعدي» وذلك من أجل التأكيد على أن الكثير من المسلمين، وحتى من المسيحيين الذين قرأوا التاريخ وتعرفوا على شخصية الإمام علي عليه السلام عن كثب، قد وقفوا من تلك الشخصية الفريدة موقف الحائرين، وربما في بعض الحالات موقف الشاكين والمرتابين، وقد علل الشاعر (الإنطاكي) ذلك بقوله إن الأفعال والمعاجز التي قام بها علي عليه السلام وعجز غيره عن الإتيان بها قد ولد في نفوس معاصريه ومشاهدي كمالاته ومعجزاته شكاً في حقيقة أنه مجرد خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله، فذهب قوم إلى القول بأنه نبي، لكنهم سرعان ما كانوا يرفضون هذه الفكرة لأن تلك الفكرة بحد ذاتها كانت تصطدم وتتعارض بشكل واضح مع الحديث السابق للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله: «لا نبي بعدي». وذهب قوم غيرهم- كما يقول الإنطاكي متابعاً حديثه عن الآثار التي خلفتها شجاعة علي وخوارق قوته

الغريبة- إلى القول بأن إرادة الله ومشيئته هما السبب في إعطاء الإمام علي عليه السلام هذه القوة الإعجازية الخارقة، حتى أنهم رأوا في علي عليه السلام ما رأت النصارى في معاجز عيسى ابن مريم عليهما السلام[١]. وقد أكد الأديب الإنطاكي قوله هذا من خلال تعزيزه بحديث نبوي شريف لنبي الهدى والرحمة صلى الله عليه وآله يبين للناس من خلاله أن الإمام علياً عليه السلام هو سر الله المصون وكنزه المكنون الذي تعجز الألباب عن فهم كنهه وإدراك حقيقته الولائية. ونص الحديث النبوي الشريف الذي استشهد به الأديب الإنطاكي، هو قوله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين علي عليه السلام بعد أن اقتلع باب حصن خيبر وزعزع أركانه وهزم سكانه: «والذي نفسي بيده لولا أني أشفق أن تقول طوائف من أمتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمر بملأ من الناس إلا وأخذوا التراب من تحت قدميك للبركة»[٢].

وإن دل هذا الحديث النبوي الشريف على شيء، فإنما يدل على استحالة الوقوف على الهوية الحقيقية لمقام (الإمامة) الذي يمكن أن يقود- في حال رفع الرسول الكريم صلى الله عليه وآله النقاب عنه - إلى حيرة أرباب النهى والبصائر، وربما إلى رفع اليد إليه بالإشارة من قبل الجهال وقاصري العقول، والقول فيه ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم عليهما السلام الذي قام بالكثير من الخوارق والمعاجز التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

ولا أعتقد أن هناك مسيحياً واحداً من المفكرين المسيحيين في الشرق أو

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، ص٥٣١.

(٢) أ) نفس المصدر السابق: ص٥٣٢.

ب) الحافظ ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، ص٢٣٧.

الغرب ممن درسوا الإسلام والشرق إلا وقد وقف ودرس هذا الحديث النبوي الشريف في كتب الشيعة والسنة وعرف أبعاده وغاياته التي أراد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أن يشير إليها ويدل الناس عليها في محاولة حكيمة منه لتعريفهم بشيء من مقام أخيه وخليفته ووصيه عنده صلى الله عليه وآله وعند ربه سبحانه وتعالى، ولكن بطريقة حكيمة لا تجعل الناس يحيدون عن الحق السوي أو يقولون فيه عليه السلام ما هو حقاً ليس فيه.

وبإمكاننا أن نلاحظ أيضاً، وبنفس الوقت، وفي كل كتابات ودواوين أولئك المفكرين والأدباء المسيحيين، أنهم ركزوا عل نقاط محددة بالغة الأهمية في دراساتهم وتحليلاتهم لشخصية الإمام علي عليه السلام، وأول هذه النقاط الهامة، كما رأينا في السابق، هي الطابع الإنساني الذي يصبغ بشكل عام كافة أقواله وأعماله ووصاياه لكل عماله وقادة جيوشه وولاته، ولأبنائه وعموم أتباعه.

وثاني هذه النقاط الهامة، والتي هي محور حديثنا الآن، هي تركيزهم على دوره القيادي في رفع راية التوحيد بقوة الكلمة وبلاغة الحرف، والتأكيد على أن كل حروب الإمام عليه السلام لم تكن إلا حروباً دفاعية يراد منها دفع الأذى ورد الخطر في وقت لا تنفع فيه بلاغة الكلمات ولا قوة الحروف ولا سياسة «ادفع بالتي هي أحسن».

وللتأكيد على هذه النقطة التي استفاض المفكرون والأدباء المسيحيون في الكلام عنها، وقبل الشروع في الكلام عن حروب الإمام علي عليه السلام التي خاضها في زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، لا بدّ لنا من الوقوف على أحد

الأحاديث الهامة التي قالها أمير المؤمنين علي عليه السلام عن طبيعة حروبه وعن فلسفته في ما يتعلق بمفهوم الحرب وطبيعتها عنده. وهذا الحديث الذي سنورده الآن عن الإمام الأعظم عليه السلام من (نهج البلاغة) لا يمثل وجهة نظر الإمام عليه السلام في حرب محددة دون غيرها، بل هو مفهوم عام عنده عن كل الحروب والمعارك التي خاضها في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وبعد وفاته.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع ان تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إليَّ من أن أقتلها على ضلالها وإن كانتْ تبوء بآثامها»(١).

ولذلك، فمن المعروف عن الإمام علي عليه السلام أيضاً، أنه لم يكن هو البادئ بأي حرب أبداً، بل كان يترك الخيار للطرف الآخر في بدء القتال أو الامتناع عنه. وكان دائماً حتى اللحظة الأخيرة، قبل كل معركة، مع الحوار الفكري الداعي للانفتاح على وجهات نظر (الآخر)، ومع سياسة الكلمة الحرة البناءة والدعوة إلى الحق بالكلمة والموعظة الحسنة، ولم يكن في معركة قط مع سياسة الحوار المسلح ومع الحوار القائم على الاقتتال وسفك الدماء والدعوة إلى الحق بالقوة والبطش والإرهاب.

وباختصارٍ شديد، نقول إن اليد المباركة التي رفعت سيف الحق في وجه الباطل هي يد الله القاهرة التي ذلل الله بها الطواغيت والجبابرة الذين أرادوا افتراس صاحب الوحي الإلهي صلى الله عليه وآله وإطفاء نور الله في آخر رسالة سماوية على وجه الأرض.

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج١ ص١٠٠.

وعندما نقول إن يد علي عليه السلام ، بل علي كله ، هو يد الله ، فإنما نقصد بذلك أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام قد فني عن ذاته في الله ، وصار مستهلكاً بكليته فيه ، وبذلك أصبح كما وصفه المتصوف ابن عربي بقوله : «الوالي للولاية الناسوتية ، أنموذج الواقع وشخص الإطلاق المنطبع في مرايا الأنفس والآفاق»[1]. وهذا ما معناه أن الإمام علياً عليه السلام ، نتيجة قربه من الله سبحانه وتعالى ، قد أصبح الولي على كل إنسان استخلفه الله على أرضه منذ فجر تكوينها وحتى قيام الساعة عليها. وهذا القرب من الله عز وجل هو الذي لم يجعل من الإمام علي عليه السلام وصياً ووليّاً فحسب ، بل هو الذي جعله أيضاً يد الله القاهرة وعينه الباصرة ، وهذا ما عبر عنه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى بقوله الصادق : «إنه كان (أي علي) فانياً في ذات الله»[2].

ولذلك ، فإن أبسط ما يقال في هذا المجال ، وبناء على تلك الأقوال ، هو أن الإمام علياً عليه السلام لم يتفرد بمعاجزه في المجال البطولي فحسب ، بل كان متميزاً ومحلقاً في الأعالي في كل مفصل من مفاصل الحياة ، وفي كل ميدان من ميادينها الهامة. وقد انتبه إلى هذه الحقيقة الراسخة الأديب والفيلسوف ميخائيل نعيمة عندما قال : «... وبطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب. فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته وطهارة وجدانه ، وسحر بيانه ، وعمق إنسانيته ،

---

(١) راجع :

أ) مجلة الثقافة الإسلامية : العدد ١٣ ، مصدر سابق ، ص١٤.

ب) راجي أنور هيفا : مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام ، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص٥٧.

(٢) سليمان القندوزي الحنفي : ينابيع المودّة ، مصدر سابق ، ج٢ ص٧.

وحرارة إيمانه، وسمو دعته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم وتعبده للحق أينما تجلى له الحق. وهذه البطولات، ومهما تقادم بها العهد، لا تزال مقلعاً غنياً نعود إليه اليوم وفي كل يوم كلما اشتد بنا الوجد إلى بناء حياة صالحة فاضلة»[١].

فقوّة علي عليه السلام وبطولاته التي أعجزت عقول الأولين لم يكن الهدف منها شحذ همم المسلمين الأوائل وشحن فعالياتهم الإيمانية في فترة زمنية محددة فحسب، بل كان الهدف منها أن تكون بطولات ذات حيوية مستمرة متجددة تسير وتجري آثارها وغاياتها في عروق كل الأجيال القادمة في مشارق الأرض ومغاربها.

فالسيف الذي يرفع من أجل الحق، هو السيف الذي لا يقف في طريقه إلا عدو الحق. وعندما يكون سيف الحق بيد أحد رموزه وأعلامه بين الخلق، فمن الطبيعي أن يقول صاحب ذلك السيف معبراً عن قوة الحق السماوي عنده بقوله: «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزةً ولا تفرقهم عني وحشة»[٢]، أو بقوله عليه السلام في مكان آخر: «فوالله ما أبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ»[٣]، دالاً ومؤكداً بذلك على مدى ارتباطه بالحق وعلى عمق معرفته به، وبنفس الوقت أيضاً، على جاهزيته العالية والدائمة لخوض غمار الموت من أجله.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٢٠.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص١١٣.

(٣) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، ج١ ص١٠٠.

ولذلك، فإن غزوة بدر، التي هي فاتحة انتصارات المسلمين، هي في حقيقتها حرب مثَّل الإمام علي عليه السلام جانب الحق فيها إلى جانب النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وحمزة بن عبد المطلب (رض) ضد جانب الباطل والضلال الذي كان يمثله جبابرة قريش وطواغيتها.

وبإمكاننا أن نتصور الدور الذي لعبته شجاعة الإمام علي عليه السلام وقوته في عملية ترجيح كفة الانتصار لصالح من خلال قراءتنا المتروية للمبحثين الثامن والتاسع من مباحث كتاب (خلاصة تاريخ العرب) للمستشرق الفرنسي (جان سيديو) الذي بيّن فيهما أن أحد الأسباب الهامة والعوامل الفعّالة في انتصار المسلمين في موقعة بدر يعود للبطولات الفردية التي خاضها كل من الإمام علي عليه السلام والحمزة (رض) حيث بثّا الرعب في قلوب صناديد المشركين وفرسانهم بعد أن أجهزا على أكبر وأعظم أبطالهم وشجعانهم.

وبنفس الوقت، يتابع العلامة (سيديو) كلامه عن كيفية انتصار المسلمين على المشركين في موقعة (أحد) وذلك بعد أن أعطى الرسول المصطفى الراية للإمام علي عليه السلام الذي سرعان ما فتك بقادة المشركين الكبار، غير أن المسلمين قد فرطوا بذلك الانتصار العظيم الذي سطره سيف علي عليه السلام وذلك عندما خالفوا وصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بعدم ترك مواقعهم القتالية الاستراتيجية على جبل أحد[1].

ولا يكتفي العلامة (سيديو) بذكر الدور الفعال الذي قام به الإمام علي عليه السلام في رفع راية الرسالة الغراء في موقعة بدر وأحد في الوقت الذي عجز

---

(١) العلامة سيديو: خلاصة تاريخ العرب، مصدر سابق، ص٥٠.

فيه كبار الصحابة عن فعل أي شيء أو دفع أي مكروه في هاتين المعركتين الحاسمتين، بل نرى أن العلامة (سيديو) يركز بشكلٍ واضحٍ ومميز على معركة ثالثة خطيرة، لا تقل أهمية عن المعركتين السابقتين، ألا وهي غزوة (خيبر) التي اجتثت الكيان اليهودي المتآمر على الرسالة الإسلامية وأهلها من جذوره.

وقد نقل (سيديو) ما حصل في غزوة خيبر بصدق وأمانة ولم يغفل عن ذكر الحدث الإعجازي الخالد الذي أظهره الإمام علي عليه السلام وذلك باقتلاعه باب حصن خيبر وتترسه به إلى أن فتح الله على يديه الكريمتين ذلك الفتح العظيم.

ومن أجل الأمانة الفكرية، دعونا نقرأ سوية ما ذكره (سيديو) عن غزوة خيبر وعن تسليم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الراية للإمام علي عليه السلام بعد أن كانت في يد أبي بكر ثم في يد عمر بن الخطاب، وذلك لحكمة نبوية غير خافية تذكرنا بنفس الحكمة النبوية من إرسال الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله بسورة البراءة مع الإمام علي عليه السلام بعد أن كان قد أرسلها مع أبي بكر من قبل، فقام علي عليه السلام بأخذها من أبي بكر بأمرٍ من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلنقرأ الآن، إذاً، ما كتبه (سيديو) عن دور أمير المؤمنين علي عليه السلام في غزوة خيبر: «وأخذ أبو بكر الراية فقاتل قتالاً شديداً ورجع. فأخذها عمر بن الخطاب فقاتل أشد من الأول ورجع. فقال صلى الله عليه وآله: أما والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فاستشرف إليها المهاجرون والأنصار. وجاء علي من المدينة أرمد، فتفل صلى الله عليه وآله في عينيه، فبرئ وأعطاه الراية فسار وقاتل أهل الحصن وضربه أحدهم فسقط ترسه من يده، فتناول من عند الحصن باباً تترس به حتى فتح الله عليه في صفر بعد الحصار بضع عشرة

ليلة، فألقى من يده الباب الذي اجتهد بعد ذلك ثمانية من الصحابة أن يقلبوه فما قدروا»[(١)].

وعلى ما يبدو فإن العلامة (سيديو) قد نقل لنا الأحداث المثيرة لغزوة خيبر وما جرى مع الصحابة من كتاب تاريخ الطبري، إلا أنه لدماثة أخلاقه لم يشأ أن ينقل لنا ما رواه الطبري بشكل مفصل لما قام به كبار الصحابة عند حملهم الراية من عمليات إحباط لهمم المسلمين وتثبيط لعزائمهم بشأن قوة اليهود واستحالة اقتحام حصنهم المنيع[(٢)].

ولم يذكر العلامة (سيديو) أيضاً ما يتعلق بقضية (فدك) الناتجة عن عملية فتح حصن خيبر. ولكن يبقى تركيز (سيديو) واضحاً على نقطتين أساسيتين في تلك الغزوة الحاسمة، وهما:

١- الحديث النبوي الشريف الذي يبين عمق العلاقة ومتانة الارتباط بين حب علي عليه السلام لله ولرسوله صلى الله عليه وآله من جهة، وحب الله ورسوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام من جهة أخرى.

٢- القوة الإعجازية المدهشة التي أبداها الإمام علي عليه السلام في فتح ذلك الحصن المنيع وحمله لبابه الرئيسي بيد واحدة، وهي في الواقع قوة لا تليق إلا بالأبطال وأصحاب الأحداث الأسطورية الخارقة التي نقرأ عنها في ملاحم الإغريق والفرس والرومان.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٥٣.

(٢) محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان - بيروت، د.ت، ج٣ ص١٢.

ولئن أدهشت هذه الحادثة الغريبة عقل العلامة الفرنسي (سيديو)، فقد أدهشت أيضاً عقولاً كثيرة من قبله، سواء من المسلمين أم من المسيحيين. ويكفي أن نشير هنا إلى أن الشاعر المسلم (عبد الباقي العمري)، سليل عمر بن الخطاب، هو خير مثال على أولئك المفكرين والأدباء المسلمين الذين أذهلتهم المعاجز العظيمة التي ظهرت على يدي أمير المؤمنين علي عليه السلام، فما كان منه إلا أن رفع إليه إصبع الإشارة بالكمال وبالجلال اللذين أفاضهما الله سبحانه وتعالى عليه، ومؤكداً على ذلك من خلال إكثاره من كلمة (أنت، أنت) الدالة هنا على تأكيد هذه المعاجز والمآثر والفضائل التي اختص بها الإمام علي عليه السلام دون غيره.

وها هو الشاعر (العمري) يقول في ديوانه (الترياق الفاروقي) معبراً عن شيء من تلك الفضائل والمآثر العلوية الخالدة خلود الزمان:

وأنتَ أنتَ الذي للقبلتين مع النبـ ــيّ أول من صلى ومن رَكَعا
وأنتَ أنتَ الذي في نفس مضجعِهِ في ليل هجرته قد باتَ مضّطجِعا
حكّمت في الكفر سيفاً لو هَوَيت به يوماً على كَتِفِ الأفلاكِ لانخلعا
وباب خيبر لو كانت مَسَامِرُهُ كلُّ الثوابت حتى القطب لانقلعا[1]

ولم يكتف هذا الشاعر العمري بتأكيده على أن الإمام علياً عليه السلام كان قادراً على انتزاع باب حصن خيبر المنيع، حتى ولو كان قطبا الأرض هما الممسكان لباب ذلك الحصن ومانعاه من السقوط والانهيار، بل نراه يختتم قوله الصادق

(١) عبد الباقي العمري: الترياق الفاروقي، مؤسسة النعمان - النجف الأشرف، ط٢/١٩٦٤، ص٩٧.

والمعبر بهذا البيت الشعري الشفاف والعميق في إشاراته ودلالاته:

ما فرق الله شيئاً في خليقته　　　من الفضائل إلا عندك اجتمعا

وأقل ما يعنيه هذا البيت الشعري الأخير هو أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لم يكن سيداً بقوته وبسيفه فحسب، بل كان سيداً وإماماً ومجمعاً شاملاً لكل الفضائل والمحامد والمآثر والخصال التي أودعها الله سبحانه وتعالى في صفوة خلقه.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن قوة علي عليه السلام الاعجازية التي أذهلت المستشرق الفرنسي (جان سيديو) وأدهشت عقله وأخذت بمجامع قلبه، لم تدهشه هو فحسب، بل أذهلت أيضاً الكثيرين من قبله ومن بعده. وبالطبع، فإننا لا نستطيع أن نعود إلى الوراء كثيراً مع آراء المسيحيين القدماء حول شخصية الإمام علي عليه السلام وذلك لسبب واحد فقط، وهو أن عنوان كتابنا يشير بوضوح إلى آراء المفكرين (المعاصرين) وليس القدماء. ولكن مع ذلك سنورد رأياً واحداً فقط لأحد كبار المفكرين المسيحيين الذين يمكن اعتباره من المفكرين المسيحيين المتقدمين نسبياً وليس من المعاصرين كي نتعرف على وجهة نظره بشأن شجاعة علي عليه السلام وقوته البدنية المتوائمة مع قوته الروحية الإيمانية.

فسحر البطولة يمكن أن يسكر، وعظمة المعاجز يمكن أن تثمل وتذهل، وهذا ما حدث مع المفكر والمستشرق الفرنسي (كارا دي فو Gara de Vaux) المولود عام (١٨٦٨) عندما تحدث في الجزء الخامس من كتابه (مفكرو الإسلام) عن عظمة أمير المؤمنين علي عليه السلام وخوارقه المدهشة للألباب. ومن اللافت للنظر هنا هو أن البارون (دي فو) يربط بشكل واضح بين قوة علي وشجاعته

البدنية والروحية من جهة وبين ولايته على المسلمين من قبل الرسول الأمين صلى الله عليه وآله من جهة أخرى، تلك الولاية التي أكد عليها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في يوم الغدير الأغر.

وها هو البارون (دي فو) يقول مُبيِّناً وجهة نظره في الإمام علي عليه السلام:

«وحارب علي بطلاً مغواراً إلى جانب النبي. وقام بمآثر معجزات. ففي موقعة بدر كان علي، وهو في العشرين من عمره، يشطر الفارس القرشي شطرين اثنين بضربة واحدة من سيفه. وفي أحد، تسلح بسيف النبي ذي الفقار، فكان يشق المغافر بضربات سيفه، ويخرق الدروع. وفي الهجوم على حصون اليهود في خيبر، قلقل علي باباً ضخماً من حديد. ثم رفعه فوق رأسه متخذاً منه ترساً مجناً. أما النبي، فكان يحبه ويثق به ثقة عظيمة. وقد قال ذات يوم، وهو يشير إلى علي: من كنت مولاه فعلي مولاه».

ولا أظن أن هذا الكلام بحاجة إلى أي تعليق أو تحليل، ولذلك، وبالعودة إلى الفكر المسيحي المعاصر، يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن بطولات علي عليه السلام لم تكن مجرد بطولات تعتمد على قوة الساعد ورهافة السيف، بل كانت بطولاته مقترنة ومتوائمة دائماً مع قوة الإيمان وصلابة اليقين في سبيل توطيد أسس الحق وترسيخ مبادئ الفضيلة والعدالة.

فالقوة البدنية، بحد ذاتها، ليست هي كل شيء، ولو كانت تلك القوة كل شيء لكان كل جبار متغطرس كعمرو بن ود العامري أو هولاكو أفضل من الكثيرين من أولئك المصلحين والمفكرين، أو حتى الرسل الذين جاءوا لينشروا السلام والهداية بين البشر دون اللجوء إلى إزهاق الأرواح وإراقة الدماء. ولكن

الحقيقة عكس ذلك تماماً، فالقوة يمكن أن تتحول إلى كل شيء إذا كانت مسخرة من أجل إحقاق حق أو إزهاق باطل، من أجل إحياء القيم والفضائل أو إماتة النقائص والرذائل.

وهذا النوع من القوة الخيرة هو ما كان يحمله الإمام علي عليه السلام بين جنبيه، وهي تلك القوة التي عمل الإمام عليه السلام على تسخيرها من أجل أن يتجلى الحق في أبهى مظاهره وأجلاها. فالله سبحانه وتعالى الذي من أسمائه الحسنى (القوي)، قد تسمى، بنفس الوقت، باسم آخر من الأسماء الحسنى الأخرى، وهذا الاسم هو (الحق).

وعندما نقرأ أيضاً أن من أسمائه، على سبيل المثال، (الجبار)، فإننا نقرأ عنه بالمقابل أنه (العادل). فكم هو رائع وجميع أن ندرك كيف يجب علينا أن نضع الأسماء والصفات في مواضعها المناسبة بحيث نعرف أن القوة من (القوي) هي، في المحصلة، مسخرة لخدمة (الحق)، وأن المنتقم (الجبار) لا ينتقم من الذين أسرفوا في ظلمهم وطغيانهم إلا من أجل (العدل) ومن أجل رفع الظلامة عن أولئك المستضعفين والمساكين الذين لا يجدون ناصراً لهم على من ظلمهم إلا الله!

وهذا بالضبط ما أراد الإمام علي عليه السلام أن يتمثله في حركته الحياتية على الأرض، وهذا ما أراد تحقيقه في وجوده، فكان له ما أراد قولاً وفعلاً. لقد أراد الإمام علي عليه السلام أن يتخلق ويتأدب بأخلاق وآداب الله سبحانه وتعالى في كل حركة من حركاته وفي كل سلوك من سلوكياته، وقد أراد عليه السلام أن يكون تألهه عاماً وشاملاً في القول والعمل، في العلم والقدرة، في الأمر والنهي، ولم تكن

إرادة الإمام علي عليه السلام في تحقيق ذلك في حالة انفصال عن إرادة الله سبحانه وتعالى، بل إن الإرادة الإلهية قد ترجمت عملياً إلى واقع عملي ملموس من خلال إرادة محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام في نشر راية الهدى والنور مع التوضيح الكامل لكل أوامرها ونواهيها، حلالها وحرامها، وإلى غير ما هنالك من شؤون وقضايا تتناول الحياتين الدنيوية والأخروية.

ولذلك، فعندما قال العلامة، الشيخ الأزهري، (عبد الله العلايلي) معبراً عن هذه النقطة المتعلقة بترجمة الإرادة الإلهية على الأرض، وعلاقة الإمام علي عليه السلام بذلك، من خلال مقولته البليغة عنه عليه السلام: «هو (علي) الإنسان الذي استحال طاقة في وجود الحق وكيانه»[1]، فقد قصد بذلك أن الإمام علي عليه السلام، خليفة الرسول صلى الله عليه وآله ووصيه، كان الإمام القادر على ترجمة إرادة الله من خلال تأدبه وتخلقه بآداب وأخلاق الله والعمل الدؤوب والجهاد المستمر على تأويل القرآن الكريم والعمل بموجبه وفق ما تمليه إرادة السماء على أهل الأرض.

ولا يسعنا أن نزيد في شرح هذه العبارة للعلامة العلايلي إلا بعبارة أخرى له، وهي العبارة الأعمق تعبيراً والأكثر بلاغة ووضوحاً، وهي عبارة قد أسلفنا الحديث عنها. إنها عبارة العلايلي التي تبين لنا أن علياً عليه السلام هو حجة الحق على الخلق: «شاء الحق أن يقدم نموذجه فكان علياً»[2].

---

(١) الشيخ عبد الله العلايلي: أيام الحسين عليه السلام، دار العلم للملايين - بيروت، ص١٥٣.

(٢) راجع: أ) نفس المصدر السابق: ص١٦٥.

ب) راجي أنور هيفا: مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق، ص١٥٥.

وبعد ذلك هل نستغرب أن يأتي علي عليه السلام بالمعجزات الخارقة بعد أن قدم لنا الحق المطلق نموذجه في الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ؟!!

فالإمام علي عليه السلام ، عند الأديب والباحث المسيحي سليمان كتاني- هو «القوة التي تسلحت بالإيمان والحق والعدالة، فانطوت فيه تلك الإرادة الصلبة، وفاضت عليه تلك الشجاعة النادرة، واندفقت به تلك البطولة الخارقة»[1].

وهذه البطولات الخارقة التي تحدث عنها الأديب سليمان كتاني في كتابه (علي نبراس ومتراس) هي أحد الجوانب الهامة في شخصية الإمام علي عليه السلام التي جعلت منه - كما يقول الكتاني نفسه -: «القطب الكبير الذي دار عليه محور الرسالة»[2].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام ، من خلال كمالاته في شتى ميادين الفكر والمعرفة والقوة والاستبصار قد حطم كل المقاييس البشرية وتجاوزها صعوداً باتجاه النهايات المفتوحة على المطلق العظيم. ولأنه عليه السلام اختار المسير صعوداً إلى الكمال، فقد عشقته البشرية بكافة أطيافها وأديانها، وكيف لا يعشق الناقص الكامل؟

وأي غرابة في أن يشتاق الجزء إلى الكل؟

ثم، أليس استغناؤه عن الكل، كل الأفراد، واحتياج الكل إليه هو الدليل على أنه إمام الكل وسيدهم؟

(١) سليمان كتاني: الإمام علي نبراس ومتراس (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٣٨٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٤٥٣.

نعم، فالعشق الصادق القوي مغناطيس عظيم يجذب الصغير إلى الكبير.

والعشق الصادق يجعل العاشق الباحث عن حاجته يسعى جاهداً للالتحاق والارتباط بالكامل ومن ثم للفناء فيه.

والعشق الصادق أيضاً بحر محيط يضم في خضمه قطرات تعشق الحياة والخلود، تنفصل عنه وتغادره، ولكن إلى أين؟! ترحل عنه وهي منه، تعلو بأجنحة الحب عليه فيجذبها الشوق إليه.

هذا هو العشق، وهذا هو الشوق الذي يجعل مفردات الحياة تستدير بوجوهها نحو الشمس. وعندما يكون العشق كذلك، فلا بد أن يكون ذلك العشق الإلهي الخالد- كما يقول الفيلسوف الباكستاني الكبير محمد إقبال- هو عشق الوصي علي[1]. فالعشق الروحي الحقيقي هو حقاً عشق الإمام علي عليه السلام.

ولذلك، فعندما تميل قلوب الباصرين بعيون العشق الروحي لعلي، فلا يقف اختلاف الدين ولا اختلاف القوميات ولا تباين الألوان حاجزاً في طريق ذلك العشق الجارف. فكل الأفئدة الباصرة من الناس تهوي إليه.

وها هو عبد المسيح الإنطاكي يؤكد ذلك بقوله إن «منزلة المرتضى العالية هذه لم تقتصر على المسلمين فعرفوها، بل تعدتهم إلى غير المسلمين. فهوذا أهل الذمة وهم لا يقرون بالنبوة ولكنهم يحبونه ويحترمونه، وهوذا الفلاسفة تعظمه وتبجل مقامه وتعجب بحكمته وأكثرها معطلة أو جاحدة، وفوق هذا فإن ملوك

(١) الفيلسوف محمد إقبال: ديوان جناح جبرائيل، دار طلاس - دمشق، ١٩٨٧، ص٩٣.

الترك والديلم قد صوروا على سيوفهم صورته الشريفة تعويذة لهم وطلباً للنصر باسمه الشريف وبركاته»[1].

ووفقاً لهذا، يمكن القول إن الشجاعة في حدودها الصحيحة والسليمة ليست عملاً جسدياً ولا إنجازاً بدنياً فحسب، بل هي طبع من طباع النفس ومزية من مزايا وخصائص الإيمان واليقين، «وشجاعة الإمام علي عليه السلام هي من الإمام بمنزلة التعبير من الفكرة وبمثابة العمل من الإرادة. لأن محورها الدفاع عن طبعٍ في الحق وإيمان بالخير»[2].

ولعلّ ما يثبت صدق هذا المقال هو التحليل الدقيق للعلاقة الوطيدة بين أقوال علي عليه السلام وأفعاله خلال مسيرة حياته المثقلة بالكفاح المرير. فالدراسة المعمقة لتلك العلاقة بين الأقوال والأفعال، بين المبادئ النظرية والتطبيقات العملية، تظهر أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن في يوم من الأيام براغماتياً أبداً. فهو بطبعه صاحب مواقف ومبادئ، وصاحب نهج وخط رسالي واضح في الحياة، وشجاعته وإقدامه البطولي ينبعان من إيمانه الراسخ بتلك المبادئ والمواقف التي يحملها، وهذا يدل على أن طبيعة الورع والتنزه عن البغي والعدوان أصل من أصول نفسية علي عليه السلام وخلق من أخلاقه. وإن تلك الشجاعة المجبولة بالقوة العظيمة التي لا تقهر إنما هي شجاعة متصلة اتصالاً وثيقاً بمبدئه العام الذي يقوم على احترام العهد، وصيانة الذمة، والرحمة بالناس والعطف على الرعية. وليس علي عليه السلام في هذا المجال من حديثنا بالمتحدث دون المترجم، وليس هو

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي، ص٧١٠.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٨٠.

بالقائل دون العامل، بل هو المترجم الصادق لكل ما يتحدث به، وهو العامل المجتهد لتحقيق ما يتفوه به. ولذلك، فإن الإمام علياً عليه السلام بالنسبة للكثير من المفكرين المسيحيين هو «أبعد الخلق عن أن ينال الخلق بالأذى. وأقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل.. حياته كلها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين، وانتصاراً دائماً للشعب دون من يريدونه آلة إنتاج لهم من السادة ورثة الأمجاد العائلية»[1].

وإذا كان المفكر والأديب جورج جرداق يرى أن الإمام علياً عليه السلام قد نذر نفسه من أجل رفع الظلم والحيف عن الإنسانية المعذبة والمهيضة الجناح، تلك الإنسانية الجريحة التي تبحث عن هويتها الروحية الضائعة والتي يمثلها المظلومون والمستضعفون خير تمثيل، فإن المفكر والباحث نصري سلهب يرى أن سيف علي عليه السلام وشجاعته كانا خادمين أمينين لسلطة الضمير وسيادة الحق التي لا تعرف ولا تقيم وزناً للون دون لون ولطبقة دون طبقة، ولا حتى لفردٍ - وإن ظن أن جاهه أو ماله سيشفع له - دون فردٍ آخر لا جاه له ولا مال. فالكل متساوون في ميزان الإنسانية.

فالإمام علي عليه السلام الذي هو بحق، كما يقول عنه الأستاذ سلهب، بطل الإسلام في الوقعات كلها دون منازع. فهو الإمام الذي حارب بسيفه وقلبه، جذوة من نار لا تخبو حيث لم تشفع لقريش وجاهتها بين القبائل، ولم تشفع لها عروبتها أيضاً في أن يرفع علي سيفه في وجهها كشعلةٍ من غضب الله يرمي بها وجوه طغاتها وجبابرتها، فأحرق بسيفه المشبع غضباً على الظلم والظالمين

(١) نفس المصدر السابق: ص٨٥.

خلقاً كثيراً، فما غفرت له قريش ذلك ولا استطاعت أن تنسى[١].

ولكن علياً عليه السلام ذاك الإمام الذي صنع المعجزات بقوة إيمانه وبقوة سيفه لم يكن في نظر المسيحيين مجرد فارس شديد البأس وقوي الشكيمة، بل كان أكثر من ذلك بكثير. لقد كان في نظرهم جوهرة سماوية ألقى بها رب السماوات العلى من عليائه إلى الأرض كي يبين للناس أن الالتفاف حول تلك الجوهرة الثمينة النادرة والجامعة للكمالات والصفاء والنقاء الدال على الصانع المبدع هو المحك الأساسي للإيمان بمن صنع وأبدع.

ولذلك نقول، كيف يمكن لأي مسيحي أن ينظر إلى الإمام علي عليه السلام بنفس الطريقة العميقة التي نظر بها الأستاذ الباحث نصري سلهب وهو يصف معاجز الإمام البطولية وإعجازاته العلمية والفكرية بقوله: «فعلي من أولئك النفر القليلين، من النخبة، من المختارين الذين ينثرهم الله في الدنيا، كل ألفٍ من السنين أو أكثر، ليحملوا مشعل الحق والحقيقة عالياً فيهتدي به البشر في تفتيشهم على الله وتلمسهم الطريق إلى أنفسهم وإلى السماء»!!![٢]

إنه، بلا أدنى شك، أمر عسير أن يتساوى الجميع في النظر إليه عليه السلام وإلى معاجزه وبطولاته، فعلي عليه السلام نادر كالأنبياء، ومنتخب كالرسل والأصفياء. وعلي عليه السلام أيضاً هو ذاك الذي عندما يدقق العقل في حقائق معجزاته وفي قدراته الفكرية والجسدية، ينبغي عليه - على العقل- أن يتوخى الحيطة والحذر في التفكير في ما وقع عليه الحس من صورة الإمام علي ومعاجزه التي قام بها

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٨٠.

أمام أبصار المؤمنين والكافرين. وعندئذٍ لا يمكن للعقل الباصر والباحث عن الحقائق إلا أن يقول متسائلاً:

كيف يمكن للباحث المسيحي أن يفهم مقولة الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام عندما برز لعمرو بن ود العامري يوم الخندق: «خرج الإيمان كله إلى الشرك كله»، تلك المقولة التي يتغنى المسيحيون بها في كتبهم ومؤلفاتهم عن علي عليه السلام ؟!(١)

بل كيف يمكن للمسيحيين عموماً أن ينظروا إلى قوة الإمام علي عليه السلام الفكرية وشجاعته الجسدية عندما يقرأون اسمه الشريف في معاجم الآلهة والأساطير وارتباط تلك القوى التي يتميز بها علي بالعديد من الحكايات والموروثات الشعبية التي تعكس، ولو بصورة غير دقيقة، شيئاً من صدى خوارق علي عليه السلام ومعاجزه.

وعلى سبيل المثال، نستطيع أن نقرأ في كتاب (قاموس الآلهة والأساطير) المؤلف من قبل مجموعة من الباحثين الألمان، وعلى رأسهم الباحث (هـ. س. نيبرغ) المتخصص في دراسات الملاحم والأساطير القديمة وفي تحليل الديانات والمذاهب المختلفة أن اسم علي بن أبي طالب قد ارتبط عند بعض الأقوام البائدة بالمعاجز الخارقة لحدود العقل البشري، وبالقوى الكلية المطلقة، وحتى ببعض الجوانب المثيولوجية المتعلقة ببعض قوى الطقس ومظاهره(٢).

إن هذه الأسئلة وتلك الاستفسارات التي يحاول المفكرون والأدباء

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٤.

(٢) مجموعة من الباحثين الألمان: قاموس الآلهة والأساطير، مصدر سابق، ص١٨٤.

المسيحيون إيجاد الأجوبة الشافية لها، هي في الواقع أمر مشروع لهم ولغيرهم، فمن حق كل مفكر أو باحث، أو حتى أي إنسان عادي، أن يبحث عن أسرار تلك القوى الخفية التي كان يتمتع بها الإمام علي عليه السلام ، ولكن على الجميع أن يدكوا أولاً وأخراً أن الإمام علياً عليه السلام في نهاية المطاف- وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنه - هو حجة الله البالغة، وهو الآية العظمى المحتجبة عن المعرفة والتي دل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عليها بقوله: «يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا»[1]، وهذا ما كان يصطدم به المفكرون والباحثون المسيحيون في بحثهم الدؤوب ومحاولاتهم المستمرة في إزاحة الستار عن أسرار علي عليه السلام ومعاجزه، وفي توهمهم أنهم قد عرفوه حق المعرفة.

ولكن، وبالرغم من كل ذلك، كان البعض منهم يرى في علي عليه السلام أنه حق في كل وجوهه ووجوده، معتمدين في ذلك على القول الأسبق للرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي لا ينطق عن الهوى والذي وصف فيه علياً عليه السلام في غزوة الخندق بأنه هو «الإيمان كله»، وبالتالي، عندما يكون علي هو الإيمان كله، فلا بدّ وأن يكون- كما يقول عنه نصري سلهب - هو حق كله[2].

ولم يختلف الشاعر الأديب خليل فرحات في وجهة نظره بشأن قوة علي عليه السلام وبطولاته عن وجهة نظر الأديب والمفكر نصري سلهب، إلا أنه كان

(١) حجة الإسلام ميرزا محمد تقي: صحيفة الأبرار، دار الصراط - طهران، ج١ ص٢٩٥، الحديث رقم ٤٤٧.

(٢) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٤.

أكثر عمقاً وأطول باعاً في تفسير واكتناه تلك المعاجز العلوية الخالدة. ولذلك، فإن الأديب الشاعر خليل فرحات لم يدع يراعه البليغ يتكلم عن بطولات علي عليه السلام وقوته الإعجازية بشكل سردي تاريخي وبأسلوب كلاسيكي رتيب، بل ترك العنان لقلمه كي يدوّن النتائج العميقة الكامنة وراء تلك المعاجز الخالدة التي أعجزت العقل البشري القاصر عن فهمها وكشف اللثام عن حقيقتها.

وبالتالي، فالإمام علي عليه السلام، بالنسبة للشاعر المسيحي (فرحات) هو أمل الوجود وحامل أسرار كل موجود، بل هو الإمام الذي تخضع له كل القوانين والنواميس في الطبيعة، ولعل حادثة رد الشمس خير مثال وأوضح دليل على ذلك. وهو عليه السلام أيضاً، بالنسبة لذلك الشاعر المسيحي، إمام الزمان وسيده إذ ليس الزمان بقادر على أن يحتويه ويحتوي عظمته.

ولنستمع إليه الآن وهو يعبر عن ذلك شعراً بقوله:

تشيمُ بكَ الأشياءُ مكنونَ سرِّها ... وما تعبتْ منذ الخليقة بالسرِّ
وتَهدي لك الأكوانُ فعلاً ومأملاً ... ويأوي إليك الوقتُ مضطرمَ السَّحرِ
خُذِ الشَّمس إذ كفَّاك قالا بعودةٍ ... فشمسُ غروب تلك عادت إلى العصر
وَفيكَ تجلَّتْ قدرةُ الله آيةً ... كما شعشعتْ في الضوء خالصةُ الدُّرِّ

وهنا يتساءل (فرحات) عن معنى الوجود لولا وجود الإمام علي عليه السلام، فيتابع قائلاً:

تعالتْ بك الأرضونَ واشتدَّ ظهرُها ... فلولاكَ هذي الأرضُ مقصومةُ الظهرِ
ولولاكَ ما الإنسان؟ ما الخلقُ كُلّه؟ ... سوى هذه الأمواه تنسابُ في النهر[1]

---

(١) خليل فرحات: في محراب عليّ، ص١٩-٢٠.

فالإنسان والخلق كله، بل الوجود بأكمله لا يساوي شيئاً لولا وجود علي عليه السلام، بل هو في حقيقته عبارة عن أمواهٍ تعود لتنساب من جديد في النهر الذي ولدت منه، وما ذاك النهر العظيم الذي ولدت منه تيارات الفكر وأمواج العلوم والمعارف إلا علي عليه السلام.

ولا ريب في أن هذا الكلام من الشاعر المسيحي خليل فرحات يذكرنا بما أورده ابن أبي الحديد المعتزلي في قصائده المسماة بالقصائد العلويات حيث قال في وصف الإمام علي عليه السلام:

هذا هو النور الذي عَذَبَاتُه ... كانت بجبهة آدم تتطلَّعُ
وَشهابُ موسى حيثُ أظلَمَ ليلُهُ ... رُفِعَتْ لـه لألاؤه تتشعشعُ
ما الدهرُ إلا عبدُكَ القِنُّ الذي ... بنفوذ أمرك في البريَّةِ مُولَعُ
بل أنت في يوم القيامة حاكمٌ ... في العالمين وشافع ومُشفَّعُ[1]

ولكن علينا أن نعلم أنه ليس كل الأدباء والمفكرين المسيحيين قد ضمنوا كتاباتهم عن الإمام علي عليه السلام وعن بطولاته ومعاجزه جوانب عرفانية في تحليل تلك المعاجز وفي تصوير تلك البطولات، بل نستطيع أن نلاحظ بوضوح أن البعض منهم قد اكتفى بالتركيز على الحدث ذاته وليس على خلفيات ذلك الحدث أو على دراسته وتحليله.

فالوزير اللبناني الأسبق والأديب الشاعر (جوزيف الهاشم) يكتفي بالتصوير الحي والمباشر لبطولات علي عليه السلام ودوره في إعلاء راية الهدى ونشر

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: القصائد العلويات، راجع القصيدة السادسة، إصدار: مؤسسة الأعلمي - بيروت، والقصائد العلويات ملحقة بالقصائد الهاشميات للكميت.

رسالة الحق بين الخلق في مجتمع جاهلي كان للشرك وللوثنية فيه مراتع وملاعب.

ويكفي أن نذكر بعضاً من أبيات القصيدة الهائية الرائعة للأديب المسيحي (الهاشم) والتي تحمل عنوان (ضوء من الضوء)، تلك القصيدة التي يقصد الشاعر من خلال ذلك العنوان إلقاء الضوء على العلاقة الوثيقة بين محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام من خلال وحدتهما النورانية في عالم الأنوار السابق على الخلق الآدمي.

يقول الأديب (الهاشم) واصفاً قوة علي عليه السلام وكيفية أن الفتح المبين يكون دائماً على يديه المباركتين:

أيام بدرٍ، حُنينٍ، خَنْدَقٍ، أُحُدِ ... وَالبيدُ والصيدُ تحكي عن بطولتهِ

ويوم خيبر في حصن اليهود دوى ... لذي الفقار صليلٌ قبل صولتهِ

تَزعزعَ الحصنُ، من هو الدويُّ، وما ... جادت بثانيةٍ نجلاءُ ضَربتهِ

على (يديه يتمُّ الفتح)، كم خفقتْ ... سيوفُ ربِّكَ ظلاً فوق جنَّتهِ

ما كفَّ إلا مع التكبير ساعدُهُ ... وللصلاة انحنت هيفاءُ قَامتِهِ[1]

وعلينا أن نلاحظ في مطلع البيت الرابع المذكور هنا أن الشاعر قد تعمد وضع عبارة (على يديه يتم الفتح) بين قوسين للتأكيد على صدق قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله المذكور في معظم مراجع وكتب السنة، والذي ينص على أن الفتح الإلهي العظيم سيكون على يدي الإمام علي عليه السلام حصراً. وقد عرف هذا الحديث النبوي الشريف عند السنّة باسم حديث الراية[2].

(١) مجموعة من المفكرين والأدباء: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص٣٩.

(٢) سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضي - قم، ١٤١٨هـ، ص٣٢.

ولو أردنا أن نعرج ثانية على ما خطه قلم الأديب نصري سلهب عن فلسفة القوة عند علي عليه السلام وعن أبعادها وغاياتها، فما علينا إلا أن نقف عند تلك العبارات الشفافة التي سنوردها له محاولين التروي والتمعن في معاني تلك العبارات الصادقة عن فلسفة القوة عند أمير المؤمنين عليه السلام .

وقبل كل شيء، يرفض الأديب والباحث نصري سلهب أن يصف الإمام علياً عليه السلام بالشجاع أو بالبطل لمجرد أنه قتل المئات وصارع الأبطال الصناديد وصرعهم، بل هو عليه السلام: «شجاع لأنه تصدى للباطل والجور والظلم، للبغي والشرك، بل للكفر، وخاض المعارك في حياة النبي وجيش المسلمين في موقف الدفاع لا الهجوم»[1].

والحقيقة، إن هذه النقطة هامة جداً، وذلك لأن البعض يظن أن الإمام علياًعليه السلام لم يكن له شغل شاغل إلا رفع سيفه ذي الفقار من أجل سفك الدماء وقهر صناديد الكفار وصرعهم، وكأن غايته نشر الرسالة الإسلامية الإنسانية بالسيف لا بالكلمة، بل كان الإمام علي عليه السلام دائماً وأبداً فوق تلك الأوهام والظنون، فقد كانت فلسفة البطولة عنده مبنية على أسس إنسانية وأخلاقية مستمدة من القرآن الكريم الذي تشرب الإمام علي عليه السلام كل معانيه وقيمه قولاً وفهماً وعلماً وعملاً، فانعكست صورة (الذكر الحكيم) في كتابه (النهج القويم) والذي عكس بدوره صورة الإمام من خلال فضائله ومآثره وجلائل أعماله وبلاغة بيانه وفصاحة لسانه.

وعن تلك الفلسفة التي تبناها الإمام علي عليه السلام في بطولاته من خلال

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٩١.

استخدامه لسيفه ذي الفقار في جميع الوقعات والمعارك، يقول الأستاذ (سلهب): «كان علي سيفاً ما سل إلا لنصرة الحق على الباطل، وسهماً ما أطلق إلا على القوي حمايةً لضعيفٍ، ورمحاً ما جرد إلا على الظالم دفاعاً عن مظلوم، وغضباً ما انصب إلا على الغني رفقاً بالفقير والسائل والمحروم وابن السبيل»[١].

وكيف لا يكون الإمام علي عليه السلام كذلك، وهو الإمام الذي ما فترت همته في نهي ولاته وقادة جيوش الإسلام عن البغي وعن رفع السيف إلا من أجل رفع ظلمٍ أو رد حيف. وكيف لا يكون الإمام علي عليه السلام كذلك، وهو الذي أوصى ابنه الإمام الحسن عليه السلام قائلاً له:

«لا تدعون إلى مبارزة. وإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغٍ، والباغي مصروع»[٢]. ثم أليس هو عليه السلام القائل أيضاً في دعاء طويل له:

«اللهم.. إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغي وسددنا للحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة»؟[٣] أليس هو القائل ذلك؟!!!

فمن أقوى دلائل وشواهد تورعه عن البغي والعدوان وترفعه عن الدعوة إلى الحوار بالسيف، أنه لم يبدأ أحداً بقتال قط، ولم يقدم في حياته كلها على القيام بعملية ثأرٍ شخصي أبداً، وما شهر سيفه في يوم من الأيام ليروي حقداً أو

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٩٢.

(٢) آية الله المشكيني: الهادي إلى موضوعات نهج البلاغة، وزارة الإرشاد الإسلامي - طهران، ص١٣٠.

(٣) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٣١.

يشبع بغضاً، فالحقد والبغض أبعد ما يمكن أن يكونا عن قلبه النبيل. فقوة علي عليه السلام وشجاعته الفريدة وبطولاته المذهلة، كل ذلك لم يكن ليزداد علواً وسمواً إلا لأن هذه القوة والشجاعة والبطولة قد ازدانت بأرفع وأروع الصفات الأخلاقية والسمات الإنسانية التي صبغت شجاعته وقوته بسمو المعاني ونبل الغايات.

ولذلك، فإننا لا نستغرب، وكذلك حال المسيحيين، من حال قراءتنا للكثير من الأحاديث التي نقع عليها في بطون أمهات الكتب التراثية الثمينة التي تنقل لنا صوراً متنوعة عن فخر أهل المقتولين بسيف الإمام علي عليه السلام، وليس ذلك الفخر لشيء إلا لأن القتلى قد لاقوا حتفهم على يد الإمام النبيل الذي أنسى بشجاعته ونبل أخلاقه وكمال صفاته ذكر كل من كان قبله ومن سيجيء بعده.

وإذا كنا نستطيع أن نقرأ في شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي قوله عن خوارق شجاعة علي عليه السلام: «أما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي من بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة»[1]. فإذا كنا قادرين على قراءة أقوال كهذه في مؤلفات ابن أبي الحديد المعتزلي وفي كتابات غيره من المؤلفين الأوائل من المسلمين، فإننا نستطيع أن نقرأ الكثير من الأقوال المماثلة في كتابات ومؤلفات المفكرين والأدباء المسيحيين المعاصرين.

وكمثال على صدق هذا القول، نستطيع أن نقرأ عن شجاعة علي عليه السلام

(١) توفيق أبو علم: الإمام علي بن أبي طالب، دار المعارف بمصر، ص٤٤.

وبطولاته الإعجازية قَولَ قلمٍ مسيحيٍّ معاصر حيث يرى صاحب ذلك القلم أنه «شرف للمرء وفخر أن يصرعه علي، ذلك أنه البطل الذي لا يقهر والذي غدا اسمه مرادفاً لثورة السماء على الأرض. وأقل ما يقال في هذا الصدد إن الموت بسيف ابن أبي طالب ما كان عيباً ولا عاراً»(١).

ولكن الذي لفت انتباهي في بعض هذه الكتابات المعاصرة للمفكرين والأدباء المسيحيين هو أنهم قد ربطوا شجاعة علي عليه السلام النادرة وقوته البالغة من جهة مع سقوط الفكر الوثني وانهيار النظم الفكرية الروحية السلبية من جهة أخرى. فالكاتب الباحث (فريد. أ. ريد)، على سبيل المثال، يرى في كتابه (Shattered Images) أي (الأصنام المهشمة)، والمطبوع حديثاً في كندا أن الإمام علياً عليه السلام كان شخصية متميزة في نهجها وسلوكها وفي مجمل صفاتها. ويرى (ريد) أيضاً في كتابه المذكور أن «اندحار عصر الجاهلية وهزيمة الأوثان بدأت فعلياً مع صعود علي بن أبي طالب على كتفي الرسول وتحطيم الأصنام وإزالتها من أعلى الكعبة الشريفة»(٢).

وهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام هو الذي لعب الدور الأكبر، إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله، في تغيير وجهة التاريخ، وهو عليه السلام أيضاً، بصفاته ونهجه، قد أعطى للتاريخ ولادة جديدة وبعداً روحياً وأيديولوجيا فكرية متجددة لم تكن معروفة من قبل. فبولادته المباركة في الكعبة الشريفة اهتزت الأوثان والأصنام،

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٩٢.

(٢)Fred A.Read. Shattered Images. Talonbooks bancouver Canada 2003 p.19.

وما أن ترعرع وكبر قليلاً حتى تساقطت تلك الأصنام والنظم الوثنية على يديه المباركتين.

وهنا يمكن أن نطرح السؤال التالي:

هل ولادة الإمام علي عليه السلام في الكعبة الشريفة، ومن ثم إسقاطه لاحقاً لأعظم الأصنام عن ظهرها، وهي البيت الذي سيكون لاحقاً قبلة لكلّ المؤمنين، هل كل ذلك مجرد مصادفة أم لحكمة إلهية خفية الغرض منها بيان شيء من مقام الإمامة؟

نترك الإجابة للقارئ، مع اعتقادنا أن إجابتنا لن تكون مخالفة لما ستكون عليه إجابة قارئنا الكريم.

ولكن ما نريد توضيحه هنا، وبشكل أكثر شمولية، هي النقطة التي تحدث عنها المفكر (ريد) حول ولادة التاريخ الجديد على يدي علي عليه السلام الذي حطم الصور الصنمية والمعتقدات الوثنية السابقة على الرسالة الإسلامية، وعن أثر هذه الحركة الثورية التي قام بها كل من علي أمير المؤمنين عليه السلام ومحمد، الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، في محاولة جدية منهما لصياغة المفاهيم الجديدة للإنسانية التي فقدت قيمها الروحية والفكرية وباتت تبحث عن ذاتها التائهة من خلال التماس هوية روحية جديدة.

إن هذه الثورة التي خطط لها محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام وقاما بتنفيذها بشجاعة بالغة وبتأييد إلهي كامل، والتي استطاعت يد الإمام علي عليه السلام من خلالها تهشيم رموز الانحطاط الروحي الذي قاد إلى فقدان الهوية الإنسانية وضياع القيمة الوجودية، إن هذه الثورة هي المفتاح الذي سيظهر وبوضوح

المبادئ والتعاليم التي سيقاتل علي عليه السلام من أجلها في المستقبل.

فالإمام علي عليه السلام الذي سيجاهد على تنزيل كلام الحق، سيقاتل غداً أيضاً على تأويله. ولا يعني هذا الكلام أن صراع علي عليه السلام وجهاده سيكون مقتصراً ومحصوراً ضمن نطاق الدفاع عن أبناء الرسالة الإسلامية فحسب، بل سيكون ذلك الصراع من أجل الرهان على الإنسان عموماً.

والإمام علي عليه السلام الذي بلغ- كما يقول عنه الفيلسوف الأديب ميخائيل نعيمة- حد الكمال[1]، هو الإمام الذي هز الشرق والغرب بمبادئه وقيمه. وهو الإمام الذي خفقت راية لا إله إلا الله على يديه، فكان ذلك إيذاناً بسقوط ونهاية عبودية الإنسان المؤمن لغير الله تعالى.

فالإمام الذي حمل بيمينه سيف الحق وبيساره راية الهدى، كان يحمل ما بين اليدين العظيمتين قلباً كبيراً يفيض إيماناً وقوة ورغبة في إعادة صياغة الوجود الإنساني بشكل مطابق لإرادة وحكمة السماء.

وتحققت بالفعل نبوءة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بشأن جهاد علي عليه السلام على تأويل القرآن بعد أن جاهد على تنزيله، ولكن هذا الجهاد المرير والطويل الذي رافق الإمام علياً عليه السلام حتى آخر لحظة من عمره الشريف كان له الأثر الأعظم على فكر كل من يريد أن يشارك في إعادة إعمار الإنسان الذي استطاع أن يجد هويته الضائعة وحقيقته المفقودة.

ولو تساءلنا عن مبلغ ذلك الأثر الذي تركته مبادئ علي عليه السلام وسيرته

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٨.

الجهادية ضد كل مظاهر الظلم والطغيان، فماذا سيكون الجواب؟!

وبتعبير آخر: ماذا تعلم قادة الفكر الإنساني من مبادئ علي عليه السلام ومن شجاعته في مواجهة الباطل؟

لا شك في أن قادة الفكر البشري الإنساني، وأرباب الثورات على الظلم والطغيان في مجتمعاتنا قد تأثروا إلى حد بعيد بأفكار ومبادئ علي عليه السلام المتعلقة بالبطولة والإقدام. فما من ثورة صادقة في منطلقاتها وأهدافها إلا ولعلي عليه السلام السهم الأكبر في رسم خطوطها العريضة وأهدافها الإنسانية الشاملة. وليس هذا القول هو قولنا فحسب، بل يمكننا أن نقرأ بكل وضوح ما كتبه الأديب والمفكر (جورج جرداق) عن هذه النقطة الهامة بقوله: «وإن أنت أحصيت غايات هذه الثورات التي زلزلت الشرق قروناً طوالاً وقضت مضاجع الطغاة، ألفيتها الغايات الاجتماعية التي من أجلها كافح علي، وإليها دعا، وفي سبيلها استشهد. وهكذا التقى في حب علي بعصور الاضطهاد هذه: المسلم والمسيحي والعربي والمولى وكل من هاله أن يرى رزقه منهوباً وحقه مغصوباً وعمره مسلوباً في مجتمع يتكدس فيه التخنث في قصور الطبقات الحاكمة المهترئة كما يتكدس الجياع والعراة في الأزقة والقفار»[1].

إذاً، فعلي- كما يراه هذا العلم المسيحي البارز- هو صوت الثورة الهادر في ضمائر المظلومين وفي صدور المستضعفين، وهو يد الله - جل الله عن التشبيه - التي تمسح رؤوس الأيتام الجياع والمحرومين من جهة، وهي اليد التي تحمل

(١) نفس المصدر السابق: ج٥ ص١٨٦.

سطوة الحق لتنزلها حمماً من لهب على رؤوس الطغاة والحكام المتجبرين من جهة أخرى. وهو الإمام الذي ينادي المسلم والمسيحي باسمه الشريف ليرفع عنهم الظلم والجور والحرمان في كل بقعة من البقاع وفي كل صقع من الأصقاع.

وكيف لا ينادي المسيحي باسمه، وهو الإمام الذي كان يضع إنسانية الإنسان فوق كل اعتبار، ويضع كرامته فوق كل مقياس ومعيار؟!!

أليست تعاليم علي عليه السلام هي عين تعاليم محمد صلى الله عليه وآله؟

أليست كل منهما مرآة للآخر؟

إذاً، فعندما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله موصياً أتباعه بالحفاظ على كرامة المعاهدين من مسيحيين وغير مسيحيين: «ألا من ظلم معاهداً أو نقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»(١).

وعندما يؤكد ثانية على ضرورة احترام المسيحيين بعد أن يفتح الله على المسلمين (مصر)، قائلاً: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقطبها خيراً، فإن لهم فيكم صهراً وذمة»(٢).

فعندما يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ذلك، فإن أولى الناس بترجمة هذه المبادئ وتطويرها والسعي الدائم لاحترامها وتعزيزها في النفوس هو الإمام علي عليه السلام، مرآة محمد صلى الله عليه وآله وشقيقه في عالمي النورانية والبشرية.

---

(١) محمد باقر الصدر: اقتصادنا، دار التعارف - بيروت، ط١٦/ ١٩٨٢، ص٤٧٣.

(٢) شوقي أبو خليل: الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، ١٩٨٢، ص٦٠.

ومن أجل ذلك أصبح اسم علي عليه السلام عند المسيحيين عبر تاريخنا الطويل «مبعث أمل لكل مغصوب وصيحة تتردد على لسان كل مظلوم، وحصناً يفزع إليه كل من ضيّقت عليه الحياة. فما من طالب إنصاف في هذا التاريخ إلا اسم علي ملاذه. وما من غاضب على ظالم إلا واسم علي درعه. وما من ساخط على رشوة أو فساد أو جور إلا وله من علي وتراثه حافز على الثورة»(١).

ولذلك، فإن الإمام علياً عليه السلام ما قال كلمة قط إلا وعاشها عمقاً وعلواً بنفس الوقت. وما خاض حرباً إلا وخاضها من أجل شرف تلك الكلمة ومن أجل أن تبقى تلك الكلمة المستمدة من الفكر السماوي مشعة ليراها الناس أجمعين.

فالكلمة العلوية هي الامتداد الطبيعي للكلمة المحمدية، تلك الكلمة التي استمدت نور حروفها من رب السموات العلى الذي أراد أن يطهر الأرض من رجسها والنفس البشرية من دنسها.

ولم يستطع التاريخ أن يسجّل عن علي عليه السلام أنه، ولو لمرة واحدة، قد شهر سيفه ليروي حقداً أو لينتصر لقضية شخصية. ولذلك، فإن شجاعته النادرة المقرونة دائماً بالصفات الأخلاقية الكاملة التي تجمعت في شخصه العظيم ستبقى أنشودة العصور وألحان الدهور على أوتار البقاء والخلود.

وقد صدق الأديب الأريب (نصري سلهب) عندما تحدث عن كمالات علي في الشجاعة وإظهار المعجزات الخارقة على يديه الكريمتين، فكان علي عليه السلام هو

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص١٨٦.

الإمام «الذي تجسدت في زنده طاقة السماء، وجرت في حدِّ سيفه غضبة الله»[1].
فكان علي عليه السلام ، بحق، يد الله التي لا تقهر.

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٩٢.

علي مجمع علوم الرسل والأنبياء عليهم السلام

عندما نقرأ ونحلل قول الطبيب الحكيم والشيخ الرئيس (ابن سينا): «كان (علي) من العلوم في المحل الذي لا تحلق إليه البشر»[1]، ندرك مباشرة موقع علي العلمي البارز في كل ميدان من الميادين الفكرية والعلمية قياساً بمواقع بقية البشر من علماء وغير العلماء.

وعندما تصدر هذه العبارة من شخص معروف بلقب (الشيخ الرئيس) إكراماً وإجلالاً لعلومه ومعارفه التي حازها بعد جهد جهيد، فإن ذلك يعني أن علياً، أمير المؤمنين عليه السلام، لم يكن عالماً في ميدان العلوم الشرعية فحسب، بل كان عالماً في شتى فنون وضروب العلوم الطبيعية والكونية أيضاً.

ولكن قبل الدخول إلى عالم العلوم والمعارف عند الإمام علي عليه السلام، وقبل الوقوف على ما يقوله المفكرون والأدباء المسيحيون عن مدى أعلميته وغزارة معارفه وعمقها، لا بد لنا من الوقوف قليلاً مع قيمة العلم كما يراها القرآن الكريم وكما يراها الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص١٤٨.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَستَوِي الأعمَى وَالبَصِيرُ﴾[1]، وقد ذهب معظم المفسرين إلى المعنى من الأعمى هنا هو الجاهل، والمعنى من البصير هو العالم أو الباصر بنور عقله.

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿... قُل هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الألبَابِ﴾ [2].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿... يَرفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [3].

فهذه الآيات الكريمة الثلاث كافية لإعطاء فكرة وافية عن القداسة والاحترام اللذين يحظى بهما العلم في الكتاب السماوي الأخير. فالذين يحصلون العلم، كل أنواع العلوم والمعارف الدينية والدنيوية، هم كأولئك الذين يؤمنون حق الإيمان بما جاء به الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، إذ إن الله يرفع كليهما درجات عالية ويجعل لهما، لهذين الصنفين، درجات رفيعة ومراتب جليلة.

ومن خلال هذه المحطة القصيرة مع قيمة العلم في القرآن الكريم، نستطيع أن نتبين بوضوح أن التعاليم السماوية لا تحض الإنسان على تحصيل العلوم الدينية والشرعية فقط، بل هي تعاليم تطالب الإنسان بإجالة بصره وإعمال فكره كي يزداد عقله استنارة من خلال تحليل وإدراك كل مفردة من مفردات

(١) سورة فاطر: الآية ١٩.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١١.

الوجود على الأرض، بل وخارج نطاق الرؤية الأرضية أيضاً.

ولذلك، فعندما نقرأ، على سبيل المثال، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فلا يمكننا أن نفهم ذلك القول الإلهي الحكيم إلا على أساس ضرورة إعمال العقل وتنوير الفكر بالتحصيل العلمي وبالعمل الكشفي المدروس الذي يبدد ستائر الجهل ويمزق حجب الظلام والشكوك.

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً وبوضوح من خلال واقع الرسالة الإسلامية أن الرسول الكريم ﷺ قد أبرز القيمة الحقيقية للعلم في خط المسيرة الإنسانية ونهج تطويرها. وقد جعل الرسول الأمين ﷺ للعلم مكانة عظيمة لا يمكن للإنسان أن يبلغ غايتها القصوى. وقد أكد ﷺ على ذلك من خلال العديد من الأحاديث المشتهرة بين كتب كل المسلمين على مختلف مشاربهم.

وعلى سبيل المثال، يقول الرسول المصطفى ﷺ: «من ظن أن للعلم غاية (أي نهاية) فقد بخسه حظه، ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول: وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً... لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه قد علم فقد جهل...»[2].

وبالطبع، فإن العلم الذي يتحدث عنه الرسول المصطفى ﷺ هو ذلك العلم المرتبط بالعقل، وليس العلم المرتبط بالخرافات، أو المتعلق بالأوهام

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

(٢) محمد جواد مغنية: نفحات محمدية، دار ومكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٦ ص٩٤.

والأساطير التي لا تتفق مع المكانة السامية للإنسان المستخلف على الأرض. ولعل الحديث الذي سنورده الآن عن علاقة الرسالة الإسلامية بالقيمة العلمية للعقل هو أحد أبلغ الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على أن الإسلام ليس مجرد رسالة دينية وإنسانية، بل هو أيضاً رسالة علمية معرفية لا تقبل بعملية فصل العلم عن الدين ولا المعرفة عن اليقين، فإذا كانت عين الإنسان الأولى ترى الواقع وتتعامل معه وفق منظور ديني تشريعي، فإن العين الثانية تنظر إليه من منظور علمي قائم على البحث والتجريب وإغناء التجارب الفكرية التي يختزنها العقل ويتفاعل معها باستمرار.

يقول المصطفى الأمين صلى الله عليه وآله: «لكل شيء آلة وعدة، وآلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية- أي طريق- ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكل قوم غاية، وغاية العباد العقل، ولكل فئة داعٍ، وداعي العابدين العقل...... وللناس منازل يوم القيامة على قدر نياتهم وعقولهم»[1].

وهكذا نرى أن الرسول الكريم كان ينظر إلى العقل نظرة مليئة بالإجلال والتعظيم حتى أنه صلى الله عليه وآله قد رأى العقل أصل الدين وأساسه، إذ لا دين لمن لا عقل له. وفي الأحاديث المتواترة عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الكثير من الأحاديث التي تدل على تقديره للعلم وللمشتغلين بالبحث العلمي والفكري.

وقد جاء في كتاب (مقام العقل عند العرب) أن الإمام علياً عليه السلام سأل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله عن أساس الدين الإسلامي وعن أصل السنة النبوية

(١) نفس المصدر السابق: ص٨٦.

الشريفة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «... والعقل أصل ديني...»[1]. ولذلك، لا نعتقد أن هناك عبارة أبلغ من هذه العبارة التي ذكرناها الآن في ما يتعلق بتحديد موقع العقل في العقيدة الإسلامية الحنيفة.

ومن هنا تحديداً نستطيع أن نلج بوابة العلم عند الإمام علي عليه السلام حتى نتعرف على شيء من علمه ومعارفه كما يرى الكثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين المعاصرين.

فالمسيحيون عموماً، من خلال قراءاتهم للصفحات الأولى والمبكرة من التاريخ الإسلامي، يدركون تماماً أن الإمام علياً عليه السلام كان أكثر الناس التصاقاً واقتراباً من محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان الفضل في ذلك التقارب لسيد البطحاء، أبي طالب عليه السلام، الذي لعب دوراً حاسماً في تاريخ الرسالة الإسلامية ذاتها إذ لا يمكن لأحد أن يتجاهل أو أن يتجاوز ذلك الدور الحيوي نظراً لما له من أثر بالغ في دفع عجلة الرسالة للأمام وفي حمايتها أيضاً من الذئاب التي كانت تتربص بها في كل وقت وأوان.

وكلنا يعلم أن الإمام علياً عليه السلام قد فتح عينيه على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك الرسول الذي يمثل الكمال في الصفات النبيلة والخصال الحميدة والخلاصة الرسالية في هذا العالم. فهو صلى الله عليه وآله وسلم الرسول المصطفى الذي يمثل السفارة السماوية على الأرض، وهو أيضاً العروة الوثقى التي تربط المخلوق بخالقه، وشريعة إله السموات بحركة أهل الأرض. وتوطيداً لهذه الصلة الوثيقة، فقد أيد الله سبحانه

(١) قدري حافظ طوقان: مقام العقل عند العرب، منشورات وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٣، ص٢٧.

وتعالى رسوله الكريم بالرسالة وحباه بالقرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، بل هو الكتاب الذي يحتوي كل مقومات وعناصر الدوام والبقاء والتطور مع سنن الحياة وسنن الحركة التاريخية التي تتولد مع الطبيعة الحركية المتجددة للوجود.

وقد أدب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصيه المرتضى عليه السلام بآداب القرآن وخلقه بأخلاقه وغذاه بعلومه وأحكامه ساعة بساعة ويوماً بيوم. فما من آية شريفة نزلت إلا وعرف علي عليه السلام أين نزلت وبمن نزلت وعلى أي وجه نزلت، وما هي أحكامها، وما هو ظاهرها وباطنها، وما هي دلالاتها وعلل التشريع منها.

وقد انعكس، لاحقاً، هذا الواقع الذي عاشه الإمام علي عليه السلام مع الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله على الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد على أعلمية الإمام علي عليه السلام وغزارة علومه، أو بعبارة أخرى وكما وصفه الشيخ الرئيس ابن سينا بأنه عليه السلام يحلق في المحل الذي لا يرقى إليه البشر.

وبإمكاننا أن نختصر الكثير من الكلام عن علوم أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعارفه عندما نقرأ في معظم كتب السنة المعتبرة حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[1].

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) الحافظ الموفق بن أحمد الحنفي (أخطب خوارزم): المناقب، مكتبة نينوى الحديثة - طهران، د.ت، ص٤٠.

ب) ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، دار الكتب التجارية - النجف الأشرف، ص٣٦.

←

وبالطبع، عندما يكون الإمام علي عليه السلام هو باب مدينة العلوم، فلا بد وأن تكون مفاتيح تلك العلوم معه دون غيره.

ولعلّ أبا الدرداء قد أصاب عندما قال في حديث له نقله لنا (أخطب خوارزم الحنفي) في كتابه (المناقب): «العلماء ثلاثة: رجل بالشام(يعني نفسه)، ورجل بالكوفة (يعني عبد الله بن مسعود)، ورجل بالمدينة (يعني علي بن أبي طالب). فالذي بالشام يسأل الذي بالكوفة، والذي بالكوفة يسأل الذي بالمدينة، والذي بالمدينة لا يسأل أحداً»[1]. .

وبالطبع لن نتوقف عند هذين الحديثين عن علم علي عليه السلام ومعارفه، بل سنعود للحديث عن علوم علي ومعارفه من خلال التركيز على الأحاديث النبوية الشريفة التي تبين خصيص مكانته في هذا المجال. ولكن لنتريث الآن قليلاً من أجل الوقوف عند بعض الأقوال التي نطقت بها الأقلام المسيحية مشيرة بلغة التصريح أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو لسان العلوم وترجمان المعارف.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدث الأديب الشاعر (جوزيف الهاشم) عن شخصية الإمام علي عليه السلام ، نستطيع أن نرى بوضوح الخطوط العريضة التي أراد أن يرسمها الشاعر بشفافية بالغة وبلغة فنية رائعة وصادقة في التعبير عن

ج) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، المكتبة الإسلامية - طهران، ١٣٩٣هـ، ص٨٠.

د) الحافظ الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام - طهران، ١٤٠٤هـ، ص٢٢٠.

(١) أخطب خوارزم الحنفي: المناقب، مصدر سابق، ص٥٥.

عمق علوم ومعارف ذلك الإمام العظيم.

فالإمام علي عليه السلام بالنسبة للأستاذ (الهاشم) هو (سيد البيان) و(باب العلم) وهو (أقضى الأمة) وهو الذي لولاه (لهلك كل خليفة قبله)، وقد عبر الأستاذ الهاشم عن ذلك بقوله عن علي عليه السلام:

فكانَ ظلّ رسول الله، (كاتبه)، وأولُ الناسِ إيماناً بدعوتهِ
سيّد البيان، (وباب العلم) مشترعاً والفقه مذ كان، نهج من بلاغتهِ
محجّةُ الشرع، (أقضاكم) وإن سلفت (خلافة هلكت)، من دون حكمتهِ
يَعبُّ من منهل القرآن، يحفظُهُ (والنهج) كالبحر، فاغرفْ من غزارتهِ[1]

وهنا يجب علينا أن نشير إلى أن الكلمات التي وضعها الأستاذ (الهاشم) بين قوسين في الأبيات التي ذكرناها له هي عبارة عن اختصار لأحاديث عديدة قيلت في غزارة علوم علي عليه السلام وفي عمق معارفه. وقد أورد الأستاذ (الهاشم) تلك الأحاديث الهامة على هامش قصيدته المسماة (ضوء من الضوء) والتي يشير عنوانها هذا بدوره أيضاً إلى حديث هام للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «أنا من الرسول كالضوء من الضوء».

وقد علق الأستاذ (الهاشم) على عبارة (باب العلم) التي وضعها هو ضمن قوسين بقوله: هذه إشارة إلى قول الرسول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وقد علق أيضاً، على هامش قصيدته، على كلمة (أقضاكم) التي وضعها أيضاً ضمن قوسين بقوله: وهذه إشارة إلى قول الرسول: «أقضاكم علي».

(١) مجموعة من المفكرين والأدباء: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص٣٨.

أما عن عبارة (خلافة هلكت)، فقد علق عليها قائلاً بكل ثقة ويقين:

هذه إشارة لقول عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر[1].

وعندما يقول الأستاذ الهاشم مصوراً عمق العلاقة بين (القرآن الكريم) و(النهج القديم) بقوله في قصيدته السابقة:

يعبُّ من منهلِ القرآن، يحفظُهُ — والنهج كالبحر، فاغرفْ من غزارتهِ

فعندما يقول الأستاذ (الهاشم) ذلك، فهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام لم يحفظ القرآن حفظ القارئ له فحسب، بل المقصود من ذلك هو أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام هو الأذن الواعية التي نهلت علوم القرآن ومعارفه، وهو الصدر الرحب الذي اختزن كل كلمة من كلمات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله، فحفظها ووعاها ورعاها، بل وعمل أيضاً على ترجمتها عملياً في كل حركة من حركات وجوده قولاً وفعلاً، وما نهج البلاغة- الذي سنفرد له فصلاً خاصاً- إلا ثمرة وعاية القرآن ورعايته، وهو، عند المفكرين المسيحيين عموماً كما سنرى لاحقاً، المرآة الصافية التي انطبعت عليها آيات القرآن الكريم وسوره بكل ما تحويه تلك الآيات والسور من علوم وأخبار ومعارف وحكمه وبلاغة.

وإذا كان المفكر السياسي والأديب الشاعر (جوزيف الهاشم) قد رأى في الإمام علي عليه السلام محجة العلم وكعبة المعرفة، فإن الأديب والشاعر (خليل فرحات) يرى في أمير المؤمنين علي عليه السلام جوهر القرآن ومعدنه. فالقرآن الذي أعجز أرباب الفكر ببلاغته ومعارفه وحكمه، لم يكن ليعجز علي عليه السلام عن أن

(١) راجع الهوامش المذكورة في ذيل القصيدة الموجودة في المرجع السابق، ص٤١.

يكشف أسراره وخفاياه، ففتح أبواب كنوزه لعلي عليه السلام لينهل منها ما يشاء ويغرف منها ما يريد.

وإذا كان الشاعر المسيحي (فرحات) قد عبر عن هذه الأفكار مخاطباً الإمام علي عليه السلام بقوله:

وَلَمَّا كتابُ الله أعجزَ قومَه وأُغلقَ لَم يفتح على الجلّة الكبرِ
فَتحتَ عليهِ البابَ فالضوءُ مبهرٌ ولكن فتى الأضواء ما ضجَّ للبهرِ

إلا أنه قد ختم حديثه عن علاقة علي عليه السلام بالقرآن وعلومه من خلال تأكيده على فكرة أن الإمام علياً عليه السلام في نهاية المطاف لا يمكن أن يكون إلا القرآن الناطق الذي يحول العلوم والمفاهيم القرآنية من مجرد عبارات وأحكام نظرية إلى تطبيقات عملية ووقائع حركية.

وهذا ما قصده الأديب فرحات تماماً من خلال إكماله لحديثه عن علوم علي عليه السلام المستقاة من الذكر الحكيم بقوله:

فمصحفُ ربّ الناس قولٌ، وفعلُه إمامٌ، ومن لم يدرِ ذلكَ فليدرِ[1]

وقد بيّن الشاعر (فرحات) أيضاً أن الإمام علياً عليه السلام قد نشأ في ظلال القرآن وتربى على علومه وبيانه حتى أصبح ذلك الكتاب السماوي الجليل هو القبلة التي لم يحول علي وجهه الكريم عنها. وكان من أبسط وأوضح تلك النتائج لتلك التربية القرآنية الصادقة ظهور علي عليه السلام بصورة الكمال الإنساني التام والقادر على استيعاب خفايا وأسرار الوجود بشقيه المتكاملين: الوجود

---

(١) خليل فرحات: في محراب علي، ص٢١.

الطبيعي المادي الظاهر، والوجود الروحي الغيبي الباطن.

ويؤكد الشاعر (فرحات) على هذه الحقائق متسائلاً تساؤل العارف المقر بهذه الحقائق الثابتة والمستغرب، بنفس الوقت، ممن ينكرها أو يحاول الانتقاص منها. ويؤكد أيضاً على أعلمية الإمام علي عليه السلام في مجالي الغيب والشهود، السماء والأرض، ما فوق الطبيعي والطبيعي، قائلاً:

لَئِنْ كانَ كلّ الغيبِ عندكَ علمه فما عالِمُ الكيمياءِ أو عالِمُ الجبرِ؟!![1]

فهل الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبواباً وأبواباً من العلوم والمعارف عن مكنونات الغيب وأسرار السماء، سيعجز عن معرفة وإدراك علوم الطبيعة وأسرار الأرض؟

بالطبع لا، وقد أجمع على هذا الجواب كل مفكر أو أديب مسيحي ممن درسوا بعمق وتروٍّ تاريخ وشخصية الإمام علي عليه السلام من خلال ما جاء عنه في كتب التاريخ والسير الإسلامية سواء كانت تلك الكتب قد كُتبت بأقلام شيعية أم سنية.

والحقيقة، إن كل المفكرين والأدباء المسيحيين عموماً، وحتى المستشرقين على مختلف مشاربهم وتياراتهم الفكرية الاستشراقية، يقرون ويعترفون أن الإسلام دين علم وحضارة، ودين رسول سماوي يأمر أتباعه بالسعي لطلب العلم ونهل المعرفة ولو كلفهم ذلك بلوغ مشارق الأرض ومغاربها.

وقبل أن نتابع حديثنا عن موقف المستشرقين والمفكرين والأدباء المسيحيين

(١) نفس المصدر السابق: ص١٧.

المعاصرين من مسألة أعلمية الإمام علي عليه السلام ومن فكره الموسوعي الشامل المنفتح على آفاق الحياة وأمديتها، نود أن نذكر قارئنا العزيز أن العديد من المستشرقين، على الرغم من عدم سلامة نوايا البعض منهم، قد أبدوا احترامهم تجاه نظرة الإسلام إلى العلم والمعرفة.

وعلى سبيل المثال، يؤكد المستشرق الفرنسي المعاصر (روجيه غارودي) في كتابه الشهير (الإسلام دين المستقبل) على أن الإسلام رسالة علوم ومعارف مثلما هو رسالة أخلاق وشريعة. وبإمكاننا أن نتبين بوضوح كيف أن المستشرق (غارودي) يربط بشكل واضح بين العلم والإيمان في الشريعة الإسلامية. وها هو يقول مبيناً لنا ذلك:

«ولكي نفهم العلم الإسلامي في مضمونه ومغزاه، فإن من المهم أن لا نفصله عما تفرض عليه غايته ألا وهو الإيمان الإسلامي. فلا يمكن فهم العلم الإسلامي دون فهم الإسلام بذاته، تلك القوة الحية التي كانت روح ذلك العلم»[1].

وإذا كان المفكر (غارودي) قد أوضح من خلال مؤلفاته العديدة عن الإسلام عمق العلاقة الوطيدة بين الديانة الإسلامية والعلوم، فإن المستشرق النمساوي المعاصر (ليوبولد فايس) يرى في كتابه الذائع الصيت (الإسلام على مفترق الطرق) أنه ليس من الضروري لمن يخوض في دراسة الأيديولوجيا الحقيقية للإسلام أن يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية للتأكيد على أن

(١) روجيه غارودي: الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي، دار الإيمان - بيروت، ص٨٨.

تلك الأيديولوجيا تقف، في جوهرها، في صف العلم وترعاه، بل على الباحث أو الدّارس للعقيدة الإسلامية أن يدرك أبعاد تلك الحقيقة من خلال قراءة التاريخ الإسلامي الذي أتحف البشرية بالمئات من العلماء والمفكرين الذين أغنوا الفكر البشري لوقت طويل في زمنٍ كان يغط العالم فيه في سبات عميق.

ولهذا السبب، فإن المستشرق (فايس) يقول مؤكداً على مكانة العلم في الإسلام:

«إن الإسلام لم يقف يوماً ما سداً في وجه التقدم والعلم. إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة»[1].

وقد جاء أيضاً في الجزء الثاني من كتاب (تراث الإسلام) للمستشرق الألماني (جوزيف شاخت) أن الإسلام دين علم ومعرفة، وأن التعاليم الإسلامية، وإن قبلت الأخذ عن علوم الآخرين، هي بحد ذاتها عقيدة تمتلك الدوافع والعوامل للتحصيل العلمي وتطويره وفقاً لما تقتضيه المسيرة البشرية[2].

وبطبيعة الحال، فإننا لا نريد أن نذكر كل ما قاله المستشرقون والأدباء المسيحيون عن موقف الإسلام من العلم، ولكن أحببنا فقط أن نلقي ضوءاً خاطفاً على هذه النقطة كي تكون منطلقاً لنا للتأكيد على أن العلم ليس محطة عابرة أو صفحة يتيمة في سفر العقيدة الإسلامية، بل هو جوهر تلك العقيدة وأصلها.

---

(١) المستشرق ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق الطرق، مصدر سابق، ص٦٩.

(٢) جوزيف شاخت وآخرون (إعداد): تراث الإسلام، مجلة عالم المعرفة، العدد ٢٣٤، الكويت، عدد حزيران ١٩٨٨، ج٢، راجع الفصل العاشر (العلم) بدايته ص١٣٩.

ونظراً لما للعلم من مكانة عظيمة في المنظومة الفكرية الإسلامية، فمن الواجب علينا أن نكمل استعراض مكانة الإمام علي عليه السلام وموقعه من ذلك العلم حسب ما يرى ويعتقد جمهور المفكرين والباحثين المسيحيين.

ونستطيع أن نتبين بوضوح أن المستشرق الإنكليزي (داويت رونالدسن) قد أورد في كتابه (عقيدة الشيعة) العديد من الأحاديث الهامة التي تؤكد على حقيقة أن الإمام علياً عليه السلام كان ينظر إليه دائماً على أنه الإمام الأعلم في أمة المسلمين.

فبعد أن ذكر (رونالدسن) عدة أحاديث نبوية شريفة تؤكد موسوعية علي العلمية، نراه ينتقل للقول «وكان عمر (بن الخطاب) نفسه يعتبر علياً أقضى أهل المدينة وأقرأهم للقرآن»[١].

وعلى الرغم من الإشكالات التي وقع فيها رونالدسن في نظرته لبعض النقاط الإسلامية العامة والشيعية الخاصة، إلا أننا نستطيع أن نلاحظ وبوضوح أن الشواهد التي أوردها في كتابه عن أعلمية علي عليه السلام هي شواهد مأخوذة من كتب السنة وليست من كتب الشيعة.

وعلى سبيل المثال، فقد نقل لنا من الجزء الثاني من كتاب (طبقات ابن سعد) حديثاً هاماً للحسن البصري يقول فيه عن علي عليه السلام إنه «عالم الله في هذه الأمة»[٢].

(١) المسترشق دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص٦٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٣.

وقد اعتمد في بقية شواهده عن علم علي عليه السلام ومعارفه على كتب سنية أخرى مثل (وفيات الأعيان) لابن خلكان وعلى كتب ابن حجر العسقلاني.

ولو تركنا المستشرق الإنكليزي (رونالدسن) جانباً وتوجهت بنا بوصلة بحثنا إلى المستشرق الهولندي (فان فلوتن) (١٨٦٦- ١٩٠٣) وإلى مؤلفه الموسوم باسم (أبحاث في السيطرة العربية)، فإننا نلاحظ أن (فلوتن) قد أشار إلى علوم أهل البيت عليهم السلام عموماً وليس علوم الإمام علي عليه السلام فقط. وعلى الرغم من المغالطات الكبيرة التي وقع فيها هذا المستشرق المعاصر، والتي تدل على عدم الدقة في استقصاء الحقائق ودراسة التاريخ، إلا أن ذلك لم يخف الوجه الناصع لأهل البيت النبوي الشريف عليه السلام في حملهم ونشرهم لتعاليم الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى سبيل المثال، يعتقد المستشرق (فلوتن) أن الحزب الشيعي قد ولد إبان وقعة حروراء بين الأمويين وخصومهم، ولم يعرف (فلوتن) أن هذا الخطأ الفادح يدل على جهله بالتاريخ وبحقيقة تلك الواقعة المريرة وأسبابها، وما هي النتائج الحقيقية التي تمخضت عنها.

وعلى الرغم من ورود أخطاء أخرى خطيرة مشابهة للخطأ المذكور أعلاه، إلا أنه أشار إلى عدة نقاط هامة تتعلق بأهل البيت عليهم السلام، وبالأخص، تتعلق بالإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه النقاط تدل بمجملها على سعة علمهم ومقدار فضلهم وعلو كعبهم عند كافة المسلمين.

وقد ذكر (فلوتن) شيئاً عن علوم أهل البيت عليهم السلام الذين يمثلهم الإمام الأول، إمام الأئمة عليهم السلام، بقوله: «وكان من البديهيات أن الحكمة الإلهية التي

تميز بها محمد واستلهم منها القدرة على الفصل في الأمور وفق الإرادة الإلهية لم تكن لتنتهي بوفاة الرسول، حيث انتقلت بعده إلى أهل بيته. وهؤلاء بدروهم تميزوا بنوع من العلم لم يكتسبوه كما تكتسب العلوم البشرية، وإنما كان مستمداً من مصدر هذه الحكمة الإلهية مباشرة»[1].

ولا ريب في أن كلام (فلوتن) صحيح وقريب من الدقة التامة، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام بنفسه هذه الحقيقة، وأكد على صدقها من خلال أحاديث عديدة نقلها هو عليه السلام وغيره من الأصحاب عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ناهيك عن أقواله هو في عترة النبي الكريم للتأكيد على علو مكانتهم في شتى ميادين العلوم والمعارف، وبشكل خاص العلوم اللدنية العظيمة التي نالوها واكتسبوها بفضل الحكمة الإلهية وبفضل ما أفاضه عليهم الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله خير البرية.

وعن ذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه العظيم: «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه. وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية، لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل»[2].

---

(١) المستشرق فان فلوتن: أبحاث في السيطرة العربية، ترجمة: د. إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت، ط٢/١٩٨٥، ص١٣٠.

(٢) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج٢ ص٣٩٨.

وبالطبع، ليس هذا هو الحديث الوحيد الذي يمكن أن نصادفه في نهج البلاغة أو في غيره من الكتب التي تحتوي أحاديث الإمام عليه السلام وخطبه ووصاياه، بل يمكننا أن نقع على الكثير من هذه الأحاديث الرائعة التي تتمحور حول علوم أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم المتنوعة، ولكن ما يكفينا الآن هنا هو أحد الأحاديث القوية التي يتناقلها السنة في كتبهم ومصنفاتهم مثلما يتناقلها الشيعة أيضاً. وهذا الحديث الذي سنأتي على ذكره الآن قد أولاه المفكرون المسيحيون الكثير من الأهمية في محاولاتهم تحليل شخصية الإمام عليه السلام الذي يمثل بالنسبة للكثيرين منهم صنو النبي صلى الله عليه وآله ووصيه، بل واستراتيجيته الحية العاملة على الدوام من أجل ترسيخ العقيدة بكل ما فيها من مبادئ وعلوم وأخلاقيات، وذلك عن طريق الكفاح والسعي من أجل وضع النقاط على الحروف في عملية التأويل كما كان الكفاح المرير سابقاً من أجل التنزيل.

أما نص الحديث الذي نود ذكره هنا، هو ما نقله العديد من أهل السنة في مؤلفاتهم ومصنفاتهم والتي ترفع الحديث إلى الإمام علي عليه السلام إذ يقول: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو ثنيت لي وسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وأهل الزبور بزبورهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم. والذي نفسي بيده ما من رجل من قريش جرت عليه المواسي إلا وأنا أعرف له آية تسوقه إلى الجنة أو تقوده إلى النار...»[1].

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضي - قم، ١٤١٨هـ، ص٢٥.

←

فعندما يقف المفكرون والأدباء المسيحيون عند هذا الحديث وعند غيره من الأحاديث الأخرى المشابهة له في مضمونه وفي دلالاته المعرفية، فإنهم سيخرجون بلا شك بنتيجة منطقية متناسبة مع فحوى هذه الأحاديث الثابتة عند كل الفرق الإسلامية.

وعلى سبيل المثال، لو توقفنا قليلاً مع الأديب الباحث جورج جرداق لنتعرف على موقفه من علوم الإمام علي عليه السلام ، وهو الباحث الذي قرأ التاريخ الإسلامي برمته ودرس سيرة النبي المصطفى جملة وتفصيلاً، وحلل أحاديثه الموثقة بعمق وروية، نرى أنه يؤكد وبقوة على أن مجيء محمد النبي صلى الله عليه وآله برسالته السماوية لا يمكن أن ينفصل عن هدفٍ جوهري آخر أراده محمد صلى الله عليه وآله لأمته، بل للإنسانية جمعاء، وهذا الهدف هو التمهيد لمجيء علي عليه السلام كي يكون من بعده الخليفة الأقوم والإمام الأعلم[1]، ذلك الإمام الذي سيحقق، في حال انصياع الأمة له والامتثال لأوامر وتعاليم الرسول صلى الله عليه وآله في ما يتعلق بقضية استخلافه، الوحدة الإنسانية القائمة على أسس قوية من الحق والخير والفضيلة. ولذلك، فإن الأديب (جرداق) يلمح إلى نقطة هامة تتعلق بهذا الموضوع تحديداً، إذ نراه يذكر حديثين شريفين للنبي المصطفى صلى الله عليه وآله يتعلقان بالإمام علي عليه السلام ، وهذان الحديثان يذكران بنفس الوقت سيدنا عيسى المسيح عليه السلام

ب) العلامة سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج٣ ص٧٣، وقد رواه القندوزي باختلاف يسير على ما جاء في تذكرة الخواص لابن الجوزي الحنفي.

ج) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٢٠٨.

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٦٢.

مقروناً إلى اسم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام .

فالحديث الأول الذي يذكره الأستاذ جرداق، هو قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «إن فيك لشبهاً من عيسى ابن مريم»[١].

أما الحديث الثاني فهو الحديث المرفوع إلى أبي هريرة إذ قال: «قال رسول الله وهو في محفلٍ من أصحابه: إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنه ومحمد في هديه وعلمه فانظروا إلى هذا المقبل! فتطاول الناس بأعناقهم، فإذا هو علي بن أبي طالب»[٢].

لقد أراد الأستاذ جرداق من خلال هذين الحديثين النبويين الشريفين إبراز نقطتين هامتين جداً في دراسته عن علي عليه السلام . فالنقطة الأولى تتعلق بعلي عليه السلام وعمق علومه واتساع معارفه، وقد استشهد بالحديث الثاني ليؤكد للقارئ أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله قد قرن علم الإمام علي عليه السلام بعلم نبيين عظيمين، فالأول آدم عليه السلام هو أبو الأنبياء وأولهم، والثاني هو محمد صلى الله عليه وآله خير الأنبياء وآخرهم. وبالتالي، فعلم علي عليه السلام هو علم جميع الأنبياء والمرسلين، ولذلك فهو وكل الأئمة من ذريته الشريفة هم- بحكم علمهم ومكانتهم عند الله - الامتداد الطبيعي لعلوم وتعاليم جميع الرسالات السماوية السابقة وصولاً إلى خاتمة الرسالات السماوية التي أسدلت الستار على الأرض معلنة اكتمال آخر رسالة تجود بها السماء على مسرح الإنسانية في الأرض.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٤.

أما النقطة الثانية التي يمكن أن نفهمها على ضوء ما كتبه الأستاذ جرداق عن الإمام علي عليه السلام في كتابه (علي وحقوق الإنسان)، هي تلك النقطة التي سأتعمد ذكرها بشكل مختصر هنا وذلك لأن مكانها المناسب سيكون في مكان آخر من هذا الكتاب، ولكن يمكننا أن نقول بإيجاز: إن النقطة الثانية تتعلق بالطبيعة الكونية للإمام علي عليه السلام . فعندما يورد جرداق حديث الرسول صلى الله عليه وآله الذي يخاطب فيه الإمام علي عليه السلام قائلاً له إن فيه شبهاً من عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وعندما يقول الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً في مكان آخر إن هناك شبهاً عظيماً بين الإمام علي عليه السلام وبين أشهر الرسل والأنبياء عليهم السلام ، ومن بينهم بلا شك سيدنا عيسى المسيح عليه السلام ، فهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام بالنسبة للباصرين من الأدباء والمفكرين المسيحيين يمثل جسر الوحدة الإنسانية بين الروح الإسلامية المحمدية والروح المسيحية العيسوية. هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فالإمام علي عليه السلام يمثل الروح الكونية التي تجتمع عندها كمالات الرسل والأنبياء الذين جاءوا لخلاص البشرية وتحريرها من العذاب والعبودية لغير الإله الواحد الأحد.

ولو أردنا هنا أن نضيق دائرة البحث وننتقل من الدائرة الإنسانية الشاملة لعلوم علي عليه السلام كإمام للإنسانية عموماً إلى الدائرة الأخرى الأصغر التي تبرز الإمام علي عليه السلام كإمام لأمة المسلمين، نرى أن المفكرين والأدباء المسيحيين يرفضون بشكل عام إخراج الإمام علي عليه السلام من الدائرة الأولى الأكثر شمولية إلى الدائرة الثانية الأصغر والأقل محدودية. فالإمام علي عليه السلام بالنسبة إلى أولئك المسيحيين المستنيرين فكرياً ليس مجرد إمام للمسلمين فحسب، بل هو الإمام الموسوعي الذي لا يمكن لأحد أن يحصره في بقعة جغرافية ما دون أخرى، ولا

يستطيع أن يستأثر به شعب ما دون شعب أو قوم دون قوم، ولا أن يكون تاريخ ما أو عصر ما واقعاً تحت تأثيره الفكري أو متأثراً بأنوار هديه دون تاريخ أو دون عصر. فعلي عليه السلام إمام لكل قوم ولكل بلد ومكان ولكل عصر وزمان.

فبالنسبة للباحث المسيحي نصري سلهب، يمثل الإمام علي عليه السلام الإمام الكامل والعالم العامل الذي يجسد بكمالاته في كل مجالات الحياة العلمية والعملية النموذج الصادق للتربية الرسالية وللعلوم اللدنية الإلهية. فعلي عليه السلام بخصاله وأفعاله وبعلومه الكاملة والشاملة هو في محصلة الأمر، كما يقول الأستاذ سلهب: «تلميذ القرآن. والقرآن كلام الله. فلقد كان، إذن تلميذ الله»[1]. ولما كان الإمام علي عليه السلام تلميذ الله، والله إله لكل البشر، كان الله ذاته هو من جعل من الإمام علي عليه السلام منارة تهدي كل البشر إلى طريق السماء[2].

وحتى لا يقع القارئ في إشكاليات تتعلق بفهم مكانة علي عليه السلام المعرفية وبينابيع تلك المعارف والعلوم التي اغترف منها علي حتى ارتوى، نرى أن الأستاذ (سلهب) قد قطع الطريق على كل قارئ يمكن أن يسأل مستفسراً:

وإلى أي مدى وصل علي عليه السلام بإيمانه وعلومه التي نالها بالتحصيل الذاتي وبالعناية الإلهية؟!

فالأستاذ (سلهب) يقطع الطريق على السائل ليقول له إن الإمام علياً عليه السلام الذي حاز علوم الأولين والآخرين وذاب عشقاً في كلمات الله الخالدة من خلال علاقته القدسية بالإمام الصامت الذي هو القرآن الكريم، قد وصل إلى مقام

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٥٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٣٠.

عين اليقين حيث قال معبراً عن ذلك:

«لو كشف لي الغطاء لما ازددت يقيناً»[(١)].

ويمكننا أن نلحظ بنفس الوقت في ما كتبه الأستاذ (سلهب) عن علوم علي عليه السلام المختلفة، سواء في البلاغة والفقه والتفسير والطبيعيات والرياضيات والطبابة الجسدية والنفسية وفي علوم الاجتماع والأخلاق وإلى ما هنالك من علوم معارف قد لا تخطر على بال، أنه كان موفقاً إلى حدٍّ كبير في إبراز القيم المعرفية عند علي عليه السلام.

وقد رأى الأستاذ سلهب أن حب الإمام علي عليه السلام للعلم بأنواعه وفروعه المختلفة سواء كان ذلك العلم علم الدين أم علم دنيا، قد عزز عنده القناعة في أن تطور الإنسان وارتقاءه الحضاري على الأرض لن يكون إلا من خلال فتح نوافذ العقل البشري على نسائم العلم والمعرفة لأنه بالعلم والمعرفة والعمل يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته ووجوده على الأرض، وأن يجد لنفسه مكاناً هانئاً في ملكوت السماء في جنة وسعها السماوات والأرض، إذ ما الفائدة من وجود جنة عظيمة وسعها السماوات والأرض إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يضمن لنفسه فيها موضع قدم؟!!

ومن هنا توصل الأستاذ سلهب إلى نتيجة منطقية عن العلاقة بين العلم والإيمان عند علي عليه السلام، وهذه النتيجة الموجزة تتلخص بقوله: «العلم والإيمان عند علي توأمان مشيا جنباً إلى جنب، وتعاونا من أجل خير الإنسان والمجتمع.

(١) الجاحظ: ١٠٠ كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، اختارها الجاحظ وشرحها أبو الثناء أحمد بن محمد الزيلي السيواسي، ط/ دار المختارات العربية، بيروت، ص١٧.

لقد وضع العلم في خدمة الإيمان، كما وضع الإيمان في خدمة العلم. ومثل هذا التعاون الوثيق، لو تم في عصرنا الحاضر، لجعل منه أسمى عصر وأرقاه في تاريخ بني البشر، بل لكان العصر الذهبي للإنسان، على إطلاق التعبير»(١).

وبالطبع، فإن هذه النتيجة التي خرج بها الأستاذ سلهب عن علاقة العلم بالإيمان عند علي عليه السلام، تلك العلاقة التي تخلق وتنتج العصر الذهبي للإنسان عموماً، مسلم وغير مسلم، هي الترجمة الحقيقية والعبارات التوضيحية لحديث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله:

«من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم»(٢).

وفي واقع الحال، فإن الإمام علياً عليه السلام عمل على تفعيل معادلة العلم والإيمان. فالوجود الإنساني يتطلب المعرفة في كل حركة من حركاته، وعن كل حركة من تلك الحركات لا بد وأن تنتج قيمة معينة حيث يفترض أن يكون لتلك القيمة موقع إيجابي على سلم القيم الاجتماعية التي تحكم الوجود الإنساني السليم.

ومن المعروف أن كل المؤرخين والباحثين والمفكرين الذين عكفوا على دراسة وبحث تاريخ الفكر الإنساني عبر العصور قد أجمعوا على أن مباحث الفلسفة والفكر الإنساني المرتكز على تفسير الوجود قائم على ثلاث دعائم أساسية، وهي:

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٦٥.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٦٤.

علم الوجود (Ontology) وعلم المعرفة (Epistemology) وعلم القيم (Axiology) فإذا كانت هذه الأسس الثلاثة هي عماد الفكر البشري وعموده الفقري، فإن الإمام علياً عليه السلام ، كما يرى العديد من المفكرين المسيحيين، كان العلم البارز في الطليعة الأولى من أرباب الفكر الذين خاضوا غمار دراسة هذه الأسس الثلاثة، وكان هو عليه السلام المبدع والمميز في دراستها وتحليلها وتفسيرها وفي ترك بصماته الخاصة على النتائج التي خرج بها عن طبيعة دراسته لها.

ولكن الشيء الذي انفرد به الإمام علي عليه السلام عن غيره في هذا المجال هو أنه تجاوز في دراسته لعلم الوجود ما هو موجود ومعاش على مسرح الواقع إلى ما هو موجود ومحجوب وراء أطباق السماوات وحجبها.

ومما يؤكد صدق هذا المقال، تلك الأحاديث التي قالها الإمام علي عليه السلام وتناقلتها كتب المسلمين السنة وكتب المسيحيين على حدٍّ سواء مع الإقرار التام بصدقها وثبوتها.

ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أن أحد أدباء وشعراء المسلمين السنة، وهو الشاعر عبد الباقي العمري قد جمع الكثير من الأحاديث الواردة عن علم علي عليه السلام ومعارفه، وبعد قراءته المتأنية والعميقة التي قام بها الشاعر (العمري) لتلك الأحاديث، استطاع أن يختصر القول عن أعلمية علي عليه السلام بقوله في ديوانه الشهير (الترياق الفاروقي):

نَعتُّــهُ بــالزبور جــاء و بــالفر ... قــان بــل بــالتوراة والإنجيــلِ
الإمــام المــبين أحــصى بــه اللهُ ... جميــعَ الأشــياءِ في التنزيــلِ
فهو اللوحُ بل وما خُطّ في اللوحِ ... لديـــه مُقيَّـــدُ التـــسجيلِ

سـل سـبيلاً لـسبيل علـي فعلى ابن السبيل قَصْدُ السَّبيلِ[١]

وقد فطن العديد من المفكرين والأدباء المسيحيين إلى هذه الحقيقة غير القابلة للطعن أو النقض، فراح بعضهم يكتب ويؤلف عن أبواب العلوم التي نالها الإمام علي عليه السلام من اللدن الإلهي، وراح بعضهم الآخر ينظم القصائد والأشعار تخليداً لتلك الحقائق.

وكمثالٍ على ذلك، دعونا نتوقف مع بعض الأبيات الشعرية البديعة للأديب والشاعر المسيحي عبد المسيح الإنطاكي الواردة في ملحمته العظيمة (ملحمة الإمام علي عليه السلام).

يقول الشاعر الإنطاكي عن علوم علي عليه السلام:

بَحرُ العلوم أميرُ المؤمنين بلا ريبٍ وفي صدره مثوى لآليها
هيهات ما في عباد الله ذو بَصَرٍ إلا وعنه تلقّاها ويرويها
ما فاته أبداً إدراك ظاهرها أو الوصول إلى أخفى خوافيها[٢]

وقد تكلم الشاعر (الإنطاكي) مطولاً عن علم الإمام علي عليه السلام في مختلف المجالات والفروع، ولم يكتف في حديثه عن علوم علي عليه السلام ومعارفه باستخدام طريقة الاستعراض الشعري الكلاسيكي، بل راح يفسر ما نظمه شعراً بالكتابة النثرية التوضيحية على هامش قصائده مستشهداً بالكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وبالأحداث التاريخية الشهيرة والموثقة في الكثير من المصادر

(١) عبد الباقي العمري: الترياق الفاروقي، مصدر سابق، ص١٠٥.

(٢) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، ص٦٧١.

التاريخية المعبرة.

وعندما أورد الأديب (الإنطاكي) تلك الأبيات الشعرية السابقة المذكورة في مقدمته للحديث عن علوم علي عليه السلام المتنوعة والمتشعبة ما بين علم دين وعلم دنيا، فقد علق عليها بقوله: «لا جدال ولا إشكال أن سيدنا علياً عليه السلام قد كان أعلم العلماء وأفقه الفقهاء وأسمى من جمع في صدره علوم الدنيا والآخرة. وهذا مسلم به من كل عالم وفقيه من الأولين والآخرين»[١].

ولكن مهما قيل في علم الإمام علي عليه السلام في إحاطته التامة بالكثير من حقول المعارف الإنسانية والعلوم الطبيعية، والتي تدل في معظم جوانبها على أنه قد تجاوز زمانه وعصره بأشواط كثيرة، إلا أن كل ذلك يبقي هذه الحقيقة قاصرة عن إعطاء الوصف الحقيقي والدقيق لمبلغ علم الإمام الغزير ومعارفه الثرة.

فهل كل ما قاله المسلمون والمسيحيون عن علم علي عليه السلام يمكن أن يعطينا الانعكاس الصادق لمدى أعلميته بعد أن نقرأ له عليه السلام قوله البليغ أمام الحشد من الناس: «أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض»؟!![٢]

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٧١.

(٢) راجع على سبيل المثال لا الحصر:

أ) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، ج٢ ص٣١٦.

ب) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٦٥.

ج) سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، ص٣٤، باختلاف يسير.

د) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٦٤.

بل، هل نتخيل أن الحروف الثمانية والعشرين للغة العربية قادرة على وضع حقيقة علوم الإمام علي عليه السلام ومعارفه ضمن إطارها اللائق بها؟!!

ثم، أليس صحيحاً قول أحد المتصوفة الأوائل: كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة؟!! ولذلك، فعبارة الإمام علي عليه السلام الخالدة «سلوني قبل أن تفقدوني» والتي تناقلتها، ولا تزال تتناقلها كتب السنة والمسيحيين في وقتنا الحاضر، هي جزء من واقع كنوز الإمام علي عليه السلام المعرفية وعلومه اللدنية.

ولذلك، علينا أن لا نستغرب أبيات الإمام المبين عليه السلام المتداولة في الكثير من كتب المسلمين على مختلف أطيافهم المذهبية:

لقد حزتُ علم الأولين وإنّني ضنين بعلم الآخرين كتُومُ
وكاشف أسرار الغيوب بأسرها وعندي حديث حادثٍ وقديمُ
وإني لَقيّوم على كل قيّمٍ محيطٌ بكل العالمين عليمُ(١)

وبالطبع، فإن المثقفين والمفكرين المسيحيين الذين وقفوا على مثل هذه الأبيات وسواها في كتب المسلمين السنة، وبالطبع في كتب الشيعة أيضاً، لم يستغربوا صدور مثل هذه الأقوال عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، لأن الكثير منهم رأى يقيناً في الإمام علي عليه السلام الصنو الحقيقي للقرآن، فهو عليه السلام والقرآن شقيقان توأمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

فالإمام علي عليه السلام الذي نشأ مع القرآن الكريم الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى خاتم رسله صلى الله عليه وآله وسلم، حاز على علومه كلها منه وانجبلت طينته به وبكل

---

(١) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٦٤.

حرف من حروف آياته وسوره المباركة. ولذلك لم يستطع أحدٌ- كما يرى المفكر (روكس بن زايد العزيزي)- أن يتفاعل مع القرآن الكريم وأن ينفعل به، ويفوق الجميع في حيازة علومه وأسراره وحكمه الإلهية مثل الإمام علي عليه السلام[١].

وللتأكيد على حقيقة هذه النقطة الملقاة على بساط البحث، نرى أن فيلسوف ألمانيا وشاعرها الأكبر (يوهان غوته) قد أشار في الجزء الثاني من كتابه (الشعر والحقيقة) إلى أنه كان من المقرر للإمام علي عليه السلام أن يكون هو صاحب الدور الأول في مسرحية (نشيد محمد) الشعرية التي كتبها (غوته) تكريماً للإسلام وللشخصيات الإسلامية المحببة إليه (محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام)، حيث كان من المقرر لعلي عليه السلام أن ينشد هذا النشيد الصوفي الرقيق في نقطة الذروة من النجاح في التبليغ السماوي[٢].

وبالطبع، ما كان للفيلسوف الشاعر (غوته) أن يقدم على ذلك لولا معرفته الدقيقة وإيمانه العميق بأن الإمام علياً عليه السلام هو فعلاً صاحب الدور الفعال القوي الريادي في نشر تعاليم القرآن وعلومه لأنه هو، من الناحية العملية، التربة الأكثر خصوبة لامتصاص وتشرب الحكمة السماوية والعلوم القرآنية الإلهية.

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص٧٥.

(٢) راجع ما جاء في:

أ) يوهان غوته: الشعر والحقيقة، ج٢ ص٣٧٩.

ب) راجي أنور هيفا: أهل بيت رسول الله في فكر غوته، النور، العدد ١١، إصدار: مؤسسة النور- لندن، عدد تموز ٢٠٠٠م، راجع الصفحة ٦٣.

وقد علق الأستاذ (عبد الرحمن صدقي) في كتابه (الشرق والإسلام في أدب غوته) على ما جاء به الفيلسوف والشاعر (غوته) عن الإسلام وعن موقفه من القرآن الكريم ومن شخصيات الإسلام البارزة، مثل: محمد وعلي وفاطمة عليهم السلام، بقوله: «ولقد ظل غوته على إعجابه بالقرآن والإسلام حتى نهاية حياته.... وحسبنا هذا شاهداً على سعة أفق (غوته) وسمو فكره ونزاهة حكمه وترفعه عن التعصب الشعوبي والديني. ولا يسعنا نحن المسلمين إلا الاغتباط بموقف هذا الأديب العظيم من الإسلام وكتابه المبين»[1].

وربما يستغرب القارئ الكريم من موقف الشاعر والفيلسوف تجاه الرسالة الإسلامية، وربما بالتحديد من معرفته الدقيقة بأبرز شخصياتها التي نشرت نور تلك الرسالة بين أقوام كانوا يعيشون ظلام الجهل والجاهلية. وربما يستغرب القارئ أشياء أخرى أيضاً، مثل إيمان غوته الواضح بأن أصحاب الجنة وسادتها هم، بالإضافة إلى محمد وعلي، السيدة خديجة (رض) والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أيضاً.

ولكن علينا، نحن، أن لا نستغرب كل ذلك من ذلك الفيلسوف الألماني العظيم، خصوصاً بعد أن نعرف أن ذلك الشاعر الفيلسوف كان إنساناً موحداً ومنزهاً لله الصمد الأحد عن الوالد والولد.

وتؤكد الباحثة الألمانية (كاتارينا مومزن) في كتابها (غوته والعالم العربي) أن (غوته) لم يكن ينظر إلى السيد المسيح عليه السلام من منظور مسيحي، بل كان ينظر إليه دائماً من منظور إسلامي صرف. وقد أكدت الباحثة (مومزن) تلك الحقيقة

---

(١) عبد الرحمن صدقي: الشرق والإسلام في أدب غوته، مصدر سابق، ص٤٣.

من خلال عدة قصائد له، وكان من جملة ما استشهدت به من قصائد وأشعار لتأكيد وجهة نظرها، قوله في إحدى قصائده عن السيد المسيح عليه السلام:

ويسوع كان طاهر الشعور، ولم يؤمن
في أعماقه، إلا بالله الواحد الأحد.
ومن جعل منه إلهاً،
فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة.
وهكذا، فإن الحق
هو ما نادى به محمد،
فبفكرة الله الواحد الأحد
ساد الدنيا بأسرها[1].

وإذا كان غوته قد اعترف بأن الإسلام وتعاليمه قد جذباه بقوة نحو الفلسفة الإسلامية، إلا أن هناك شيئاً آخر كان له الفضل في اجتذابه إلى دائرة الفكر الإسلامي.

فالفيلسوف (غوته)، كما ذكرنا سابقاً، لم يكن في مجال العلم بأقل منه في مجال الأدب، فقد بدأ حياته العلمية بدراسة البصريات، وعلم التنقيب عن المعادن، والتشريح المقارن وعلم النبات والفلك. ولذلك، فهو شاعر وأديب بأحاسيسه وقلبه، لكنه بنفس الوقت عالم وباحث بعقله وبفكره. ولذا، فعندما

(١) كاتارينا مومزن: غوته والعالم العربي، عالم المعرفة، مصدر سابق، ص٢٥٥.

قرأ (غوته) القرآن الكريم وأعمل عقله في الآيات العظيمة التي تطلب من الإنسان العاقل أن يرفع الستائر عن بصيرته وأن يفك الأغلال عن عقله وأن يجول ببصره في الآفاق وفي الذات الإنسانية، فعند ذلك أيقن (غوته) أن القرآن الكريم ليس فقط مجرد كتاب أدب وتشريع وبلاغة، بل هو كتاب عظيم يمثل رسالة سماوية متكاملة تدعو إلى طلب العلوم والمعارف، وإلى تقدير وتقديس العلماء العاملين من أجل سعادة الإنسان ورقيه. ولذلك عندما أدرك (غوته) وهو العالم، هذه الحقيقة أدرك أن أولى الناس بالتقدير والتبجيل هم أهل الرسالة الإسلامية، أي النبي والوصي لأنهما كانا الأعلم والأقدر على التفاعل مع علوم القرآن.

ولأن الإمام علياً عليه السلام هو ربيب القرآن والمدرك لخفاياه وأسراره، فقد قام هو والرسول الكريم صلى الله عليه وآله بنشر تلك المعارف الإلهية بين البشر مبتدئين بالعشيرة ثم بالقبيلة، ولكن لم تكن غايتهما الأخيرة العشيرة أو القبيلة، بل كانت القبيلة هي مركز القبس الأول الذي سينطلق محمد وعلي منه حاملين شعلة العلم والإيمان لينشرا ضوءها لاحقاً وراء حدود القبيلة أو العشيرة ولتتجاوز بنورها حدود البلدان والأوطان كي يعم ذلك النور العالم كله بفضل يد لم تكن في حمل مشعل العلم والمعرفة بأقل منها شأناً في حمل لواء البطولة والشجاعة[1].

هذا باختصار ما يمكننا أن نوجزه عن موقف غوته من القرآن الكريم ومن محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام من جهة نظره العلمية والفكرية، فشخصية محمد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وشخصية الإمام علي المرتضى عليه السلام والكيان القرآني

(١) راجي أنور هيفا: أهل بيت رسول الله في فكر غوته، ص٦٣.

هي كلها عبارة عن وحدة متكاملة قادرة على إعطاء الإسلام ألوانه الصافية وقادرة أيضاً على رسم صورته الحقيقية على خلفية قوية من العلوم والمعارف التي تستبعد كل ما من شأنه أن يكون خرافة أو شعوذة لا يقبل بها العقل السليم.

ولكن قبل أن نشد رحالنا مبتعدين عن عالم غوته الفكري وعن وجهة نظره تجاه علوم القرآن الكريم المستودعة في صدر الإمام علي عليه السلام وفي صدر صاحب الرسالة وسيدها صلى الله عليه وآله، علينا أن نذكر القارئ الكريم بأن (غوته) المسيحي ديناً والبروتستانتي مذهباً، كان يرى أن ما حققه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من أجل الإنسانية عموماً لهو أعظم من أن يوصف، وكان يرى بنفس الوقت أن فكرة الإصلاح الديني في أوروبا ليست مجدية ولا تحقق للإنسان من خلال المصلحين الدينيين، الفائدة المرجوة[1]، وذلك بسبب افتقارهم إلى الروح العلمية في مناقشة جميع الأمور والقضايا.

وهذا الموقف من (غوته) المفكر والفيلسوف تجاه رجال الإصلاح الديني في أوروبا يذكرنا بموقف المفكر والأديب والفيلسوف الفرنسي الملحد (فولتير) (١٦٩٤- ١٧٧٨) أحد أكبر رجال الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، من المصلحين الدينيين في أوروبا ومما يمكن أن يقدموه للبشرية. ومن المعروف عن فولتير أنه كان ملحداً تماماً، ولكن بالرغم من ذلك فعندما سئل عن الإصلاحات الدينية التي كان ينادي بها المصلحان الدينيان (مارتن لوثر) و(جون كالفن) أجاب على السؤال المطروح عليه بأن تلك الأفكار التي ينادي بها هذان

---

(١) كاتارينا مومزن: غوته والعالم العربي، ص١٩٦.

المصلحان الدينيان هي في حقيقتها عوائق وحواجز في وجه العلم والرقي، ثم أردف جوابه قائلاً: «كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد»[1]، وكان يريد بذلك أن محمد الرسول صلى الله عليه وآله قد بلغ من الإصلاح في زمانه ما لم يبلغا أدناه في زمنهما على الرغم من المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بينهم.

وكما قلنا سابقاً، فإننا سنشد رحالنا تاركين وراءنا الفيلسوف والشاعر الألماني العظيم (يوهان غوته)، وسنترك أيضاً، على الأقل الآن، كل مؤلفاته التي كان يتغنى من خلالها بالإسلام الحقيقي الذي جاء به الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وآزره على فعل ذلك وعلى نشره الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام لأنهم هم الأعلم والأعرف بما في كتاب الله الحكيم.

وكيف لا يكون أهل البيت عليهم السلام هم الأعلم والأعرف بما في كتاب الله، وهم أهل الذكر الحكيم وهم المطهرون من كل رجس، وهم سفينة نوح، وهم أهل البيت الذي كان مهبطاً للوحي وللقرآن؟! وبالتالي، أليس أهل البيت أعلم بما فيه؟

وعلى كل حال، فبعد ارتحالنا عن عالم غوته الفكري الذي نبت وترعرع في تربة الغرب وارتوى من ينابيع الشرق، سنحط رحالنا في عالم فكري آخر لا يقل أهمية عن عالم فكر غوته. إنه عالم الأديب والفيلسوف (جبران خليل جبران).

وعندما نقول عن جبران إنه فيلسوف، فهذا لأن مؤلفات جبران المتنوعة لا

---

(١) شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ (سلسلة مختارات - ٧) وزارة الثقافة - دمشق، نيسان ٢٠٠٤، ص١٢٤.

تصنف في الغرب ضمن باب الأدب بل تصنف ضمن باب الفلسفة. وأياً كان الأمر، فإن لجبران خليل جبران وجهة نظر خاصة جداً في مدى عمق علوم ومعارف الإمام علي عليه السلام.

إن كل الدارسين والمحللين لأعمال جبران الفكرية يؤكدون أن جبران كان على صلة وثيقة بالفكر الإسلامي الشيعي[١]. ويرى بعضهم أيضاً أن جبران كان يعتبر الإمام علياً عليه السلام أحد أعظم ثلاث شخصيات في الوجود، فالإمام علي عليه السلام والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والسيد المسيح عليه السلام هم الشخصيات الثلاث التي تربعت على عرش قلب الفيلسوف المسيحي جبران[٢].

وهنا لنا الحق في أن نسأل مستفسرين:

كيف بيّن جبران لقرائه أن الإمام علياً عليه السلام كان محقاً في قوله شعراً:

لقد حزتُ علم الأوّلين وإنّني ضنينٌ بعلم الآخرين كتومُ؟!

وكيف أوضح جبران لنا أن الحق كل الحق في قول علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني»؟!

في الواقع، إن جبران أوضح لنا وجهة نظره بطريقتين متكاملتين:

فالطريقة الأولى تتجلى بالكلام المباشر والعبارات الصريحة التي صاغها ووضعها في رسائله وكتاباته إلى أصدقائه المقربين مثل ميخائيل نعيمة وأمين

---

(١) جبران خليل جبران: النبي، ترجمة وتقديم: ثروت عكاشة، دار طلاس - دمشق، راجع المقدمة ص٥٢.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٥.

الريحاني وسواهم من أهل الفكر والأدب.

أما الطريقة الثانية، فهي طريقة الاستغناء عن العبارة بالإشارة، واستخدام أسلوب التلويح بدلاً من أسلوب التصريح. وقد رأينا في ما سبق من أبواب هذا الكتاب، كيف أن الفيلسوف والأديب جبران قد صرح في أقواله وفي كتاباته ورسائله عن مكانة الإمام علي عليه السلام في فكره وفلسفته. ولكن نرى أنه من الواجب علينا هنا أن نتحدث عما لوّح به جبران وأشار إليه في أحد أعماله الأدبية ليدل بذلك على أن الإمام علياً عليه السلام يمثل عنده المثال الأعلى للكمال في معرفة والعلم، وأن كل معارف الوجود وعلومه وكل أسراره وخفاياه موجودة عند أهل البيت النبوي الشريف، وبشكل خاص عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم والوصي عليه السلام.

وانطلاقاً من ذلك، إذا أردنا أن نعرف الموقف الجبراني من الشخصية العلمية للإمام علي عليه السلام ، علينا أن نقوم بتحليل عملاً هاماً من أعماله الفلسفية المكتوب بأسلوب أدبي رقيق. وهذا العمل عبارة عن مسرحية قصيرة جداً لم يكتبها جبران إلا من أجل تأكيد موقفه من أعلمية علي عليه السلام ولكن بطريقة فلسفية ساحرة لا تقل سحراً عن أسلوب سردها الأدبي الرفيع.

وبالنسبة لهذه المسرحية القصيرة التي تحمل اسم (إرم ذات العماد)، لم أكن أنا الشخص الوحيد الذي قام بدراستها وتحليلها، بل قام البعض غيري بدراستها وتحليلها ومن ثم باستخلاص النتائج الهامة منها. ولكن النقطة التي اتفق الجميع عليها أكثر من غيرها هي إيمان جبران، الفيلسوف، بأن الفكر العلوي المعجون بالرحيق المحمدي هو الفكر الوحيد السليم والقادر على تفسير

قوانين الوجود، ومرد ذلك هو العلم الذي أفاضه الإمام علي عليه السلام وأعطاه إلى مستحقيه القادرين من خلاله على إضاءة دروب الحياة في شتى حقولها وكافة ميادينها.

وحتى لا أطيل الحديث على القارئ الكريم، وحتى لا أثقل عليه، أرى لزاماً علي أن أدخل مباشرة في تحليل تلك المسرحية الجبرانية القصيرة من أجل الوقوف على النتيجة المدهشة التي سنخرج بها من خلالها.

فمنذ اللحظة الأولى، ومن خلال الرؤية الابتدائية، يستطيع أن يتبين القارئ أن جبران متيقن تماماً من حقيقة أن أسرار الحياة وخفاياها الكامنة في رحم العلم والمعرفة موجودة حصراً عند بطلة مسرحيته (إرم ذات العماد). فبطلة المسرحية عبارة عن امرأة وقورة ورزينة، استطاعت تلك المرأة أن تستحوذ وتحتفظ بالكثير من علوم الوجود وأسراره، وقد ورثت تلك المرأة كل علومها ومعارفها عن سلفها القديم الذي كان يضن بها على الجهال وغير المستحقين لها. لقد جمع جبران في تلك المسرحية الفلسفية القصيرة بين ثلاث شخصيات وعلى هذه الشخصيات الثلاث أقام جبران دعائم مسرحيته.

فالشخص الأول عبارة عن رجل مسلم متصوف من بلاد العجم يدعى زين العابدين النهاوندي. أما الشخص الثاني فهو رجل مسيحي يسعى باحثاً عن الحقيقة وعن الحكمة، بل وعن الكثير من العلوم والمعارف التي لا تتوفر إلا عند أولئك الذين اختارهم الله أمناء على خفايا وأسرار هذا الوجود، وقد أعطى جبران هذه الشخصية المسيحية اسم نجيب رحمة. أما الشخصية الثالثة، فهي الشخصية الأكثر أهمية، وهي عبارة عن شخصية امرأة هادئة ممتلئة علماً وحلماً

وحكمةً، وهي متحفظة جداً فلا تلقي بدررها الغالية أمام الخنازير لئلا تدوسها وتقتل ملقيها، بل تعطي تلك الدرر والجواهر من يستحقها ويقدرها ويصونها من الوقوع في أيدي الحمقى والجهال المغفلين. ولم يختر جبران لها اسم (آمنة العلوية) عن عبث، بل جعلها جبران أيضاً ابنة لعالم عظيم وشيخ جليل معروف باسم (العلوي). وكل ما عرفه ذلك الشيخ الطاعن في السن، الهرم جسداً، المتجدد روحاً، قد تلقى كامل معارفه وعلومه عن الشيعة العلويين الأوائل الذين أخذوا علومهم الصافية ومعارفهم النقية من النبع المحمدي- العلوي مباشرة[1].

وقد قام بالتعليق على أحداث هذه المسرحية أحد الذين قاموا بترجمة ودراسة بعض أعمال جبران، وهو الأستاذ (ثروت عكاشة) الذي ترجم، من جملة ما ترجم لجبران، كتاب (النبي) الذي يمثل خلاصة الفلسفة الجبرانية. وقد جاء في المقدمة المطولة التي وضعها الأستاذ (عكاشة) لكتاب النبي، قوله عن تحليل الفكر الجبراني العام وعن العقيدة الروحية لجبران التي تجلت بصورة جلية في مسرحية (إرم ذات العماد):

«من القرآن الكريم أخذ (جبران) اسم هذه المدينة التي ورد ذكرها في سورة الفجر، وصورها في صورة غابة صغيرة زاخرة بالثمار والأشجار، تحتضن بيتاً وحيداً قديماً، وتقوم على مقربة من قرية الهرمل التي يسكنها الشيعة في شمال شرق لبنان، وجعل زمن أحداث المسرحية عصر يوم من أيام

---

(١) راجي أنور هيفا: النزعة الإسلامية في فلسفة جبران، مجلة النور، العدد ١١٨، مؤسسة النور - لندن، عدد آذار ٢٠٠١، ص٧٥.

يوليو (تموز) من العام الذي ولد فيه (جبران) وهو عام ١٨٨٣/... جبران المسيحي تخير مادته من القرآن. ثم تخير بطلة قصته مسلمة عميقة الإيمان من فرقة العلويين، بل تخير اسمها (آمنة) اسماً إسلامياً عزيزاً من أكثر أسماء المسلمات تداولاً واستعمالاً»[1].

وباقتران وتضافر هذه العبارات التي كتبها الأستاذ ثروت عكاشة عن مسرحية إرم ذات العماد، تلك العبارات المبنية على دراسة وتحليل أحداث تلك المسرحية من جهة وعلى مواقف وأحاديث جبران الصريحة والمباشرة والتي تتعلق بموقفه من الإمام علي عليه السلام من جهة أخرى، نستطيع نحن أن نضم أصواتنا إلى صوت ورأي الأستاذ عكاشة في وجهة نظره عن جبران وعن معاني مسرحيته الفلسفية القصيرة. وبإمكاننا، بنفس الوقت أيضاً، أن نضيف قائلين إن جبران خليل جبران الذي اتخذ لنفسه في المسرحية المذكورة اسماً جديداً هو اسم الأديب الوهمي (نجيب رحمة)، قد جعل موعد لقائه مع العالمة الربانية آمنة العلوية هو اليوم الذي ولد فيه جبران نفسه، أي عام (١٨٨٣). وهنا أراد جبران أن يقول لنا إنه قد ولد مرتين اثنتين، فالمرة الأولى التي ولد فيها جبران هي تلك الولادة الجسدية حيث كانت هويته الروحية فيها هي العقيدة المسيحية. أما ولادته الثانية التي ولد جبران فيها، فهي تلك الولادة الروحية الفكرية حيث أصبحت هويته الروحية فيها هذه المرة هي العقيدة الجديدة التي فتحت بصيرته على فهم وإدراك فلسفة الوجود، إنها العقيدة (المحمدية- العلوية)[2].

---

(١) جبران خليل جبران: النبي، مصدر سابق، راجع المقدمة ص٥٢.

(٢) راجي أنور هيفا: النزعة الإسلامية في فلسفة جبران، مصدر سابق، ص٧٥.

وإذا كان السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قد أكد في أقواله أكثر من مرة أنه ما آمن به من لم يولد مرتين، فإن جبران أراد أن يؤكد لنا بدوره صدق هذا الحديث وعمقه الروحي. فالأديب نجيب رحمة الذي هو في حقيقته الاسم المستعار لجبران، وهو الأديب الباحث عن الحقيقة والحكمة وعن أسرار الكون وخفايا علومه، أراد أن يقول لنا إنه كان يريد دائماً أن يتزود من هذه الحياة بالكثير من المعتقدات والأفكار الإسلامية الصافية والتي يمثلها الفكر الإسلامي الشيعي خير تمثيل. فالوجود وأسراره وكل علومه، بالنسبة لجبران في عمق هذه المسرحية، هو حبيس في صدر الإمام علي عليه السلام ، وإن الفكر الذي يمثله الإمام علي عليه السلام هو الفكر القادر على فهم حركة الحياة ومتغيراتها. وبذلك، فإن جبران يعتبر أن كل فكر مناوئ لفكر الإمام علي عليه السلام ، وكل خصم من خصوم الإمام علي عليه السلام هو حقاً من نتاج الجاهلية[1].

ومن هنا نرى أن جبران يواصل تأكيداته، من خلال أحداث مسرحيته، على أن الذي يتبع آمنة العلوية ستصبح نفسه مطمئنة وآمنة مثل نفس (آمنة) تماماً. وبالتالي، فعندما يلتقي الأديب نجيب رحمة بالشيخ العجمي ويسأله عن مكان ولادة آمنة العلوية، يجيبه الشيخ بهدوء ووقار: «ولدت في صدر الله» قاصداً بذلك أزلية وقدم الفكر والمعارف العلوية التي تنتهي حدودها عند أعتاب صدر علي عليه السلام .

وعندما يقوم ذلك الشيخ العابد الزاهد بتقديم صورة متكاملة عن سماحة وصفاء ذلك الفكر السماوي الخالد، فإنه يقوم بتصويره ووصفه بكل رقة

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص١٠.

وشفافيةٍ قائلاً: «ليس بين البشر أدرى بالوحدة الدينية المجردة من آمنة العلوية، فهي في الناس على اختلاف طوائفهم كندى الصباح الذي يهبط من الأعالي وينعقد دراً مشعشعاً بين أوراق الأزهار المتباينة لوناً وشكلاً. نعم، هي كندى الصباح»[1].

فهذا الفكر العلوي والعلم اللدني الذي أحاط بهما صدر علي عليه السلام هو الصدر الوحيد الذي انطوى على أسرار الكون وعلم الوجود، وهو الصدر الشريف الذي كان يتمنى دائماً أن يصيب لذلك العلم حملةً وأهلاً.

وإذا كان بعض النقاد والباحثين ممن تعمقوا في دراسة وتحليل آثار جبران الفكرية قد رأوا في أدب جبران خليل جبران صورة الفلسفة التوحيدية الثائرة على التقاليد البالية وعلى الأعراف الاجتماعية السقيمة، وإذا كان بعضهم الآخر يؤكد على أن:

«أدب جبران هو أدب الرؤيا والنبوءة»[2] في الوقت الذي ترى فيه شريحة أخرى من النقاد والمحللين صورة «الفيلسوف والصوفي»[3]، فإن جبران، بكل هذه الصور المتنوعة والأوصاف المتعددة، استطاع من خلال روحه الصوفية وفكره الفلسفي وأدبه التنبوئي أن يدرك أن العالم بكل أبعاده وبكل أسراره

---

(١) المجموعة (العربية) الكاملة لجبران: مجموعة البدائع والطرائف، راجع مسرحية (إرم ذات العماد).

(٢) الدكتور خليل أحمد خليل: المعرفة الاجتماعية في أدب جبران، دار ابن خلدون - بيروت، ط/١٩٨١، راجع ص٥٤.

(٣) نديم نعيمة: الفن والحياة، دار النهار للنشر - بيروت، ١٩٧٣، ص٢٢.

وخفاياه، وبكل علومه وقوانين حكمته قد تحول إلى كتابٍ مسطورٍ مودع في صدر الإمام علي عليه السلام ، فلا العالم ولا علومه وأسراره تقلصت وتقزمت في صدره الشريف، ولا صدره الشريف ضاق بما فيه من الحكمة والعلوم والمعارف والأسرار!!!

وقد يستغرب القارئ ويندهش من موقف جبران، المسيحي، من محمد وعلي، بل من الإمام الحسين عليه السلام أيضاً، خاصة عندما يقرأ لجبران مقالته الشهيرة عن الإمام الحسين عليه السلام بعد أن قرأ الكثير والكثير عن فلسفة النهضة الحسينية المباركة والتي لم ير فيها وفي استشهاد الإمام الحسين عليه السلام من أجل الحق والفضيلة وإعلاء كلمة الله إلا الصورة الحقيقية الصادقة عن سعي الإمام الحسين عليه السلام لخلاص الإنسانية من الظلم والظلمة، والارتقاء بها إلى مستوى حمل المسؤولية في عملية الاستخلاف الإلهي على الأرض. فدماء الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء حجة الله على خلقه، وإن الدماء التي كتبت الحجة على الخلق هي نفسها الدماء التي سطرت مجد البشرية التي قبلت تحمل تلك المسؤولية العظيمة في مسألة الاستخلاف تلك، وهذا ما عبر عنه الفيلسوف جبران بقوله الرائع عن مسألة الفداء والخلاص:

«لم أجد إنساناً كالحسين سطر مجد البشرية بدمائه»[(١)].

نعم، ربما يستغرب القارئ الكريم هذه الحقائق عن الفكر الجبراني المبدع، ولكن قد يزول هذا الاستغراب، ولو بشكله الجزئي، وعندما ندرك أن جبران قد قرأ التاريخ الإسلامي بعين المفكر الباصر، وقد درس أيضاً الأحاديث النبوية

(١) راجع مجلة الموسم: العدد ٣، المجلد ٤، صدر العدد عام ١٩٩٢ - هولندا، ص٣٥٤.

الشريفة بعين البصيرة القادرة على التمييز بين الحديث الصادق الذي تفوه به الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وبين ذلك الحديث الكاذب المدسوس الذي وضع لاحقاً على لسانه صلى الله عليه وآله.

وليس هناك أدنى شك في أن جبران قد قرأ في كتب السنة عشرات الأحاديث عن مكانة الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، وعن غزارة علمه الذي احتوى علوم الدنيا والآخرة حتى أنه كان المرجع الأول والأساسي لعمر وأبي بكر وعثمان في كل الأمور والقضايا المستعصية.

ولذلك، فعندما يقرأ جبران، أو حتى أي مفكر مسيحي آخر، أقوالاً للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في مبلغ علوم علي عليه السلام ومعارفه مثل:

- «قسمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزء واحد»[1].

- وعن زيد بن أرقم قال: كنا جلوساً بين يديّ النبي صلى الله عليه وآله فقال: «ألا أدلكم على من إذا استرشدتموه لن تضلوا ولن تهلكوا؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: هو ذا- وأشار بيده إلى علي بن أبي طالب عليه السلام -...»[2].

- وقوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «أعلم أمتي علي»[3].

- وتأكيده صلى الله عليه وآله على أن الإمام علياً عليه السلام هو الفاروق الأعظم، شأنه في

(١) الحافظ الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، الباب ٤٨ ص١٩٧.

(٢) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، ص٢٤٥.

(٣) سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٦٩.

ذلك شأن القرآن الكريم: «علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا علي الحوض»[١].

فعندما يقرأ جبران، أو حتى غير جبران، هذه الأحاديث النبوية الشريفة عن حقيقة الإمام علي عليه السلام المعرفية وعن تحليقه في فضاءات العلوم والمدارك السماوية والأرضية سيدرك بلا ريب أن الإمام علياً عليه السلام هو الوجه الحقيقي للإسلام الذي نادى به الرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله، إنه الوجه القرآني الذي يدعو لحضارة الإنسان ورقيه روحياً وجسدياً. كما وأنه سيعرف أيضاً أن الذي لا يعرف الإمام علياً عليه السلام لن يكون قادراً على معرفة حقيقة الإسلام القائم على دعائم الخير والحق والفضيلة. ومن هنا، كان جبران المسيحي يدعو المسلمين للأخذ والتمسك بتلابيب أهل الذكر الحقيقيين والابتعاد كلياً عن أولئك الذين ينصبون أنفسهم أولياء وأوصياء على الدين زوراً وبهتاناً. بل نستطيع أن نلاحظ أيضاً أن جبران يتعمد تحذير المسلمين والعرب من شر أفعالهم التي لا تتناسب مع روح الإسلام الذي أراده محمد المصطفى صلى الله عليه وآله خاصةً في ما يتعلّق بشرف الكلمة وكرامة الوجود. فالعالم العربي، بنظر جبران، لن يرحم الشرق ولن يرحم المسلمين ما لم يعملوا على العودة إلى المبادئ التي طرحها محمد صلى الله عليه وآله من خلال رسالته الإنسانية التي تدعو إلى الحرية والامتناع عن العبودية لغير الله. فالإسلام بحاجةٍ إلى عملية تنظيف داخلي تقيه وتحميه من كل المخاطر الخارجية. وقد عبر الأديب والفيلسوف جبران عن ذلك بقوله: «إن لم يقم فيكم من ينصر الإسلام على عدوه الداخلي، فلا ينقضي

---

(١) الشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار، ص٨٩.

هذا الجيل إلا والشرق في قبضة ذوي الوجوه البائخة والعيون الزرقاء (أي أهل الغرب))»[١].

وبمقارنة هذه الأقوال لجبران مع أقواله السابقة والصريحة بشأن الإمام علي عليه السلام وعلاقته الوثيقة بالمطلق الكلي وقربه منه، والتصاقه روحاً ونوراً بالقرآن الكريم الذي يمثل الإمام الصامت، نستطيع أن نخرج بنتيجة واضحة المعالم، خلاصتها أنه على أمة الإسلام إذا أرادت أن تفتح نوافذ عقلها على النور وعلى نسائم الحضارة، عليها أن تقتدي بالإمام علي عليه السلام لأن أمير المؤمنين علياً هو حقاً رباني هذه الأمة وذو سابقتها وهو أيضاً شقيق القرآن، وحامل علومه، ولسان معارفه وأحكامه، وترجمان خفاياه وأسراره.

وعندما يؤكد جبران على ضرورة الأخذ من علوم علي عليه السلام والاقتداء به كإمام للمسلمين وكمعلم عظيم لغير المسلمين أيضاً، وعندما يؤكد بنفس الوقت على أن المجتمع الغربي يجهل حقيقة الإسلام لأنه يجهل أهله الحقيقيين ويجهل أهداف رسالتهم في الوجود الإنساني، نرى أن المفكر المسيحي الكبير (إدوار سعيد) ينبه المسلمين عموماً إلى تلك الحقيقة المرة التي يعيشها الغرب في علاقته الفكرية مع الإسلام فكراً وممارسةً.

فالمفكر الباحث (إدوار سعيد) استطاع أن يجعل من كتابه (الاستشراق)، والمطبوع عام (١٩٧٨)، أول كتاب (عوالمي) عابر للحدود والقارات، وقافزٍ فوق حواجز الألسن واللغات وكل الثقافات.

(١) د. خليل أحمد خليل: المعرفة الاجتماعية في أدب جبران، ص٢.

وقد انتهى الأستاذ (سعيد) في كتابه السابق الذكر إلى نتيجة فكرية ذات طابع سياسي واضح بشأن عملية الاستشراق. فقد دعا هذا الباحث الكبير (إدوار سعيد)، بعد عدة عقود مما دعا إليه جبران، إلى إقامة خط دفاع إسلامي كوني قاصداً بذلك إقامة جبهة حصينة في وجه الغرب الأعمى أو المتعامي عن حقيقة رسالة الإسلام، وأن تكون نواة تلك الجبهة الحصينة القوية تلك الكوكبة من العلماء والمفكرين والعرفانيين الذين وعوا وأدركوا حقيقة الرسالة الإسلامية وأهدافها وأن تضم تلك الجبهة، بنفس الوقت، كل العرفانيين والإشراقيين من غير المسلمين أيضاً بدءاً من إفلاطون، ذلك الفيلسوف الإغريقي المثالي، مروراً بكل الرموز الإنسانية الخالدة في الإسلام ومن ثم في المسيحية المعاصرة من أمثال (أنبياء نيويورك الثلاثة): جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني، بحيث تذوب الحدود وتنهار الجغرافيا وتتقارب العقول وتتراحم القلوب، وليرتفع عند ذلك صوت الإسلام النقي الصافي ليقرع بإنسانيته أبواب الكنائس في الغرب، ولتثمر عند ذلك شجرة المعرفة الكونية، كما يتوقع لها الأستاذ (سعيد) في كتابه المذكور سابقاً، ولتتحول عندها شجرة المعرفة إلى «زيتونة لا شرقية ولا غربية» تضيء بفعل المقابسة مع الروح الإلهي الكوني[1].

وأنا شخصياً أعتبر أن هذا الكلام ينطوي على قدرٍ كبير من الدقة والصواب. ويمكننا القول أيضاً إن المسيحي الناظر إلى الحقائق بعين بصيرته يتحول أمام شعلة فكر الإمام علي عليه السلام المتقدة علماً وحكمةً وإنسانيةً إلى أخ

(١) عفيف فراج: استشراق إدوار سعيد، جريدة السفير، العدد ٩٦١٥، ٣ تشرين الأول ٢٠٠٣، راجع الملحق الثقافي ص١٠.

صدوق للمسلم الصادق الذي قبل أن ينشر أشرعة مركبه الفكري أمام نسائم علي عليه السلام التي لا يمكن أن تقود أحداً أو أن توصله إلا إلى بر الأمان وشواطئ الإيمان.

ألم يقل الأديب الشاعر (بولس سلامة) عندما سئل، وهو المسيحي، عن سبب كتابته لملحمته الإسلامية الخالدة (عيد الغدير) والتي تدور حول شخصية الإمام علي عليه السلام الفريدة وحول دوره الريادي في رسم الخطوط الأساسية للرسالة الإسلامية:

«ورب معترضٍ يقول: ما بال هذا المسيحي يتصدى لملحمة إسلامية بحتة؟ أجل، إنني مسيحي ولكن التاريخ مشاع للعالمين»[1].

وهذا التاريخ المشرق الذي يحفظ مآثر علي وفضائله ويسطرها على صفحات أسفاره هو أحد فروع تلك الشجرة المباركة التي لا تعترف بشرق دون غرب، ولا بغرب دون شرق، بل غايتها السامية والنبيلة هي أن تضرب جذورها عميقاً في باطن الأرض (الآدمية) وتطلق أغصانها الباسقة في عنان السماء باتجاه السمو والرفعة والتحليق في مدارات الخلود والأبدية.

ولذلك لا أعتقد أن هناك شجرة من هذا النوع لا تسمح لمسيحي مستنير بنور الفكر والمعرفة والنزعة الإنسانية أن يستظل بظلها لمجرد أنه مسيحي، أو أن تمنع تلك الشجرة مسلماً منفتحاً على الحياة وعلى مطالب واحتياجات الروح الإنسانية العامة أن يقطف ثمرة من ثمارها اليانعة. فشجرة الفكر والإيمان والمعرفة

---

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١٠.

والفضيلة هي تلك الشجرة التي تراهن على إنسانية الإنسان، ولذلك، فمن حق كل إنسان يؤمن بهذا الرهان أن يستظل بظلها وأن ينعم بثمارها.

ورحم الله ذلك الشاعر المسيحي القائل عن تلك الشجرة المباركة والباسقة في سماء المجد والخلود:

يا حبَّذا دوحة في الخلد نابتة ... ما في الجنان لها شبهٌ من الشجرِ
المصطفى أصلها والفرع فاطمةٌ ... ثم عليٌّ اللقاح سيد البشر
والهاشميان سبطاها لها ثمرٌ ... والشيعة الورق الملتف بالثَّمرِ
إني بحبهم أرجو النجاة غداً ... والفوز مع زمرة من أحسن الزُّمرِ(١)

وهنا، أعتقد أنه من الواجب علينا أن ننتقل في حديثنا عن علوم الإمام علي عليه السلام ومعارفه من الخطوط العامة إلى الخطوط المفصلة، ومن العموميات إلى الخصوصيات، وذلك لأن إخواننا من المفكرين والأدباء المسيحيين المعاصرين لم يتوقفوا عند حدود الكلام عن علوم علي عليه السلام بالشكل العام والإجمالي، بل تجاوزوا الأمر إلى حد الكلام عنه بالتفصيل وبالتخصيص، فوقفوا عند كل باب من أبواب العلم والمعرفة ليتحدثوا عن دور الإمام علي عليه السلام فيه وفضله عليه.

وأعتقد أنه من المناسب لنا الآن أن ندخل مباشرة في الحديث عن تلك الأنواع المختلفة من العلوم، وسنتعمد أن يكون كلامنا مختصراً عن كل باب من أبواب تلك الحقول المعرفية لأننا لو أردنا أن نتكلم عن كل حقل أو ميدان من

---

(١) الحافظ محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، طبع دار إحياء تراث أهل البيت، طهران، ط١/ ١٤٠٤هـ، ص٤٢٦.

تلك الحقول والميادين بالشكل المطول المفصل وبالأسلوب الدقيق والموسع لطال بنا الكلام دون الإحاطة التامة والكاملة بالمبتغى والمراد.

ولكن أرى أنه من الواجب علينا هنا أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنني قد تعمدت سابقاً إغفال قضية (المباهلة) في الفصول السابقة من هذا الكتاب على الرغم من الأهمية البالغة لتلك القضية التي تعتبر أحد الجسور الأولى للتواصل والحوار بين المسلمين والمسيحيين.

والحقيقة، إن إغفالي لتلك الصفحة المشرقة من التاريخ الإسلامي العام لم يأت عن عبث، ولكن رأيت أن أجعل تلك الصفحة المشرقة جزءاً من الكلام عن علوم أهل البيت عليهم السلام عموماً ولذلك فقد تحدثت عنها في الباب الخاص عن العلوم التوحيدية.

فالذي يتأمل الأبعاد الفكرية والروحية ليوم المباهلة بين أهل الرسالة الإسلامية الممثلة بمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام من جهة، وبين المسيحيين النصارى الممثلين بأسقف نجران، العاقب، والوفد المرافق له من جهة أخرى، سيرى أن لذلك اليوم دلالات وإشارات عميقة المعاني في ميزان العلم والمعرفة والتوحيد الإلهي الخالص.

هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فإن يوم المباهلة بحد ذاته يدل على أن الإمام علياً عليه السلام الذي هو، حسب نص وتفسير آية المباهلة، نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الإمام الذي ورد ذكره الشريف في كلام الله تعالى بكلمة (أنفسنا) في تلك الآية المباركة، فدل الله سبحانه وتعالى على أن نفس محمد وعلي واحدة وجوهرهما واحد، فتوحدت بذلك أنوار النبوة والإمامة على الأرض مثلما

كان نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام متوحداً في عالم السماء.

إذاً، فلنبدأ حديثنا عن أبواب العلم عند علي عليه السلام كما يرى المسيحيون ذلك، وليكن الباب الأول هو باب العلوم التوحيدية والتي كانت حادثة المباهلة إحدى صفحاته المشرقة لما فيها من دلالات ومعانٍ عقائدية هامة.

علم التوحيد الإلهيّ

إنّ التفكير العميق والواعي في كل ما حولنا من مفردات الوجود يفتح لنا الكثير من الأبواب الجديدة أمام عقولنا وبصائرنا، وكلما دخلنا باباً من هذه الأبواب كلما ازدادت معارفنا وارتقت مداركنا وتحرّكت فينا رغبة البحث من جديد كي نستكشف كل ما يمكن أن نستكشفه ونستفيد منه في عملية تفعيل المعرفة مع ذواتنا في هذا الكون المليء بالألغاز والأسرار.

ولا ريب في أن التفكير العميق والمركّز يقود الإنسان إلى العديد من النتائج الإيجابية القادرة على أن تفرض وجودها أمام المنطق السليم. فالدّماغ البشري لا يمكنه أن يتوقف عن دراسة جميع الظواهر التي يمرّ بها في كل لحظة من لحظات الزمن، ولو توقّفت تلك الدراسة، فإنّ هذا يعني توقُّف صاحب الدماغ عن الحياة. فالدماغ البشري أشبه ما يكون بآلةٍ مستمرّةٍ في عملها بشكل أوتوماتيكي من أجل إنتاج الفكر.

وإذا كان الفيلسوف الإنكليزي(فرنسيس بيكون) يؤكد دوماً على أن القليل من الفلسفة يقود إلى الإلحاد، وأن الكثير منها يؤدي إلى الإيمان، فإن هذه المقولة لا تخلو من الصحة أبداً. وخلاصة القول من ذلك، إن الفلسفة فكرٌ وإن الكثير من هذا الفكر العميق الباحث عن الحكمة من وجود الأشياء ومن القوانين التي

تحكمها في وجودها، هو فكرٌ سيقود صاحبه إلى الإقرار بوجود عقلٍ مُبدعٍ جبّارٍ قادرٍ على قيادة هذا الكون والإشراف عليه.

وبما أن الرسالة الإسلامية هي رسالة علم ومعرفة، وهي أيضاً آخر خطابٍ سماويٍّ لأهل الأرض جميعاً، فقد جاءت لتتّفق مع فطرة الإنسان السليمة التي تقرُّ في ذاتها بوجود مُدّبرٍ واحدٍ عاقلٍ وحكيمٍ لهذا الكون المعقّد والمترامي الأطراف.

ولأن الرسالة الإسلامية أيضاً هي رسالة منطقٍ وحوار، ورسالة انفتاحٍ على الثقافات والديانات الأخرى، فقد جاء الخطاب الإلهي في محكم التنزيل ليُقرّ هذه الحقيقة بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم** ﴾ (١).

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القرآنية الثابتة، كان لا بد للرسالة الإسلامية أن تتحاور مع الرسالات والثقافات الأخرى؛ وذلك من خلال الكلمة الطيبة ومن خلال الحجة والبرهان والمنطق السليم الذي تتّفق كل الأطراف المتحاورة على سلامته وصحته.

وكان من أهم وأوائل المواضيع الهامة المطروحة على طاولة الحوار هو موضوع العقيدة التوحيدية وأسسها ومبادئها وغايتها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة على القائلين بها والمعتنقين لها.

وكانت هناك محاورات كثيرة، سجلها التاريخ لنا، بين الرسول الجديد

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

والأخير، محمد بن عبد الله ﷺ وبين أصحاب العقائد المختلفة، سواء كانت تلك العقائد سماوية أم غير سماوية. وكما ذكرنا، فقد كانت النقطة الأكثر أهمية المطروحة أوّلاً هي مسألة التوحيد الإلهي. ولكن التاريخ الإسلامي يحدّثنا عن محاورة هامة جداً جرت بين الرسول المصطفى ﷺ وأهل بيته عليهم السلام من جهة، وبين أساقفة نجران من جهة أخرى حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام وحول موقعه من مقام الألوهية. ولا ريب في أن التاريخ الإسلامي قد أعطى هذه الحادثة الشهيرة قيمة عظيمةً أكثر من غيرها من بقيّة المحاورات لأن هذه الحادثة بالتحديد قد ورد ذكرها في القرآن الكريم تخليداً لها وتأكيداً لعظمة أهل البيت المحمدي أيضاً.

فمن المؤكّد تماماً أن حادثة (المباهلة) بين محمد ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام من جهة ووفد نجران وكبار أساقفتهم من جهة ثانية حول الطبيعة الحقيقية للسيد المسيح عليه السلام وعلاقة ذلك بالتوحيد الخالص لله الواحد الأحد المُنزّه عن الوالد والولد هو أعظم دليل وأقوى برهان على أن أهل بيت الرسول المصطفى ﷺ هم، حقاً حجج الله على خلقه فوق أرضه.

وإذا كان محور حادثة المباهلة قد دار حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام الذي كان قسم كبير من النصارى ينظرون إليه على أنه ابن الله الذي تجسّد في الهيكل البشري ليُضحّي بنفسه من أجل فداء الإنسان وتخليصه من أوزار الخطيئة العظيمة، فإن الفريق الثاني المتمثّل بمحمد ﷺ وأهل بيته (علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام) كانوا جميعاً على موقف واحد وواضح من حقيقة السيد المسيح عليه السلام ومن نبوّته وطبيعته وعلاقته بالله سبحانه وتعالى. ومن أجل

هذه النقاط الملقاة على بساط البحث كان يوم المباهلة العظيم.

ولكن قبل أن نتحدث عن موقف بعض المفكرين المسيحيّين المعاصرين في تلك الحادثة الخالدة في صفحات التاريخ، علينا أن نذكر شيئاً عن تلك الحادثة كما جاءت تفاصيلها في كتب السنّة المعتبرة. وعلى سبيل المثال، لا الحصر، يمكننا أن نستشهد بما ذكره الإمام العلامة ابن الصباغ المالكي في كتابه (الفصول المهمّة) حول حادثة المباهلة.

يقول ابن الصبّاغ المالكي: «أهل البيت على ما ذكر المفسّرون في تفسير آية المباهلة، وعلى ما روي عن أم سلمة، هم: النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. أمّا آية المباهلة وهي قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِنَ المُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُم ثُمَّ نَبْتَهِل فَنَجعَل لَعنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ﴾ [1]. وبسبب نزول هذه الآية أنه لمّا قدم وفدُ نجران على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، دخلوا عليه مسجده بعد صلاة العصر وعليهم ثياب الحبرات أردية الحرير، لابسين الحلل، مُتختّمين بخواتم الذهب. يقول من رآهم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما رأينا مثلهم وفداً قبلهم، وفيهم ثلاثة من أشرافهم يؤول أمرُهم إليهم، وهم: (العاقب) واسمه عبد المسيح، كان أمير القوم وصاحب رأيهم وصاحب مشورتهم لا يصدرون إلا عن رأيه. و(السيد) وهو الأيهم وكان

(١) سورة آل عمران: الآية ٦١.

صاحب رحابهم ومجتمعهم. و(أبو حاتم بن علقمة) وكان أسقُفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ولكنّه تنصّر فعظّمته الرومُ وملوكها وشرفّوهُ وبنوا له الكنائس وولّوهُ وأخدموه لما علموه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وشأنه وصفتّه ممّا علمه من الكتب المتقدّمة، ولكن حمله جهلهُ على الاستمرار في النصرانية لما رأى من تعظيمه ووجاهته عند أهلها. فتكلّم رسولُ الله ﷺ مع أبي حاتم بن علقمة والعاقب عبد المسيح وسألهما وسألاه، ثم إن رسول الله ﷺ لمّا تكلّم مع هذين الحبرين اللذين هما العاقب وعبد المسيح دعاهما إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا. فقال رسول الله ﷺ: كذبتم. إنه يمنعكم من الإسلام ثلاثة أشياء، عبادتكم الصليب، وأكلُكم الخنزير، وقولكم لله ولد. فقالوا: هل رأيت ولداً بغير أب، فمن أبو عيسى؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ **إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِنَ المُمتَرِينَ** ﴾ الآية.

فلما نزلت هذه الآية مصرّحة بالمباهلة دعا رسول الله ﷺ وفد نجران إلى المباهلة وتلا عليهم الآية، فقالوا: حتى ننظر في أمرنا ونأتيك غداً، فلمّا خلا بعضهم ببعض، قالوا للعاقب صاحب مشورتهم: ما ترى من الرأي؟ فقال: والله قد عرفتم معشر النصارى أنّ محمداً نبيٌّ مُرسل، ولقد جاءكم بالفصل من عند صاحبكم، فوالله ما لاعن قومٌ قط نبيّهم إلا هلكوا عن آخرهم، فاحذروا كلّ الحذر أن يكون رأفة الاستئصال منكم، وإن أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة عليه فوادعوا الرجل وأعطوه الجزية ثم انصرفوا إلى مقرّكم. فلما أصبحوا جاءوا

إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج وهو محتضنٌ الحسين آخذ بيد الحسن، وفاطمة خلفه وعليٌّ خلفهم، هو يقول: اللهم هؤلاء أهلي، إذا أنا دعوتُ آمنوا. فلما رأى وفدُ نجران ذلك وسمعوا قوله، قال كبيرُهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألت الله تعالى أن يزيل جبلاً لأزاله. لا تُباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانّي منكم إلى يوم القيامة» [1].

ولو توقّفنا عند هذه الحادثة كما يراها المفكرون والأدباء المسيحيون، سنلاحظ أنهم قد استفاضوا في دراستها وشرحها وتحليلها، ومن ثم إثبات إسقاطاتها الروحية والفلسفية في ما يتعلّق بأعلميّة أهل البيت المحمدي العلوي عليهم السلام في ميدان العلوم الإلهية والمعارف التوحيديّة.

وإذا كان كل المفسّرين المسلمين قد أجمعوا على أنّ مكانة الإمام علي عليه السلام قد برزت بشكلها الأوضح من خلال آية المباهلة وذلك عندما جعل اللهُ سبحانه وتعالى - على لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله - الإمام علي عليه السلام بمكانة محمد صلى الله عليه وآله الروحيّة، وذلك بقوله في نفس الآية الشريفة ﴿أَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ حيث جعل اللهُ محمداً وعليّاً نفساً واحدة، وهذا يعني أن العلوم التي تمتلكها نفسُ علي عليه السلام هي نفسها التي تمتلكها نفسُ محمد صلى الله عليه وآله، وهذا يعني أيضاً أنّ محمداً المصطفى صلى الله عليه وآله هو الحجّةُ والنبيّ، وأنّ الإمام علياً عليه السلام الذي ورد ذكرُه في الآية الشريفة بكلمة (أنفسنا) هو الخليفة والوصيّ.

وإذا كان المفسّرون المسلمون، على مختلف مذاهبهم، قد أدركوا هذه

---

(١) ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، مصدر سابق، ص٢٣-٢٥.

الوقائع والحقائق، فإنّ رجال الفكر والأدب من المسيحيّين قد وعوا ذلك أيضاً، وربّما أدرك البعضُ منهم ما هو أعمق من ذلك.

ولو تركنا قلمنا يُبحرُ في ما كتبه المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون) عن يوم المباهلة في كتابه (سلمان الفارسي والبواكير الروحية في الإسلام)، فإننا سندرك مباشرةً أن لهذه الحادثة أثراً بالغاً في مؤلفات (ماسينيون). فبعد أن يورد ماسينيون قصة المباهلة وبعد أن يذكر أيضاً الآية القرآنية الكريمة التي تخلّد ذلك اليوم للأبد، نراه يسارع للتأكيد أكثر من مرّة في أكثر من مكان على أنّ لتلك الحادثة، أو كما يُسمّيها هو بـ (المحاكمة)، دلالات واضحة على مدى عمق علوم أهل البيت عليهم السلام بالفلسفة التوحيدية التي جاء بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في رسالته السماوية التوحيدية الأخيرة.

وبالإضافة إلى ذلك، يرى (ماسينيون) أن الرسول صلى الله عليه وآله قد جعل أهل بيته عليهم السلام الرّهان الأقوى أمام الناس على صدق نبوّته وأصالة رسالته. وقد بينّ تلك الحقيقة بقوله: «ولهذه المحاكمة -المباهلة- التي فيها إظهاره الوحيد لإخلاصه المطلق، جمع النبيُّ أهله «الخمسة» الذين دثّرهم بدثاره وهُم - عداه- حفيداه وابنته وزوجها، رهائن على إيمانه برسالته النبويّة. ومنذ ذلك الحين استحال عند بعض صحابة النبيّ ما كانوا يحملون من مودّةٍ نحو الخمسة إلى حُبّ عبادة»[1].

وقد علّق الدكتور عبد الرحمن بدوي على قول المستشرق ماسينيون بقوله

(١) لويس ماسينيون: سليمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران، ترجمة وإعداد: الدكتور عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات - الكويت، ط١٩٧٨/٣ ص٤٥.

إنّ هناك علاقة وثيقة جداً، بالنسبة لماسينيون، بين أوقات الصلاة «الخمسة» وبين أهل البيت «الخمسة» الذين هم القطب في عملية المباهلة[1]، تلك العملية التي تعطينا المؤشرات الكافية لحجم المعارف التي يمتلكها أهل البيت عليهم السلام بشكل عام، والإمام علي عليه السلام بشكل خاص، باعتباره هو المقصود مع محمد بكلمة (أنفسنا) في الآية السابقة.

وإذا كان هذا هو تعليق الدكتور عبد الرحمن بدوي على أقوال ووجهات نظر المستشرق ماسينيون بشأن يوم المباهلة، فإن المفكر والباحث الفرنسي المعاصر (جان موريون) يرى في كتابه المُسمّى (لويس ماسينيون) أن مجيء محمد صلى الله عليه وآله بخليفته وابن عمّه الإمام علي وبالحسن والحسين وبأمّهما البتول، السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام كان شيئاً ضرورياً من أجل وضع النقاط على الحروف في ما يتعلّق بالعقيدة المسيحيّة التي تحوّل أتباعها إلى فئات ومذاهب وملل متصارعة ومختلفة كل الاختلاف في ما يتعلقّ بمعرفة السيد المسيح عليه السلام وبرسالته.

وقد بدأ الأستاذ المفكّر (موريون) حديثه عن المباهلة بقوله: «دار النقاش واحتدم الخلاف في المدينة حول صفة المسيح الإلهية، وقد قدّم محمدُ أهل البيت أي علي والحسن والحسين وفاطمة. وكان أن تراجع القادةُ المسيحيون عن الاحتكام إلى الله..»[2]، ثم يتابع (موريون) حديثه قائلاً إنّ مجيء الرسول

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٥.

(٢) جان مورويون: لويس ماسينيون، ترجمة: منى النجّار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط١/١٩٨١، ص٦٢.

محمد ﷺ لم يكن رحمة للمسلمين المؤمنين برسالته فحسب، بل كان أيضاً رحمةً لأولئك المسيحيين الذين راحوا يمزّقون بعضهم بعضاً ويتنازعون حول خلافات لاهوتيّة تجعل من الفرد المسيحيّ إنساناً بلا هويّةٍ روحيّة واضحة[1].

وقد عزّز الأستاذ (موريون) فكرته عن المباهلة وعن الدور الفكريّ التوحيديّ في النقاش الذي كان المُفترض له أن يدور بين أهل بيت النبي ﷺ وبين أساقفة نجران وأتباعهم بمقولةٍ أوردها نقلاً عن المفكّر اللبناني الأميريكي (ميشيل حايك) في كتابه المطبوع باللغة الفرنسية «Le Christ De L'islam» «مسيح الإسلام»، وتقول هذه المقولة: «حين يجتمع عشرة مسيحيّين فإنهم يخرجون بأحد عشر رأياً مختلفاً»[2]. وهذا يعني أن أهل البيت عليهم السلام من خلال مجيئهم مع الرسول المصطفى من أجل المباهلة، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام الذي يمثّل -كما ذكرنا سابقاً- (نفس) النبيّ ﷺ هو في الحقيقة لتعليم بقايا المسيحيّين الذين يبحثون عن الإيمان وعن أصول التوحيد الحقيقي الذي يُرضي الله عزّ وجلّ ويُرضي السيد المسيح عليه السلام ذاته.

ولا نعتقد أن قضية اعتبار الإمام علي عليه السلام في موقع (نفس) الرسول ﷺ كما صرّحت بذلك آية المباهلة، أمرٌ صعب التصديق بحيث يستوجب الكثير من إعمال الفكر من أجل الوصول إلى دور الإمام علي عليه السلام في نشر بذور العلوم التوحيدية في الحقول الإنسانية العطشى للمعارف وفي العقول الجائعة لذلك النوع من العلوم الإلهية السامية.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٣.

وهنا تحديداً، وقبل أن نكمل كلامنا عن العلوم التوحيدية عند الإمام علي عليه السلام، نرى لزاماً علينا أن نتوقف قليلاً مع نُتفٍ صغيرة من الخطب البليغة للإمام عليه السلام والتي تنطوي على قدرٍ من تلك العلوم التي أرادها النبيُّ المصطفى صلى الله عليه وآله أن تنتشر بأشعّتها وضيائها لتلفّ العالم بأكمله فتنتشله من دوّامات الصراع الوجودي القائم على تحديد الهويّة الروحيّة أمام حقيقة الإله الواحد المعبود.

فممّا يقوله أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهجه القويم (نهج البلاغة) عن الخطوط العريضة لوصف الخالق وتوحيده عزّ وجلّ، هو قوله: «الحمد لله العليّ عن شبه المخلوقين، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، الباطن بجلال عزّته عن فكر المتوهّمين، العالم بلا اكتساب ولا ازديادٍ ولا علمٍ مُستفادٍ، المقدّر لجميع الأمور بلا رويّةٍ ولا ضميرٍ، الذي لا تغشاه الظُّلَمُ ولا يستضيء بالأنوار، ولا يرهقه ليلٌ ولا يجري عليه نهارٌ، ليس إدراكُه بالأبصار ولا علمُه بالأخبار»[1].

بالطبع، هذا جزء بسيط من خطبةٍ طويلةٍ تدور في مجملها حول مبدأ التوحيد الإلهي، وهي خطبة جديرة بالدراسة والتحليل، بل وباتّخاذها شعاراً ثابتاً لكل المؤمنين الموحّدين. غير أنّ خطبته التوحيدية العظيمة التي لفتت أنظار كل الفلاسفة المسلمين وفقهائهم والباحثين من المسلمين والمسيحيّين هي تلك الخطبة التوحيدية الطويلة التي احتوت على جواهر علم التوحيد والتنزيه، حيث أعجزت ببلاغتها ومعارفها علماء التوحيد من الأولين والآخرين. وعلى الرغم

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج٢ ص٣٦٧.

من أن الشريف الرضيّ الذي جمع وألّف بين خطب وأقوال الإمام علي عليه السلام في ما أسماه بكتاب (نهج البلاغة)، لم يذكر تلك الخطبة بكاملها، إلا أنّ الجزء المذكور منها يُعتبرُ كافياً لإرساء قواعد علم التوحيد بكامله.

وندعو هنا القارئ ليقرأ هذه الخطبة الرائعة بكل هدوءٍ وروّية، وأن يتوقّف عند كل مقطع منها متفكّراً ومحللاً له حتى يتيقّن أنّ الذي يقول هذه الخطبة بما تحتوي من علوم إلهيّة ومعارف ربّانية هو حقّاً نفسُ النبيّ وصنوه المؤهّل حقيقةً ليكون الرأس البارز في عملية المواجهة (المباهلة) التي تراجع الأساقفةُ المسيحيّون فيها مع أتباعهم في اللحظات الأخيرة عن خوضها أمام الجموع من الطرفين خوف الخسران المبين.

وعلى أيّ حال، فإنّ تلك الخطبة العلويّة التي تجمع من أصول العلم التوحيدي ما لا تجمعه خطبةٌ أخرى، تبدأ بالثناء على الله سبحانه وتعالى، وبتحميده وتسبيحه، ثم يتمُّ بعد ذلك الانتقالُ لطرح معالم التوحيد بقوله عليه السلام فيها: «ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّلهُ، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهّمهُ، كلُّ معروفٍ بنفسه مصنوعٌ، وكلُّ قائمٍ في سواه معلولٌ، فاعلٌ لا باضطراب آلةٍ، مقدّرٌ لا بحول فكرةٍ، غنيٌّ لا باستفادةٍ، لا تصحبُهُ الأوقاتُ، ولا ترفدهُ الأدواتُ، سبق الأوقات كونُهُ، والعدم وجودُهُ، والابتداء أزلُهُ، بتشعيره المشاعر عُرف أن لا مشعر لهُ، وبمُضادّته بين الأمور عُرف أن لا ضدّ لهُ، وبمقارنته بين الأشياء عُرف أن لا قرين له، ضادّ النورّ بالظُّلمة، والوضوح بالبُهمة والجمود بالبلل، والحرور بالصّرد، مُؤلّفٌ بين مُتعادياتها، مُقارنٌ بين مُتبايناتها، مُقرّبٌ بين مُتباعداتها، مُفرّقٌ بين

مُتدانياتها، لا يشمل بحدٍّ، ولا يُحسبُ بعدٍّ، وإنّما تحُدُّ الأدوات أنفُسها، وتُشيرُ الآلاتُ إلى نظائرها، منعتها (مُنذُ) القدميّة، وحمتها (قدُ) الأزليّة، وجنّبتها (لولا) التّكملة. بها تجلّى صانعُها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون، لا يجري عليه السكونُ والحركةُ، وكيف يجري عليه ما هو أجراهُ، ويعودُ فيه ما هو أبداهُ، ويحدُثُ فيه ما هو أحدثهُ، إذاً لتفاوتت ذاتُه، ولتجزّأ كُنهُهُ، ولامتنع من الأزل معناهُ، ولكان له وراءٌ إذ وُجد لهُ أمامٌ، ولالتمس التمام إذ لَزمهُ النُّقصانُ، وإذاً لقامت آيةُ المصنوع فيه، ولتحوّلَ دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه، وخرج بسلطان الامتناع من أن يُؤثّر فيه ما يُؤثّر في غيره، الذي لا يحولُ ولا يزولُ، ولا يجوزُ عليه الأفُولُ، لم يلد فيكون مولوداً، ولم يُولد فيصير محدوداً، جلّ عن اتّخاذ الأبناء، وطهُر عن مُلامسة النّساء، لا تنالهُ الأوهامُ فتُقدّرهُ، ولا تتوهّمُهُ الفطنُ فتُصوّرهُ، ولا تُدركُهُ الحواسُ فتحُسّهُ، ولا تلمسهُ الأيدي فتمسّهُ، لا يتغيّرُ بحالٍ، ولا يتبدّلُ في الأحوال، ولا تُبليه الليالي والأيامُ، ولا يُغيّرُهُ الضياءُ والظّلامُ، ولا يُوصفُ بشيءٍ من الأجزاء، ولا بالجوارح والأعضاء، ولا بعرضٍ من الأعراض، ولا بالغيريّة والأبعاض، ولا يُقالُ له حدٌّ ولا نهايةٌ، ولا انقطاعٌ ولا غايةٌ، ولا أنّ الأشياء تحويه، فتُقلّهُ أو تُهويهُ، أو أنّ شيئاً يحملُهُ فيُميلُهُ أو يُعدّلهُ، ليس في الأشياء بوالجٍ، ولا عنها بخارجٍ، يُخبرُ لا بلسانٍ ولهواتٍ، ويسمعُ لا بخروقٍ وأدواتٍ، يقولُ ولا يلفظُ ويحفظُ ولا يتحفّظُ، ويُريدُ ولا يُضمرُ، يُحبُّ ويرضى من غير رقّةٍ، ويُبغضُ ويغضبُ من غير مشقّةٍ، يقولُ لمن أراد كونهُ كُن فيكونُ، لا بصوتٍ يقرعُ، ولا بنداءٍ يُسمعُ، وإنّما كلامُهُ سُبحانهُ فعلٌ منه أنشأهُ، ومثّلهُ لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً.

لا يُقالُ كان بعد أن لم يكُن فتجري عليه الصفاتُ المُحدثاتُ، ولا يكونُ بينها وبينه فصلٌ، ولا لهُ عليها فضلٌ، فيستوي الصّانعُ والمصنوعُ، ويتكافأ المُبتدعُ والبديعُ، خلق الخلائق على غير مثالٍ خلا من غيره، ولم يستعن على خلقها بأحدٍ من خلقه، وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغالٍ، وأرساها على غير قرارٍ، وأقامها بغيرِ قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصّنها من الأود والاعوجاج، ومنعها من التهافُت والانفراج، أرسى أوتادها، وضرب أسدادها، واستفاض عُيُونها، وخدّ أوديتُها، فلم يهن ما بناهُ، ولا ضعُف ما قوّاهُ، هو الظّاهرُ عليها بسلطانه وعظمتهُ، وهو الباطنُ لها بعلمه ومعرفته، والعالي على كُلّ شيءٍ منها بجلاله وعزّته، لا يُعجزُهُ شيءٌ منها طلبهُ، ولا يمتنعُ عليه فيغلبهُ، ولا يفُوتُهُ السريعُ منها فيسبقهُ، ولا يحتاج إلى ذي مالٍ فيرزُقهُ، خضعت الأشياءُ له، وذلّت مُستكينةً لعظمته، لا تستطيعُ الهرب من سُلطانه إلى غيره، فتمتنع من نفعه وضرّه، ولا كُفء لهُ فيُكافئهُ، ولا نظير له فيُساويه، هو المُفني لها بعد وجودها، حتى يصير موجُودُها كمفقودها.

وليس فناءُ الدنيا بعد ابتداعها بأعجب من إنشائها واختراعها، وكيف لو اجتمع جميعُ حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مُراحها وسائمها، وأصناف أسناخها وأجناسها...

وإنّ الله سبحانه يعودُ بعد فناء الدنيا وحدهُ لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها، بلا وقتٍ ولا مكانٍ، ولا حينٍ ولا زمانٍ، عُدمت عند ذلك الآجالُ والأوقاتُ، وزالت السنونُ والساعاتُ، فلا شيء إلا اللهُ الواحدُ القهّارُ الذي إليه مصيرُ جميع الأمور، بلا قُدرةٍ منها كان ابتداءُ

خلقها، وبغير امتناعٍ منها كان فناؤها، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها.

لم يتكاءده صنعُ شيءٍ منها إذ صنعهُ، ولم يؤدْهُ منها خلقُ ما خلقهُ وبرأهُ، ولم يُكوّنها لتشديد سُلطانٍ، ولا لخوفٍ من زوالٍ ونقصانٍ، ولا للاستعانة بها على ندٍّ مُكاثرٍ، ولا للاحتراز بها من ضدٍّ مُثاورٍ، ولا للازدياد بها في مُلكه، ولا لمكاثرة شريكٍ في شركه، ولا لوحشةٍ كانت منه فأراد أن يستأنس إليها، ثم هو يُفنيها بعد تكوينها لا لسأمٍ دخل عليه في تصريفها وتدبيرها، ولا لراحةٍ واصلة إليه، ولا لثقل شيءٍ منها عليه، لَم يُملّهُ طُولُ بقائها، فيدعُوهُ إلى سرعة إفنائها، ولكنه سبحانه دبّرها بلطفه، وأمسكها بأمره، وأتقنها بقُدرته، ثم يُعيدُها بعد الفناء، من غير حاجةٍ منه إليها، ولا استعانةٍ بشيءٍ منها عليها، ولا لانصرافٍ من حالِ وحشةٍ إلى حال استئناسٍ، ولا من حال جهلٍ وعمى، إلى حالِ علمٍ والتماسٍ، ولا من فقرٍ وحاجةٍ، إلى غنى وكثرةٍ، ولا من ذُلٍّ وضعةٍ، إلى عزٍّ وقُدرةٍ»[1].

وأعود وأكرر طلبي ثانية من القارئ الكريم أن يعود ويقرأ هذه الخطبة التوحيدية البليغة قراءةً وعاية ودرايةٍ لا قراءة تصفّحٍ وروايةٍ، وليحكم بعد ذلك عليها بما يشاء من آراءٍ وأحكام، ولكن على أن يكون في ذلك صادقاً مع نفسه، أولاً وآخراً، بشأن تحديده لمكانتها وموقعها اللائق بها قياساً ومقارنةً مع الخطب التوحيدية الأخرى التي قالها (زيدٌ) أو (عمروٌ) من الناس.

ويمكن أن نذكر هنا، على سبيل المثال فقط، ومن باب التعليق على هذه الخطبةِ تحديداً، أنّ الأديب والباحث (نصري سلهب) قد علّق على هذه الخطبة،

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٢ ص٣٠٩-٣١٢.

بعد أن ذكر قسماً منها في كتابه (في خطى عليّ)، وكان تعليقه عليها موجزاً وبليغاً إذ إنه اعتبر أنّ تلك العلوم التي تضمّنتها تلك الخطبة التوحيدية الطويلة إنّما تعكس، بطبيعتها، صورة قائلها الذي يُمثّلُ العمق المعرفيّ الكامل والرؤية الباصرة الصافية التي تعكس بركات السماء(١).

وبالطبع، فإنّ الأستاذ (سلهب) لم يحكم على القيمة المعرفيّة عند الإمام عليعليه السلام وعلى ارتباط عقله الكونيّ الجبّار بكل الحقول العلمية من خلال قراءة تلك الخطبة السالفة الذّكر فقط، بل استطاع الأستاذ (سلهب) أن يطلق أحكامه وآراءه من خلال قراءة عشرات الخطب والأقوال المماثلة التي تحتوي في طيّاتها على الكثير من الحقائق العلمية التي سبق الإمام عليعليه السلام من خلالها زمانه وعصره بشكل كبير.

وكان من جملة ما استدلّ به الأستاذ الباحث (سلهب) على أعلميّة الإمام عليعليه السلام في حقل العلوم التوحيدية وحقول العلوم الكونية الأخرى، هي جملة الأحاديث النبويّة الشريفة التي قالها الرسول المصطفىصلى الله عليه وآله في الإمام عليعليه السلام وتناولتها لاحقاً كُتُبُ الحديث والتاريخ عند كافة المذاهب الإسلامية. ومن جملة الأحاديث التي استدلّ بها الأستاذ (سلهب) على غزارة علم الإمام عليعليه السلام الذي لا ينضب والمعين الذي لا ينفد، هو قول الرسول الكريمصلى الله عليه وآله لعليعليه السلام:

- «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نّبيّ بعدي».

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٥٣.

- «إنّ علياً هو وليُّكُم بعدي».

- «أنت وليُّ كلِّ مؤمنٍ بعدي».

إن هذه الأحاديث التي ذكرها الأستاذ (سلهب) كلّها في الصفحة/٧٤/ من كتابه (في خُطى عليّ)، تدلُّ - برأيه - على أن الإمام علياًعليه السلام هو دائماً الإمام الأعلم والأفقه، وهو فوق ذلك أيضاً صاحب الشمائل والخصال التي تجعله الأقدر والأجدر على حمل لواء الرسالة الإسلامية بعد الرسول الكريمصلى الله عليه وآله. ولذلك، فمن العبث وقلّة الحكمة -كما يشيرُ إلى ذلك صراحة- أن يُقارن أيُّ صحابيّ أو خليفةٍ بالإمام عليعليه السلام لأنه «هو -علي- في المسلمين جميعهم دون استثناء، أصلحُهُم وأفضلُهُم وأكثرهم كفاءة وقدرة وعلماً، وأنّ ابن الخطّاب لا يُجاريه ولا يُدانيه في شيءٍ، على الإطلاق»[1].

إذاً، وبالاعتماد على ما سبق من كلامٍ عام ومن أحاديث نبويّة شريفةٍ بشأن مكانة عليعليه السلام ومنزلته المتميّزة، نرى أنه من المنطقي أن تكون مكانة عليعليه السلام من محمدصلى الله عليه وآله كمكانة هارونعليه السلام من أخيه موسىعليه السلام. ومن المنطقيّ أيضاً أن يكون عليعليه السلام هو الامتداد الطبيعي للعمق المعرفيّ في شخصيّة محمدصلى الله عليه وآله.

فالمباهلة التي أكّدت هذه الحقائق عن أهل البيتعليهم السلام عموماً، وعن عليعليه السلام الذي أشار اللهُ سبحانه وتعالى إليه في محكم تنزيله بكلمة (أنفسنا) حيث جعل نفس عليعليه السلام ومحمدصلى الله عليه وآله واحدةً، هي الحادثة التاريخية الخالدة التي بيّنت لأتباع الديانة المسيحيّة السابقة ولأتباع الديانة الإسلامية اللاحقة أن

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤٢.

الرسالة الإسلامية هي حقيقة واقعة لا تقبلُ النقضّ وهي شريعة سماوية إلهية لا يمكن الطعن فيها.

وقد تعمّد المستشرق والمفكر الفرنسي (يان ريشار) ذكر حادثة المباهلة والنتائج المترتبة عليها، وذلك لما لها من أهميةٍ بالغةٍ في رصد وتوجيه مسار الرسالة الإسلامية. وبعد أن أشار الأستاذ (ريشار) إلى حادثة المباهلة مع مسيحيّ نجران، رأى أن تلك الحادثة المثبتة تاريخياً، حتى عند المسيحيّين، تمتلك دلالاتٍ واضحةٍ مترتّبةٍ على حدوثها، وأولى هذه الدلالات هو أن الحادثة نفسها ومن خلال اجتماع الفريقين قد تمّ تثبيت الهويّة الشرعيّة للديانة الإسلامية أمام المسيحيّين أنفسهم[1].

أمّا ما يتعلق بالنتيجة الثانية التي يراها الأستاذ (ريشار) نتيجة اجتماع المسيحيّين مقابل الجناح الإسلامي الذي يضمّ الرسول وأخاه علي وابنته وحفيديه، فهي نتيجة هامة لكنّها ذات بُعدٍ فلسفيٍّ وآيديولوجي خاص.

والذي يقرأ ما كتبه (ريشار) عن المباهلة في كتابه (الإسلام الشيعي)، يلاحظ بشكل واضح أنه أراد أن يعطي الحادثة بُعداً فلسفياً عميقاً، فضلاً عن البعد الدّينيّ القائم على المواجهة الفكرية بين الطرفين من أجل قضيّة التوحيد ومكانة السيد المسيح عليه السلام من الله.

فالمفكّر (ريشار) يعطي السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، زوجة علي عليه السلام وابنة محمد صلى الله عليه وآله، دوراً حيوياً جداً في عملية المباهلة. فهي عليها السلام الأنثى الوحيدة القادرة

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ص٤٧.

على خوض تلك المعركة الفكرية. لكن، كونها الأنثى الوحيدة، فهي إذاً صلةُ وصلٍ هامة جداً تربط بين أعظم شخصيّتين إسلاميّتين. فهي الأنثى التي تربط علياً عليه السلام بمحمد صلى الله عليه وآله، أي أنها تربط الوصيّ بالنبيّ، وهي أيضاً الأنثى التي ستستمرُّ الروح الإسلامية بمبادئها وقيمها وعلومها حيّةً وقويّةً من خلال ابنيها الإمامين السيّدين الحسن والحسين عليهما السلام. فهي عليها السلام، إذاً، نواة الأسرة المقدّسة في الإسلام[1].

ومن خلال هذه الأسرة المقدّسة في الإسلام، سيبقى عبقُ الرسالة ونورها في حالة خلودٍ، وستكتمل دائرةُ القداسة نتيجة ارتباط علي الوصيّ عليه السلام بفاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وآله ومجيء من سيكمل رسالة الجدّ المصطفى صلى الله عليه وآله لاحقاً، وهما الإمامان (الحسنان)، وهذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن مستعداً لتقديم نفسه قرباناً من أجل رسالة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله السماوية فحسب، بل نذر نفسه ونذر أولاده الأئمة من بعده لإكمال طريق التوحيد ورفع الإنسان بالعلم والإيمان إلى مصاف الكمالات الإنسانية وجعله المرآة العاكسة لإرادة الله على الأرض. وبالطبع، فإنّ هذا ما سيحدث عبر أولاده ومن خلال زوجته البتول فاطمة عليها السلام، وارثة الأنوار المحمديّة، والتي استحقّت عن جدارةٍ لقب «أمّ أبيها»، ذلك اللقب الدّال على أنّ الإرث الروحي للإسلام الذي نشره محمد صلى الله عليه وآله صاحب الدعوة الإسلامية سيستمرُّ خلال ذُرّيتها المباركة من علي عليه السلام حسبما يقول مؤكداً على ذلك المستشرقُ الفرنسي البارز (لويس ماسينيون) في حديثه عن فاطمة الزهراء، زوجة الإمام علي، وعن مقامها المميز

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٧.

عند المسلمين[١].

إذاً، فالعلوم عموماً، والعلوم التوحيدية على وجه الخصوص التي حاز عليها الإمام علي عليه السلام، والتي ستشكّل لاحقاً حجر الأساس في عملية انتشار الأيديولوجيا الإسلامية التوحيديّة بقوّة الكلمة عبر أبنائه الأئمة من أمّهم الزهراء فاطمة عليها السلام، هي العلوم التي أرادها الرسولُ المصطفى صلى الله عليه وآله أن تنتشر على نطاقٍ أوسع بين الناس بعد أن ينتقل هو صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى.

وقد تكلّم الدكتور (نظمي لوقا) بشكلٍ مُطوّلٍ عن هذه الحقيقة التي أراد الرسولُ الكريم صلى الله عليه وآله تبليغها إلى الناس، إلى كافة الناس من مسلمين ومسيحيّين وإلى غيرهم من بقية الأديان والمعتقدات. وكان من جملة ما قاله الباحث المسيحيّ الدكتور (لوقا) عن تلك الإرادة المحمديّة في ما يتعلّق بأهمّ نقطةٍ في الرسالة الإسلامية، تلك النقطة التي تُمثّلُ الركن التوحيدي في الرسالة:

«إن الناس بحاجةٍ بعدٍ إلى دينٍ يؤكّد وجود الله، وأنه خالق الخلق، وأنه الكامل المنفرد بالكمال، بيده الأمر، وهو على كل شيءٍ قدير....... ويؤكد وحدانية الله توحيداً يقضي على عقابيل التّعدُّد في تصوُّر الإله.... ويلزم كذلك أن يؤكّد هذه الدين التنزيه لله، حتى لا ينزلق الناس إلى التجسيم الذي طالما وقعوا فيه بعد كل دعوةٍ للتوحيد بسبب غلبة الحس عليهم»[٢].

ويتّضح من كلام الباحث الدكتور (لوقا) أنّ علم التوحيد في رسالة محمد صلى الله عليه وآله كان مُوجهاً إلى المسيحيّين (المجسّمين) مثلما كان موجّهاً إلى أتباع

(١) جان موريون: لويس ماسينيون، ص٨٠.

(٢) الدكتور نظمي لوقا: محمد الرسول والرسالة، ص٣٩.

الديانة الجديدة من المسلمين. فالإسلام القائم على التوحيد هو دين الإنسان المتلائم مع فطرته الأساسية، ولذلك فقد جعل الدكتور (لوقا) عنوان الباب السادس من كتابه (محمد الرسالة والرسول) عنواناً واضحاً وبليغاً لا يحتاج إلى تأويلاتٍ خاصة أو إلى تفسيرات شخصيّةٍ بعيدةٍ عن المنطق، فقد جعل الباب السادس من كتابه المذكور يحمل عنوان (دين البشر) تأكيداً منه على أنّ الإسلام دينُ الناس جميعاً.

وبالطبع، لم يغفل الدكتور (لوقا) عن ذكر دور أهل البيت عليهم السلام في عملية نشر العلوم التوحيدية بين جميع الناس، وتحمُّل أقسى أنواع الظلم والعذاب مقابل عملية نشر نور الهداية السماوية. وإذا كُنّا نؤكّد هنا في كتابنا على دور علي عليه السلام في مجمل ما قدّمه للإسلام وللإنسان المسلم وغير المسلم من جلائل علومٍ ومآثر أعمالٍ، فإننا لا نقبل أن نفصل دوره البارز والحيوي عن دور بقيّة أفراد أهل البيت عليهم السلام. فالجوهر دائماً واحد، والهدف أيضاً واحد. فما لاقاه الإمام علي عليه السلام من عذاب ومتاعب وصعاب في سبيل تغيير بعض المفاهيم الفكرية السائدة حول معاني حقيقة الألوهيّة، وقتاله على التأويل لم يكن إلا صورة مكرّرة لما لاقاه، لاحقاً، الإمامان الحسنان ولما لاقتهُ أيضاً أمُّهما البتول فاطمة الزهراء عليها السلام الملقّبة بأم أبيها، كما ذكرنا ذلك سابقاً.

ولذلك، فقد انتبه الدكتور (لوقا) إلى هذه النقطة الحساسة المتعلّقة بعملية التبليغ القائمة على رسم خطوطٍ جديدةٍ وواضحةٍ للعلوم التوحيدية والتي تُمثّلُ الركن الأساسي في الدعوة الإسلامية، إذ إن الدعوة إلى التوحيد الإلهي في مجتمع كان يعجُّ بالمتناقضات القائمة بين أتباع دياناتٍ سماويةٍ وبين أناسٍ كانوا

قد خلقوا آلهتهم المتعدّدة بأيديهم من جهة، وبين تعاليم ومبادئ رسولٍ جديد وأخير من جهة أخرى، لم تكن عملية سهلة أبداً، بل كانت ضرباً من ضروب المجازفة والمخاطرة بأعزّ ما يملكه المُبلغ التوحيدي الجديد.

وقد عبّر الدكتور (لوقا) عن الضريبة التي دفعها أهل البيت عليهم السلام نتيجة حملهم ونشرهم للعلوم التوحيدية في ذلك المجتمع القبلي المتناقض في معظم جوانبه الماديّة والروحيّة بقوله: «أمّا أهله -أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله- فما كانت هذه الرسالة بأنفع لهم منه، أوذوا بسببها في أرزاقهم، وفي أعمالهم، وفي أشخاصهم. وتعرّضوا لما تعرّض له - الرسول - من التهلكة أكثر من مرّة»[1].

وإذا كان الدكتور (لوقا) قد تكلمّ عن الدور الجماعي الذي لعبه أهل البيت عليهم السلام في غرس شجرة علم التوحيد في الصحراء العربية المترامية الأطراف مع عدم الإشارة إلى الدّور الفردي الذي لعبه كلٌّ منهم على حدة، فإن هذا الأمر لا يبدو غريباً أبداً، وذلك لأن هناك وحدةً متماسكةً في المسار، وحدةً مترابطةً في الأدوار، وحدةً في التكوين وفي الهوية، ووحدةً في الأهداف والغايات.

فوحدة الهدف نتيجة طبيعية لوحدة التكوين والهويّة، هذا إذا علمنا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي كان يصفه أعداؤه بأنه (أبتر) أيّ لا ذريّة له، كان قد صرّح في مناسبات كثيرة أنّ ذريّته باقية في صلب عليّ عليه السلام وفاطمة، وأن هويّتهم الروحيّة وتكوينهم وطينتهم واحدة ومُتّحدة معه صلى الله عليه وآله.

(١) نفس المصدر السابق: ص١٠٩.

ولعل خير مثال على ذلك، ما جاء في كتاب (كنز العمال) للمتّقي الهندي الحنفي من قولٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله : «إنّ لكل بني أب عصبة ينتمون إليها إلا ولد فاطمة، فأنا وليُّهم وأنا عصبتهم، وهم عترتي، خُلقوا من طينتي، ويلٌ للمكذّبين بفضلهم، من أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[1].

ثم، ألم يؤكّد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله أيضاً، للإمام علي عليه السلام هذه الحقيقة القائمة على أنّ كلّ أفراد أهل البيت عليهم السلام ذوو طينةٍ واحدة وذلك بقوله عليه السلام: «يا علي لولا نحن ما خلق اللهُ آدم ولا حواء ولا الجنّة ولا النار»[2]، فأكّد بقوله صلى الله عليه وآله : «لولا نحنُ» على أنهم وحدة متكاملة ذات هويّة واحدة وغاية واحدة.

وعلى كل حال، إذا كان الدكتور (لوقا) قد اكتفى بذكر الدور العام لأهل البيت الكرام عليهم السلام في صياغة وبلورة الفكر الإيماني التوحيدي كما تريدُه رسالةُ السماء الموجّهة إلى أهل الأرض، فإذا كان الدكتور (لوقا) قد اكتفى بذلك، فإنّ المفكّر والأديب (روكس بن زايد العزيزي) لم يقبل أن يخاطب قارئه ويُحدّثه بلغة العموميات أو بأسلوب الاختصارات الموجزة، بل أراد أن يخاطبه ويتحدّث إليه بلغة التخصيص وبأسلوب التفصيل. ولذلك، عندما يتكلّم عن دور الإمام علي عليه السلام في نشر علم التوحيد، نراه يسارع للكتابة عنه بوضوحٍ وبروحٍ علميةٍ بعيدةٍ عن الانفعال وعن العاطفة الممزوجة بالأهواء.

---

(١) المتقي الهندي الحنفي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبع دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد الدكن، ١٣١٢هـ، ج٦ ص٢١٦.

(٢) الشيخ كاظم حمد النجفي: السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، ص٨١.

يرى الأستاذ (العزيزي) أنّ علم التوحيد عند الإمام عليعليه السلام قد ارتبط عنده بفلسفةٍ راقيةٍ مستمدّةٍ من جوهر الرسالة الإسلامية. وتنطلق تلك الفلسفة الدينية الخاصة عنده من منطلقٍ مرتبط بالعلم القائم على دراسة الوجود. فكلُّ ما في الوجود عند عليعليه السلام يدلّ على أحديّة الله وعلى فردانيته. فالمرءُ الذي يطلق العنان لعقله من أجل التفكير والتأمّل في الموجودات، بدءاً من الذرّة وانتهاءً بالمجرّة، سيصل إلى أن العقل السليم سيرفض من تلقاء ذاته أن يكون هذا الكون قد وُجد بطريق الصدفة أو أنه بعيد عن إرادة وإدارة إلهٍ خالقٍ عالمٍ حكيم.

وقد عبّر الأستاذ (العزيزي) عن وجهة نظرة تلك بقوله: «كان للإمام عليعليه السلام فلسفة خاصة نابعة من صفاء فطرته الإنسانية، فكأنّما الكون قد بُسط أمامه فيقرأ فيه حقائق الوجود، فترى في بعض خطبه فلسفة عميقةً في بساطتها وشمولها لإثبات الخالق عن طريق بحث الوجود»[1].

إذاً، فالبحث في الوجود طريق إلى الإقرار بموجِد الوجود، وهذا ما يفسّر لنا اهتمام الإمام عليّعليه السلام وإحاطته الكليّة بالعلوم الكونيّة عموماً، كما سنلاحظ ذلك في الفصول القادمة، وليس فقط بالعلوم الدينّية والشرعيّة

وبعد تأكيد الأستاذ (العزيزي) على ذلك، نراه يورد خطبةً مميّزةً للإمام عليعليه السلام تدعمُ رأيه حول عمق وشموليّة معارف أمير المؤمنينعليه السلام وعلومه. وقد علّق عليها تعليقاً لائقاً بها مُعتبراً أن كلّ من يتكلم بعد عليعليه السلام عن علم التوحيد والتنزيه إنّما هو في المحصّلة تلميذ لعليّعليه السلام في التوحيد ليس أكثر.

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الاسلام وقديسه، ص١١٤.

ولا بأس هنا أن نورد تلك الخطبة القصيرة لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، تلك الخطبة التي دعّم الأستاذ (العزيزي) رأيه بها ليُبيّن للقارئ أن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام المُلهمُ إلهيّاً للوصول إلى ما وصل إليه من حكمة ومعارف.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في تلك الخطبة التوحيدية التي ذكرها الأستاذ (العزيزي): «الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً. كلّ مُسمّى بالوحدة غيره قليل وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلمّ، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها، وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره ظاهر. لم يخلق ما خلقه لشديد سلطان ولا تخوفّ من عواقب الزمان ولا استعانة على نّدّ مشاور ولا شريك مكاثر ولا ضدّ منافر ولكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون. لم يحلل في الأشياء فيقال: «هو فيها كائن»، ولم ينأ عنها فيقال: «هو بائن» لم يؤوده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرأ، ولا وقف به عجزٌ عمّا خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدّر، بل قضاء متقن وعلم مُحكم، وأمرٌ مُبرم، المأمول مع الغمّ والمرجوّ مع النّعم»[1].

وقد علّق الأستاذ المفكرّ(العزيزي) بعد إيراد هذه الخطبة القصيرة بقوله: «ونحن إذا تتبّعنا خطبه عليه السلام نجد فيها أموراً ما كانت تتهيّأ لرجلٍ يعيش في محيطٍ مثل محيطه وزمانه، لولا فطرة صافية خصّه الله بها، فجاء بآراء وفلسفات

(١) نفس المصدر السابق: ص١١٤.

هي خلاصة تأمّلٍ عميق في الذّات الإلهية، فجاءت، وهي إلهامٌ، من الإلهام»[1].

وعندما يقول الأستاذ (العزيزي) عن الإمام علي عليه السلام إنّه قد تجاوز بعلومه كلّ أبعاد محيطه وزمانه، فهذا لا يعني أن الإمام عليه السلام قد تجاوز بعقله عقول أتباع التيار الديني الإسلاميّ الجديد المنادي بالفكر التوحيديّ الدقيق فحسب، بل قد تجاوز أيضاً عقول أتباع الديانات السماويّة السابقة بكل علمائهم ومُفكريهم وحتى فلاسفتهم أيضاً.

وبطبيعة الحال، فإنّ هذه النظرة الثاقبة من المفكرّ المسيحيّ (العزيزي) لا تقتصر في مضمونها على (العزيزي) وحده، بل إنّها تتجاوزه إلى الكثير من المفكّرين المسيحيّين في الشرق حيث يتعايش الفكر المسيحيّ الحرّ مع الفكر الإسلاميّ الأصيل جنباً إلى جنب بحيث يستطيع المفكرّ المسيحيّ أن يقرأ التاريخ الإسلامي بصورته الحقيقية الصادقة وبوقائعه الثابتة سواء كانت تلك الوقائع سلبية أم إيجابيّة.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن هناك عدداً لا بأس به من الأدباء والمفكرين المسيحيّين الدّارسين للفكر وللتاريخ الإسلاميّين في الغرب قد وقعوا في فخّ الاقتصار على أخذ وتوثيق الأحداث الإسلامية من مصدرٍ ومشربٍ واحد، ذلك المصدر الذي كتبهُ الخليفةُ الظالمُ بسيفه الدّامي على أجساد ضحاياه، فضاعت بذلك معظمُ الحقائق وتبعثرت بعض المفاهيم الإسلامية الأصيلة تائهة بين خليفة أمويّ ظالمٍ وآخر عباسيّ فاسدٍ وضعيف وجاهل، وبسبب الظّلم

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١١٥.

والجهل تهاوت صورةُ الإسلام المشرق وانطفأت قناديل الفكر، وأصبح الإسلامُ، بنظر الإنسان الغربيّ الأحاديّ النظرة في دراسته للإسلام، عبارة عن عقيدة قائمة في أساسها على الدعوة إلى هذا الدين الجديد بحدّ السيف والنار، لا على الكلمة الطيّبة وسلامة المنطق وحُسن الحوار.

وعندما نتحدّث عن هذه النقطة التي تتناول ارتباط نظرة الغرب بالإسلام عن طريق قراءة التاريخ المسطور برعاية (الخليفة-الملك) وتحت إشرافه وتوجيهاته، فإننا لا نقصد الإساءة إلى أيّ طرفٍ كان.ولكن ما نريده حقّاً هو أن يستيقظ الإنسانُ المسلم من غفلته وأن يتوقف عن انسياقه وراء روايات ما يُسمّى بـ(السّلف الصالح) الواردة في «الصّحاح» والتي لا يزال الكثيرُ من المسلمين البسطاء يرى فيها، أنها كتبٌ لا يأتيها الباطل، فهي - بنظرهم- كتبٌ محفوظة من الدّس والتزوير، شأنها في ذلك شأن القرآن الكريم تماماً.

ولذلك، فاللّوم -في المُحصّلة- واقع علينا لا على الغرب، وهو واقعٌ على مفكّرينا لا على مستشرقيهم. وأعتقد أنني قد عالجتُ هذا الموضوع بطريقةٍ علمية ومنطقية في كتابي السابق (الإسلام والغرب: حوارُ الحروف وصدامُ السيوف)، ولذلك لا داعي للاستفاضة فيه الآن.

وحتى لا يبتعد بسهمُنا عن مرماه، أعود للكلام عن دور الإمام علي عليه السلام في حفظ ونشر علوم التوحيد بين كافة الناس في وقت كان الناس فيه بأمسٍّ الحاجة إلى من يعطيهم الأجوبة الشافية والحجج الكافية عن وحدانية الله وطرق تنزيهه وتمجيده. فعلوم التوحيد التي صاغها علي عليه السلام، سواء بالاعتماد على القرآن الكريم وعلى أحاديث ابن عمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من جهة، أم

بالاعتماد على صفاء بصيرته ونقاء سريرته وإلهامه السماوي -كما يقول العزيزي- من جهة أخرى، تبقى هي العلومُ القادرة على إثبات شرعية الإسلام كدينٍ سماويّ أصيل، والمعارف التي تُرضي طبيعة الفطرة التوحيدية في الإنسان والتي تُشبعُ عقله بالبراهين المنطقية القادرة على قيادته بحكمةٍ إلى شاطئ الإيمان دون الرجوع إلى الوراء للوقوف عند بعض المعتقدات في شرائع مسّها التحريفُ والتشويه فلم تعد قادرةً على مواكبة الحياة وإرضاء الحاجات الفكريّة والروحيّة المتجدّدة عند الإنسان.

وقبل أن أتوقّف مُلقياً برحالي في واحة الأديب والفيلسوف (جبران خليل جبران)، بعد أن غادرنا واحة المفكّر المسيحيّ روكس العزيزي، لا بدّ لنا من أن نتعرّف أوّلاً على وجهة نظر الفيلسوف (جبران) تجاه الكنيسة التي ثار عليها طالباً اللجوء الروحيّ إلى ولاية علي عليه السلام الفكرية وإلى مملكته التوحيدية.

في الحقيقة، لم يكن موقف الفيلسوف الأديب (جبران) في يوم من الأيام غامضاً تجاه كنيسته. فآثارُه الفلسفية التي ارتدت ثوب الأدب الرفيع تُظهرُ لنا بوضوح أن (جبران) لم يكن على وفاقٍ مع السلك الكنسيّ العام. والذين درسوا آثار جبران الكثيرة أدركوا بشكلٍ لا يرقى إليه الشك أن جبران قد رسم لنفسه نهجاً يتعارض مع ما تريد أن تُمليه عليه الكنيسةُ وعلى كل رعاياها.

فالمطران، عند جبران، يلعب دوراً سلبيّاً جداً في عملية نشر المحبّة بين الناس، فهو -أي مطران- في «الأجنحة المتكسّرة» يحاول جاهداً اجتثاث الحُب النقيّ الرابط بين قلبين عاشقين بعضهما بعضاً عشقاً روحيّاً في الوقت الذي يجب عليه فيه أن يعمل على تثبيت الحُبّ الطاهر في قلوب الناس كما أمر بذلك السيّدُ

المسيح عليه السلام.

أمّا خليل الكافر في «الأرواح المتمرّدة» فقد تمّ طرده خارج الدير في إحدى ليالي الشتاء المثلجة المهلكة، وذلك لأنه كان أقرب في تفكيره إلى السيد المسيح عليه السلام وتعاليمه ممّا دفع برئيس الدير ورفاقه الرهبان أن يلفظوه ويقذفوا به خارج ديرهم المخصّص أصلاً للعبادة وللاقتداء بتعاليم ومبادئ السيد المسيح عليه السلام.

أمّا المثال الثالث، فهو يوحنّا المجنون في «عرائس المروج»، حيث تصوّرُ لنا القصةُ يوحنا المجنون كصورةٍ مطابقةٍ لصورة خليل الكافر في «الأرواح المتمرّدة». يوحنّا المجنون ضحية لجشع الرهبان وتكالبهم على الدنيا وقذف التعاليم الإنسانية الخالدة للسيد المسيح عليه السلام وراء ظهورهم.

إنّ هذه الأمثلة الثلاثة التي ذكرناها من خلال آثار جبران والتي تدُلُّ على رأيه الواضح تجاه الكنيسة، تعمّدنا ذكرها بشكل مختصر، في حين استفاض الأديب اللبناني والناقد (نديم نعيمة) في شرحها وتفصيلها في كتابه «الفن والحياة» الذي تحدّث في أحد أبوابه عن عالم جبران الفكري والروحي[(١)].

وقد لخّص الأديب (نديم نعيمة) موقف جبران النهائي من الكنيسة بمقولةٍ اقتبسها من «عرائس المروج» على لسان يوحنا المجنون الذي وقف يخاطب السيد المسيح عليه السلام غيابياً بقوله:

«لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسُوها بالحرير المنسوج،

(١) نديم نعيمة: الفن والحياة، مصدر سابق، راجع ص٣٢-٣٣.

والذّهب المذوّب، وتركوا أجساد مُختاريك الفقراء عارية في الأزقّة الباردة، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهيب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوُهيتك خاليةً من الخبز، وأفعموا الهواء بالتّراتيل والتسابيح، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الأرامل. تعال ثانيةً يا يسوع الحيّ واطرد باعة الدين من هياكلك فقد جعلوها مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم»[١].

وباختصارٍ شديدٍ، نقول إنه إذا كان أبو العلاء المعرّي قد عُرف بلقب رهين المحبسين، أي رهين الدار وفقدان البصر، فإنّ جبران خليل جبران كان أسير الغربتين، أي الغربة الجغرافيّة والغربة الروحيّة. فقد شنّ في كتاباته، خلال غربته في الولايات المتحدة الأمريكية، حرباً ضروساً على الكنيسة وعلى تعاليمها وممارسات رجالها أينما كانوا. وبعد أن فتح جبران نار أقلامه على الكنيسة بعد إدراكه عجز الكنيسة عن توفير الاستقرار الروحي له، وعجزها عن إعطائه الحجج العقليّة المُقنعة والبراهين المنطقيّة لتعاليمها وعقائدها، فقد أيقن عند ذلك «أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل بربّه حيثما وُجد ودون أن يلجأ إلى المعابد والكهنة»[٢].

وقد أيقن بنفس الوقت أيضاً أنّ عجز الكنيسة عن توفير الوحدة الفكريّة الروحيّة والمنطقيّة له لا يعني أن الوجود قد افتقد إلى من يستطيع أن يؤمّن تلك الوحدة الفكرية الكاملة، وأن يُحقّق ذاك الاستقرار الروحيّ الشامل.

فإذا كان هناك من يستطيع أن يُحقّق ذلك، فهو - بنظر جبران- الإمام

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٣.

(٢) فرانسوا أوبرال: جورج سعد، معجم الفلاسفة الميسّر، دار الحداثة - بيروت، ١٩٩٣، ص٤٥.

علي عليه السلام المُصنّف عنده في درجة الرُّسل والأنبياء.

ولذلك فقد أكّد أحد الدارسين المسيحيّين لفكر وأدب جبران على أنّ ما يريده جبران من معرفة هذا الوجود وفهم معانيه إنّما هو موجود في رحاب عليّ الروحيّ، فعلمُ توحيد واجب الوجود عنده، وعلم طبيعة ممكن الوجود عنده أيضاً. ولذلك، «ينظر جبران إلى عليّ نظرته إلى الكائن الذي اتّصل بأسمى ما في الوجود من معاني الوجود، وتاق إلى الكمال الروحيّ فأدركه واتّحد به، فإذا هو يلازم ما أسماه «الروح الكلّيّة»... فلا يجفُوها ولا تجفُوه. وهو يرى أنّ علياً أوّل عربي بعث في مسامع الدنيا أغاني هذه الروح الشاملة حتى لكأنّ قلبه ينهل منها فتذيعها شفتاه أناشيد سماوية تلو أناشيد. فإذا هو مع الواقفين على قمّة الدنيا يرون ويحدّثون بما يرون ويقولون، فإذا حديثهم وحيٌ وإذا قولهم نجوم السماء»[1].

وغنيٌّ عن القول أن جبران أراد فعلاً أن ينهل من ينبوع معارف علي عليه السلام وعلومه قدر المُستطاع ليس في المجال الديني التوحيدي فحسب، بل في كل مجالات العلوم الأخرى، وبشكل خاص تلك العلوم التي تتمحور حول الحكمة الخفيّة الكامنة وراء مظاهر الوجود.

ولا ريب في أنّ جبران قد تأثّر إلى حدٍّ كبير بأقوال وحكم الإمام علي عليه السلام المتناثرة في نهج البلاغة وفي غيره من الكتب والمؤلفات الأخرى التي تتناول علوم الإمام علي عليه السلام المختلفة ومعارفه المتنوعة ما بين الطبيعيّات والإلهيّات.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٥.

فعندما يقرأ جبران، على سبيل المثال، قولَ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله أجلُّ من أن يحتجب عن شيء أو أن يحتجب عنه شيء»[1].

أو عندما يقرأ قوله عليه السلام أيضاً: «خُلق الإنسانُ ذا نفس ناطقة إن زكّاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت الأضداد فقد شارك بها السبع الشّداد»[2].

أو عندما يقرأ له عليه السلام حديثاً آخر بالغ الأهميّة والقيمة: «ما شككتُ في الحقّ مُذ أُريته»[3]، فعندما يقرأ جبران، الفيلسوف، هذه الأحاديث للإمام علي عليه السلام، وهو الذي كما ذكرنا سابقاً على اطّلاعٍ جيد بالفكر الشيعيّ قبل رحيله إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، فلا بدّ وأن يعمل جاهداً للبحث عن أسرار هذا الكون وخفاياه عند ذلك الإمام الذي ما شكّ في الحق مُذ رآهُ في كل شيء.

وإذا كان الإمام علي عليه السلام يربط دائماً علم التوحيد بمعرفة النفس، لأنّ النفس عنده عليه السلام هي القبسُ الذي يُمكن للمؤمن أن يستغلّه ويستثمره أفضل استثمار في الوصول إلى حقيقة توحيد الخالق، فإنّ جبران قد تأثّر بهذه المعادلة التي يتميّز بها فكرُ الإمام علي عليه السلام التوحيدي. فالوجود عند الفيلسوف جبران، المتأثّر بفلسفة النفس الساعية إلى معرفة ذاتها من أجل الوصول إلى الإقرار بوحدانيّة الخالق من خلال تعدُّديّة المخلوقات وتناقضاتها، يقوم على

(١) ميرزا جواد ملكي التبريزي: السير إلى الله، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١١١.

(٣) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، ج٤ ص٥٥٥.

شريعة الحُبّ الأبديّ الذي يُقدّسُ ذلك القبس الإلهيّ في ذات كلٍّ منّا، ويقوم فهمُ الوجود أيضاً على معرفة وصقل النفس الإنسانية. وهذا يعني أنّه - بالنسبة لجبران- عندما أدركُ ذاتي وحقيقة كياني وهدف وجودي في حركتي الأفقيّة الامتداديّة من أجل معرفة عالمي الذي يحيط بي والكشف عن قوانينه وأسراره، عندئذٍ سأعرف الله الواحد أكثر فأكثر وسأقترب وقتها من دائرة الكمال[1].

هذا هو شأن الأديب الفيلسوف جبران خليل جبران مع علوم الإمام علي عليه السلام الإلهيّة التوحيديّة ومع تعاليمه الفلسفيّة التي ترصد حركة الوجود وقوانينه الطبيعيّة.

وإذا كانت هذه هي النظرة الجبرانيّة تجاه علوم الإمام عليه السلام، فإنّ لبعض الكتّاب والأدباء المسيحيّين نظرة أخرى تبدو أكثر شموليّةً في تفصيلاتها وأكثر تعقيداً في تحليلاتها.

فالسياسيّ والأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) يرى أنّ حديثه عن الإمام علي عليه السلام وعن منظومته المعرفيّة المتكاملة لا يمكن أن تُحصر في أسطرٍ نثريّةٍ قليلة أو في أبياتٍ شعرية قصيرة، فالمنظومة المعرفية عند الإمام عليه السلام أعظم من أن يتمّ الحديث عنها بإيجازٍ أو بشكل مختصر وعابر. فكيف يمكن لمن يكتب عن شخصيّة الإمام علي عليه السلام أن يتجاهل علومه الشريفة في شرح القرآن وفي الحديث وفي الفقه وفي العلوم الإلهية المرتكزة على فلسفة التوحيد!! بل كيف يمكن للكاتب أو الباحث أن يتجاهل الحديث عن علوم أمير المؤمنين علي عليه السلام

(١) راجي أنور هيفا: مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام، ص١٢٦.

في اللغة والنحو وفي علم التصوُّف البعيد عن التواكل والخنوع!! وهل يمكن لأحدٍ ما أن يغفل موقع الإمام علي عليه السلام العلميّ الذي كان يمثّل المنهل العذب لكل الخلفاء من قبله ولكل العلماء من بعده، ومن ثم لكل أرباب المذاهب الإسلامية اللاحقين الذين أخذوا علومهم عنه وعن حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام صاحب أول جامعة في العالم.

ولذلك، فإن الأديب الأستاذ (الإنطاكي) عندما يتحدّث عن شخصية الإمام علي عليه السلام العلمية، فإنه يتحدّثُ بشكل مفصّل عن كل باب من أبواب العلوم والمعارف حتى لتخالهُ وتحسبه تلميذاً من تلامذته في مدرسته أو طالباً من طلاّبه في حلقاته العلميّة.

ولعلّ أبرز أنواع العلوم التي جذبت وأسرت لُبّ الأديب الشاعر (الإنطاكي) هو علم التوحيد أو ما أسماه هو بـ (العلم الإلهي) عند علي عليه السلام. وقد ابتدأ (الإنطاكي) كلامه عن علم التوحيد عند أمير المؤمنين بقوله وتأكيده على أنّ «أشرف العلوم هو العلم الإلهي لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، وهذا العلم مصدره الوحي الإلهي والذّكر الحكيم والأحاديث النبويّة، وكان أوّل وأفضل من نظر في القرآن والسنّة وأفتى بهما وأظهر جلائل مراميهما هو سيدنا علي عليه السلام بإجماع المهاجرين والأنصار»[1].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام، كما يراهُ عبد المسيح الإنطاكي، هو الإمام المُلهم الذي لا يُشقُّ له غبار في ميادين العلوم والمعارف، وبشكلٍ خاص في ميدان علم التوحيد، أو ما أسماه الأديب الإنطاكي بـ (العلم الإلهيّ).

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، ص٦٧١.

ولم يكتف الأديب (الإنطاكي) بالكلام نثراً عن علوم الإمام علي عليه السلام التوحيديّة، بل عهد إلى نظم الكثير من القصائد والأشعار حول تلك الأبواب المتعدّدة من العلوم المختلفة التي حازها أمير المؤمنين علي عليه السلام وحفظها في صدره الشريف كما يحفظ القنديل تلك الشعلة المضيئة بداخله.

ويمكننا هنا أن نقتطع بعض الأبيات الشعرية التي أوردها الأديب (الإنطاكي) عن المعرفة التوحيدية عند أمير المؤمنين عليه السلام وعن دوره القويّ في نشر شعاع تلك المعرفة القدسيّة في عقول وقلوب الناس كي يكونوا على بيّنةٍ من مسارهم واتجاه حركتهم في علاقتهم مع خالقهم ورازقهم الواحد الأحد.

وها هو الأديب (الإنطاكي) يخاطب قُرّاء ملحمته العلويّة من مسلمين ومسيحيّين قائلاً عن علم التوحيد العلوي:

أسمى العلوم وأعلاها وحقّكم العلـ ـمُ الذي كان مُختصاً بباريها
علمٌ به يعرف المخلوقُ خالقه حتى يهيمَ به حُبّاً وتدليها
والمرتضى كان بالإحكام واضِعَه هداية للورى ما ضلَّ هاديها
وعنه قد أخذ الناس الهداية للعـ ـلم الإلهيّ في أسنى مجاليها[1]

وبعد إيراد الشاعر (الإنطاكي) هذه الأبيات الشعرية ذات المعنى الواضح، فإنه يقوم بعد ذلك بتعداد المدارس الفكرية الإسلامية التي أخذت علم التوحيد وفُنونه عن الإمام علي عليه السلام. وقد بيّن في ملحمته العلوية المباركة أنّ فلسفة العدل والتوحيد لا يمكن فهمها على حقيقتها إلا بعد الرجوع إلى أقوال

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٧٢.

وشروحات الإمامعليه السلام التي تعكس الصورة الصادقة لهذين المفهومين المهمّين جدّاً في العقيدة الإسلامية. وإذا كان الإمامعليه السلام قادراً على أن يوجز ويلخّص أعقد الأمور والقضايا العقائدية الهامة بأبسط الكلمات والعبارات كقوله عن العدل والتوحيد بأنّ العدل إلا تتّهمه والتوحيد إلا تتوهّمهُ، فإنه من خلال تلك الأحاديث الموجزة ومن خلال خطبه المُطوّلة أيضاً استطاع أن يرسم المنهج الواضح لكل من يريد أن يكون مؤمناً مُوحّداً، بل لكل من يريد أن يكون مُعلّماً ومرشداً في علوم التوحيد وفي فنونه.

ولذلك نرى أن الأديب (الإنطاكي) قد ختم قصيدته التي تتناول علم التوحيد عند عليعليه السلام والتي ذكرنا سابقاً بعضاً من أبياتها بقوله عن المسار أو النهج الذي اختطّهُ عليٌّعليه السلام لكل مُوحّدٍ من بعده:

طرائقٌ خطّها رُشداً أبو حسنٍ لسالكيها فما ضلّوا مماشيها
فيها العدالة والتوحيد والنظر السعيد للحقّ يهدي خطو ماشيها

وبالطبع، سيكون لنا محّطات أخرى نتوقّف عندها مع الأديب الشاعر عبد المسيح الإنطاكي لنتعرّف على وجهة نظره تجاه بقيّة المجالات العلميّة التي تميّزت بها شخصيّةُ الإمام عليعليه السلام.

ولكن أُحبُّ هنا أن أذكر أنّ المفكّر والراهب الفرنسي (لويس غارديه)، والمولود عام (١٩٠٤)، قد رأى في كتابه (أهل الإسلام) أنّ مفهوم الإمامة -إمامة أهل البيتعليهم السلام - أو مفهوم الولاية هو عبارة عن مفهومٍ ذي عمقٍ معرفيٍّ أصيل، إذ إنه يقوم على ربط المظاهر العباديّة للشريعة بالحقائق الاعتقاديّة لها دون التقليل من المعاني الظاهرية لتلك الشريعة. فالولاية - بالنسبة للراهب

غارديه - هي حالة من حالات (الوفاء الروحي) للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، هذا بالإضافة إلى أنّها الحالة الطبيعية التي يتمُّ عبرها تناقل مبادئ وعلوم النبّوة، وبالتالي فالإمامة أو الولاية هي الوسيلة الكفيلة بحفظ تعاليم ومعارف الرسالة وفحواها الدقيق[1].

ولا يختلف رأيُ الراهب الفرنسي (غارديه) كثيراً عن رأي الشاعر والفيلسوف الألماني (يوهان غوته) بشأن علوم أهل البيت عليهم السلام التوحيديّة والتي تُعتبرُ بمُجملها ثورة على الجمود الفكري وعلى كل مظاهر الشرك التي كانت سائدةً في معظم أرجاء الجزيرة العربية، وإذا كان (غوته) قد وضع العديد من القصائد التي تُمجّدُ رسالة الإسلام وعقائده السامية الداعية إلى تحقيق إنسانية الإنسان واحترام وجوده وحفظ كرامته من خلال إعطائه قيمة وجودية عُليا في هذه الحياة، إلا أنه، وبنفس الوقت، قد أكّد على الدّور الذي لعبه أهل البيت عليهم السلام في عملية ترسيخ تلك القيم النبيلة من خلال تصويرهم بمظهر الحُماة الحقيقيين والمُدافعين الأوفياء عن الدين السماويّ الجديد. وقد ربط الأستاذ (جميل جبر) في كتابه (من الأدب الألماني) بين القصص التمثيليّة المُتعلّقة بالإسلام، التي وضع الشاعرُ (غوته) مُخطّطاتها الأساسية والتي تُبيّن حجم الدّور التبليغي الحاسم لأهل البيت المحمدي عليهم السلام، وبشكلٍ خاص دور الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام، وبين عقيدة (غوته) الدينيّة الخاصة التي اهتدى إليها بعد اطلاعه الواسع على التراث الإسلاميّ العريق والغزير. وهذا يدلُّ على مدى تأثُّر (غوته) بالفكر الإسلامي التوحيدي الذي نادى به أقطاب أهل البيت

(١) لويس غارديه: أهل الإسلام، مصدر سابق، ص٢٥٣.

المطهّر من الرجس (محمد وعلي وفاطمة) المُستعينين بالقرآن الكريم المُوحى به إلى سيّد الرسالة الإسلامية الخالدة.

ولذلك لا نستغرب أن يكتب (غوته) قصةً تمثيليّةً تقوم على فكرة تمجيد مفهوم التوحيد الذي نادى به سيّدُ الرسالة وأهلُ بيته الكرام عليهم السلام، والتي هي بنفس الوقت قصّة تمثيليّة قائمة ومرتكزة أيضاً على فكرة الدّحض الكلّيّ الكامل لمفهوم الشرك بالله[1]، ذلك المفهوم الدّخيل على الفطرة الإنسانية السليمة والتي نجح محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وأهلُ بيته عليهم السلام في نسفه من جذوره.

وإذا كان القرآن الكريم هو الكتاب السماوي التوحيدي الأخير، وإذا كان الإمام علي عليه السلام هو المعلم والمرشد لكلّ المؤمنين الموحّدين من بعده، فمن حقّنا أن نتساءل وأن يتساءل معنا القارئ الكريم عن الموقع الحقيقي للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام من تلك الرسالة السماوية ومن كتابها التوحيدي الأخير.

وربُّما كان الجواب الأوضح على سؤالنا هذا، هو ذاك الجواب الموجود في جعبة الأديب (سليمان كتّاني) الفكرية. فقد اختصر الأستاذ (كتّاني) الجواب بكلمتين موجزتين وبليغتين. فالكلمة الأولى تتجلّى بقوله مخاطباً الإمام علي عليه السلام في معرض حديثه عن دوره عليه السلام في نشر العقيدة الإسلامية ورفع راية التوحيد الدّاعية إلى تفعيل الفكر وإعمال العقل:

«عفوك يا ابن أبي طالب! فأنت من الرسالة كقطب الرّحى»[2].

---

(١) جميل جبر: من الأدب الألماني، مصدر سابق، ص١٦.

(٢) سليمان كتاني: الإمام علي نبراس ومتراس، ص٣٣٩.

أما عن العلاقة بين علوم الإمام علي عليه السلام ومعارفه من جهة وبين القرآن الكريم الذي يحوي بين دفّتيه علوم الأوّلين والآخرين من جهة أخرى، فيقول (كتّاني) في كلمته الثانية:

«وهو - علي- أعلمُ إنسانٍ بما جاء في الآي الكريم، وهو القائل: سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار، أم سهلٍ أم في جبلٍ»[1].

ولا شك في أن الذي يكون هو الأعلم بما جاء في الكتاب السماوي الذي يمثّل دور (الإمام المبين) الصامت، لا بدّ وأن يكون هو المترجم العمليّ له وسيكون بالتالي هو (الإمام المبين) والقرآن الناطق.

وهنا أرجو من القارئ الكريم أن يلاحظ أوجه التشابه بين ما قاله الأديب (سليمان كتّاني) وبين ما سنوردُ من أقوالٍ وعبارات للمفكّر والأديب (جورج جرداق) حول مكانة الإمام علي عليه السلام العلميّة وموقعه من الرسالة الإسلامية.

يقول المفكّرُ (جرداق) في بداية حديثه عن ثقافة الإمام علي عليه السلام وعلومه الموسوعيّة: «عليّ بن أبي طالب فذٌّ من أفذاذ العقل. وهو بذلك قطب الإسلام وموسوعة المعارف العربية، ليس من علمٍ عربي إلا وقد وضع أصلهُ أو ساهم في وضعه»[2].

إذاً، فلا اختلاف أبداً في أنّ الإمام علياً عليه السلام، إمام الأمة، هو قطب

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٤٨.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٩٧.

الإسلام وأساس الإيمان، وهو فاتحة المعارف الإلهية والعلوم التوحيدية.

ولذلك يرى الباحث الأرمنيّ والأديب الدكتور (أواديس استانبوليان)، وهو أحد المفكّرين المسيحيّين المعاصرين المقيمين في دمشق والذي يطلقُ على نفسه لقب (خادم الأسرة الآدميّة) إيماناً منه بالأخوّة الإنسانيّة بين الناس جميعاً، يرى أنّ الإمام علياًعليه السلام يُمثّلُ في علومه وفي أقواله وخطبه إرساءً للحقّ بين الأنام، ومحكمة عدلٍ تُنيرُ القلوب وتُضيءُ العقول، ومنبراً لإشعاع طاقة الرّوح»[1].

وبالطبع، يحقُّ لهؤلاء المفكّرين المسيحيّين أن يقولوا كلّ هذا عن عبقريّة الإمام عليّعليه السلام الفكريّة وعن معاجزه المعرفيّة. والذي يقرأ أقوال عليّعليه السلام وخطبه ووصاياه ويقوم بعد ذلك بدراستها وتحليلها، سيتبيّنُ له أن هذه العلوم الإلهيّة المنطوية على العقيدة التوحيدية هي التعاليم القادرة على إقناع العقل البشريّ وإرضاء احتياجاته الفكريّة وإشباع فطرته الإنسانيّة لأنّ هذه التعاليم والحقائق التوحيديّة التي يريد الإمامُ عليعليه السلام أن يُربّي الناس عليها، إنّما هي انعكاس صادق وأمين لتعاليم القرآن الكريم الذي جاء به رسولُ الإنسانيّة المصطفىصلى الله عليه وآله وسلم والتي هي في جوهرها متطابقة مع سلامة العقل والمنطق وصفاء الروح والفطرة.

وقد صدق سلطان العارفين (محيي الدين بن عربي) عندما قال:

---

(١) مجموعة من المفكرين: في رحاب مهرجان الإمام علي عليه السلام، الفردوس للثقافة والإعلام، دمشق ٢٠٠١، ص١٠١.

«لا يصلح أن يُربّي الخلق إلا من كانت صفاته من صفات الحقّ»[1].

ولم يكتسب الإمام علي عليه السلام الكثير من صفات الحقّ فحسب، بل اكتسب منه أيضاً النهج والأسلوب في عملية ترابط وتكامل العلوم بعضها ببعض من جهة، وفي كيفيّة مخاطبة عقول الناس كي تتقبّل عقولهم المتفاوتة في الفهم تلك العلوم والحقائق من جهةٍ أخرى.

فعندما يطلبُ الإمامُ علي عليه السلام من الناس أن يعتقدوا بوحدانيّة الله وبتنزيهه عن كلّ الظنون والشبهات، فهو لا يريد منهم أن يقوموا بذلك بقلوبهم، بل بعقولهم أوّلاً ومن ثمّ بقلوبهم ثانياً. وها هو عليه السلام يقول في إحدى خطبه مخاطباً العقول:

«لو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدّلالة إلا على أنّ فاطر النملة هو فاطر النخلة، وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقويّ والضعيف، في خلقه إلا سواء. وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر، والنّبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجُّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال....»[2].

ولو أخذنا مقطعاً قصيراً آخر من إحدى الخطب التوحيدية التي تدعو إلى إعمال العقل البشري في دراسة تلك الموجودات التي تحيط بنا من كل جانب، فإنّ اختيارنا لهذا المقطع سيكون من الجزء الثالث من موسوعة (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) للأديب والمفكّر جورج جرداق والتي يرى الأستاذ

---

(١) الشيخ محيي الدين بن عربي: الحكم الإلهية، دار الإرشاد - حمص، ١٩٧٩، ص١١.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص٢٠٢.

جرداق في تلك الخطبة التي سنأخذ منها مقطعاً قصيراً أنها الشكل النموذجيّ الأرقى للمعارف التوحيديّة التي تخاطب العقل من أجل الوصول والاستقرار في القلب.

وها هو المقطع القصير من الخطبة العلوية التي تدعو الإنسان العاقل إلى التّفكُّر وإلى توحيد الله وتنزيهه من خلال التأمُّل العميق في مسألة خلق السماء والأرض.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «.... فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه. ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشقّ الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً مُتلاطماً تيّارُهُ، متراكماً زُخّارُهُ، حملهُ على متن الرياح العاصفة، والزعزع القاصفة... ثم أنشأ سبحانه ريحاً أعتق مهبّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخّار -أي تحريكه وتقليبه- وإثارة موج البحار، فمخضتهُ مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء تردُّ أوّلهُ إلى آخره، وساجيهُ إلى مائرِهِ..»[1].

ولذلك، لم يُبالغ المفكّرون والأدباء المسيحيّون المعاصرون عندما أكّدوا على أنّ معالم التوحيد الإجماليّة، ومفرداته التفصيليّة إنّما نمت وترعرعت وشبّت قويّةً على يديّ ذلك العقل الجبّار، عقل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الذي أرسى قواعد ذلك العلم الجليل المتمحور حول صفات الله الواحد الأحد الذي لا يختلف اثنان على حقيقة أنه سبحانه وتعالى هو أشرف الموجودات، وبالتالي فإنّ معرفته هي أشرف المعارف والعلوم وأجلُّها.

(١) نفس المصدر السابق: ج٣ ص٢٠١.

علوم الفقه وميزان العدل

ربما يستطيع الباحث المهتّم أن يلحظ بسهولة بالغة أن المفكرين والأدباء المسيحيّين الذين كتبوا عن الإسلام كعقيدةٍ ونهجٍ في الحياة، وعن التاريخ الإسلامي كسلسلةٍ من الأحداث المعقّدة وعن بعض شخصيات ذلك التاريخ الإيجابية والسلبية، أنّهم قد اعتمدوا في كتاباتهم، بشكل عام، على الكثير من مصادر السنّة ومراجعها. وعلى الرغم من ذلك، فإنهم قد أبدوا شديد إعجابهم وولعهم بشخصية الإمام علي عليه السلام وبهيكليّته الفكريّة القادرة على حلّ كل المشكلات والمعضلات التي يمكن أن تُصادف الإنسان والمجتمع في كل زمان ومكان ومهما تقادمت العصور على مدارج الحياة الزمنيّة.

وممّا يمكن أن يلفت النظر أيضاً، وهذا برأينا شيء طبيعي جداً، هو أنّ البعض من أولئك المفكّرين المسيحيّين قد شُغفوا ببعض الجوانب من شخصيّة الإمام علي عليه السلام دون الجوانب الأخرى. فالبعض، مثلاً عشق فيه شجاعته وبطولاته، والبعض أبدى شديد إعجابه بأخلاقه ومكارم خصاله، والبعض الآخر رأى فيه، كما رأينا عند جبران وآخرين، رسولاً وإماماً لا تقلُّ مرتبتهُ عن مرتبة أو مقام أيّ رسولٍ سماوي آخر. ولكنّ العدد الأكبر من أولئك المفكرين والأدباء المسيحيّين قد استهواهم اجتماع كل تلك الصفات والخصال في شخصية

الإمام عليه السلام ، ذلك الإمام الذي أصبح يمثّلُ الكمال في نظر كل باصرٍ مسيحيٌ وفي نظر كل باحثٍ مُستنير.

نعم، نحن لا نشك في أن بعض المستشرقين الذين كتبوا عن أحداث التاريخ الإسلامي وغاصوا في أعماقه وفي أعماق شخصياته البارزة إيجاباً أو سلباً، قد حصروا نظرتهم في تقييمهم لتلك الشخصيات ضمن إطار القيم الماديّة والمصالح العمليّة وذلك على حساب القيم الروحيّة والمُثُل المعنوية التي تستند في وجودها وقيمتها على ما تُقدّمُ للروح وللعقل من مبادئ وعلوم ومعارف تدفع الإنسان باتجاه الحضارة الإنسانية السليمة، لا باتّجاه المدنيّة السقيمة التي تُهمّشُ الجانب الروحي والمعنوي في الإنسان أمام التطور المادي والتقدم التكنولوجي.

وهنا، وقبل أن أدخل في صلب موضوعنا المطروح، أودُّ أن أبيّن للقارئ الكريم، وبشكلٍ مختصرٍ جداً، الفارق الجوهري بين مفهوميّ (المدنيّة) و(الحضارة) من أجل أن تكون الصورة أكثر وضوحاً.

فالحضارة هي الموقف الأخلاقي في المدينة. فالمدينة المبنيّة على التقدّم الماديّ والتطور الصناعي والتكنولوجي تبقى بعيدة عن معاني الحضارة ما لم يترافق ذلك التقدم والتطور المادي مع التطور والرقيّ الأخلاقيّ والروحي القائم على تفعيل الدور الإنساني في الوجود. ولذلك، وباختصار، فالحضارة هي الإنسان أمّا المدنيّة فهي احتياجاته المادية التي تفرضها حركةُ التجدُّد في الحياة.

وعلى كل حال، فإنه حتى أولئك المستشرقون الذين تناولوا رجال التاريخ الإسلامي من منظارٍ (مادي- براغماتي) لم يختلفوا على أن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام الأخلاقي الأول والأمثل لكل مُعتنقيّ الرسالة الإسلامية. فهو عليه السلام

النموذج المثالي في كل مجال من مجالات الحياة. وإن كان البعض قد أخذ عليه قلّة حنكته السياسيّة، فإنّ مردّ ذلك إلى أنهم قد قاسوا مواقف الإمام علي عليه السلام المبدئيّة بمقاييسهم الماديّة البراغماتيّة التي تنظر إلى السياسة على أساس أنها لعبة وليس على أساس أنها نهجٌ ومبدأ.

وربما يكون خير مثال على هذه الفكرة المطروحة الآن على بساط البحث هو الباحث والمفكّر الأمريكي من أصل لبناني «فيليب حتّي» (١٨٨٦-١٩٧٨)، وهو مؤرخٌ ذو سمعةٍ فكرية واسعة الانتشار، ومن آثاره (تاريخ العرب)، (تاريخ سوريا)، (تاريخ لبنان)، وقد درّس في العديد من الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية. فالمؤرخُ (حتّي) هو ابن هذا الشرق المليء بالجراح والمترع بالهموم والآلام على امتداديه الجغرافي والتاريخي. وربّما لهذا السبب، فإن الأستاذ (حتّي) لم يدّخر جهداً في دراسة تاريخ هذا الشرق العربي بدءاً من العصور القديمة السابقة على ميلاد السيد المسيح عليه السلام وانتهاءً بالعصور الحديثة. وكان من الطبيعيّ تماماً أن يقوم الأستاذ (حتّي) بدراسة الرسالة الإسلامية وأثرها على العرب من جهة وعلى الغرب وبقيّة بقاع العالم من جهة أخرى.

وقد حاول الباحث المؤرّخ (حتّي) أن يكون موضوعيّاً في كتابة أحداث ذلك التاريخ وفي وصف وتقييم الشخصيات الصانعة له، وعلى الرغم من جهده الواضح في أن يبقى موضوعيّاً في كتاباته عن العصر الإسلامي إلا أنه كان يقع أحياناً ضحيّة النظرة المادية والبراغماتيّة في تقييم الأحداث والشخصيات.

فالأستاذ (حتّي) يعترف في كتابه الذّائع الصّيت «History of the arabs» «تاريخ العرب» أن الإمام علياً عليه السلام، من خلال سيرته العطرة، هو المثلُ الأعلى

والنّموذج الأمثل في الشجاعة والنّبالة وفي شهامته وسموّ أخلاقه حتى مع ألدّ أعدائه[1]. فهو عليه السلام الرمز الأسمى في تاريخ الإسلام.

وعلى الرغم من هذا الوصف للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام من قبل الباحث والمؤرخ فيليب حتّي، وعلى الرغم من ذكره أيضاً لأوصاف أخرى في عليّ عليه السلام رآها بارزةً ومُميّزةً في شخصيته المتألّقة دون غيرها من بقيّة الشخصيات الإسلامية الأخرى، إلا أن الأستاذ (حتّي)، وهو الأستاذ الجامعي ذو الثقافة المتميّزة، لم يستطع أن ينجو بنفسه وبوجهة نظره المادية من السقوط أحياناً في فخّ المقياس (الميكافيليّ) الذي يبحث عن تحقيق الغايات دون إقامة أيّ وزنٍ لنوعيّة وطبيعة الوسائل المُستخدمة في الوصول إلى تلك الغايات المطلوبة والأهداف المرجوّة.

ولكن، وبالرغم من هذا، فإننا لا نريد أن نطعن بمحاولات الأستاذ (حتّي) في أن يكون موضوعياً في كتابة التاريخ العربي عموماً والإسلامي خصوصاً، بل نريد أن نقول مؤكّدين ثانيةً على أنّ الإنسان مهما بلغت درجة ثقافته ومهما علت شهاداته الدراسية، فإنه يبقى عاجزاً وغير معصوم من الوقوع في بعض الأخطاء والتقديرات وفي الأحكام التي يُطلقُها في تقييمه لبعض الأحداث أو الشخصيّات التي يتناولها بالدراسة والتحليل والتقييم.

وحتى لا نُسهب كثيراً في المقدمة المخصّصة لهذا الفصل، نرى من المناسب أن نذكر هنا أن المسيحيّين عموماً، في الشرق والغرب، لا يختلفون على أنّ للإمام علي عليه السلام الكثير من الصفات والخصال التي عجز غيرُه عن الحصول

(١)Philip Hitti, History of the Arabas, Macmillan London 1938, p.183.

عليها والتحليّ بها، كما أنهم لا يختلفون أيضاً على حقيقة أنهعليه السلام هو الخليفة الوحيد الذي استلم مقاليد الخلافة الإسلامية بطريقةٍ شرعيّة وديمقراطيّة.

ومن جملة الصفات التي يتّفقُ جميع المفكّرين والأدباء المسيحيّين المعاصرين عليها هي ثبوت أعلميّة الإمام عليعليه السلام بشؤون الفقه الإسلامي وعلل شرائعه السماوية. فالمؤرخ (حتّي) الذي كنّا بصدد الحديث عنه منذ قليل يرى أن الإمام علياً أمير المؤمنينعليه السلام يمثّلُ بعلومه ومعارفه المتنوعّة وبحكمته العميقة علوم وحكمة الأنبياء أنفسهم. فالإمام عليعليه السلام -كما يراه الأستاذ حتّي- هو كالنبي سليمان الحكيمعليه السلام[1] بعلومه وبحكمته وبعظيم منزلته ومكانته.

ولا أعتقد أنّ الباحث الأستاذ (حتّي) قد شبّه الإمام علياًعليه السلام بنبيّ الله سليمان الحكيمعليه السلام عن عبث، بل كان الأستاذ (حتّي) مُحقّاً تماماً في ذلك التشبيه البليغ، خاصةً إذا نظرنا إليه من عدّة زوايا مختلفة وليس من زاوية واحدة فقط.

وقبل أن نناقش هذا التشبيه الذي أطلقه الأستاذ (حتّي) على الإمام عليعليه السلام ، يمكن أن يعترض عليه بعضُ القرّاء قائلين: لماذا شبّه هذا المؤرّخُ المسيحيّ (فيليب حتّي) الإمام علياًعليه السلام بالنبي الحكيم سليمانعليه السلام ولم يشبّهه بنبيّ آخر كهارون، مثلاً، خاصةً وأنّ الرسول الكريم محمداًصلى الله عليه وآله قد قال مؤكّداً على عمق العلاقة بينه وبين عليعليه السلام يوم غزوة (تبوك) مخاطباً الإمام علياًعليه السلام أمام جموع المسلمين:

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٨٣.

«ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي»؟!!![1]

بالطبع، يمكن أن يسأل القارئ مستفسراً عن ذلك وعن أشياء أخرى أكثر عمقاً وأبعد فكراً وفلسفةً، ولكن نقول تعليقاً على ذلك إن ذاك التشبيه الذي اختارهُ الأستاذ (حتّي) ارتبط بالنبيّ سليمان لعدّة أسباب، وهذه الأسباب تتجلى لنا بوضوح إذا قرأنا شيئاً عن شخصيّة النبي الحكيم سليمان عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة وفي كتب السّير والتاريخ.

فمن المعروف بادئ ذي بدء أنّ النبي سليمان عليه السلام كان عالماً فقيهاً قد جمع بين المُلك والنبوّة. وقد منحهُ اللهُ الفطنةَ والحكمة والذكاء منذ صباه حيث ملك أمور ومقاليد قومه عندما كان عمره ثلاث عشرة سنة فقط. ومن المعروف عنه أيضاً أنّ الله سبحانه وتعالى قد سخّر له الريح الموكلة بحمل بساطه إلى حيث يشاء، وقد ذكر اللهُ ذلك في محكم تنزيله في سورة الأنبياء: ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِين** ﴾[2].

ولم تكن الريحُ هي المخلوق الوحيد المسخّر لخدمة النبيّ سليمان عليه السلام

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، ص٢٧.

ب) الحافظ النسائي: خصائص مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام، ص١٤.

ج) الحافظ الكنجي الشافعي: كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، الباب ٧٠ ص٢٨١.

د) العلامة سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج٢ ص٢٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨١.

والامتثال لأوامره، بل سخّر اللهُ له أيضاً مخلوقات أخرى تفعل بأمره ما يشاء كما جاء أيضاً في سورة الأنبياء: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[(١)].

ولم يتوقف الأمر عند ولايته على الريح والشياطين فحسب، بل جعل اللهُ له ولايةً على الجنّ أيضاً تطيعه وتُنفذ أوامره بالشكل المطلوب بالإضافة إلى ولايته على الجماد حيث أسال الله له (عين القطر) وهو النحاس المُذاب والتي جاء ذكرُها واضحاً في سورة سبأ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [(٢)].

ولا يغيب عن أذهاننا أنّ الله سبحانه وتعالى علّمهُ منطق الطير أيضاً.

ولا نعتقد أننا بحاجةٍ كبيرة إلى ذكر قصّته مع بلقيس ملكة سبأ التي كانت عاكفة مع قومها الكافرين على عبادة الشمس والقمر، فدعاها سليمانعليه السلام إلى عبادة الله الواحد الأحد، وعابها في عبادتها للشمس والقمر دون الله الذي خلقها، فاستجابت بلقيس لدعوته التوحيدية قائلة له: ربّي إني ظلمت نفسي، وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين. وأسلمت حقّاً وحسُن إسلامها[(٣)].

هذه باختصار الخطوط العريضة لشخصيّة النبيّ سليمانعليه السلام الذي شبّه

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٢.

(٢) سورة سبأ: الآيتان ١٢-١٣.

(٣) علي فكري: أحسن القصص، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٥، ج١ ص١٤٩.

الأستاذُ (حتّي) الإمام عليّ عليه السلام به مؤكّداً على أنّ الإمام علياً هو بالفعل الصورة المتجدّدة لعلوم وحكمة ومعارف النبيّ سليمان الحكيم عليه السلام.

إذاً، فالإمام علي عليه السلام هو - بالنسبة للأستاذ حتّي - إمامٌ موسوعيٌ في كل ميادين العلوم وفي صياغة وتطبيق النُّظم الأخلاقية النبيلة، غير أنّ ما يهمّنا الآن هنا هو موقع ومكانة الإمام علي عليه السلام من العلوم الفقهية التي حملتها الرسالةُ الإسلامية لجميع الناس.

وقبل أن نبدأ مناقشة هذه النقطة، علينا أن نسأل أنفسنا أوّلاً عدّة أسئلة بهدف الوصول إلى النتيجة السليمة والمنطقية في نهاية بحثنا لهذه النقطة المطروحة على بساط البحث والتحليل.

ومن جملة هذه الأسئلة الضرورية:

هل الإمامُ علي عليه السلام هو إمام عالم منصوصٌ عليه بنصوص قرآنيّة وأحاديث نبويّة؟

وهل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد تحدّث عن أعلميّة علي عليه السلام بالإشارة أم بصريح العبارة؟

ثمّ، إذا كان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، من بعد القرآن الكريم، قد بيّن للناس أنّ الإمام علياً عليه السلام هو الأعلم بالقرآن وبالسنة وأحكامها، فأين موقع بقية الصحابة من علم علي عليه السلام، ومن منهم استعان بالآخر؟ فهل علي عليه السلام استعان بالخلفاء أمّ أنّ الخلفاء هم الذين استعانوا به عندما كانت تواجههم المشكلات والمعضلات؟

ولا شك في أن هذه الأسئلة ضرورية، وقد تبدو منطقيّة وموضوعيةً بالنسبة

لأيّ واحد منّا، وربّما يطرحها أيٌّ واحدٍ منّا على نفسه وعلى الآخرين من منطق الاستفسار عن سبب اعتبار المفكّرين المسيحيّين في الشرق وإخوانهم المستشرقين في الغرب أنّ الإمام علياًعليه السلام هو الإمام الأول والأوحد القادر على نشر أحكام وتفاصيل الشريعة الإسلامية بعد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك، ومن أجل أن يبدو كلام المفكرين المسيحيين عن فقه الإمام عليعليه السلام وعدله في أحكامه أكثر اتّزاناً وموضوعيةً، لا بدّ لنا من الوقوف مع بعض الأحاديث النبويّة الشريفة التي استند عليها المستشرقون والمفكرون المسيحيون في حديثهم عن الإمام عليعليه السلام آخذين بالاعتبار أنّ كل تلك الأحاديث النبويّة التي سترِدُ الآن هي أحاديث ثابتة ومأخوذة من كتب السنّة حصراً.

وعلى سبيل المثال، يقول ابن الصبّاغ المالكي في كتابه (الفصول المهمّة) عن غزارة علم الإمام عليعليه السلام بالفقه وبالأحكام القضائية، قبل أن يورد حديثاً نبويّاً هاماً: «هو - أي عليّ- مرجع الأحكام ومنبع الحلال والحرام. فقد كان عليّعليه السلام مطّلعاً على غوامض أحكامه منقاداً له جامحاً بزمامه مشهوداً له فيه بعُلوّ محلّه ومقامه ولهذا خصّه رسولُ اللهصلى الله عليه وآله وسلم بعلم القضاء.... وقالصلى الله عليه وآله وسلم: أقضاكم عليّ»[1].

أمّا ابن المغازلي الشافعي فينقل لنا أحاديث عديدة عن غزارة النُّظُم المعرفية عند الإمام عليعليه السلام، ومن جملة هذه الأحاديث النبويّة الشريفة التي ينقلها لنا ابنُ المغازلي الشافعي، هو قول الرسول الكريمصلى الله عليه وآله وسلم: «قُسمت الحكمةُ عشرة

(١) ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، ص٣٤.

أجزاء، فأعطي عليٌّ تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً»[١].

وقوله صلى الله عليه وآله أيضاً مخاطباً أبا بكر: «يا أبا بكر كفّي وكفُّ عليّ في العدل سواء»[٢].

ومن البديهي القولُ إنّ العدل التام لا يصدر إلا من الذي احتوى صدُره النقيّ على علم الفقه التام، وبالتالي فإنّ العدل يكون نتاجاً من نتاجات المعرفة الفقهية العميقة والكاملة، وهذا ما حدث مع أمير المؤمنين عليه السلام عندما بيّن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله تلك الحقيقة لنا بقوله: «أعلم أمّتي من بعدي علي بن أبي طالب»[٣].

إن هذه الباقة الصغيرة من الأحاديث النبويّة الشريفة التي اقتطفناها من حديقة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بالإضافة إلى أحاديث أخرى وآيات كريمة سنذكرها في مكانها الصحيح اللائق بها، هي الأدلّة التي اعتمد عليه الفكرُ المسيحيّ المعاصر في رسم صورة متكاملة لشخصية الإمام علي عليه السلام في مؤلفاتهم الفكرية وفي دواوينهم الشعرية المعاصرة.

ولو بدأنا باستعراض وجهات نظر الأدباء والمفكّرين المسيحيّين تجاه علم عليّ عليه السلام بخفايا ودقائق الشريعة الإسلامية، فسنلاحظ اتّفاقهم على فكرة جوهرية هامة تعكس على مرآتها الصقيلة والنقية صورة علي عليه السلام بشكل صادقٍ وأمين. ويمكن إيجاز هذه الفكرة المُتّفق عليها بأنّ عدالة عليّ عليه السلام وقُوّة

---

(١) ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، ص٢٨٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٢٩.

(٣) الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص٢٣.

الحقّ عنده هما ثمرتان طبيعيّتان لعمق إيمانه ولعمق علومه بأسرار القرآن وبخزائن علوم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

فعندما يقول الإمام علي عليه السلام: «لو كُشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً»[1]، فإنّ هذا يدلُّ على أنه عليه السلام قد كاشف الحقّ وحصل على الحقيقة وعرفها خير معرفة وتمثّلها خير تمثيلٍ في كل حركةٍ من حركاته وفي كل نفسٍ من أنفاسه. فالذي يعرف الحقيقة عليه أن يعيش بمستواها.

وعليٌّ عليه السلام الذي قال أكثر من مرّة «ما شككتُ في الحقّ مُذ أريتُه»[2] قد عرف الحقيقة وأدركها، وقد عاش فعليّاً بمستوى تلك الحقيقة الخالدة.

ولذلك، فالمفكّرُ المسيحي الذي يدرس التاريخ الإسلامي بكل أبعاده ومن كل زواياه سيدرك، بلا محالة، أنّ الحقّ دائماً وأبداً مع الإمام علي عليه السلام وأنّ الإمام علياً دائماً وأبداً مع الحقّ ولن يفترق التوأمان حتى يردا الحوض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالمفكّرُ والأديب (نصري سلهب) الذي أفرد صفحات عديدة عن قوّة الحق عند عليّ عليه السلام وعن عمق علومه الفقهية وعلومه البلاغية وعن معارفه الكونية الأخرى، أبى ورفض في حديثه عن علوم الإمام علي عليه السلام بالسنّة وبالفقه إلا أن يُبيّن الموقع الحقيقي للإمام علي عليه السلام من خلال مقارنته مع بعض الشخصيات الإسلامية الأخرى وذلك من أجل وضع الصورة الصحيحة في إطارها المناسب لها شكلاً وحجماً.

---

(١) العلامة القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٦٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ج١ ص٦٤.

وأول ما يبدأ به الأستاذ (سلهب) في مقارنته الإمام علي عليه السلام مع غيره من الصحابة، هو قوله المباشر والمنقول عن عمر بن الخطاب: «لولا علي لهلك عمر»[١]، ثمّ يتابع الأستاذ (سلهب) حديثه قائلاً وواصفاً شخصيّة الإمام علي عليه السلام من خلال ما قرأه عنه في كتب الموافقين والمخالفين، وقد ذكر من تلك الصفات أنه عليه السلام كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة، وأنّ الحكمة قد جرت على لسانه عميقةً وجليلةً، وقد شبّه الأستاذ (سلهب) حكمة الإمام علي عليه السلام وبلاغته بفرسيّ رهانٍ لا يسبقُ أحدهما الآخر، وذكر أيضاً من صفاته الأخرى شجاعته ودوره الحيويّ في المعارك وأنه لم يخسر معركةً قط.

وبعد أن ذكر الأستاذ (سلهب) هذه الأوصاف التي اجتمعت كلُّها في شخص الإمام علي عليه السلام، أضاف قائلاً ومعلّقاً عل ما سبق: «لعمري إن مثل هذه الصفات لا تؤهّله للخلافة فحسب، بل لأعظم لو كان ما هو من خلافة الرسول أعظم»[٢].

ولكن الأستاذ (سلهب)، كما ذكرنا منذ قليل، لم يكتف بالكلام عن أعلمية الإمام علي عليه السلام بشؤون الفقه والأحكام الشرعية الشاملة للرسالة السماوية الأخيرة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حيث عمد إلى إجراء مقارنةٍ جديرةٍ بالوقوف عندها لأنّها تدلُّ في نهاية المطاف على أنّ الأمّة التي تفرّط بإمامها هي أمّةٌ ضائعة مُضيّعة.

ونحنُ عندما نذكر هذه المقارنة التي أجراها الأستاذ المسيحي (سلهب) بين

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص١٤٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٤٣.

الإمام علي عليه السلام من جهة وعمر بن الخطاب من جهة أخرى، فإننا لا نقصد بذلك الإساءة أو الانتقاص من مكانة أية شخصيّةٍ، ولكن أحببنا أن نُورد ما ذكره الأستاذ (سلهب) لأنه هو بدوره أيضاً لم يكن يهدف الإساءة إلى أيّ شخصٍ من جهة، وإنّما ليؤكّد، بنفس الوقت، على وجهة نظره بشأن غزارة علوم ومعارف أمير المؤمنين علي عليه السلام من جهة ثانيةٍ.

وعلى كلّ حال، يقول الأستاذ سلهب: «...ومع هذا يعهد أبو بكر بالخلافة إلى عمر، وهو لا يجهل أنّ هذا الأخير - وإن تحلّى بشمائل لا تُنكر - بعيد كل البعد عن مجاراة عليّ، ولو في مضمار. ولقد سُجّلت على عمر مواقف أثبتت أنه غيرُ مُلمٍّ إلماماً كافياً بأحكام الشرع وبما قضى به كتابُ الله وسنّةُ رسوله، كما سُجّلت عليه بعضُ تدابيرٍ اقترنت تارةً بالعنف والإسراف في الشدّة في غير موضعها، وطوراً باللّين والإغضاء عن إقامة الحدّ، مع علمه بأنه واجب ومحتوم»[1].

ومن أجل أن يبدو هذا الكلام منطقيّاً وموضوعيّاً وبعيداً عن لغة الانفعال والعاطفة، فقد قام الأستاذ (سلهب) بذكر العديد من المواقف والأحكام التي أدلى بها عمر بن الخطاب وكانت بعيدة تماماً كلّ البعد عن روح الشريعة وعن مبادئها الأساسية. وبعد أن قام الأستاذ (سلهب) بسرد تلك الحوادث والأحكام العنيفة التي أراد عمرُ القيام بها ومن ثم توقيف وتعليق تلك الأحكام الخاطئة بفضل فقه علي عليه السلام وإحاطته الكاملة بأدقّ تفاصيل الشرع الإسلامي، بالقرآن وبالسنّة، فقد ذكر عبارةً قصيرة وبلغية جاءت على لسان عثمان بن عفان يصفُ

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤٣.

من خلالها عمر بن الخطاب وطريقة فهمه للشريعة الإسلامية، وكيفيّة تعامله مع الرعيّة. يقول عثمان بن عفان مُخاطباً الناس قبل مقتله بفترةٍ وجيزةٍ: «لقد وطئكم ابنُ الخطاب برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه فخفتُموه»[١].

فأكّد عثمان بذلك على أنّ عمر بن الخطاب لجأ في قضائه إلى القوة والعنف في المكان الذي كان يتوجّب عليه فيه أن يلجأ إلى الحجّة والبرهان والدليل الفقهيّ الواضح.

ولاريب في أن الأستاذ (سلهب) الذي قرأ التاريخ الإسلامي من ألفه إلى يائه قد قرأ واكتشف الكثير من الحقائق التي نام عليها ذلك التاريخ الطويل أملاً في أن تعلو غبارُه وجهها النقيّ الناصع.

ولكن مهما اشتدّت رياح التاريخ ومهما اشتّدت أمواجه ومهما كثر غُباره فإنها لن تستطيع أن تمحو حقيقة قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن علاقة علوم الإمام علي عليه السلام بشريعة الإسلام: «إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله. قال أبو بكر: أنا؟ قال: لا. قال عمر: أنا. قال: لا، ولكن خاصف النعل»[٢].

وكان يعني بذلك الإمام علياً عليه السلام الذي ما كان له أن يقاتل على تأويل القرآن الكريم لولا معرفته الشاملة والتامّة بكل علومه ومعارفه وأحكامه، ناسخه ومنسوخه، مُحكمه ومُتشابهه، وبكل قضاياه الغيبيّة وبأسراره الكونيّة.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤٥.

(٢) الحافظ النسائي: خصائص مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ص٤٠.

ومن أين للتاريخ أن تطفئ رياحه وعواصفُهُ نور حديث النبيّ المصطفى ﷺ: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»[١]، أو نور حديثه الشريف التالي: «يا عليّ أنت تُبينُ لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي»؟![٢]

فالإمام عليّ عليه السلام الذي يُبيّن للأمّة ما يختلفون فيه بعد النبيّ الكريم ﷺ هو بلا شك أحد أفراد البيت النبويّ الشريف والمُطّهر من كل رجس، والذين لا يمكن أن يُقاس بهم أحدٌ من الناس علماً وحلماً وإيماناً وقرباناً من الله سبحانه وتعالى.

ولأنّ أهل البيت عليهم السلام هم حقّاً كذلك، ولأن الإمام علياً عليه السلام هو الرأس بعد غياب الرسول المصطفى ﷺ، فإن الأستاذ (سلهب) الذي أدرك هذه الحقائق الثابتة قد قام بتلخيص وجهة نظره عن علاقة الإمام عليه السلام بالقرآن الكريم، علماً وفقهاً، حكماً وعدلاً، بقوله الواضح والصريح: «ولعل خير وصف نصفه به أن نقول: لقد كان عليٌّ قرآناً حيّاً»[٣].

وغنيٌّ عن القول إن الأستاذ (سلهب) لم يكن هو الوحيد الذي تحدّث عن الإحاطة الكليّة للإمام علي عليه السلام بعلوم الكتاب والسنّة، ولم يكن هو الوحيد الذي تحدّث أيضاً عن عدم الكفاءة في معرفة أحكام الكتاب والسنّة من قبل أولئك الذين نصّبوا أنفسهم خلفاء على الناس في أمّة الإسلام.

وإذا كان الأستاذ المفكر (سلهب) قد تحدث عن عدم الكفاءة في شخصيّة

(١) الحافظ المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص١٥٨.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٩٣.

(٣) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٦٠.

عمر بن الخطاب وأكّدها من خلال العديد من الأحاديث والأحداث الإسلامية الهامة، فإنّ الدكتور (نظمي لوقا)، وعلى الرغم من احترامه لأبي بكر، لم يستطع أن يخفي أيضاً مظاهر عدم كفاءة وأهليّة أبي بكر في عملية تولّيه قيادة المسلمين وإدراته لشؤونهم الروحيّة والزمنيّة.

وبعد أن ذكر الدكتور (لوقا) في كتابه (أبو بكر) العبارة الشهيرة التي نطق بها أبو بكر بعد تولّيه أمور المسلمين والتي يقول فيها أمام جموع المسلمين: «ألا وإنّ لي شيطاناً يعتريني. فإذا أتاني فاجتنبوني»[1]، فبعد أن ذكر الدكتور (لوقا) هذه العبارة الشهيرة لأبي بكر، قام بالتعليق عليها في محاولةٍ جاهدةٍ منه لاحتوائها وللتخفيف من عمق دلالاتها ومعانيها قائلاً: «وإنها لدعوةٌ باعثة على الحيرة بين مطلبين متتاليين في نفسٍ واحد ونسقٍ واحد:

إذا زغتُ فقوّموني!

وإذا أتاني شيطاني فاجتنبوني!!

... وهو لم يكن يعني بالشيطان إلا حدّة بالغة في الغضب وغليان الطبع والاندفاع في بعض المواطن»[2].

وعلى الرغم من محاولات الدكتور (لوقا) إيجاد بعض التبريرات لمقولة أبي بكر السابقة الذّكر، وعلى الرغم من احترامه الواضح له، إلا أنه لم يستطع أن يكتم وجهةّ نظره الصريحة بقوله: «ما من شك في أنّ التعبير بهذا اليسر الشديد

(١) د. نظمي لوقا، أبو بكر (كتاب الهلال)، العدد ٢٤٢، القاهرة. مارس ١٩٧١، ص٤٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٤٧.

في حدّة الطبع بأنها شيطان يعتريه يدلنا على أمرين: إنها حدّةٌ معهودة فيه لا يستغرب عارفوه أمرها، فهي عندهم مفروغ منها، وأنها شديدة شدّة بالغة لا يجد لها تأويلاً أو تشبيهاً إلا مسّ الشيطان، ذلك أنها تتجاوز كلّ حدٍّ»[1].

وقد يخطر على بال كل من يقرأ هذه السطور للدكتور(لوقا) عن أبي بكر السؤال التالي: هل يجوز لمن يستحوذ مسُّ الشيطان عليه، لدرجة أنه يتجاوز في حدته كل حدٍّ أن يُقرّر أمور المسلمين أو أن يحكم بين الناس، في لحظات غضبه، في قضايا مصيريّةٍ عاجلةٍ لا تقبل التأجيل أو التأخير إلى أن يزول ذلك المسُّ الشيطاني عنه؟!

إنّ هذا السؤال يمكن أن يخطر على بال العديد من الذين يعرفون هذه الحقيقة، ولكنّ الجواب عليه لن يكون صعباً جداً ولن يكون غامضاً أبداً، خاصة عند أولئك الذين درسوا الصفحات الأولى من تاريخ الرسالة الإسلامية وقرأوا فيه أن خلافة أبي بكر لم تكن في الأساس إلا (فلتة من فلتات الجاهلية)!!

وكي لا نجنح بعيداً عن موضوع بحثنا، نعود ونؤكّد على أن الفكر المسيحي المعاصر يؤمن أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا حقاً خزائن أسرار الله وعلومه. وحتى أولئك الذين كتبوا عن الفكر الشيعي معتمدين في كتاباتهم على مصادر غير شيعيّة، فقد أظهروا شيئاً من تعاطفهم مع هذه الفكرة عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عموماً وعن الإمام علي عليه السلام خصوصاً آخذين بالاعتبار أوجه التشابه بين نظرة العرفانيين المسلمين إلى الأئمة عليهم السلام ونظرة الغنوصيّين

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٨.

(Gnostic) المسيحيين إلى السيد المسيح عليه السلام .

فالباحثة المعاصرة (كارين آرمسترونغ) ترى في كتابها (الله والإنسان) أن الاحترام والتبجيل الذي يُلاقيه أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكن مجرّد حماسة سياسيّة، بل كان له جذور تمتد بشكل واضح إلى النواحي الروحيّة والفكرية والعلمية المستمدة من الفهم العميق للقرآن الكريم. ولم تستبعد الباحثة (آرمسترونغ) أن يكون كل إمامٍ، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام ، قادراً على أن يلعب دور التجسيد الحقيقي للنور الروحي المحمدي، هذا بالإضافة إلى أن كل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام قد بلغوا حقّاً الدرجات العليا والمنازل الرفيعة في العلم والمعرفة بأسرار القرآن وأحكامه وذلك نتيجة انفتاحهم الكلّي على الله[1].

وإذا كانت هذه هي وجهة نظر الباحثة (آرمسترونغ)، فإن المستشرق الفرنسي (دومينيك سورديل) يرى أن هناك إمكانيّة كبيرة لتفسير وتحليل علاقة الأئمة من آل بيت النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله بالعلوم والمعارف وبالإحاطة الكُلّيّة الشاملة بكل ما يتعلّق بآداب الشريعة وأحكامها.

فسواء كان الإمامُ هو الإمام علي أم أي إمامٍ آخر من أولاده وأولاد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ، فالعلم عندهم واحد والحكمة واحدة. وعلى الرغم من أنّ (سورديل) هو أحد المستشرقين المعروفين بنزعتهم السلبيّة الواضحة تجاه الرسالة الإسلامية بكل مذاهبها ومدارسها، هذا بالإضافة إلى التشكيك الدائم بأصالة مصادرها، إلا أنه اعتبر أن هناك مصادر دينية سابقة

---

(١) كارين آرمسترونغ: الله والإنسان، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد - دمشق ١٩٩٦، ص١٨٤.

على الإسلام قد لعبت دورها في تشكيل صورة الإمامة في الإسلام. ورأى (سورديل)، نتيجةً لذلك، أنّ الدور الذي يمكن أن يلعبه الإمام - من خلال النظر إليه من تلك الزاوية- هو الإحاطة التامّة بالعلوم والمعارف والأحكام والحكم السرمدية التي تختصر جميع الحكم البشريّة السابقة لأنها من صنع عقلٍ صادرٍ جزئياً عن العقل الإلهي"[1].

وإذا كان (دومينيك سورديل) قد تعمّد وضع السمّ في الدسم من خلال إبداء وجهات نظره في بعض القضايا العقائدية الإسلامية، مثل محاولاته الدؤوبة في التشكيك بأصل الرسالة الإسلامية السماوية، إلا أنه لم يستطع أن يخفي قسماً لا بأس به من الحقائق حول طبيعة تلك الرسالة وطبيعة رسولها، وحول حقيقة بعض الأحداث الإسلامية الهامة التي لا يمكن التغاضي عنها أو الطعن بصحّتها، كبيعة الغدير مثلاً، أو كطبيعة الحكم الأمويّ الدمويّ الذي كان عبئاً ثقيلاً على الصورة الأخلاقية للإسلام، أو كبعض القضايا الهامة الأخرى التي سنأتي على ذكرها في المكان المناسب من هذا الكتاب بمشيئة الله.

وإذا كان (سورديل) قد شكّك، ودون إعطاء أي تبرير، ببعض القضايا الإسلامية، وقلّل من شأن بعض القضايا الأخرى بطريقةٍ بدائيةٍ وفجّةٍ لا يقبلها منطقُ القارئ المثقّف لعدم ترابطها الموضوعي من جهة ولعدم ترابط المقدمات مع النتائج من جهةٍ أخرى، فإنّ هناك من حاول أن يردّ عليه وعلى أمثاله ممّن حاولوا أن يطعنوا بحقيقة الرسالة الإسلامية وبمصداقيتها، وأن يتحاملوا على الرسول ﷺ وعلى رجالها العظماء دون وجه حقٍّ ودون أيّ مُبّررٍ لذلك.

(١) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ص١٣٧.

وعلى سبيل المثال، فالباحثة الأمريكية (بربارا براون) واحدة من أولئك الذين رأوا في عملية الاستشراق سلاحاً ذا حدّين. وهي أيضاً واحدة من أولئك الذين أدركوا أن العالم كان بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الرسالة الإسلامية مثلما تحتاج بذور القمح إلى الكثير من المياه وإلى المزيد من ضوء الشمس كي تتحوّل تلك البذور إلى سنابل ممتلئة وناضجة. فالعالم بأكمله، قبل الرسالة الإسلامية، كان بحاجةٍ إلى نداءٍ سماوي أخير يعمل على انتشال الناس من التّيه الروحي والتخبُّط العقائديّ، ولأن العالم كان فعلاً كذلك، كان لا بدّ من رسولٍ جديد وكان لا بدّ من رسالة جديدة وحُماةٍ جُدُدٍ يكونون عالمين بكل تعاليم ومبادئ الشريعة الجديدة وبكل آدابها الفقهيّة ووصاياها الأخلاقية. وكادت الباحثة (براون) أن تصل إلى جوهر الحقيقة في ما يتعلّق بأئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام الذين هم عماد الدين وأساس اليقين، وهم الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيهم:

«يكون لهذه الأمّة اثنا عشر خليفة قيّماً لا يضرُّهم من خذلهم، كلُّهم من قريش»[1].

لقد كادت الباحثة (براون) أن تشير بإصبعها إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام وإلى علومهم ومعارفهم وإحاطتهم الكاملة بأدقّ تفاصيل الشريعة الجديدة القادمة لإحياء الإنسان ولبعث القيم الروحيّة والفكريّة الجديدة فيه، نعم لقد كادت الباحثة (براون) تصل إلى هذه الحقائق ولكن هذه المرّة ليس بالاعتماد على النصوص القرآنية ولا على الأحاديث النبوية، ولكن بالاعتماد على الكتاب

---

(١) المتقي الهندي الحنفي: كنز العمال، مطبعة دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد الدكن، ١٣١٢هـ، ج٦ ص٢٠١.

المقدّس نفسه.

فالباحثة (براون) تعترف، من خلال قراءتها للكتاب المقدس ومن خلال دراستها العميقة له، أن هناك اثنيّ عشر أميراً، قيّماً، خليفةً شرعياً يمارسون مهامهم بعد غياب الرسول محمدﷺ الذي هو الرسول السماوي الوحيد من نسل سيدنا إسماعيلعليه السلام.

نعم، إن الباحثة (براون) تعترف باثنيّ عشر أميراً من نسل إسماعيل بن إبراهيمعليهما السلام لكنّها، وبحكم دراستها المعتمدة على تيّارٍ إسلامي واحد لا ثاني له، فقد حامت حول الحقيقة وأوشكت أن تقع في حماها. وبالتالي، فقد كانت قاب قوسين من الوصول إلى الحقيقة المتعلّقة بشأن القيمة المعرفيّة لخلفاء الرسولﷺ الاثني عشر الشرعيين، وعلى رأسهم إمام الأئمة وسيّدُ الأمّة المنحدرة من نسل سيدنا إسماعيلعليه السلام، الإمام الأعظم علي أمير المؤمنينعليه السلام.

ولا بأس هنا في أن نذكر ما قالته الباحثة براون عن الإسلام وحاجة البشريّة إليه، وعن خلفاء الرسول الأخيرﷺ الاثنيّ عشر الذين يتفجّرون علماً ومعرفة، والذين تكون لهم إمارة الرسالة ومقتضياتها.

تقول الباحثة الأمريكية (بربارا براون) في كتابها (نظرة عن قرب في المسيحيّة) (Acloser look at Christiailty): «كان اليهود ضائعين في كتبهم الخاصة بالشريعة، والمسيحيون ضائعين في تقديسهم لرسولٍ بشري، ولهذا قرّر الله أن يعطي الجنس البشري فرصةً إضافية في محاولة أخيرة لبناء التوحيد الخالص على هذه الأرض.

إن النبيّ إبراهيم... كان له ولدان، فإضافة إلى إسحاق كان هناك إسماعيل وهو أكبر الاثنين. وعندما عقد اللهُ عهده مع إبراهيم بخصوص إسحاق، فإنه أيضاً كانت له بعض الكلمات ليقولها بالنسبة لإسماعيل: «وأمّا بالنسبة إلى إسماعيل فإنني قد سمعتُ دُعاءك: إنني قد باركت فيه وسأجعله كثير النسل وسوف تتزايد ذُرّيتُه كثيراً جداً وسوف يولد له اثنا عشر أميراً وسأجعل من ذرّيته شعباً عظيماً»[1].

وبالنسبة لهذا العهد الذي أعطاه الله إياه لسيدنا إبراهيم بشأن تكريم إسماعيل وتنصيب اثني عشر أميراً من نسله على أمّته، فقد أخذته الباحثة (براون) من الكتاب المقدس، وبالتحديد من (سفر التكوين ١٧ : ٢٠).

وقد علّقت الباحثة (براون) على ما سبق ذكره من حديثٍ، متابعةً كلامها:

«لقد استقرّ إسماعيلُ وأمُّهُ في الجزيرة العربية حيث عاش وتكاثرت ذُرّيتُه خلال السنين إلى ذلك الشعب الكبير الذي سبق أن أخبر عنه الله. وفي عام (٦١٠ بعد الميلاد) تحقّق وعدُ الله في مباركة ذرّيته عندما دعا اللهُ أحد أحفاده، وهو تاجر مرموق يبلغ الأربعين من عمره اسمه محمد صلى الله عليه وآله، ليبلّغ كلام الله إلى جميع البشر»[2].

وعلينا ألا نلوم الباحثة (براون) على عدم التصريح بأسماء الأئمة أو (الأمراء) الاثني عشر الذين أوردت ذكرهم في كتابها المذكور سابقاً على الرغم

(١) برابارا براون: نظرة عن قرب في المسيحية، ترجمة: مناف الياسري، شركة التوحيد للنشر، ١٩٩٥، ص٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٨٤.

من إقرارها بوجود هؤلاء (الأمراء الاثني عشر) وبإمارتهم الشاملة على أمّة محمدﷺ سليل سيّدنا إسماعيل بن خليل الله إبراهيمعليهما السلام. فهي، كما ذكرنا سابقاً، قد عمدت في دراستها عن الإسلام إلى تناول القضايا الإسلامية الهامّة من وجهة نظرٍ واحدةٍ بعيدةٍ عن روح ديمقراطيّة التعدُّديّة الفكرية في النظر إلى تلك القضايا الإسلامية الهامة والحاسمة.

وربّما لم تقرأ الباحثة (براون)، على سبيل المثال، ما جاء في بطون كتب السنّة المتخصّصة في الحديث عن أهل البيتعليهم السلام وعن أسمائهم وأسماء الأئمة منهم وعن فضائلهم التي حاول البعض إخفاءها أو تشويهها عمداً بدافع الحقد المذهبيّ والكُره الطائفي البغيض.

وهنا، لنا أن نتساءل: تُرى ماذا كانت ستقول المفكّرة والباحثة (براون) لو أنها قرأت ما جاء في الجزء الخامس من مسند أحمد بن حنبل عن الرسولﷺ الذي قال متحدثاً أكثر من مرّةٍ عن ولاة أمر الأمّة من بعده، كقوله على سبيل المثال عنهم: «يكون بعدي اثنا عشر خليفة كلُّهم من قريش»؟![1]

وهل كانت ستتردّدُ الباحثة (براون) في إعلان أسماء الأمراء الاثني عشر الذين ورد ذكرهم في سفر التكوين لو أنّها قارنت ما بين عبارة سفر التكوين المبيّنة أن هناك «اثنا عشر أميراً» ينحدرون من نسل إسماعيل، من نسل نبيٍّ أخير متسلسل من إسماعيل، وبين حديث الرسول المصطفىﷺ المتطابق في معناه مع ما جاء في سفر التكوين بشأن أولئك الأمراء الاثني عشر والذي ينصُّ على أن الرسول الكريمﷺ قد أخبر المسلمين قائلاً -كما جاء في صحيح

(١) مسند أحمد بن حنبل: الجزء الخامس، المطبعة الميمنية بمصر، ط/١٣١٣هـ، ص٩٢.

البخاري- : «يكونُ اثنا عشر أميراً كلهم من قريش»؟!(١)

وغنيٌّ عن القول إن كلمة (أمير) الواردة في حديث الرسول الكريم ﷺ متطابقة تماماً في اللفظ والمعنى مع ما جاء في سفر التكوين.

وهل بإمكاننا أيضاً أن نتصوّر ردّ فعلها عندما تقرأ في كتاب ينابيع المودّة للعلامة سليمان القندوزي (الحنفي) خبر تلك المناظرة الشهيرة التي دارت بين عالم دين يهوديّ مُتعمّق في دراسته للكتاب المقدّس وبين الرسول المصطفى ﷺ المؤيّد بالقرآن الكريم حيث سأله العالم اليهوديّ عدّة أسئلةٍ، ومنها أنه قال للرسول ﷺ: «أخبرني عن وصيك من هو؟ فما من نبيّ إلا وله وصيّ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى يوشع بن نون. فقال ﷺ: إنّ وصيّي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين تتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين. قال: يا محمد، فسمّهم لي. قال ﷺ: إذا مضى الحسين فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه جعفر، فإذا مضى علي فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمد، فإذا مضى محمد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي، فهؤلاء اثنا عشر»(٢).

فهل يحتاج التنبؤ بردود أفعال الباحثة (بربارا براون)، بعد افتراض قراءتها لهذه الحقائق، إلى الكثير من الجهد والعناء؟؟!!

---

(١) السيد مرتضى الفيروز آبادي: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٤١٣هـ، ص٢٣.

(٢) العلامة القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج٣ ص٩٩.

لا نعتقد أن الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير، ولا إلى الكثير من العناء أيضاً.

وعلى كل حال، إذا كانت الباحثة (براون) تناقش بعض القضايا المسيحيّة والإسلاميّة الهامة وتُعلّقُ عليها مُبديةً وجهة نظرها وانطباعها الخاص المستمدّ من دراسة الديانتين السماويتين بعمقٍ ورويّةٍ، فإنّ المستشرق (دوايت رونالدس) كان يناقش بعض النقاط المهمّة في العقيدة الإسلامية من وجهة نظر استشراقية بحتة بغضّ النظر عن نوازع ونوايا أولئك المستشرقين الذين اعتمد على أقوالهم ودراساتهم كأساتذةٍ له في النظر إلى تلك الأمور التاريخية والقضايا العقائدية الهامة.

وكثيراً ما نراه يعتمد في مؤلفاته وأبحاثه المتنوعة على موسوعة (دائرة المعارف الإسلامية) التي كُتبت بأيادٍ وأقلام غير نزيهة وغير حياديّة في تقييمها لكلّ ما يتعلّقُ بطبيعة الرسالة الإسلامية وبأبعادها الروحيّة والفكريّة. فالقائمون على كتابة تلك الموسوعة رجال مثقّفون بلا شك، ولكنّهم للأسف قد سخّروا تلك الثقافة من أجل إلغاء ثقافة (الآخر)، أو على الأقلّ تشويهها ومن ثم تقديم أنصاف الحقائق للقُرّاء على أساس أنها الحقائق الكاملة التي لا تقبل الطعن أو النقد أبداً.

وبالإضافة إلى استشهاد (رونالدسن) بما جاء في (دائرة المعارف الإسلامية) نراه أيضاً يُكثرُ من الشواهد والبراهين التي يتبنّاها العديد من المستشرقين المجاهدين بعدائهم للإسلام.

وعلى سبيل المثال، نراه يستشهدُ كثيراً بما كتبهُ المستشرق (غولد تسيهر)

(goldziher) و(السر موير) (sir muir) و(مرجليوث) (margoliouth) و(الأب هنري لامانس) (h.lammens)، وما هؤلاء - بشهادة البعض من زملائهم في عالم الاستشراق- إلا جماعة من المستشرقين المتعصّبين الذين يريدون، وبشتّى الوسائل، أن يُقنعوا القارئ، بما في ذلك القارئ المسلم، أنّ الدين الإسلامي مجّرد تعاليم ووصايا جاء بها رجلٌ بدويٌ ادّعى نزول الوحي الإلهيّ عليه وما هذه الحالة في حقيقتها إلا عبارة عن تهويماتٍ مرضيّة (pathology) كانت تنتابُ محمد المُدّعي للنبوّة، ذلك الرجل العصابيّ المريض[1].

وقد أكّد أكثرُ من مستشرقٍ وباحثٍ هذه الحقيقة بالإشارة إلى أنّ «ما يُسمّى بالمستشرقين في القرنين التاسع عشر والعشرين قد كتبوا أشياء تُثيرُ النفور من العالم الإسلامي: وأمثلة ذلك يمكن أن نجدها في كتاب (قصة الحضارة) للمؤرّخ (ول ديورانت)، وكتاب (تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية) لمؤلّفه (جبونز)، وكتاب (داخل آسيا) تأليف (جونثر)، وكتاب (مختصر التاريخ) للباحث (إي.جي.ويلز)....

وحتى كتاب المفكّر (آلبرت حوراني) الجديد والمسمّى (تاريخ الشعوب العربية) فإنه ينضح بالتّحيّز والكراهيّة»[2].

وقد جاء هذا الكلام من قلمِ استشراقيٍّ معاصر أبى إلا أن يضع النقاط على

(١) راجي أنور هيفا: الإسلام والغرب حوار الحروف وصدام السيوف، دار العلوم - بيروت، ٢٠٠٤، ص٦٥.

(٢) بربارا براون: نظرة عن قرب في المسيحية، ص٩١.

الحروف، وأن يكتب عن المبادئ الإسلامية الحقيقية وعن تعاليمها الإنسانية النبيلة الجديرة بكل مديح وإطراء.

ولكن، وعلى الرغم ممّا جاء به (رونالدسن) من أغاليط واضحة عن العديد من المفاهيم الإسلامية، والأحداث التاريخية، والشخصيات الاعتبارية، إلا أنه وبالرغم من كل ذلك، لم يستطع أن يخفي كل الحقائق عن باصرة وعقل القارئ اللبيب سواء كان ذلك القارئ مسلماً أم مسيحياً أم غير ذلك.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدّث (رونالدسن) عن قضية الخلافة في الإسلام، نراهُ يفتتح كلامه بالحديث عن بيعة الغدير وبتأكيده على حدوثها لأن تلك الحادثة قد وردت في أوثق وأصدق المصادر التاريخيّة عند المسلمين السنّة والشيعة.

وقد ذكر قسماً مهمّاً من خطبة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الأخيرة أمام جموع المسلمين عندما بايع من خلالها الإمام علياً عليه السلام أميراً وخليفةً ووصيّاً على أمّته من بعده، وبعد عملية الاستخلاف تلك، قال الرسول صلى الله عليه وآله متابعاً كلامه قائلاً:

«أيها الناس إنني فرطكم وأنتم واردون عليّ الحوض وإني سائلكم حين تردُون عليّ عن الثّقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، قالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سببٌ طرفُهُ بيد الله وطرف بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلّوا ولا تُبدّلوا، وعترتي أهل بيتي»[1].

وقد أبدى (رونالدسن) ميله الواضح إلى الأخذ بفكرة استخلاف الإمام

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص٢٣.

علي عليه السلام من قبل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وترجيحه لحدوث هذا الاستخلاف على المسلمين. وعلى الرغم من أنّ (رونالدسن) -كما ذكرنا سابقاً- حاول أن يُخفي، أو على الأقلّ، أن يخفف من أهميّة بعض القضايا الإسلامية الهامة إلا أنه لم يستطع أن يقوم بعملية التمويه أو التشويه في بعض المسائل الإسلامية الأخرى التي يعترفُ ويقرُّ بها القاصي والدّاني، المؤالفُ والمُخالفُ على حدٍّ سواء.

وبالطبع، فإنّ الحديث النبويّ الشريف السابق والذي ذكره (رونالدسن) بشأن اعتبار أهل البيت عليهم السلام هم الثقل الثاني بعد الثقل الأول الذي هو القرآن الكريم والذي يُمثّلُ الحبل الإلهيّ الذي يربط عالم الأرض بعالم السماء، هو حديث هام جداً وله دلالات واضحة وعميقة بشأن مكانة وأهمّية أهل البيت المحمدي الشريف عليهم السلام.

وعندما يكون أهل البيت عليهم السلام هم الثقل الثاني بعد كلام الله في محكم تنزيله، فهذا يعني أنهم عليهم السلام هم حقّاً تراجمة وحيه ولسانُ بيانه. ولذلك، يحقُّ لنا أن نتساءل: إذا كان القرينُ يُعرفُ بقرينه، أليس قرينُ القرآن، إذاً، كالقرآن في عظمته وفي علوّ منزلته؟

أليس كلُّ ثقل من الثقلين هو مرآة للثقل الآخر، وأنّ كلاهما حجّة لله على خلقه؟

ألم يكن أهلُ البيت عليهم السلام، وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام، هم (أهل الذّكر) الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، والذين كانوا - باعتراف الجيل الأول من علماء المسلمين- المرجعيّة الإسلاميّة العامّة لكل المسلمين ولكل علمائهم

وحُفّاظهم وفقهائهم؟

ويحقُّ لنا، بالطبع أن نتساءل هكذا أسئلة وأن نستفسر عن أعمق من ذلك، ويحقُّ لنا ولغيرنا أيضاً أن نستنطق كُتبَ التاريخ والسّير وكُتب الحديث والتفاسير عن حقيقة الإجابة عن تلك الأسئلة والاستفسارات التي يمكن لها، لو أعدنا كتابة تاريخنا بصدقٍ وموضوعيّة ووضعنا النقاط على الحروف بشأن الكثير من الأحاديث والأحداث الماضية، أن تُغيّر وجه التاريخ الحديث وأن تُغيّر مساره من جديد.

فهناك الكثير من الأحداث التاريخية الإسلامية والأحاديث النّبويّة يجب أن تُغربل وتنقّى من جديد حتى تتخلّص من كل الشوائب التي ألحقت بها وذلك من أجل أن تأخذ شكلها الصحيح الذي جرت أو قيلت في سياقه. ولا أعتقد أنّ الكثير من المفكّرين والأدباء المسيحيّين في الشرق قد قصّروا في ذلك.

وعندما أقول وأركّز على عبارة «الكثير من المفكرين والأدباء المسيحيين في الشرق»، فهذا لا يعني أن المسيحيّين هم وحدهم المعنيّون بكتابة وصياغة تاريخنا فحسب، بل أقصد بالدرجة الأولى أولئك المفكرين والعلماء المسلمين على مختلف مشاربهم المذهبيّة واتجاهاتهم الفكرية.

فالكلُّ معنيٌّ بإعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي وذلك لأنّ التاريخ هو ابن الإنسان وليس أباه. فالإنسان هو الذي يصنع التاريخ ولا يمكن للتاريخ أن يصنع إنساناً. ولذلك فالتاريخ هو ابنُنا وابنُ آبائنا وأجدادنا، وعلينا، تبعاً لذلك، أن نكون صادقين مع ابننا وأن نعمل على تقويم اعوجاجه وأن نزيل الغبار المتراكم الذي نثره المتعصّبون من الأسلاف على عيونه وشوّهوا وجهه

لأهدافٍ وغاياتٍ كثيرة تخدمهم وتخدم سادتهم وحكّامهم.

وعلينا بنفس الوقت أيضاً، نحن المسلمين والمسيحيّين، أن نفكّ ابننا في الشرق من قيود السلطان الحاكم وأن نحرّر رقبته من قبضة الجلاّد الذيّ ما انفكّ يكتبُ عليها بلهيب سياطه الحارقة أمجاد الخلفاء الزائفة وفضائلهم المصطنعة، تلك الأمجاد والفضائل التي لو قُدّر لذاك التاريخ الأسير والمصلوب أن ينطق برأيه عن الخلفاء الأمويين والعباسيين وعن أفعالهم، لنطق قائلاً: يا قوم إنهم بريئون من كل الفضائل، وأنا بريءٌ ممّا كانوا يفعلون!!

ومهما يكن من أمر، فإنّنا لا نريد أن نسهب في الكلام عن قضيّةٍ ليست هي جوهر موضوع كتابنا، ولكن أحببنا أن نؤكّد على أنّ التاريخ للجميع وليس لقومٍ دون قوم أو لشعبٍ دون آخر. وأردنا أن نقول أيضاً إنّ الإنسان هو الذي يستطيع أن يجعل صفحات تاريخه ناصعة البياض أو حالكة السواد. أمّا أولئك الذي يريدون أن يحوّلوا بأقلامهم المسمومة البياض إلى سواد والسواد إلى بياض، فما أولئك إلا بمثابة من يضع إصبعه أمام عين من يحاوره ليوهمه أن إصبعه التي حجبت عن عينه قرص الشمس هي حقّاً أكبر من الشمس وإلاّ لما استطاعت أن تحجبها عن عينه!!

فمهما حاول هذا أو ذاك أن يُغيّر ويشوّه ما يشاء من الحقائق في التاريخ الإسلامي، فلن يكون قادراً فعلاً على اغتيال الحقيقة المتعلقة ببيض الصحائف التي سطّرها أهل البيت عليهم السلام على صدر التاريخ الإسلامي وعلى جبهته العالية المشرقة.

ومهما حاول فُلانٌ أو فلان أن ينتقص من قيمة الإمام علي عليه السلام ومن

مكانته، فهل هو قادر على أن يحذف ثلاثمائة آية قرآنية نزلت فيهعليه السلام وفي فضائله؟!![1]

وهل يستطيع ذاك الذي أمر ولاته في جميع البلدان والأمصار الواقعة تحت حكمه أن يمحوا ذكر كل فضيلة لعليعليه السلام، أن يمحو حديث رسول اللهصلى الله عليه وآله من كتب السنّة، ذلك الحديث الشريف الذي ينصُّ على أنّه: «ما أنزل اللهُ تعالى آيةً فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ... ﴾ إلا وعليّ رأسها وأميرها وشريفها».؟!![2]

نعم، ربّما يستطيع البعضُ أن يسحق زهرة الياسمين لكنه لا يستطيع أن يُزيل عطرها. وهذا ما حدث فعلاً مع أهل البيتعليهم السلام. فما من إمامٍ من أئمة أهل البيتعليهم السلام إلا ومات مسموماً أو مقتولاً بسيوف الغدر، وما من إمامٍ منهم إلا وعاش مظلوما مشرّداً أو سجيناً مُعذباً. فعيونُ (الخليفة- السلطان) وأعوانه يرصدون كلّ إمامٍ من أئمة أهل البيتعليهم السلام في كلّ حركة من حركاته وفي كل سكنة من سكناته، ويُدقّقون ويحلّلون معاني كلّ كلمة من كلماته وكل خطبة من خطبه ومقولاته. وبالطبع لا يريدُ الخليفةُ أن يكون الإمام من أهل البيت هو المرجع للمسلمين، ولا يريده أن يكون أحد الذين وصفهم رسولُ اللهصلى الله عليه وآله بأنهم هم صنو القرآن وهم الثقل الثاني الناطق باسمه.

ومن نافلة القول هنا إن المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) الذي ذكر حديث الثقلين قد أورد أيضاً تعليقاً على مصداقية قول الرسول المصطفىصلى الله عليه وآله لهذا الحديث الشريف، وأكّد من خلال ذلك التعليق أنّ زميله المستشرق

(١) العلامة مؤمن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار، ص٩٠.

(٢) محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: كفاية الطالب، الباب ٣١ ص١٤٠.

(نيكلسون) قد اعتبر حديث الثقلين الوارد عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هو أحد أهمّ الأحاديث النبويّة الشريفة الصحيحة والمعتبرة، وأنّ نصّه وارد بطرقٍ مؤكّدة وصحيحة وهو بعيد عن التزوير والتلفيق[1].

ومن المحتمل أنّ إيمان المستشرق الفرنسي (هنري كوربان) بأنّ الإمام هو القرآن الحيّ، وبعظمة أهل البيت وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام، هو الذي جعله يُكرّسُ كلّ جهوده الفكرية، نظرياً وعلمياً، من أجل نقل فكر ورسالة أهل البيت عليهم السلام إلى العالم الغربي كافة. وربما إيمانه العميق بالتلازم والترابط القويّين بين الثّقلين العظيمين اللذين خلفّهما رسول الله صلى الله عليه وآله وراءه هو الذي جعله ينقل بصدقٍ ويُحاضرُ بإيمانٍ وأمانةٍ وبشكلٍ دائم عن الفكر الإسلامي الشيعي في جامعات أوروبا ومنتدياتها الثقافيّة[2]، إيماناً منه بأنّ آخر خيطٍ من الخيوط الإلهية الذي يدعو الناس للارتقاء والصعود على مدارج الكمال الإنساني هو ذلك الخيط الذي يمثّل العروة الوثقى والمتمثّل بالثقلين العظيمين اللذين لا يفترقان في أرضٍ ولا في سماء.

ولو تركنا الآن ما كتبه (رونالدسن) و(نيكلسون) و(كوربان) عن علوم الإمام علي عليه السلام وعن معارف أهل البيت عليهم السلام المستمدّة من الثقل العظيم، القرآن الكريم، واتّجهنا برحلتنا الشاقّة والمشوّقة باتجاه ميناء الأستاذ الباحث (سليمان كتّاني) لترسو سفينتنا على شاطئه الآمن، فماذا يمكننا أن نشاهد في ذلك الميناء الكبير؟!

---

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص٢٢.

(٢) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ص١٩٨.

أول ما يمكن أن نلقاه على بوّابة ذلك الميناء الكبير هو حديث الثّقلين الخالدين، ذاك الحديث الذي تركناه يتألّقُ نوراً منذ قليل في جعبة المستشرقين الغربيّين.

ففي كتابه المتميّز (الإمام الحسن الكوثر المهدور)، يُوردُ الأستاذ (كتّاني) حديث الثقلين في الصفحة/٦٧٦/، وبعد عدّة صفحات يبدأ الغوص في تفسير وتحليل مُعطيات، ودلالات ذلك الحديث النبوي الشريف. ولكن لو أردنا، حقّاً، أن نعرف ما أراد الأستاذُ (كتّاني) قولهُ بوضوح عن دور عليعليه‌السلام وعن موقعه في حديث الثقلين، فعلينا أن نقف على شرح موسع لدور الإمام علي أمير المؤمنين عليه‌السلام البارز في رفع راية الرسالة الإسلامية التوحيدية وفي كافة مجالات الحقول العلمية والمعرفية في الكتب الأخرى للأستاذ (كتّاني)، لا أن نحصر أنفسنا ضمن إطار كتابٍ واحدٍ لهُ فقط. وخلاصة القول هنا، هو أنه كما أنّ العلاقة وثيقة جداً بين القرآن الكريم وأهل البيتعليهم‌السلام بحيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فكذلك الحال-كما يرى الأستاذ كتّاني- بين الإمام عليعليه‌السلام والحقّ.

فالأستاذ (كتّاني) يؤمن بأن الرسول الكريم المصطفىصلى‌الله‌عليه‌وآله كان صادقاً على الدوام في الإشارة إلى أن الإمام علياً عليه‌السلام هو الشخص الوحيد القادر على مساعدته في عملية رسم خريطة الغد الروحيّة للإنسان.

والرسول الكريمصلى‌الله‌عليه‌وآله، كما يؤكّد الأستاذ كتّاني، كان محقاً وصادقاً على الدوام في جعله علياًصلى‌الله‌عليه‌وآله: أخاه وخليفته ووصيّه، وكان مُحقّاً في اعتباره يوم الخندق (الإيمان كلّه)، وفي اعتباره يوم غزوة تبوك بمنزلة هارون من موسى، وفي الإشارة إليه على أنهعليه‌السلام بوّابة العلم وأنه أقضى أهل الأمّة، وفي التأكيد

أيضاً على أنه مع الحق وأن الحق معه ولن يفترقا إلى أن يردا عليه صلى الله عليه وآله الحوض يوم القيامة[1].

ويرى الأستاذ (كتّاني) أنّ تبحُّر الإمام علي عليه السلام وغوصهُ في علوم القرآن ووقوفه على أسراره وخفاياه قد جعله أقضى أمّة محمد صلى الله عليه وآله وقد جعله أيضاً عنوان العدالة وآيةُ الحقّ. فالإمام علي عليه السلام من خلال ترجمته للحقّ وللعدالة الناتجين الطبيعيّين لتمام وكمال معرفته الفقهيّة الشرعيّة بأدقّ تفاصيلها هو أحد الأسباب التي جعلت منه ومن نهجه في الحياة الصراط المستقيم والهدي الرساليّ القائم بالحق والعدل والمساواة[2].

فالتحليل الشامل لمجمل أعمال الأستاذ (كتّاني) يُبيّن وبشكلٍ واضح لا يرقى إليه الشك أن شخصيّة الإمام علي عليه السلام تمثّل عنده صورة (المخُلص) والمنقذ للبشرية من آلامها وأثقالها. إنها صورة الإمام القادر على تحطيم القيود وإسقاطها عن كاهل الإنسانية التي أنهكتها المآسي والحروب وشوّهتها سياساتُ أصحاب التيجان والعروش. وهذا الإمام المُنقذ، كما نقرأ عنه في كل مؤلفات الأستاذ كتّاني، لم يأت لينقذ المسلمين الذين يؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وآله فحسب، بل جاء كمُنقذٍ لكل الشعوب والأمم، فهو إمام الذريّة الآدميّة كلها وليس فقط إمام أصحاب وأتباع الرسالة الإسلامية: فهو الإمام المنقذ وهو الإمام الحقّ الذي «عليه تدلُّ الوصايات»[3].

---

(١) سليمان كتاني: فاطمة الزهراء وتر في غمد (ضمن مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٦٢٦.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٠٥.

(٣) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس، (ضمن مجـ[illegible]ـمد شاطئ سحاب)، ص٤٥٣.

وعندما تكون هذه الصورة هي صورة الإمام علي عليه السلام كما يراها الأستاذ (كتّاني) وكما يصوّرها هو وفق المقاييس والألوان التي يراها مناسبة لها وذلك بالاعتماد على أسس ومعطيات سابقة مأخوذة من عيون الكتب الإسلامية الأولى التي سجّلت الكثير من الأحداث والوقائع، فإنّ هذه الصورة المرسومة في مؤلّفات (كتاني) قد ارتقت إلى مصاف الصور الصادقة التي تضجُّ بالألوان الحيّة وتأتلق بأصدق المعاني وتختلجُ بنبض الحياة.

ويجب علينا دائماً ونحن نقرأ هذا الفصل عن الإمام علي عليه السلام ألا يغيب عن أذهاننا أن الحديث عن علمه الشريف بالقرآن الكريم وبكامل تفاصيل فقه الشريعة الإسلامية لا يمكن أن ينفصل عن الحديث حول قُوّة الحقّ عنده وعن أسسه في فلسفة التعامل والتفاعل مع الحياة. فالحديث عن الحق والعدل عند الإمام هو بالضرورة حديث عن ناتج فقهه وقضائه المتطابقين كُلّياً مع شريعة السماء.

فالحق والعدل هما قمّةُ الهرم في اكتمال دائرة المعارف الفقهية. فبقدر ما نعرف ونحصّل من علوم الفقه، بقدر ما نكون في حالة اقترابٍ وتماسٍ مع دائرة الحق والعدل. وبقدر جهلنا وغفلتنا عن العلوم الفقهيّة المستّمدة من الرسالة السماوية، بقدر ما نكون في حالة اغتراب وارتحال عن خط التّماس مع تلك الدائرة، دائرة الحق والعدل الأبديّة في خلودها.

فالظلمُ هو ابن الجهل الناتج عن عدم المعرفة أو فقدان إرادة المعرفة، وربما هو نتيجة لعدم القدرة على تحصيل تلك المعرفة أو تفعيلها، في حين أن الحق والعدل هما في المحصلة الناتج القيميّ والعمليّ للعلم والمعرفة. فلو لم يكن

الإمام علي عليه السلام أعلم الناس بالقرآن الكريم وأعلاهم شأناً بشؤون وأحوال السنّة النبويّة الشريفة، وأغزرهم حكمة في معرفة الطبيعة البشرية لما كان هو الأكثر فقهاً والأصوب قضاءً ممّا يؤهّله ليكون صورةً ثانيةً للكثير من الأنبياء والحكماء الإلهيّين السابقين.

وكختامٍ لما جاء في مؤلفات الأستاذ الأديب (كتّاني) عن علوم الإمام علي عليه السلام الفقهيّة ومعارفه المتنوّعة الأخرى، وقبل أن نغادر ميناءه الفكريّ ونُبحر مبتعدين عنه باتجاه مرفأ فكريّ آخر، سأذكر ما جاء في مقدمة كتاب (عليّ نبراس ومتراس) للأستاذ (كتّاني)، وهي مقدمة غنيّة بمعانيها وعميقة بدلالاتها وبالنتائج المترتّبة عليها، ويكفي أن يكون لها دلالة واضحة على أنّ الإنسان الذي يريد أن يكون على اتّصالٍ دائمٍ بالحقّ، وعلى ارتباطٍ وثيقٍ بدائرة العدل، والارتقاء الأخلاقي الشامل، فما عليه إلا أن يقترب من الإمام علي عليه السلام، من خلال دائرة ولايته، وأن يأخذ القبس تلو القبس من نور فكره الخلاّق الذي أعجز بقدرته وعظمته ألباب الأوّلين والآخرين.

وممّا جاء في مقدمة الكتاب المذكور عن أولئك الأوائل الذين أرادوا الالتحاق بالحقّ والفرار من الباطل في فترةٍ حاسمةٍ من حياة عليّ عليه السلام ومن فترة خلافته التي كانت المحكّ الحقيقي لإيمان الناس وصدق يقينهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وأمانة وسلامة رسالته والامتثال لتعاليمه ووصاياه: «وقد حدّثنا التاريخُ عن أن جماعة (علي) في عصره وفي العصور الأخيرة كانوا في الطليعة من حيث السيرة والطيبة، والفهم، والعلم، والأدب، والإيمان بالحق، وليس فيهم من يجوز وصفه بالغوغائية. فلقد كان عددُ من شهد (بدراً) مع رسول الله صلى الله عليه وآله (٣١٣)

من المهاجرين والأنصار. وقد اشترك من هؤلاء إلى جانب عليّ في حرب (صفين) كلٌّ من بقي حيّاً وكان عددهم (١٧٨) بدريّاً، وقد استشهد منهم (٦٣) نفراً، كما اشترك مع عليّ في معركة صفّين (٨٠٠) رجلٌ ممّن بايع النبيّ ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة ومن بقي حيّاً حتى ذلك اليوم.

وأمّا الذين شاركوا معاوية في حرب عليّ، فكُلُّهم من مسلميّ الفتح الذين أسلموا مقهورين، والطلقاء المؤلّفة قلوبهم، وعلى رأسهم عمرو بن العاص، وأبو الأعور السلمي، وبسر بن أرطأة، ومسلم بن عقبة وغيرهم ممّن صال بهم معاوية في الفتك والترهيب وإثارة السخط العام والغوغائيّة»[1].

ولا ريب في أنّ هذا الكلام وهذه الحقيقة هي جزء لا يتجزأ من حقائق إسلامية أخرى أعمق وأشمل، وما على الغوّاص البارع إلا أن يعمل جهده للغوص في بطون كُتب السيرة والتاريخ الإسلامي واستخراج تلك الحقائق المتلألئة من بين أصدافها.

إنّ تلك الصورة البسيطة التي قدّمناها عن صفات أتباع وأصحاب الإمام علي عليه السلام والتي جاءت في مقدمة كتاب (علي نبراس ومتراس) للأديب والمفكّر المسيحي المعاصر (سليمان كتّاني) هي صورة ذلك الإمام الذي كان يمسك بيمينه ميزان العدل ويحمل بيساره سيف الحق، وما بين اليمين واليسار كان هناك قلب عظيم ينطوي على علوم شرائع الأولين والآخرين.

وانطلاقاً من ذلك، فقد أكّد الباحث والمستشرق (فريد ريد) في كتابه

---

(١) نفس المصدر السابق: راجع المقدمة بقلم: جعفر الخليلي، ص٢٦٥.

الصادر حديثاً (shattered images) على أنّ الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه المخلصين كانوا على الدوام يحاولون وبشكلٍ دؤوب إنجاز ما كانوا يرونه ضرورياً وصائباً مثل استمراريّة خطّ الرسالة الإسلامية التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم(١).

وربّما نتيجةً لكل هذه الأسباب التي ذكرناها عن أهداف الإمام علي عليه السلام الفكريّة ومشاريعه الروحيّة، وربما أيضاً نتيجةً لكل تلك الصفات الحميدة والخصال الكريمة الكثيرة التي لم تجتمع في أحدٍ سواه، هذا بالإضافة إلى قدرته العلميّة والعمليّة على إثبات أنه وجهُ القرآن ولسانُه الناطق بالصواب وبالحق، والحاكمُ بالعدل والأمانة والصدق، فقد استطاع الإمامُ علي عليه السلام أن يُمثّل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير تمثيل عند كل المسلمين، بل وحتى عند المفكّرين المسيحيّين الدّارسين للتاريخ الإسلامي.

ألم يقل الأديب والمفكّر المسيحي (أنطون بارا) في معرض حديثه عن مكانة أهل بيت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عند كل المسيحيّين المستنيرين في الشرق:

«الفكرُ المسيحي العربي يُقدّسُ أهل البيت»؟!(٢)

بلى، لقد قال الأستاذ (بارا) ذلك، بل لم يكتف بقول ذلك، وإنّما أكّد على ذلك من خلال تعليقه على حديثٍ هام للنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. فبعد أن ذكر الأستاذ (بارا) حديث سفينة نوح بحرفيته: «مثلُ أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»، فبعد أن أورد (بارا) هذا الحديث النبوي الشريف

(١)Fred A.Reed. Shattered Images. Talon books Canada 2003, p. 41.

(٢) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، ص٢٥.

في كتابه (الحسين في الفكر المسيحي)، علّق عليه قائلاً: «يشملُ هذا المغزى (مغزى الحديث الشريف) كلّ الأجيال التي تولد مؤمنة تستلهم سيرة أهل البيت وتسير على هديها. فتكون كمن تركب سفينتها لتنجو في أيّ وقتٍ صحت عزيمتُها... فالرسول الأعظمﷺ لم يُحدّد هويّة من يركب السفينة بالمُسلم فحسب، بل بـ(من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق)، وفي هذا التعميم شمولية لبني الإنسان عامة»[1].

والكلام واضح ولا يحتاج إلى الكثير من الجهد لفهمه واستيعابه. فالخوف من الغرق والهلاك في خضمّ الأمواج الهائلة في هذه الحياة المُتقلّبة والتي تؤدّي إلى السقوط الروحيّ والإحباط النفسيّ المُتتالي ليس له دواء شافٍ إلا ولاية أهل البيتعليهم السلام والصعود إلى سفينة ولايتهم. فهُمعليهم السلام النجاةُ من المهالك في دار الدنيا وهم الأمان في الدار الآخرة. فسفينتهم الولائيّة ليست حكراً على المسلمين أو حتى على أتباعهم من الشيعة فقط، بل سفينتُهم مُعدّةٌ لاستقبال كل من يقتدي بهم ويسير على نهجهم القويم، ذلك النهج الذي مثّلهُ الإمام عليعليه السلام بعلمه ومآثره الفكرية الخالدة، وبخصاله الحميدة خير تمثيل. فهي، وفقاً لذلك، للمسيحيّين المُحبّين لهم والمقتدين بهم مثلما هي لأولئك المسلمين الذين لم يرتضوا أيّ بديلٍ عن نهجهم وعن خطّ ولايتهم المباركة.

وبالرغم من أنني لا أريد أن أستبق الأحداث، ولا أريد أن أجعل الموضوع المطروح يتشعّب يميناً ويساراً حتى لا تضيع الأفكار الأساسية المطلوبة، إلا أنني أستطيع أن أتنبّأ بفكرةٍ يمكن أن تُراود ذهن القارئ المسترسل في قراءة هذه

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٧٤.

الصفحات من كتابنا هذا. فقط تخطر على بال القارئ الكريم فكرةٌ مُلحّةٌ يمكن أن تأخذ شكل السؤال التالي:

لقد تحدّثت عن علوم الإمام علي عليه السلام وعن معارفه بالقرآن وبأحكامه وعن إدراكه لكلّ شاردةٍ وواردةٍ في قضاياه الفقهيّة، وذكرت مواقف ووجهات نظر العديد من المفكّرين والأدباء المسيحيين تجاه أعلميّة أهل البيت عليهم السلام وتجاه موسوعيّة الإمام علي عليه السلام المعرفيّة بشكلٍ خاص، ولكن أليس من حقّنا أن نقرأ بعض القضايا الفقهية التي أفتى الإمامُ عليّ عليه السلام بها على ضوء معرفته بالكتاب الإلهيّ العزيز؟!!!

ربّما تخطر هذه الفكرة على ذهن القارئ، بل ربّما تدقُّ باب فكره بشكلٍ سريع لتدخل بعد ذلك إليه دون أيّ استئذان، ولأننا نؤمن بحقّ القارئ في شرح وتوضيح كل شيءٍ يطلبه منّا، فقد رأينا أنه من الصواب والإنصاف أن نذكر بعضاً من تلك القضايا الفقهيّة التي عُرضت على الإمام علي عليه السلام فكان لها بالمرصاد حيث إنها كانت تحتاج إلى ألْمعيّةٍ في انفتاح الفكر مثلما تحتاج إلى عبقريةٍ حقيقيّةٍ في علوم الفقه والشرع.

ويروي لنا شيخ الأزهر، فضيلة العلامة (أحمد حسن الباقوري) في كتابه المعروف باسم (عليٌّ إمامُ الأئمّة) أنّ الإمام علياً عليه السلام قضى في رجل وامرأة ماتا في الطاعون على فراش واحد، ويدُ الزوج تضمُّ الزوجة إلى صدره. فجعل الميراث للرجل قائلاً إنها ماتت قبله، ثم لحقها هو فمات بعدها.

وقد علّق الشيخ الباقوري على الحكم في هذه القضيّة بقوله: «وليس لقائلٍ أن يقول إن الإمام قضى في هذه الواقعة بعلمه دون بيّنة ودون يقين. ذلك أن

وجود يد الزوج على فراشٍ واحد يعطي العلم اليقينيّ بأنّها السابقة إلى الموت، وأنه هو اللاحق بها»[١].

ومن أقضيته التي تدلُّ على عمق نظرته في الذات الإنسانية ونوازعها النفسيّة هي عدم السماح بإقامة الحدّ على أحدٍ في أرض العدوّ. وبالطبع، لا يخفى وجه الحكمة في هذا القضاء إذ من المحتمل أن يحقد الشخص الذي يُقام عليه الحدُّ بأرض العدوّ على قومه، وقد يحمله الحقدُ على أن يلجأ إلى العدوّ ويكشف له عن أسرار قومه ومواطن ضعفهم ممّا يؤذيهم ويشكّل خطراً عظيماً عليهم.

ومن أحكامه التي ذكرها العلاّمة (الباقوري) في كتابه السابق الذّكر والتي يُطبّقُها رجال القانون في الغرب الآن، أنهﷺ قد قضى في السارق إذا قُبض عليه وقد أخذ المتاع دون أن يخرج به من البيت، قائلاً: ليس على هذا قطعٌ حتى يخرج بالذي سرق من الدار.

ومن أقضيته المذكورة أيضاً أنه جيء إليهﷺ بطرّارٍ - والطرّار تعني بلغة عصرنا الحالي النشّال الذي يسرق الأشياء والأموال من جيوب الناس- وكان ذلك الطرّار قد نشل الدراهم من كُمّ رجلٍ، فكان حكمُ الإمامﷺ أنه إذا كان النشّال قد نشل الدراهم من القميص الداخليّ للرجل وجب عليه إقامة الحدّ بالقطع، أمّا إذا كان قد نشلها من قميصه الأعلى فلا قطع عليه. ولا يخفى أيضاً وجه الصواب في الحكم بذلك، لأنّ الدراهم إذا كانت في القميص الداخلي فهي في حرزٍ حريز وتكون مصونةً أيضاً من نظرات الطامعين وذوي النفوس المريضة،

(١) أحمد حسن الباقوري: علي إمام الأئمة، مطبوعات مكتبة مصر - القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٠٤.

في حين لو أنها كانت في القميص الخارجي فإنها تكون بخلاف الحالة الأولى ومن الحرز والصيانة[١].

ولا بأس في أن نذكر أيضاً أنه جيء إليه عليه السلام برجل قد قتل رجلاً آخر ولهذا المقتول صبيةٌ صغار، فقال الإمام عليه السلام: إنّ قاتل أبيهم لا يُقتل حتى يكبروا، فإذا بلغوا فإن أحبّوا أن يقتلوا قاتل أبيهم قتلوه، وإن أحبّوا أن يعفوا عنه أو يصالحوه كان لهم ذلك.

ومن أحكامه المشهورة عنه عليه السلام أنه قضى إلا يقتل الوالد إذا قتل ولده، ولكن يُقتل الولدُ إذا قتل والده.

وأعتقد أنّ هذا العدد القليل من الأحكام والقضايا الفقهية غير كافٍ للإحاطة بالصورة الكليّة الشاملة لعلوم الإمام علي عليه السلام القضائية والفقهيّة، ولكن أعتقد بنفس الوقت أن الجزء من الجوهر جوهر أيضاً، وأن ذلك يعطينا دليلاً قويّاً على أن المفكرين والأدباء المسيحيّين الذين كتبوا عن علوم أمير المؤمنين عليه السلام الفقهية الشرعيّة وعن إحاطته التامّة بموازين العدل وبقوّة الحق وحججه، كانوا محقّين تماماً في كل ما كتبوه عنه آخذين باعتبارهم أنّ قضاءه وأحكامه في الكثير من المسائل والقضايا الشائكة والمعقّدة قد أصبح اليوم حجر الأساس في الكثير من القوانين والتشريعات المعاصرة، هذا بالإضافة إلى أن أولئك المفكّرين المسيحيّين المعاصرين كانوا يضعون نصب أعينهم دائماً أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد أكّد في كثير من المرّات وفي أكثر من موقف على أنّ وصيّه الإمام علياً عليه السلام هو لسان القرآن الناطق بالصدق ويدهُ الحاكمة بين الناس

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٠٦.

بالعدل والحق.

وعلى كلّ حال، وقبل أن نقفل ملفّ القضايا والأحكام التي تميّز بها أميرُ المؤمنينعليه السلام ، يمكننا أن نذكر تلك الحادثة التي تتعلق بشهادة اليهود والمسيحيّين. وقد اخترتُ هذه القضيّة تحديداً لما لها من علاقةٍ وثيقةٍ بنظرة الإمام عليعليه السلام إلى النصارى المسيحيين.

فمن أقضيتهعليه السلام ، قضاؤه بردّ شهادة شاهدين من اليهود إذا شهدا على يهودي بأنه أسلم. ووجه ذلك عندهعليه السلام أنهما يُجيزان تغيير كلام الله وشهادة الزور. ولمّا سُئل عن شاهدين من النصارى شهدا على نصراني أو مجوسي أو يهودي بأنه أسلم، أجاز قبول شهادتهما قائلاً: إن الله يقول في النصارى **﴿لَتَجِدَنّ أَشَدّ النّاسِ عَدَاوَةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مّوَدّةً لّلّذِينَ آمَنُواْ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّا نَصَارَىَ ذَلِكَ بِأَنّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** [(١)].

ثم قالعليه السلام : «إنّ من لا يستكبر عن عبادة الله لا يشهد الزور»[(٢)].

إذاً، هذه هي باقة من الأحكام الفقهية والقضائية التي حفلت بها حياة الإمام عليعليه السلام والتي كانت تنبع بلا ريب من إحاطته العلميّة الكاملة بكل أسرار وتفاصيل الشريعة السماويّة، بل، كما رأينا سابقاً، كانت تلك الإحاطة الشاملة غير مقتصرة على أحكام الشريعة الإسلامية وإنّما كانت شاملةً لكل

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

(٢) أحمد حسن الباقوري: علي إمام الأئمة، ص٢٠٨.

أحكام الشرائع السماوية السابقة على خاتمة الرسالات، وربّما كانت هذه النماذج من الأقضية والأحكام المتميّزة في أهميتها هي التي دفعت بعمر بن الخطاب إلى القول آمراً جميع العلماء والفقهاء في ذلك الوقت: «لا يفتينّ أحدٌ في المسجد وعليٌّ حاضر»[١] إيماناً منه بأن الإمام علياً عليه السلام هو الأعلم بأحكام كتاب الله الحكيم وبسنّة نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله.

وربّما هذه الأحكام أيضاً، بالإضافة إلى أحكام أخرى من نوع آخر سنأتي على ذكرها قريباً، هي التي جعلت المفكرين المسيحيّين أيضاً يعتقدون اعتقاد اليقين أنّ الإمام علياً عليه السلام هو حقاً باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وراية هداه وسيّد المسلمين وإمام المتّقين.

وإذا كان أبو بكر -كما يذكر جمال الدين الزرندي الحنفي في كتابه (نظمُ دُرر السّمطين)- قد قال مرّةً حين رأى الإمام علياً عليه السلام مُقبلاً: «من سرّه أن ينظر إلى أفضل الناس منزلة وأقربهم قرابة وأعظمهم غنىً عن رسول الله صلى الله عليه وآله فلينظر إلى هذا»[٢].

وإذا كان عمر بن الخطاب قد قال أيضاً في علي عليه السلام: «كانت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ثماني عشرة سابقة، فخصّ عليّ ثلاث عشرة وأشركنا في الخمس»[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٦٩.

(٢) جمال الدين محمد الزرندي الحنفي: نظم درر السمطين، مكتبة نينوى الحديثة - طهران، د.ت، ص١٢٩.

(٣) نفس المصدر السابق: ص١٢٩.

وإذا كانت عائشة بنت أبي بكر قد قالت يوماً في عليّ عليه السلام بعد أن سُئلت عن رأيها في علم علي عليه السلام وعن مدى عمق علاقته بالسنّة النبويّة الشريفة، فقالت، على الرغم من عداوتها معه، : «هو أعلم الناس بالسنّة»، ولم تتوقّف عائشة عند حدود هذا القول، بل قالت لاحقاً عندما سُئلت نفس السؤال عن رأيها فيه :

إذا ما التّبرُ حُكّ على محكٍّ تبيّن غشُّهُ من غير شكّ
وفينا الغشُّ والذهبُ المُصفّى عليٌّ بيننا شبه المحكّ[1]

فإذا كان هؤلاء وغيرهم قد قالوا رأيهم الصريح في ما يتعلّق بشخصيّة الإمام علي عليه السلام العلميّة وبهويّته الفكريّة ذات الصبغة الإنسانيّة، فإن المفكّرين المسيحيّين قد رأوا لاحقاً أنّ كلّ ما قيل عن علي عليه السلام وعن معارفه وأبعاد شخصيّته الفريدة لم يكن إلا غيضاً من فيض، بل لم يكن إلا بمثابة من أشعل عود ثقابٍ نهاراً ليدلّ الآخرين على قرص الشمس!!

وربّما استطاع الأديب المبدع (جورج جرداق) أن يُلخّص كل ما قاله وما سيقوله أبناءُ دينه المسيحيّ عن علم الإمام علي عليه السلام وعن عدله ومعرفته الكاملة بالحقّ، وذلك من خلال قوله: «وليس غريباً أن يكون عليٌّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونه! وأخبارُ عليّ في عدله تراثٌ يُشرّفُ المكانة الإنسانية والروح الإنساني»[2].

ولم يأت الأستاذ (جرداق) بهذه النتيجة الهامة دون إعطاء دلائل وبراهين

(١) نفس المصدر السابق: ص١٣٣.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٨٧.

موضوعيّة تكون بمثابة المقدّمات الصحيحة التي تؤدّي بشكلٍ منطقيّ وحتميّ إلى النتيجة الصحيحة الصادقة والقادرة على رسم الخطوط العريضة والهامة لصورة معارف الإمام علي عليه السلام وعلومه، تلك العلوم المأخوذة بشكلٍ مباشر من كتاب الله ومن وصايا رسوله صلى الله عليه وآله.

وينطلق الأستاذ (جرداق) من مقدّماته المنطقية بقوله وتأكيده على أن الإمام علياً عليه السلام الذي رُبّي وترعرع تحت جناح النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وتحت إشرافه ورعايته، قد ورث أخلاقه وأسلوبه في النظر إلى الحياة وإلى الإنسان. وقد جرى ذلك الميراثُ النبويّ في قلب عليّ عليه السلام وفي عقله سواءً بسواء. ومع ذلك، فإن الإمام علياً عليه السلام لم يتوقّف في دراسته للقرآن الكريم عند حدٍّ مُعّين، بل عكف في دراسته اعتكاف الدّارس الحكيم المتبصّر الذي ينفذ إلى لباب الأشياء وجواهرها فيعي حقائقها ويستوحيها.

ولذلك، وبما أنه عليه السلام قد أحاط علماً بالقرآن الكريم وبالحديث النبويّ الشريف وبدقائق وتفاصيل السيرة النبويّة المباركة، فإن معاصريه لم يعرفوا من هو أفقه منه ولا من هو أعلم منه في عموم شؤون الشريعة. ولذلك، فقد كان الإمام علي عليه السلام موضع ثقة أبي بكر وعمر بن الخطاب في كل ما كان يتعسّرُ حلّه من المشكلات والمعضلات، كما كان عليه السلام مرجعهما الأعلى في كل استشارة ورأي.

وكما كان الإمام علي عليه السلام مرجعاً لأبي بكر وعمر في شؤون الفقه والقضاء، كان أيضاً مرجعاً أعلى لسائر الصحابة دون استثناء.

وبناءً على كل تلك المعطيات السابقة والمقدمات الصحيحة، فقد انطلق

الأستاذ (جرداق) في صياغة النتيجة المنطقيّة المؤسّسة على تلك المعطيات والمقدمات المُستقاة من أوثق كُتُب السنّة وأقدمها، وكان أن صاغ تلك النتيجة بقوله: «كان عليٌّ أقضى أهل زمانه لأنه كان أعلمهم بالفقه والشريعة وهما في الإسلام مصدر القضاء. ثم إنه أوتي من قوة العقل ما يكشف له عن الوجه الأكثر صواباً والأشدّ انطباقاً على المنطق إذا اختلفت الوجوه. كما أوتي من صفاء الوجدان ما يوجّهُهُ في استخدام علمه في القضاء أصدق توجيه، فيعدل في الحكم على أساس من العقل والضمير جميعاً»[1].

ولا يتوقّف الأمر في مؤلفات الأستاذ (جرداق) عند هذا الحدّ، بل إنه يتعدّاه إلى أبعد من ذلك بكثير. فعدل الإمام عليعليه السلام والحقُّ عنده لا يؤهّلانه ليكون إماماً للمسلمين فحسب، بل يؤهّلانه ليكون إماماً عادلاً في أحكامه وقضاياه مع كل الناس من مسلمين وغير مسلمين.

فعدلُ الإمام علي أمير المؤمنينعليه السلام يتجلّى بصورٍ مُشرقةٍ شتّى، ولكن أبرز تلك الصور عند (جرداق) هي صورة الحريّة الدينية التي كان ينادي الإمامُ عليعليه السلام بها. فالحرية الدينية حقٌّ مُقدّس من حقوق الإنسان في دستور علي الدينيّ وفي نهجه الفكريّ. وبما أنّ الحريّة وحدة متكاملة بذاتها ومتكاملة بأجزائها واحتياجاتها، فإن الإنسان لا يمكنه أن يكون حُرّاً من جهة ومقيداً من جهة أخرى. ولذلك، فالمسلم أخو النصرانيّ في الإنسانية وفي القيمة الوجوديّة، فضلاً عن أنهما شقيقان في الصورة البشريّة وفي النشأة الترابيّة الآدميّة. وبالتالي، فإنّ عدل عليّعليه السلام في قضائه وفي تفاعله الإيجابيّ مع مفردات الحياة، وبشكلٍ

(١) نفس المصدر السابق: ج١ ص٩٩.

خاص مع الإنسان، يدفعه للتعامل مع الجميع من منطلق الرحمة والرأفة بالأخوّة الإنسانية والرفق بها واحترام هويتها الدينية حتى ولو لم تكن هوية أحد أطراف هذه الأخوة الإسلامية. وقد دعم الأستاذ (جرداق) وجهة نظره تلك بعدّة أحاديثٍ لعليّ عليه السلام حول احترامه لأهل الذمّة، وبشكلٍ خاص النصارى.

ومن الأحاديث التي استشهد بها الأستاذ جرداق للإمام علي عليه السلام هو قوله الشهير في وصيّته لمحمد بن أبي بكر حين ولاّهُ مصر: «أوصيك بالعدل على أهل الذمّة، وبإنصاف المظلوم وبالشدّة على الظالم وبالعفو عن الناس والإحسان ما استطعت! وليكن القريبُ والبعيد عندك في الحقّ سواء»[1].

ومن هنا يرى المفكّرُ (جرداق) أنّ ارتقاء إنسانيّة علي عليه السلام وسُموّ روحه هو نتيجة طبيعيّة لارتقاء فكره وتألُّق إيمانه. فذلك العقل الجبّار الذي استطاع أن يفكّك رموز القرآن الكريم ويقف على خفايا أحكامه والعلل من شرائعه ومُقتضياته، فهو بلا شك عقل يستطيع أن يدرك خفايا النفس الإنسانية أيضاً وأن يعرف أنّ إنسانية الإنسان هي الهويّة الأولى والأهم التي يجب أن يحترمها الآخرون من خلال وجودها في ذلك الكيان الأسمى في الوجود، أي في الصورة الإنسانيّة الآدميّة.

فإبحارُ الإمام علي عليه السلام في خضمّ الأوقيانوس القرآني العظيم، واختراقه لحواجز الزمان واستنباطه الدائم للأحكام الصائبة جعله الإمام والسيّد لكل زمانٍ وأوان. وممّا لا ريب فيه أنّ لكل زمان ثوابته ومتحوّلاته، ولكل عصر صيرورته الخاصة به، فتغيُّرات الحياة وتطوّر قوانينها العامة وظهور قضايا فقهيّة مستحدثة تفرضها ما تفرزه التطوّراتُ العلميّة والتكنولوجيّة، كل ذلك يستلزم

(١) نفس المصدر السابق: ج١ ص٢٠٩.

وجود إمامٍ عبقريّ قادرٍ على اجتياز جدار الزمن الحاضر من أجل قراءة عناوين المستقبل، ومُدركٍ بنفس الوقت لكيفيّة أن يكون الفقهُ الحضاريّ في الشريعة السماوية الأخيرة مناسباً لكل فردٍ من أفراد الأسرة الإنسانيّة آخذاً بعين الاعتبار الاختلافات المكانيّة والتغيرُّات الزمانيّة.

ولأنّ الإمام علياًعليه السلام كان قادراً على أن يترجم علم الفقه ويحوّله إلى لغةٍ حضاريّة شاملة، فقد حظيّ بحبّ أبناء الإيمان واحترام أهل الحضارة. فالباحث الفرنسي المعروف (كارا دي فو) (cara de vaux) هو واحد من أشهر المستشرقين الأوروبيين، وهو من مواليد عام(١٨٦٨) في فرنسا، وله مؤلفات ذائعة الصّيت، مثل (الرياضيات وعلم الفلسفة) و(ابن سينا) و(مفكرو الإسلام) ذو الأجزاء العديدة. وقد تحدّث هذا المستشرق في مؤلفاته عن الإمام عليّعليه السلام وعن مكانته المتميّزة ومنزلته الرفيعة في الحضارة الإسلامية، وما يمكننا أن نلاحظه في كتاباته عن الإمام عليعليه السلام هو أنه عندما يكتب عن الأبعاد الفكريّة في شخصية عليّعليه السلام نراهُ يتحوّل إلى شاعرٍ مرهف الحس ويتحوّل قلمُهُ معه من قلمٍ يكتب بالحبر على الورق إلى طائرٍ غرّيدٍ يرسم بأصداء صوت رفيف جناحيه وبتغريده الصدّاح صوراً وقصائداً مشرقةً لجوانب عديدةٍ في شخصيّة على أمير المؤمنينعليه السلام والتي تُعدُّ بحقّ شخصيّة فريدةً تقف على الدرجات الأخيرة من النّبالة السامية والكمال الإنسانيّ المُشبع بروح الرّقيّ والحضارة. إنها صورة الإمام عليعليه السلام التي لا يتعشّقُها المسلمون فحسب، بل يتعشّقُها -كما يقول المستشرق (دي فو)- الأوروبيّون أيضاً[1].

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٣٨.

وبالطبع، لم يكن هذا الموقف من شخصيّة الإمام علي عليه السلام ومن انفتاحها الحضاريّ على بوّابات المستقبل ومُتغيرّاته هو موقف المستشرق البارون (كارا دي فو) وحده، بل هناك الكثير ممّن قال ذلك، وربّما أكثر من ذلك بكثير عن حب وإعجاب المفكّرين الغربييّن، الدّارسين للفكر الإسلامي، بشخصيّة الإمام علي عليه السلام التي دعت وسعت إلى طلب العلم والمعرفة بكل ميادينها وحقولها وبربط تلك العلوم والمعارف بالأخلاق، والأهمّ من ذلك بطلب الانفتاح على (الآخر) واحترامه، والحوار معه حضارياً بالكلمة الطّيبة وبالحوار البنّاء القائم على الدلائل والبراهين، لا إلى الحوار الانفعاليّ السلبيّ القائم على الدعوة بالسيف وإراقة الدماء.

فالإمام الذي نادى بهذه المبادئ السامية النبيلة وعمل فعليّاً على تحقيقها منذ ألف وأربعمئة عام هو الإمام الذي دافع عنه المستشرق الفرنسي البارز (كازانوفا)، Casanova (١٨٦١-١٩٢٦)، الأستاذ في كوليج دي فرانس، إذ إنه قد دافع عن الإمام علي عليه السلام بحماسٍ عقلانيّ شديدة وبقوة الحجّة والدليل، واعتبر انه من غير الإنصاف أن يُقارن الإمامُ علي عليه السلام بمُناوئيه، أولئك الذين لا يعدو كونهم جماعة من أرباب الكراسي والمناصب وأصحاب اللصوص والنهّابين[1].

ففي كل بقعة من بقاع العالم هناك مُحبّون وعُشّاق لشخصيّة الإمام علي عليه السلام. وعلى سبيل المثال، هناك في القارة الأوروبيّة مفكّرون وباحثون مُنصفون نذروا جهودهم الفكريّة من أجل دراسة تاريخ الشرق العربي

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٥ ص٢٤٧.

والإسلامي. ولا أعتقد أنني أجانب الصواب إذا قلتُ إنّ البعض منهم قد قدّم لنا نحن العرب المسلمين ما لم يستطع أن يُقدّمه لنا الكثيرُ من أبناء هذا الشرق من المفكّرين العرب المسلمين أنفسهم.

وهناك أيضاً نفرٌ من عباقرة أوروبا ومفكّريها الأفذاذ، وهم من غير جماعة المستشرقين، قد أكبروا الرسالة الإسلامية، وبشكلٍ خاص الجانب الإنسانيّ فيها، وقد أكبروا وثمّنوا غالياً رموزه الخالدة المتمثّلة في صاحب الرسالة الإسلامية ﷺ وفي عموم أهل بيته الكرام عليهم السلام. ولا تؤمن تلك الجماعة من العباقرة والمفكّرين بالحواجز القومية وبالحدود الدينية التي قد تقفُ عائقاً أمام تيّارات الفكر الإنساني النبيل، ولا تؤمن تلك الجماعة أيضاً بالتعصُّب الدينيّ ولا بالتّمذهب الطائفيّ المنغلق أمام أيّة رسالةٍ إنسانيةٍ يجيء بها رسولٌ سماويّ أو مُصلحٌ اجتماعيّ، أو حتى أديب أو فيلسوف أو فنّان مُبدع أصيل.

فهل ننسى ما كتبهُ العديد من عباقرة أوروبا ومفكّريها وصانعيّ آدابها المعاصرة عن إنسانيّة الإسلام وارتباطه بالمفاهيم الحضارية والقيم الروحيّة، مثل: يوهان غوته، وتوماس كارلايل، وجورج برناردشو، وصاموئيل جونسون، ولامارتين، وغوستاف لوبون، والمؤرّخ ولز، والشاعر إمرسون، وغيرُهم كثير؟!!

بالطبع، لا يمكننا أن ننسى ما كتبه أولئك المفكّرون والأدباء المسيحيون في الغرب عن التاريخين العربي والإسلامي بأقلام صادقة وقلوب صافية، وبالطبع لا يمكننا أن نتناسى أو أن نتجاهل نصيب الإمام علي عليه السلام من تلك الكتابات المسيحية النقيّة التي تترفّع عن مستوى كتابات بعض المستشرقين المتعصبين.

وبما أنّنا لا نزال في معرض حديثنا عن رسم صورة واضحة المعالم لشخصية الإمام علي عليه السلام العلميّة، وبشكل خاص العلمية الفقهيّة، فقد اتفقت آراء المفكّرين والأدباء المسيحيّين في الشرق -كما هو الحال عند الكثيرين في الغرب- على أنّ الإمام علياً عليه السلام هو المفتاح لكل أبواب العلوم والمعارف.

ولو أخذنا على سبيل المثال وعلى سبيل العرض الموجز والسريع ما قاله الأديب والشاعر (خليل فرحات) عن المنظومة الفكريّة العلميّة عند الإمام علي عليه السلام ، لرأينا أنه يرفض بشكلٍ قطعيّ أن يعتبر الإمام علياً عليه السلام إماماً في الفقه والقضاء فحسب، بل هو بالنسبة إليه الإمام العالم في كل ميادين العلوم وهو صاحب مفاتيح تلك الأبواب والميادين جميعها.

ففي مجال العلوم الفقهيّة، والتي هي معرض حديثنا الآن، يقول الشاعر (فرحات):

أرى الفقه كالإعصار ندّ شكائما ... ولمّا نهضّت انصاع كالريّض المهر

أي إنّ علم الفقه في الشريعة الإسلامية كان صعباً وشاملاً لكل شيء في الحياة، حتى بدا وكأنه كالإعصار في قوّته وصعوبة مواجهته واستيعابه، لقد بدت صعوبتهُ كالشّكيمة المستعصية، أي إنّه علمٌ مُتشعّبٌ وصعب ولا ينقاد إلى الأذهان ولا يدخلُها إلا بعد جهدٍ جهيد، ولكن لمّا أتى الإمامُ علي عليه السلام وقام بشرح علم الفقه وقام ببلورته وإعطائه شكله النهائي السليم، فقد أصبح عندها علمُ الفقه علماً طيّعاً مرناً مُنصاعاً لأمير المؤمنين علي عليه السلام كما ينصاع المهرُ المروّض لصاحبه ومُربّيه.

ويتابع الأستاذ (فرحات) وصفه لإقبال العلماء على نهلهم العلم من نبع

عليّ عليه السلام الفكريّ الغزير دون أن يُنقصوا شيئاً من غزارة تدفُّقه وانسيابه، وهل يستطيع الطائر العطشان من خلال منقاره الصغير أن يُنقص من مستوى ذلك النهر الغزير المتدفّق إذا تناول منه شيئاً بذلك المنقار الصغير؟!!

وهذا ما عبّر عنه الشاعر المسيحي (فرحات) بقوله:

عيالٌ على سلسال نبعك علمُهُم ... وليس يخفُّ النّبع من نقرة القُمري
وإن قامت الأموات للبعث مثلما ... يُقالُ فقد جاءت مقامك تستقري[1]

وإذا كان الشاعر (فرحات) قد رأى أنّ كل المدارس الفقهيّة، وحتى المدارس الفلسفية الكلاميّة في الإسلام ينتهي أربابُها إلى الأخذ من علوم الإمام عليّ عليه السلام، فإننا نرى أنّ هذا الرأي ليس وقفاً على الأديب فرحات، بل نستطيع أن نرى أنّ كل المفكّرين المسيحيّين يتّفقون مع المفكّرين المسلمين حول مصداقيّة هذه الفكرة.

وعلى الرغم من هذا الإجماع الكلّيّ على تلك الفكرة، إلا أنّ هناك البعض من أولئك المفكّرين لم يتوقّفوا عند حدود الخطوط العامّة لها، بل تجاوزوها إلى أعمق وأبعد من ذلك.

ولو أخذنا ما كتبهُ الأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) عن عبقريّة الإمام عليّ عليه السلام الفقهيّة ومُبتكراته الشرعية القضائية، سنلاحظ أنه لم يأمر قلمه بالاقتصار على رسم الخطوط العامة لأعلميّة الإمام عليّ عليه السلام في المجال الفقهيّ وفي ارتباط أحكامه وقضاياه بالعدل وبإصابة وجه الحق، وإنّما أعطى

(١) خليل فرحات: في محراب علي، ص٢٦.

الأوامر لقلمه بالاستفاضة في ذلك، وأمره بتجاوز تلك الحدود والخطوط من أجل البحث عن المُبتكرات الفقهيّة التي لم يسبقه أحدٌ لابتكارها والعمل بها.

وبعد أن يقول الأستاذ (العزيزي) تحت عنوان (المبتكر العظيم): «لعلّ أعظم البراهين على عبقرية إنسان، هو ما يبتكر من الأعمال والآراء الدّاشنة التي لم يُسبق إليها. ونحن إذا تصفّحنا حياة عليٍّ بتجرُّدٍ علميٍّ، لرأينا أنه ابتكر أموراً لم يُسبق إليها. ووثبةُ تفكيره إلى هذه الأوّليات التي تفرد بها خيرُ دليلٍ على فطرةٍ عبقريةٍ مُصفّاة»[1].

وبعد أن يقول الباحثُ (العزيزي) ذلك، نراه يتوقّف هنيهةً ليُعدّد لنا بعض تلك المبتكرات التي لم يستطع أحدٌ أن يسبق الإمام علي عليه السلام إليها في مجال الفقه والقضاء.

ونحن بدورنا سنعمل على تلخيص بعضاً ممّا ذكره الأستاذُ (العزيزي) مدعوماً بالأدلّة والشواهد الواردة في معرض حديثه عن إبداعات علي عليه السلام القضائية والتي هي الثّمرةُ الناضجة لإحاطته الكاملة بعلوم الفقه:

يرى الأستاذ العزيزي أن الإمام علياً عليه السلام هو الآية الكبرى للقضاء بالحقّ، فهو عليه السلام أوّل قاضٍ فرّق بين الشهود لئلاّ يتواطأ اثنان منهما على شهادة زور مُتّفق عليها تعمل على تشويه وجه الحق والعدالة.

ويرى (العزيزي) أيضاً أن الإمام علياً عليه السلام هو أول من سجّل شهادات الشهود حتى لا تتبدّل الشهادة لاحقاً بدافعٍ من طمعٍ أو برغبةٍ في رشوةٍ أو نتيجة

(١) روكس بن زائد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص١٤٤.

ميولٍ عاطفيّة منطلقاً في ذلك من أنّ حفظ حقوق الناس من العبث والغش والضياع شيءٌ ثمين جداً لأنه جزء من حياة وكرامة الإنسان نفسه، فجاءت الأجيال والأمم والحكومات والتشريعات الدولية المعاصرة تسير على الأسلوب السليم الذي رسمه الإمامُ الأعظم علي بن أبي طالبعليه السلام . ويتابع الأستاذ (العزيزي) كلامه قائلاً إن الإمام علياًعليه السلام هو أول من منع بيع ما يحتاج إليه كلُّ ذي مهنةٍ من أدوات ومستلزمات، وذلك من أجل استمراره في مهنته كي يقوم بتسديد ما يترتّبُ عليه دفعه من مالٍ لبيت المال[1].

وبالطبع، ليست هذه هي كل المبتكرات التي جاءنا بها الإمام عليعليه السلام ، ولكن كما ذكرتُ في البداية، فقد أردتُ أن أوجز الحديث وألخّصه، وأردتُ أن أذكر أيضاً كلّ ابتكارٍ في مكانه الصحيح. ولذلك، فقد رأيتُ أن أذكر البقيّة الباقية من تلك الابتكارات والإبداعات الفكرية الأخرى في الفصل المخصّص للحديث عن علوم عليعليه السلام الكونيّة، تلك العلوم التي ليست هي بالعلوم الدينيّة الصّرفة أو المباشرة وإن كانت لا تنفصل عنها بوجهٍ من الوجوه.

ولئن أسلفنا القول حول اتفاقٍ مسيحيٍّ - إسلاميٍّ كاملٍ في ما يتعلّق بانتهاء العلوم في الإسلام إلى باب مدينة العلم، الإمام عليعليه السلام ، فإننا نؤكّد ثانية على أنّ هذا الكلام الصحيح المبنيّ على آيات قرآنيةٍ كثيرةٍ كُنّا قد ذكرنا قسماً منها، وعلى أحاديثٍ نبويّةٍ شريفة أوردنا بعضها، إنّما يدلُّ على عصمة الإمامعليه السلام الكاملة في كل ما يقوله وما يعمله وما يحكم به.

وما أريده الآن من القارئ الكريم هو أن يعذرني، فما أردتُ أن أطيل

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤٥.

الكلام في هذا الفصل من كتابي، ولكنّ الأمر خارجٌ عن إرادتي. فكلمّا أردتُ أن أوجز الكلام وألخّصهُ في حدوده الدنيا، أرى أنّ القلم هو الذي يتحكّمُ بيدي وليس العكس. ولذلك أرجو من قارئنا الكريم أن يأخذنا بحلمه ويشملنا بلطفه وأن يُبعدني عن دائرة الاتهام بإطالة الكلام، وبالإسهاب في الحديث شرحاً وتفصيلاً.

ولكن أعود وأقول بكل صراحةٍ: كيف يمكنني أن أتجاوز الآية (٤٣) من (سورة النحل) في الوقت الذي أتحدّثُ فيه عن إمام الأئمة وخليفة سيد الأمة صلى الله عليه وآله وسلم؟

فكيف لي أن أتجاهل أو أن أغفل عن ذكر تلك الآية القرآنيّة الشريفة القائلة: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُون﴾ والتي أجمع معظم المفسّرين السنّة على نزولها في أهل البيت عموماً وفي عليّ أمير المؤمنين عليه السلام خصوصاً!![1]

وكيف يمكنني أن أتجاوز الآية (١١٩) من (سورة التوبة)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ حيث قال سبطُ ابن الجوزي عنها: «قال علماء السّير: معناه كونوا مع عليّ وأهل بيته، وقال ابنُ عباس: عليّ سيّدُ الصادقين»؟![2]

---

(١) راجع على سبيل المثال ما جاء في:

أ) ابن جرير الطبري: تفسير الطبري، دار المعرفة - بيروت، ط١/ ١٣٢٩هـ، ج١٤ ص٧٥.

ب) أبو الفداء ابن كثير الدمشقي: تفسير ابن كثير، دار المعرفة - بيروت، ط٢/ ١٤٠٨هـ، ج٢ ص٥٩١.

(٢) راجع على سبيل المثال:

أ) جلال الدين السيوطي الشافعي: تفسير الدر المنثور، دار الفكر - بيروت، ط١/ ١٤٠٣هـ، ←

فهل بالإمكان أن أتجاوز آيات قرآنيّة كريمة كهذه أو أحاديث نبويّة شريفة كالتي ذكرتُها سابقاً والتي تدلُّ بمجملها على مدى اتّساع علوم علي عليه السلام ومعارفه في البُعدين الأفقي والعمودي، أي في البُعد الدنيوي والبُعد الديني؟!!

فهناك أمور وقضايا لا نستطيع أن نتجاوزها أو أن نمُرّ عليها مروراً عابراً، لأنه من الأفضل، كما يبدو أحياناً، أن نختار أمراً من أمرين لا ثالث لهما: إمّا أن نُقدّم الحقيقة كاملة للقارئ، وإمّا أن نُحجم عن النُّطق بها إحجاماً تامّاً وأن نتجاوزها إلى نقطةٍ أُخرى للبحث في حقيقة تلك النقطة الجدية المطروحة. وأنا بتقديري الشخصيّ أن كلا الأمرين أفضل، في كل الأحوال، من أن نُقدّم للقارئ أنصاف الحقائق أو أرباعها.

ولذلك، فعندما ذكرنا أمر رجوع الخلفاء إلى الإمام علي عليه السلام في كل الأمور المستعصية، فإننا لم نقصد التعمُّد في الإطالة ولم نكن نقصد الإساءة إلى أحد، وإنّما أردنا أن نُقدّم الصورة الصادقة لتلك الحقيقة كما جاءت مُدوّنةً في كتب ودواوين الفكر المسيحي.

ولولا خوف الإطالة والملل الذي يمكن أن يلحق بالقارئ الكريم لأجرينا مقارنةً بين أصحاب المذاهب الأربعة والتناقضات الرهيبة والمرعبة التي وقعوا فيها، فضلاً عن تكفير بعضهم البعض، ولكن نرى أنّ المكان والزمان لا يسمحان لنا بذلك، فمقارنة العلوم الفقهيّة عند أصحاب أولئك المذاهب

ج٣ ص٢٩٠.

ب) محمد بن علي الشوكاني: تفسير فتح القدير، دار المعرفة - بيروت، ج٢ ص٢٩٥.

ج) مروان خليفات: أكرمتني السماء، رابطة أهل البيت عليهم السلام، - لندن، ط٣/ ٢٠٠١، ص٧٠.

الأربعة بفقه الإمام علي عليه السلام وبعلومه الشرعيّة شيء مثيرٌ حقّاً ولا يخلو من الطرافة الممزوجة بالأسف على ما آل إليه أمر الإسلام الذي نادى به محمدٌ وأهلُ بيته عليهم السلام.

ففي الوقت الذي يقول فيه رسولُ الحق صلى الله عليه وآله للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «يا عليّ إنّك عبقريُّهم»[1]، أي إنك سيّدُ العلماء وإمامُ الفقهاء والحكماء، نرى بمقابل ذلك أنّ العلامة السنّي (الزمخشري) يُصوّرُ حال أصحاب المذاهب الأربعة وتناقضاتهم الفقهيّة التي تتنافى مع روح الدين الإسلامي، فيقول مُتذمّراً من ذلك الوضع المهين:

إذا سألوا عن مذهبي، لم أُبح به وأكتُمُه، كتمانُهُ لي أسلمُ
فإن حنفيّاً قلتُ، قالوا بأنني: أبيحُ الطّلا وهو الشراب المحرمُ
وإن مالكيّاً قلتُ، قالوا بأنني: أبيحُ لهم أكل الكلاب وهُم هُمُ
وإن شافعيّاً قلتُ، قالوا بأنني: أبيح نكاح البنت والبنتُ تُحرّمُ
وإن حنبلياً قلتُ، قالوا بأنني: ثقيلٌ حُلوليٌّ، بغيضٌ مُجسّمُ[2]

ويحقُّ للعلاّمة الزمخشري أن يتألمّ من ذلك الوضع التعيس البائس، لأنّ الذي يُحكّمُ بصيرته ومنطقه العقليّ في الكثير من القضايا الفقهية الحسّاسة

(١) الحافظ المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، ص١٩٣.

(٢) راجع ما جاء في:

أ) محمود جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، راجع ترجمة الزمخشري في الجزء الرابع من التفسير المذكور، طبع دار المعرفة - بيروت، ص١٢٠.

ب) مروان خليفات: أكرمتني السماء، ص٤١.

كالتي ذكرها العلاّمة (الزمخشري) في هذه القصيدة التي ذكرناها، لا يسعُهُ إلا أن يقول مستنكراً:

أين فقه هؤلاء القوم من فقه الإمام علي عليه السلام، وعلومه؟!!

بل كيف يقبل الفردُ المسلم أن يأخذ علومه الإسلامية من أصحاب مذاهب يعترفون بأنهم يُخطئون في أحكامهم، ويعترفون أيضاً بأن كلامهم ليس معياراً للحقيقة والصواب، في حين أنّ بعض المسلمين المتعصّبين للمنطق السقيم وللأفكار المتحجّرة والخارجة من كهوفٍ ومغاور التاريخ يرفضون أن يأخذوا علومهم ومعالم دينهم عن أهل البيت عليهم السلام مع اعترافهم وإقرارهم بأن الله نفسه سبحانه وتعالى قد أكّد في مُحكم تنزيله أنه قد أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً؟!! لن أعلّق على ذلك إلا بالقول: ما نفع الأبصار التي في الوجوه إذا لم تكن هناك بصائر في القلوب.

ورحم اللهُ الأديب الشاعر (بولس سلامة) عندما قال رادّاً على خصوم الإمام علي عليه السلام ومُعلّقاً على قوة علي عليه السلام في الحقّ وتشدُّده فيه: «ولم يستطع خصوم علي أن يأخذوا عليه مأخذاً فاتّهموه في إحقاق الحقّ، أي إنهم شكوا كثرة فضله فأرادوه دنيوياً يُماري ويُداري، وأراد نفسه روحانياً رفيعاً يستميتُ في سبيل العدل، لا تأخذه في الله هوادة. وإنّما الغضبة للحقّ ثورة النفوس القدسيّة»[1].

وإذا كان الأديب (سلامة) يرى أنّ الإمام علياً عليه السلام قد سخّر علوم الدين

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١٢.

من أجل الإنسان ومن أجل رفع قيمته وتثمين وجوده كإنسانٍ مُستخلفٍ على ودائع كثيرة في هذا الوجود، فإنّ الأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي) يرى بدوره أنّ خير الكلام في هذه القضيّة هو ما قلّ ودلّ، فما من إمامٍ عادلٍ أو قاضٍ يقضي بحقٍّ، أو فقيهٍ يسلك بفقهه النهج الإسلامي الصحيح إلا وهو تلميذ علي عليه السلام بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة.

فالحقُّ والعدل مفردتان ومفهومان أساسيّان في قاموس علي عليه السلام.

وكما ذكرنا سابقاً، فقد اختصر الأستاذ (الإنطاكي) الكلام حول أعلميّة الإمام عليّ عليه السلام في الفقه والشّرع السماوي، وفي إحقاق الحقّ وإقامة صرح العدل، فقال مُعبّراً عن ذلك تحت عنوان (أمير المؤمنين وعلم الفقه):

والمرتضى جعل الفقه المشرّف علماً ... ذا أصولٍ له تُنمى أماليها
وعنه قد أخذ الناسُ التّفقُّه في ... شريعة الله سنِّيها وشيعيها
كذا إلى المرتضى بالفقه ترجع أرباب ... المذاهب في الإسلام باقيها
والمصطفى قال: أقضاكُمُ أبو حسنٍ ... والناسُ قد شهدت رشداً بقاضيها[1]

هذا هو علي أمير المؤمنين عليه السلام وهذه هي صورته المتألّقة في سماء الفكر المسيحي الحرّ.

فالإمام علي عليه السلام الذي جسّد مفهوم الحق ولخّص فكرة العدالة من خلال فكره المبدع والمنفتح على آفاق الحياة، ومن خلال سيرته الحياتيّة العطرة لم يكن ليكتفي بالوصول إلى جواهر الحقائق في ميادين علومه ومعارفه نظرياً، بل كان

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي، ص٦٧٣-٦٧٤.

دائماً يعمل على تحويل تلك الحقائق النظرية إلى وقائع عمليّة. فالإنسان الحقيقيّ الكامل في إنسانيته هو الذي يبحث دائماً عن الحقيقية ليعيش بمستواها، وربّما هذا ما أراد قوله المستشرق الألماني (يوليوس فلهاوزن) في كتابه (تاريخ الدولة العربية) عندما تحدّث عن إنسانية علي عليه السلام التي فاقت كلّ حدٍّ وتصوُّرٍ حتى مع ألدّ أعدائه، وأنه عليه السلام، حتى في حالات الحروب والمعارك، كان إنساناً حقيقياً أكثر ممّا كان محارباً، وكان من الإنسانية الممزوجة بعبق عدالة المواقف المبدئيّة التي تتعامل حتى مع ألدّ الأعداء من منطلقٍ إنساني نبيل[1].

وهنا نرى أنه من الأنسب لنا أن نترك القلم يرتاح قليلاً بعد هذه الجولة الواسعة مع بابٍ هام من أبواب علوم علي أمير المؤمنين وإمام الموحّدين عليه السلام، ذلك الباب الذي تتجلّى فيه عدالةُ علي عليه السلام وتتجسّدُ فيه قوّة الحق عنده بصورٍ وإشراقاتٍ رائعة سجلتها كتبُ ودواوين المفكّرين والأدباء المسيحيّين المعاصرين بكل أمانة وإخلاص، وبروح المسؤولية المبنيّة على روح التفاعل مع حقائق التاريخ، لا على روح الانفعال فيه، إنها الروح التي تبحث في هذا الزمان الأغبر عن وميض العدالة وشعاع الحقّ، فكان لها ما أرادت، ووجدت ما كانت تبحث عنه، وجدتهُ في إمامٍ استطاع أن يحمل بين جنبيه راية الحقّ وميزان العدل، إنه الإمام المبين عليّ أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) يوليوس فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ترجمة: الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، نشر لجنة التأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٦٨، ص٧٣ و٧٦.

العلوم الطبيعية والرؤى الفلسفية

الكلام عن العلم بتنوعاته وتشعُّباته وروافده هو بلا شك حديث شيّقٌ عن جزء هام من مسيرة التاريخ الإنساني العامْ. فالعلم وجه من وجوه الثقافة، شأنه في ذلك شأن الأدب والتاريخ والمعتقدات الروحية والعادات والتقاليد التراثيّة والأفكار الفلسفيّة التي تتضافر جميعها من أجل تشكيل هيكل الثقافة العامة لكل شعب من الشعوب.

وما يمكن أن يتّفق عليه كل قوم، أو كل شعب، هو أن حضارته الخاصّة لم تنشأ ولم تُبن على فراغ. فحضارةُ أيّ بلدٍ من بلدان اليوم تعتمد في نشوئها وقوّتها على حضارات الأمس.

وحضارة أيّ شعب من الشعوب في المستقبل سوف تكون، بلا ريب، مرتكزة في ارتقائها وتطوّرها المتلاحق على أصحاب حضارات اليوم الحاضر.

نعم، لكل شعب بصماته الخاصّة في العادات والتقاليد، ولكل قوم أيضاً هويته المُميّزة في ما يتعلّق بالأمور التراثية الخاصة، ولكنّ الشيء الذي لا يدخل في باب الاستئثار والمُلكيّة الخاصّة هو تاريخ العلم وتاريخ الفكر.

فالعلم، شأنه شأن أيّ رافدٍ من روافد الفكر، هو ملك للإنسان عموماً،

بغضّ النظر عن لونه وجنسه أو جنسيته أو دينه، فَمَا قاله (أرسطو) أو(أفلاطون) ليس ملكاً خاصّاً للإغريق القدماء أو لورثتهم من اليونانيّين المعاصرين. وما قاله (ابن سينا) أو(حافظ الشيرازي) ليس ملكاً وليس حكراً للشعب الفارسي، وليس وقفاً للشعب الإسلامي دون غيره من الشعوب أو أبناء الديانات الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة للعالم الفرنسي المسيحيّ (باسكال) وللعالم الإيطالي (جاليليو)، وحتى بالنسبة للعالم والفيلسوف الألماني اليهودي (ألبرت إينشتاين).

فما قاله هؤلاء العلماءُ وغيرُهم من الفلاسفة والمفكّرين هو ملك لنا، هو ملك للعالَم بأسره وذلك لأن العلوم والمعارف هي القوة الفكرية القادرة على تحطيم الحواجز ونسف الحدود وإزالة الفواصل بين أبناء آدم وأخوة الإنسانية الواحدة المكلّفة شرعاً وعقلاً بإعمار هذا الكون بالمحبّة والعلم والعمل.

ومن يعيد قراءة تاريخ الفكر الإنساني بروحٍ موضوعية وبعقل حياديٍّ بعيدٍ عن ضروب الهوى والميول التعصُّبيّة والنوازع التحزُّبيّة، سيدرك أنّ هذا التاريخ مرتبط في تقدُّمه وتطوّره بأوثق الصّلات والعُرى من تاريخ حضارات الإنسان المختلفة عبر مئات العقود وآلاف السنين، وليصبح بعد ذلك ميراثاً إنسانياً شاملاً وتراثاً فكرياً مشتركاً للإنسانيّة بأكملها في شتّى أصقاع الأرض.

ربما هذا الكلام لا يروق للبعض من أولئك الذين ينظرون إلى الأمور بعينٍ واحدةٍ ومن زاويةٍ واحدة وهي زاوية (الأنا المتضخّمة). فربّما نقرأ اليوم في بعض مؤلفات المفكّرين الغربيّين - أقولُ: البعض منهم وليس كلّهم- أنّ الحضارة الغربية المعاصرة هي الوريثة الشرعيّة الوحيدة للتراث اليوناني القديم، وأنّ

غيرهم من بقيّة الأقوام والشعوب هم عبارة عن جماعة من الأقوام التي كانت ولا تزال عالةً على البشرية إذ لا همّ ولا قدرة لها إلا على استهلاك ما تُنتجه المجتمعات المتمدّنة الراقية.

وذهب أولئك النّفرُ من أصحاب تلك النظرة الأحاديّة البعد إلى أنّ الدّين نفسه مقياس للحضارة أو للتخلّف سواء كان الخلل أو العيب ناشئاً عن سوء الفَهم أو سوء التطبيق العمليّ للأفكار والمبادئ النظريّة التي يشتمل عليها ذلك الدين. فالعقيدة الإسلامية، بالنسبة لذاك الصنف من المفكّرين هي عقيدة انحلال وتخلُّفٍ وعجزٍ عن السير قُدُماً إلى الأمام، ويكفي أن نذكر هنا أنّ المفكّر والباحث الأنثروبولوجي المعاصر (كلود ليفي شتراوس) هو واحدٌ من أوائل الذاهبين هذا المذهب في العصر الحديث، وهو يعيد ويكرّرُ بشكلٍ حرفيٍّ ما قاله الفيلسوف الألماني (شليغل) F.schlegel إذ إنه قال عن الإسلام:

«الإسلام لم يخلق حضارة، وقد حوّل الإنسانيّة إلى انحطاط، وتميّز بحماسة تدميريّة ضدّ الأديان التي سبقته»[1].

ولا أريد أن أستعرض هنا ما قاله كلٌّ أولئك المفكرين والباحثين، أصحاب الأنا المتضخّمة، الذين يرون في (الآخر) صورة الجحيم والعدم. فقضيّةُ الاعتراف بـ(الآخر)، بالنسبة إليهم، تعني فقدان الذّات وضياع الهويّة، ولذلك يرون أنّ أفضل وسيلة لحفظ الذات ولصون الهويّة هي القيام بعملية تهميش (الآخر) وإلغائه، أو على الأقل الانتقاص منه ومن إنجازاته وإيجابيّاته.

---

(١) د. سمير سليمان: الإسلام والغرب.. إشكالية التعايش والصراع، دار الحق - بيروت، ١٩٨٨، ص٥٠.

وبما أن هذا ليس هو مضمون كتابنا وجوهره من جهة، وبما أنّنا أيضاً قد ناقشنا هذا الموضوع الحسّاس والهام في كتابنا السابق (الإسلام والغرب: حوار الحروف وصدام السيوف) بشكلٍ مُوسّعٍ ومُفصّلٍ من جهة أخرى، لذا نرى أنه من الأفضل لنا أن نعود لصلب موضوعنا بعد التأكيد ثانية على أن تاريخ الفكر عموماً هو ملك للجميع لأنه من صُنع الجميع.

وإذا كانت هناك قلّةٌ من المفكّرين المتعصّبين الذين لم يستطيعوا أن يُخرجوا رؤوسهم خارج قواقعهم خوفاً من ضوء الشمس، ولم يريدوا أصلاً أن يفتحوا أبواب بصائرهم لأنوار العقل والفكر، فهناك الكثير والكثير من مواطنيهم وإخوانهم في عالم الدراسة والبحث والتنقيب عن الحقائق قد ثاروا على أصحاب تلك النظرة الضيّقة والرؤية المتعصّبة، وراحوا تبعاً لذلك يدوّنون في مؤلفاتهم ودراساتهم جملة الحقائق التي توصّلوا إليها وإلى اكتشافها في إنجازات وحضارات غيرهم من الأمم والشعوب على مختلف ألوانهم وأعراقهم وأديانهم.

ولا بأس في أن نذكر بعضاً من أقوال أولئك الباحثين والمفكرين الذين يرون في العقيدة الإسلامية معبّراً واسعاً وجسراً قويّاً إلى التقدم والحضارة والرُّقيّ، بل ويرون في تعاليمها ومبادئها الرساليّة السامية حافزاً قوياً ودافعاً أصيلاً للتحصيل العلمي والمعرفيّ باعتباره فرضاً مفروضاً على كل مسلمٍ ومسلمة.

فالمفكّر الكبير والعالم الأمريكي الشهير (س.هوكنج)، صاحب المؤلفات العلميّة الذائعة الصّيت، والأستاذ المُحاضر في جامعة هارفارد، يرى أن النظام العقائدي في الإسلام قادر على إنتاج وتخليق قوانين ودساتير متوافقة ومنسجمة

مع احتياجات الإنسان ومع مقتضيات الحياة العصرية الجديدة. فالعقيدة الإسلامية، أو المنظومة الفكرية الإسلامية تملك بحدّ ذاتها القابليّة والاستعداد الكاملين لكلّ تكامُلٍ ورُقيٍّ في حركة الحياة[1].

فالحركةُ العامة التي أحدثها الإسلام في تاريخ البشرية سواء على المستوى الاجتماعي أم الروحي أم العلمي كانت من القوّة والأثر بحيث إنها خلقت المعجزات والمآثر الخالدة فوق بحارٍ من الرمال وبين قبائلٍ من العرب الذين كانوا غارقين في حياةٍ جاهلية مليئة بالخرافات وبالتناقضات الاجتماعية وغارقةٍ في نهرٍ من دماء الاقتتالات القبليّة. لقد جعلت تلك الرسالةُ السماويةُ أكثر الأمم تخلُّفاً وتأخُّراً من أكثرهم تقدُّماً وتطوراً في مدّةٍ قياسيّةٍ قصيرة، واستطاعت أن تنقلهم أيضاً من شعب تتحكّم في حركته ونشاطاته منظومةٌ من المعتقدات المُشوّهة والخرافات السائدة والعلاقات الاجتماعية المشوّشة إلى شعبٍ يبحث بشكلٍ جديٍّ عن بذور الحضارة ليرويها بماء العلم والمعرفة والإيمان. لقد حوّلته، لاحقاً، إلى شعبٍ قادرٍ على أن يقوم بعملية تأسيسٍ لحضارةٍ عظيمة تستطيع أن تقود العالم وراءها وهي حاملة مصباح الحضارة المليء بزيت زيتونةٍ مباركةٍ تضيء بزيت مصباحها ظلمات الشرق والغرب.

ولا يستطيع أحد من المفكّرين أن يتّهم المفكّر والمستشرق (غوستاف لوبون) (١٨٤١-١٩٣١) بالغلوّ والتطرُّف في الرأي عندما يكتب عن فضل المسلمين في حمل راية العلم والمعرفة فوق هامات المجتمع الإنساني عموماً، فهو حقّاً لم

---

(١) السيد مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، ترجمة: محمد هادي اليوسفي، دار الأمير - بيروت، طبع عام ١٩٩٢، ص١٣١.

يُبالغ عندما كتب قائلاً:

«إنّ خدمة المسلمين لم تكن أن تقدّموا بالعلم من خلال التحقيق والتنقيب والدراسة والاكتشاف وأنهم نفخوا فيه بروحٍ حديثةٍ جديدة، بل إنهم بتأسيسهم للمدارس وتأليفهم وتصنيفهم وكتابتهم للكتب أشاعوها ونشروها في العالم، ومنه عالم العلوم والفنون والمعارف في أوروبا، والإحسان الذي أسدوه إليه من خلال ذلك لا يمكن أن يُحدّ بحدّ»[١].

ولم يختلف رأي المستشرق وعالم الاجتماع الفرنسي (غوستاف لوبون) في الغرب عن رأي المفكّر والمؤرخ اللبناني (جرجي زيدان) في الشرق، حيث يعرف الجميع أن جرجي زيدان واحد من أولئك المسيحيّين الذين كتبوا عن تاريخ العرب والإسلام حتى أنه أصدر سلسلته الروائية الشهيرة المُسمّاة بسلسلة (روايات تاريخ الإسلام)، وقد أشرت إليها في فصلٍ سابقٍ من هذا الكتاب.

وعلى كل حال، فقد أبدى الأستاذ المؤرّخ (زيدان) رأيه بصراحةٍ تامة عن الدور الرياديّ الذي لعبه المسلمون في عملية تجذير البحث العلمي في المجتمع الإسلامي ومن ثمّ السعي لنقل وتفعيل مكتشفاتهم وصناعاتهم في الأراضي الجديدة التي وصلوا إليها. ويرى أيضاً أن علماء أوروبا في نهضتهم العلميّة المعاصرة قد أدركوا أنّ للمسلمين دوراً علميّاً كبيراً في العديد من المجالات التصنيعيّة العلميّة[٢].

وهنا تحديداً، وقبل أن ندخل في صلب موضوعنا، لا يمكننا أن نتجاهل

(١) نفس المصدر السابق: ص١٥٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٦٣.

الكتاب المثير (الإسلام والمسيحيّة) للباحث الروسي المعاصر (أليكسي جورافسكي)، الباحث في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسيّة.

وباختصارٍ شديد، لقد حاول (جورافسكي) جاهداً أن يكون جديّاً ومنطقيّاً في تصوير العلاقة المباشرة بين المسيحيّة والإسلام والأثر المتبادل بين كلٍّ من أتباع هاتين الديانتين السماويّتين على كافة المستويات وفي كل المجالات والميادين.

وأول ما يقوله الباحث (جورافسكي) في افتتاحيّة كتابه المذكور هو تأكيده الواضح على أن العالم كلّه اليوم يعي بوضوح شديد ذلك الدور الفعّال الذي لعبه المسلمون (شعوب الشرق الأدنى) ثقافياً وروحياً في نشوء وتطوُّر الحضارة الأوروبيّة حيث كانت تلك البقعة الجغرافيّة بالنسبة لأوروبا النبع أو المصدر الذي استمدّت منه الكثير من العناصر العلميّة، والفكريّة التي لم تكن في متناولها من قبل، وقد تجلّى الأثر الأكبر للحضارة العلمية والثقافية الإسلامية على أوروبا في القرون الوسطى حيث شمل ذلك الأثر الإسلامي شتّى الميادين والمجالات حتى أنه شمل مستويات الحياة الأوروبية بأكملها[1].

وقد دعم (جورافسكي) آراءه تجاه الروح العلمية في الإسلام بشواهد كثيرة من أقوال ومؤلفات المفكّرين المسيحيّين ومن أبحاث ودراسات المستشرقين الذين ابتعدوا عن روح العصبيّة والطائفية، وقاموا بدراسة العقيدة الإسلامية وحضارتها بكلّ عمقٍ وصبرٍ وبروح التجرُّد والنّزاهة.

وعلى كل حال، عندما يقرأ أحدٌ ما القرآن الكريم، سواء كان القارئ

---

(١) أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، عالم المعرفة، العدد ٢١٥، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، الكويت، تشرين الثاني ١٩٩٦، ص٣٣.

مسلماً أم غير مسلم، سيلاحظ بشكل مباشر أن الدعوة الإلهية للتحصيل العلمي هي دعوة سماويّة صريحة لأهل الأرض جميعاً ذكراناً وإناثاً، بل سيدرك أيضاً أن المنطق القرآني يؤكد أن الإنسان كلّما ازداد في علومه ومعارفه سيزداد إيمانه بالله وذلك لأن إدراك قوانين وحقائق المخلوقات سيقود، بلا ريب، إلى الإقرار بوحدانيّة الخالق وعظمته.

فعندما يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [1]، هذا يعني أنّ هناك ارتباطاً قوياً بين العلم والعبادة. وبعبارةٍ أخرى، بين المعرفة والتوحيد لأن العلم هو معراج العقل إلى اليقين.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة القرآنية الثابتة يرى الإمام علي عليه السلام أن العلاقة بين ارتقاء العقل وارتقاء الروح هي أسمى علاقة وأقصر طريق للوصول إلى الحقّ، وإنّ ذلك لن يحدث ما لم يقترن العلم والمعرفة بالإيمان وبالعمل.

وغنيٌّ عن القول، كما ذكرنا سابقاً أن العلم المقصود به هنا ليس هو علم الدين والشريعة فقط، وإنّما هو العلم العام، أي علوم الدين والدنيا، من فقه وتاريخ وكيمياء وطبّ وهندسة واقتصاد وعلوم عسكريّة وعلوم لغويّة وفلكيّة كونيّة، وإلى غير ما هنالك من بقيّة ميادين المعارف والعلوم.

ولا ريب في أنّ المفكّرين والأدباء المسيحيّين الذين خاضوا غمار البحث في علوم الإمام علي عليه السلام وقاموا بدراسة وتحليل أحاديثه العميقة التي تحضُّ على طلب العلم والتي تدلُّ في البعض منها على أن الإمام عليه السلام كان يملك كمّاً هائلاً

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

من العلوم الطبيعيّة التي لم يَصبْ لها حَمَلةً في ذلك الوقت.

بل لو أن الإمام عليه السلام قد صرّح وكشف اللّثام عن تلك العلوم، ولم يكتف بالتلميح، فماذا يمكن أن يكون ردُّ فعل المسلمين وقتها؟

وهل يمكننا أن نتخيّل ردود أفعالهم لو أنّه عليه السلام صرّح لهم بأن الأرض عبارة عن كوكبٍ كُرويّ يسبح في الفضاء وليس عبارة عن كوكب منبسط وساكن؟!

وكيف يمكننا أن نتخيّل ردود الأفعال لو أن الإمام علياً عليه السلام قد حدّث أهل ذلك الزمان عن قوّة الجاذبية الأرضية أو عن الطاقة الكهربائية التي يمكن استخراجها من الماء، من تلك المادة الرقيقة الشفّافة التي تُطفأ النيران بها، حيث لا يمكن لأحدٍ أن يصدّق وقتذاك أنها هي المادّة التي يمكن أن تتولّد منها الأنوار والنيران؟؟!!

ثمّ ما بالك لو أنه عليه السلام حدّثهم عن استخراج النفط من تحت رمالهم الحارقة وصحاريهم الشاسعة، وماذا لو حدّثهم عن خصائص وفوائد تلك المادّة التي ستبقى كنزاً مخفيّاً عنهم إلى أن يكتشفها أحفادُهم ليستفيدوا منها بعد مئات السنين؟؟!!

فهل تراهم كانوا سيفهمون عليه ما يقوله وسينظرون إليه كعارفٍ وكعالمٍ سابقٍ لعصره وزمانه أم أنهم كانوا سينظرون (إليه نَظْرَتهم إلى) رجلٍ غامضٍ يهرفُ بما لا يعرف؟؟!!

ففي كل الأحوال، كان الإمام علي عليه السلام ظاهرة استثنائية في تجاوزها حدود الزمان وفي اختراق حدود العقل البشريّ الجبّار.

فهناك من المفكّرين المسيحيين، كما سنرى قريباً، من رأى في الإمام عليعليه السلام صورة عالم نفسٍ وطبيب روحٍ، ومنهم من رأى فيه صورة عالم فيزياء قادرٍ على إدراك الكثير من النظريات التي تتعلّق بطبيعة المواد وبحركتها وبكل ما له علاقة بطبيعة ومضمون ذلك العلم. ويرى البعض الآخر منهم أن الإمام عليه السلام كان عالماً بارعاً في علوم الرياضيات والحساب، بالإضافة إلى أنّهم كانوا يرون فيه عالماً في الكيمياء وفي خصائص المعادن والأملاح وأخلاطها، حتى أنهعليه السلام قد ورّث هذا العلم الدقيق إلى أبنائه وأحفاده الأئمة الكرامعليهم السلام، وما العلم الذي أفضى به الإمام جعفر الصادقعليه السلام إلى عالم الكيمياء الشهير (جابر بن حيّان) إلا بعض العلوم التي ورثها الإمام الصادقعليه السلام عن جدّه أمير المؤمنينعليه السلام. ولم يُخفِ البعضُ رأيهم الصريح في اعتبار أمير المؤمنينعليه السلام أوّل من تكلّم عن ريادة الفضاء وعن إمكانيّة الحصول على الطاقة الكهربائية من الماء، وعن أشياء علميّة كثيرة أخرى سنذكرها في مكانها المناسب في هذا الفصل.

ولو أمسكنا الآن مفتاح بوابة العبور إلى علوم الإمام عليعليه السلام في الطبيعيات وفي العلوم الإنسانية، وفتحنا تلك البوّابة ودخلناها بخطى ثابتة، فماذا يمكننا أن نرى في تلك الحديقة الخضراء وراء تلك البوابة التي سندخلها بمفتاح العقل القويم والمنطق السليم؟!!

يرى أكثر المفكّرين والباحثين المسيحيين أن الإمام عليعليه السلام كان قبل كل شيء عالم نفسٍ حقيقياً، فهو عليمٌ بخفايا النفس البشرية وبصيرٌ بخفاياها ومكنوناتها، وأنّ أقواله وطبيعة تعامله مع الناس تُثبتُ «أنه كان بصيراً بالأمور

وأبعادها، نافذ الفكر حتى الأعماق عالماً بنفسيّة البشر وبما طبعوا عليه، ذا عقلٍ مُلمٍّ بالشؤون الخاصّة والعامّة، باطنها وظاهرها»[١].

ولم يقصد أولئك المفكّرون المسيحيّون بشكلٍ عام، والأستاذ (نصري سلهب) بشكلٍ خاص، أنّ الإمام علياًعليه السلام كان عالماً نفسيّاً بطبائع البشر وأمزجتهم فحسب، بل يرون أن الإمام عليعليه السلام كان يعرف تمام المعرفة كيف تفكّرُ كلُّ شريحةٍ من شرائح المجتمع وكل فئة من فئاته الاجتماعية أو السياسية أو إلى غير ذلك من بقيّة الفئات والشرائح والتصنيفات التي يقوم عليها المجتمع.

ولم يكتف الأستاذ المسيحيّ (نصري سلهب) بذلك، بل اعتبر أنّ الإمام علياًعليه السلام هو عالم نفسٍ خبير حتى بنفوس أهل الحلّ والعقد كالقادة والأمراء وكيفيّة رؤيتهم وتقييمهم للأمور مثلما هو أيضاً عالم بطبيعة نفوس الرعية وكيف يفكّرون وكيف ينظرون إلى من هم فوقهم من الولاة والحُكّام.

ولذلك، فإن المفكّر الأستاذ نصري سلهب يقول من خلال قراءته لخطب وأقوال الإمام عليعليه السلام في كتاب نهج البلاغة: إنّ تلك الخطب البليغة والكتب الموجّهة من قبل الإمامعليه السلام إلى عمّاله ووُلاته في البلدان والأمصار تصلح أن تكون دستوراً نموذجياً لكيفية إدارة الحكومات، كما وأنها تصلح أن تكون أيضاً نماذج الوصايا الأخلاقية التي يجب أن يقتدي بها الحُكّامُ - حكّامُ الأمس واليوم والغد- ويرجعوا إليها ليتبيّنوا فيها المبادئ العامة والخطوط الكبرى في رسم سياسات الدول وإدارة شؤونها وشؤون المواطنين فيها.

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٤٤.

وإذا سألنا الأستاذ نصري سلهب قائلين له:

لماذا تعتبر، من خلال قراءتك لخطب الإمام علي عليه السلام ورسائله إلى وُلاته وعمّاله، أنّه كان رجلاً سياسيّاً ذا مبدأ إنساني ثابت وواضح، وأنه قد استطاع وضع المبادئ العامة والخطوط العريضة لأُسسِ العلاقات السليمة بين الحكومات وشعوبها بحيث تصلح أن تكون قانوناً سياسياً واجتماعياً فعّالاً في كل زمان ومكان؟؟!!

فلو سألناه هذا السؤال، فإنه سيجيبنا على سؤالنا المطروح بقوله:

«إنّ هذه المبادئ والخطوط تصلح لكل زمان ومكان لكونها مرتبطة بالخلق البشري وبنفسيّة البشر، بآمالهم وأطماحهم، ومشاكلهم الحياتيّة، كما هي مرتبطة أيضاً بمشاكل الدول المصيريّة»[1].

وهذا يعني بكل بساطة أن الإمام علي عليه السلام كان عالماً نفسيّاً بالطبيعة البشريّة على المستويين الفردي والجمعي، ولذلك كان عليه السلام يعمل جاهداً وعامداً على جعل حكومته وسياسته التي تدير وتوجّه تلك الحكومة عبارة عن سياسةٍ مبدئيّةٍ إنسانيّةٍ قائمةٍ على أساس أنّها سياسة (المبدأ) وليست سياسة (اللعبة) التي لا تخضع لأيّ قانون أو مبدأ. فحتى تكون سياسيّاً بارعاً وحاكماً ناجحاً مع رعيّتك عليك أن تكون أوّلاً، بنظر رعيّتك، أباً رؤوفاً ومُعلّماً حليماً تمتلك القدرة الكافية لمعرفة ما يتطلبه أبناؤك وما يحتاجون إليه، وعليك أن تعرف ما هي همومهم وآلامهم وأسباب كل ذلك، وعليك أن تعرف بنفس الوقت أيضاً

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٤٥.

طموحاتهم وآمالهم الجماعيّة والسبيل إلى تحقيق ذلك، وعند ذلك فإنك ستتحولُ من رجل سياسةٍ عاديّ أو من مجردّ حاكم متميزٍ عن بقية أفراد الشعب باعتلائك كرسيّ الحكم تحكم فيهم بما تشاء مستمداً شرعيّة ما تقوم به من خلال كرسيّ الحكم وما يُخوّلُك ذلك الكرسيُّ القيام به، إلى حاكم حليم وحكيم، وستتحولُ أيضاً إلى أبٍ رؤوفٍ وطبيبٍ حكيمٍ تسوسُ رعيتك بحكمةٍ واتّزانٍ وتُشرِّفُ كُرسيَّ الحكم لا أن تستمدَّ شرفَك ورفعتَك من ذلك الكرسي.

وإذا كان الأستاذ (سلهب) يربط هنا في حديثه عن علوم علي عليه السلام بين علم السياسة وعلم النفس والمعرفة بالطبائع البشريّة، إلا أنه في مكانٍ آخر يتحدّثُ عن الإمام علي عليه السلام ليس كعالم نفسٍ أو كطبيبٍ نفسيٍّ وإنما يتحدّثُ عنه كطبيبٍ حقيقيٍّ للأبدان أيضاً. وقد أبدى الأستاذ (سلهب) استغرابه الشديد من إلمام الإمام علي عليه السلام بعلومٍ طبيّةٍ كثيرة تتعلّق بصحّة وسلامة الإنسان. وقد ازداد استغرابه أكثر عندما أدرك أن الإمام علياً عليه السلام قد أظهر بالفعل الكثيرَ من النصائح والمعطيات العلميّة التي تدخل في نطاق الطب والأغذية الدوائية والوقائية منذ ما يزيد عن ألف وأربعمئة عام. وقد كتب الأستاذ سلهب في ذلك قائلاً:

«وقد يَعجبُ الواحدُ منّا، اليوم في القرن العشرين، لإلمام علي بأمورٍ تدخل في نطاق الطب، أو هي، على الأقلّ، من معطيات علم النبات والأثمار وفوائدها الصحية»[1].

ولا ريب في أنّ هذا الكلام من المفكّر المسيحيّ الأستاذ (سلهب) لم يأت من

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٥١.

فراغ ولم ينطلق فيه من منطلقٍ عاطفيّ بعيدٍ عن منطق العقل، وإنّما جاء هذا الكلام من ذاك المفكّر المسيحيّ مبنيّاً على دراسةٍ شاملة لشخصية الإمام علي عليه السلام من كافة جوانبها وميادين الإبداع فيها.

ونحن إذ نُقلّبُ صفحات الكثير من الكتب التراثية والعلمية التي تتمحور حول العلوم الطبيّة في التاريخ الإسلامي، فإننا سنلاحظ أن الكثير منها يذخر بالكثير من الوصايا الطبيّة والصحيّة للإمام علي عليه السلام. واللافت للنظر في تلك الوصايا والنصائح الطبيّة هو أنّ تلك الوصايا والنصائح والإرشادات قد جاءت متطابقة مع أحدث المكتشفات الطبيّة في العصر الحديث.

وها نحن نُوردُ هنا بعض الوصايا الطبيّة الواردة عن الإمام علي عليه السلام والتي تتّفق في صحّتها مع أحدث ما توصّلت إليه الدراسات الطبيّة:

- كُلوا التفاح فإنه نضوج المعدة[١]. أي إنه يطيّبها وينظّفها.

- عليكم بأكل التين، فإنه نافع للقولنج[٢].

- أكل الجوز في شدّة الحرّ يُهيّجُ الحرَّ في الجوف، ويهيّج القروح على الجسد، وأكلُهُ في الشتاء يسخّن الكليتين، ويدفع البرد[٣].

- ادّهنوا بالزيت (زيت الزيتون) وائتدموا به، فإنه دهنة الأخيار، وإدام المُصطفَين، مُسحتْ بالقدس مرّتين (أيّ إن الزيتونة وُصِفت بالقداسة والبركة

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢٥ ص١٦٠ الحديث ٣.

(٢) ابنا بسطام النيسابوريان: طبّ الأئمة، دار المحجة البيضاء - بيروت، ص١٣٧.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٥ ص١٢٢ ب٦٥ حديث ١.

مرّتين في القرآن الحكيم) في (سورة التين: الآية ١) وفي (سورة النور: الآية ٣٥)، بُوركت مقبلةً ومُدبرة (أي ربما بمعنى رطبة وجافة)، لا يضرٌّ معها داء[١].

- ابدأوا بالملح في أول طعامكم، فلو يعلم الناس ما في الملح لاختاروه على الترياق المجرَّب[٢].

- ألبان البقر دواء[٣].

- لحوم البقر داء[٤].

هذه باقة صغيرة جداً من الوصفات الطبيّة الكثيرة التي وردت عن أمير المؤمنين علي عليه السلام والتي جعلت منه، بنظر العديد من الباحثين المسلمين والمسيحيّين، طبيباً بارعاً وعالماً حاذقاً في معرفة احتياجات الجسد ومتطلّباته.

ولا ريب أيضاً في أن أولئك الباحثين لم يتوقفوا في بحوثهم عند جانب واحدٍ من الجوانب الطبيّة التي تحدّث عنها الإمام عليه السلام واستفاض بها، بل إنهم وسّعوا دوائر بحوثهم ودراساتهم لتشمل كل حديث من أحاديثه التي تنطوي على حكمةٍ طبيّةٍ أو نصيحة صحيّةٍ عامة.

ولا بأس في ذكر البعض من تلك الحكم الصحيّة التي وردت عن الإمام علي عليه السلام. وعلى الذي يريد الوقوف على تلك الحكم العودة إلى المصدر الذي أخذنا منه هذه الحكم بصورتها الشموليّة العامّة:

---

(١) محسن عقيل: طب الإمام علي عليه السلام، دار المحجة البيضاء - بيروت، ١٩٩٦، ص٣٢٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣١٢.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٥ ص١١٣ الحديث ٣.

(٤) نفس المصدر السابق: ج٢٥ ص٤٢ الحديث ٨.

- إيّاك والبطنة، فمن لزمها كثرت أسقامه، وفسدت أحلامه.

- البطنة تمنع الفطنة.

- إذا أراد اللهُ سبحانه صلاح عبده، ألهمهُ قلّة الكلام، وقلّة الطعام، وقلّة المنام.

- لا تُنال الصحّة إلا بالحمية.

- توقّوا البرد في أوّله وتلقّوه في آخره. فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار، أوّلُه يحرق، وآخره يُورق»[1].

ولو أن المجال يتّسع لنا هنا لأجرينا مقارنة مفصّلة بين تلك الوصايا العلويّة المتعلّقة بعلم الطبابة وبالصحّة العامة وبين أحدث الوصايا والإرشادات الطبيّة لأشهر العلماء والأطباء العالميّين في العصر الحديث، ولكن لضيق المجال من جهة ولأن موضوع كتابنا وجوهره لا يسمحان لنا بالخروج الكلّيّ والمفصّل عن منهاجنا المرسوم من جهةٍ أخرى، فإننا نترك للقارئ أمر المقارنة والعودة إلى أحدث القواميس والمراجع الطبيّة أملاً في أن يدرك مدى وعمق التشابه بين الرؤيتين العلميّتين على الرغم من المسافة الزمنية الكبيرة التي تفصل بينهما.

ومن هنا نؤكد ثانية على أن الذي يريد أن يفهم حقيقة الإسلام من خلال سيرة وشخصية الإمام علي عليه السلام، سيلاحظ أنّ حقيقة الرسالة الإسلامية قائمة على سياسية التوازن بين متطلّبات الدنيا ومستلزمات الدين والآخرة، إذ ليس في

(١) محسن عقيل: طب الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق، وهذه الأحاديث التي ذكرناها موجودة في صفحات متفرقة من الكتاب.

الإسلام ثنائية تفصل بينهما، فكما أن الإسلام يطلب من الإنسان أن يُقيم نوعاً من التوازن والتكامل بين ما يحتاجه الجسد وما تطلبه الروح، فكذلك الحال بالنسبة للتوازن في التحصيل العلمي لما يتعلّق بأمور الدين وشؤون الدنيا. ولذلك، فلا مجال للصراع بين العلم الديني والعلم الدنيوي، بل الحقيقة في الإسلام هي عكس ذلك تماماً. فالقرآن الحكيم يعلن للجميع بشكلٍ واضحٍ ومباشر حقيقة أنه ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...﴾[1]. والنبيُّ الكريم ﷺ بدوره يعلن قائلاً:

«- تعلمّوا العلم وعلّموه الناس.

- اطلبوا العلم ولو بالصين، فإنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم.

- إذا أتى عليّ يومٌ لا أزداد فيه علماً يُقرّبني إلى الله تعالى، فلا بورك لي في طُلُوع شمس ذلك اليوم»[2].

ألا يعني هذا أنّ الإسلام الذي مثّله الإمام علي عليه السلام خير تمثيل من خلال سيرته العطرة ومن خلال تكامل شخصيته الفريدة المباركة أنّه عقيدة دين ودنيا، علم وعمل، روح وجسد؟!!

ألا يعني هذا أن العقيدة الإسلامية التي تنادي بالحركة والتقدّم للأمام في تحصيل العلوم والمعارف وفي فهم مفردات الحضارة، إنّما هي عقيدة الحضارة

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٢) محمد رضا الأنصاري: مختارات من الأحاديث النبوية، معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية - طهران، ١٩٨٦، ص١٤.

ذاتها؟!!

ألم يكن المستشرق (كارل بيكر) BEEKER (١٨٧٦-١٩٣٣) مُحقاً عندما قال: إنّ الإسلام اليوم له قدرة واضحة للتكيُّف مع الحداثة والمعاصرة شريطة أن يتم تحديث الإسلام عن طريق تخليه عن بعض الشوائب الفكرية الدخيلة عليه، وعن بعض الأطروحات الخاطئة التي لحقت به في القرون الوسطى واستبدال ذلك بمقولاتٍ وأطروحات أكثر عصريّة وحداثة[1].

لا شك في أن هذا الكلام صحيح، فالإسلام في جوهره دينُ حضارةٍ وشريعةُ عقلٍ، ولذلك بقدر ما نكون قريبين، فكريّاً وروحيّاً، من ينبوع الإسلام الصافي، بقدر ما نكون بعيدين عن الشوائب والأطروحات السلبيّة التي يمكن أن تعلق به وتُسيء إلى صورته الحضارية الأصيلة.

ولأن الإمام علي عليه السلام هو الوجه الحقيقي المشرق للإسلام الحضاري القادر على مواكبة مسيرة الحياة بكلّ مُستجدّاتها وتطوّراتها، فلا يمكن لأيّ باحثٍ مسيحيّ وغير مسيحيّ إلا أن يرى فيه الينبوع الصافي للتعاليم الإنسانيّة والمبادئ الإسلامية التي تنادي دائماً برفد الحياة بالقوى الروحية والفكرية وبالقوى العلمية حتى لا ينضب نهرُ الحياة من تلك المضامين الأساسية:

ومن هنا يرى السكرتير العام لكتلة نُوّاب الوسط في مجلس الشيوخ الفرنسي ومدرّس مادة (الإستراتيجيا) في جامعة السوربون الأستاذ (فرانسوا توال) أنّ الإسلام بمفاهيمه الروحيّة والعقائدية، بما في ذلك التوصيات العلمية التي يدعو

(١) أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، مصدر سابق، ص١٢٣.

إليها، لن يُفهم على حقيقته من قبل الغرب ما لم يقرأ الغربُ الإسلام الحقيقي وينهل من نبعه الأساسي المتمثّل بفكر أهل بيت النبوّة، ذلك الفكر المعروف في الغرب باسم الفكر الشيعي أو المذهب الشيعي. وعلاوة على ذلك، يرى السيد (توال) أيضاً أنّ ديناميكية الإسلام وقوّته الحركيّة في مواكبة الحياة والتفاعل مع التيّارات الروحية لأبنائها تكمن بالدرجة الأولى في التيار (الفكري- الروحي) الذي يمثّله، بالطبع، الإمام علي عليه السلام. ولذلك، فإنّ الأستاذ (توال) يؤكد على تلك الحقيقة قائلاً: «سيبقى هذا العالم الإسلامي غير مفهوم منّا سواء كان بشكله السياسي أو بشكله الجيوبوليتيكي أو بشكل حوار الأديان إذا كُنّا لا نعرف التشيُّع»[1]. فالتشيُّع هو البوّابة الرحبة للحوار السلمي بين الأديان والحضارات.

وهذه الفكرة التي تبنّاها المفكر والسياسي (فرانسوا توال) حول المجد الفكريّ والروحيّ والعلميّ لمدرسة أهل البيت هي نفس الفكرة التي أكّد عليها مراراً وتكراراً أستاذُهُ المستشرق (هنري كوربان) الذي كان يرى بدوره أن الدراسة العميقة والواعية للإسلام الذي جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وآله لا بدّ أن تقود القارئ الناضج فكريّاً إلى إدراك الكثير من الأبعاد الروحية والتعاليم الإنسانية القادرة على توسيع الأفق الفكري والوعي الحضاري عند الإنسان. ولن يجد القارئ اليوم ذلك الصفاء الفكري والنهج الحضاري المواكب لتفاعلات الحياة ومتغيّراتها إلا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، تلك المدرسة التي تضُمُّ في

(١) راجي أنور هيفا: رحلة المستشرق كوربان مع المذهب الشيعي، مجلة النبأ، العدد ٦٢، بيروت، تشرين الثاني ٢٠٠١، ص١٦٧.

صفوفها أعظم مُعلّمين: الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام . إنها المدرسة النبويّة الجديرة بالبقاء في ساحة الحياة، وهي المدرسة التي يجب أن يكون الجميع تلاميذ في صفوفها وأن يسير كلٌّ إنسان على هديها ونهجها، فكان - نتيجة لذلك- أن أعلن المستشرق (كوريان) إسلامه وانتماءه لصفوف تلك المدرسة، وأظهر ولاءه الصادق لأهل البيت عليهم السلام في عام (١٩٧٨)[1]. بعد أن أسهم إسهاماً جليلاً في نقل الصورة الحقيقة الناصعة لمذهب أهل البيت عليهم السلام إلى العالم الغربي عموماً.

وعلى الرغم من أنني قد وضعت مخطّطاً محكماً للكلام عن علوم الإمام علي عليه السلام في مجال الطبيعيات بحيث إنني قد خططت في هذا الفصل لذكر ما قاله المفكّر والأديب جورج جرداق عن تلك العلوم بحيث يكون هو المحطّة الأخيرة في هذا الفصل باعتباره - من وجهة نظري الخاصة- أكثر من كتب عن شخصية الإمام علي عليه السلام وغاص في أعماقها وسبر أغوارها فاستخرج من اللآلئ العلوية ما لم يستطع غيره أن يستخرجه، إلا أنني أجد نفسي هنا أقوم بخرقٍ بسيطٍ لهذا المخطط الموضوع مسبقاً حيث أجد نفسي منقاداً إلى نقطة مهمة أشار إليها الأستاذ (جرداق) وهي ذات صلة وثيقة بكلامنا عن علوم الإمام عليه السلام الطبيّة ووصاياه الصحيّة وأثر ذلك على من درس شخصيته وكتب عن غزارة علمه وقوّة بصيرته وعن عبقريته الخالدة التي جعلت أقلام المفكرين المسيحيّين يكتبون عنه باستمرارٍ بعد مُضيّ أكثر من أربعة عشر قرناً.

فمن المعروف أن كلمة طبيب كانت مترادفة منذ قديم الزمان مع كلمة

(١) نفس المصدر السابق: ص١٦٧.

حكيم، وربما لا يزال البعض في أيامنا هذه ينادون الطبيب باسم حكيم إيماناً منهم بأن الحكمة وعاء كبير يتّسع للطب ويحتويه، وبالتالي فإنّ الذي يداوي النفوس والقلوب ويضع الأمور في مواضعها لن يعجزه أن يداوي الأجساد المريضة ويزيل عنها الأوجاع والأسقام. وبهذا المعنى ومن خلال هذا الترابط بين اللفظتين اللتين تجتمعان عند الإنسان العادي بمعنى واحد، يصبح الطبيب حكيماً والحكيم طبيباً وإن تباينت واختلفت أمكنة ومواضع العلاج.

ولكنّ الإنسان المثقف اليوم لم يعد يقبل بوحدة المعنى الذي تحمله كلٌّ من المفردتين (طبيب) و(حكيم). فلكل لفظة معنى خاص بها وهدف يسعى صاحبها إليه، حتى أنّ البعض يرى أن كلمة حكيم هي لفظة قابلة للتجزيء في معانيها أيضاً مثلما أنّ كلمة طبيب قابلة للتجزيء والحصر أيضاً بحيث تدلُّ على اختصاصات طبيّة مختلفة.

ولذلك، ومنعاً للالتباس في المعاني، فقد تكلّم الأستاذ (جرداق) عن العلوم الطبيعية والكونية عند الإمام علي عليه السلام بشكل مسهب وبأسلوب جذّاب بديع. ولكنه عندما تكلّم عن معنى الحكمة ودلالاتها المتعددة، فقد أعطاها معنى شمولياً عاماً بحيث تدلُّ على النظرة الثاقبة وعلى العقل الكامل المحيط بكل شؤون الوجود بدءاً من النظرة الفلسفية والاجتماعية والعلمية الطبيعية (الفيزيائية) وانتهاءً بالقضايا الغيبيّة (الميتافيزيائية) وصولاً إلى أسمى شأن وقضية، ألا وهي قضية الألوهيّة والتوحيد.

ولذلك، فمكان الإمام علي عليه السلام من علوم الحكمة التي يقصدها الأستاذ (جرداق) هو السّنام الأعظم، ذلك المكان الذي لا يصل إليه إلا الرسل

والأنبياء. وقد أوجز الأستاذ (جرداق) ببلاغته الأدبية المعهودة طبيعة العلاقة بين علي، الإمام والوصيّ عليه السلام، وبين علم الحكمة بكل ما تحمل كلمة «حكمة» من معانٍ ومضامين، فقال: «والحكمةُ... إنّما هي من آثار الإمام عليّ. فإنّ له في ذلك ما يجعل له مركزاً جليلاً بين حكماء الأمم وأفذاذ التاريخ... وقد كان لهذه الحكمة العلوية أبلغ الأثر في توجيه الثقافة الإسلامية وفي طبعها بطابعٍ إنساني مصدره في الدرجة الأولى اثنان: محمد بن عبد الله وعلي بن أبي طالب»[1].

وسنكتفي هنا بذكر ما فرضته علينا الظروف من ذكر هذا القول للمفكّر (جرداق) عن الحكمة، ومن ثم سيكون لنا عودة إلى ما قاله الأستاذ (جرداق) عن بقية فروع العلوم والمعارف في المنظومة الفكرية للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا الآن، فسنحطّ رحالنا عند الأستاذ الأديب والمفكر (سليمان كتّاني) لنأخذ قسطاً من الراحة في واحة من واحاته الفكرية الكثيرة والدائمة الخضرة والحيويّة بفضل ذكرها الدائم لفضائل ومآثر أهل بيت النبوة عليهم السلام.

فواحتنا المطلوبة الآن هي كتاب (الإمام علي نبراس ومتراس)، ففي هذا الكتاب البديع يتحدث الأستاذ (كتاني) عن علوم الإمام علي عليه السلام من خلال الحديث عن عقله العظيم الذي استطاع أن يستوعب، بفضل استعداده وقابلياته وبفضل العناية الإلهية، ذلك الكمّ الهائل من العلوم والمعارف إضافة إلى بقية الخصال والصفات التي لم تجتمع كلها في أحد سواه.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص١٠٢.

وها هو الأستاذ (كتاني) يتحدث عن العقل المجرد، ذلك العقل الذي يمثّله فكر الإمام علي عليه السلام خير تمثيل من خلال إنجازاته الفكرية، فيصوّره صورةً أدبية رائعة قائلاً:

«هذا العقل المصفّى من تربة الجسد، كما تُصفّى الراحُ من خشب الدوالي، كما يصفّى العبير من خصل الرياحين.. هو الذي ينتهي فكراً، كما تنتهي الراح نشوة، كما ينتهي العبير شذا... من ذلك المعدن الطيب كفكفت شخصية الإمام مستكملة كل مقوّماتها، شخصية برز العقلُ فيها السيد المطلق، فإذا هي منه كما هي الدّيمة من الغمام، تستمطره فينهمر بها انسجاماً بانسجام»[1].

وهنا أهيب بالقارئ الكريم أن يعود فيقرأ مرةً ثانيةً ما كتبه الأستاذ الأديب (كتاني) عن عبقرية الإمام علي عليه السلام وعن عظمة عقله وصفاء بصيرته، ومن ثم يقرأ معنى ما سنورد من آراء للأديب الشاعر (خليل فرحات) عن ذلك العقل العلوي العبقري كي يرى مدى التطابق في وجهات النظر وفي الآراء بين هذين الأديبين المسيحيّين البارزين.

ولنستمع إليه الآن وهو يصف ما ينطوي عليه فكر علي عليه السلام وعبقريته، تلك العبقرية المشبعة بالإبهام الإلهيّ والتي لم تجعل منه إماماً في الشريعة والفقه واللغة فحسب، بل وإماماً عالماً استطاع أن يقرأ الكثير من الأفكار العلمية المستقبلية التي ستكتشفها الأجيال المتعاقبة من بعده حيث إنه عليه السلام قد صرّح أمام الملأ وفي أكثر من موضع أنه قادر على فعل أشياء عجيبة في الطبيعة، ولو أنه عليه السلام قد فعلها وقتذاك لكان قد اتّهمه القوم بتُهمٍ وافتراءاتٍ شتّى. ولذلك،

(١) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس، ص٣٢٧.

فقد اكتفى بإعطائهم الخطوط العريضة فقط لتلك الأفكار العلمية التي سنذكرها في مكانها المناسب في هذا الفصل من هذا الكتاب.

وحتى لا نذهب بعيداً عن تسلسل أفكارنا، نعود إلى ما قاله الأديب الشاعر (خليل فرحات) عن عبقرية علي عليه السلام التي يمكن أن تحوّل العالم إلى فردوس حقيقي، وفي ذلك يقول:

وكم قيل فردوسٌ لآمال عالم أجَلّ من الإنسان والصُّمّ الصُّخر
فيوضُ جمالاتٍ كأنَّ العُلا بها تعالت عن المرويّ في الكتب الزُّهر
يخاف عليها الضوء صوناً لسرّها وما كلُّ حُسنِ السرّ يحصل في الجَهرِ[1]

فأقوال علي عليه السلام وعلومه المتنوّعة التي طالت كل جوانب الحياة وميادينها هي السّندُ الكفيل بتحويل الأرض إلى جنّةٍ حقيقية عامرة بالإنجازات الإنسانية وبالإبداعات العلمية المدهشة. فتلك العلوم الغزيرة التي يحتويها صدرُ عليّ وفكره، لو أنه عليه السلام أصاب لها حملةً وتُرجمت بعد ذلك إلى أرض الواقع، لكانت أعظم من كل شيء وأكبر قيمةً من كل شيء، ولو أنه عليه السلام قد باح بتلك العلوم والحقائق بشكلٍ علنيّ وصريح أمام أقوامٍ لا تحتملها عقولُهم ولا تستطيع حتى أن تتخيّل الصُّور التطبيقيّة والعمليّة لتلك الحقائق والنظريات التي استطاع أن يدركها بعمق إيمانه وبقربه من الله، وبالإلهام الإلهي الذي لا يتأتّى إلا لمن كان قد استهلك نفسه في الله سبحانه وتعالى، فلو أنه قام بذلك لبدت تلك العلوم عظيمةً ومذهلةً للألباب، ولكنّ الإمام علياً عليه السلام المعصوم من الخطأ والزّلل ما كان ليفعل ذلك لأنه كان يعرف تماماً أنّ لكل سرٍّ، مهما كان بسيطاً أو

(١) خليل فرحات: في محراب علي، ص٢١.

عظيماً، زمناً يناسبه ومكاناً يلائمه وصدراً يستطيع أن يحمله، فإذا توافرت هذه المقومات الثلاث، عندئذٍ يجب قوله.

وقد عبّر الإمام عن هذا في إحدى منظوماته الشعرية الشهيرة والتي يعبّرُ من خلالها عن مقدار علمه وغزارة معارفه بقوله الشهير:

لقد حزتُ علم الأوّلين وإنّني ضنين بعلم الآخرين كتومُ

وقد سبق أن ذكرنا هذا البيت وبقيّة الأبيات التابعة له في بابٍ سابق من كتابنا هذا. وإذا كانت كلمة (الغيب) تعني في أحد وجوهها المعرفة بالمستقبل بكل أحداثه وتطوّراته سواء كانت تلك التطوّرات والتغيّرات في عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم والتكنولوجيا وما شابه ذلك، فمن المأثور عن علي عليه السلام أنه قال أكثر من مرّة وفي أكثر من موضع:

«سلوني عن أسرار الغيوب فإني وارث علوم الأنبياء والمرسلين»[1].

وبناءً على هذه الحقيقة المؤكّدة التي وعاها الأديب (خليل فرحات)، فقد اعتبر أن علوم الإمام علي عليه السلام هي المفاتيح المباشرة لكل مجاهيل الحياة بكل جوانبها الخفيّة والمعقّدة، واعتبر أيضاً أنه ما من علمٍ صعبٍ استغلق على الناس في زمنه عليه السلام إلا كان علي هو الفاتح له، فتتهاوى أبواب العلوم المستغلقة أمامه كما هوى باب خيبر على يديه الكريمتين.

وها هو الشاعر (فرحات) يختتم قوله بالبيت التالي:

هو العالِمُ المعلومُ لولاك ما نَمَا ولم يُفْرَ مجهولٌ لو أنّكَ لم تَفْرِ

(١) العلامة سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، ج١ ص٦٨.

وكما يُلاحظُ هنا، فإنّ الأديب الشاعر (خليل فرحات) عندما يقرض الشعر يُخيّل للقارئ وهو يقرأ شعره وكأنّ الشاعر يحمل إزميلاً وينكبُّ نحتاً في الصخر الأصمّ، فشعره أشبه ما يكون بعملية نحتٍ في صخرٍ، وهذا هو أحد الأسباب التي تمنعنا من الإكثار من شعره الذي قد يسبّب الإرهاق للقارئ نتيجة الصعوبة البالغة في تفكيك رموزه وشرح ألفاظه ومعانيه.

وإذا كان الأديب الشاعر (فرحات) قد تكلّم عن الإمام علي عليه السلام بهذه الصورة البليغة في رائعته الشعرية (في محراب علي) التي لا تزال تُطبعُ كل عام تقريباً، والتي حاول الشاعر من خلالها رسم صورة متألّقة لما حقّقتهُ شخصيةُ الإمام علي عليه السلام من مآثر وإنجازات عظيمة، ولما تركت من أثرٍ بالغٍ على امتداد الساحة الإنسانية، فإنّ الأديب والفيلسوف (ميخائيل نعيمة) كان له وجهة نظر أخرى بشأن الكتابة في فكر علي عليه السلام وعبقريّته.

فالأديب (ميخائيل نعيمة) الذي تمتاز آثاره الفكرية والأدبية بصبغتها الفلسفيّة وبشفافيّتها الصوفية، والذي يؤسّس نتاجه الأدبي وفق رؤى فكرية خاصة، وهذه الرؤى -كما يرى الباحث اليوغسلافي (أسعد دوراكوفيتش) في كتابه (نظرية الإبداع المهجرية)- تعكس وجهة نظر (نعيمة) تجاه الفكر والكون. فالكون هو كليّةُ الجزئيات، أيّ إنه «يوجد في وحدةٍ مع الخالق العظيم الذي يدلُّ عليه الكون كانبعاث ذلك الخالق العظيم. انبعاث الخالق، أي وجوده في الطبيعة كلها أو في العالم، يفرض المعرفة عبر تلك الطبيعة»[1].

---

(١) أسعد دوراكوفيتش: نظرية الإبداع المهجرية، اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ١٩٨٧، ص٥٨.

ومن هنا يأتي دور الفكر كي يكسر كلّ الحواجز التي يمكن أن تعترضه وتقف حاجزاً تحول دون وصوله وإدراكه لكل مفردة من مفردات ذلك الكون والتي تقود إلى معرفة المطلق، إلى معرفة الناموس الأعظم وذلك لأن الغاية الأهمّ في حياة الإنسان، كما يكتب (نعيمة) نفسه، هي معرفة الإله[1].

إن هذا الأديب الفيلسوف الذي يريد أن يدرك حقائق الأشياء وأن يعرف كُنه الجزئيات في مفردات الوجود، يرى أن فكر الإمام علي عليه السلام الخلاق وعبقريته العظيمة التي كانت تحلّق تارةً في السماء وتغوص تارةً أخرى في غياهب الأرض ومتاهات الطبيعة، يخلُقان في ذهن أيّ باحثٍ أو مفكّرٍ جواً من الإقرار بالعجز عن إعطاء شخصية الإمام علي عليه السلام حقّها من الاحترام والتقدير. فعقل الإمام عليه السلام الذي كان يتّسع دائماً بما يحمله من علوم وأسرار ومعارف ونظريات فلسفية وعلمية وسياسية واقتصادية، لهو عقل لو باح صاحبُه بكل ما فيه من علم وفكر لحدث ما لم تسمع به أذن ولم تبصره وتدركه عين.

وقد كتب الأديب الفيلسوف عن ذلك قائلاً: «إنه ليستحيل على أيّ مؤرّخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية، أن يأتيك حتى في ألف صفحة بصورةٍ كاملةٍ لعظيمٍ من عيار الإمام علي.... فالذي فكّرهُ وتأمّلهُ وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربّه لممّا لم تسمعه أذن ولم تبصره عين. وهو أكثر بكثير ممّا عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه. وإذ ذاك فكل صورة نرسمها له

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٥٦.

هي صورة ناقصة لا محالة. وقصارى ما نرجوه منها أن تنبض بالحياة»[١].

وبالطبع، فإن ما يقصده الأديب الفيلسوف (نعيمة) بكلامه هذا هو الدلالة الأكيدة على قصور العقل البشري عن إدراك العظمة العلوية الفريدة التي أذهلت ولا تزال تذهل العباقرة والعظماء بما انطوت عليه من صفات وخصائص وأفكار ونظريات لو قُسّمت على أمّةٍ لكفتها، بل وفاضت عنها.

نعم، فالذي فكّر فيه الإمام عليه السلام وتأمّلهُ وقالهُ وعملهُ لهو غيضٌ من فيض خصائصه وخصاله. وأنا شخصيّاً لا أستغرب هذا، وإن كنتُ أستعظمه، لأنّ الإمام علي عليه السلام في نهاية المطاف هو الوعاء الذي تنسكب فيه وتندمج به علوم القرآن الإلهي، ذلك الكتاب السماوي الذي خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله من خلاله مُوصياً إيّاه وصيّته الأولى قائلاً: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[٢].

ومن خلال هذه الوصيّة السماوية الأولى، نعي أن الإنسان قد رُكّب وفُطر على دوام الاستفسار والتساؤل وعلى طلب العلم والمعرفة، فتركيبته النفسيّة وتكويناته الجسدية الفيزيولوجيّة، بما في ذلك الحواس المتعددة والمرتبطة بالدماغ، كل ذلك يدفعه للبحث والاستفسار ويحثّه على الانفتاح والانطلاق باتجاه ضروب المعرفة المختلفة بدءاً من معرفة الإنسان لذاته، ومن ثم لمحيطه وعالمه الذي يعيش فيه كمُفردةٍ من مفردات هذا الكون الفسيح، وانتهاءً بمعرفة

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٢١.

(٢) سورة العلق: الآيات ١-٥.

وإدراك حقيقة أنّ هناك مُدبّراً عظيماً وناموساً جليلاً يدير ويُدبّرُ أمر هذا الوجود بكينوناته الصغيرة وأكوانه الكبيرة، أي من عالم الذّرّات إلى عالم المجرّات.

وإذا كان هناك الكثير من الخطب والأقوال للإمام علي عليه السلام التي تحتوي على حقائق علميّة وتشتمل على نتائج باهرة خرج بها عقل جبّار بعد أن امتلأ تأمُّلاً وتفكُّراً في كل ما يحيط به من إبداعات خالق عظيم، فإنّ في ذلك تأكيداً على دعوةٍ قرآنيةٍ علميّة تدعو الإنسان لاستكشاف عالمه المحيط به وتحثُه على الغوص في أعماق ذاته كي يدرك أن العلم هو حقّاً المعراجُ إلى اليقين.

فالآية القرآنية الكريمة الداعية إلى التعقُّل والتأمُّل في الأشياء ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [1] هي واحدة من تلك الآيات الداعية إلى إعلاء شأن العقل وإجلاله من خلال دعوته لأخذ مكانه الصحيح ومن خلال دعوته أيضاً لممارسة دوره الريّاديّ إلى تمزيق حجب الجهل وتبديد أستار الخرافات التي تحُولُ دون وصول الإنسان إلى كشف حقائق الأشياء وقوانينها.

والإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام كان بدوره قرآنياً في نهجه العلميّ ومحمديّاً في منهجه العقلي حتى أنّ الدارس والمحلّل لأحاديثه الشريفة التي تتحدث عن العقل والعلم ودورهما في الحياة، سيدرك موقعهما عنده عليه السلام ومكانتهما في نفسه. وخلاصة موقعهما ومكانتهما عنده هو أنهما لو تجسّدا بما يستحقّان من نورٍ لكان نورهما كافياً لإضاءة الكون ولإلغاء الظلمة من الوجود.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

وحتى لا يأخذنا الحديث بعيداً عن بعض المقتطفات من أحاديث الإمام علي عليه السلام التي تؤكّد على نهجه العلمي في تقصّي الحقائق، لا بدّ لنا من أن نذكر بعضاً منها للتأكيد على ما قاله المفكّرون والأدباء المسيحيّون عن عبقرية الإمام علي عليه السلام العلميّة.

فللإمام علي عليه السلام خطب عديدة وأقوال كثيرة في صفة خلق الإنسان وتكوينه، وها نحن نقتطف جُملاً قليلةً من إحدى تلك الخطب العديدة والمشهورة.

يقول إمام الحكماء وسيّد البلغاء عليه السلام: «أمّ هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام، وشُغُف الأستار، نطفةً دهاقاً، وعلقةً محاقاً، وجنيناً، وراضعاً، ووليداً، ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصّر مزدجراً..»(١).

وبسبب بلاغة هذه الخطبة وبسبب قوة معانيها والحقائق العديدة التي انطوت عليها، والتي ما إن انتهى الإمامُ علي عليه السلام من ذكرها حتى اقشعرّت لها الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب، وقد أسماها الناسُ بالخطبة (الغرّاء) تكريماً وتعظيماً لها ولقائلها.

وحتى لا يصفنا القارئ العزيز بالبخل والشحّ في ضرب الأمثلة عن موضوع بحثنا، سنذكر للقارئ نتفاً أخرى من تلك الأقوال الخالدة التي جاد بها علينا سيّدنا وإمامنا علي عليه السلام والتي تشير بمجملها إلى ذلك العقل العلمي الذي

---

(١) الإمام علي عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج١ ص١٣٤.

استطاع بحقٍّ أن يخترق بواطن الأشياء وأن يقف على حقائقها.

ومن تلك الأمثلة التي يمكن أن نذكرها هنا هو أن العرب في العصر الجاهلي وفي فجر الرسالة الإسلامية كانوا يعتقدون أن الطاووس الذّكر يتكاثر مع أنثاه عن طريق دموعٍ تذرفها عيناه، وليس عن طريق التلقيح الطبيعي، فجاء الإمام علي عليه السلام وأكّد أنّ هذا مجرد زعمٍ وظنٍّ وليس حقيقة أبداً[١].

وإنك عندما تقرأ ذلك النوع من الخطب الطويلة للإمام عليه السلام، تشعر أنّك تستمع إلى تعليقٍ مثيرٍ لبرنامجٍ علميٍّ يُريك الحقائق بأسلوبٍ جذّابٍ ينتقل بك من التفكير بحقائق المخلوقات إلى التأمّل بعظمة الخالق!!!

ويمكننا أن نقتطف أيضاً بعض المشاهد من وصف الإمام علي عليه السلام لخلقة النملة، ذلك المخلوق الضعيف والبسيط والموصوف بالصبر والكدّ الدؤوب.

يقول إمام الحكماء عليه السلام: «انظروا إلى النملة في صغير جثّتها، ولطافة هيئتها، لا تكادُ تُنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها، وصُبّت على رزقها، تنقل الحبّة إلى حجرها، وتُعدُّها في مستقرّها، تجمع في حرّها لبردها، وفي وُرُودها لصُدورها، مكفولةٌ برزقها، مرزوقةٌ بوفقها، لا يُغفلها المنّان، ولا يحرمُها الديّان، ولو في الصفا اليباس، والحجر الجامس. ولو فكّرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً، فتعالى الذي أقامها على قوائمها، وبناها على

(١) نفس المصدر السابق: ج٢ ص٢٧١.

دعائمها، لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يُعنهُ على خلقها قادر».

وانظر الآن كيف سينتقل بنا الإمام عليه السلام في نفس الخطبة، من مرحلة المراقبة والدراسة لهذا المخلوق الضعيف (النملة) إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الاستنتاج الذي يقوم على ربط المشاهد البصريّة بالمشاهد القلبيّة.

وبهذا، فإنّ الإمام علياً عليه السلام وبعد المقطع الذي ذكرناه من خطبته السابقة، يتابع قائلاً:

«ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلّتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة، لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حيّ، وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقويّ والضعيف في خلقه إلا سواء، وكذلك السماءُ والهواء والرياح والماء. فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجُّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتفرُّق هذه اللغات، والألسن المختلفات، فالويلُ لمن جحد المقدّر وأنكر المدبّر»[1].

بهذا الأسلوب البليغ ينتقل الإمام علي عليه السلام بالمستمع إليه، أو بالقارئ لخطبته، من مرحلة استخدام الحواس إلى مرحلة إعمال العقل، وذلك بأسلوبٍ علميٍّ بليغٍ لا يستطيع المرءُ معه إلا أن يكون مُقتنعاً ومستجيباً لما يقوله عليه السلام.

وإذا كان الباحث الفرنسي المعاصر (لويس غارديه) يرى أن السنّة أنفسهم «أبعد ما يكونون عن إنكار كل تقديس لآل البيت، لمحمد ذاته، ولعليّ وفاطمة

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٢ ص٣٠٧.

والحسن والحسين»[1]، فلا ريب في أنّ مردّ ذلك إلى أن السنّة أنفسهم يعرفون أنّ أهل البيت عليهم السلام عموماً، وعلي عليه السلام خصوصاً هم الورثة الحقيقيّون لعلوم ومعارف الرسل والأنبياء عليهم السلام، لا في أخلاقهم وخصالهم العالية فحسب، بل وفي علومهم ومعارفهم وفي إدراك حقائق كونيّة كثيرة يعجز الآخرون عن إمكانيّة إدراكها والوقوف على حقيقتها.

وإذا كان المستشرق المعروف (لويس ماسينيون) يرى أيضاً أنّ على المسلمين اليوم إذا أرادوا أن يبنوا مستقبلاً زاهراً ومتحضّراً وأن يكون لهم مكان محترم بين صفحاته، عليهم أن يعودوا للنّهل من التراث الإسلامي الروحي والثقافي وأن يتشبّثوا بكل قواهم به لأنه هو الطريق الأمثل والنّهج الأقوم للتطور والتقدم في العصر الحديث[2].

ولكن للأسف، عندما أورد الباحث الروسي (أليكسي جورافسكي) هذا الكلام عن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) بشأن ضرورة عودة المسلمين إلى تراثهم الروحي والثقافي لم يعمد إلى تحديد وتفصيل هذا الكلام المهم والذي هو بحاجةٍ فعليّةٍ إلى الاستفاضة في الشرح والتفسير وذلك لما لأبحاث وأقوال المستشرق (ماسينيون) من أهميّةٍ في الفكر الأوروبي الحديث.

فمن المعروف عن (ماسينيون) أنه كتب الكثير عن أهل البيت عليهم السلام وعن أتباعهم. وقد أكثر في كتاباته الحديث عن الغنى الروحي في الإسلام، وخاصة ذلك الزّخم الروحي الذي يتركّزُ في أهل البيت النبويّ الشريف عليهم السلام، وكان

(١) لويس غادريه: أهل الإسلام، مصدر سابق، ص٢٦٧.

(٢) أليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص١٢٤.

يرى أنّ أهل البيت عليهم السلام هم رمز العلم وراية المعرفة، وهم القادرون بعلومهم المتعدّدة ومعارفهم المختلفة المستوحاة من القرآن الكريم على التفوُّق على كل من سواهم من المسلمين، وهم القادرون أيضاً على إسكات ودحض معارف غيرهم، حتى من غير المسلمين، طالما أن تلك المعارف غير صحيحة ولا تتّفق مع العلم والفطرة الإنسانية السليمة. وقد وصل به الأمر إلى حدّ أنه كتب كتاباً بعنوان (المباهلة بين النبيّ ونصارى نجران) ليؤكد من خلاله أن الغنى الفكري والتراث الروحيّ والتفوُّق العلميّ الحقيقيّ هو ما يمثّله فكر أهل البيت عليهم السلام وذلك من خلال ما انقشعت عنه حادثة المباهلة بين أهل البيت النبويّ المحمديّ عليهم السلام من جهة، وأساقفة نجران من جهة أخرى. وقد علّق الدكتور (عبد الرحمن بدوي) الذي ترجم عدّة رسائل وكُتُب لمجموعةٍ كبيرةٍ من المستشرقين من أمثال لويس ماسينيون وهنري كوربان وغيرهما، وقدّم لها وعلّق عليها بشكل مُوسّع، حيث إنه علّق على الغنى الروحي والفكري عند المسلمين الشيعة الذين يأخذون تعاليمهم ومبادئهم من أهل بيت النبوّة عليهم السلام قائلاً: «للشيعة أكبر الفضل في إغناء المضمون الروحي للإسلام وإشاعة الحياة الخصبة القوية العنيفة التي وهبت هذا الدين البقاء قويّا غنيّاً قادراً على إشباع النوازع الروحيّة للنفوس، حتى أشدّها تمُّرداً وقلقاً»[1]، ولم يكن هذا الكلام يمثّل وجهة نظر الدكتور (بدوي) الخاصة فقط، بل كان يمثّل أيضاً وجهات نظر العديد من المستشرقين البارزين مثل كوربان وماسينيون.

(١) جماعة من المستشرقين: شخصيات قلقة في الإسلام، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، راجع المقدمة التي وضعها المترجم ص٢.

ولن أعلّق على ما أورده الباحث الروسي (جورافسكي) بشأن (ماسينيون)، ولا على ما قاله الفيلسوف (بدوي) بشأن الغنى الروحي والفكري للشيعة، ولكن أقول باختصار: إنّ دعوة (ماسينيون) المسلمين للعودة إلى الجذور الثقافية الإسلامية الماضية من أجل بناء حضارة مستقبليّة ما هي إلا دعوة قائمة في جوهرها على ضرورة العودة إلى فكر وتراث أهل البيت عليهم السلام لأنه كان يؤمن دائماً وأبداً أنّ آل محمد عليهم السلام هم البُدلاء والنوّاب عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في غيابه، بل هم ورثتُه في العلم والأخلاق والمعرفة والشرع لأنّ آية المباهلة نفسها تدلُّ- كما يقول ماسينيون نفسه - على حقائق لا يمكن تجاوزها، فالحسنُ والحُسين عليهما السلام يمثلان كلمة (أبناءنا)، والسيدة الزهراء فاطمة البتول عليها السلام تمثّل كلمة (نساءنا)، أمّا الأمام علي عليه السلام فيمثّل كلمة هامة جداً وهي كلمة (أنفسنا)[1] والتي تعني أنّ الإمام علياً عليه السلام هو نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعصمته وأخلاقه، وبعلومه ومعارفه، وبكل شيءٍ إلا من اختصاصه بالنبوّة، وهذا ما يؤكّد حقيقة أنّ أهل البيت عليهم السلام عموماً هم أهل الذكر وهم من يملك ميراث الأنبياء والمرسلين أجمعين.

فالقرآن الكريم، الذي هو بلا ريب المعجزة الخالدة لرسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم السماويّة، هو المعجزة التدوينيّة. وهذه المعجزة التدوينيّة تختزل في حروفها وكلماتها وآياتها وسورها أسرار المعجزة التكوينيّة بأكملها.

فبالإضافة إلى المبادئ التشريعية والقضايا الفقهية في القرآن، هناك الكثير من العلوم والمعارف والنظريات العلمية الثابتة والتي بموجبها تستمر المعجزة

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٦٢.

التكوينيّة (الخَلق) في الوجود. ولئن كان الإنسان عاجزاً وقتها عن أن يفهم الكثير من تلك الحقائق والأسرار، إلا أنّ الإنسان اليوم استطاع أن يفكّك بعض الرموز والأسرار المبثوثة في معاني القرآن وفي كلماته السماويّة الخالدة.

وحتى تتّضح الصورة أكثر حول قضيّة دور الزمان في فهم القرآن، نقول: إنّ الإنسان في زمن محمد صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم شيئاً عن الأمور العلمية التي تترتّب عن صعود الإنسان إلى ارتفاعات شاهقة في عنان السماء، ولكن الإنسان اليوم يعرف تماماً ما ينتج عن هذا الحدث بشكلٍ دقيقٍ ومُفصّل، بل بإمكانه أن يشعر بالتغيّرات الفيزيولوجيّة المباشرة التي تطرأ على جسمه إثر صعوده وتحليقه في أعالي السماء. ولذلك، لم يكن الإنسان يدرك المعنى الدقيق لقوله تعالى في الآية الكريمة التالية: ﴿ **يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [1]. فالقرآن إذاً، قد أعطى الإنسان مفتاح الحقيقة العلميّة، أمّا دورُ الإنسان فيأتي لاحقاً من خلال إعمال عقله حيث يدفعُه تطوُّره التدريجيّ العام إلى الكشف عن هذه الحقائق والقوانين الثابتة شيئاً فشيئاً.

ولذلك، عندما كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أو الإمام علي عليه السلام ، الذي قاتل على تأويل القرآن، يُكلّمان الناس ويُفسّران لهم آيات القرآن الكريم، فإنّما كانا يخاطبان الناس على قدر عقولهم وعلى مستوى تفكيرهم، ولذلك كانا يكتفيان بالسّير على النهج القرآني من حيث التلميح والإشارة إلى الحقائق المعرفيّة والاكتشافات العلميّة.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

وقد سبق أن قلتُ: إنّ الإمام علياًعليه السلام كان يحثُّ المستمع إليه أن يُعمل حواسه من أجل كشف الحقائق وإماطة اللّثام عن العلوم التي تحتاجُ، بالدرجة الأولى، إلى المراقبة والملاحظة والتأمّل والتفكير وربما أحياناً إلى التجربة من أجل الوصول إلى النتيجة المرجوّة، وبعد كل ذلك، كان يحثُّه أيضاً ويدفعه للوصول بفكره إلى علّة العلل وإلى وحدانيّة غاية الغايات ومُسبّب الأسباب، وباختصارٍ شديد، كان يدفعه للإقرار بوجود وبعظمة واجب الوجود.

وهذا الأسلوب في نهج عليّعليه السلام العلميّ هو نهجٌ قرآنيّ بحت يقوم على التعامل مع العقل، لا على التعامل مع الانفعال ولغة العواطف والظنون.

ويكفي أن نذكر مثالاً آخر من القرآن الكريم وكيفيّة حثّ الإنسان المُستمع على إعمال حواسه وفكره من أجل الانتقال من الإدراك بالملاحظة والبصر إلى مرحلة التأمّل والإدراك بالبصيرة، ومن ثم حثّه على إدراك حقيقةٍ ثانيةٍ، ولكن هذه المرّة حقيقة تتعلّق بقدرة وحكمة الخالق، وهي الحقيقة التي استطعنا الوصول إليها عن طريق إدراك الحقيقة الأولى المتعلقة بإدراك ظاهرةٍ ما أو باكتشاف قانون ما في عالم العلوم والمعرفة.

ففي سورة الروم، على سبيل المثال، يحثُّنا الخطاب القرآني على مراقبة ظاهرة سقوط المطر، مع الإشارة إلى أن تلك الآيات في سورة الروم تعطينا تفسيراً علميّاً دقيقا لكيفيّة حدوث هذه الظاهرة المناخيّة: ﴿**اللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[1].

(١) سورة الروم: الآية ٤٨.

انظر هنا كيف سينتقل بنا الخطاب القرآني من الملاحظة وتقديم الحقيقة العلمية التي تتعلق بكيفية حدوث تلك الظاهرة المناخية إلى مرحلة ثانية وهي مرحلة تقديم حقيقةٍ أخرى ولكن من نوعٍ مختلف، إنها حقيقةٌ تتعلق بالخالق ذاته. لاحظ ما جاء بعد الآية السابقة التي ذكرناها: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

نعتقد أن هذه الأمثلة القليلة تكفي، على الأقلّ، لتأكيد فكرتنا وفكرة الأدباء والمفكّرين المسيحيين الذين رأوا أن هناك ترابطاً وثيقاً وتشابهاً كبيراً بين النهج القرآني في مخاطبة الناس وبين النهج العلوي في مخاطبتهم وفي تبسيط حقائق الكتاب وعلومه لمستمعيه وقارئيه.

إنّ هذه الحقيقة، على ما يبدو بشكلٍ جليٍّ، لم تغب عن أذهان الباحثين والمفكّرين المسيحيّين، بل ربما رأى البعض منهم أنّ للإمام علي عليه السلام إشارات وتلميحات كثيرة كانت هي حجر الأساس في بعث وانطلاق الحضارة الإسلامية العظيمة وفي تحقيق قفزتها النوعيّة.

فالأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) يرى أن كلمة العلم عند الإمام علي عليه السلام لم تكن مقتصرة على المعاني الفقهية أو على المعاني والمضامين اللغوية والنحوية، بل كانت تعني الانطلاق الكُلّيّ الشامل في كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة.

---

(١) سورة الروم: الآيتان ٤٩-٥٠.

ولا ريب في أن الأستاذ (العزيزي) قد درس التراث الفكري والروحي للإمام عليعليه السلام بشكل مُتّزنٍ ومُتعقّلٍ حتى يخرج بتلك النتيجة النهائية الحاسمة. ولكن، إذا كانت قضيّةُ أعلميّة عليّعليه السلام لا تعني فقط أعلميته في شؤون الفقه والشريعة، فماذا يمكن أن تعني أيضاً؟!!

وما هي أنواع العلوم التي حاز الإمامُ عليّعليه السلام قصب السّبق فيها والتي وجدها الأستاذ (العزيزي) مبثوثة في تراث أمير المؤمنينعليه السلام الفكريّ؟!

يؤكّد الأستاذ (العزيزي) أن في وصايا الإمام عليعليه السلام وفي أقواله ما هو كافٍ لصياغة الدستور الأكمل والأمثل لقوانين الصناعة والتجارة في عموم المجتمعات الإنسانية، وقد قال الأستاذ (العزيزي) مُعبّراً عن ذلك: «...أمّا علمه بالتجارة والصناعة فقد دلّت عليه وصاياه التي تصلح أن تكون دستوراً في كل زمان لوقاية المجتمع من الرقّ الاجتماعي ولعلّها خير علاج لمشكلة الفقر»[1].

ولكن الأستاذ (العزيزي)، ومن خلال تعمُّقه في دراسة وتحليل التراث الفكري للإمام عليعليه السلام ، رأى أن ذلك التراث الثّرّ لأمير المؤمنينعليه السلام كان يحوي الكثير من الوثبات الفكرية الإبداعية التي تتعلّق بعلوم الآثار والتاريخ، ومنها ما يتعلّق أيضاً بعلوم سلامة البدن وصحّته، مثل المناعة والوقاية، هذا بالإضافة إلى علومٍ أكثر خصوصية وأكثر تعقيداً، مثل علوم الميكانيكا والآلات وحركتها، كما كان لعلم المال والاقتصاد نصيب وافرٌ من ذلك التراث الفكريّ العظيم الذي خلّفه الإمامُ عليعليه السلام للأجيال اللاحقة[2].

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٧٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٧٧.

ولا نعتقد أن القارئ يخالفنا أو يختلف معنا في أنّ هذه الحقائق التي ذكرها الأستاذ (العزيزي) تعني الكثير، وأقلّ ما يمكن أن تعنيه هو الحضارة الإسلامية التي قامت لاحقاً على أكتاف الإمام جعفر الصادق عليه السلام وجامعته التي هي أول جامعة في العالم الإسلامي، وربما في غير العالم الإسلامي أيضاً، والتي ضمّت أربعة آلاف طالب علم من مختلف الاختصاصات، إنّما مردٌّ قيامها ونجاحها وازدهار العلوم المتنوّعة فيها هو الإمامُ جعفر الصادق عليه السلام الذي صاغ وبلور أبواب تلك العلوم الغزيرة التي افتتحها ودشّنها جدُّه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا هو أهمّ الأسباب التي تدفع بالمفكّرين والباحثين إلى الكلام عن الإمام علي عليه السلام عندما يكون أولئك في سياق الحديث والكتابة عن علوم ومنجزات الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام. فالكلام عن أحدهما في مجال العلوم والمعارف يعني بالضرورة الكلام عن الإمام الآخر.

وعلى الرغم من رغبتي في عدم الإطالة والدخول في بعض التفاصيل التي تتعلّق بما قدّمه المسلمون، في فجر حضارتهم، للعالم من علوم ومعارف، إلا أنّني أرى من باب الواجب والضرورة أن أذكر شيئاً من العلوم التي ورثها الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومن ثم طوّرها وأضاف إليها وصاغها بأسلوبٍ علميٍّ جديدٍ يتناسب مع مستوى طلابه الذين جاؤوا إليه من شتّى أصقاع الأرض راغبين إليه في طلب شتّى أنواع العلوم والمعارف.

وكما ذكرنا منذ قليل أنّ للإمام علي عليه السلام بصمات لا تُنسى في مختلف أبواب العلوم، ومن هذه العلوم علم هام كان قد أشار إليه الإمامُ علي عليه السلام

وتحدّث عنه في وصاياه العلميّة، إنه علم الكيمياء أو ما كان يُعرفُ قديماً بعلم (الصنعة)[١]. وقد انتقل هذا العلم وأسراره - شأنه في ذلك شأن بقيّة أنواع العلوم الأخرى - من الإمام علي عليه السلام إلى الأئمة من أولاده الكرام عليهم السلام واحداً تلو الآخر إلى أن وصل إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام الذي استطاع، بسبب تغيُّر بعض الأوضاع السياسيّة في زمانه، أن يتفرّغ كُليّاً للشؤون العلميّة والفكرية ممّا دفعهُ إلى تأسيس جامعته المعروفة والتي عُرفت لاحقاً باسمه في الشرق والغرب. وقد روى المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) العديد من الأحاديث التي نقلها من كُتُب علماء السنّة والتي تؤكّد أن الإمام الصادق عليه السلام كان بحدّ ذاته جامعة للعلوم والمعارف.

وقد قال (رونالدسن) نفسه عن جامعة الصادق عليه السلام ودوره العلميّ الريّاديّ في رفع راية الحضارة الإسلامية: «ومن الوصف الذي نقرأه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في المدينة، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يُظهرُ لنا أنّه كان له شبه مدرسة سقراطيّة. وقد ساهم عددٌ من تلامذته مساهمة عظمى في تقدُّم علمي الفقه والكلام. وصار اثنان من تلامذته، وهما أبو حنيفة ومالك بن أنس، فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهيّة.. وكان جابر بن حيّان الكيماويّ الشهير من تلامذته أيضاً»[٢].

وبالطبع، لم يكن هذا الكلام من المستشرق (رونالدسن) هو كلامٌ أو رأيٌ

---

(١) محمد رضا الحكيمي: سلوني قبل أن تفقدوني، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٩٧٣، ج٢ ص١٧٣.

(٢) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص١٤١.

خاص به هو دون غيره من المستشرقين، فهناك الكثير من المستشرقين ومن الأدباء والمفكرين المسيحيين المعاصرين الذين أدركوا هذه الحقيقة وأيقنوا أنّ الجامعة العلمية الشاملة التي أنشأها الإمام الصادق عليه السلام إنّما هي جامعة عظيمة أشادها إمام عظيم من خلال تطوير وبلورة العلوم والمعارف المتوارثة والمنتهية في أصولها إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام. فتُراث أهل البيت عليهم السلام غنيّ بالعلوم والثقافات، والرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي يمثّل رأس وسيّد أهل بيته عليهم السلام كان صاحب رسالة سماوية تخاطب العقول قبل أن تخاطب القلوب، وكانت هذه الرسالة تنادي باستمرارٍ -كما تقول عنها الباحثة الألمانية (ليليان هير لاندز) - وتدعو بلا هوادة إلى إرساء الكثير من المبادئ السامية حيث إنها استطاعت من خلال تلك المبادئ والأسس أن تحقّق سبقاً ثقافياً يبهر الأنفاس، وأنها استطاعت أيضاً أن تنشر علومها وثقافتها على مساحاتٍ واسعة بعد أن أوجدت لنفسها حضارة مستقلّةً تُعتبر من أروع وأرفع الحضارات[1].

وهذا الكلام قد تمّ تأكيده أيضاً من قبل الباحث الإنكليزي المعاصر (جون ماكليش)، أستاذ الرياضيات في جامعة كامبريدج ثم في جامعة فيكتوريا، حيث رأى أن المسلمين الأوائل كان لهم فضل كبير، ليس في مجال نقل وترجمة بعض العلوم القديمة فحسب، بل في أنهم أبدعوا أيضاً في عملية التأسيس لمواضيع جديدة كالكيمياء والجبر وعلم المثلّثات[2].

---

(١) ليليان هيرلاندز وآخرون: دليل القارئ إلى الأدب العالمي، ترجمة: محمد الجورا، دار الحقائق - بيروت، ط/ ١٩٨٦، ص٢٩٩.

(٢) جون ماكليش: العدد، (عالم المعرفة)، ٢٥١، ترجمة: د. خضر الأحمد، الكويت، تشرين الثاني ١٩٩٩، ص١٦٥.

وغنيٌّ عن القول إنّ الإمام الصادق عليه السلام لم يكن يُدرّس في حلقاته الدراسيّة علوم الشريعة الإسلامية من قرآن وفقه وحديث وسيرة فحسب، ولم يقتصر تعليمه أيضاً على علوم الكيمياء، بل كانت له أيضاً صولات وجولات في كافة ميادين العلوم وفي عموم مجالاتها وتفرُّعاتها ممّا لا يسمح لنا الوقت والمكان بالتوسّع في ذلك، ولكن غاية ما نريد قوله هو: إن الإمام الصادق يُعتبرُ الناطق الرسمي والوجه (الأكاديمي) لعلوم جدّه أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي شغلتهُ الحروب والفتن الداخليّة عن أن يقدّمها للناس بالطريقة التي قدّمها لهم حفيده الإمام الصادق عليه السلام.

وقد رأينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب كيف وجد الكثيرُ من المفكّرين والباحثين المسيحيّين أنّ هناك ضرورة حتميّة لوجود الإمام علي عليه السلام كي يُجسّد القيم الإنسانية النبيلة من أجل أن يكون مثلاً أعلى للناس، وليس للمسلمين فحسب، في اعتناق تلك القيم والإخلاص لها حتى النهاية، وكي يصبح هو بدوره حُجّة لله عليهم في علمه وعمله، وفي سائر فضائله وخصاله.

فافتقاد الإمام لأيّ خصلة فاضلة أو صفة نبيلة سامية، سواء في العدل أو في الشجاعة أو في الحكمة أو في العلم أو حتى في بقيّة الصفات الأخرى، فإن ذلك يعني وجود ثغرات في كيان الأمّة وفي وجودها الحضاريّ والرياديّ بحيث يسبّب خللاً واضحاً في عملية توازنها وفي استمرار سيرها على الخطّ الحضاري السليم.

ولذلك كان وجود الإمام علي عليه السلام على مسرح الرسالة الإسلامية قدراً سماوياً مرسوماً بحكمة عظيمةٍ كي يعطي الناس درساً بليغاً في الكمال الإنساني الذي لا يمكن لأحدٍ أن يجد ثغرة واحدة في كمال خصاله وصفاته وفي عموم

وغنيٌّ عن القول إنّ الإمام الصادق عليه السلام لم يكن يُدرّس في حلقاته الدراسيّة علوم الشريعة الإسلامية من قرآن وفقه وحديث وسيرة فحسب، ولم يقتصر تعليمه أيضاً على علوم الكيمياء، بل كانت له أيضاً صولات وجولات في كافة ميادين العلوم وفي عموم مجالاتها وتفرُّعاتها ممّا لا يسمح لنا الوقت والمكان بالتوسّع في ذلك، ولكن غاية ما نريد قوله هو: إن الإمام الصادق يُعتبرُ الناطق الرسمي والوجه (الأكاديمي) لعلوم جدّه أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي شغلتهُ الحروب والفتن الداخليّة عن أن يقدّمها للناس بالطريقة التي قدّمها لهم حفيده الإمام الصادق عليه السلام.

وقد رأينا في الفصول السابقة من هذا الكتاب كيف وجد الكثيرُ من المفكّرين والباحثين المسيحيّين أنّ هناك ضرورة حتميّة لوجود الإمام علي عليه السلام كي يُجسّد القيم الإنسانية النبيلة من أجل أن يكون مثلاً أعلى للناس، وليس للمسلمين فحسب، في اعتناق تلك القيم والإخلاص لها حتى النهاية، وكي يصبح هو بدوره حُجّة لله عليهم في علمه وعمله، وفي سائر فضائله وخصاله.

فافتقاد الإمام لأيّ خصلة فاضلة أو صفة نبيلة سامية، سواء في العدل أو في الشجاعة أو في الحكمة أو في العلم أو حتى في بقيّة الصفات الأخرى، فإن ذلك يعني وجود ثغرات في كيان الأمّة وفي وجودها الحضاريّ والرياديّ بحيث يسبّب خللاً واضحاً في عملية توازنها وفي استمرار سيرها على الخطّ الحضاري السليم.

ولذلك كان وجود الإمام علي عليه السلام على مسرح الرسالة الإسلامية قدراً سماوياً مرسوماً بحكمة عظيمةٍ كي يعطي الناس درساً بليغاً في الكمال الإنساني الذي لا يمكن لأحدٍ أن يجد ثغرة واحدة في كمال خصاله وصفاته وفي عموم

تصرُّفاته وسلوكياته التي كانت بحقٍّ حجّةً لله على خلقه.

ولذلك، فإن الأستاذ (العزيزي) يقول: إن الإنسان إذا تفوّق في مجال واحد، اعتبره الناس عظيماً من العظماء، فكيف هو الحال مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان مميّزاً وعظيماً في كل ميدان ومجال؟!!

ويُعقّب الأستاذ (العزيزي) على هذا الكمال والتكامل في شخصيّة الإمام علي عليه السلام بقوله: «إنه (أي الإمام علي عليه السلام) سبق عصره بمئات السنين، وإن الأجيال المقبلة ستكشف في شخصيته الفذّة عناصر جديدة من العظمة، وفي علومه وخطبه أسراراً تُحيّرهم»[1].

إذاً، فعلوم الإمام علي عليه السلام ومعارفه المنتشرة بغزارةٍ في خطبه ووصاياه وأقواله، تارةً بالتصريح وتارةً بالتلويح، سيكون لها شأن كبير في المستقبل حيث إنّ كلّ جيل سيُفكّك شيئاً من رموزها وأسرارها حتى تعرف كلُّ الأجيال اللاحقة ما هو حجم الخسارة التي مُنيت بها الإنسانية بخسارتها ذلك الإمام العظيم الذي لم يُقدّر حقّ قدره بين قومه كما قال الفيلسوف جبران خليل جبران.

وقبل أن نرحلُ مبتعدين عن عالم (روكس بن زائد العزيزي) الفكري وعن آرائه القيّمة تجاه علوم الإمام علي عليه السلام، علينا أن نشير إلى أن الأستاذ (العزيزي) لم يستبعد أن يكون الإمام علي عليه السلام هو السبّاق إلى فكرة ريادة الفضاء[2]، كما وأنّه قد أكّد من خلال دراسته المعمّقة لكتاب نهج البلاغة أن

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٢٠٧.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٠٦.

الإمام علياً عليه السلام هو أيضاً أول من أشار إلى حركة الكُرة الأرضيّة واهتزازاتها واضّطراباتها الجيولوجيّة.

وعن حركات الأرض هذه، يؤكّد الأستاذ (العزيزي) على أن الإمام علياً عليه السلام ، من خلال بعض أقواله وخطبه، وبشكل خاص تلك الخطبة الشهيرة المعروفة بخطبة «الأشباح»، قد أثبت الكثير من الحقائق العلميّة التي تتّفق مع أحدث نتائج البحوث والدراسات العلميّة العصريّة.

وها هو يقتبس بعضاً من تلك الخطبة الطويلة، ويقوم بعد ذلك بالتعليق على ما اقتبسه منها: «...فلمّا سكن هياج الماء من تحت أكتافها، وحمل شواهق الجبال الشمخ البذخ على أكنافها، فجّر ينابيع العيون من عرانين أنوفها» إلى أن قال عليه السلام: «وعدّل حركاتها بالرّاسيات من جلاميدها» ثم يتابع (العزيزي) مستشهداً بقول علي عليه السلام: «فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها»، وقد علّق الأستاذ (العزيزي) على هذا الكلام المأخوذ من خطبة «الأشباح» بتأكيده على الوفاق بين رأي الإمام علي عليه السلام ورأي العلم الحديث بشأن الحركات الجيولوجيّة المختلفة للأرض وبشأن طبيعة انبثاق مياه الينابيع الجوفيّة من الجبال كما يقول أهل العلم في هذا العصر[1].

وإذا كان هذا هو رأي المفكّر (العزيزي) عن إبداعات الإمام علي عليه السلام الفكرية في المجالات العلمية الطبيعية، من خلال ما قرأ له من أقوال وخطب في نهج البلاغة وفي غيره من الكتب التراثيّة التي تتناول أحاديث وسيرة حياة الإمام علي عليه السلام ، فهناك أيضاً من وقع على العديد من الآراء والأفكار العلميّة

(١) نفس المصدر السابق: : ص١٤٦.

الإبداعية في (نهج البلاغة) الذي يحوي الكثير «من العلوم والنصائح التي يحتاجها الناسُ على مرّ العصور، وفي نهج البلاغة علم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وإشارات قيّمة في علم الفضاء والتكنولوجيا إضافة إلى الفلسفة والسلوك والسياسة والحكمة»[1].

ولا ريب في أنّ هذه العلوم الجمّة المذكورة في نهج البلاغة وفي غيره من الكتب والتصانيف التي تتناول الجوانب الفكرية في حياة أمير المؤمنين علي عليه السلام، قد تمّ تناقلها عبر بقيّة الأئمة عليهم السلام ومن ثمّ تحوّلت إلى نوع من العلوم التطبيقية العملية التي أخذت أبهى أشكالها في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية على يد علماءٍ كبار كان معظمهم من رجال الفكر الإسلامي الشيعي الذين ورثوا ورعوا علوم أئمّتهم ووصاياهم الكثيرة بشأن صيانة وتطبيق علومهم النظريّة ومعارفهم الغزيرة الموروثة القادرة على خدمة الدين والدنيا.

وهذا الكلام ليس من عندنا، بل هو كلام العديد من المستشرقين الذين تكلمّوا عن هذه الحقيقة الواقعة، ويكفي أن نقول: إن المستشرق والباحث (لويس غارديه) يرى في كتابه (أهل الإسلام): «أنّ العلوم الإنسانية الباهرة في ذلك الزمن قد تشرّبت بمجملها قيماً وسلوكيات شيعيّة»[2].

وهذا الكلام الصائب من المفكّر (لويس غارديه) جاء متوازياً في معناه مع ما كتبهُ المستشرق الإنكليزي (هاملتون جب) في كتابه (التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى) حيث قال فيه بالحرف: «وقد يُدهشنا لأول وهلةٍ أن نرى

(١) د. محمد التيجاني السماوي: فاسألوا أهل الذكر، مؤسسة الفجر - لندن، ١٩٩٩، ص٢٧.
(٢) لويس غارديه: أهل الإسلام، ص٢١٦.

عدداً كثيراً من أشدّ الحركات والأشخاص نشاطاً في القرنين الثالث والرابع كانوا ذوي ميولٍ شيعيّة»[1].

وبناء على كل ما قاله المستشرقون والمفكّرون المسيحيون في الشرق والغرب عن الشخصيّة العلمية للإمام علي عليه السلام يمكننا أن نقول: إن الإمام علياً عليه السلام هو النموذج الحضاري المتميّز في سفر الرسالة الإسلامية. فبالإضافة إلى العامل التربوي المُتمثّل في الجو العام الذي نشأ فيه الإمامُ علي عليه السلام في ظلال الدوحة المحمديّة وبين أحضان سيّد الرسالة السماوية صلى الله عليه وآله، فهناك أيضاً العامل الذاتي الشخصي.

فالعامل الشخصي هو ذاك العامل المقصود به أن الإمام علياً عليه السلام ذاته قد وُلد ونشأ مُزوّداً بمؤهلات ذهنيّة وقدرات عقلية ارتفعت به إلى ما فوق مستوى الذكاء الخارق، بل إلى ما فوق مستوى ومفهوم العبقرية. ويعود كل هذا إلى أن الله سبحانه وتعالى، وبحكمته الخفيّة، أراد أن يعدّه الإعداد الكامل والتام لحمل ونشر عبق الرسالة الإسلامية وتحمُّل مسؤولياتها العظيمة بعد غياب النبيّ صلى الله عليه وآله وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ومن البديهي تماماً أن تكون إحدى هذه المسؤوليات الهامة هي قضيّة التشجيع والحثّ على التحصيل العلمي والبحث المعرفي. فالرسالة الإسلامية، كما ذكرنا سابقاً، لا تدعو فقط إلى البحث في شؤون الفقه والقضاء والتوحيد، أو ما يمكن تلخيصه بعبارة (علم الشريعة)، بل تدعو أيضاً إلى تحصيل كافة

(١) هاملتون جب: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب - دمشق، د.ت، ص٢٣.

أنواع العلوم والمعارف الأخرى التي ترتبط بعلاقة الإنسان بمحيطه الذي يسكنه، وذلك لأن الرسالة الإسلامية في نهاية المطاف رسالة حضارية عالمية مُوجّهة إلى العالم بأكمله وإلى كل إنسانٍ فيه. فالرسالة الإسلامية هي رسالة تدعو إلى قراءة الحياة وفهمها، فهي ثقافة الحياة. وعندما يكون الإسلام هو ثقافة الحياة، فهذا يعني أن ثقافتنا في الحياة لا بد وأن تكون مرتبطة بالعقل والعلم حتى تستطيع تلك الثقافة صنع الإنسان المتوازن وصقل قدراته المتعدّدة التي تُمكّنه من استمرار عملية استكشاف طبيعة الوجود ودراسة أسرار الحياة.

وهنا يأتي دور الأديب (جورج جرداق) للتحدث عن استشكاف مجاهيل الوجود ودراسة خفايا الحياة وكشف الغطاء عن أسرارها في فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ونستطيع أن نتبيّن بوضوح كيف استطاع الأديب (جرداق) أن يرسم بأسلوبه الأدبي البليغ الكثير من الصور الصادقة والمدهشة لشخصيّة الإمام علي عليه السلام العلميّة المؤهّلة لبناء أسس الحضارة الإسلامية المستقبليّة والتي من المفترض لها أن تغمر بنورها وضيائها جميع أرجاء المعمورة في حال تمسُّك المسلمين بتعاليم القرآن الكريم وبوصايا الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله بشأن الاعتصام بحبل ولايته والإخلاص له والسير على نهجه الحضاري وسلوكه الإنساني الذي رسمه لهم كي يسيروا عليه من بعده.

وأول شيء يقوله الأستاذ (جرداق) عن هذا الجانب في شخصية الإمام عليه السلام، هو أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالنظر في الأمور الجديّة نظراً عابراً، بل كان ممّن يقفون على لباب المشكلة أو القضيّة

وليس على ظاهرها وقشورها.

فالإمام علي عليه السلام - بالنسبة لجرداق- هو ذاك الإمام العالم الذي أمعن النظر في كل حرفٍ وفي كل كلمةٍ من كتاب الله الحكيم إمعاناً دقيقاً يجعل من كتاب السماء كتاباً جديراً بالتأمّل والتفكير العميق في كل ما جاء فيه من أحكامٍ وحكمٍ وعلوم وأخبار ومعارف تفيد الإنسان وتفتح له نوافذ فكره على حقائق الوجود، وتعمل على رفعه وترقيته من مستوى الحياة الأرضية إلى مستوى الحياة السماوية. ومن هنا يتحّولُ الإمامُ علي عليه السلام بالدّين من كونه -كما يراه البعض- شريعة تهتمُّ فقط بالفقه والأحكام الشرعيّة إلى كونه موضوعاً للفكر المحض والدراسة الخالصة والتأمُّل البعيد[1].

ولعلّ أبرز ما يمكن أن يُميّز العبقري العظيم عن سواه ليجعل منه منارةً هاديةً للسفن المتهادية اضطراباً بين جبالٍ من الأمواج العاتية وستائر من قطع الليل البهيم، هو التكامل والتماسك في شخصية ذلك العبقري العظيم، وهذا التماسك والتكامل يمثّلان ما في الكون من تماسكٍ في العناصر وتكاملٍ في القوانين ووحدةٍ غير قابلةٍ للفصل ما بين عُنصُري الزمان والمكان.

وفي هذه الحالة، يرى ذلك العبقري المتكامل والمتماسك نفسه صورةً مصغّرةً للكون كُلّه. وهنا تبرز صورة التكامل والتماسك في شخصيّة الإمام علي عليه السلام بشكلها الواضح والبعيد عن أيّ غموض أو التباس، وبإمكاننا أن نقرأ معالم تلك الصورة المتكاملة والمتماسكة من خلال ما عبّر عنه الأديب

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٩٩.

والمفكّر (جورج جرداق) بقوله: «ألقى ابنُ أبي طالب هذه النظرة على الكون، فوعى وعياً عميقاً ما في أجزائه من تكافؤ وتكامل، وأدرك أن الموجودات المُجزّأة في ظاهرها، متفاعلة متكاملة مُوحّدة في جوهرها، وأنّ ما تباعد منها في الزمن الآني مضموم في وحدةٍ طرفاها الأزل والأبد، وأنّ عناصر الكون جميعاً مترابطة متساندة، وأنّ حقوقاً افتُرِضت لبعضها على بعض، فهزّهُ ما رأى وما وعى، ومشى في كيانه، فتحرّكت شفتاه بما جاش في أعماقه وقال: ألا وإنّه بالحق قامت السماوات والأرض»[1].

ولا ريب في أن هذه النظرة من الإمام علي عليه السلام تجاه الكون هي نظرة علمية سليمة وهي رؤية موضوعية صائبة نظراً لما تحتوي من تناسقٍ وتكاملٍ في عملية البناء الهرمي للوصول إلى الحقائق والثوابت المعرفية. وهذا يعني أيضاً أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن ينظر إلى الأمور نظرةً أحاديّة البعد أو أحاديّة الجانب، ولم يكن يجتزئ الحقائق أو يفرّق بعضها عن بعض، وإنّما كان ينظر إلى الأمور بعين الباصر الخبير الذي يدرك أنّ كلّ حقيقةٍ مُفردةٍ في الوجود لا يمكنها أن تصنع علماً مثلما أنّ تفَتح زهرةٍ بريّةٍ في الصيف لا يعني عودة الربيع أبداً، بل إنّ تجمُّع الحقائق كلها وترابطها بشكلٍ متناسق هو الذي يصنع العلم والمعرفة. ولا ريب في أنّ هذا هو ما قصده العالم الفرنسي (جول هنري بوانكاريه) (١٨٦٠-١٩٣٤) بقوله:

«يُبنى العلمُ بالحقائق مثلما يُبنى المنزلُ بالحجارة. ولكن اجتماع الحقائق

---

(١) مجموعة من المفكرين: في رحاب مهرجان الإمام علي عليه السلام، الفردوس للثقافة والإعلام، دمشق ٢٠٠١، ص٢٤.

ليس بعلم، إلا مثلما أن كومة الحجارة ليست بمنزل»[1].

فاجتماع الحقائق دون تنسيقٍ وترابطٍ، أشبه ما يكون باجتماع مجموعة من الحروف، ولكن مُجرّد اجتماع هذه الحروف على ورقةٍ بيضاء لا يعني أبداً تشكيل أيّة جملة مفيدة، بل إنّ اجتماع الحروف وتنسيقها وترتيبها كلمة إثر كلمة بشكلٍ مترابطٍ هو الذي يعطينا جُملاً مفيدةً ويجعلنا ندرك معانيها وغاياتها.

ولهذا السبب كان أمير المؤمنين علي عليه السلام إماماً موسوعياً أحاط بالكثير من الحقائق المُفردة في معظم ميادين العلوم، لكنّه لم يتوقّف عند حدود المعرفة المُجزّأة والمُفكّكة، بل عمد إلى ترتيب وبناء تلك الحقائق والثوابت العلميّة من أجل التوصّل إلى الأسس السليمة لتلك الفروع المختلفة من العلوم.

ونتيجةً لتلك المقدمات والحقائق العلمية التي كان يدركها الإمام علي عليه السلام حقّ الإدراك والمعرفة، فقد استطاع أنْ يُخبر أصحابه أنّ هناك إمكانيّةً لاستخراج الطاقة الهائلة من تحت الرمال ما بين العراق والحجاز. ففي إحدى المرّات، كان الإمام علي عليه السلام مسافراً مع بعض أصحابه في رحلة طويلة ما بين الحجاز والعراق، وأثناء المسير قرّروا أن يأخذوا قسطاً من الراحة. وفعلاً، بعد أن افترشوا رمال الصحراء من أجل نيل قسطاً من الراحة المطلوبة، جلس الإمام علي عليه السلام وهو يُقلّبُ حفنةً من الرمال بكفّيه وهو يخاطب أصحابه المحيطين به قائلاً:

(١)J.Aitchison. The Seed of speech, Cambridge Univercity Press 1996, p.12.

«لو شئت لاستخرجت لكم من هذه الأرض النّفط! قالوا: وما النفط؟ قال عليه السلام: شيءٌ يُشبه الزيت»[١].

وبالطبع، كان المسلمون وقتها يعرفون مواداً شبيهةً بالنفّط الحقيقي، ولكنّهم لم يكونوا يعرفون ما هي طبيعة النفط ولا أين يمكن أن توجد مكامنه الأساسية، ولا كيف يمكن الحصول عليه ولا كيفيّة استغلاله واستخدامه، إلى غير ما هنالك من أسئلة يمكن أن تخطر على البال.

ولكنّ الإمام علياً عليه السلام اكتفى وقتها بتحفيز أذهانهم واستثارة عقولهم من أجل البحث والكشف عن تلك الثروة الهائلة التي ستكون في المستقبل، سلاحاً فعّالاً في يد الإنسان من أجل بناء مجتمع مُتقدّمٍ وثريٍّ فيما لو أحسنوا طريقة استثماره وسياسة استغلاله.

وإذا كان المفكرون المسيحيون يرون في الإمام علي عليه السلام صورة الإمام العالم الذي كان يدفع الناس إلى تحقيق وجودهم من خلال تحصيلهم العلمي، فإنّ هذه الحقيقة كانت جزءاً جوهريّاً في دراسة شخصيته العظيمة في كمالها وتكاملها.

فالإمام علي عليه السلام كان دائماً يؤكّد على أنّه لا يمكن لأيّ إنسانٍ أن يحصل على المعرفة إلا بعد أن يتعلّم كيف يفكّر. فكيفية التفكير ومنهجيّتُه عند الإمام علي عليه السلام لا تقلّ أهميّة عن نتائج ذلك التفكير، وهذا ما يؤكده العديد من العلماء والمفكرين والفلاسفة المعاصرين، إذ أثبت التاريخ العلميّ أنه لا معرفة

(١) حسن الصفار: أئمة أهل البيت رسالة وجهاد، دار المحجة البيضاء - بيروت، ط٢/٢٠٠٣، ص٧١.

دون منهج ولا علوم دون الاستعدادين الفكريّ والمنهجيّ الملائمين للسير على طريق اكتشاف الكثير من الحقائق العلميّة.

فعندما يقول الإمام علي عليه السلام: «في التجارب علمٌ مُستفاد»[١]. وعندما يقول أيضاً: «ما من حركةٍ إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة»[٢]، وقوله: «أعلمُ الناس من جمع علم الناس إلى علمه»[٣]، فإنما تدلُّ هذه الأحاديث على أنّ التجارب - ونحن نعرف أن التجربة منهج- هي فاتحة الوصول إلى المعرفة بالشيء سواء كانت تلك المعرفة في مجال العلوم الطبيعية أم في أيّ مجالٍ من المجالات الأخرى. وقد علّق الأديب والمفكر (جرداق) على هذه الأحاديث الواردة عن الإمام علي عليه السلام بمقالاتٍ عديدة تُبيّن وتوضّح للقارئ ماذا يريد الإمام علي عليه السلام من الناس بشأن التحصيل العلمي وكيفيّة ذلك التحصيل وما هي الأهداف المرجوّة منه، وقد بيّن الأستاذ (جرداق) ما قصده الإمامُ علي عليه السلام في الحديث السابق (أعلمُ الناس من جمع علم الناس إلى علمه) بأنّ الإمام عليه السلام قد أعطانا إشارة واضحة في نهجه العلميّ تدلّ على أن هناك ضرورة طبيعيّة، بل حتميّة، للتعاون بين البشر في الجهود المبذولة في سبيل المعرفة، وأنّ هناك إرادة مشتركة بين العلماء، بل وحتى بين الخلق جميعاً، في عملية استكشاف كافة المعارف الإنسانية[٤].

---

(١) يوسف مروّة: العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي، منشورات مروة العلمية - بيروت، ١٩٦٨، ص٩.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٢ ص٢١٢.

(٣) نفس المصدر السابق: ج٢ ص٢١٢.

(٤) نفس المصدر السابق.

ولكنّ الشيء الجديد الذي جاء به الأستاذ (جرداق) في تحليله للشخصية العلميّة التي يتميّز بها الإمام علي عليه السلام هو الانتباه إلى عملية ربط العلم بالذوق الجمالي الفنّي وبالحس الأدبي الرفيع. وهذا الربط بين المفاهيم قد يبدو لنا غريباً بعض الشيء، ولكن الأمر ليس كذلك، فالعالمُ هو ذاك الشخص الذي يتذّوقُ جماليات التناسقات الكونيّة والتناغمات الطبيعيّة في كل ما تحويه تلك الطبيعة من مفرداتٍ محكومةٍ بمئات القوانين المترابطة بإحكام وبحكمةٍ وذلك من خلال اكتشافه لتلك القوانين المُحكمة ومن خلال الكشف أيضاً عن قدرة العقل البشري وأسراره المذهلة.

وقبل أن أذكر ما قاله الأديب (جرداق) عن هذه النقطة تحديداً، سأعمدُ إلى ذكر بعض أقوال العلماء والمفكرين المتعلّقة بنفس النقطة التي نحن بصدد الكلام عنها الآن.

يقول الفيلسوف والعالم الشهير (ألبرت إينشتاين) (١٨٧٩-١٩٥٥) عن الإحساس الجماليّ والشعور الصوفيّ المرافق لعملية البحث العلمي عنده: «إنّ أجمل انفعالٍ يمكن أن تهتزّ له نفوسنا هو الانفعال الصوفي، فهو أصل كلّ فن وكل حقّ. فمن ينعدم فيه هذا الشعور ولا تجد الدهشة سبيلاً إلى نفسه ويحيا هلوعاً جزوعاً - إنّ هذا ميت والسلام. إنّ معرفة أنّ ما لا ندركه هو موجود حقاً، ويتجلّى حكمةً وأي حكمة، وجمالاً وأيّ جمال!..... إنّ هذه المعرفة وإن هذا الشعور هما محور الشعور الديني الصحيح. فبهذا المعنى، وبهذا المعنى وحده، أضع نفسي في مصاف الرجال المُتدينين تديُّناً عميقاً»[1].

(١) د. محمد عبد الرحمن مرحبا: آينشتاين، مكتبة النهضة - بغداد، ط٢/١٩٦٢، ص١٤٠.

إذاً، هناك علاقة وطيدة بين العقل العلمي والإحساس الجمالي: جمال الوجود، جمال الكلمة، جمال الحقيقة، جمال الفكرة، وهذا ما عناه (إينشتاين) بتأكيده على أن التجربة الدينيّة الكونيّة القائمة على الذوق الجمالي الفني في استشراف وتذوُّق ما يحيط بنا وما يعيش معنا هي أشرف تجربة وأقواها، وهي في حقيقتها تنبثق من البحث العلمي الدقيق.

ولم يختلف قول الباحث (ج. سوليفان) عن قول (إينشتاين) بشأن العلاقة بين الحقيقة العلمية والبُنية الجماليّة. فعبارة (سوليفان) تُعبّر عن أنّ الحقيقة المتمثلة في أن العلم يُشبعُ فضولنا الثقافي إلى درجةٍ عظيمة، ويُغذّي إحساسنا الجمالي بعظمة الوجود، هي في حدّ ذاتها مُبرر كافٍ لوجوده. وعبارة (سوليفان) تقول: «من الواضح أنه يترتّب على العلم أن يتناول إحدى الحاجات العميقة في النفس الإنسانية، حتى يستطيع أن يجتذب إخلاص الناس وحماسهم له. إنّ الحاجة هنا تتمثّل في الاستجابة أو الرغبة في الجمال. وإنّ سحر العلم الرئيسي يتمثّل في اعتباراته الجماليّة»[1].

فالطبيعة التي تُظهرُ لنا نظاماً دقيقاً ومعقّداً، وتبوح لنا يوماً بعد يوم ببعض أسرارها وقوانينها، هي، بحدّ ذاتها، ما يجعل السعي وراء العلم لزيادة اكتشافها مطلباً يستحقّ الاهتمام والتحصيل. وكما يقول العالم (بوانكاريه): «ولو لم تكن الطبيعة ذات انسجامٍ من الجميل تأمُّلهُ، فإنّ العلم لن يستحقّ السعي في طلبه، والحياة لن تستحقّ أن تُعاش»[2].

(١) ج. سوليفان: قيمة العلم، الدار العلمية - بيروت، ١٩٧٢، ص٣٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٦.

هذه بالطبع بعض الأقوال التي أردتُ ذكرها بهدف بيان العلاقة بين ما يدركه العقلُ وما يتحسّسُه الوجدان والذوق في إدراك الواقع.

وبالطبع، إنني لم أورد هذه الأقوال عن عبث، ولولا ضيق المكان وخروجنا عن جوهر كتابنا الذي بين أيدينا الآن، لكنتُ قد أوردتُ الكثير من الأقوال المشابهة لكبار العلماء والباحثين في الحقل العلمي، ولكن أحببتُ فقط أن أؤكّد أنّ ما قاله الأديب المسيحي (جورج جرداق) عن الإمام علي عليه السلام ونظراته (الفلسفية- العلمية) للوجود لم تكن في جوهرها إلا عين ما قاله كبار العلماء المعاصرين عن نظرتهم العلميّة لهذا الكون الفسيح وعن الضرورة الأساسية لكيفيّة التعامل معه.

وهنا نطلب من القارئ الكريم أن يربط بين ما قرأ من أقوالٍ لإينشتاين ولغيره من العلماء الذين ذكرناهم وبين ما يقوله الأستاذ (جرداق) عن النظرة العلميّة العميقة والشاملة للإمام علي عليه السلام تجاه هذا الوجود الكونّي العام.

يقول الأستاذ (جرداق) في كتابه (علي وسقراط): «إنّ عليّ بن أبي طالب عظيم من عظماء هذه الطائفة (أصحاب النظرة العميقة في الوجود) من حيث النظرة والأسلوب: طائفة الأدباء الخالدين الذين اخترقوا حُجُب الحقائق ليدركوها كما هي. أولئك الذين يرون ما يرى الناس جميعاً ولكنهم يدركون كنهه وحدهم دون سائر الناس! أولئك الذين ينظرون إلى نجوم السماء ورمال الصحراء ومياه البحار وكساء الطبيعة فإذا هي أشياء من نفوسهم، هذه النفوس التي تستشعر في الكون قوةً جمالية واحدة منذُ الأزل وتبقى إلى الأبد»[1].

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص١٩٦.

هذه هي رؤية الأديب والمفكّر المسيحيّ (جورج جرداق) الناتجة عن دراسته المُعمّقة لسيرة وشخصية الإمام علي عليه السلام العلمية والفكرية، فهناك عنصر جماليّ عند الإمام عليّ في عملية التفكير العلميّ والبحث المعرفيّ. فعندما يتأمّل الإمام علي عليه السلام السماء وما فيها، والصحراء وما تحمل، والبحر والنهر، والنحلة والنخلة، فإنّما يتأمّل ذلك بأسلوب الفلسفة العلميّة التي تبحث عن حقائق الأشياء وأسباب حدوثها مع عدم إغفال الظاهرة بحدودها الخارجية التي تخلق في نفس المتأمّل المتفكّر إحساساً بالجمال وشعوراً بالجلال.

وعندما يستشهد (جورج جرداق) بعبارة رائعة للإمام علي عليه السلام يقول فيها: «الفكرة تُورثُ نوراً والغفلة تورث ظلمة»[1]. فإنّ هذا يعني - بالنسبة للإمام علي عليه السلام - أنّ الإنسان بحدّ ذاته له قيمةٌ معرفيّة بالإضافة إلى قيمته الوجودية. فالإنسان إنسانٌ قبل كل شيء وهو خليفةٌ ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة، ولكنّ الإنسان، بنفس الوقت، له قيمته المعرفيّة التي ترفع من مستوى إنسانيّته إلى أرفع وأرقى المستويات. فالقول: إنّ (إن الفكرة تورث نوراً) يعني أنّ هذا النور المعرفيّ المُكتسب بالتأمّل والبحث هو نور المعرفة القادر على تبديد ظلمات الجهل والتخلف الناتجة عن الغفلة التي تمثّل انعدام الفكر أو الفكر السلبيّ العقيم.

ولذلك، فليس من الغريب علينا أن يأتي الفيلسوف والعالم الفرنسي الشهير (بليز باسكال) (١٦٢٣-١٦٦٢) بعد الإمام علي عليه السلام بقرونٍ عديدة ليؤكّد ما قاله أمير المؤمنين علي عليه السلام، وليخاطب الناس بأسلوبه الفلسفي

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٢ ص٢١٢.

الخاص قائلاً: «أستطيع أن أتخيّل إنساناً بلا يدين وبلا رجلين، وحتى بلا رأس، لكنّني لا أستطيع أن أتخيل إنساناً بلا فكر.....عظمة الإنسان بالفكر»[(١)].

وهذا ما يؤكّد أن عظمة الإنسان الحقيقية تكمن في فكره وفي كيفية استخدام هذا الفكر وفي أسلوب تفعيله، بكل طاقاته وأبعاده الأدبية والأخلاقية والعلمية على أرض الواقع بكلّ ما في ذلك الواقع من احتياجات ضرورية للكشف عن أسرار الطبيعة وعن أسرار وخفايا النفس الإنسانية وعن اللمسات الجماليّة التي يمكن أن يقع عليها صاحبُ ذلك الفكر عند تأمُّله للظواهر الخارجية وتقصّيه الجدّيّ للكشف عن تلك القوانين الكثيرة التي تحكم كلّ مفردة من مفردات هذا الوجود بدءاً من الذرّة وانتهاءً بالمجرّة.

إنّ هذا الفكر الفلسفي والعلمي العظيم الذي كان يتفاعل داخل صدر الإمام عليعليه السلام بشكل دائم هو الذي جعله يدرك الكثير من الحقائق العلميّة والقوانين الاجتماعية، فكُلُّ حركة من حركات الإمام عليعليه السلام كانت قائمة على ضرورة اكتساب المزيد من العلم والفكر، وكلُّ مزيدٍ من الفكر والعلم كان يزيده نوراً على نور وعظمةً على عظمة.

فما الذي يمكن للمرء، سواء كان مسلماً أم مسيحيّاً، أن يقوله عن عظمة الإمامعليه السلام الفكرية وعن اتّساع أنوار بصيرته وعن عمق علومه ومعارفه بعد أن يقرأ في العديد من الكتب التي تتناول الجانب العلميّ في شخصيّة الإمام عليعليه السلام أنه عندما مرّ بالفرات في إحدى المرّات، وقد رأى غزارة مائه وقوّة

(١) أندريه كريسون: باسكال، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات - باريس، بيروت ١٩٨٢، ص١٢٢.

تدفّقه، وقف مُتأمّلاً ما يرى، ثم قال عليه السلام لأصحابه المحيطين به: «لو شئت لاستخرجتُ من هذا ناراً»[(١)]، وفي بعض النسخ وردت كلمة «نوراً» بدلاً من كلمة «ناراً» ولا خلاف برأينا، في ذلك، لأن الطاقة الكهربائيّة المتولدة عن قوة تدفّق الماء يمكن أن تتحوّل إلى نورٍ وطاقةٍ لخدمة الإنسان، ويمكن بنفس الوقت أن تتحول، إذا أسيء استخدامها عمداً أو جهلاً، إلى طاقة مُدمّرة ومهلكة للإنسان أيضاً، وهي بذلك نور ونار.

ولا ريب في أن هذا فتح علميٌّ عظيم لم يستطع العلماء اكتشافه واستغلاله إلا بعد مُضيّ قرون عديدة على هذا القول الذي يحمل إشارة واضحة إلى الطاقة الكهربائية.

وهذا الكشف العلمي من الإمام علي عليه السلام هو كشف نظري يُعطي الإنسانية الدّفع والحافز من أجل إعمال الفكر بشكلٍ دؤوبٍ بهدف تحويل هذه الإشارة النظرية الواضحة من الإمام علي عليه السلام إلى عمليّة تطبيقيّةٍ ولو كلّف هذا السّعيُ الدؤوب عصارةَ جهد عشرات الأجيال اللاحقة.

وبالطبع، فإن أولئك الذين كانوا مع علي والذين عاشوا معه في زمنه لم تكن عقولهم تستوعب جوهر هذا الاكتشاف ولم تكن أذهانهم تمتلك القابليّة القادرة على إدراك وفهم ما يمكن أن يشرحه الإمامُ علي عليه السلام لهم في ذلك

---

(١) راجع ما جاء في:

أ) عباس الموسوي: الإمام علي عليه السلام منتهى الكمال البشري، منشورات عويدات - باريس، ١٩٨٣، ص١٢٢.

ب) يوسف مروة: العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي، ص٩.

الزمان.

ولذلك، كان يحزُّ في نفس الإمام عليه السلام أن لا يجد حملةً حقيقيّين للعلم الذي كان يملكه، وكان يحزُّ في نفسه أكثر هو أن يقف مرّات ومرّات ليقول للناس: «سلوني» فلا يجد سائلاً مُتعلّماً، بل كان يجد في معظم الحالات سائلاً مُتعنّتاً يسأل الإمام عليه السلام سؤالاً تافهاً كسؤال أحدهم له: أخبرني كم شعرة في رأسي ولحيتي؟

فما هذا السؤال الجوهري!!! وما هذا السؤال العبقري؟!!!

وبالعودة إلى آراء ووجهات نظر الأستاذ (جرداق) حول علوم ومعارف الإمام علي عليه السلام، يمكننا ملاحظة أن الأستاذ (جرداق) يعطي فكر الإمام علي عليه السلام أبعاداً فلسفية، وعلمية، بل وحتى أدبية أيضاً. فالعلم والتحصيل العلميّ عند علي عليه السلام فنٌّ وفلسفة، والأدب أيضاً فن وعلم، وحتى الأدب فلا يخرج عنده من دائرتي الفلسفة والعلم. ففكره الإبداعيّ الأصيل -كما يراه جرداق- عبارةٌ عن صرخات متلاحقة تنطلق من قلب عبقريٍّ يريد أن ينفذ إلى الأشياء حتى يرى أغوارها فيطمئنّ إلى ذلك الإدراك وحتى يعقل ما تباين منها ثابتاً على قاعدةٍ، وما اختلف منها نابعاً من أصلٍ، وما تباعد منها مضموناً في وحدة طرفاها الأزل والأبد[1].

ولذلك، فعندما يؤكّد الأستاذ (جرداق) على أنّ العلم عند أمير المؤمنين عليه السلام هو فنٌّ وفلسفة -كما مرّ معنا منذ قليل- فإن هذا الكلام لا يُجانب

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص٢٠٦.

الحقيقة أبداً، ولا يبتعد عنها مطلقاً، لأنّ العلم عند الإمام علي عليه السلام هو في نهاية المطاف، لمصلحة الإنسان ولرفع قيمته الإنسانيّة ومستواه الوجودي جسداً وروحاً، حسّاً وذوقاً. فالعلم طريقة هامة وأسلوب صائب لفهم حقائق الوجود وأسراره، وهو بنفس الوقت أسلوب متقدّم ومنهج متطوّر لتسخير واستغلال نتائج تلك المعارف في سبيل خدمة الإنسان بأسلوب فنّيٍّ حضاريٍّ يؤكّد من خلاله قيمة العلم وقيمة الإنسان ذي العقل المُكلّف بإزاحة اللّثام عن أسرار الكون وعن القوانين التي تحكمه وتسيطر عليه.

وحتى تتّضح الصورة أكثر في ما يتعلقّ بقضيّة العلاقة بين العلم والفن والفلسفة التي تحدّث عنها الأستاذ (جرداق) في معرض حديثه عن مفاهيم العلم عند الإمام علي عليه السلام، لا بدّ لنا من أن نذكر شيئاً عن هذه العلاقة الوطيدة بين العلم - وبشكلٍ خاص علم الرياضيّات- وبين النشاطات الفكرية الأخرى كما يراها الباحثون في الميدان العلمي الحديث.

يقول الباحث (ج. سوليفان) في كتاب (limitations of science) (حدود العلم)، والذي تُرجم الفصل السابع منه فقط إلى اللغة العربية تحت عنوان (قيمة العلم):

«وما من شك في أن العنصر الجمالي في الرياضيات هو المبّرر الرئيسي للاهتمام الذي حظيت به. وإذا كان يترتّب تصنيف الرياضيات كعلمٍ، فإنها تبقى من بين العلوم الأخرى أقربها إلى الفن. وتاريخ تطوُّر الرياضيات يؤكّد هذه الناحية.... الرياضيات في مُعظم أقسامها تُشكّل نشاطاً مستقلاً بذاته. وهي تشبه بهذا الخصوص وإلى حدٍّ بعيد الموسيقى التي جرى تطويرها وفقاً

لاعتباراتٍ تنبع من صميم بيئتها الخاصة بها»[١].

ولا شك في أن هذا الكلام صحيح، وربما كان علم الفيزياء أكثر ارتباطاً بالواقع من علم الرياضيات، ولكنّ الإمام علياًعليه السلام -كما يقول الأستاذ جرداق- عمل على ربط الرياضيات، وبشكلٍ خاص علم الحساب، بأرض الواقع وذلك من خلال الغوص في علوم الفقه الذي يستوجب في بعض فروعه إحاطة كبيرة بالحساب من أجل الإرث والقسمة وما شابه ذلك، وهذا ما دفع الأستاذ (جرداق) إلى تثبيت هذه الحقيقة بقوله:

«ولم يقف علم علي بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه، بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه ومنها علم الحساب الذي كانت معرفته فيه تفوق معرفة معاصريه»[٢] وهذا يعني أن الإمام علياًعليه السلام جعل من علوم الحساب جسر ارتباط يصل ما بين علوم الفقه الدينيّ وما بين نشاطات الحياة الإنسانية المختلفة.

وممّا يمكن أن نذكره في هذا المجال، وهو ما أورده الأستاذ جرداق في كتابه (علي وحقوق الإنسان)، مجموعةً من المسائل الفقهيّة العويصة التي تتطلّب عقلاً رياضيّاً عظيماً قادراً على ضبط جزء كبير من علم الفقه من خلال علم الحساب بكل ما فيه من تفرّعات وتعقيدات.

ومن أجل إثبات وتأكيد مدى إحاطة الإمام عليعليه السلام بالعلوم الحسابية، فقد أورد الأستاذ جرداق حادثتين تؤكّدان ذلك في الصفحة/١٠١/ من كتابه المذكور، وها نحن نكتفي بذكر واحدة منهما:

---

(١) ج. سوليفان: قيمة العلم، ص٣٥.

(٢) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٩٨.

جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكت إليه أمرها ومصابها، فذكرت له عليه السلام أنّ أخاها قد مات، وكان قد ترك ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه هذا إلا ديناراً واحداً، فأجابها الإمام علي عليه السلام على الفور: لعلّه ترك زوجة وابنتين وأمّاً واثني عشر أخاً وأنت؟ فكان الأمر كما قال عليه السلام تماماً!!

إنّ هذا الجواب الذي نطق به الإمام علي عليه السلام على الفور يحتاج إلى عمليات حسابيّة مُعقّدة تحتاج إلى الكثير من الفطنة وسرعة البديهة، وربّما تحتاج عند الكثيرين إلى وقت طويل كي تخرج النتيجة المطلوبة بشكلها الصحيح الذي لا يُنقصُ كلّ صاحب ذي حقٍّ حقّه.

أمّا إذا أردنا أن نقف على الجانب الفنّي الذي يبعث في النفس إحساساً جماليّاً غريباً ومُحبّباً لما يمكن أن تخلقه عمليّةُ التعامل مع الأرقام والأعداد، فهي تلك المسائل التي لا تخرج عن كونها عملياتٍ حسابيّةً صحيحة ودقيقة ولا تخرج، بنفس الوقت، عن كونها أيضاً عمليات أشبه ما تكون بألغازٍ وأحجياتٍ تترك عند الإنسان بعد حلّها شعوراً بالدهشة حيناً وبجمال التعامل مع الأرقام حيناً آخر.

ومما هو مأثور في كتب التاريخ الإسلامي أنّ رجلاً أتى أمير المؤمنين عليه السلام وهو راكب على فرسه، وسأله عن عددٍ يقبل القسمة على ٢/٣/٤/٥/٦/٧/٨/٩/١٠ على أن يكون الناتج دون كسر، فأجابه الإمام علي عليه السلام بشكل مباشر مُرتجلاً: «اضرب أيام سنتك في أيام أسبوعك»، ثمّ همز فرسه وانصرف[1].

---

(١) يوسف مروة: العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي، ص١٢.

ويكون تفسير ذلك كالتالي:

/٣٦٠/ هو عدد أيام السنة المتعارف عليه في ذلك الوقت ×/٧/= ٢٥٢٠.

وهذا الناتج يقبل القسمة على /٢/ وعلى بقيّة الأرقام وصولاً حتى /١٠/، ويكون الناتج دائماً صحيحاً ودون كسر. وبالطبع، بإمكان القارئ الكريم أن يتأكّد من ذلك على الآلة الحاسبة.

أمّا الحادثة الثانية التي يمكن أن نذكرها هنا لتثبيت وجهة نظر المفكّرين المسيحيّين عموماً حول اتساع الرؤية العلمية في فكر الإمام علي عليه السلام وحول وجهة نظر الأستاذ (جرداق) خصوصاً بشأن البُنيّة الفكرية العلميّة عند علي عليه السلام وارتباطها في بعض جوانبها بالحس الجمالي والفلسفي عند أهل النفوس الصافية والأرواح السامية القادرة على الوصول إلى الكثير من الحقائق المجرّدة من خلال تعاملهم مع الأرقام والعمليات الحسابية الخاصة بها، إنّها تلك الحادثة التي وردت في الكثير من الكتب التاريخية المعتبرة والتي جاءت بشكلها الواضح والمختصر في كتاب (مشكلات العلوم) للنراقي، فقد ورد في الكتاب المذكور أنه جاء إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام ثلاثة رجال يختصمون في سبعة عشر بعيراً. أوّلهم يدّعي نصفها، وثانيهم ثلثها، وثالثهم تسعها، فاحتاروا في قسمتها لأنّه سيكون هناك كسرٌ في ناتج القسمة (أي جزء من بعير).

فقال علي عليه السلام: أترضون أن أضع بعيراً مني فوقها وأقسمها بينكم؟ قالوا: نعم.

فوضع علي عليه السلام بعيراً بين الجمال، فصارت ثمانية عشر، فأعطى الأولّ نصفها وهو (تسعة)، وأعطى الثاني ثلثها وهو (ستة)، وأعطى الثالث تسعها

وهو (اثنان) فأصبح المجموع: ٩+٦+٢=١٧ ثم أرجع البعير الذي أضافه إلى بيته[(١)].

ومن هذا المنطلق، علينا ألا نستغرب ممّا يقوله المفكّرون والأدباء المسيحيّون في الشرق أو المستشرقون في الغرب عن المنظومة الفكرية العلميّة للإمام علي عليه السلام وعن الدور الذي لعبه الإمام عليه السلام لاحقاً في عملية تفجير الطاقات الإبداعية الهائلة التي أسّست لقيام الحضارة الإسلامية المشرقة والتي كان الإمام الصادق عليه السلام العلم الأبرز فيها والمترجم العمليّ الأول للعلوم النظريّة التي ورثها عن جدّه أمير المؤمنين علي عليه السلام وعن رسول الإنسانيّة محمد صلى الله عليه وآله.

علينا إذاً ألا نستغرب ما مرّ معنا من أقوال للأستاذ (جرداق) الذي كان رأيه هو محطّتنا الأخيرة في ما يتعلّق بمسألة علوم علي عليه السلام ومعارفه. وعلينا ألا نندهش أيضاً عندما نقرأ الكثير والكثير ممّا كتبه المستشرقون عن الحضارة الإسلامية التي قاد زمامها الإمامُ علي عليه السلام الممثّل الأبرز لأهل بيت النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، ذلك النبي الذي قدّس بدوره أيضاً العقل البشريّ ودعاه للتفكير في كل المخلوقات وفي كل الظواهر الطبيعيّة التي تقود المرء إلى الكشف عن القوانين التي تضبطُ الوجود وتسيطر عليه، ومن ثمّ للكشف والإيمان لاحقاً بحقيقة وجود واجب الوجود.

ومن هنا علينا أن نتوقّف عن الدهشة والاستغراب حول هذا الموضوع، بل وعلينا ألا نسمح للدهشة أن تأخذنا أو أن تعصف بنا من جديدٍ خاصةً ونحن نقرأ نتائج تلك المقارنة التي أجرتها تلك المستشرقة الألمانية، الدكتورة (زيغريد

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٠.

هونكه) بين تعاليم الرسول المصطفى ﷺ ورسالته السماوية الداعية إلى تحصيل شتّى أنواع العلوم والمعارف من قبل كل مسلم ومسلمة، وأن يطلبوه ولو بخوض اللُّجج وسفك المُهج ولو كلّفهم ذلك الوصول إلى الصين، وبين تعاليم بولس الرسول (Paulus) الذي نهى الأتباع عن طلب علوم الدنيا والاكتفاء بطلب علوم الدين!![1]

ولذلك، علينا أن نتقبّل بكلّ ودّ واحترامٍ ذلك التقدير العظيم الذي أبدته الدكتورة (هونكه) تجاه الدين الإسلامي الحنيف بعد تلك المقارنة العقلانية القائمة على عددٍ كبيرٍ من الحجج والبراهين.

وربّما هذا هو أيضاً ما دفع بالعديد من المستشرقين إلى اعتبار أنّ جذور الحضارة الإسلامية العريقة هي جذور شيعيّة نبتت في حديقة الإسلام وارتوت من عُصارة فكر أهل البيت عليهم السلام، ولعلّ المستشرق الفرنسيّ (هنري كوربان) خير مثال على ذلك، إذ إنه عمد إلى تكريس حياته وجهوده الفكرية من أجل نشر الفكر الإسلامي الشيعيّ الماديّ والروحيّ، ومن أجل توضيح دور أئمة أهل البيت عليهم السلام في نشر شتّى أنواع العلوم في الأمة الإسلامية حتى أنّ الفيلسوف المصري (عبد الرحمن بدوي) قد اتّهمهُ بأنه قد أسرف وبالغ في إبراز دور الفكر الشيعي في الإسلام[2].

---

(١) د. زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، منشورات المكتب التجاري - بيروت، ط٣/١٩٧٩، ص٣٦٩.

(٢) أحمد عبد الحليم عطية: هنري كوربان بين الفلسفة والاستشراق، مجلة الاجتهاد، العددان ٥٠-٥١، دار الاجتهاد - بيروت، ٢٠٠١، ص١٧٧.

ولا يمكننا الآن إلا أن نقول: إنّ المستشرق هنري كوربان الذي عاين ودرس تراث الإمام علي عليه السلام الفكري عن قرب، بالإضافة إلى عموم تراث أهل البيت عليهم السلام، من خلال الدراسة الواعية والتحليل العقلاني والموضوعي، ومن خلال تعمُّقه في دراسة الناحيتين المادية والروحية في ذلك التراث العريق، فقد وجد في ذلك الفكر الثّرّ والغني طريق الحضارة وسبيل الرّقيّ والتقدم، ولم ير في الإمام علي عليه السلام وفي فكره وفكر البيت المحمديّ القائم على الدعوة إلى إقامة التوازن بين الجسد والروح من جهة، والدعوة إلى إعمار الكون بالعلم والمعرفة، والخلود في السماء بالتقوى وبالإيمان من جهة أخرى، إلا فكرة أصالة الروح التي جاءت لهداية الخلق وللأخذ بأيديهم إلى معرفة ذواتهم وإدراك وجودهم وإلى الاعتقاد بمُوجدهم. ولذلك، فمن خلال إدراك المستشرق (كوربان) لعمق علوم أهل بيت النبوة عليهم السلام، وبشكل خاص الإمام علي عليه السلام، لم ير فيهم إلا صورة الكائنات النورانيّة التي تمثّل بوجودها الرساليّ والأخلاقيّ والمعرفيّ وجود الله سبحانه وتعالى، فوجودهم عليهم السلام بكل ما يملكون من صفات متميّزة ومقوّمات فريدة هي نعمة إلهية عظيمة، وذلك لأنّ وجودهم بيننا بصفاتهم الكماليّة هو الدليل والحجة والبرهان الأكيد على وجود الله سبحانه وتعالى[1].

فهل في هذا الكلام إسراف ومبالغة من المستشرق (كوربان) في إعطاء علي وأهل البيت عليهم السلام شيئاً من حقّهم في ميدان العلم والمعرفة؟!!!

إننا نترك الجواب للقارئ الكريم حتى لا نفرض عليه شيئاً من قناعاتنا،

---

(١) راجع تقرير ندوة هنري كوربان: حواريات الروح والدين، مجلة الكلمة، العدد ٣٩، دار منتدى الكلمة - بيروت، ٢٠٠٣، ص١٩٢.

ولكن يكفي أن نعلّق على ذلك بقولنا :

إنّهُ يوم استشهد أميرُ المؤمنين عليﷺ في مسجد الكوفة عند صلاة الفجر، تنادى الناس قائلين: اليوم مات العلم والدين!!!! فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

العلوم اللغوية والعبقرية البلاغية

عندما نتحدث عن العلوم اللغوية عند الإمام علي عليه السلام فإننا نتحدث بلا ريب عن العلوم البلاغية بأبهى صورها وأجلى قيمها وذلك لأننا لا نستطيع أن نفصل ذكر دور الإمام عليه السلام الأبرز في بلورة اللغة العربية وحفظها عن ذكر كتابه الخالد (نهج البلاغة)، ذاك الكتاب الذي يعتبر - كما سنلاحظ مكانته عند المفكرين المسيحيين الآن - كتاباً شقيقاً وأخاً وفياً للقرآن الكريم. فنهج البلاغة هو المرآة المعرفية واللغوية للقرآن الكريم الذي أعجز العلماء والبلغاء بفصاحته وبلاغته وبعلومه ومعارفه حتى أن الكثير من المفكرين والأدباء من المسيحيين رأوا فيه كتاباً سماوياً خالداً لا يمكن لأي يراع بشري أن يخطه أو أن يخط أي كتاب آخر يدانيه علماً وبياناً وبلاغة.

وقبل الشروع في الكلام عن العلوم اللغوية والبلاغية في فكر الإمام علي عليه السلام لا بد لنا من الوقوف قليلاً عند بعض أعلام الفكر والأدب ممن كان لهم باع طويل في دراسة وتحليل كتاب نهج البلاغة الذي قام بجمعه وتصنيفه محمد بن حسين الموسوي المعروف بالشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦هـ).

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي، وهو أحد أهم أولئك الذي شرحوا كتاب نهج البلاغة، من غير الشُّراح الشيعة: «كثير من أرباب الهوى يقولون: إن

كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن أو غيره، وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بنيات الطريق ضلالة وقلة معرفة بأساليب الكلام»، ولكن ابن أبي الحديد لم يكتف بقول ذلك دون شرح وتعليل لما قال، بل تابع حديثه مبيناً السبب الذي دعاه إلى تبني وجهة النظر تلك، فقال موضحاً: «وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ونفساً واحداً وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور»[1].

إذا، بالنسبة إلى ابن أبي الحديد المعتزلي، فليس هناك أدنى شك في أن الذي ورد في كتاب نهج البلاغة هو حقاً ما قاله الإمام علي عليه السلام وليس كما يدعي بعض المسلمين المتعصبين من أن نهج البلاغة ليس للإمام علي عليه السلام وإنما لتلميذه الشريف الرضي أو لبعض الشيعة المتأخرين الذين وضعوا فيه ما أرادوا من خطب ومواعظ وعلوم ثم قاموا بنسبها للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام.

والواقع، إن الذين يطعنون في نسبة نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، إنما يفعلون ويتأولون ذلك لأنهم يريدون أن يجردوا الإمام علياً عليه السلام من كل فضيلة ومنقبة، بل ومن كل الألقاب التي حاز عليها سواء من الله عز وجل في محكم تنزيله أو من رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، من خلال الكثير من أحاديثه الشريفة التي تبين علو مقامه وخصيص مكانته. فهم - أولئك المتعصبون - لا يريدون للإمام

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج١ ص١٢٨-١٢٩.

علي عليه السلام أن يكون إمام البلغاء وسيد الفصحاء، بل يريدونه أن يكون كبقية العديد من الصحابة ممن لا يمتلكون أية خصلة رفيعة أو منقبة مميزة يمتازون بها عن غيرهم. لقد كبر عليهم أن يكون علي عليه السلام هو (الإمام) و(أمير المؤمنين) و(الفاروق الأعظم) و(الصديق الأكبر)و (صالح المؤمنين). و(أسد الله الغالب) و(أبو تراب) و(ولي المؤمنين)، وإلى غير ما هنالك من ألقاب عظيمة اختص بها حصراً دون سواه من الصحابة.

وعلى كل حال، لو تركنا ما قاله ابن أبي الحديد جانباً، وقفزنا سوية مع القارئ الكريم فوق حواجز الزمان كي نسأل أحد المفسرين العصريين لنهج البلاغة عن رأيه في نسبة هذا السفر العظيم للإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، فسيقع اختيارنا على ما قاله الشارح الأستاذ الشيخ (محمد عبده) الذي قام بشرح وتفسير معاني الأقوال والخطب الواردة في كتاب نهج البلاغة بأسلوب عصري مبسط وسهل بحيث يمكن للقارئ أن يتناوله ويتفهمه دون مشقة أو عناء شديد.

يقول الأستاذ الشيخ (محمد عبده)، مفتي الديار المصرية سابقاً: «ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. جمع متفرقة، وسماه بهذا الاسم (نهج البلاغة)، ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دل عليه اسمه»[1].

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الدار الإسلامية - بيروت، ط١/ ١٩٩٢، ص٨.

ولو سألنا الشيخ الإمام محمد عبده عن كيفية استدلاله للوصول إلى أن صاحب كتاب نهج البلاغة هو الإمام علي عليه السلام، ولو سألناه أيضاً عن رأيه حول طبيعة ذلك الكتاب النفيس وعن الفائدة المرجوة منه، فبماذا سيجيبنا؟!

نستطيع أن نلاحظ، وقبل إيراد إجابة الشيخ (عبده) عن هذين السؤالين، أن كلام الشيخ (عبده) ناتج عن دراسة متأنية وعميقة لنهج البلاغة، فهو لا يطلق أحكامه جزافاً، ولا يتفوه بأقوال غير مبنية على معرفة يقينية وحجج صادقة وبراهين قوية تؤيد صدق مقاله وصواب أحكامه ولذلك، فعندما يتحدث الأستاذ الشيخ (عبده) عن أسلوب نهج البلاغة، وعن الطريقة التي استدل بها على أن ذلك الكتاب العظيم هو لأمير البيان عليه السلام، فإنما يتحدث عن ذلك بعد قراءته التحليلية العميقة للقرآن الكريم من جهة، ولكتاب نهج البلاغة من جهة ثانية، إذ إن المقارنة بين الكتابين تدل على أن صاحب الكتاب الثاني، (نهج البلاغة)، قد تشرب قلبه وفكره القرآن الكريم بكل فصاحته وبلاغته، وبكل علومه ومعارفه، وبكل أسراره وخفاياه، حتى لكأن الكلام الإلهي الخالد قد عجن وامتزج بكل خلية من خلاياه وفي كل نفس من أنفاسه، فانساب ذلك الرحيق الإلهي على لسانه خطباً بليغة وأقوالاً رائعة لا يضاهيها ولا يتفوق عليها إلا ذلك الكتاب السماوي الأخير الخالد.

وإذا كان الكثير من المفكرين والأدباء المسلمين والمسيحيين، كما سنرى، قد رأوا في الكلام الوارد في نهج البلاغة كلاماً دون مستوى كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، فإن مرد ذلك إلى أن صاحب كتاب نهج البلاغة هو تلميذ القرآن الكريم، وإلى أن الإمام الذي وضع قواعد اللغة العربية وأسس بلاغتها

هو في المحصلة الوجه الناطق للذكر الحكيم بكل ما فيه من أحكام وعلوم في الوقت الذي يكون فيه ذلك الذكر الحكيم هو الوجه الصامت للإمام المبين.

وهنا أدعو القارئ الكريم للوقوف على ما قاله الشيخ الإمام (محمد عبده) عن نهج البلاغة وعن أسلوبه القرآني البليغ، وأدعو القارئ، بنفس الوقت - أيضاً للتمعن جيداً في الجملة الأولى تحديداً من قول الشيخ (عبده) الذي يبين لنا من خلالها ما شاهده وأدركه في صاحب ذلك الأسلوب البلاغي البديع. يقول الشيخ محمد عبده عن ذلك:

«وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً، لا يشبه خلقاً جسدانياً، فصل عن الموكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس. وآناتٍ كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمة، يعرفهم مواقع الصواب، ويبصرهم مواضع الارتياب، ويحذرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم إلى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصات الرئاسة، ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير»[1].

وهكذا بإمكاننا أن نلاحظ من خلال الجملة الأولى من مقولة الشيخ (محمد عبده) أن صاحب كتاب نهج البلاغة، والذي هو بلا شك أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، هو صاحب عقل نوراني لطيف لا يشابه عقول بقية البشر، بل يسمو بصاحبه إلى ما فوق مرتبة البشر العاديين علماً ومعرفة - فصاحة وبلاغة،

(١) نفس المصدر السابق: راجع المقدمة ص٨.

حكمة وخلقاً كريماً. وهذا ما عبر عنه ابن أبي الحديد المعتزلي من قبل بقوله عن أسلوب وطبيعة كلام صاحب ذلك العقل النوراني بأنه« دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»[1].

وسنترك الآن ما قاله الشارحون لكتاب نهج البلاغة، وسنتجه الآن سوية إلى أقوال ونتائج دراسات وتحليلات المفكرين والأدباء المسيحيين من أجل التعرف عن كثب، على وجهات نظرهم وآرائهم بشأن العلوم اللغوية والبلاغية عند أمير البيان، الإمام علي عليه السلام.

وأول ما سنبدأ به حديثنا الآن هو الكلام عن الباحث الفرنسي المعاصر، الأستاذ (جاك لانغاد) صاحب الكتاب الفلسفي واللغوي (من القرآن إلى الفلسفة)، وهو كتاب قيم يبحث في تشكيل اللسان العربي وتكوين القاموس الفلسفي عند الفيلسوف الفارابي.

فالباحث (لانغاد) يرى أن القرآن الكريم قد لعب دوراً أساسياً في تشكيل وصياغة اللسان العربي، وأن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله الذي جاء بالقرآن الكريم وحياً يمثل بدوره (إنسان الكلمة)، إنه صلى الله عليه وآله إنسان الكلمة بمعنيين اثنين. فالمعنى الأول هو أنه صلى الله عليه وآله يقوم بدور الناطق بلسان المتكلم: « قل... والإيعاز (الطلب والأمر) حيث يكون هناك قول موضوع على لسان محمد صلى الله عليه وآله. أما المعنى الثاني للكلمة، فهو أن محمداً صلى الله عليه وآله يؤدي أيضاً دور من تتوجه إليه الكلمة الواجب نقلها، وذلك منذ البداية الموضوعة في ظل آية الإعلان: « إقرأ»، وهذا يعني - بالنسبة إلى المفكر المسيحي (لانغاد) - أن محمداً صلى الله عليه وآله الذي هو إنسان الكلمة،

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج١ ص٢١.

هو محمد ذو الحضور الكلي»[١].

ولكن الأستاذ (لانغاد) عندما ينصرف من المعنى الفلسفي الصرف للكلمة إلى المعنى العملي لها، نراه يستعرض عدة أقوال هامة لطبيعة العلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة والوجود، إذ إنه من الصعب أن يتم فصل أي مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة عن المفهومين الآخرين.

وقبل أن يتكلم الأستاذ (لانغاد) عن دور الإمام علي عليه السلام في ترسيخ أسس اللغة، نراه يركز في حديثه على بعض الأقوال الهامة للإمام جعفر الصادق عليه السلام حول علاقة (الحرف) بـ (الوجود) حيث تكون الحروف مبدأ وأساس كل شيء حتى قبل أن تكون أساس اللغة والتواصل.

وبعد أن يورد الأستاذ (لانغاد) بعض الأفكار الفلسفية التي تعطي الحروف بعداً أنطولوجياً، حسب ما جاء في بعض أقوال الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ينتقل بنا إلى قضية بدايات التفكير الألسني في اللغة العربية. ويرى (لانغاد) بناء على ما كتبه المتقدمون من أمثال أبي حاتم الرازي (المتوفى٣٢٢هـ/٩٣٣م) أو ابن النديم (المتوفى٣٨٥هـ/٩٩٥م) أو الزبيدي (٣٩٧هـ/٩٨٩م) أن الذي أرسى قواعد اللغة العربية هو الإمام علي عليه السلام الذي أوعز إلى تلميذه أبي الأسود الدؤلي المتوفى (٦٩هـ/ ٦٨٨م) أن يدون تلك العلوم الألسنية والقواعد النحوية التي علمه إياها، وهذا ما يجعل هذا العلم الجديد مرتبطاً بعلي عليه السلام»[٢].

(١) جاك لانغاد: من القرآن إلى الفلسفة، ترجمة: وجيه أسعد، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٠، ص٦٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٨١.

ولا يختلف رأي المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) عن رأي الباحث الفرنسي الأستاذ (جاك لانغاد) بهذا الشأن أبداً، غير أن (رونالدسن) الذي روى كيفية وضع علم النحو على يد أبي الأسود الدؤلي بتعليمات وتوجيهات من معلمه الإمام علي عليه السلام، قد أورد لنا تلك الرواية نقلاً عن كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلّكان بشكلٍ مقتضب بعض الشيء، ثم ذكر بعد ذلك السبب الذي سمّي لأجله علم النحو بهذا الاسم، وقال متابعاً ما اقتبسه من كتاب وفيات الأعيان: « وإنما سمي النحو لأن أبا الأسود المذكور قال: استأذنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أضع نحو ما وضع فسمي لذلك نحواً، والله أعلم»[1].

أما إذا أردنا أن نعرف السبب المباشر الذي دفع الإمام علي عليه السلام إلى وضع كتاب خاص بأصول اللغة العربية، فعلينا أن نلجأ إلى كتاب (في خطى علي) للمفكر والأديب المسيحي (نصري سلهب) الذي رفض أن يسوق إلينا قصة الإمام علي عليه السلام مع أبي الأسود بشكلها المقتضب، وإنما أوردها لنا بشكلها الصحيح والكامل وذلك من أجل التأكيد على أهمية الرواية من جهة، ومن أجل أيضاح السبب الذي دفع بالإمام علي عليه السلام إلى وضع أول كتاب لأصول اللغة العربية من جهة ثانية.

ويبدأ المفكر الأستاذ (سلهب) حديثه عن دور الإمام علي عليه السلام في العلوم اللغوية وعن كونه واضع حجر الأساس الأول في علم النحو، بقوله: « أما كونه واضع حجر الأساس في النحو، بل صاحب علم النحو أساساً، فثابت من

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، ص٦٢.

حديث صحيح الإسناد لأبي الأسود الدؤلي»، وبعد أن يقول الأستاذ (سلهب) هذا المقال، نراه يسارع مباشرة لتأكيد رأيه من خلال إيراد قصة أبي الأسود الدؤلي مع أمير المؤمنين علي عليه السلام، فيتابع واصفاً قصة دخول الدؤلي على الإمام علي عليه السلام وما دار بينهما من حوار حول الضرورة الملحة لوضع أسس النحو العربي.

يقول الأستاذ (سلهب): «قال (الدؤلي): دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فرأيته مطرقاً مفكراً، فقلت له: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد ثلاث، فألقى إلي صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. الكلمة اسم، وفعل، وحرف. فالاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر. وشيء ليس بظاهر ومضمر. قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنَّ وأنَّ وليت ولعل، وكأن، ولم أذكر لكن. فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها. فقال: بل هي منها، فَزِدْها فيها»[1].

ويرى الأستاذ (سلهب) أن الإمام علياً عليه السلام قد اكتسب علومه اللغوية

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٥١.

وآياته البلاغية الإعجازية من خلال تفاعل روحه الشريفة مع كل كلمة وكل حرف من القرآن الكريم، بل من اللوح المحفوظ ذاته. أما المعين الثاني الذي كان يغرف الإمام علي عليه السلام منه دون أن ينضب، فهو محمد بن عبد الله، نبي الله ورسوله المصطفى صلى الله عليه وآله. وكان من نتيجة ذلك أنه عليه السلام قد أتحف الإنسانية بتراث روحي وفير وبكنز فكري غزير تعجز اللغة العربية عن الإتيان بمثله شكلاً ومضموناً، كما ويعتبر كتابه العظيم (نهج البلاغة) من الناحية البلاغية أيضاً هو المقياس والمعيار لسلامة اللغة العربية وذلك لأنه الكتاب الذي لا يفوقه كتاب آخر علماً وبلاغةً إلا الكتاب السماوي الخالد، القرآن الكريم.

ويرى الأستاذ (سلهب)، بنفس الوقت أيضاً، أن الخطب والأقوال المجموعة في كتاب نهج البلاغة هي الدليل المادي على أن الإمام علياً عليه السلام هو الأب الروحي لعلوم اللغة العربية النحوية والبلاغية انطلاقاً من حقيقة أن الصنعة تدل على الصانع وآثار العلم تدل على المؤثر والعالم.

وهنا يفترض الأستاذ (سلهب) افتراضاً يتعلق بنهج البلاغة، ولكنه لم يعلم أن افتراضه هذا قد تحول إلى حقيقة واقعة بعد عدة سنوات، ويتجلى هذا الافتراض المتعلق بترجمة كتاب نهج البلاغة إلى اللغات الأوروبية والأثر الذي سينتج عن تحقيق تلك الترجمات، بقوله: «لو قدر لنهج البلاغة من ينقله، روحاً ومعنى، إلى بعض لغات الغرب، لأخذ عليٌّ مكانه بين أعظم المفكرين الذين خاطبوا القلوب والعقول والضمائر ليرقوا بها إلى ملكوت الله، ذلك الملكوت الذي لا يزول، حيث تنعم النفس بخلود أبدي في حضرة الله»[1].

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٣٢.

ولأن الأمر هو حقاً كذلك، فقد دعا الأستاذ (سلهب) جميع إخوانه المسيحيين إلى الإقبال على كتاب نهج البلاغة كي يقرأوه بإمعان وعمق، وليتبيّنوا فيه تلك الخيوط الروحية المشعة التي تشد المسيحي إلى المسلم، يغرفان إيماناً ومعرفة من كتاب العلم والإيمان، وهناك على صفحات ذلك الكتاب الخالد يتم لقاء جميع المؤمنين بالفكر المنفتح وباحترام الإنسانية متجاوزين في ذلك حدود اللون واللغة وحواجز القوميات والأديان.

وإذا كان الأستاذ (سلهب) يدعو المسيحيين إلى فتح مغاليق قلوبهم على كتاب نهج البلاغة الذي يمثل نهج الحق وصراط الصدق والفكر الحر المنفتح على بوابات السماء من جهة، وعلى مسارح الحياة الإنسانية من جهة ثانية، فما ذلك إلا لأن الإمام علياً عليه السلام بنظر الأستاذ (سلهب) هو صوت الله في ضمير الإنسان.

وها هو يعرف إخوانه المسيحيين بشخصية الإمام علي عليه السلام وذلك من خلال مخاطبته الإمام عليه السلام بقوله: «حياتك سفر قداسة لو يقرأه البشر ويعيشونه لاستحالت قلوبهم قطعاً من السماء، ذلك هو سر خلودك، يا علي: لأنك حي بالله، والله حي فيك»[1].

ولا ريب في أن كلام الأستاذ (سلهب) عن عظمة الإمام علي عليه السلام وعن الخط العملي المتحرك والمنطلق من الدائرة النظرية والمبدئية المتجلية بمبادئه الواضحة في نهج البلاغة إلى دائرة اقتران القول بالفعل وربط النظرية بالتطبيق هو كلام صائب ودقيق، بل هو كلام يحمل في طياته إشارات بليغة كثيرة إلى أن

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٠.

هناك دعوة واضحة في نهج البلاغة إلى ضرورة ربط القيم والمبادئ بالحياة العملية العامة وبالسلوكيات الفردية الخاصة، وفيه دعوة أيضاً لكل إنسان من أجل أن يسعى جاهداً لإكمال مسيرة الحياة الإنسانية المتوازنة وفق مقتضيات رسالة السماء. وبالتالي، فان الذي يعيش أبعاد ذلك النهج القويم الذي رسمه الإمام علي عليه السلام بأفعاله مثلما رسمه بأقواله، سيصبح هو بدوره فرداً مهماً له دوره الفعال على مسرح الحياة الأرضية في الوقت الذي يكون قد ضمن لنفسه مكاناً لائقاً في عوالم السماء الأبدية.

إن نظرة الأستاذ (سلهب) عن فلسفة الإمام علي عليه السلام في حركته مع الواقع واقتران ذلك مع مبادئه الجليلة السامية في نهج البلاغة هي نفس النظرة التي كونها عنه المستشرق الفرنسي (روجيه غارودي) عندما درس سيرة الإمام عليه السلام وتفاصيل حياته والكثير من خطبه وأقواله، وخرج بعد ذلك بنتيجة منطقية تؤكد أن الإمام علياً عليه السلام ذلك الإمام العظيم كان يدعو فعلاً لبناء وإعمار الحياتين، الحياة الدنيا والحياة الآخرة. وبالتالي، فإنه كان يدعو من خلال (تصوفه العملي) إلى عدم الفصل بين التأمل والعمل، بل كان دائماً كالرسول الكريم صلى الله عليه وآله يمثل بسلوكه الشخصي المظهر الحياتي والنضالي القائم على فهم الحياة تأملاً وعملاً[1].

وإذا كان هناك اتفاق واضح ونقاط التقاء كثيرة بين هذه الأقوال والآراء وبين آراء وأقوال الأديب والمفكر (عبد المسيح الإنطاكي) بشأن دور الإمام علي عليه السلام في صياغة اللغة العربية وصياغة قواعدها، ومن ثم تربعه على عرش

(١) رامي كلاوي: روجيه غارودي من الإلحاد إلى الإيمان، دار قتيبة - دمشق، ط٢/١٩٩٤، ص٩٧.

الفصاحة والبلاغة لتلك اللغة العربية التي هي لغة الله سبحانه وتعالى التي خاطب من خلالها عباده في آخر كتاب سماوي منزل أرسله إليهم، وهي أيضاً اللغة التي يتحدث بها أهل السماء في جنات الخلد والنعيم، فإن كل هذا يعني - بالنسبة للأستاذ الإنطاكي - أن لسان الإمام علي عليه السلام هو اللسان الذي حفظ الرسالة، وهو اللسان الذي استطاع أن يحفظ حتى القرآن الكريم نفسه من الضياع والفساد[1].

وليس هذا فحسب، بل يرى الأستاذ (الإنطاكي) أيضاً أن الإمام علياً عليه السلام الذي هو إمام الفصحاء وأستاذ البلغاء هو معيار سلامة اللغة ومقياسها السليم لأن الذي يكون كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين، لا بد وأن يكون إمام المخلوقين ومقياس سلامة لغتهم ومعيار بلاغتهم وفصاحتهم، ولذلك نرى الأستاذ الإنطاكي يقول بثقة بالغة: «هو - أي علي - أستاذ الكتاب العرب ومعلمهم بلا مراء، فما من أديب لبيب حاول إتقان صناعة التحرير إلا وبين يديه القرآن ونهج البلاغة، ذاك كلام الخالق وهذا كلام أشرف المخلوقين»[2].

وهنا يذكر الأديب الإنطاكي حديثاً لطيفاً قاله له مرة الأديب البارز (إبراهيم اليازجي) والذي كان في وقته أكتب كتاب العرب وإمام أساتذة اللغة فيهم، قال له:

« ما أتقنت الكتابة إلا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم، فهما كنز

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي، ص٦٧٦.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٦٩٩.

اللغة العربية الذي لا ينفذ وذخيرتها للمتأدب، وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيَ لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما»[١].

وعلى كل حال، فإن هذا الكلام يذكرني بحديث هام للبطريرك (إلياس الرابع)، البطريرك الأسبق للروم الأرثوذكس في إنطاكية وسائر المشرق. ومن المعروف عن البطريرك المذكور عمق ثقافته وموسوعيتها، هذا بالإضافة إلى اهتمامه الكبير والمتميز باللغة وبالأدب العربي تحديداً، وعندما سئل مرة عن الأدب الرفيع الذي يحبه ويتفاعل معه، أجاب قائلاً بكل وضوح وصراحة:

«أحب القرآن ونهج البلاغة»[٢].

ويحق للبطريرك (إلياس الرابع) ولغيره من المفكرين والأدباء المسيحيين الذين اتخذوا العقل مطية للاستنارة بنور العلم والمعرفة أن يحبوا القرآن الكريم وأن يعشقوا نهج البلاغة ويتفاعلوا مع كل كلمة وخطبة فيه، لأن كل كلمة من كلمات الإمام علي عليه السلام هي مرآة الروح الإنسانية الصافية. ولأن روح الإمام علي عليه السلام لا تتحدد بعالم خاص بل هي روح الإنسان الكامل الجامع لكل المراتب الإنسانية والروحية والمعنوية، فلا تختص كلماته أيضاً بعالم واحد، بل إن من الميزات الواضحة لكلمات الإمام علي عليه السلام هي أنها ذات أبعاد متعددة وليست ذات بعد واحد.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٧٠٠.

(٢) راجع المقابلة التي أجراها الصحافي (جبران عكاوي) مع البطريرك (إلياس الرابع) في مجلة (الصياد)، العدد ١٥٣٨، بتاريخ ١٥ آذار ١٩٤٧، ص٢٣.

إنها كلمات خالدة تتفجر من أعماق النفس الإنسانية النبيلة التي تدرك حجم مسؤولية موقعها على الأرض، وتعي ضرورة ارتقائها إلى مستوى السماء. إنها الكلمات الخالدة التي دفعت بالأديب والفيلسوف والشاعر الأمريكي (إمرسون) إلى كتابة مقالته الفلسفية الشهيرة (الذات العليا) المستوحاة من أفكار ونظريات حكيم إمام الإسلام، الإمام علي عليه السلام[1].

وهنا أريد أن أتوقف مع نقطة هامة أخرى كانت ولا تزال محط إجماع الكثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين حول العلاقة الوثيقة بين القرآن الكريم وكتاب نهج البلاغة. إن الكثير من الأدباء وأرباب الفكر المسيحي الحر المستنير يرون أن لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله معجزات وكرامات عديدة، وأن إحدى أهم كراماته العظيمة هو مجيئه بالقرآن العظيم، ويرى أولئك أيضاً أن لابن عمه أمير المؤمنين علي عليه السلام معاجزه وكراماته أيضاً، وأن إحدى كراماته ومعاجزه الخالدة هي تلك الأقوال والخطب ذات الروح الإلهي والنفس النبوي والتي جمع البعض منها لاحقاً في ما يسمى بنهج البلاغة.

ولذلك، فكما أن للقرآن الكريم فضلاً كبيراً على كل متكلم باللغة العربية، فكذلك الحال بالنسبة لكتاب نهج البلاغة، وكلما ارتقى متكلم العربية بفكره وبسلامة لسانه، كلما بدا عليه فضل القرآن الكريم ونهج البلاغة القويم بصورة أكثر وضوحاً وتبياناً.

وقد عبر الأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) عن ذلك بقوله تحت عنوان (أثر الإمام في مثقفي العرب) : «يقيناً، إن كل مثقف عربي، كل كاتب

---

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، مصدر سابق، ص٧٦.

عربي، كل شاعر عربي، كل خطيب عربي مدين للإمام علي....وانطلاقاً من هذه النقطة، فنحن لا نعد كاتباً أو أديباً عربياً مثقفاً ثقافة عربية أصيلة إن لم يقرأ القرآن ونهج البلاغة قراءات عميقة متواصلة»[1].

ولذلك، فإن المستشرق الفرنسي (هنري كوربان) كان محقاً عندما رأى أن كتاب نهج البلاغة يأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ليس على المستوى الإسلامي الشيعي فحسب، بل على المستويين الإسلامي والعربي عموماً.

وكان من جملة ما قاله المستشرق (كوربان) عن كتاب نهج البلاغة في كتابه (تاريخ الفلسفة الإسلامية): « وتأتي أهمية هذا الكتاب في الدرجة الأولى، بعد القرآن وأحاديث النبي، ليس بالنسبة للحياة الدينية في التشيع عموماً وحسب، بل بالنسبة لما في التشيع من فكر فلسفي. ويمكن اعتبار نهج البلاغة منهلاً من أهم المناهل التي استقى منها المفكرون الشيعة.. وإنك لتشعر بتأثير هذا الكتاب بصورة جمة من الترابط المنطقي في الكلام، ومن استنتاج النتائج السليمة، وخلق بعض المصطلحات التقنية العربية التي أدخلت على اللغة الأدبية والفلسفية فأضفت عليها غنى وطلاوة، وذلك أنها نشأت مستقلة عن تعريب النصوص اليونانية»[2].

أما الآن، فدعونا نتوقف سوية مع أديبين عبقريين من الأدباء المسيحيين

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص٢٠٩.

(٢) الشيخ محمد حسن آل ياسين: نهج البلاغة.. لمن؟ منشورات المكتب العالمي - بيروت، ١٩٧٨، ص٦٥.

الذين تركوا لنا آثاراً رائعة وبصمات جلية في ساحات الأدب والشعر العربي. إنهما شاعران تحدثا عن الإمام عليعَلَيْهِ السَّلَامُ وعن نهجه البليغ بكل صدق واتزان، فكان لحديثهما عنهعَلَيْهِ السَّلَامُ وعن نهجه - نهج البلاغة- نكهة خاصة لا يتذوقها إلا ذاك الذي يتسامى فكره على العصبيات الدينية ويتجاوز قلبه حدود الخلافات الطائفية، فيدرك، عندئذٍ، أن الإمام علياًعَلَيْهِ السَّلَامُ هو ملك الإنسانية جمعاء وهو الإرث السماوي الخالد الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يبقيه مشاعاً عاماً لكل الناس على مختلف مذاهبهم ومشاربهم لأن الشمس التي هي مصدر هام لوجود الحياة واستمرارها هي تلك الهبة الإلهية العظيمة التي شاءها الله عز وجل أن تشرق بنورها على البر والفاجر، على العادل والظالم، على الغني والفقير، وعلى الرفيع والوضيع على حدٍّ سواء.

فهل يستطيع أي مسلم، أو أي مسلم شيعي على الأخص، أن يقول: إن علياًعَلَيْهِ السَّلَامُ هو ملك لنا فقط دون غيرنا؟!

أعتقد أنه يستطيع أن يقول ذلك بقدر ما يستطيع أن يدعي أحد المسيحيين أن تعاليم السيد المسيح الأخلاقية هي ملك للمسيحيين فقط. ولا أعتقد أن مسيحياً واحداً من أولئك المسيحيين المستنيرين فكرياً يجرؤ على قول ذلك، لأن قوله بأن السيد المسيحعَلَيْهِ السَّلَامُ وتعاليمه الأخلاقية هي حق للمسيحيين فقط، هو تحجيم كبير لعظمة السيد المسيحعَلَيْهِ السَّلَامُ ولمكانته الجليلة بين الناس كافة.

وعلى كل حال، فإن شاعرنا الأول الذي سنتوقف عنده هو الأديب اللبناني (أمين نخلة) (١٩٠٤-١٩٧٦). وهو شاعر كبير وناقد وناثر بليغ، وله الكثير من المؤلفات الأدبية والدواوين الشعرية الشفافة. وربما يفاجأ القارئ إذا

قلنا له: إن لهذا الأديب والشاعر المسيحي كتاباً رائعاً مستوحى من كتاب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام ويسمى هذا الكتاب (كتاب المئة)، وهو عبارة عن كتاب قيم يضم بين دفتيه مئة كلمة خالدة لأمير المؤمنين عليه السلام، وهذه الكلمات المئة كان قد اختارها الأديب المسيحي (أمين نخلة) من كتاب نهج البلاغة حصراً.

وقد قام الأديب (نخلة) بوضع مقدمة لائقة لهذا الكتاب وبيّن من خلالها مكانة الإمام علي عليه السلام ومنزلة كتابه نهج البلاغة في قلبه وفكره. وقد أبدى شديد أسفه بشأن اختياره مئة كلمة فقط من درر ذلك النهج العظيم، إذ لا يستطيع المرء، برأيه، أن يجتزئ أو أن يفصل الأبناء الغوالي عن أمهم الرؤوم وذلك لأن الروح واحدة والجوهر واحد[1].

أما عن القيمة المعرفية والبلاغية لكتاب نهج البلاغة، فقد أكد الأديب (نخلة) على أنه يجب على الذي يريد أن يستضيء بنور المعارف والبلاغة، عليه أن يسير على درب ذلك النهج وأن يستحم بشعاع بلاغته لأنه هو الضوء لمن أراد العروج في مرقاة البلاغة[2].

وهنا نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن المقدمة التي وضعها الأديب أمين نخلة لكتابه (كتاب المئة) قد جاءت مزينة أيضاً بلوحة فنية رمزية للإمام علي عليه السلام بريشة الفيلسوف والأديب (جبران خليل جبران).

وبطبيعة الحال، فليس ما قاله الأديب (نخلة) عن نهج البلاغة هو فقط ما ورد في كتاب المئة، بل له أقوال عديدة فيه، ويكفي أن نذكر أنه في إحدى المرات

(١) أمين نخلة: كتاب المئة، الدار الإسلامية - بيروت، ط١/٢٠٠٢، ص١١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٢.

قد تحدث عن العلوم التي يحويها كتاب نهج البلاغة، وقد ركز في حديثه على الجوانب الروحية والأبعاد النفسية، فقال: «من يريد أن يعالج أمراض نفسه، عليه أن يلجأ إلى خطب الإمام في نهج البلاغة، حتى يتعلم طريق السير في ظل هذا الكتاب»[1].

أما الأديب الثاني الذي سنحط رحالنا عنده، فهو الأديب والمفكر (سعيد عقل) (١٩١٢). إنه شاعر لبناني من كبار الشعراء المعاصرين الذين تميز شعرهم بالرمزية والتجديد. له عشرات المؤلفات الفكرية المتنوعة، كتبها بلغات مختلفة ولا تزال تلاقي رواجاً متميزاً.

وللمفكر والأديب الشاعر (سعيد عقل) أقوال وأشعار في الإمام علي عليه السلام يصعب فهمها وإدراك معانيها البليغة. إلا من قبل أولئك القراء أو المفكرين الذين يشغفون بالبلاغة ويهتمون بالفصاحة، أولئك الذين يعترفون بفضل الإمام علي عليه السلام عليهم بلاغة وبياناً.

ففي المجلد السادس من الأعمال الكاملة لهذا الأديب والمفكر المسيحي، يقع اختيارنا على قصيدة عصماء تحمل عنوان (كلامي على رب الكلام) ويقصد بذلك أمير البيان الإمام علياً عليه السلام، ونرى من الواجب علينا أن نقدم للقارئ الكريم بعض أفكار تلك القصيدة البليغة نظراً لما تحمل في طياتها من تراكيب بلاغية بالغة الصعوبة وشديدة التعقيد.

يعتبر الأستاذ الشاعر (عقل) أن الكلام عن إمام البلغاء وسيد الفصحاء،

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص٢٠٥.

الإمام علي عليه السلام، شيء صعب ومربك يتهيب الكثيرون الخوض فيه. ويرى الشاعر أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن إماماً في جانب واحد من جوانب الحياة، بل كان إماما وسيداً في كل جانب من جوانبها، فهو إمام الفصاحة والبلاغة، وهو إمام الكرم والسخاء، وهو سيد الفرسان وإمام الشجعان، وهو أيضاً سيد الصابرين الذين قاسوا وعانوا الكثير في أمتهم، وهو فوق ذلك ولي المؤمنين وإمامهم أجمعين وذلك لأن علياً وأهل بيته والأئمة من ولده هم محط نزول آيات الله وسوره، وبيتهم الشريف هو مهبط الوحي الأمين.

وسنكتفي الآن بذكر بعض أبيات هذه القصيدة الرائعة للمفكر والأديب المسيحي (سعيد عقل)، وسنعمد إلى ذكر بقية الأبيات في الفصل القادم المخصص للكلام عن فلسفة بيعة الغدير المباركة وولاية الإمام علي عليه السلام على سائر المؤمنين.

يقول الأستاذ الشاعر (عقل):

كَلامي على ربِّ الكلام هوى صعبُ ... تَهَيَّبتُ! إلاّ أنني السيفُ لم يَنْبُ
وربَّ جَمَالٍ رُحتَ ترسم طَيفَهُ ... تَصَبَّاك كالسيف استجاب له الضَّربُ
وما لغةُ الأقلام من لغةِ القَنَا؟ ... اثنتان؟ سألتُ الحُسْنَ ما الجفن ما الهدب؟
ليطرب لا إلاّ لغَزَارَةٍ جَرَتْ ... كما الفَرَسُ الدهماءُ طَيَّبها النَّهبُ
إذا صَهَلَتْ غِبَّ التلاحم رَدَّها ... أخو مِرَّةٍ في الدَّوِّ من وقعهِ رعبُ

وهنا ينتقل المفكر والأديب الشاعر (عقل) إلى ذكر بعض فضائل وخصائص الإمام علي عليه السلام بما في ذلك المعجزة البلاغية التي تميز بها الإمام عليه السلام دون غيره. وها هو يتابع قائلاً في قصيدته نفسها:

يَـذود عــن الــذِّمّات لــيس يُبيحهــا	به الشرقُ مَدَّ الصوتَ فالتفتَ الغربُ
حَبيــتُ عَلَيّــاً مُــذْ حبيــتُ شمــائلي	له اللغتانِ: القول يشمخُ والعضبُ
بهـــذاك يُعليهـــا، بهـــذا يُزيـــدها	أيكبو؟ ولكن الأصائل لا تكبو!
لأشرفُ من قاسى، وأسمح من سخى	تقول على رمل البوادي له حَدْبُ
بلاغتُـــه اللـــيلاءُ أسُّ أريكـــةٍ	فكيف بما أبلى الذي وثبهُ الوثبُ؟[1]

وكما نلاحظ هنا، فإن هذه الأبيات الشعرية البليغة منحوتة من تعابير وتراكيب عالم الشعر مثلما ينحت النحات تمثاله من جلمود الصخر. فهي، بلا ريب، قصيدة بليغة وقوية الألفاظ والمعاني إلا أنها على درجة كبيرة من التعقيد في التراكيب مما يخلق بدوره صعوبة بالغة في الفهم والتحليل.

وحتى نخفف من وطأة وصلابة هذه القصيدة على القارئ، لا بد لنا من الانتقال إلى محطة جديدة وشخصية مسيحية جديدة حتى نتعرف على وجهة نظرها تجاه البعد البلاغي واللغوي عند الإمام علي عليه السلام.

فمن المعروف عن المفكر والأديب المسيحي اللبناني (أمين الريحاني) (١٨٧٦-١٩٤٠) أنه مؤلف غزير الإنتاج باللغة العربية بالإضافة إلى كتابات أخرى باللغة الإنكليزية، وقد غلب على بعض كتاباته الطابع الفلسفي حتى أنه لقب بفيلسوف (الفريكة) نسبة إلى بلدته التي ولد فيها. وخلال وجوده في المهجر، فقد عقد العزم على كتابة مسرحية تتناول سيرة وشخصية الإمام علي عليه السلام، وتبحث وتناقش المفاصل الهامة في مسيرة حياة الإمام أمير

(١) سعيد عقل: الأعمال الكاملة، المجلد السادس (كما الأعمدة - الوثيقة التبادعية) منشورات نوبليس - بيروت، د.ت، ص٦٨-٧٠.

المؤمنين عليه السلام. وقد استشار الأستاذ (الريحاني) صديقه المقرب (جبران خليل جبران) بشأن هذا المشروع الثقافي العظيم، فرحب به (جبران) أفضل ترحيب وشجعه على المضي قدماً في ذلك. ومن المعروف أيضاً عن الأديب الفيلسوف (الريحاني) أنه لم يكن صديقاً لجبران بفكره فحسب، بل كان صديقا بالفكر والروح لكل أدباء المهجر عموماً، وبشكل خاص لأولئك الذين كانوا يقطنون في نيويورك يمارسون أعمالهم الحياتية بالإضافة إلى ممارستهم لنشاطاتهم الثقافية.

وما يهمنا الآن هنا هو أن الأديب (الريحاني) كان شديد الولع بفلسفة الإمام علي عليه السلام في الحياة وبأفكاره حول الكثير من المفردات الهامة مثل: الحق، الحرية، الإنسان، العدل، وإلى غير ما هنالك من المفردات الثمينة والهامة في وجود كل واحد منا.

وبالطبع، فإن الأديب (الريحاني) قد وجد معظم معاني هذه المفردات الهامة والجوهرية في كتاب نهج البلاغة، فقرأها مرات ومرات حتى تشربها تماماً وعكس الكثير منها في كتاباته الفكرية. وقد شعر الأستاذ (الريحاني) أنه من الإجحاف بحق الإمام علي عليه السلام أن يبقى كتاب نهج البلاغة، بكل بلاغته وبكل علومه ومعارفه وحكمه، محصوراً ضمن حدود اللغة العربية وضمن إطار الثقافة الإسلامية، ولذلك فقد ارتأى على الشاعر الأديب (أمين نخلة) في أحد لقاءاته معه أن تتم ترجمة كتاب نهج البلاغة إلى كل اللغات الأوروبية وذلك لأن ترجمته - برأيه - ستبهر الغربيين وستذهلهم، وبشكل خاص الإنكليز[1].

---

(١) أمين نخلة: كتاب المئة، مصدر سابق، ص١٢.

وأعتقد أن هناك نقاط تلاقٍ عديدة بين الأديب والفيلسوف المسيحي (أمين الريحاني) وبين المفكر والفيلسوف المصري المعاصر الدكتور (زكي نجيب محمود) حول كتاب نهج البلاغة وأهميته البلاغية والفكرية. وقد أحببت أن أستشهد هنا بما قاله هذا الفيلسوف المصري على الرغم من أنه ليس من المسيحيين، بل من المسلمين غير الشيعة، نظراً لما له من أهمية كبيرة في الفكر العربي المعاصر من جهة، ونظراً للتشابه بين وجهة نظره ووجهة نظر الأستاذ (أمين الريحاني) الذي كنا بصدد الحديث عنه منذ قليل، من جهة ثانية.

يقول الدكتور (زكي نجيب محمود) في كتابه (المعقول واللامعقول في التراث العربي):

«ونجول في أنظارنا في هذه المختارات من أقوال الإمام علي التي اختارها الشريف الرضي (٩٧٠م-١٠١٦م) وأطلق عليها نهج البلاغة، لنقف ذاهلين أمام روعة العبارة وعمق المعنى، فإذا حاولنا أن نصف هذه الأقوال تحت رؤوس عامة تجمعها، وجدناها تدور - على الأغلب - حول موضوعات رئيسية ثلاث، هي نفسها الموضوعات الرئيسية التي ترتد إليها محاولات الفلاسفة قديمهم وحديثهم على السواء، ألا وهي: الله والعالم والإنسان، وإذن، فالرجل - وإن لم يتعمدها - فيلسوف بمادته، وإن خالف الفلاسفة في أن هؤلاء قد غلب عليهم أن يقيموا لفكرتهم نسقاً يحتويها على صورة مبدأ ونتائجه، وأما هو فقد نثر القول نثراً في دواعيه وظروفه»[1].

---

(١) د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في التراث العربي، دار الشروق - بيروت، ص٣٠.

ولو توقفنا قليلاً مع تحليل هذه الكلمات للمفكر والفيلسوف (زكي نجيب محمود) بشأن المنظومة الفكرية عند الإمام علي عليه السلام، فسنكون قادرين على أن نتبين بسهولة أن غاية القول عند المفكر الدكتور (محمود) هو الإقرار بأن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام القادر، من خلال أفكاره وعلومه المبثوثة في كتابه نهج البلاغة، على أن يذهل الفكر الإنساني وأن يعيد صياغة الأسئلة التي كانت ولا تزال تشغل فكر الإنسان منذ وجوده على الأرض، ولكن الفارق البارز بين الإمام علي عليه السلام والفلاسفة الذين تمحورت أفكارهم حول الله، والعالم والإنسان هو أن الإمام علياً عليه السلام قد نشر أفكاره ونظرياته تبعاً للظروف التي عاشها وليس وفقاً لنسق منهجي متتابع كما هو معروف عند الفلاسفة، هذا بالإضافة إلى فارق جوهري آخر لا يمكن تجاهله أو تناسيه، وهو أن الإمام علياً عليه السلام استطاع أن يجسد عملياً كل ما قاله نظرياً من مبادئ أخلاقية وتعاليم إنسانية وهذا ما عجز عن تحقيقه الكثير من الفلاسفة حيث كانت هناك هوة كبيرة تفصل ما بين مبادئهم النظرية وممارساتهم العملية المتجلية على أرض الواقع، وذلك من خلال انطلاقهم في خط الحياة والواقع المعاش.

وهذه الحقيقة التي أقرَّ بها الكثير من المفكرين المسيحيين والمسلمين سوية، لم تأت عن عبث أو عن ميول ذاتية أو أهواء عاطفية، بل جاءت نتيجة تحكيم العقل والضمير بعد القراءة المتأنية والدراسة العميقة المستفيضة عن سيرة الإمام عليه السلام وتفاصيل الأحداث المصيرية التي مرَّ بها وتجاوزها دون أن يخرق ولو مبدأ واحداً من المبادئ النبيلة التي كان ينادي بها طوال حياته.

ولا ريب في أن الأديب والباحث (سليمان كتاني) كان مصيباً تماماً عندما

دعا الناس على مختلف مذاهبهم ومشاربهم إلى الوقوف على عتبات نهج الحق، نهج البلاغة، لرؤية الترجمة العملية لسيرة الإمام علي عليه السلام. فالذي يريد أن يرى الإمام علياً عليه السلام في كل حركة من حركاته وفي كل موقف من مواقفه، فما عليه إلا الرجوع إلى كتابه الخالد نهج البلاغة، لمعرفة كيفية تصرف علي عليه السلام وكيفية خط سير حياته، لأن نهج البلاغة هو الصورة الصادقة الصامتة لشخصية الإمام علي عليه السلام المتحركة والناطقة. وقد عبر الأديب (كتاني) عن رأيه بقوله:

« وهل الكتاب (نهج البلاغة) غير تقويم للرجل الكبير في نهجه الطويل، الذي زرع عليه الإنسان قيمة تتبلور بالعقل الصحيح وتسمو بالفضيلة، وجعل الفضائل تنمو وتدور على محور واحد هو محور التقوى والإيمان بالله؟ » ولم يتوقف الأستاذ (كتاني) عند حدود هذا التساؤل المنطقي المتعقل، بل راح يكمل هذا السؤال بمجموعة أخرى من التساؤلات التي لا تبحث عن إجابة بقدر ما تبحث عن عقول تتقبل تلك الإجابات الواضحة التي لا تحتاج إلى الكثير من الجهد والعناء حتى تجدها، فقال متابعاً تساؤلاته: « ومتى، وفي أية لحظة من لحظات عمره، لم يعبر عن هذا النهج الصريح؟ أفي إعلانه الرسالة وإيمانه بها، ولقد نذر نفسه للدعوة لها والجهاد في سبيلها، أم في تطبيقها دستوراً كاملاً لكل مجاري أفكاره وأقواله وأعماله من حيث كان زهده وتقواه وشجاعته وبطولته؟ »[1].

وإذا كان كتاب نهج البلاغة هو الصورة الصادقة لسجل تحركات الإمام

---

(١) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس، مصدر سابق، ص٤٤٠.

علي عليه السلام ولفلسفته في الحياة، فإن كل كلمة فيه، بقوة بلاغتها وبعمق معانيها، لم تكن لتقل شأناً عن قوة سيفه وبطولة ساعده، بل ربما في كثير من الأحيان والظروف كانت الكلمة عنده أقوى من الرماح وأسمى، وأنبل من السيوف وأمضى. فكان سيفه الصارم في خدمة الكلمة الإلهية مثلما كانت اليد التي تمسك به، دائماً وأبداً، في خدمة الرسالة النبوية، ولم يكن الإمام علي عليه السلام ليستخدم قوة الكلمة وقوة السيف إلا من أجل نصرة نور الحق أو إطفاء نار الباطل.

وكما كان الإمام علي عليه السلام يسل سيفه ليهوي به على خصمه بعد أن يستنفذ كل السبل والحيل في إثنائه عن القتال وإراقة الدماء، فقد كان الإمام علي عليه السلام قوياً أيضاً بكلمته وبدعوته إلى التي هي أحسن، فيهوي بحججه وبراهينه على خصومه فيذيبهم كما تذيب الشمس الملتهبة قطع الجليد الأصم.

إن هذه الحقيقة شيء أساسي في حياة الإمام علي عليه السلام وفي نهجه الفكري والاعتقادي، وقد ركز عليها الكثير من المفكرين والأدباء المسيحيين في كتاباتهم ودواوينهم، وقد ذهب معظمهم إلى اعتبارها سمة جوهرية في شخصية الإمام علي عليه السلام قلما يقع عليها الباحث أو المفكر في شخصية أخرى غير شخصية أمير المؤمنين عليه السلام، سيد الحروف والسيوف.

وإذا كنا قد أسلفنا الكلام عن كثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين وما وجدوا في كتاب نهج البلاغة من كنوز فكرية وتراث إنساني خالد، فإن ما سنورده الآن من كلام عن نهج البلاغة وعمق ارتباط الكلمة بالسيف عند علي عليه السلام لا يمثل وجهة نظر هذا المفكر المسيحي القائل لهذا الكلام فحسب،

بل هو بكلامه هذا يمثل كل مسيحي، بل ربما يمثل كل صاحب ضمير حر في هذا المجتمع الإنساني الكبير.

فاستمع، أيها القارئ الكريم، إلى هذا الكلام البليغ الذي ينساب كأشعة الشمس الدافئة بين غيوم الربيع المثقلة بالخير والبركة والعطاء:

«وكما كانت نصلة سيفه تشع وتلمع وتدوي فيسمع لها صليل ولا أرخم، لأنها من «الجوهر» قدت، ومن خير المعادن صبت، صقلها أمهر الصناع، فجاءت ناصعة لا يشوبها ظل سواد، صلبة متينة، لا تفل، هكذا كانت الكلمة على لسان علي تشع وتلمع لأنها من (الجوهر)، من القلب قدت، تجلجل فيسمع لها دوي ولا أقوى، لا يشوبها ظل من غموض، واضحة مشرقة، آية بلاغة، نابعة من قلب قائلها، نافذة إلى قلب سامعها، لأنها تجسيد للصراحة والصدق، وتعبير عن الجرأة التي ما اعتادها البشر على هذه الأرض»[1].

إن هذه الكلمات الصادقة والشفافة هي لسان حال كل المفكرين والأدباء المسيحيين الذين درسوا بعمق الأسباب والدواعي التي جرد الإمام علي عليه السلام سيفه من أجلها، والظروف والأسباب التي بموجبها رفع الإمام راية الكلمة الطيبة وأقام عرش الفكر المستنير والمبادئ الإنسانية الثابتة التي كانت أقوى في وقعها على أعدائه، وأعمق أثراً فيهم من سلطة السيف وجبروت القوة.

ولو توقفنا للحظات قصيرة مع كتاب (في محراب علي) للأديب الشاعر (خليل فرحات) فإننا سنرى أنه يتفق مع كل من سبق ذكرهم من الأدباء

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٩٥.

والمفكرين المسيحيين الذين أدركوا أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن كلامه الشريف بأقل أثراً من سيفه ذي الفقار، فكلاهما يشهران بالحق ومن أجل الحق.

نعم، إن الأستاذ الشاعر (فرحات) يؤكد على ذلك بقوله مخاطباً أمير المؤمنين:

فقولُكَ سيفٌ لا تُردُّ نصالهُ ... وهل سُلَّ يوماً ذو الفقار ولم يَبرِ؟

فهو يؤكد من خلال هذا البيت ومن خلال العديد من الأبيات اللاحقة على صحة هذه الفكرة القائلة بعناق السيف للحرف من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولكن علينا أن نعرف وبشكل واضح وأكيد مدى ارتباط الكلمة العلوية في نهج البلاغة بالعبارة الإلهية المقدسة في القرآن الكريم.

وهذا ما أراد الأستاذ (فرحات) أن يطرحه علينا من خلال قصيدته التي تحمل عنوان (على دروب النهج).

ومن أجل أن نوفر الوقت والجهد في التقديم لهذه القصيدة، دعونا نقدمها، أو بعضاً من أبياتها، بشكل مباشر حتى نتبين ما أراد الأديب الشاعر قوله عن علاقة الكلمة العلوية بالكلمة الإلهية.

يقول الأديب الشاعر (فرحات) معبراً عن تلك العلاقة الجوهرية:

وما النهج والقرآن إلاّ تلازما ... وإنْ يكن القرآن أنأى عن الشعرِ

وما عجبٌ فالعارفون توافقوا ... على أنه ظل الألوهة في القدرِ

وفي النهج أشياء الأناجيل جملةً ... وليس يحارُ المرءُ في الملهم السرّي

تَتَبَّعْتُهُ والله حتى رأيتني ... مليكَ ملوكِ الفكرِ والكَلِمِ البِكْرِ

فأنتَ بقصْرِ القولِ وحدَكَ ربُّهُ وكلُّ ملوكِ القولِ من خَدَمِ القصرِ[1]

وهكذا نرى أن كتاب نهج البلاغة والقرآن الكريم شقيقان لا يقبلان الانفصال عن بعضهما البعض، بل إن العارفين، كما يرى الأستاذ فرحات، قد أقروا واتفقوا على أن كتاب نهج البلاغة هو الظلال الوارفة بلاغةً وبياناً وعلماً وحكمة للكلمة الإلهية المقدسة في القرآن الكريم.

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، فلا بد من الوقوف على وجهة نظر رجل السياسة والأدب، الوزير اللبناني السابق، الأستاذ (جوزيف الهاشم) للتعرف على ما وجده في كتاب نهج البلاغة بعد أن غاص فيه إلى قعره باحثاً عن الدرر والكنوز المخفية في أعماقه.

وهنا، لنا أن نتساءل، بل أن نتوجه بسؤالنا بشكل مباشر إلى الأديب الشاعر قائلين:

وماذا وجدت بعد رحلتك الطويلة في لجج نهج البلاغة؟

وبالطبع، عليه أن يجيبنا على سؤالنا المطروح حول ما وجده في نهج البلاغة، وها هو لا يضن علينا بالإجابة قائلاً:

أعماقُه قُلَلٌ، أغوارُه قِمَمٌ إلى مدى الله، توقٌ نحوَ رحمتهِ
أنَّى التفتَّ نُهى، أنَّى اتجهتَ هُدى وحيث أبحرْتَ ضوءٌ من منارتهِ
هنا العدالةُ، نورُ الأرضِ مذهبُها، ودولةُ الحق آيٌ في شريعتهِ
هنا الفضيلة، عنوان الحياة هنا عنوان مجتمع، عنوان قادتهِ

---

(١) خليل فرحات: في محراب علي، ص٣٣.

هنا السياسة، مصباحُ السماءِ تُقى يا لَيْتَهُم فَهِموا معنى سياستهِ[1]

وهذا بالطبع بعض مما وجده الأديب الشاعر (الهاشم) في كتاب نهج البلاغة، إذ لا يمكننا أن نورد كامل القصيدة خوفاً من إيقاع القارئ في براثن الإطالة والملل.

ولكن قبل أن ننتقل إلى محطة هامة أخرى هي كتاب (History of the Arabs) (تاريخ العرب) والذي يقارب عدد صفحاته الألف صفحة تقريباً، لنرى موقف مؤلفه الباحث (فيليب حتي) من كتاب نهج البلاغة ومن العلوم اللغوية والمعارف البلاغية عند الإمام علي عليه السلام، فإننا سنعمد إلى طي صفحة الشعر وذلك من خلال إلقاء حزمة من الضوء على آخر أديب شاعر يمكن لنا أن نستشهد بأشعاره حول موضوع بحثنا المطروح الآن. إنه الشاعر العملاق (بولس سلامة) صاحب ملحمة (عيد الغدير).

فبعد أن نظم الأديب الشاعر (بولس سلامة) ملحمته الخالدة (عيد الغدير) بما يقارب ثلاثة آلاف وخمسمائة بيتاً من الشعر، عمد إلى وضع خاتمة مناسبة لتلك الملحمة العظيمة، وكانت تلك الخاتمة بمثابة خلاصة لما ورد في الملحمة من أفكار هامة، وكانت تلك الخاتمة أيضاً بمثابة اعتذار من الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام لعدم القدرة على إعطائه كامل حقوقه وإيفائه كل ديونه. وكان الأديب الشاعر (سلامة) قد أوضح للقارئ منذ البداية عجزه عن إعطاء الإمام علي عليه السلام مايستحق من المكانة الرفيعة والمقام العالي، ولكنه أراد أن يدلي

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص٣٩.

بدلوه في مدح علي عليه السلام آملاً من الله الجواد الكريم أن يكون ذلك المديح ذخراً له وعدة يوم يلقى الله بقلب سليم.

وقد بدا اعتذاره واضحاً عندما قال: « فيا أبا الحسن! ماذا أقول فيك، وقد قال الكتَّاب في المتنبي: (إنه مالئ الدنيا وشاغل الناس)، وإن هو إلا شاعر له حفنة من الدرِّ إزاء تلال من الحجارة، وما شخصيته حيال عظمتك إلا مدرة (حجرة) على النيل خجلى من عظمة الأهرام»[١].

وعلى الرغم من هذا الاعتذار الجميل، إلا أنه أقدم على تسطير ملحمته الغراء بصبر وصدق وثبات. وقد بين لنا الكثير من الحقائق الإسلامية من خلال قلمه النظيف الذي أبى أن يسطر إلا الحقائق والوقائع كما جاءت في أمهات كتب السيرة والتاريخ.

وعلى كل حال، فإن ما يهمنا الآن هنا هو الاطلاع على موقفه من علوم علي عليه السلام اللغوية والبلاغية، ومعرفة وجهة نظره بشأن دور الإمام علي عليه السلام في صياغة وبلورة قواعد اللغة العربية والتأسيس لعلومها.

وقبل إيراد بعض الأبيات الشعرية في هذا المجال، لا بد لنا من ذكر ما قاله الأديب الشاعر (سلامة) نثراً عن هذه النقطة المطروحة على بساط البحث. فالأديب (سلامة) يرى قبل كل شي أن الإمام علياً عليه السلام هو الطود الشامخ في البيان وهو خطيب العربية ورمز بلاغتها الذي لا يشق له غبار، وهو المؤسس الأول لقواعدها النحوية ولعلومها البلاغية[٢].

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١١.

ولو تجاوزنا الآن ما قاله الأستاذ (سلامة) نثراً عن كتاب نهج البلاغة وعن العلوم اللغوية التي كان يمتلكها الإمام علي عليه السلام، ووقفنا على ما قاله شعراً في الخاتمة التي وضعها لملحمته الغراء، فماذا عسانا نجد فيها؟؟

يمكننا أن نجد فيها قوله في خطابه لأمير المؤمنين عليه السلام:

يا عليَّ العصور هذا بياني ... صُغتُ فيه وحيَ الإمام جَليّا
أنتَ سلسلتَ من جُمانِك للفُصحى ... وَنَسَّقْتَ ثوبَها السحريَّا
يا أميرَ البيانِ هذا وَفائي ... أحمدُ اللهَ أن خَلِقتَ وفيَّا

فالإمام علي عليه السلام هو الذي أسس علوم اللغة العربية الفصحى، وهو الذي كساها ثوب البلاغة الآسر، وهو أمير البيان الذي كل ما في سفر البيان طوع لسانه ورهن بيانه.

ولنستمع إليه الآن وهو يكمل تلك الخاتمة بقوله المؤثر:

يا أميرَ الإسلام حسبيَ فَخْراً ... أنني منك مالئٌ أصْغَريَّا
جلجلَ الحقُّ في المسيحيِّ حتى ... عُدَّ من فرطِ حُبِّه عَلَويَّا
أنا من يعشق البطولةَ والإلهامَ ... والعدلَ والخُلُقَ الرَّضيَّا
فإذا لم يكن عليٌّ نبيّاً ... فلقد كان خلقُه نَبويَّا[1]

إنها نفثات قلب ندي ينضج بالحب والإجلال لعلي أمير المؤمنين عليه السلام، ويأبى صاحب ذلك القلب البصير إلا أن يسير على نهجه وأن يهتدي للحق إلا بشعاع قدسه إذ لا ضير في أن يسير القلب النقي لأي مسيحي مستنير على

(١) نفس المصدر السابق: ص٣١٢.

صراط علي عليه السلام ونهجه.

أو ليس علي مُلكاً للجميع؟!!

أليس كل مسيحي حر في العالم يتعشق صورة علي عليه السلام ويجل سيرته المباركة قولاً وعملاً؟!!

ثم، أليس كل مسلم منفتح الفكر وكل مسيحي ذو فكر مستنير يجعل من مبادئ علي عليه السلام دستوره في الحياة؟ بل يجعل من مبادئه وقيمه دستوراً للإنسانية وقانوناً عاماً للبشرية؟!!

أليس كل حر أو ثائر أو مظلوم في العالم، ولو لم يكن مسلماً أو مسيحياً، كالمهاتما غاندي مثلاً، ينادي بالاقتداء وبتطبيق كل الأهداف التي نادى بها الإمام علي عليه السلام ومن بعده ابنه الإمام الحسين عليه السلام؟!!

وعلى كل حال، وكما وعدنا القارئ الكريم، فسنتوقف الآن عند الباحث والمفكر (فيليب حتي) لنتعرف على وجهة نظره تجاه كتاب نهج البلاغة وتجاه علوم الإمام علي عليه السلام اللغوية والبلاغية وأثر ذلك على اللغة العربية.

وقبل كل شي، يرى الأستاذ (حتي) أن الإمام علياً عليه السلام « حائز على كل صفات وخصال الإنسان العربي المثالي، فهو البطل الشجاع في المعارك وهو الرجل الحكيم في المشورة وهو الخطيب البليغ الذي يملك فصل الخطاب، وهو الصديق الصدوق وهو الإنسان الشهم حتى مع ألد أعدائه»[1].

فالإمام علي عليه السلام، بالنسبة للأستاذ (حتي)، لم يكن مجرد رجل حرب

---

(١)Philip Hatti, History of the Arabs p.138.

باسل فحسب، بل كان أيضاً فارساً ومقداماً في كل مجال وفي كل فعالية من فعاليات الحياة، فهو فارس الحروب مثلما هو فارس الكلمات والحروف.

وما كان للمفكر والباحث (فيليب حتي) أن يرى ذلك لولا وقوفه الطويل على خطب الإمام عليه السلام وأقواله في نهج البلاغة، ولولا أنه أيقن - كما يصرح هو بذلك - أن الذي أسس لعلوم اللغة العربية هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أفضى بهذا العلم لتلميذه المقرب (أبي الأسود الدؤلي) وأمره بتدوين وتثبيت ما أفضاه إليه[1].

ولذلك فإن الكثير من المفكرين والأدباء والباحثين المسيحيين يعتقدون اليوم أن كتاب نهج البلاغة ليس إلا أثراً بسيطاً من الآثار اللغوية والبلاغية للإمام علي عليه السلام الذي أعطى اللغة العربية صيغتها النهائية وألبسها ثوب البلاغة البديع. وقد أكدوا أيضاً على أن هناك الكثير من الخطب والأقوال التي قالها الإمام علي عليه السلام في مناسبات مختلفة أثبتتها كتب التاريخ والسير والأدب عند الشيعة والسنة ولم تذكر في كتاب نهج البلاغة وذلك لأن الشريف الرضي لم يتعمد جمع كل ما قاله الإمام علي عليه السلام بل أراد جمع بعض ما قاله الإمام عليه السلام، ومن الأدلة على صدق ذلك هو أن بعض الخطب التي ذكرها الشريف الرضي لم تكن كاملة، بل كان يقدمها للقارئ بالقول: (ومن خطبة له عليه السلام)، أي إنه كان يتعامل مع بعض الخطب من منطلق الانتقاء ومن مبدأ أن الجزء من الجوهر جوهر بذاته.

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٤١.

وقبل أن نتابع كلامنا من وجهات نظر وآراء الأدباء والمفكرين المسيحيين عن بلاغة الإمام علي عليه السلام وعن علومه اللغوية، لا بد لنا من الوقوف على بعض تلك الخطب البليغة التي لا تزال تذهل المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب على حدٍّ سواء.

والخطبة التي سنذكرها الآن، هي إحدى الخطب المذهلة لكل الأجيال، وهي أيضاً واحدة من تلك الخطب البليغة التي جعلت أرباب الفكر من المسلمين والمسيحيين يؤكدون على أن كلام الإمام علي عليه السلام ليس بكلام بشر، بل هو حقاً فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق.

وللقارئ الكريم أن يحكم على ذلك بعد قراءته لهذه الخطبة العلوية البليغة والخالية من النقاط، والبعيدة كل البعد عن التكلف والتصنع.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

« الحمد لله الملك المحمود، المالك الودود، مصور كل مولود، وموئل كل مطرود، ساطع المهاد، وموطد الأطواد، ومرسل الأمطار، ومسهّل الأوطار، عالم الأسرار ومدركها، ومدمر الأملاك ومهلكها، ومكور الدهور ومكررها، ومورد الأمور ومصدرها.....

أحمده حمداً ممدوداً مداه وأوحده كما وحده الأواه، وهو الله لا إله للأمم سواه، ولا صادع لما عدله وسواه. أرسل محمداً علماً للإسلام وإماماً للحكام، مسدداً للرعاع، ومعطل أحكام ود وسواع، علم وعلم، وحكم وأحكم، أصل الأصول ومهد، وأكد الوعود وأوعد. أوصل الله له الإكرام، وأودع روحه السلام ورحم آله وأهله الكرام ما لمع رئال وملع رال وطلع هلال وسمع

إهلال.

اعملوا رحمكم الله أصلح الأعمال واسلكوا مسالك الحلال واطرحوا الحرام.... وصلوا الأرحام وراعوها واعصوا الأهواء واردعوها، وصاهروا أهل الصلاح والورع، وصارموا رهط اللهو والطمع...»[1] وبالطبع، هذا مجرد جزء من الخطبة البليغة العارية من النقط، أما الخطبة الأصلية الكاملة فهي طويلة نوعاً ما، ولكن نعتقد أن ما أوردناه منها يكفي لإعطاء القارئ فكرة كافية عن معجزة البيان عند علي عليه السلام.

أما المعجزة البيانية الثانية التي لا تزال تذهل وتأخذ بألباب أرباب الفكر والأدب من المسيحيين مثلما تأخذ بألباب أهل الفكر والأدب من المسلمين أيضاً، هي تلك الخطبة التي قالها الإمام علي عليه السلام عندما كان جالساً مع جماعة من أصحاب النبي الكريم صلى الله عليه وآله يتذاكرون في أمور شتى، ومنها أمور اللغة، فتذاكروا الحروف وأجمعوا على أن حرف الألف هو الحرف الأكثر دخولاً والأبرز حضوراً في اللغة العربية، فقام الإمام علي عليه السلام فخطب هذه الخطبة على البديهة دون أن يذكر فيها حرف الألف ولو لمرة واحدة، فقال عليه السلام:

«حمدت وعظمت من عظمت منته، وسبغت نعمته، وسبقت رحمته غضبه، وتمت كلمته، ونفذت مشيئته، وبلغت قضيته، حمدته حمد مقر لربوبيته، متخضع لعبوديته، متنصل من خطيئته، معترف بتوحيده، مؤمل من ربه مغفرة تنجيه يوم يشغل عن فصيلته وبنيه، ونستعينه ونسترشده ونستهديه ونؤمن به ونتوكل عليه.

---

(١) عباس علي الموسوي: الإمام علي منتهى الكمال البشري، ص١١٥.

وشهدت له تشهد مخلص موقن، وفردته تفريد مؤمن متيقن، ووحدته توحيد عبد مذعن، ليس له شريك في ملكه ولم يكن له ولي في صنعه، جل عن مشير ووزير وعون ومعين ونظير. علم فستر ونظر فخبر وملك فقهر وعصي فغفر وحكم فعدل.

لم يزل ولن يزول، ليس كمثله شيء وهو قبل كل شيء وبعد كل شيء، رب منفرد بعزته، متمكن بقوته، متقدس بعلوه، متكبر بسموه، ليس يدركه بصر، وليس يحيط به نظر، قوي منيع، بصير سميع، حليم حكيم، رؤوف رحيم، عجز عن وصفه من يصفه، وضل عن نعته من يعرفه، قرب فبعد وبعد فقرب، يجيب دعوة من يدعوه ويرزقه ويحبوه، ذو لطف خفي وبطش قوي، ورحمة موسعة وعقوبة موجعة، رحمته جنة عريضة مونقة، وعقوبته جحيم ممدودة موبقة.

وشهدت ببعثة محمد عبده ورسوله وصفيه ونبيه وخليله وحبيبه، صلى عليه ربه صلاة تحظيه وتزلفه وتعليه وتقربه وتدنيه، بعثه في خير عصر وحين فترة وكفر..... ختم به نبوته ووضح به حجته، فوعظ ونصح وبلغ وكدح، رؤوف رحيم بكل مؤمن رضي ولي زكي، عليه رحمة وتسليم وبركة وتكريم من رب غفور رحيم قريب مجيب.

وصيتكم جميع من حضر بوصية ربكم وذكرتكم سنة نبيكم فعليكم برهبة تسكن قلوبكم، وخشية تذري دموعكم وتقية تنجيكم قبل يوم يذهلكم ويبليكم، يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته وخف وزن سيئته، ولتكن مسألتكم وملقكم مسألة ذل وخضوع وشكر وخشوع وتوبة ونزوع وندم

ورجوع، وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه، وشيبته قبل هرمه وكبره، وفرصته وسعته وفرغته قبل شغله، وغنيته قبل فقره، وحضره قبل سفره، من قبل يهرم ويكبر ويمرض ويسقم ويمله طبيبه ويعرض عنه حبيبه وينقطع عمره ويتغير لونه ويقل عقله، قبل قولهم هو موعوك وجسمه منهوك، قبل جده في نزع شديد وحضور كل قريب وبعيد، قبل شخوص بصره وطموح نظره ورشح جبينه وخطف عرنينه وسكون حنينه وحديث نفسه وبكي عرسه، ويتم منه ولده وتفرق عنه عدوه وصديقه وقسم جمعه وذهب بصره وسمعه وكفن ومدد ووجه وجرد وعري وغسل ونشف وسجي وبسط له وهيئ ونشر عليه كفنه وشد منه ذقنه وقمص وعمم وودع عليه وسلم، وحمل فوق سريره وصلي عليه، ونقل من دور مزخرفة وقصور مشيدة وحجر منجدة، فجعل في ضريح ملحود ضيف مرصود بلبن منضود مسقف بجلمود وهيل عليه عفره وحثي عليه مدره وتحقق حذره ونسي خبره ورجع عنه وليه وصفيه ونديمه ونسيبه، وتبدل به قريبه وحبيبه، فهو حشو قبر ورهين قفر يسعى في جسمه دود قبره ويسيل صديده على صدره ونحره، يسحق برمته لحمه وينشف دمه ويرم عظمه حتى يوم حشره ونشره، فينشر من قبره وينفخ في صوره ويدعى بحشره ونشوره، فثم بعثرت قبور وحصلت سريرة صدور، وجيء بكل نبي وصديق وشهيد ونطيق، وقعد للفصل رب قدير بعبده بصير خبير.

فلكم من زفرة تعنيه وحسرة تقصيه، في موقف مهيل ومشهد جليل بين يدي ملك عظيم، بكل صغيره وكبيره عليم، حينئذٍ يلجم عرقه، ويحصره قلقه، عبرته غير مرحومة وصرخته غير مسموعة وحجته غير مقبولة، تنشر صحيفته وتبين جريرته، حيث نظر في سوء عمله وشهدت عينه بنظره. ويده

ببطشه ورجله بخطوه وفرجه بلمسه وجلده بمسه، وتهدده منكير ونكير، وكشف حيث يصير، فسلسل جيده وغلغل ملكه يده، وسيق يسحب وحده، فورد جهنم بكرب وشدة، وظل يعذب في جحيم، ويسقى شربة من حميم تشوي وجهه وتسلخ جلده وتضربه زبنيته بمقمع من حديد، يعود جلده بعد نضجه كجلد جديد، يستغيث فتعرض عنه خزنة جحيم، ويستصرخ فلم يجب، ندم حيث لم ينفعه ندمه.

نعوذ برب قدير من شر كل بصير، ونسأله عفو من رضي عنه ومغفرة من قبل منه، فهو ولي مسألتي ومنجح طلبتي.

فمن زحزح عن تعذيب ربه، جعل في جنته بقربه، وخلد في قصور مشيدة، وملك حور عين وحفدة وطيف عليه بكؤوس، وسكن حظيرة قدس في فردوس، وتقلب في نعيم، ويسقى من تسنيم وشرب من سلسبيل قد مزج بزنجبيل ختم بمسك مستديم للملك مستشعر للرسول ويشرب من خمور في روض مغدق ليس ينزف عقله.

هذه منزلة من خشي ربه وحذر نفسه، وتلك عقوبة من عصى منشئه وسولت له نفسه، فهو قول فصل وحكم عدل.. تنزيل من حكيم حميد نزل به روح قدس منير مبين من عند رب كريم على قلب نبي مهتد رشيد وسيد، صلت عليه رسل سفرة مكرمون بررة. عذت برب عليم حكيم قدير رحيم من شر عدو لعين رجيم يتضرع متضرعكم، ويبتهل مبتهلكم. ونستغفر رب كل مربوب لي ولكم»[1].

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١١٢-١١٤.

لا أريد أن أعلق على هاتين الخطبتين البليغتين للإمام علي عليه السلام، فهما أرفع وأسمى من أي تعليق أو حتى من أي مديح يمكن أن يقال.

ولا أريد أيضاً أن أستشهد بالمزيد من أقوال الإمام عليه السلام وخطبه الإعجازية البليغة، لأنني أعتقد أن الأبواب السابقة من هذا الكتاب قد أوضحت طبيعة ونوعية أقوال الإمام عليه السلام وأبرزت، بما فيه الكفاية، القيمة المعروفة لتلك الأقوال والخطب وأثر ذلك على الفكر الإسلامي العام في مسيرة الحضارة الإسلامية المادية والروحية.

ولو أردنا الاستمرار في عرض وجهات نظر المفكرين المسيحيين بشأن العلوم اللغوية والمعارف البلاغية التي خلفها الإمام علي عليه السلام من جملة تراثه الفكري الخالد، فبإمكاننا الاستشهاد بأقوال الكثير منهم.

وهنا أريد أن أتوقف للحظة قصيرة مع الأب المسيحي (لويس معلوف اليسوعي) (١٨٧٦-١٩٤٦) ومع صديقه الأب (فردينان توتل اليسوعي) المعاصر له، وهما اللذان ألفا كتاباً هاماً جداً باللغة العربية عام (١٩٠٨) وهو كتاب (المنجد في اللغة والأعلام).

ولذلك، لو قلبنا صفحات هذا المرجع اللغوي والثقافي الهام، فماذا عسانا أن نجد فيه بشأن علوم الإمام علي عليه السلام؟

لقد جاء في الكتاب المذكور للأبوين المسيحيين أن كتاب نهج البلاغة هو كتاب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث جمعت فيه أقواله وبعض خطبه البليغة. وقد ورد فيه أيضاً القول التالي، بعد التأكيد على صحة نسبة كتاب نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام: « يعتبر (الإمام علي عليه السلام) صاحب

المدرسة الأولى في الإسلام التي انبثق منها مجرى ثقافي عريض»[١].

وهذا المجرى الثقافي العريض لم يكن المقصود به، بطبيعة الحال، المجرى اللغوي والبلاغي فحسب، بل كان المقصود منه الرؤية الكونية الشاملة للوجود انطلاقاً من النظرة الإسلامية الأصيلة لله والعالم والإنسان.

ولذلك، فعندما قال الأستاذ الباحث (أنطون بارا) عن خطب وأقوال الإمام علي عليه السلام: «إنها حكم إعجازية قيلت في كلمات إيجازية مكثفة»[٢]، فإنما قصد بذلك أن الإمام علياً عليه السلام استطاع من خلال أقواله البليغة والموجزة أن يعبر عن أعقد القضايا وأعمقها بإسلوب إيجازي إعجازي بليغ.

وهذا ما أكده بدوره الدكتور الباحث (كمال اليازجي)، الأستاذ الأسبق للأدب العربي والفكر الإسلامي في الجامعة الأميركية في بيروت، إذ إنه تحدث في كتابه القيم (روافد الأدب العربي في عصوره القديمة) عن دور الإمام علي عليه السلام في عملية إرساء العلوم اللغوية والبلاغية للغة العربية. وقد اعتبر الدكتور (اليازجي) أن الأغراض التي تناولها الإمام علي عليه السلام في خطبه لم تكن مقتصرة على غرض واحد أو مجال فكري وحيد، بل كانت مواضيعه الخطابية مختلفة وغنية بتنوع أغراضها التي تطال كل ميادين الفكر الإنساني.

وعندما تحدث الدكتور (اليازجي) عن مميزات الأسلوب الخطابي في صدر الإسلام، قال: «ورثت الخطابة في الإسلام أهم ما ميزها عن سائر فنون النثر

---

(١) لويس معلوف وفرديناند توتل اليسوعي: المنجد في اللغة والأعلام، راجع كتاب المنجد في الأعلام المطبوع بشكل مستقل، إصدار: انتشارات ذوي القربى - طهران، ١٤٢٣هـ، ص٣٧٨.

(٢) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، مصدر سابق، ص١٥٢.

الجاهلي، وتميزت بأمرين هامين: حافظت على قصر العبارة، وحلية السجع، وقوة الإثارة، وشدة الوقع وزادت على ذلك من مؤثرات الإسلام: الافتتاح بالأدعية، والاختتام بالحمد والثناء، وتضمين الآيات المقتبسة والأدعية المعترضة، فضلاً عن طابع التعليم الجديد، في المعاني الخاصة والأغراض العامة، على السواء. وقد كان أبلغ خطباء هذه الفترة رابع الخلفاء الراشدين: علي بن أبي طالب، من حيث اختلاف موضوعاته، وبلاغته وصياغته، وشدة وقعه، بوجه الإجمال»[1].

وقد أرجع الدكتور (اليازجي) أسباب التفوق الفكري والبلاغي للإمام علي عليه السلام إلى عدة أسباب، منها إيمانه الراسخ والعميق بالرسالة الإسلامية ومبادئها، ولزومه الدائم والمميز للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله واتباعه الصادق لتعاليمه السامية النبيلة التي تدعو إلى التخلق بأخلاق وآداب الله عز وجل، وإلى عدم الاكتفاء بالاقتداء النظري بالرسول الكريم، بل إلى الاقتداء به صلى الله عليه وآله نظرياً وعملياً وعدم الابتعاد عنه، لا في حالات السلم ولا في ظروف الحرب، بما في ذلك عدم الابتعاد عنه حتى في لحظات وفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى حيث وقف عليه السلام يصلي عليه بعد أن غسله وكفنه، ثم واراه الثرى في الوقت الذي كانت فيه البقية من الأصحاب مهتمة بأمر الخلافة، هذا بالإضافة إلى استعداداته الفكرية وصفاته الروحية والنفسية التي تؤهله لذلك[2].

---

(١) الدكتور كمال اليازجي: روافد الأدب العربي في عصوره القديمة، المطبعة المخلصيّة - بيروت ١٩٦١، ص٥٠.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٥٠.

إن هذه الاستعدادات الروحية والنفسية العالية وتلك القابليات العقلية المدهشة والمتجاوزة للقدرات والحدود الإنسانية العادية هي التي جعلته عليه السلام الإمام المنصوص عليه إلهياً حتى من قبل ظهور آدم عليه السلام. ويكفي أن نذكر أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد بيّن هذه الحقيقة بقوله - كما جاء في كتاب (تذكرة الخواص) للعلامة سبط ابن الجوزي الحنفي وفي غيره من كتب السنة: « كنت أنا وعلي بن أبي طالب نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام، فلما خلق آدم قسم ذلك النور جزأين، فجزء أنا وجزء علي»[١].

ولذلك، علينا ألا نستغرب وألا يستغرب معنا المفكرون والأدباء المسيحيون من قدرة الإمام علي عليه السلام على تحويل كامل مبادئه وتعاليمه النظرية الواردة في نهج البلاغة وفي غيره من الكتب والمصنفات التي تتناول أقواله وخطبه ووصاياه إلى وقائع عملية وتطبيقات واقعية. بحيث تسد كل فراغ وتردم كل فجوة بين النظرية والتطبيق.

وهذا يعني، أيضاً، أن الباحثة والراهبة الكاثوليكية (كارين آرمسترونغ) كانت محقة تماماً في تعليقها على واحدة من خطب الإمام علي عليه السلام وهي الخطبة التي تحتوي على تعليمات ووصايا أخلاقية وسياسية هامة، أوصى علي عليه السلام عامله (مالك بن الأشتر) بتطبيقها واحترامها حين ولاه مصر. لقد كانت تلك الراهبة الباحثة محقة تماماً عندما علقت عليها قائلة: « يصعب القول: إن جميع

---

(١) العلامة سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضي - قم، ١٤١٨هـ، ص٥١.

الحكام المسلمين تمثلوا هذه المعايير السامية»[1].

نعم، إن هذا الكلام صحيح ولا ريب فيه، إذ ليس هناك من حاكم أو خليفة أو والي استطاع أن يتمثل هذه المبادئ السامية والأخلاق الرفيعة العالية مثلما تمثلها قائلها، وما استطاع أحد منهم أن يجعل من سلوكه ونهجه العملي، كإنسان مسلم وكخليفة على المسلمين، المرآة الصافية والصادقة التي تعكس المبادئ والقيم التي ينادي بها من خلال منظومته الفكرية العامة المشتملة على تلك الأهداف والمبادئ والتوصيات. فمن السهل جداً على الإنسان أن يعظ الآخرين، ولكن من الصعب جداً عليه أن يعظ نفسه أو أن يطبق كل المبادئ والقيم التي يعظ بها الناس ويدعوهم إلى تطبيقها.

وهنا يمكن لنا ولكل مسيحي أن يتساءل قائلاً: «وهل كان الإمام علي عليه السلام خارج هذه الطبيعة الإنسانية التي تعجز في الكثير من الحالات عن القيام بعملية التكامل التام بين الفكر والممارسة؟

والجواب بكل بساطة، نعم، لقد كان الإمام عليه السلام خارج تلك الطبيعة الإنسانية، بل بالأصح، لقد كان الإمام علي عليه السلام فوقها ومتجاوزاً لها. وقد أثبت المفكرون المسيحيون من خلال دراستهم لشخصية أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه لم يقل في يوم من الأيام قولاً بلسانه ثم خالفه بعد ذلك بأعماله، فما أمر رعيته بشيء استثنى نفسه منه، ولا نهى تلك الرعية عن شيء فخالفت نفسه ذلك النهي منه.

---

(١) كارين آرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد - دمشق، ط٢/٢٠٠٢، ص٣٠٣.

ولذلك، فإن المفكرين والأدباء المسيحيين قد أدركوا، مثلما أدركت الراهبة الباحثة (آرمسترونغ) أنه من العسير، وربما من المستحيل أن ينهج أحد نهج علي عليه السلام في حركته الحياتية المؤسسة في كل مفصل من مفاصلها على مبدأ فاضل أو منطلق أخلاقي ثابت يمتد بجذوره عميقاً في صلب الرسالة السماوية ويتغلغل بعيداً في جوهر التعاليم النبوية.

ومن هنا أدرك المسيحيون أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن في يوم من الأيام، من خلال تعاليمه الواضحة في نهجه وسلوكه، إماماً متناقضاً مع قوله الذي خاطب به عموم المسلمين طالباً منهم ربط الأقوال بالأفعال سواء في الأمر بالمعروف أم في النهي عن المنكر: «... هيهات لا يخدع الله عن جنته، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته، لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به»[1].

وبالتالي، يحق للأديب والمفكر (جورج جرداق) أن ينبهر ويندهل من مدى التطابق والتكامل بين المبادئ والقيم في نهج البلاغة وبين المنطلقات الحركية والأسس العملية المنعكسة على سيرة صاحب ذلك النهج العظيم. وليس هذا فحسب، بل يحق له أيضاً أن يندهش من بلاغة العبارة وحلاوة الأسلوب وعمق المعاني وتعانق ظاهر العبارة مع باطن الإشارة.

وها هو الأستاذ (جرداق) يتساءل بأسلوبه الفلسفي قائلاً: «هل سألت تاريخ هذا الشرق عن نهج للبلاغة آخذ من الفكر والخيال والعاطفة آيات تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر، مترابط

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، ج٢ ص٢٢٣.

بآياته متساوق، متفجر بالحس المشبوب والإدراك البعيد، متدفق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس، والهواء بالهواء، فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج والريح إذ تطوف، أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو كائن عليه من الوحدة التي لا تفرق بين عناصرها إلا لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كون!»[1].

وإذا كان لهذا الكلام صبغته الفلسفية العميقة التي تحتاج إلى الكثير من التأمل والتروي في الدراسة والتحليل، فإن لقائلها أقوالاً أخرى لا تقل عن هذا القول عمقاً في التحليل وبعداً في الإدراك والمعرفة.

ولذلك، فقد كان من نتائج البحوث التي قام بها الأستاذ (جرداق) عن نهج البلاغة وعن الجانب اللغوي في فكر الإمام علي عليه السلام، هو أن لله مشيئة وحكمة في أن يكون الإمام علي عليه السلام ركن اللغة العربية في علومها وبلاغتها كما كان أيضاً ركن الإسلام في بقية علومه وفنونه. ولذلك، لم يكن في أهل زمانه من يستطيع أن يقف ويصمد أمام الإمام علي عليه السلام في علوم اللغة العربية وفنونها.

ويريد الأستاذ (جرداق) أن يلفت انتباهنا إلى أن هناك نقطة هامة غائبة عن أذهان الكثيرين ممن درسوا شخصية الإمام علي وقدراتها الفكرية، وما تلك

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٤٥.

النقطة الهامة التي أغفلها، وأغفل عنها، العديد من الباحثين والدارسين لشخصية الإمام علي عليه السلام إلا تلك العبقرية الأدبية الخلاقة القادرة على صياغة الأفكار وترجمتها، ورسم الهيكلية العامة للمواضيع المختلفة التي تناولها في أحاديثه وخطبه بطريقة فريدة ومدهشة.

فالإمام علي عليه السلام كما يرى الأستاذ جرداق، كان بلا شك إماماً في الفقه والشرع وفي كل المجالات المعرفية الأخرى التي تناولها وأشار إليها صراحة من خلال تعاليمه وتوصياته: كالطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك وإلى غيرها ما هنالك من علوم أخرى هامة، ولكن الإمام علياً عليه السلام الذي هو المؤسس الحقيقي لعلوم اللغة العربية، لم يكن في مجال الإبداع الأدبي بأقل منه في بقية المجالات والميادين المعرفية الأخرى التي تعزز من القيمة الوجودية للإنسان على الأرض وتدفعه، بالتالي، إلى بناء الوجود على أسس علمية قويمة وأخلاقية سليمة بحيث يحقق ذاته من خلال بناء مجتمع حضاري يضع العلم في كفة والأخلاق في الكفة الأخرى.

وقد أراد الأستاذ (جرداق) أن يقول أكثر من ذلك، فقد أراد أن يقول: إن علم اللغة شيء، وتطبيق هذه العلوم اللغوية شيء آخر. فرب رجل يكون عالماً في أمور الطب النظرية لكنه، من الناحية العملية، قد يعجز عن تطبيق هذه العلوم على كثير من المرضى، وربما يعجز حتى عن امتلاك القدرة أو الجرأة على إجراء أي عمل جراحي بسيط من شأنه أن يكون التطبيق العملي لتلك العلوم النظرية التي اكتسبها واختزنها ضمن إطار الفكر المجرد. ورب أستاذ جامعي قد حاز على أعلى الشهادات في علوم اللغة العربية وآدابها وتبحر في

تاريخ الأدبين القصصي والشعري، لكنه قد يقف عاجزاً معقود البنان لو طلب منه أن يكتب قصة قصيرة أو أن ينظم قصيدة بسيطة.

وبالتالي، فما أراد الأستاذ (جرداق) قوله هو أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن عالماً في المجال النظري المجرد للعلوم اللغوية فحسب، بل كان أيضاً أديباً فذاً وبارعاً في تحويل تلك العلوم اللغوية المتنوعة إلى ما يشبه حبات سبحة طيعة يتلاعب بها ببنانه كيفما يشاء، فما الأدب المكتوب والملفوظ عنده إلا رهن بنانه وطوع لسانه.

وتبعاً لذلك، يرى (جرداق) أن الذي يتتبع سيرة العظماء، كل العظماء، في التاريخ سيدرك أن هناك ظاهرة مميزة وبارزة توحد بينهم جميعاً، سيدرك الذي يتتبع سيرهم أنهم، بالإضافة إلى إبداعهم في مجال عملهم الخاص، كانوا أيضاً أدباء موهوبين على تفاوت في درجات القوة والتميز، فهم بين أديب متميز خلاق مبدع، أو متذوق قريب في تذوقه المرهف من حدود الإنتاج والإبداع. فمن نظرة واحدة إلى الأنبياء، على سبيل المثال لا الحصر، نستطيع أن نقرر صدق وجود تلك الظاهرة الجامعة بين ذلك الصنف من العظماء، وهم بلا شك أعظم من العظماء. فما داوود وسليمان وأشعيا وأرميا وأيوب والمسيح ومحمد، كما يرى الأستاذ جرداق، إلا أدباء عمالقة أوتوا من الموهبة الأدبية ما أوتوا من سائر المواهب الأخرى ضمن إطار رسالاتهم السماوية ونبوءاتهم الإلهية.

وحتى القائد العسكري نابليون، والمشرع السياسي لينين، والفيلسوف أفلاطون، وعالم الرياضيات باسكال، ورجل الدولة والمفكر جواهر لال نهرو، وعالم الطبيعيات باستور، والمصلح الاجتماعي جمال الدين الأفغاني

(الآسترابادي)، كل أولئك، على مختلف صنوف أعمالهم واهتماماتهم، كانوا أيضاً أدباء ولهم في عالم الأدب ما يجعلهم في مرتبة الأدباء من أهل الاختصاص.

وهنا يأتي دور الكلام عن (الأديب) على بن أبي طالب عليه السلام. وأول ما نبدأ به كلامنا هو السؤال التالي: ماذا قدم علي عليه السلام الأديب إلى علماء اللغة وأدبائها؟!

يقول الأديب (جرداق) في جوابه على ذلك قائلاً: «هذه الحقيقة (حقيقة الموهبة الأدبية) تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب، فإذا هو الإمام في الأدب وسره البلاغة، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علم وهدى! وآيته في ذلك (نهج البلاغة) الذي يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسس، وتتصل به أساليب العرب في نحو ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر»[1].

والحقيقة، فإنني لا أستطيع أن أدون أو أن أستشهد بكل ما قاله الأستاذ الأديب (جرداق) عن العلوم اللغوية عند الإمام علي عليه السلام وعن كتابه نهج البلاغة، وذلك لكثرة الدراسات والتحليلات التي أجراها الأستاذ (جرداق) حول كتاب نهج البلاغة وعلاقته بالقيم الفكرية والعلمية لكل فرع من فروع العلم والمعارف التي تناولها النهج بأسلوب منطقي حكيم.

ولكن بالرغم من ذلك، سنحاول أن نلخص بإيجاز بعض النقاط الهامة

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٣ ص١٨٤.

التي وردت بشأن موضوعنا المطروح الآن أمامنا.

ومن هذه النقاط التي يمكن إيجازها هي نقطة التسلسل المنطقي في أفكار كل الخطب التي احتواها النهج، هذا بالإضافة إلى التماسك والترابط بين الفكرة والفكرة حتى تكون كل من هذه الأفكار المترابطة نتيجة طبيعية لما قبلها وعلة منطقية لما بعدها. ثم إن هذه الأفكار - كما يرى جرداق - لا يوجد فيها ما يستغنى عنه في الموضوع المعالج المطروح، ولا يمكننا أن نجد فيها ما يستقيم البحث بدونه. هذا بالإضافة إلى أن الإمام عليه السلام لا يستخدم لفظاً إلا وفي ذلك اللفظ الذي استخدمه ما يدعونا لأن نتأمل ونمعن في التأمل، ولا يستخدم عبارة إلا وتفتح تلك العبارة أمامنا آفاقَ وراءها آفاق من النظر الجليل[1].

ثم إن الأفكار الواردة في كتاب نهج البلاغة هي أفكار مضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم، ولا فرق في ذلك بين ما يكتبه علي عليه السلام وبين ما يلقيه ارتجالاً، ففي خطب الإمام علي عليه السلام المرتجلة معجزات من الأفكار المحكومة بقيادة العقل المنطقي الحكيم.

ومما يدهش القارئ فعلاً هو ذلك المقدار الهائل من الإحكام والضبط العقليين العظيمين في طرح الأفكار وصياغة المبادئ. وهنا يلفت الأستاذ (جرداق) نظرنا إلى أن الإمام علي عليه السلام لم يكن ليعد خطبه، ولو قبيل إلقائها بلحظات، بل كانت تخرج منه كما تخرج المياه العذبة متدفقة من الينبوع السلسبيل الصافي، إنها، باختصار شديد، تخرج منه منفصلة ومنتشرة كانتشار الضوء من السراج.

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٣ ص١٨٥.

وهنا لا بد من الوقوف على نقطة هامة أخرى لا تقل أهمية على ما سبق، وتكتسب هذه النقطة أهميتها من مصداقيتها أولاً، ثم من كونها إحدى النقاط التي يجتمع كل الأدباء والمفكرين المسيحيين على دقتها وصحتها ثانياً. وقد عبر الباحث والأديب (جرداق) عن هذه النقطة بقوله عن المواضيع التي تناولها الإمام عليه السلام في كتابه نهج البلاغة: «ومن ذكاء علي المفرط في نهجه أنه نوع البحث والوصف فأحكم في كل موضوع ولم يقصر جهده العقلي على ناحية واحدة من الموضوعات أو من طرق البحث. فهو يتحدث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس، وطبائع الأفراد والجماعات. وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء. ويسهب في القول في التاريخ الطبيعي فيصف خفايا الخلق في الخفاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها. ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين، ويبدع في التحدث عن خالق الكون وروائع الوجود. وانك لا تجد في الأدب العربي كله هذا المقدار الذي تجده في (نهج البلاغة) من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم في مثل هذا الأسلوب النادر!»[1].

ولا ريب في أن هذا الكلام للأستاذ (جرداق) يدل على موسوعية الإمام علي عليه السلام المعرفية وعلى إحاطته الكاملة والشاملة بخفايا الحياة وقوانين الوجود. ولولا أننا قد تطرقنا في الفصول السابقة إلى النواحي العملية والميادين المعرفية في نهج البلاغة لكنا الآن بصدد التوسع أكثر في ما كتبه الأستاذ (جرداق) عن هذه النقطة وأهميتها في نهج البلاغة، ولكن رأينا أنه من الأفضل أن نكتفي هنا بالإشارة العابرة إلى ما قاله الأستاذ (جرداق) عن هذه القضايا الجوهرية التي

(١) نفس المصدر السابق: ج٣ ص١٨٧.

أجمع المفكرون المسيحيون على صحتها وصدقها.

ولكن قبل أن نكمل مسيرتنا مع ما قاله الأستاذ (جرداق) عن العلوم اللغوية والبلاغية عند الإمام علي عليه السلام وعن فضله في إرساء قواعدها الأساسية، لا بد لنا من الوقوف مع المفكر والأديب (أنطوان بارا) لنتعرف على موقفه ووجهة نظره من كتاب نهج البلاغة الذي يعتبر الحجة والدليل لكل عالم باللغة العربية، والذي يعتبر بنفس الوقت أيضاً الكتاب الجامع - بعلومه وأدبياته وحكمه - لكل ميادين الحياة ومفرداتها.

فالأستاذ الباحث (أنطون بارا) يرى أن الإمام علياً عليه السلام ورث ممن سبقوه تركة ثقيلة يصعب حملها في ظل ظروف سياسية قاسية ارتبطت بمن جاء قبله إلى كرسي الحكم. ولكن بالرغم من تلك الظروف السياسية القاسية، إلا أنه استطاع، كما يقول الأستاذ (بارا)، أن يحقق العدالة وأن يعيد للإسلام صفاءه ونقاءه. وهنا يعطينا الأستاذ (بارا) جواباً حاسماً لسؤال يمكن أن يطرحه كل واحد منا على نفسه. وهذا السؤال هو:

ما هو الهدف من وضع كتاب نهج البلاغة؟

هذا هو السؤال الذي يمكن أن يطرحه كل واحد منا على نفسه، وربما طرحنا على أنفسنا سؤالاً آخر يعتبر بمثابة التتمة الضرورية للسؤال الأول، وهو:

هل كان يعرف الإمام علي عليه السلام أن خطبه وأقواله ستجمع يوماً ما في كتاب يضم معظم هذه الخطب والأقوال والوصايا؟

والجواب على هذين السؤالين موجود في ما قاله الأستاذ الباحث (بارا) عن

كتاب نهج البلاغة وعن أهداف سياسة الإمام علي عليه السلام في الحكم والخلافة. فمن خلال حديث الأستاذ (بارا) عن فكر الإمام علي عليه السلام وعن نهجه العملي في الحياة، كفرد مسلم وكخليفة على المسلمين، نستطيع أن نلمس من حديثه أن الإمام علياً عليه السلام كان يعرف أن خطبه وأقواله بشكل عام ستلقى الرعاية الكافية والاهتمام اللازم من الأجيال اللاحقة، وذلك لأنه أراد من خلال تلك الأقوال والوصايا أن يضع دستوراً واضحاً للناس من أجل التعامل مع كل مفاصل الحياة بحيث لا يترك للناس وللأجيال اللاحقة أي مجال للتأويل أو للتلاعب بالدستور الأساسي (القرآني) كما يريدون أو كما تمليه عليهم أهواؤهم وميولهم، ولذلك عمد إلى تسليط الأضواء على الخريطة الفكرية الإسلامية بكل رموزها ومفاهيمها بهدف إعطائها الأبعاد الفكرية والروحية الأكثر وضوحاً وبساطة حتى لا يدع مجالاً لمتأول أو متقول كي يتسلل إلى جوهر العقيدة الإسلامية بهدف الإساءة إليها أو النيل منها.

أما عن الهدف من وضع كتاب نهج البلاغة، وعلى الرغم من أن الكتاب قد وضع لاحقاً بعد رحيل الإمام علي عليه السلام، إلا أنه من الممكن أن نتعرف على الهدف من وضعه.

وربما كانت وجهة نظر الأستاذ الباحث (بارا) من أكثر وجهات النظر عقلانية ومنطقية، وها هو يعبر عن وجهة نظره بشأن الهدف من وضع كتاب نهج البلاغة بقوله:

«حينما وضع كتابه العظيم نهج البلاغة لم يكن ينظر إلى الأمر من زاوية خلافته فحسب، بل كان يرى الحالة المزرية التي وصلت إليها الأمة في ذلك

الوقت، وغياب جيل المؤسسين في دولة الإسلام كان يستدعي وجود كتاب ومنهج لوضع مناقب أخلاقية وعملية تحفظ كرامة الإنسان، فوضع الإمام علي عليه السلام نهج البلاغة كي يكون هذا (النهج) الدستور من بعد رحيله، حيث كان الإسلام لم يزل صغيراً يحبو في ذلك الوقت وكانت الأطماع في أوجها، وقد تجلى هذا في ما فعله أرستقراطيو قريش، بقايا الأرستقراطية القريشية التي لم تدخل الإسلام إلا لخدمة مصالحها أولاً»[1].

وهذا يعني، وفقا لرؤية الأستاذ الباحث أنطون بارا، أن نهج البلاغة أو الخطب والوصايا التي قالها الإمام علي عليه السلام قبل أن تجمع في كتاب مستقل، هي في المحصلة خطب وأقوال تشكل نهجاً واضحاً في الحياة ومخططاً عاماً لكل أولئك الذين يريدون أن ينتهجوا الطريق الإنساني المرتكز على احترام الكرامة الإنسانية وصون القيمة الوجودية للإنسان سواء كان ذلك الإنسان مسلماً أم غير مسلم.

وإذا كان الأستاذ (بارا) لا ينكر ما للإمام علي عليه السلام من دور هام وأساسي في حفظ وتجذير علم النحو العربي وما لذلك من أهمية بالغة في الحفاظ على أصالة تلك اللغة التي أبى الله سبحانه وتعالى أن يخاطب عباده في آخر رسالة سماوية له إلا بها، إلا أنه يرى أيضاً أن لنهج البلاغة - الذي يمثل الانعكاس الحقيقي للعلوم البلاغية عند علي عليه السلام- دوراً هاماً جداً لا يمكن تجاهله على

(١) من مقابلة مع الأستاذ (أنطون بارا)، أجراها معه الصديق الصحافي بسام محمد حسين، في دمشق بتاريخ ١/٩/٢٠٠٤، وذلك على هامش مهرجان (الإمام علي عليه السلام وحقوق الإنسان) المنعقد في دمشق في ذلك التوقيت، وقد أرسل لي الصديق بسام حسين نسخة من المقابلة.

صعيد الحضارة الإنسانية المعاصرة.

ويمكننا أن نلخص هذه الفكرة عند الأستاذ أنطون بارا بقوله: إن العالم كله، وليس الغرب فقط، قد قام باستحداث شريعة حقوق الإنسان ضمن ما يسمى بالأمم المتحدة منذ ما يقارب خمسين عاماً مضت حيث إن الغرب كان يظن أن هذه التشريعات نبعت من مجتمعاته ومن فلسفاته الوضعية. ولكن، في الحقيقة، إن تلك الشريعة المتعلقة بحقوق الإنسان قد وجدت منذ أربعة عشر قرناً في نهج الإمام علي ورؤياه من أجل تحقيق هذه العدالة، ولكن الغرب لم ينتبه إليها إلا بعد إقرار شريعة حقوق الإنسان. ورغم ذلك، فقد تنبهوا إليها وأخذوا منها الكثير، ولكن لو أن العالم قد التفت إلى كل ما جاء في نهج البلاغة من حقوق ودساتير ولوائح تمثلت في خطب الإمام علي لولاته على الأمصار والبلدان لكان أجدى وأنفع للبشرية من هذه الدساتير الوضعية التي يعتريها الكثير من القصور في الرؤية وآلية التنفيذ وكيفيتها. ولو أنصف العالم لكان من الأجدر به أن ينظر إلى كتاب نهج البلاغة ليوفر على نفسه الكثير من وضع هذه الدساتير المنقوصة لأن في نهج البلاغة محيطاً عظيماً وفي عمق ذلك المحيط الكثير من الأسس والأفكار التي تفيد البشرية في مجال الأخلاق والتربية والتعليم والاقتصاد بحيث لو أنها طبقت لأغنت البشرية كلها عن وضع الدساتير وذلك لأن روحية دستور حقوق الإنسان الذي أقر منذ خمسين عاماً نجده في نهج البلاغة لا سيما في كتب الإمام علي عليه السلام لولاته على البلدان، لأن في هذه الكتب نهجاً حقيقياً لأمة الإسلام وللبشرية أيضاً.

و يتابع الأستاذ (بارا) فكرته هذه بتأكيده على أن هذه الخطب البليغة للإمام

علي عليه السلام تشكل نهجاً قويماً وصراطاً مستقيماً لكيفية تعامل الحاكم والمحكوم، ولآلية تعامل الناس مع بعضها البعض على أسس ثابتة من القيم الأخلاقية والمساواة على الرغم من اختلاف الملل والأديان[1].

وهنا نلاحظ أن الأديب والباحث (أنطون بارا) قد ركز في الحوار الذي أجري معه في دمشق بتاريخ ١/٩/٢٠٠٤م على الجوانب الفكرية والإنسانية في نهج البلاغة أكثر من التركيز على الجوانب اللغوية والبلاغية فيه. فالتركيز الأساسي كان على ما وراء تلك البلاغة الأخاذة والبيان الآسر.

وربما أراد الأستاذ (بارا) أن يبين لنا من خلال هذا الحوار معه أن الكلام البليغ والبيان العبقري الساحر في كتاب نهج البلاغة إنما هو جزء بسيط من عبقرية علي عليه السلام. أما العبقرية الحقيقية عند الإمام علي عليه السلام فتتجلى في قدرته على وضع يده على آلام البشرية جميعها، وفي قدرته أيضاً على مداواتها وذلك من خلال وضعه الحلول العملية الفعالة لكل المشاكل والعقبات التي يمكن أن تعترض سبيل نهوضها وتقدمها وتحقيق آمالها على كافة المستويات وفي شتى الميادين.

وعندما أرسل لي صديقي الصحافي بسام حسين نسخة خاصة من ذلك الحوار الذي أجراه مع الأستاذ (بارا) في دمشق، وقرأت ذلك الحوار الشيق بعمق أكثر من مرة، تذكرت على الفور ما قاله الأستاذ بارا عن تلك الأفكار

---

(١) نفس المقابلة السابقة، وقد جاء هذا الكلام من الأستاذ (بارا) كجواب على السؤال الذي طرحه عليه الصديق الصحافي بسام حسين عن كيفية التعامل مع الإرث الثقافي والفكري الروحي للإمام علي عليه السلام.

والنظريات والمبادئ العظيمة المرتدية ثياب البلاغة القرآنية العظيمة وعن مدى قدرة تلك الأفكار والمبادئ على معالجة مشاكل عصرنا، بل ومشاكل كل عصر فيما لو أخذنا بها ونفذت كما ينبغي لها أن تنفذ، عند ذلك تذكرت أن ما قاله ذلك الباحث والأديب المسيحي (بارا) هو نفس ما قاله الكاتب والمفكر المسلم، غير الشيعي، الأستاذ (رياض نجيب الريس). فالأستاذ (الريس) هو قبل كل شيء صحافي معروف وله شهرته الواسعة ومكانته الفكرية المحترمة، وهو أحد المفكرين من إخواننا السنة، وهو غنيٌّ عن التعريف في مجال الكتابة والطباعة والنشر على المستويين العربي والدولي. وقد قرأت له مرة مقالاً في مجلة تصدر في باريس، وبعد فترة لا بأس بها قرأت له نفس المقال في مجلة أخرى تصدر في هولندا، وقد أرادت المجلة الثانية تعميم الفائدة على أكبر شريحة من الناس من خلال ذلك المقال الرائع للأستاذ (الريس)، فأعادت نشره بالكامل دون أي تغيير أو تعديل.

وكان عنوان المقال الذي كتبه الأستاذ الصحافي رياض الريس هو (مقابلة صحفية مع أمير المؤمنين). ويدور ذلك المقال المتميز شكلاً ومضموناً حول إمكانية وقدرة الإمام علي عليه السلام على حل كل المشكلات العظيمة في المجتمعات الإنسانية الإسلامية وغير الإسلامية. وقد وضع الأستاذ (الريس) نفسه في موضع الصحافي الذي وجه للإمام علي عليه السلام أكثر من ثلاثين سؤالاً حول هموم الانسانية ومشاكل الأفراد والمجتمعات البشرية، وكان الإمام علي عليه السلام بالمقابل، في موقع الضيف الذي يجيب على هذه الأسئلة من خلال أفكاره ومبادئه الموجودة في نهج البلاغة.

وبما أن كتابنا الذي بين يدي القارئ الكريم يتمحور حول شخصية الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر، فإننا لا نريد أن نشعب الموضوع الأساسي كثيراً بحيث نذكر نص تلك المقابلة المتميزة لكاتب وصحافي مسلم، وإنما سنكتفي بذكر شيء من المقدمة التي وضعها الأستاذ الصحافي (رياض الريس) لتلك المقابلة الفريدة التي تفصل الصحافي السائل عن الضيف المسؤول مدة زمنية قدرها ألف وأربعمئة عام !!!

يقول الأستاذ (الريس) في مقدمة مقابلته الصحفية: « وفي زمن الأبواب المغلقة، ليس أمام الصحافي خيارات كثيرة، وفي زمن البحث عن طريق آمن وسط ظلمة هذه الأيام، ليس هناك من يجرؤ أن يتباسط مع صحافي عن مدلولات اليوم طموحاً للوصول إلى معالم الغد.

.. رحت أبحث عمن يقول لي شيئاً. قلت لنفسي: ليس في هذا العصر من هو على استعداد لأن يمد رأسه من أية كوة مهما صغرت، حاولت أن أطرق باباً أساسياً من أبواب المعرفة، لعل صاحبه يجيب السائل الحيران». وهنا يحق لنا أن نسأل الأستاذ الصحافي (رياض الريس) عن ذلك الباب الأساسي الذي أراد الأستاذ (الريس) اللجوء إليه ليفضي إليه بآلامه وهمومه وبأسئلته الحيرى التي تبحث عن إجابات شافية كافية.

ولا شك في أن الأستاذ (الريس) سيتقبل سؤالنا برحابة صدر وسيجيبنا على سؤالنا المطروح من خلال مقدمته الموضوعية لحواره المفترض مع الإمام علي عليه السلام وسرعان ما يعطينا الجواب المطلوب بقوله: « قررت أن أزور الإمام علي بن أبي طالب في نهج البلاغة سعياً وراء حديث صحافي مع خليفة رسول

الله وسيد الشهداء وأمير المؤمنين. ولم يسبق لي أن عرفت علي بن أبي طالب من قبل. كانت معرفتي به سطحية تاريخية كمعرفة المئات من المسلمين أمثالي. فكان لا بد أن أطرق كتاب السيد الشريف الرضي ليقودني إلى باب علي بن أبي طالب ويفتحه لي في (نهج البلاغة) وهو الذي اختاره من كلام أمير المؤمنين كرم الله وجهه. وفتح السيد الشريف الرضي الباب في (نهج البلاغة) على مصراعيه، وكان هذا الباب بالنسبة لي في ساعات الظلمة الكثيرة التي مرت علينا: نوراً ساطعاً»[1].

وبعد هذه المقدمة، يبدأ الصحافي (الريس) بطرح أسئلته على الإمام الضيف، ويجيب الإمام على تلك الأسئلة المستعصية، فيقدم الحلول المنطقية والعقلانية لكل مشاكل الإنسان والمجتمع من خلال الاستشهاد بأقواله وخطبه في نهج البلاغة. وتؤكد خاتمة تلك المقابلة الصحفية على حقيقة أن ما على الإنسانية المعذبة إذا أرادت أن تنقذ نفسها من دوامات الحيرة وغربة النفس التائهة إلا أن تسير على نهج الإمام علي عليه السلام وأن ترضى به إماماً وسيداً وهادياً.

فجميع المشكلات والمعضلات المستعصية التي رأى الأستاذ (الريس) أن حلولها الناجحة والأكيدة موجودة في فكر علي عليه السلام وفي نهجه المخصص أساساً والموضوع أصلاً لحل كل الأمور العصية والمشاكل المستعصية التي يمكن أن

---

(١) راجع وقائع هذه المقابلة الصحفية (المفترضة) مع أمير المؤمنين عليه السلام في:

أ) مجلة المستقبل: العدد ٣١٤، الصادر بتاريخ ٢٦ شباط عام ١٩٨٣، باريس.

ب) مجلة الموسم: العدد ٧، الصادر عام ١٩٩٠، وهي مجلة فصلية، هولندا.

تصادفها الأجيال المتلاحقة من بعده عليه السلام، هي نفس المشكلات والمعضلات التي وجد الأستاذ (أنطون بارا) الحلول المنطقية والعقلانية لها في نهج علي عليه السلام أيضاً.

وهذا يعني باختصار، أن كل ذي فكر سليم ومنطق قويم يرى أن البعد عن نهج علي عليه السلام وعن تعاليمه ومبادئه هو بعد عن الحضارة وعن القيم الإنسانية التي تعتبر الحجر الأساسي في بناء شخصية الإنسان وفي تكامل أبعاد تلك الشخصية. وبالمقابل، فإن الاقتراب من نهج علي عليه السلام ومن تعاليمه ومبادئه هو الاقتراب من المدنية في علومها ومعرفها، وهو أيضاً الاقتراب من الحضارة في أخلاقياتها وسلوكياتها على المستويين الفردي والجمعي. فالإمام علي عليه السلام هو الحضارة، وما الابتعاد عنه إلا الابتعاد عنها ومن ثم بقدر الابتعاد عنه يكون الاقتراب من دائرة البداوة ومن دائرة جاهلية العصر الحديث !!

وأذكر أنني قد وعدت في الصفحات السابقة بالعودة إلى عالم الأديب (جورج جرداق) الفكري لاستكمال صورة نهج البلاغة من خلال الخطوط والألوان الزاهية التي استخدمها الأديب (جرداق) في رسم تلك الصورة المشرقة لأعظم كتاب بعد كتاب الله عز وجل. والنقطة الجديدة التي يمكننا الوقوف عندها بشأن العبقرية العلوية البلاغية في كتاب نهج البلاغة، هي تلك النقطة التي وقف عندها الأديب (جرداق) مطولاً نظراً لما لها من أهمية في نقل الأفكار والتعاليم من الإمام علي عليه السلام إلى الناس على مختلف أصنافهم ودرجات وعيهم وتباين انتماءاتهم.

فكما رأينا في الصفحات والأبواب السابقة أن خطب وأقوال الإمام

علي عليه السلام سواء في كتاب نهج البلاغة أو في غيره من بقية الكتب التي تحتوي على بعض خطبه ووصاياه هي خطب ووصايا تحمل في مضمونها الكثير من الدساتير والقوانين والنظريات والمبادئ التي لا تغفل عن أي ميدان من ميادين الحياة ولا تهمل أي وجه من وجوهها. ولكن هناك بعض الأمور والتعليمات التي يمكن أن تكون جافة في مضمونها وفي كيفية إيصال محتواها الفكري إلى الناس، فما هو الحل إذاً، للتخفيف من حالة الجفاف تلك؟

يرى الأستاذ (جرداق) أن الحل للتخفيف من تلك الصلابة والجفاف في بعض تلك المواضيع هو اللجوء إلى إعمال الخيال كعامل من عوامل البلاغة في تسهيل وتيسير إيصال الأفكار والمبادئ إلى ذهن القارئ أو المستمع.

ولهذا يرى (جرداق) أن الخيال في نهج البلاغة (خفاق الجوانح في كل أفق) وبفضل هذا الخيال القوي، الذي حرم منه كثير من حكماء ومفكري الأمم، كان علي يأخذ من عقله وتجاربه المعاني ذات الموضوعية الخالصة، ثم يطلقها زاهية متحركة في إطار تثبت على جنباته ألوان الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقلياً جافاً لا يمر بمخيلة علي حتى تنبت له أجنحة تقضي فيه على صفة الجمود، وتبلور ما فيه من حقيقة. فخيال علي هو نموذج للخيال العبقري الذي يقوم على أساس من الواقع العميق، فيحيط بهذا الواقع ويبرزه ويجليه، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته، ويصبغه بألوان كثيرة من مادته ولونه، فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه»[1].

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٣ ص١٨٨.

إذاً، فالخيال العبقري الذي كان يستخدمه الإمام علي عليه السلام في خطبه البليغة، والذي هو أحد وجوه العلوم اللغوية والبلاغية عنده عليه السلام، كان يتم استخدامه من أجل ترطيب الموضوعات الجافة، ومن أجل تفكيك القضايا المعقدة والمتشابكة، فجاء ذلك الخيال - في المحصلة - دليلاً قوياً وبرهاناً جلياً على براعة الإمام علي عليه السلام في البيان عن العبرة والإفصاح عن الفكرة.

وعلى الرغم من وجود نقاط أخرى تطرق إليها الأديب (جرداق) في معرض حديثه عن علوم علي عليه السلام البلاغية واللغوية والتي ضم صوته في معرض حديثه عنها إلى صوت كل من يقول: إن كلام علي عليه السلام دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، إلا أننا نرى أنه قد تم إعطاء الصورة الكافية لوجهات نظر الأديب والمفكر المسيحي البارز جورج جرداق حول كتاب نهج البلاغة والعلوم البلاغية واللغوية عند الإمام علي عليه السلام، ناهيك عن العلوم والمعارف الأخرى التي قمنا بمناقشتها في الفصول السابقة من هذا الكتاب.

أما الآن، فدعونا ننطلق سوية في رحلة سريعة إلى واحة الأديب الفيلسوف (ميخائيل نعيمة) لنقطف من عناقيده ما لذ وطاب. وأول هذه العناقيد اليانعة التي لوحتها الشمس بأشعتها الذهبية فطهرتها من الشوائب والعفن، هي تلك الرسالة الرقيقة التي أرسل بها الأديب (نعيمة) إلى صديقه المخلص الأستاذ (جرداق) يحضه فيها ويحثه بقوة على الإسراع في وضع كتاب شامل ومتكامل عن شخصية الإمام علي عليه السلام، تلك الشخصية التي افتتن بحبها أرباب الفكر والأدب في الشرق والغرب.

وهنا يمكننا أن نقطف بضع خصلات من ذلك العنقود الذي يستطيع أن

يسكرنا بخمره الفكري والروحي فيحملنا إلى عوالم الحق والجمال والفضيلة والحكمة السماوية الخالدة. وها هو الأديب (نعيمة) يقول في مقدمة رسالته إلى صديقه الحميم (جرداق):

«(تسألني رأيي في الإمام، كرم الله وجهه، ورأيي أنه - من بعد النبي - سيد العرب على الإطلاق بلاغة وحكمة، وتفهماً للدين، وتحمساً للحق، وتسامياً عن الدنايا. فأنا ما عرفت في كل من قرأت لهم من العرب رجلاً دانت له اللغة مثلما دانت لابن أبي طالب، سواء في عظاته الدينية، وخطبه الحماسية، ورسائله التوجيهية، أو في تلك الشذور المقتضبة التي كان يطلقها من حين إلى حين مشحونة بالحكم الزمنية والروحية متوهجة ببوارق الإيمان الحي ومدركة من الجمال في البيان حد الإعجاز»[1].

نعم، إنها كلمات قليلة وموجزة، لكنها تعني الكثير، وأقل ما تعنيه هذه العبارات البليغة هو أن الإمام علياً عليه السلام لم يكن إماماً وسيداً في البلاغة والفصاحة فحسب، بل هو الإمام والسيد أيضاً في الحق والحكمة والفضيلة، وهو فوق كل ذلك الإمام والمعلم في طرق التعامل مع الحياة ومقتضياتها الزمنية والروحية.

وكيف لا يكون الإمام علي عليه السلام هو، حقاً، حكيم الحياة وخبيرها، وقد أقر بذلك المفكرون المسيحيون مثلما أقر بذلك المفكرون المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها!!!!؟

(١) نفس المصدر السابق: ج٥ ص٢٢٩.

ألم يمر معنا في الفصول السابقة أن العديد من المفكرين والأدباء المسيحيين في الشرق، والعديد من المستشرقين أيضاً، يعتبرون أن الإمام علياً عليه السلام هو الحكيم سليمان في الرسالة الإسلامية؟!

إذا، فالمفكر والأديب (ميخائيل نعيمة) لم يكن إلا واحداً من أولئك المفكرين الذين رأوا في الإمام علي عليه السلام صورة الإمام الحكيم والسيد الحليم الذي وسع صدره هموم الحياة وآلامها، واتسع فكره لحركة الحياة ورغباتها وتطوراتها، فعرف من خلال الآلام والآمال كيف يضع الأمور في مواضعها وكيف يمكنه أن يتعامل مع الظروف ومع النفس الإنسانية بكل أطيافها وذلك من خلال إدراكه لدور الخبرة والزمان في الكشف عن الحكمة الحقيقية للحياة.

وإذا كان هذا هو رأي الأديب الفيلسوف ميخائيل نعيمة في فكر الإمام علي عليه السلام من خلال قراءاته لنهجه، ومن خلال دراسته لمسيرة حياته الحافلة بالأحداث الجسام والمآثر العظام، والتأكيد على أن كتاب نهج البلاغة الذي يفيض بلاغة وفصاحة لا تضاهيها إلا بلاغة وفصاحة القرآن العظيم ذاته، فإن خلاصة هذا القول بالنسبة للفيلسوف (نعيمة) هو أن الإمام علياً عليه السلام كان درعاً وسيفاً لله في الخطوب والأهوال، ومعلماً وسيداً في عالم الحكم والوصايا والأقوال، وإماماً وهادياً في السلوك والأفعال.

وإذا كان الأديب المصري (عباس محمود العقاد) قد علق على حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي يقول فيه: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» بقوله: «فهذا الحديث أصدق ما يكون على الإمام علي في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء... فهي (حكم الإمام علي) من طراز الحكم المأثورة عن أشهر

أولئك الأنبياء بالمثل السائر، وهو سليمان بن داود»[١].

فإن المستشرق الاسكتلندي(وليم موير) muir (١٨١٩-١٩٠٥) صاحب كتاب (حياة النبي) وكتاب (التاريخ الإسلامي) يتفق مع من أسلفنا ذكرهم حول حكمة علي عليه السلام، إذ إنه يرى في الإمام علي عليه السلام صورة الحكيم سليمان بن داود عليه السلام ذاته مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الحكمة كانت في خدمة الآخرين أكثر مما كانت في خدمة صاحبها وراعيها[٢].

وحتى لا نبتعد كثيراً عن واحة الأديب الفيلسوف (ميخائيل نعيمة)، وبما أننا ما زلنا نتفيأ في ظلال دوالي تلك الواحة الساحرة، فإننا سنعمد إلى قطف المزيد من عناقيد كرمته السخية، ولكن هذه المرة سنختار عنقوداً ملوناً بنفس الألوان البديعة الشفافة التي رآها صاحب الكرم والواحة في كتاب نهج البلاغة.

وحتى لا نطيل التقديم لما سيأتي ذكره، دعونا نقرأ بشكل مباشر ما قاله الأديب (نعيمة) عن الإمام علي عليه السلام بعد قراءاته المتكررة والعميقة لكتاب نهج البلاغة وبعد دراسته المتروية والمتعقلة للأسلوب البلاغي الذي اعتمده الإمام علي عليه السلام في إيصال أفكاره ومبادئه إلى عامة الناس. وها هو يقول عن ذلك:

« ليس بين العرب من صفت بصيرته صفاء بصيرة الإمام علي. ولا من أوتي المقدرة في اقتناص الصور التي انعكست على بصيرته وعرضها في إطار من الروعة هو السحر الحلال. حتى سجعه، وهو كثير، يسطو عليك بألوانه وبموسيقاه ولا سطو القوافي التي تبدو كما لو أنها هبطت على شاعر من السماء.

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٦٧، ص٢٠٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٠٤.

فهي ما اتخذت مكانها في أواخر الأبيات إلا لتقوم بمهمة يستحيل على غيرها القيام بها. إنها هناك لتقول أشياء لا تستطيع كلمات غيرها أن تقولها. فهي كالغلق في القنطرة!»(١).

هذه هي روعة البلاغة عند علي عليه السلام، وهذا هو سحر البيان الذي يجعل الفكرة العصية على الفهم تحلق في سماء الحروف والكلمات بجناحي ذلك البيان اللغوي الآسر لتستقر بعد ذلك في أذهان الناس وفي قلوبهم، فعلي عليه السلام هو ذلك البحر العظيم الذي يقذف بتلك اللآلئ الثمينة والكنوز الدفينة دون تكلف وعن غير قصد، وليغرف كل واحد من الناس منها ما يشاء.

ولو أردنا أن نودع الأديب الفيلسوف (ميخائيل نعيمة) ونتركه في واحته الخضراء الباسقة طالبين منه أن يختتم كلامه عن عبقرية الإمام علي عليه السلام بجملة واحدة، فماذا يمكن أن يقول من خلال تلك الجملة اليتيمة؟!!

لا ريب في أنه سيختار جملته المشهورة والتي يوجز من خلالها وجهة نظره في عبقرية الإمام علي عليه السلام، إنها جملته البليغة في معانيها: «إن علياً لمن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان»(٢).

وهذا هو شأن الأديب والفيلسوف المسيحي (ميخائيل نعيمة) مع الإمام علي عليه السلام ومع فكره وبيانه، هذا هو شأن مفكر وأديب مسيحي مع فضاءات الفكر العلوي الرحيب القادر على فهم غاية الوجود الإنساني في إطار العلاقة الوثيقة مع الوجود الكلي المطلق.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ج٥ ص٢٢٩.

ولكن ليس من المعقول أن نزور الأديب والفيلسوف (ميخائيل نعيمة) في واحته الفكرية الغنية والمثمرة دون أن نعرج في رحلتنا على صديق عمره ورفيق دربه الفيلسوف الأديب (جبران خليل جبران)، بل كيف يمكننا أن نغفل عن ذكر تلك الجلسات الليلية الرائعة التي كان يدور الحديث فيها بين (نعيمة) و(جبران) عن العبقرية العلوية وما تختزنه تلك العبقرية من كنوز علمية وأدبية تذهل العقول وتأخذ بمجامع القلوب!!

فجبران خليل جبران، ذلك الفيلسوف والأديب والفنان المسيحي المبدع، بقي طوال حياته يبحث من خلال أدبه وفلسفته الخاصة في الحياة عن الوجوه الإنسانية النقية التي لن يتكرر مجيئها أو مجيء شبيه لها إلى هذا الوجود، ولن تجود السماء على الإنسانية بإرسال بديل عنها، وقد بقيت عملية البحث تلك من قبل الفيلسوف (جبران) فترة طويلة من الزمن، وقد رصد جهده ووقته للوقوف على معرفة تلك الوجوه الإنسانية الفريدة والنادرة في وجودنا.

وراح (جبران) يغوص في قراءة ما سطرته الأقلام في أسفار التاريخ وفي صفحات كتب السير والأخبار والمناقب، هادفاً من وراء ذلك تحويل المثل والمبادئ الإنسانية الرفيعة النبيلة من حالة الأفكار المجردة إلى حالة التجسيد والتجسيم في أشخاص حقيقيين جاءت بهم العناية الإلهية إلى هذا الوجود لينيروا طريق الإنسان عن طريق تحقيق وتجسيد تلك المبادئ والأخلاق الإلهية السامية على مسرح الحياة وعلى امتداد التاريخ.

ولو أننا تساءلنا قائلين: هل وجد الفيلسوف (جبران) ضالته المنشودة، وهل كان للإمام علي عليه السلام نصيب في ما كان يبحث عنه ذلك الأديب

الفيلسوف؟؟!

والجواب بكل بساطة: نعم، بل إن الإمام علياً عليه السلام لم يكن في فكر (جبران) بأقل مكانة أو أدنى مرتبة من السيد المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام أو من الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، فهو عليه السلام أحد أقطاب ثالوث قدسي[1]. وقد استطاع ذلك الثالوث القدسي أن ينقل ويجسد المثل والقيم من العالم السماوي المجرد إلى العالم الأرضي ليؤكد لأهل الأرض، لعموم البشر، أن العالم الحقيقي الباقي هو ذاك العالم الذي لا يستطيع أحد أن يدخله ما لم يكن قادراً على أن يتمثل مبادئ وأخلاق وقيم أهل ذلك العالم السماوي الخالد.

ويرى (جبران) أيضاً أن الإمام علياً عليه السلام الذي جسد المثالية الاجتماعية والإنسانية بأبهى صورها وتجلياتها، كان يقوم بذلك من خلال سلوكه العملي تارة ومن خلال تعاليمه وخطبه ووصاياه تارة أخرى. وكان يرى أيضاً أن هذه البلاغة التي كان يسبغها الإمام علي عليه السلام على خطبه ووصاياه كانت بمثابة الروح التي تعيش مع الجسد فتكسبه الحياة والحيوية وتحرك فيه رغبة وإرادة الوجود. غير أن (جبران) رأى أن الإمام علي عليه السلام من خلال ذلك العمل القائم على استخدام البلاغة المعجونة بالحكمة والإيمان كانت محكاً أساسياً في اكتشاف كل إنسان فيما إذا كان ذلك الإنسان يمتلك قابلية السمو الإيماني والرقي الحضاري أم لا. وقد عبر (جبران) عن تلك البلاغة المحكمة وعن الأثر الذي تركته في مجتمع كان يقدس الفصاحة ويحترم البلاغة بقوله واصفاً أهل ذلك المجتمع بأنهم« تاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم. فمن أعجب بها كان

(١) نفس المصدر السابق.

إعجابه موثوقاً بالفطرة، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية»[1].

وهكذا يرى (جبران) أن الناس المعجبين بمناهج بلاغة الإمام علي عليه السلام صنفان: إما صاحب عقل راجح، وإما صاحب فطرة سليمة تهفو بطبعها إلى الحق والخير والفضيلة. وما عدا ذلك، فهم قوم يحتاجون إلى رجاحة العقل ويفتقرون إلى صقل وتهذيب سلامة الفطرة، فهم العرب الذين آثروا ظلمات أيامهم وظلم جاهليتهم على نهج علي عليه السلام وعلى نور بلاغته التي لم يفهموها، أو بالأصح، لم يريدوا أن يتفهموها.

وفي رأيي الشخصي أن الدارسين لفكر (جبران) والعارفين بشخصه عن قرب، من خلال معايشتهم له وأحاديثهم معه، كانوا محقين في تصوير عمق الروابط الروحية بين فكر (جبران) من جهة وبين شخصية الإمام علي عليه السلام المتكاملة الجوانب من جهة أخرى. فقد أدرك أولئك الدارسون والباحثون مدى تأثير شخصية الإمام علي عليه السلام الكاملة المتكاملة على تكوين الشخصية الجبرانية وعلى نتاجها الفكري والفلسفي العام. ومثلما كان للجانب الفكري والعملي أثره الواضح في صياغة الهوية الفكرية للفيلسوف (جبران)، كذلك كان الحال أيضاً بالنسبة للجانب البلاغي في أحاديث الإمام عليه السلام وفي حكمه الخالدة.

فكل مفكر مسيحي يدرس النتاج الفكري الجبراني وعلاقة هذا النتاج بالثقافة العلوية التي حصلها جبران في حياته، وبشكل خاص في لبنان قبل رحيله إلى المهجر، يرى أن الإمام علياً عليه السلام في نظر (جبران): «حكيم في طليعة حكماء العصور، مات ولم يعش العرب إلى ضوئه بل عشا الفرس إليه، حتى

---

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص١٠.

كانت أزمنة طوال اهتدوا بعدها إلى مناهج بلاغته وعظمة شخصيته. وهو، بذلك كله، يعيش في هيكل الفكر المطلق والروح المطلق، لا يختلي بذاته إلا ليبعث في الناس كلاماً أبدياً لاتصاله بينابيع المعرفة الصافية»[1].

هذه، باختصار شديد، صورة واضحة للعلاقة الوطيدة بين الفكر الجبراني والشخصية العلوية. وهذه أيضاً لمحة موجزة عن العشق الجبراني للإمام علي عليه السلام الذي لم يكن في يوم من الأيام مجرد إمام للمسلمين فحسب، بل كان دائماً وأبداً - كما يرى جبران - إماماً وهادياً لكل من كان له قلب يفقه وبصيرة تستنير وتعشو إلى ضوء الحق والخير والفضيلة.

وقبل أن نختتم هذا الفصل المخصص للكلام عن المعجزة اللغوية والبلاغية عند الإمام علي عليه السلام لا بد لنا من الوقوف عن أحد أهم الأعلام المسيحيين في عالم الفكر والأدب، إنه الأديب والمفكر (فؤاد إفرام البستاني)، الأستاذ الأسبق للآداب العربية في كلية القديس يوسف في بيروت وصاحب المؤلفات الفكرية والأدبية الكثيرة، ولعل أكثرها شهرة موسوعته الأدبية الرائعة المعروفة بسلسلة (الروائع) والتي تتناول بالدراسة والتحقيق والعرض أهم الكتب التراثية والكنوز الأدبية التي تركت أبلغ الآثار عل الساحة الفكرية المعاصرة.

وقد كان أول كتاب صدر عن هذه السلسلة هو (نهج البلاغة. درس ومنتخبات)، وهو عبارة عن كتاب موجز يتناول شخصية الإمام علي عليه السلام وكتابه (نهج البلاغة) بالدراسة والتحليل، هذا بالإضافة إلى ذكر بعض المنتخبات والمقتطفات من خطب وأقوال الإمام علي عليه السلام الواردة في كتابه نهج

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٧.

البلاغة.

وبدءاً من الصفحة الأولى من ذاك الكتب، يرى الأستاذ (البستاني)أن الإمام علياًعليه السلام هو أول مفكري الإسلام، وقد بدأ القول في مقدمة الكتاب قائلاً: «لعلي بن أبي طالب شخصية جذابة، حامت حولها أقلام الرواة والمؤرخين، واجتهدت في فهمها عقول النقاد والمفكرين، واهتدت بهديها فرق الزهاد والسالكين، وسار تحت لوائها الجم الغفير من المتأدبين. ولم تكن الآراء المختلفة، والنظريات المتباينة، والمجادلات العديدة بين السنيين والشيعيين، على كرور الأيام، إلا لتزيد الرجل سمواً، وعقليته بروزاً»[1].

ولو تركنا جانباً كل الصفات والمناقب التي تحدث عنها الأديب (البستاني) بإعجاب وإكبار بعد أن قرأ عنها الكثير في كتب السنة والشيعة وفي كتب من سبقه من المفكرين والأدباء والمستشرقين المسيحيين، تلك الصفات والمناقب التي لم تجتمع في أحدٍ مثلما اجتمعت في شخصية الإمام علي عليه السلام، فلو تركنا كل ذلك جانباً واتجهنا مباشرة إلى الجانب الأدبي واللغوي في شخصية أمير المؤمنين علي عليه السلام لنرى ونتعرف على وجهة نظر الأديب (البستاني) تجاه هذه النقطة التي نحن بصدد وضع اللمسات الأخيرة عليها قبل الانتقال إلى فصل جديد، ونقطة أخرى جديدة، فما هو رأي الأديب (البستاني) بشأن بلاغة علي عليه السلام وعلومه اللغوية العميقة التي أنارت الطريق لكل من جاء بعده من أرباب اللغة والبلاغة؟!

(١) فؤاد إفرام البستاني: نهج البلاغة (درس ومنتخبات) المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٣٢، ص١.

يرى الأديب (البستاني) أن هناك ثلاث قوى أساسية لعبت دوراً هاماً في صياغة شخصية علي عليه السلام الأدبية. فبالإضافة إلى الإيمان العميق بالله وبرسوله وبكتابه العظيم، القرآن، هناك القوة الأولى: الشعور العميق والمرهف. والقوة الثانية: المخيلة المشبعة بالحكمة، والقوة الثالثة: العقل المرتكز على المنطق وعلى فهم متغيرات الحياة ومتطلباتها.

وقد عبر الأديب (البستاني) عن وجهة نظره تجاه شخصية الإمام علي عليه السلام الأدبية بقوله: «... هذا دور الشعور، والمخيلة، والعقل، في إنشاء علي بن أبي طالب. وإن هذه القوى الثلاث، على رجحان الشعور أحياناً، يتحد بعضها ببعض اتحاداً متيناً، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً، فلا يحس القلب بشيء إلا ظهر صورة جميلة، يختم عليها العقل، بخاتم الإيجاز، ويدفعها حكمة مصكوكة كقطعة النقود، تتداولها العقول معجبة، مستفيدة. ومن كانت هذه مقدرته فلا عجب أن رغب فيه قوم، وحسده قوم آخرون فأبغضوه»[1].

ونتيجة لحسد أعداء الإمام علي عليه السلام له فإنهم - كما يقول البستاني - قد حاولوا أن يسلبوه فضيلة نسبة كتاب (نهج البلاغة) إليه، فراحوا ينسبونه إلى جامعه (الشريف الرضي) محاولين بذلك التقليل من القيمة الأدبية والعلوم اللغوية والبلاغية التي كان يتمتع بها الإمام علي عليه السلام ويتميز بها عن غيره من الأصحاب. ولذلك، فإن الأديب (البستاني) لا يرى من الأسباب ما يمكن أن يقف حجرة عثرة في سبيل صحة نسبة كتاب (نهج البلاغة) إلى الإمام

(١) نفس المصدر السابق: ص١٩.

علي عليه السلام[١].

وكيف يشك الأديب المسيحي فؤاد إفرام البستاني بصحة نسبة كتاب (نهج البلاغة) إلى الإمام علي عليه السلام، وهو الذي يرى في علي عليه السلام صورة الإمام الحكيم الذي تمثَّلَ قيم ومبادئ القرآن السماوي العظيم، وخاض التجارب المريرة في الحياة، وغاص في أعماق النفس الإنسانية، فدرسها جملةً وتفصيلاً، فخرج بعد كل ذلك بخبرته الوفيرة في الحياة وأودعها بعد ذلك كتابه الخالد (نهج البلاغة) الذي يفيض حكمة وبلاغة وإيماناً وعلماً؟!!!

وقد أصاب (البستاني) لب الحقيقة عندما قال عن العبقرية العلوية في نهج البلاغة:

« الحكمة عند علي بن أبي طالب وافرة المعنى، جميلة المبنى، يأخذها عقلية لا لون لها ولا رسم، فتمر في مخيلته، فإذا هي صورة جميلة تترجرج فيها الحياة»[٢].

ولا يسعنا أن نقول الآن إلا أن حياة الإمام علي عليه السلام في هيكل الفكر المطلق وقرب الروح المطلق هي التي بعثت فيه شمس الحكمة وفجرت في بيانه ينابيع البلاغة، فجاء كلامه كلاماً أبدياً يتجاوز حدود الزمان وحواجزه، بحيث يراه كل جيل أنه قد قيل له وصيغ من أجله، من أجل أن ينير له دروب الحياة ويرفعه عالياً على مدارج العشق الإلهي من أجل الوصول إلى بوابات السماء ومملكة الخلود الأبدي.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٨.

هذا هو علي عليه السلام، وهذه هي الصورة الموجزة والمبسطة عن بلاغته وعن علومه اللغوية العامة وأثر ذلك على لغتنا العربية، لغة القرآن الكريم، لغة أهل السماء، اللغة المستقبلية ليوم الدينونة القادم بلا ريب.

هذا هو إمامنا وسيدنا وهادينا، وهذا هو نهج بلاغته وحكمته، نهج الصدق على صراط الحق، هذا هو نهجه العظيم الذي يمثل جزءاً ثراً وثميناً من تراثه الفكري والروحي الخلاق الذي تركه الإمام علي، أمير المؤمنين عليه السلام لكل فرد، بل لعموم الإنسانية كي تصيغ منه قوانينها وتستمد منه أحكامها وتصنع منه دساتيرها ونظمها.

وكيف لا يكون الإمام علي عليه السلام كذلك وهو الإمام الذي يعيش ذكره إلى الأبد في الكثير من الآيات القرآنية الكريمة في الوقت الذي يعيش القرآن العظيم بكامله في قلب وصدر وفكر الإمام علي عليه السلام ؟!!

وما أروع عبارة الأديب والمفكر المسيحي (نصري سلهب) عندما قال متحدثاً عن علاقة الإمام علي عليه السلام بالله سبحانه وتعالى، وذلك من خلال كتابه الخالد (نهج البلاغة)، إذ إنه عبر عن تلك العلاقة بقوله:

«ما اقترب امرؤ من الله، حرفاً وروحاً، كاقتراب علي منه في نهج بلاغته»[1].

فمن له أذنان فليسمع، ومن له عينان فليبصر، وما البصر بمغنٍ عن البصيرة!!

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٣٢٣.

عيد الغدير.. عيد الله الأكبر

ها نحن قاربنا الانتهاء من هذا الكتاب ذي الموضوع الشيق الذي يتناول تصوير وتوصيف شخصية الإمام علي عليه السلام من وجهات نظر مسيحية يعيش أصحابها معنا في مجتمعاتنا الشرقية، ومن وجهات نظر مسيحية أخرى يعيش أصحابها في أحضان المدنية الغربية، في بلدان وأقطار غريبة ونائية عنا. وإذا كنا قاب قوسين أو أدنى من النهاية، فلا بد وأن نعود ثانية للتذكير بأن الحديث عن الإمام علي عليه السلام هو حديث عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وأن الحديث عن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله بالضرورة أيضاً حديث عن الإمام علي المرتضى عليه السلام. فهناك وحدة في النور والجوهر، وتنوع في الأدوار وفي المظهر، فهذا رسول ونبي وذاك إمام ووصي.

وهنا، وبناءً على هذه الحقيقة الثابتة، أذكر هذه الكلمات القادمة للحقيقة وللتاريخ. ولكي أكون بريء الذمة تماماً أمام القارئ الكريم سواء كان هذا القارئ لكتابي مسلماً أو مسيحياً أو حتى غير ذلك، فإنني أقول، وبكل صراحة ووضوح: إنني ما قرأت في حياتي كتاباً لمفكر أو أديب مسيحي في الشرق عن الإسلام أو التاريخ الإسلامي إلا ورأيته يكتب عن الإسلام بروح

المحبة والإعجاب، ويبدي خالص احترامه وتقديره لرموز الإسلام الخالدة سواء كان ذلك الرمز الخالد الرسول المصطفى أم علي المرتضى أم ابنه الإمام الشهيد في كربلاء أم الحفيد اللاحق، الإمام الصادق صاحب أول جامعة في الإسلام.

وإذا كان البعض القليل منهم يحاول أن ينتقد الرسول المصطفى ﷺ في بعض مواقفه من خلال إيجاد بعض التبريرات والمسوغات لهذا النقد، فإن مرد ذلك يعود إما إلى عدم الدراسة الكافية لأبعاد الموقف أو الحدث، وإما بسبب الاعتماد على مصادر ومراجع إسلامية شاء أصحابها، عن قصد أو عن غير قصد، أن يشوهوا صورة وسيرة محمد المصطفى ﷺ وأن يعتموا على حقيقة مواقفه حتى تتناسب المواقف المشوهة والأحداث المصطنعة مع الطبيعة السلبية لمواقف الخلفاء الأمويين والعباسيين التي كانت بعيدة، في جوهرها، كل البعد عن حقيقة الرسالة الإسلامية وعن مبادئها السماوية السامية.

وإذا كان هذا شأن المفكرين المسيحيين في الشرق، فكيف الحال بالنسبة للمستشرقين من أهل الغرب؟!!

ربما يختلف الحال عندهم بعض الشيء. فهناك من كتب عن الإسلام وعن رسالته النبيلة وعن رجاله الأوائل المخلصين بكل صدق وبكل إخلاص للحقيقة، تلك الحقيقة التي يجب أن تصل إلى القارئ بوجهها الأصيل والبعيد عن كل زيف وتشويه. وهناك أيضاً النوع الثاني الذي حاول التشكيك في كل ما يتعلق بالرسالة الإسلامية بدءاً بالوحي السماوي وبالقرآن، وانتهاء بالرسول وبالرسالة ذاتها. وقد ناقشت هذه القضية البالغة الحساسية في كتابي السابق (الإسلام والغرب بين حوار الحروف وصدام السيوف)، وحاولت أن أكون قدر

الإمكان منطقياً وعقلانياً في مناقشتي لتلك القضية الحساسة، وحاولت أيضاً أن أكون بعيداً كل البعد عن دائرة العاطفة والانفعال والتعصب. غير أن النقطة الجديدة التي أود لفت الانتباه إليها الآن، وهي نقطة تتعلق بالمستشرقين، هي أنه ما من مستشرق حاول أن يكون حيادياً أو موضوعياً في كتاباته عن الإسلام وعن أعلامه، إلا وكان للإمام علي عليه السلام نفس المكانة تقريباً من العظمة والرفعة التي حظي بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في كتابات ذلك المستشرق الموضوعي. ولكن، بنفس الوقت أيضاً، ما من مستشرق أو باحث حاول أن يتحامل على الإسلام، أو أن ينال من مكانة الرسول صلى الله عليه وآله وعظمة رسالته أو أن يشكك بنبوته وبعثته إلا وكان متحاملاً بنفس الوقت على مبادئ الإمام علي عليه السلام وعلى الخطوط العامة للأهداف التي ناضل من أجلها طوال حياته.

ومن هنا ينبثق السؤال التالي في ذهن كل واحد منا:

لماذا الباحث أو المستشرق الذي يمتدح رسالة الإسلام ورسول الإسلام يمتدح الإمام علياً عليه السلام بالقدر الذي يمتدح فيه الرسول صلى الله عليه وآله تقريباً، ولماذا الباحث أو المستشرق الذي يهاجم الإسلام ورسوله المصطفى صلى الله عليه وآله يسارع مباشرة للنيل من الإمام علي عليه السلام بالقدر الذي يحاول أن ينال فيه من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله؟!

إنها نقطة مثيرة للتساؤل والاستفهام فعلاً، وربما لا يلاحظها البعض من خلال قراءتهم لما يكتبه الغرب عن الإسلام. ولكن ذلك لا يغير من الوضع شيئاً لأن الملاحظة تبقى حقيقة واقعة والسؤال لا يزال قائماً، لماذا؟!!

وبتقديري الشخصي، ليست المسألة على هذا القدر من الصعوبة والتعقيد،

وإنما يمكن التعامل معها بالشكل التالي: لما كان هناك من المستشرقين من يكتب عن الرسالة الإسلامية وعن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله بتعقل واتزان، وأحياناً كثيرة بإعجاب وتقدير، مبدياً احترامه لتلك التعاليم والمبادئ الإنسانية الرفيعة التي جاء بها محمد الرسول صلى الله عليه وآله، كان يدرك من خلال تلك الدراسات والمقارنات التي يقوم بها أن خير من يمثل الإسلام السماوي ويجسد تعاليمه وقيمه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو الإمام علي عليه السلام. وبالتالي، عندما يقوم ذلك المستشرق الموضوعي والمتزن في دراساته وتحليلاته عن الإسلام بمدح صاحب تلك الرسالة الإنسانية السمحاء، كان يرى لزاماً عليه أن يمتدح أيضاً من يمثل ويجسد تلك المبادئ والأسس الإنسانية النبيلة خير تمثيل وأصدقه.

ولما كان الرسول المصطفى، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله والإمام علي المرتضى عليه السلام هما خير أصدق من يمثل تعاليم ومبادئ الإسلام السماوي النبيل على مسرح الحياة الأرضية، كانا هما من يحظى بالكثير من العظمة والإعجاب والاحترام في كتابات ومؤلفات ذلك المستشرق الباحث عن الحقيقة من خلال قلمه الحيادي المعتمد على الفكر العقلاني وعلى المنطق السليم البعيد كل البعد عن لغة الأهواء والعواطف.

ولما كان هناك، بنفس الوقت، من يكتب عن رسالة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله بلغة الأهواء والنزعات العاطفية الدينية الممتزجة بمداد الانفعالية واللاحيادية الواضحة، كان من الطبيعي أن يحاول ذلك المستشرق السلبي أو الباحث المفتقر إلى روح الانفتاح واحترام (الآخر) أن يحاول النيل من الرسالة والرسول. وبما أن الدراسات التي يقوم بها أي مستشرق أو باحث تبين له في نهاية المطاف أن الإمام

علياً عليه السلام هو السند الفعلي لمحمد صلى الله عليه وآله وهو العامل والمكافح الحقيقي لتوسيع وتفصيل وترجمة المبادئ التي جاء بها الرسول السماوي الأخير لأهل الأرض، كان من الطبيعي أيضاً أن يقوم ذلك المستشرق المتعصب أو الباحث المفتقر إلى لغة الانفتاح وإلى منطق العقل بمهاجمة المبادئ والتعاليم الإسلامية، وأن يتحامل على رموز الرسالة الإسلامية وعلى رجالها المخلصين، وبشكل خاص صاحب الرسالة ذاتها صلى الله عليه وآله وربيبه ووصيه وخليفته الإمام علي عليه السلام.

وهذا ما يؤكد على أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام هما قطب واحد للرسالة الإسلامية الكونية الواحدة، المتكاملة في نظمها ومبادئها والشاملة في بيان أسس تعامل وتفاعل الإنسان مع ذاته ومجتمعه وخالقه. ولذلك. فالإعجاب بأحدهما هو بالضرورة إعجاب بالآخر. وبالمقابل، فإن محاولة النيل من أحدهما هي بالضرورة أيضاً محاولة جادة ومتعمدة للنيل من الآخر. ولعل أبرز مثال على هذا النوع من المتعصبين المفتقرين إلى الروح الموضوعية في التقييم وفي إطلاق الأحكام على الآخرين هو الأديب والشاعر الإيطالي (دانتي)، فمن المعروف عن هذا الشاعر (١٢٦٥-١٣٢١م) أنه واحد من أعظم شعراء إيطاليا، بل ومن أعظم أدباء أوروبا قاطبةً.

وقد استطاع (دانتي) أن يخلد اسمه من خلال ملحمته الشعرية الطويلة (الكوميديا الإلهية) (divine comedy) والتي وصف من خلالها طبقات الجحيم والمطهر ومن ثم قام بوصف الفردوس وذلك من خلال سفرةٍ وهميّة قام بها بعض أبطال تلك الرحلة الملحمية، ومن المعروف عنه أيضاً أنه قد اطلع على قدر ليس باليسير على الأدبين والتراثين العربي والإسلامي حتى راح بعض

النقاد والدارسين يؤكدون على حقيقة أن (دانتي)، قد بنى رحلته الخيالية في (الكوميديا الإلهية) على نمط رحلة الأديب الفيلسوف (أبي العلاء المعري) (٩٧٣-١٠٥٧م) في كتابه (رسالة الغفران) وذلك بعد أن قرأها (دانتي) وتأثر بها شكلاً ومضموناً.

فالشاعر (دانتي) ليس بالمستشرق ولا بالباحث، ولكن ثقافته كأديب وكشاعر لا تقل عن ثقافة المستشرق أو الباحث، ولذلك جعلناه مثالاً لحديثنا عن التحامل على الإسلام وعلى أبرز وأخلص رموزه ورجاله، وبشكل خاص الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام. فالشاعر (دانتي) يعتبر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إنساناً خارجاً ومنشقاً عن الديانة المسيحية ولذلك فهو يستحق أقسى العقوبات في الجحيم، وكذلك الحال بالنسبة لابن عمه، وخليفته الإمام علي عليه السلام[(١)].

وبالطبع، فإن هذا المثال هو أحد الأمثلة عن أولئك الذين يهاجمون الإسلام كعقيدة وكرسالة من خلال الهجوم على مبادئه وقيمه وعلى رموزه وأعلامه. ويعطينا هذا المثال أيضاً صورة واضحة عن حقيقة أنه حتى أولئك الذين يهاجمون محمداً صلى الله عليه وآله كرسول ونبي فإنما يعمدون بنفس الوقت إلى مهاجمة الإمام علي عليه السلام قبل غيره لأنه هو حقاً أقرب الناس إليه وأخلصهم له وأكثرهم تمسكاً بتعاليمه وبكتابه الموحى إليه.

ولكن ما نسبة هؤلاء المفكرين والأدباء المتعصبين إلى أولئك الذين يحاولون

---

(١) Dante, The Divine Comedy, Vol.1 (Hell) Penguin Books England 1981, XXXVIII p.247.

على الأقل، أن يكونوا موضوعيين ومنفتحين على فضاءات الحقيقة؟!!

أرى أن نسبة المفكرين والأدباء المتحاملين عمداً على التعاليم الإنسانية للرسالة الإسلامية قليلة نسبياً إذا ما قيست بآراء ووجهات نظر أولئك المفكرين والأدباء المسيحيين الذين امتدحوا تلك المبادئ الرفيعة والقيم الإنسانية الراقية التي تمثل الوجه الحضاري للإنسان على وجه العموم.

وعلى الرغم من تحامل أولئك القلة من الأدباء والمفكرين والمستشرقين على العقيدة الإسلامية وعلى رسولها ﷺ وخليفته عليه السلام، إلا أنهم بالرغم من ذلك لم يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول الكريم ﷺ قد بايع الإمام علياً عليه السلام خليفة ووصياً من بعده على كل المسلمين وذلك من خلال عدة بيعات مشهورة ولعل أكثرها شهرة وأعلاها مكانة بيعة الغدير الخالدة.

فالرسول الأكرم ﷺ كما هو معروف عنه، لم يكن في يوم من الأيام إلا رسولاً حكيماً حليماً قادراً على وضع الأمور في نصابها سواء في الأمور والقضايا الدينية أو الدنيوية. ولعل الحكمة والروح الإنسانية الشاملة التي تميز بهما ذلك الرسول العظيم هما اللتان جعلتا النسبة الكبرى من رجال الفكر في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إليه بعين الإعجاب والتعظيم، ويكتبون عنه بروح الإجلال والإكبار نظراً لما كان يملك من حكمة وخصال ومآثر جليلة خالدة تؤكد عمق نظرته الإنسانية وتثبت بعد رؤيته الحضارية القادرة على السير مع متغيرات الحياة وتطوراتها الدائمة.

ومهما حاولت أن أتجاوز أو أن أختصر الكثير من هذا الكلام عن حكمة وإنسانية سيد البشر ﷺ وعن كيفية تعامل المفكرين والأدباء المسيحيين

المخلصين في بحثهم عن الحقيقة في كل ما يتعلق برسالته السماوية الأخيرة، إلا أنني أجد نفسي مضطراً للاستشهاد ببعض أقوال أولئك المفكرين المسيحيين الذين أبدوا شديد إعجابهم وحبهم لشخصيته النبيلة الصادقة ولحكمته، تلك الحكمة العظيمة التي فرضت عليه، أن يستجيب بشكل سريع جداً للإرادة الإلهية في تعيين خليفة له بعد رحيله بحيث لا تبقى الرسالة الإسلامية المولودة حديثاً بأيدي أناس لا يجيدون القيادة ولا يعلمون أحكام الرسالة وفقهها بالشكل الكامل وبالأسلوب المطلوب. فليس من الحكمة أن يترك مدير شركة أو مدير مصنع أو مدير مدرسة أو قائد ثكنة عسكرية عمله ويرحل دون أن يعين من يخلفه على إدارة العمل وتسيير أمور الناس وفق قانون تلك المؤسسة أو المدرسة أو الثكنة العسكرية.

وحتى نعطي كتابنا هذا - الذي بين أيدينا - نوعاً من التنوع والغنى الفكري المتجدد، سأكتفي بذكر بعض الأحاديث والأقوال لبعض كبار المفكرين والأدباء الروس حول حكمة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وحول شخصيته الإنسانية الرسالية وذلك لأنني على يقين بأن هناك الكثير من القراء لا يعرفون أن هناك في الأدب الروسي المتميز الكثير من الأدباء والمفكرين المسيحيين الذين كتبوا المقالات والقصائد عن عظمة الإسلام وعن عظمة ورفعة وحكمة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وقد صدقت الدكتورة (مكارم الغمري)، أستاذة الأدب والنقد في جامعة عين شمس عندما قالت: «أما السيرة النبوية فقد صارت بالنسبة لصفوة المثقفين الروس ورواد الحركة الوطنية نموذجاً للقدوة الحسنة الصابرة على الرسالة والمكافحة في سبيلها»[1].

---

(١) الدكتورة مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، (عالم المعرفة)، العدد ١٥٥، الكويت، تشرين الثاني ١٩٩١، ص١٣٤.

ولعلّ أفضل من نقف عندهم الآن من المفكرين والأدباء الروس المسيحيين هو الأديب الشاعر (ألكسندر بوشكين) (١٧٩٩-١٨٣٧). فالشاعر (بوشكين) كتب قصيدة طويلة في مدح الرسول الكريمﷺ وقد أطلق عليها اسم قصيدة (الرسول) حيث تطرق من خلالها إلى نقاط جوهرية عديدة في سيرته العطرة، وبشكل خاص المرحلة المبكرة من النبوة، أي الفترة الأولى من نزول الوحي. وقد تناولت قصيدته الثانية(قبسات من القرآن) والتي لا تقل شأناً عن القصيدة الأولى، المراحل اللاحقة من الرسالة.

ومن الجدير بالذكر أن قصيدة (قبسات من القرآن) للشاعر (بوشكين) ليست قصيدة واحدة بل هي عبارة عن مجموعة قصائد شفافة يبلغ عددها تسع قصائد تتناول مواضيع مختلفة وصفحات متنوعة من سيرة الرسول الكريمﷺ وعلاقته بالقرآن الشريف. وقد أبرز الشاعر (بوشكين) من خلال هذه المجموعة الشعرية إعجابه الشديد بقوة الرسول ﷺ وبحكمته البالغة وبمبادئه الإنسانية الشاملة. وقد انعكست هذه المبادئ الرسالية في محاولة تحقيق (بوشكين) لحلمه الذي طالما عبر عنه أكثر من مرة، وهو: «أن تتناسى الشعوب خلافاتها وتلتقي في عائلة إنسانية كبرى»[1].

وإذا كان للإسلام ولحكمة الرسول الكريمﷺ نصيب وافر من الاحترام في كتابات وقصائد الشاعر العظيم (ألكسندر بوشكين) أشهر شعراء روسيا قاطبة، فإن الأديب البارز (ليون تولستوي) (١٨٢٨-١٩١٠م) الذي ينظر إليه كأعظم أديب روائي في روسيا، والذي حاول جاهداً إصلاح المجتمع عن طريق

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٧٢.

إحلال العدل والمحبة ونبذ العنف، قد أفرد أيضاً صفحات طويلة في أعماله الأدبية للمنظومة الفكرية الإسلامية وللرسول المصطفى صلى الله عليه وآله. وكان أكثر ما تأثر به (تولستوي) هي تلك المبادئ الأخلاقية والإنسانية التي نادى بها محمد صلى الله عليه وآله طوال حياته وترجيحها على الحوار المسلح والعنف وقوة السلاح.

ولعل أبرز عمل للأديب (تولستوي) حول الرسالة الإسلامية ومبادئها وحول تعاليم رسولها السماوية الأخيرة صلى الله عليه وآله هو كتابه الشهير (أحاديث مأثورة لمحمد) الذي جمع فيه (تولستوي) العديد من الأحاديث النبوية الهامة والتي تدور حول العديد من مرافق الحياة ومفاهيمها الأساسية والجوهرية كالعدالة، والمحبة، ونبذ العنف، والتكافل الاجتماعي، والتسامح، والمرأة، والتصوف، وإلى غير ما هنالك من المفردات الجوهرية في الحياة.

وقد كانت حكمة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله هي نقطة البداية التي بدأ منها (تولستوي) التعرف على الإسلام، أما موضوع التسامح الديني فقد كان من أهم الموضوعات التي شغل (تولستوي) نفسه به، وقد برهن هو ذاته على تلك السماحة وروح المحبة حيث قدم المثال الراقي في المحبة والتسامح الديني حين انبرى يعرف أبناء قومه على الفكر الديني الإسلامي وعلى حكمة ونبالة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله دون أن يمنعه انتماؤه إلى الديانة المسيحية من أن يشيد ويمتدح، بصدق وبموضوعية، قيم ومعتقدات الديانات والشرائع الأخرى.

وقد ازداد عشق الأديب الروسي (تولستوي) للإسلام ولمعالمه الروحية بعد قراءاته المعمقة للتصوف الإسلامي ولأعلامه الكبار وذلك بعد الأزمة الروحية الشديدة التي عاشها عندما وصل إلى مشارف الخمسين من عمره. وقد التقى

(تولستوي) مع الفكر الصوفي في عملية البحث عن الكمال الروحي داخل الإنسان وفي أعماق جوانيته المستترة، فالنور الإلهي لا يأتي من الخارج بل ينبع من الداخل[1].

ويرى بعض المتخصصين في دراسة ونقد وتحليل أعمال (تولستوي) الأدبية والفكرية أنه قد تأثر حقاً بالمتصوفة المسلمين الكبار وبالزهاد المؤمنين الأوائل الذين عاصروا الرسول الكريمﷺ وتأثروا بسيرته وسلوكه في الحياة، وعلى رأس هؤلاء المتصوفة الزهاد صاحب الرسول الكريمﷺ وتلميذ الإمام عليعليه السلام وخريج مدرسته الفكرية والسلوكية، إنه الصحابي الجليل (أبو ذر الغفاري) ذلك المتصوف الزاهد الذي لم تغره زخارف الدنيا ولم تجتذبه ملذاتها المتنوعة إلى دوامة الباطل، ففضل الاستشهاد عفيفاً نظيفاً على الحياة بترف واطمئنان تحت ظلال عرش مشيد على دعائم الظلم والعنف وعلى هدر الكرامة الإنسانية وتغييب معالم أبسط المعالم الإسلامية.

إذاً، فليس المستشرقون والأدباء والمفكرون في الغرب الأوروبي هم وحدهم من يمتدح رسالة السماء الأخيرة والنداء السماوي الأخير، بل والمفكرون والأدباء في الجزء الشرقي من أوروبا يتعشقون أيضاً تعاليم تلك الرسالة السماوية النبيلة الأخيرة، ويستجيبون لنداء الرحمة والمحبة الأخير.

فهل لذاك الرسول المصطفى الذي نال كل ذلك الإعجاب والتقدير والمحبة من قبل أهل الشرق والغرب من المسيحيين والمسلمين بعد أن حقق المعجزات من خلال حمله أعباء رسالته الإسلامية وصونها وتبليغها وإكمالها بالشكل

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٣١.

الأمثل، فهل يمكن لذاك الرسول أن يكون رسولاً دون حكمة؟!! بل هل يمكنه إلا أن يكون رسولاً حليماً حكيماً واعياً ومدركاً لخطورة اللحظة التي يرحل فيها عن الحياة قبل أن يعين خليفةً وإماماً من بعده ليكمل الطريق عنه وليدير شؤون الرعية التي لم يكن يفصلها عن جاهليتها السابقة إلا حفنة من الأعوام؟!!

بل كيف لا يعين ذلك الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله خليفة له وهو على مشارف الاستعداد للرحيل إلى الرفيق الأعلى وهو يعلم أن هناك عدداً ليس بالقليل قد دخل الإسلام نفاقاً. إما خوفاً وإما طمعاً، والنتيجة واحدة، والهدف واحد، وهو الهدم من الداخل والعودة بالقوم إلى جاهليتهم الأولى؟!!

وهل يترك الراعي الحكيم خرافه في البرية عرضة للتشتت والضياع وفريسة سهلة بين أنياب ومخالب السباع والذئاب دون أن يترك معهم من ينوب عنه ويقوم مقامه من أجل أن يصونهم ويرعاهم ويحميهم من كل ما من شأنه أن يحرفهم عن طريق الحق وأن يمزقهم ويفتك بهم؟!!

ولأن الجواب بكل بساطة: (لا). فمن هنا تبدأ رحلتنا مع المفكرين والأدباء المسيحيين الذين أكدوا من خلال كتاباتهم ودواوينهم أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله لم يترك قومه ولم يدع رسالته دون راعٍ صالحٍ يحمي القوم ويصون الرسالة ويتابع السير على نهج الرسول الكريم صلى الله عليه وآله صاحب الرسالة وسيد الرسل والأنبياء، أولهم نوراً وآخرهم ظهوراً.

وأود بادئ ذي بدئ وقبل أن أستعرض آراء ووجهات نظر المفكرين والأدباء المسيحيين بشأن ولاية الإمام علي عليه السلام وبيعة الرسول صلى الله عليه وآله الأخيرة له

قرب غدير خم أمام عشرات الآلاف من المسلمين، أود أن أذكر أن هذه الحادثة الخالدة التي يحاول البعض من المفكرين ورجال الأدب (المسلمين) اليوم أن ينكرها أو أن يتنكر لها، هي حادثة أكبر وأعظم من أن ينكرها منكر وأوضح من أن يتجاهلها جاهل أو متجاهل، وأن يغضي عنها متغاضٍ أو متعامٍ.

بل كيف ينكرها هؤلاء القوم وقد رواها من الصحابة (١١٠) صحابياً وعلى رأسهم عمر وأبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وأنس بن مالك وغيرهم من كبار الصحابة، ورواه من التابعين (٨٤) تابعياً، ومن أئمة الحديث وحفاظه من العلماء أكثر من (٣٦٠) محدثاً وحافظاً وفقيهاً؟!![1].

ولا داعي لأن أذكر وأؤكد على حقيقة أن معظم هؤلاء الحفاظ والرواة والمحدثين هم من إخواننا السنة الذين أقروا بحدوث هذه البيعة العلنية والتي كانت بمثابة البيعة الأخيرة للإمام علي عليه السلام وذلك بعد العودة من حجة الوداع مباشرة.

وقد أدرك الكثير من المستشرقين والمفكرين المسيحيين هذه الحقيقة الواقعة ورأوا أن لا مجال لدحضها أو للانتقاص من قيمتها أو من معانيها ودلالاتها الروحية والمعنوية.

---

(١) لمعرفة التفاصيل الكاملة حول من روى بيعة الغدير من الصحابة والتابعين والحفاظ والعلماء، ولمعرفة الأسماء الكاملة لأولئك الرواة، ولمعرفة عناوين الكتب التي ذكرت تلك البيعة المباركة راجع الجزء الأول من (موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب) للعلامة عبد الحسين الأميني، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٧٤هـ.

وعلى سبيل المثال، يذكر الباحث الفرنسي المعاصر (يان ريشار) بيعة الغدير وقضية ولاية الإمام علي عليه السلام على كافة المسلمين حيث إن الرسول صلى الله عليه وآله قد أمسك بيد علي عليه السلام اليمنى «وسأل الناس من حوله عما إذا كان هو - أي محمد - ولي أمرهم. وبطبيعة الحال كان الإجماع مضموناً، فعلق النبي على ذلك بقوله: من كنت مولاه، فعلي مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»[١].

ولم يورد الباحث (ريشار) هذا الكلام عن البيعة فحسب، بل قد استهل هذا الكلام عن بيعة الغدير بكلامه عن أحقية علي عليه السلام بالخلافة مع تأكيده على أن الكثير من أهل السنة يقرون بذلك الحق، فقال مؤكداً على ذلك: «وأول قضية تراثية يتسلح بها الشيعة، من غير أن ترفضها السنة رفضاً كلياً، هي تلك التي تجعل ولاية الخلافة لعلي، ابن عم النبي وصهره، ولاية شرعية على جماعة المسلمين»[٢].

وبالفعل، فإن هناك الكثير من المفكرين وعلماء الدين السنة المعاصرين لا ينكرون تلك البيعة العلنية للإمام علي عليه السلام وليس ذلك لأن هناك كما ذكرنا سابقاً، المئات من الصحابة وغيرهم ممكن ذكر وأكد صحة وقوع تلك البيعة الخالدة فحسب، بل لأن الغالبية العظمى من تفاسير السنة تجمع على أن الآية الكريمة ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾[٣] قد نزلت

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق، ص٣٤.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٣٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

على النبي الأعظم ﷺ كي يبلغ الناس ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام عليهم. ولما صدع الرسول الكريم ﷺ لأمر الله سبحانه وتعالى وأعلن للناس أن الإمام علياً عليه السلام هو الوصي والخليفة والولي على كل مؤمن ومؤمنة وذلك بعد عودة الجميع من حجة الوداع، وقبل أن يتفرق الناس بعد تلك الخطبة التي تم فيها تنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة وولياً، هبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بالآية الكريمة التالية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[1]، وتسمى هذه الآية بآية الكمال، أي كمال الدين.

ولذلك فإن الباحث الفرنسي (ريشار) يرى أن قضية الخلافة، خلافة ومبايعة الإمام علي عليه السلام قرب غدير خم الممثلة لكل البيعات السابقة، هي في الحقيقة قضية محسومة ولا مجال للطعن بصحتها أو باعتراف الجميع بحدوثها. ولذلك، فإن (ريشار) عندما يقول: «وعلى الرغم من أن علياً هو الخليفة المعين من قبل النبي، فإنه استبعد عن هذه الخلافة»[2] فهو يعرف عن طريق إبحاره العميق في كتب التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية الشريفة أن ما أراده الرسول ﷺ شيء وما حدث بعد رحيله شيء آخر مناقض له تماماً. فمنذ الخيوط الأولى لشعاع الرسالة الإسلامية، أعلن الرسول الكريم ﷺ أن خليفته الشرعي ووصيه وأخاه هو الإمام علي عليه السلام وذلك في البيعة الأولى المعروفة ببيعة الدار حيث أحجم جميع الحضور عن مناصرة الرسول الكريم ﷺ في حمل

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) يان ريشار: الإسلام الشيعي، ص٣٥.

أعباء الرسالة الجديدة باستثناء علي عليه السلام، ثم تبعت تلك البيعة الأولى بيعات أخرى وكان آخرها بيعة الغدير التي جاءت تعبيراً واضحاً عن الإرادة الإلهية المؤيدة للإرادة النبوية في تأكيد التعيين السابق للخليفة والوصي.

أما القسم الأخير من مقولة (ريشار) السابقة: «.. فإنه (أي علي) استبعد عن الخلافة» فبإمكاننا أن نحيل هذه الحقيقة إلى المفكر الفرنسي المعاصر (جاك لانغاد) الباحث في الفلسفة الإسلامية وفي علم اللسانيات، لنرى السبب الكامن وراء حدوث عملية الاستبعاد تلك. ونستطيع أن نتبين رأي (لانغاد) بوضوح عندما ندرك أنه لا يبخل علينا بالإجابة وبالتوضيح للنقطة التي نريد الاستفسار عنها. وها هو يبين للقارئ في كتابه (من القرآن إلى الفلسفة) سلطة الكلمة المكتوبة وأثرها عل الفرد والمجتمع، ويؤكد على أن الرسول صلى الله عليه وآله أراد، بلا شك أن يكتب وصيته الأخيرة للمسلمين وهو على فراش الموت، لكن البعض خرجوا عن إرادته وعصوا أمره واتهموه بالهذيان، ولذلك لم تتم كتابة الوصية التي كان من شانها أن تمنع ما حاق وما يحيق بالمسلمين من رزايا ومصائب إلى يومنا هذا، وهذا ما عبر عنه ابن عباس بقوله - كما نقله لنا (جاك لانغاد) في كتابه المذكور:

«إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين كتابه»[1].

وكان الأديب الشاعر (بولس سلامة) من أكثر الباحثين والمفكرين والأدباء جرأة في طرح قضية بيعة الغدير وفي إثبات الكتاب الذي كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله يود كتابته للمسلمين لئلا يضلوا بعده سواء السبيل.

(١) جاك لانغاد: من القرآن إلى الفلسفة، مصدر سابق، ص٩٠.

ويكفي أن نذكر هنا الآن باقة من أبياته الشعرية التي تتحدث عن رزية الخميس، تلك الرزية التي تمثلت بمنع الرسول الكريمﷺ من كتابة وصيته بأي ثمن كان خوف تأكيد البيعة الشفهية الخطابية ببيعة تأكيدية كتابية بحيث لا تترك تلك البيعة الكتابية (المدونة بيد الرسول ﷺ) أي مجال للتشكيك أو التأويل بصحة استخلاف الإمام عليعليه السلام وتوليته على سائر المسلمين.

وها هو الأستاذ (سلامة) يتكلم عما حدث مع الرسول المصطفىﷺ وهو على فراش الموت بين لفيف من الصحابة المحيطين به:

قال: «آتوا بمرقمٍ ودواة   إنني منشئٌ كتاباً جليلا
لا تضلّون بعده، فهو سِفْرٌ   يمنعُ اللهُ نصَّه أن يحولا
لم يجيبوه للذي رام بل راحو   مُفيضين في الشِّقاق طويلا
يرهب النور من يرى النور كَشْفاً   لبيانٍ يودُّه مشكولا[1]

نعم، هذا هو السبب الذي منعهم من أن يستجيبوا لأمر النبيﷺ فهم لا يريدون للحق أن يظهر ويعم نوره، بل يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ولو كلفهم ذلك مخالفة الإرادة الإلهية والمشيئة النبوية.

أما في ما يتعلق ببيعة الغدير نفسها، فلا داعي لأن نعيد تفاصيلها كما أوردها الأديب والشاعر بولس سلامة نثراً، ولكن لا بأس في أن نورد تلك البيعة من خلال تصويرها شعراً حسب ما جاء في ملحمة (عيد الغدير)، تلك الملحمة الشعرية الرائعة التي خطتها يد مسيحية نظيفة بهدف تصوير الكثير من

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، ص١١٧.

الحقائق الإسلامية، والتي أبى ناظمها الأستاذ (بولس سلامة) أن يطلق عليها اسماً آخر بدل اسم (عيد الغدير) إيماناً منه بأن إكمال الدين وإتمامه هو يوم الغدير الأغر.

يقول الشاعر (سلامة) عن يوم الغدير مبتدئاً حديثه عن حجة الوداع:

عاد من حجة الوداع الخطير ولفيفُ الحجيج بحر يمور

ثم ينتقل إلى مسألة نزول الأمين جبريل عليه السلام على الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من أجل تبليغ الناس ما جاء من السماء بشأن ولاية علي عليه السلام:

جاء جبريل قائلاً: «يا نبيَّ الله بلِّغ كلامَ ربٍّ مُجيرِ»
«أنت في عصمةٍ من الناس فانشرْ بيِّناتِ السماء للجمهورِ»
«وأذِعها رسالة الله وحياً سرمديّاً وحجة للعصور»

وبعد هذه المقدمة للبلاغ النبوي، ينتقل الأستاذ (سلامة) ليصور لنا ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وآله لآلاف المسلمين المتعلقين به بأبصارهم والمصغين إليه بآذانهم ترقباً لكل حرف سيتفوه به في آخر خطبة حاشدة بعد أن أعلن عن دنو أجله واقتراب رحيله:

«يا أيها الناس، إنما الله مولاكم ومولاي ناصري ومجيري

ثم إني وليكم منذ كان الدهر طفلاً حتى زوال الدهور

«يا إلهي من كنت مولاه حقاً فعلي مولاه غير نكير

«يا إلهي وال الذين يوالون ابن عمي وانصر حليف نصيري

«كن عدواً لمن يعاديه واخذلْ كلَّ نكسٍ وخاذلٍ شرّيرِ

«لا تضلّوا واستمسِكوا بكتاب الله بعدي، بعترتي، بالأمير»[١]

وبالطبع، ليست هذه الأدبيات هي كل القصيدة التي تحمل عنوان (يوم الغدير) ضمن الملحمة الكاملة، بل إنها مجرد أبيات منها، أما بقية الأبيات فهي أبيات تتناول الوصف الدقيق والمفصل لحجة الوداع ولخطبة الرسول الكريمﷺ المطولة التي كانت بمثابة التذكير الأخير للمسلمين من أجل التمسك بالتعاليم والمبادئ التي جاء بها وبلغها عن وحي السماء من أجل خير البشرية وحضارة الإنسانية الشاملة.

ويركز الأستاذ الأديب (سلامة) في نفس الصفحات التي وردت فيها تلك الأبيات الشعرية على حقيقة أن المسلمين الشيعة في كل العالم يعملون بدأب على إحياء هذه المناسبة العظيمة فعلاً في كل يوم (١٨) من ذي الحجة من كل عام.

وهنا، نحن بدورنا، نلفت النظر إلى المستشرقين (دومينيك سورديل) و(جانين سورديل) قد ذكرا أيضاً في كتابهما المشترك (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي) احتفال المسلمين الشيعة بيوم الغدير الأغر، ذلك اليوم الذي -كما يقولان عنه في كتابهما-: «إن النبي قد أوصى فيه بخلافة علي من بعده»[٢].

ولم يتوقف (دومينيك سورديل) تحديداً، عند ذكر بيعة الغدير وولاية عليعليه السلام على كافة المسلمين في كتاب (الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي)، بل ذكر تلك البيعة الخالدة أيضاً في كتابه (الإسلام في القرون

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١١٠-١١١.

(٢) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، مصدر سابق، ص١٣٦.

الوسطى)، حيث ذكر فيه أن الرسول صلى الله عليه وآله قد قام في أحد أيام شهر ذي الحجة، والمسمى لاحقاً باسم عيد ذي الحجة أو عيد الغدير، وبايع فيه الإمام علياً عليه السلام أمام حشود المسلمين حيث«أعلن محمد تنصيب علي خليفة له»[١].

فواقعة الغدير ليست واقعة عابرة أو حادثة سطحية بسيطة، بل هي الحادثة الأكثر عمقاً في مجرى الرسالة الإسلامية وفي خط سيرها الطويل. ولذلك لا بدّ من أن تأتي ذكرها في مختلف المجالات الإسلامية والبحوث الدينية، كالسيرة والتاريخ والتفسير والحديث والفلسفة الإسلامية والأدب وحتى اللغة أيضاً، وذلك لأنها مسألة تتعلق بجوهر الرسالة السماوية وبصلب الوصايا النبوية التي لا تتجزأ ولا تفترق عن الأوامر القرآنية التي تعتبر أن تمام الرسالة وكمال الدين يكمن في تنصيب وتولية الإمام علي عليه السلام أميراً للمؤمنين وخليفة ووصياً على كافة المسلمين.

وبما أن الأمر كذلك، فهذا يعني أن قوة تلك الحادثة وعظيم أثرها يمكنها من الدخول في كل مرفق من مرافق الفكر والبحث والمعرفة سواء عند المسلمين أم عند المفكرين والأدباء من أبناء الديانة المسيحية المهتمين بالفكر وبالتراث الإسلامي.

ولا أخفي على القارئ العزيز أنني فوجئت بذكر بيعة الغدير وولاية علي عليه السلام وخلافته على كافة المسلمين في العديد من كتابات ومؤلفات رجال الفكر المعاصر من إخواننا السنة ممن هم من الفلاسفة والأدباء والباحثين الكبار،

(١) دومينيك سورديل: الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة: علي المقلد، دار التنوير - بيروت، ١٩٨٣، ص١١٨.

ولكن سرعان ما تلاشت آثار تلك المفاجأة لأنني تذكرت أن الشخص الذي سيحاول أن يسكب دلاء الماء على نار عظيمة كالتي كانت توقد قديماً على مداخل المرافئ البدائية لهداية السفن التائهة ليلاً، فلن تزيدها محاولة الإطفاء بالقليل من الماء إلا اشتعالاً وزيادةً في التألق، وبالتالي سيصل نور نارها إلى مسافات أبعد مما كانت تصل إليه في السابق.

وعلى سبيل المثال، فوجئت تماماً عندما قرأت أن مسألة ولاية أمير المؤمنين ووصايته على كافة المسلمين قد تخللت حتى نصوص المسرح العربي الحديث، وأن ولايته عليه السلام عليهم لم تكن ثابتة ومؤكدة في يوم غدير خم فحسب، بل كانت ولايته ثابتة له منذ ولادة الرسالة الإسلامية.

وتمام المفاجاة هو أن الأديب العربي الكبير (توفيق الحكيم) قد أثبت تلك الحقيقة في مسرحيته الشهيرة (محمد رسول البشر) والتي طبعت أول مرة عام (١٩٣٦) في القاهرة، وقد ذكر فيها على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله بعد نزول آية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [1] أن محمداً صلى الله عليه وآله عرض رسالته السماوية الجديدة على جمع من الناس قائلاً لهم:

- ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة.

وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟!!

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

وبعد أن يصور الأديب (الحكيم) إحجام الحضور جميعاً عن مؤازرته ومناصرته على ذلك الأمر العظيم، يتقدم علي عليه السلام ليقول للرسول الكريم صلى الله عليه وآله بصوت عربي مبين: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت»[١]، ولا داعي للتعليق على نتيجة إجابة علي عليه السلام لدعوة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وكيف أن علياً عليه السلام قد بات فعلاً هو الأخ والخليفة والوصي من بعده.

ولم يكن أثر المفاجأة الجديدة بأقل من أثر مفاجأة الأديب (توفيق الحكيم)، فقد قرأت للباحث والفيلسوف السوري، الدكتور (عادل العوا) العميد السابق لكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة دمشق، في كتابه (معالم الكرامة في الفكر العربي) إقراره بحدوث بيعة الغدير وولاية الإمام علي عليه السلام حيث اعتبر الدكتور (العوا) أن إحدى الكرامات التي نالها الإمام علي عليه السلام من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله أمام جموع المسلمين هي مبايعة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله له في غدير خم، وجعله ولياً على جميع المسلمين، وقد اعتبر الدكتور (العوا) أيضاً أن ما حدث في غدير خم هو أحد المعالم البارزة في التاريخ الإسلامي، وأن ما حدث له علاقة كلية ومباشرة بشخصية الإمام علي عليه السلام، وأن تلك البيعة هي إحدى كراماته الخاصة المميزة، هذا بالإضافة إلى اختصاصه بالعديد من الكرامات العظيمة الأخرى[٢].

وبالطبع، لقد تعمدت ذكر هذين المثالين فقط من مجموعة كبيرة من

---

(١) توفيق الحكيم: محمد رسول البشر (مسرحية)، مطابع القاهرة، راجع المنظر السابع، ص٢٧.

(٢) الدكتور عادل العوّا: معالم الكرامة في الفكر العربي، مطبعة الأمل - دمشق ١٩٦٩، ص٧٧.

المفكرين المسلمين السنة المعاصرين، وذلك لما للأول (توفيق الحكيم) من مكانة رفيعة في عالم الفكر والأدب، ولما للثاني من نفس المكانة المتميزة ولكن في ميدان الدراسات والبحوث الفلسفية التي تتناول الفكر في العالمين الشرقي والغربي.

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الباحث المنصف لا يمكنه أن يتجاهل أو أن يتعامى عن تلك الصفحة البيضاء من سفر الرسالة الإسلامية وذلك لأن مثل الباحث الذي يتعمد التغاضي عنها أو تجاهلها كمثل الباحث الذي يتغاضى أو يتجاهل أهم الحوادث في السيرة النبوية، كمسألة نزول الوحي، أو الهجرة إلى المدينة، أو يوم الفتح، أو حتى كحادثة الإسراء والمعراج وما شابه ذلك من المسائل والأحداث الإسلامية الهامة.

ولذلك، فإن الباحثين والأدباء المسيحيين الذين خاضوا غمار البحث في أدق الحوادث التاريخية في الإسلام، رأوا أن نكران يوم الغدير وولاية علي عليه السلام هو بمثابة النكران لنبوة محمد صلى الله عليه وآله ولرسالته بالكامل.

وقد يبدو هذا الأمر غريباً لأول وهلة، ولكن سرعان ما تزول هذه الغرابة إذا عرفنا أن هناك الكثير من المفكرين والأدباء والمسيحيين يقرون ويعترفون أن للإمام علي عليه السلام مكانة عظيمة لا تبلغها عقول البشر. فالأديب المسيحي (نصري سلهب) يؤكد مراراً وتكراراً على أن قول النبي الكريم صلى الله عليه وآله هو دائماً القول الحق في جعل الإمام علي عليه السلام صنو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً. بل إن الأستاذ (سلهب) يرى أنه من البديهي تماماً أن يكون الإمام علي عليه السلام هو الخليفة الشرعي الأول للرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، فالرسول

الكريم صلى الله عليه وآله كان حكيماً بذاته في كل الأمور، ولكن حكمته الحقيقية تجلّت بشكلها الأمثل عندما استجابت بالسرعة القصوى للأمر الإلهي بأن تعيين الإمام علي عليه السلام خليفة وولياً على كافة المؤمنين والمسلمين في يوم غدير خم. ولذلك، فبعد أن ذكر الأستاذ (سلهب) واقعة الغدير بكامل تفاصيلها معتمداً في ذلك على ما رواه (أحمد بن حنبل) فقال معلقاً على تلك الحادثة:

«ذاك هو (حديث الغدير) كما رواه كثير من الصحابة والتابعين والعلماء. ولن نخوض في شأنه جدالاً أو نقاشاً ذلك أننا مع احترامنا جميع الآراء، أنى كانت مصادرها ودوافعها، نعتبر أن هذا الحديث صحيح، واقعاً وتاريخاً، جملةً وتفصيلاً، وكما نعتبر أن النبي لأسباب أوضحنا بعضها ونغفل بعضها الآخر، لكوننا غير ملمين بها جميعاً، صدع بأمر ربه فبلغ ما أنزل إليه منه تعالى، في آن معاً، حقق أمنية راودته زمناً طويلاً، وهي أن يخلفه علي بعد موته، ليقينه أن علياً خير من اضطلع بتلك المهمة الخطيرة الجلى»[1].

وانطلاقاً من تلك الحقائق والثوابت التي يقدمها لنا الأستاذ الباحث (سلهب) حول مسألة استخلاف الإمام علي عليه السلام نراه يعود ويشدد القول على أنه من الصعب على أي باحث أو مفكر أن يفهم حقيقة شخصية الإمام علي عليه السلام والتغلغل في أعماقها والتوغل في فكره وقلبه النقيين، إذا كان ذلك الباحث أو المفكر جاهلاً بالقرآن، بكتاب الله الأخير وبكلمته السماوية الخالدة وما تحتوي تلك الكلمة الإلهية من ثروات الوجود وأبواب الخلاص والخلود.

فالإمام علي عليه السلام هو ولي المؤمنين وخليفة المسلمين لأنه، في نهاية المطاف

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٨٤.

كما يؤكد الأستاذ (سلهب) كالقرآن الكريم لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا كافر، وهو «قسيم الجنة والنار»[(١)].

وإذا كان رأي الأستاذ الباحث (نصري سلهب) على هذه الدرجة الكبيرة من الوضوح والصراحة، فإن رأي المستشرق الألماني المعاصر (جرهارد كونسلمان) يبدو أمامه رأياً خجولاً بعض الشيء. فالمستشرق (كونسلمان) يرى أن لحجة الوداع وللخطبة التي أعقبتها أبعاداً روحية وسياسية لا تخفى على الجميع، فالرسول ﷺ بلا شك قد ألقى على مسامع آلاف المسلمين خطبة مطولة بين لهم فيها أشياء مهمة كثيرة، وذكرهم أيضاً بحقائق ووقائع لا يمكن تجاهلها على الإطلاق بحيث لا يمكن لنبي حكيم أن يغفل عنها أو عن التذكير بها في مثل تلك اللحظات الحرجة والحاسمة، خاصة وأنه يعرف أن الأجل قد بات قريباً وأن مستقبل أمته سيدخل في نفق مظلم ما لم يتمسكوا بما نصحهم وأوصاهم به.

وهنا يورد (كونسلمان) الحديث النبوي الشريف الذي يحض النبي الكريم ﷺ أتباعه من خلاله على أن يكونوا مخلصين له بعد رحيله عنهم وذلك من خلال الرجوع إلى مرجعيتين كاملتين متكاملتين وهما : القرآن وأهل البيت[(٢)].

إذاً، فالمرجعيتان الأساسيتان الباقيتان دائماً وأبداً هما القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام ، وقد علق المستشرق (كونسلمان) على هذا الحديث الذي لم يورده

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٦١.

(٢) جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، مصدر سابق، ص١٧.

حرفياً، بل أورده بمعناه العام، بقوله: «أما معنى الجملة (أي الحديث النبوي الشريف) فهو أن كليهما ينبغي أن يظلا في أسمى مكانة: القرآن الذي أعلن مشيئة الله، وأفراد عائلة النبي»[1]، وهذا يعني وفقاً للمنظور العام. وتبعاً لما رواه كونسلمان، أن الولاية حق ثبات لكلمة الله المتمثلة بالقرآن، ولأهل البيت عموماً وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام أول الناس إيماناً وأقربهم من النبي دماً وروحاً، وزوج الزهراء عليها السلام وأبو سبطيه الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.

وإذا ما قارنا بين رأي المستشرق الألماني (كونسلمان) ورأي المستشرق الفرنسي (لويس ماسينيون)، نستطيع القول: إن (ماسينون) يميل إلى إبراز رأيه بشأن بيعة الغدير بشكل مختصر وصريح، إذ إنه يرى فيها بيعة علنية ثابتة للإمام علي عليه السلام لم يستطع أهل السنة إزاءها أن يعترفوا بصحتها ويقولوا بها[2].

وبسبب قوّة وعمق أثر هذه الحادثة في مسيرة الرسالة الإسلامية وتوجهاتها، كان الرسول الكريم يرى من خلال قوة بصيرته ورؤياه المستقبلية الصائبة، أن التاريخ الإسلامي سينحرف عن مساره الصحيح المرسوم له وسينتقل - في حال تخليهم عن ولاية علي عليه السلام وخذلانهم له - من النهج القويم الرشيد إلى نهج آخر خاطئ وغوي لن يحصد المسلمون منه إلا التشرذم والاقتتال والعودة إلى الروح القبلية والتنازع على مناصب الحكم والملك، والابتعاد عن سياسة الكلمة الطيبة في الحوار مع (الآخر) واستبدالها بسياسية السيف والنار ومن ثم العمل

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٧.

(٢) عبد الرحمن بدوي (جمع وترجمة): شخصيات قلقلة في الإسلام، مصدر سابق، ص٣٥.

على تسويغ وتبرير كل ذلك تحت شعار (الفتح الإسلامي)!!

ولأن الرسول الكريم ﷺ كان مدركاً لحقيقة إمكانية حدوث ذلك في المستقبل، فقد كان يسارع دوماً لتذكير المسلمين بمبايعة علي عليه السلام وولايته عليهم بدءاً بما حدث في بيعة الدار وانتهاءً بما حدث في بيعة الغدير، كما وأنه ﷺ كان يعتبر يوم الغدير عيداً عظيماً لأمة المسلمين، ولذلك لم يكن ﷺ يوفر وقتاً أو جهداً ليؤكد ذلك للمسلمين قاطبة كما هو الحال في قوله وتذكيره لهم قبيل رحيله: «يوم غدير خم أفضل أعياد أمتي، وهو اليوم الذي أمرني الله - تعالى ذكره - بنصب أخي علي بن أبي طالب علماً لأمتي، يهتدون به من بعدي، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين، وأتم فيه النعمة ورضي لهم الإسلام ديناً»[1].

وإذا كانت هذه هي رؤية الرسول المصطفى ﷺ ليوم الغدير الأغر، فما هي رؤية صاحب البيعة نفسه عليه السلام؟!!

إن رؤية الإمام علي عليه السلام نفسه لذاك اليوم الأغر تتجلى من خلال خطبة طويلة له في سنة اتفق فيها مجيء يوم الجمعة والغدير معاً، وكان من جملة ما قاله فيها:

«... هذا يوم عظيم الشأن، فيه وقع الفرج ورفعت الدرج، ووضحت

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) العلامة الأميني: موسوعة الغدير، مصدر سابق، ج١ ص٢٨٣.

ب) السيد محمد إبراهيم الموحد القزويني: عيد الغدير، مؤسسة الإمامة - بيروت، ط٦/١٩٩٩، ص٧٠.

الحجج، وهو يوم الإيضاح والإفصاح عن المقام الصراح، ويوم إكمال الدين، ويوم العهد المعهود، ويوم الشاهد والمشهود، ويوم تبيان العقود عن النفاق والجحود، ويوم البيان عن حقائق الإيمان، ويوم دحر الشيطان، ويوم البرهان. هذا يوم الفصل الذي كنتم فيه توعدون، هذا يوم الملأ الأعلى الذي أنتم فيه معرضون، هذا يوم الإرشاد ويوم المحنة على العباد، ويوم الدليل على الرواد، هذا يوم إبداء خفايا الصدور ومضمرات الأمور، هذا يوم النصوص على أهل الخصوص.

هذا يوم شيث، هذا يوم إدريس، هذا يوم يوشع، هذا يوم شمعون، هذا يوم الأمن المأمون، هذا يوم إظهار المصون من المكنون، هذا يوم إبلاء السرائر»[1].

هذه باختصار شديد، مكانة ومنزلة ذلك اليوم المجيد عند الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وعند الإمام علي المرتضى عليه السلام. وبالطبع، ليس هذا هو المكان الملائم تماماً لذكر كل فضائل ذلك اليوم الإلهي العظيم، بل أحببنا أن نذكر فقط شيئاً يسيراً من خصوصية تلك البيعة المباركة في ذلك اليوم الذي يعتبر تاج الرسالة الإسلامية التي اكتملت به وتمت من خلاله.

والغريب في الأمر هنا هو أن بعض علماء السنة ومؤرخيهم يؤكدون على أن الثامن عشر من ذي الحجة هو عيد إسلامي عام شأنه شأن أي عيد إسلامي آخر، وقد ذكر المستشرق الإنكليزي (دوايت رونالدسن) في كتابه (عقيدة

(١) آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي: عيد الغدير، مؤسسة المجتبى - بيروت، ط١/٢٠٠١، ص٦٩.

الشيعة) بيعة الغدير، وقد نقل عن (ابن خلكان) قوله: «والثامن عشر من ذي الحجة هو عيد الغدير وهو غدير خم»[(١)].

وهذا يؤكد ويثبت عظمة ذلك اليوم الذي يعترف الكثير من السنة الأوائل، ومنهم ابن خلكان، بأنه عيد ثابت ومتعارف عليه في زمانهم.

ونقل (رونالدسن) أيضاً في أكثر من موضع في كتابه المذكور حديث الرسول الأعظم ﷺ: «علي مني كهارون من موسى»[(٢)]، وبين لما لهذا الحديث من دلالات واضحة وإشارات صريحة على رغبة الرسول ﷺ في تعيين الإمام علي عليه السلام خليفة شرعياً له.

وهنا نرى أيضاً أن المستشرق (رونالدسن) حاول أن يكون عقلانياً في النظر إلى قضية استخلاف علي عليه السلام وتوليته أمور المسلمين في يوم الغدير، وذلك من خلال دراسة الكتب القديمة التي كتبها الرعيل الأول من المؤلفين والمؤرخين السنة. وبعد تلك المحاولة العقلانية بشأن صحة استخلاف علي عليه السلام في يوم الغدير، نرى أن المستشرق (رونالدسن) يرجح حدوث تلك البيعة العلنية أمام جماهير المسلمين وذلك لأن تلك البيعة المشهودة لا يمكن أن تؤخذ وتدرس بمفردها بمعزل عن بقية الأحداث الإسلامية الهامة الأخرى التي حدثت في حياة رسول الله ﷺ، ولا يمكن أن تدرس أيضاً بمعزلٍ عن الأحاديث النبوية الشريفة التي لا يمكن أن تفهم إلا على أساس رغبة الرسول ﷺ العظيمة في جعل الإمام علي عليه السلام إمام الأمة ووليها القائم بإدارة شؤونها، ولذلك، فهو

(١) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص٢٥.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٥ - ٢٦.

(رونالدسن) يرجح حدوث تلك البيعة للإمام علي عليه السلام آخذاً بعين الاعتبار أن كتب الحديث الأولى عند المسلمين السنة تؤكد وتثبت حدوث ذلك[1].

وإذا كان المستشرق الإنكليزي (رونالدسن) قد ذكر بيعة الغدير في عدة صفحات من كتابه (عقيدة الشيعة)، فإن المفكر والأديب المسيحي (سليمان كتاني)، وهو ابن هذا الشرق العربي، لم يتوقف قلمه لحظةً واحدةً عن مناصرة العدالة والحق في القضايا الإسلامية الهامة وفي إبراز الحقائق الراسخة التي شاءها البعض أن تبقى حبيسة في كهوف التاريخ وفي زنزانات الخوف والظلام نزولاً عند رغبة الحاكم أو السلطان.

وقبل أن نقرأ ما خطته يراع الأستاذ (كتاني) بشأن بيعة الإمام علي عليه السلام وخلافته، نرى أن الأستاذ (كتاني) يركز في بحثه لهذه المسألة على فكرة جوهرية، وتتجلى هذه النقطة في أن الدراسة العميقة للتاريخ الإسلامي الأول تبدأ عملياً من النتائج الخطيرة المترتبة عن موت النبي محمد صلى الله عليه وآله.

فبعد موت النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وبعد اجتماع السقيفة، حدث هناك نقض صارخ وصريح لأعظم وصيتين نبويتين، وهما وصية الخلافة لعلي عليه السلام من جهة، ووصية الإرث بأرض فدك للسيدة البتول فاطمة الزهراء عليها السلام من جهة أخرى[2].

وما يهمنا الآن مما كتبه الأستاذ (كتاني) في مؤلفاته الفكرية الغزيرة، هي قضية بيعة الغدير المباركة. فالأستاذ (كتاني) يبرز لقارئه من خلال مؤلفاته

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٠.

(٢) سليمان كتاني: فاطمة الزهراء وتر في غمد، (مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٥٧٧.

العديدة الحكمة النبوية والرؤية المستقبلية الثاقبة التي كان يتمتع بهما الرسول الكريم ﷺ واللتان دفعتاه إلى تنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة شرعياً له بعد رحيله عن هذا العالم المليء بالجراح والآلام والهموم.

فهناك، إذاً، في مؤلفات الأستاذ (كتاني) نظرات فلسفية تقوم على سبر أغوار كل حادثة إسلامية واستكشاف ضمائر كل شخصية كانت قريبة من الرسول الكريم ﷺ سواء كانت تلك الشخصية مستقيمة ووفية أم منافقة وملتوية.

ومن هنا يرى الأستاذ (كتاني) أن الرسول الكريم ﷺ ما ملّ يوماً واحداً من عملية التحضير لولاية الإمام علي عليه السلام ولإمارته على كافة المؤمنين والمسلمين. وما كان للرسول الكريم ﷺ أن يقوم بذلك لولا أنه رأى في الإمام علي عليه السلام كل الصفات المجيدة والخصال الحميدة التي تؤهله لذلك المنصب القيادي العظيم. فليس تنصيب الرسول ﷺ للإمام علي عليه السلام خليفة له إلا عبارة عن عملية استمرار الخط في توارث الصفات والخصال والمبادئ والقيم بحيث يستمر خط الولاية الإلهية على أكمل نهج وأفضل ترجمة وتطبيق. وباختصار شديد، فالرسول السماوي ﷺ الذي جاء ليحكم ويقضي بشريعة السماء بين أهل الأرض، ما كان له أن يرحل بعيداً عن هذا العالم الأرضي دون أن يكون قد رسم، بشكلٍ مسبق، خريطة الغد. وإنّ الشريعة التي نزلت بشكلها الكامل في القرآن الكريم، لن يكون هناك من يستحق أن يكون قيّماً عليها إلا من كان من روحها ومن روح القرآن المشتمل عليها، ولذلك فقد أراد الرسول الحكيم ﷺ أن يكون الإمام علي عليه السلام كما يرى الأستاذ (كتاني) أول قيّم على

هذه الشريعة[(١)].

وبالإضافة إلى هذه الرؤية الواعية والمتولدة عن نتاجات محاكمات عقلية مدركة لقيمة المنطق في تقييم الأحداث وفي تحليل الأحاديث، فإن الأستاذ (كتاني) يعطينا رؤية مسيحية جديدة لمفهوم الخلافة والولاية. يرى الأستاذ (كتاني) وهو الباحث الخبير في الشؤون التاريخية الإسلامية، أن النظرة للخلافة الأولى لم تكن إلا من معدن المخلوف. فالضرورة تحتم أن يكون الخليفة الحقيقي والشرعي عظيماً كالخلافة ذاتها. والخلافة بدورها ككلمة مفردة في القاموس النبوي، عملية ومنزلة ليست بالسهلة ولا البسيطة كما يمكن أن يتخيلها البعض، وإنما هي عملية بناء بالغة الدقة والحساسية، إنها عملية بناء حقيقية تتم بشكل دقيق حيث يتم وضع لبنة فوق لبنة دون إحداث أي اهتزاز أو ارتجاج في البناء الذي لا تزال طينة قواعده غير متصلبة بالشكل المطلوب. وبالتالي، فإن حكمة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله تبرز هنا بشكل واضح حيث إن الرسول الحكيم الذي أثبت قدرته وعبقريته في سن أعظم دستور للناس كافة، ذلك الدستور المستمد عظمته من إرادة وحكمة السماء التي شاءت أن تكون شريعتها الأخيرة متناسبة كلياً مع الطبيعة الإنسانية وملبية لرغباتها ومتطلباتها، لهي حكمة قادرة من غير ريب أن تحسب حساب الزمن ومتغيراته، وحساب أن تلك الرسالة السماوية الأخيرة ستبقى في حاجة إلى من يستمر في رفع بنيانها لبنة فوق أخرى بطريقة حكيمة لا تقل عن حكمة من أمر بعملية الاستمرار في البناء والمتمثلة علمياً بالخلافة.

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٢٦.

وليس هذا فحسب. بل إن الحركة الإيجابية للتاريخ الإسلامي واتجاه خط سير تلك الحركة هي التي دلت بكل وضوح على ضرورة استخلاف علي عليه السلام دون غيره لأنه هو في المحصلة الإمام العظيم الذي صاغته الإرادة الإلهية وبلورته التربية النبوية ليكون الإمام الدائم الممتد بنهجه العظيم على طول ذلك الخط الاستخلافي الولائي العظيم[1].

وبعد هذه الرحلة القصيرة والممتعة في رحاب الفكر المسيحي المعاصر في الشرق وفي الغرب، لا بد من أخذ قسط من الراحة قبل معاودة الانطلاق من أجل رحلة جديدة في رحاب الحديث عن يوم الغدير المبارك.

وبالطبع، ستكون هذه الاستراحة عبارة عن توقف قصير مع قضية الغدير كي نرى كيف تناولها الفكر المسيحي شعراً لا نثراً.

وأول من سنتوقف عندهم، هو الأستاذ الأديب (جوزيف الهاشم)، وأول ما يقوله الأستاذ (الهاشم) عن بيعة الغدير المباركة هو وصف الحالة النفسية العامة لصفوف المسلمين عند معرفتهم باقتراب أجل الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ودنو ساعة الرحيل إلى عالم الصفاء والأنوار.

وها هو يفتتح الكلام بقوله:

هل الغديرُ بأسراب الحَجيج ومَا ... تباطأ الركب يشدو في مسيرته
في صوته نغمات الحزن يخنقها ... رجع التشهد، إذعاناً لسنتهِ
دَنا الوداعُ، كما الروحُ الأمين دَنا ... يُنَزِّلُ الآيَ مغموراً بفرحتهِ

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٤٤.

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن الأجواء العامة السابقة للإعلان الخطير عن ولاية الإمام علي عليه السلام وتحميل الأمة الإسلامية مسؤولية وأمانة السير وراءه، يتابع الأستاذ (الهاشم) وصفه لإعلان النبي الشريف صلى الله عليه وآله وسلم البيعة الخالدة لأمير المؤمنين علي عليه السلام مشيراً إليه، قائلاً بلغته الشعرية الشفافة ما قاله الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

يا أيها القومُ سيروا تحت رايتِهِ ... وليٌّ مَن كنت مولاه»، وسيِّدُهُ
مَن أبغضَ اللهَ» يقضي في ضَلالتِهِ ... يحبُّه مَن أحبَّ اللهَ، يُبغضُه
فَسبِّحُوا الله في إتمامِ نعمتِهِ[1] ... اليومَ أكملتُ، يا إسلام دينَكُمُ،

ومن خلال هذه الأبيات الشعرية القليلة استطاع الأديب الشاعر (جوزيف الهاشم) أن يصور بصدقٍ وإخلاص إعلان البيعة المباركة للإمام علي عليه السلام حيث لم يبق عذرٌ لمعتذرٍ ولا قول لقائل بعد إقامة هذه الحجة العظيمة على كافة المسلمين.

أما الأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي)، فقد استطاع أن يصور، وبشكل مفصل، حادثة الغدير وما جرى فيها من الألف إلى الياء، نثراً وشعراً، في ملحمته العلوية المباركة. وقد علق الأديب (الإنطاكي) على بيعة الغدير، نثراً، بقوله: إن كل الصحابة قد أحنوا رؤوسهم وقتذاك خضوعاً لقول رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله وسلم وتصريحة بمبايعة الإمام علي عليه السلام خليفة ووصياً ووليًاً على المسلمين من بعده، وأنهم اعتبروا ذلك اليوم يوم عيد وبركة من كل عام بعد أن بين لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خصائص وفضائل ذلك اليوم العظيم.

(١) مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، مصدر سابق، ص٤٠.

وبما أن ما يهمنا الآن، في هذه الاستراحة القصيرة، هي الناحية الشعرية التي تتمحور حول بيعة الغدير، لذلك فإننا سنقتصر في بحثنا الآن على الناحية الشعرية عند الأديب الإنطاكي دون الانخراط في دراسة الجانب النثري عنده.

وها نحن نقدم بعض الأبيات الشعرية من تلك الملحمة الرائعة:

أفاضَ أحمدُ مِن حَجِّ الوداع ومعه   الناسُ قد رجعتْ تبغي مثاويها
حتى إذا نزلتْ للاستراحة في   (غدير خم) كان السيرُ مُعييها

وبعد هذه الصورة الأولية السابقة على الإعلان، يصور الأديب (الإنطاكي) خطبة الرسول المطولة، ثم كيف مال بعد ذلك إلى علي عليه السلام كي يعلن للمسلمين جميعاً أن ولايته وخلافته بل إن مبايعته بعيد حجة الوداع هي تمام الرسالة وإتمام النعمة وإكمال الدين الحنيف:

ومالَ للمرتضى الثاوي بجانبه   وكان يُمسكُ يُمناه ويُعليها
وقال: مَن كنتُ مولاه عليٌّ له   مولى ورُغباي ذي بالجهر أبديها
وَقال: لا هُمَّ مَن والى عليَّك وا   لـهِ وأعداؤه أنت المعَاديها
أحببْ مُحبِّيهِ وابغض مُبغضيه ومَن   سَعَتْ إلى فضله وَفّقْ مَساعيها
وانصرْ بحَوْلِكَ قوماً عن تُقى نصرتْ   راياته والأُلى بالصدق تُربيها
واخذلْ بعَدلِكَ يا ربَّاه أنفسَ من   نَوَتْ له الخَذْلَةَ السوءَى مطاويها[1]

وبالطبع سنكون مجحفين جداً بحق الأديب (الإنطاكي) لأننا قد أخذنا من ملحمته الأساسية، البالغ عدد أبياتها (٥٥٩٥) بيتاً من الشعر، هذه الأبيات

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، ص٢١٥.

القليلة جداً، ولكننا نعتقد، بنفس الوقت، أن هذه الأبيات الشعرية القليلة، على قلة عددها، قد أعطتنا جوهر الفكرة الأساسية لمحور بحثنا حول ولاية علي عليه السلام في يوم الغدير.

وسنختتم الملف الشعري وننهي استراحتنا القصيرة تلك، بالوقوف على بعض الأبيات الشعرية من قصيدة رائعة تمثل عيناً من عيون الأدب الشعري الحديث. إنها قصيدة المفكر والأديب (سعيد عقل) التي يلخّص من خلالها ما يراه من شمائل وخصال في شخصية الإمام علي عليه السلام. ولا يغيب عن ذهن هذا المفكر المسيحي الموسوعي أن يبين لقرائه أن ولاية الإمام علي عليه السلام في يوم الغدير هي تاج الكمال للرسالة الإسلامية، وهي نهاية الدرب الذي رسمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من أجل سلامة الرسالة ومن أجل استمراريتها وضمان بقائها حية نابضة بالنور والحياة من خلال تلك الولاية تبدأ بالإمام علي عليه السلام وتنتهي - كما يؤكد المفكر والأديب (عقل) - بعدة «إمامات» أخرى من عقبه وعقب فاطمة الزهراء عليها السلام حيث كان بيتهما المبارك الشريف مهبطاً ومحطاً لنزول وحي الله وروحه الأمين عليه السلام.

وفي هذه الأبيات التالية، يصور لنا الأديب المفكر (عقل) كيف أنه يتخيل جموع الناس واقفة بخشوع لتسمع البلاغ السماوي الخالد على لسان رسول السماء صلى الله عليه وآله وسلم.

وها هو يصور ذلك قائلاً:

تخيَّلْتُهُم يومَ الغدير وقد سما
سَمَاويُّهم: «بَلِّغْ» فَمُزِّقَتِ الحُجُبُ

فَقَالَ: «ألا مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ، فَلْيَكُنْ..»
وَأكملَها، يا طيبَ ما اكتملَ الدربُ
وكانت إماماتٌ وكانت مطارحٌ
مَحَطٌ نزولِ اللهِ أو يَقربُ القُرْبُ
ففي كلِّ أرضٍ بَعْدُ بيتٌ مُطَيَّبٌ
على اسم الألى في الكُتبِ ليس لهم شَطْبُ[1]..

إذاً فأهل بيت النبوة والأئمة مِنْ ذلك البيت (المحمدي - العلوي) الطاهر عليهم السلام، لهم وجود وثبوت في كل الكتب السماوية السابقة، وهم الأساس الراسخ والقاعدة الصلبة لإكمال الطريق الذي رسمه صاحب الرسالة السماوية الأخيرة صلى الله عليه وآله وسلم.

فالسَّفير السماوي الأخير صلى الله عليه وآله وسلم على هذا الكوكب الأرضي كان بلا شك خيرَ ممثّلٍ للمشيئة وللإرادة الإلهيتين، وكان بالتالي صاحب مشروع حضاري إنساني شامل قادر على أن يطال الجنس البشري بأكمله على مدى امتداد المساحات الجغرافية الشاسعة وعلى طول تقادم الأزمنة والتحولات التاريخية المستقبلية.

ولذلك، فعندما كان ذلك الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أتباعه باحترام أهل الذمة وعدم خرق المواثيق معهم، وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، في نفس الوقت الذي كان يذكر فيه المسلمين دائماً بضرورة الثبات والتمسك بولاية

---

(١) سعيد عقل: الأعمال الكاملة، مصدر سابق، المجلد السادس، ص٧١.

الإمام علي عليه السلام والالتزام به كإمام وكخليفة معين بنصوص قرآنية واضحة وجلية ومبينة في الكثير من تفاسير السنة كما هو الحال في كتب وتفاسير الشيعة، فإنما كان الرسول يفعل ذلك ليمهد الطريق أمام ولاية علي عليه السلام على كل من هو مأمور بإعمار الأرض وإنمائها من خلال عملية الاستخلاف الإلهي عل هذه الأرض المعمورة.

وبالتالي، ونتيجة لذلك، فإن الإمام علياً عليه السلام كان يدرك تماماً أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كان يخطط بالفعل لجمع شمل الوحدة الإنسانية تحت راية سماوية واحدة ومن ثم لجعل راية تلك الوحدة الإنسانية بيد علي عليه السلام. فليس هناك في نظر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ثورات مجتزأة في سفر التاريخ بحيث يطلق عليها، على سبيل المثال، اسم الثورة العربية الإسلامية في وجه الروح الجاهلية، أو الثورة الفارسية الإسلامية في وجه المبادئ الكسروية أو المجوسية، أو حتى الثورة الدينية المسيحية في وجه التعاليم الرومانية الوثنية، بل هناك ثورة واحدة شاملة دائمة الاتقاد، فلا هي ملك للماضي دون الحاضر، ولا هي ملك للحاضر دون المستقبل، إنها الثورة التي تعلو حتى على حدود وحواجز القوميات والجنسيات والألوان والأعراق، إنا ثورة الحق ضد الباطل وثورة العدل ضد الظلم والطغيان.

فمبادئ ومواقف هابيل عليه السلام الإيمانية هي ثورة إنسانية عظيمة في وجه قابيل وثقافته الدمائية المتداعية. إنها ثورة النور والحق ضد الباطل وظلمته، إنها الثورة التي بدأت شرارتها الأولى عند هابيل عليه السلام واستمرت في الاتقاد عند سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي حول نار أعدائه، بقوة إيمانه ويقينه، إلى نار مستعرة

تحرق جباههم وجبروتهم، واستمرت حرارة نار ثورة الحق في ضمائر وقلوب كل الأنبياء والرسل الكرام (عليهم السلام أجمعين) وصولاً إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام فأحرق بها وجه الباطل في شخص فرعون وهامان وجنودهما، ولا ريب في أنّها أصبحت نار ثورة الحق - أسيرة بيد السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الذي أحسن القبض على زمام أمرها، فقال معبراً عن ديمومة الثورة الواحدة الخالدة: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً إلى الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً»[1]، وتستمر تلك الثورة بنفس القوة وبنفس الحرارة في الشخصية النبوية الرسالية الأخيرة المتمثلة في الرسول المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله الذي أعلن أن الثورة هذه المرة لن تعترف بالحدود الجغرافية لبلد دون بلد، أو وطن دون وطن، ولن تعترف أيضاً. بالتحولات الآنية أو بالثورات الجزئية، بل بثورة دائمة وبتحول مستمر قائم على ترسيخ مبادئ النداء السماوي وعلى تجذيره وتأصيله في ضمير الإنسان إلى يوم آخر يوم من عمر الزمان، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وبالاعتماد على كل ما سبق، نستطيع أن ندرك أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي كان يحض دائماً على احترام المسيحيين وحفظ حقوقهم ورعاية شؤونهم، كان يريد من المسيحيين، منذ يوم المباهلة مع أساقفة نجران، أن يعرفوا أن شعلة ثورة النور ضد الظلمة، والحق ضد الباطل، والعدل ضد الظلم، ستكون بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى - بيد الإمام علي عليه السلام الذي سيمثل ضمير الحركة الرسالية- الحي والقادر على المضيء قدماً في نشر ذلك النور الإلهي في قلوب

(١) الإنجيل (العهد الجديد): متّى ١٠-٣٤، دار الكتاب المقدس - القاهرة، ١٩٩٤.

الباحثين عن جذوة الحق وجذور الحقيقية.

ولا ريب في أن الإمام علياً عليه السلام أيضاً هو الإمام المؤهل والقادر على تجسيد وتطبيق مبادئ وقيم الحق وجعله الميزان الوحيد الذي تقاس الأعمال وتوزن به دون غيره، إذ بالحق تعرف حقيقة الرجال ولا يعرف الحق بهم. فالحق عند علي عليه السلام هو وحده الميزان وليس ما فعله فلان وفلان.

ولذلك، فعندما قال الإمام علي عليه السلام يوماً على منبر مسجد الكوفة على مسمع من الجمع الغفير: «من آذى إنجيلياً فقد آذاني»[1]، فقد أراد بذلك أن يفهم الجميع أن هذه الوصية منه هي بمثابة استمرار ونبض دائم لوصايا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله التي كانت تدعو إلى نفس النهج وتحض على تحقيق الغاية ذاتها في التعامل مع المسيحيين الذين لا يمكننا أن نعتبرهم إلا أخوة لنا في البعد الإنساني، وإن اختلفت الهوية الروحية، وفي سعيهم أيضاً لإثبات قيم الخير والعدل والفضيلة انطلاقاً من حقيقة ان الرسالات السماوية واحدة وفي جوهرها وقيمها في مبادئها وغاياتها. فرسالة الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وشريعته جزء لا يتجزأ وحلقة متينة لا تقبل الفصل عن حلقات النبوات والرسالات السماوية السابقة الداعية، في حقيقتها، إلى ما تدعو إليه الرسالة السماوية الأخيرة من: توحيد الله، والدعوة إلى الإيمان بالرسالات والرسل والكتب السماوية السابقة، والدعوة أيضاً إلى نشر بذار القيم والمعاني النبيلة السامية في حديقة الضمير الإنساني من أجل أن يكون ذلك الإنسان قادراً في المستقبل على وضع قيم الحق والخير والفضيلة وإثباتها أمام مفاهيم الباطل والظلم والرذيلة وإلغائها.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج١ ص٢٠٨.

ومن هنا يبرز دور الإمام علي عليه السلام كولي وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وكإمام وهادٍ لعباد الله. فهو عليه السلام الخليفة والإمام الذي شاءه الله ورسوله أن يكون دائماً في موقع الهادي إلى ما جاء به المنذر صلى الله عليه وآله ودعا إليه. إنه الإمام الذي سلمه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله في يوم الغدير الأغر شعلة الهداية المتلألئة بأنوار الولاية حتى يعرف الناس جميعاً أن هذا هو حقاً الإمام والخليفة الشرعي الذي يمثل الحجة الإلهية العظيمة عليهم. ولو لم يكن عنوان كتابنا هذا (الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر)، لكنت قد ذكرت عشرات الحوادث والوقائع التي تبين اقتداء الكثير من المسيحيين القدماء بأفعال الإمام علي عليه السلام وبنهجه في الحياة فكراً وممارسة، ولكنت قد ذكرت أيضاً عشرات الأحاديث التي رواها الكثير من القساوسة والرهبان والأدباء المسيحيين في فضائل الإمام علي عليه السلام ومناقبه الحميدة وخصاله المجيدة، أولئك الأعلام الذين يمثلون الفكر المسيحي القديم، أي الفكر المسيحي الذي عاصر مولد الرسالة الإسلامية وشهد فجر عظمتها.

ولهذا السبب الذي ذكرته الآن، أرى أنه من الأفضل والأصوب لنا أن نعود ونقصر كلامنا على ما جاء في الفكر المسيحي المعاصر، عن معاني بيعة الغدير وأبعادها الروحية على المستويين: الإسلامي الخاص، والإنساني العام.

ومن هنا نقول: لو أننا تصفحنا مئات الصفحات التي خطتها يد المفكر والأديب (جورج جرداق) حول شخصية الإمام علي عليه السلام لرأينا عشرات الصفحات المتخصصة بمناقشة وتحليل مسألة ولاية الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته المنصوص عليها إلهياً في القرآن الكريم، وفي العديد من الأحاديث

النبوية الشريفة، وأيضاً من خلال العديد من البيعات النبوية العامة وآخرها وأشهرها بيعة غدير خم التي حدثت على رؤوس الأشهاد من الأصحاب والأتباع.

ومهما حاولنا أن نختصر من حديث الأديب (جرداق) عن مفهوم بيعة الغدير، التي تمثل تاج الولاية المتممة للدين والمكملة للرسالة، فإننا لا نستطيع أن نضرب صفحاً عن نقطة هامة في فكر (جرداق) بشأن هذه المسألة البالغة الحساسية والمفصلية في تاريخ الإسلام. ويمكننا إيجاز هذه الفكرة عنده بالقول: إن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله كان يمهد لعلي عليه السلام سبيل الخلافة منذ الأيام الأولى لولادة الرسالة الإسلامية وذلك ضمن الحدود التي تشترطها ثورة الإسلام المؤسسة على ضرورة التغيير من خلال اتباع سياسة الكلمة الطيبة والحوار التفاعلي المثمر القائم على دعم الأفكار والمبادئ بالحجج والبراهين العقلية والمنطقية عند الحوار مع (الآخر) أياً كانت هوية ذلك (الآخر). فقد كان الرسول الحكيم صلى الله عليه وآله يمهد لعلي عليه السلام منذ البداية طريق الخلافة لأنه رأى فيه صورة الإمام القادر على فعل ما سبق ذكره، ولأنه رأى فيه أيضاً صورة حية عنه من حيث قدرته الكاملة على حمل أعباء الحركة الرسالية الإنسانية الشاملة، ومن حيث سمو الخلق ونبل المقاصد والغايات وسائر الصفات والمكارم[1].

ولهذه الأسباب كلها، كان يرى الأستاذ (جرداق) أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كان حكيماً تماماً في تعيينه الإمام علي عليه السلام خليفة له يوم الغدير. وبالطبع، فإن الأستاذ (جرداق) قد قام بحشد الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد

---

(١) نفس المصدر السابق: ج١ ص٦٢.

وتثبت فكرة أن تلك البيعة التي قامت، بالفعل، بدور إكمال الرسالة الإسلامية لم تكن بيعة عادية أو مجرد بيعة غير قائمة على تخطيط مسبق، بل إن تلك الأحاديث النبوية تؤكد على أن بيعة الغدير كانت موجودة بحالة جنينية في ذهن الرسول الكريم ﷺ منذ أن كان الإمام علي عليه السلام هو المؤمن الأول بالرسالة والنصير الأول للرسول ﷺ.

ويكفي أن نذكر من ذلك الحشد من الأحاديث النبوية الشريفة في علي عليه السلام حديثين نقلهما لنا الأستاذ (جرداق)، بعد أن ذكر حديث الولاية في يوم الغدير. والحديث النبوي الأول الذي ينقله لنا الأستاذ (جرداق) هو ذلك الحديث الهام المسند إلى زيد بن أرقم حيث يقول: «قال رسول الله: ألا أدلكم على ما أن تساءلتم عليه لم تهلكوا، إن وليكم الله وإن أمامكم علي بن أبي طالب فناصحوه وصدقوه».

أما الحديث النبوي الثاني الذي يورده الأستاذ (جرداق) بعد هذا الحديث مباشرة، هو قول الرسول الأعظم ﷺ بعد أن شكا إليه بعض أصحابه شأناً من شؤون علي عليه السلام: «ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي»[1].

هذه هي، باختصار شديد، وجهة نظر المفكر والأديب (جورج جرداق) بشأن بيعة الغدير الخالدة ومسألة التمهيد لها يوماً بعد يوم على امتداد تاريخ الرسالة الإسلامية انطلاقاً من مؤهلات علي عليه السلام الروحية والفكرية المتكاملة الجوانب والتي تؤهله حقاً لاستلام مهامه الرسالية الخطيرة بعد رحيل الرسول

(١) نفس المصدر السابق: ج١ ص٦٤.

المصطفى صلى الله عليه وآله.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أرسل، في السابق، لكل قوم نبياً رسولاً، فإن الله عز وجل شاء أن يرسل لاحقاً الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله لكل الأقوام والشعوب. وما كانت حكمة الله تقضي وتمضي هذا الأمر لولا أن رسالة المصطفى صلى الله عليه وآله هي حقاً الرسالة السماوية التي تمثل أشمل وأكمل الرسالات السماوية المتناسبة مع آخر مراحل تطور الفكر البشري في مجال العبادة، ومع الحركة الإنسانية المتطورة والقادرة على اختراق حواجز المساحات الجغرافية والأبعاد التاريخية المستقبلية، وهذا ما عبر عنه المفكر الفرنسي المعاصر (مارسيل بوازار) بقوله في كتابه (إنسانية الإسلام):

«ويؤلف الإيمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد، وبالكتب التي أنزلت إليهم، مادتي إيمان متماثلتين، ويتمثل المفهوم الإسلامي على الشكل التالي: لقد بعث الله إلى الناس بما يرشدهم ويهديهم تبعاً لمختلف مراحل التطور التي مرت بها الإنسانية. والقرآن هو آخر ما أوحى به الله، ومحمد خاتم الأنبياء بعث به لإتمام ما سبق من تنزيل، وتصحيح ما أصابه من عوج»[1].

ولما كان الأمر بهذا الشكل، كان لا بد - في نظر المفكرين والأدباء المسيحيين - من أن يكون الرسول الأخير صلى الله عليه وآله على إدراك تام وكامل لحجم المسؤوليات والمهام المترتبة على عملية تبليغ تلك الرسالة الكونية المعدة لتصحيح وتصويب وإكمال بقية التعاليم التي جاءت بها الرسالات السماوية السابقة والتي كان لها

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، مصدر سابق، ص٤٩.

دور لا ينكر في هداية الناس وفي إغناء قيمهم الروحية ومبادئهم الفكرية على الرغم من ضيق مساحة انتشار تلك الرسالات ومحدوديتها في الآثار والنتائج.

ولذلك، فإن هذا الرسول الخاتم لكل الأنبياء والرسل السابقين والمدرك لحقيقة كل ما سبق ذكره، كان مدركاً أيضاً لحقيقة هامةٍ أخرى وهي أن كل تلك الرسالات السماوية السابقة، وعلى الرغم من محدوديتها وعدم شموليتها، إلا أن كل رسولٍ من رسلها لم يكن ليترك قومه ويرحل عنهم دون تحديد خليفة يخلفه فيهم، فيوضح لهم ما استشكل عليهم من أمور ومسائل، ويدير شؤونهم الجديدة، وينظم قضاياهم المستجدة ويشرف عليها، ويكشف للمؤمنين الحقيقيين حقيقة المنافقين الذين أظهروا الإيمان بالرسول الراحل ﷺ وأبطنوا الكفر والنكران حيث إنهم لم يستطيعوا وقتها أن ينالوا منه فدخلوا في دينه الجديد لتفتيته من الداخل، ومن ثم لتشويه وتغيير معالمه الأساسية والجوهرية مع مرور السنين وتقادم الأزمان.

وإذا كان هذا هو الحال مع تلك الرسائل السماوية السابقة ومع الرسل الأبرار الذين كلفوا بتبليغها لأقوامهم، فكيف لا يكون الحال نفسه مع خاتمة الرسالات التي جاءت لتقويم كل ما سبق ولإكمال كل ما مضى من أخلاقيات ومبادئ وقيم الرسالات السماوية السابقة؟!!

ثم كيف لا يعين خاتم الرسل والأنبياء ﷺ خليفة له أمام حشود المسلمين، وهو صاحب الرسالة المكلف بنشر أنوارها في فجاج الأرض وبقاعها، وكيف لا ينصب خليفة له بحيث يكون هذا الخليفة الشرعي هو حجته وحجة الله على كل الذين سيخالفون أوامره وتعاليمه وهو الرسول المدرك بنفاذ بصيرته أن هناك من

سيغتال القيمة الروحية لمفهوم الولاية من خلال القتل العملي لمفاهيم الخلافة ولأبعادها العملية؟!!

إن كل هذه المفاهيم وهذه الحقائق لم تغب عن أذهان الباحثين والمفكرين المسيحيين المعاصرين بشكلٍ أو بآخر. فهم يعرفون تمام المعرفة أن الرسول صلى الله عليه وآله قد نصب الإمام علي عليه السلام ولياً وخليفة على كل المسلمين، ليس في يوم غدير خم فحسب، بل في مناسبات عديدة وليست بيعة غدير خم إلا آخرها. وعلى الرغم من معرفتهم وتصريحهم بذلك، إلا أن البعض منهم كان أكثر جرأةً وأكثر وضوحاً في طرح هذه الحقائق ومناقشتها على بساط البحث.

وقبل المضي قدماً في رحلتنا مع الفكر المسيحي المعاصر في ما يتعلق بإكمال الدين وإتمام النعمة ببيعة غدير خم وإعلان ولاية الإمام علي عليه السلام على كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لا بد أن أذكر ولو مثالاً واحداً من أولئك الذين كانوا أكثر جرأة في طرح موضوع الخلافة وعدم أهلية من قام باغتيالها من أجل أن يجلس على جثتها الهامدة بعد أن أفرغها من محتواها النبيل. وهذا المثال هو شخص سبق وأن تحدثنا عن موقفه من بيعة الغدير في الصفحات السابقة من هذا الفصل، إنه الأستاذ الباحث (نصري سلهب) الذي تحدث بعمق عن أبعاد بيعة الغدير وكيف أن الأمة الإسلامية شهدت تلك البيعة المباركة وكيف أن كبار الصحابة قد بايعوا الإمام علياً عليه السلام يداً بيدٍ مهنئين إياه بتلك البيعة، وكيف أن بعض أولئك الصحابة قد أرادوا وأد تلك البيعة العلنية من خلال عدم السماح للرسول الكريم صلى الله عليه وآله بكتابة تلك البيعة على الورق لتبقى وثيقة أبدية محفوظة بين يدي أهلها يبرزونها في حال محاولة البعض الطعن

لاحقاً في ما حدث يوم الغدير.

أما الجرأة الحقيقية في عملية طرح هذه النقطة هو أن (نصري سلهب) سلط الأضواء على شخصية الإمام علي عليه السلام وموقفه عندما اتهم بعض الأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بالهذيان، وقد صور الأستاذ (سلهب) الإمام علياً عليه السلام بصورة الإمام الحكيم الحليم الذي آثر عدم الانفعال وعدم استعمال القوة لفرض ما يريد الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله كتابته. وقد فعل الإمام علي عليه السلام ذلك- بنظر الأستاذ سلهب- «لأنه كان شبه واثق من أن إرادة النبي، بعد موته، لن تحترم ولن تصان، لأن فئة من الأصحاب لن ترضى أن تؤول الخلافة إلى هاشم، وبصورة خاصة إلى علي»[1].

هذا أحد وجوه الجرأة والدقة في البحث والتحليل، أما الوجه الثاني فيتجلى في أن الشرخ الأول الذي أصاب الإسلام هو ما حدث في سقيفة بني ساعدة وتحويل البيعة الغديرية عن مسارها وأهلها إلى غير أهلها تحت حجج عديدة وشعارات زائفة كثيرة.

وهنا يكمن الوجه الثاني من الجرأة في طرح الأستاذ (سلهب) لهذه القضية الهامة. فالأستاذ (سلهب) يؤكد أن أبا بكر لم يكن جاهلاً ولا ناكراً لبيعة الغدير أبداً، ولا ناكراً أيضاً أن علياً عليه السلام هو باب العلم، وعمود الإسلام، وأساس الإيمان.

ويؤكد الأستاذ (سلهب) أيضاً أن أبا بكر لا يجهل أن الإمام علياً عليه السلام هو

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٨٩.

العالم بكل ما في القرآن الكريم، الكتاب السماوي الأخير، ولم يكن يجهل بالأساس أن علياً عليه السلام هو الإمام المعد، أصلاً، للنهوض بالمسؤوليات الجسام التي تفرضها خلافة الرسول صلى الله عليه وآله. فأبو بكر – كما يؤكد الأستاذ سلهب- لم يكن يجهل أو ينكر كل ذلك، فإن ذلك كله كان يعرفه أبو بكر في قرارة نفسه.

ولكن لماذا، إذاً، حاول أبو بكر أن يتناساه؟؟

هذا السؤال لم نطرحه نحن، ولكن الذي طرحه هو الأستاذ (سلهب)نفسه. وكان هو أيضاً من أجاب عنه بقوله: «ذلك كله كان يعرفه أبو بكر. غير أنه نسيه لغاية واضحة معلومة: أن يكون هو خليفة الرسول، وأن يقفل طريق الوصول إلى الخلافة في وجه بني هاشم، وبصورة خاصة في وجه علي، ذاك الذي أراده (محمد) بن عبد الله خليفة وأميراً للمؤمنين»[1].

وليس هذا فحسب، بل إن الطرح يزداد عمقاً عند الأستاذ الباحث (سلهب) عندما يتم الحديث عن تولية وتسليم الخلافة لعمر بن الخطاب من قبل أبي بكر، أي الحديث عن الانتقال من مرحلة الخرق الأول لوصية الرسول صلى الله عليه وآله إلى مرحلة الخرق الثاني.

وهنا يتساءل المفكر والباحث (سلهب) عدة أسئلة جوهرية عن هذه المرحلة الجديدة:

لم أوصى أبو بكر بالخلافة إلى عمر؟ ولم لم يترك المسلمين يختارون الأصلح والأفضل؟ هل كان استخلاف أبي بكر لعمر نوعاً من الوفاء لدين

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤٠.

سابق؟

وبعد هذه السلسة من الأسئلة التي يطرحها الأستاذ (سلهب) بشكل واضحٍ ومباشر، يقول: «ومن يمعن التفكير بعهد أبي بكر لعمر يتبين بين سطوره شيئاً من عدم القناعة، كأنما أبو بكر يفي ديناً شخصياً لا أكثر من غير التفات إلى الشأن العام: هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة، آخر عهده في الدنيا نازحاً، وأول عهده داخلاً بالآخرة. إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن ترون عدل فيكم فذلك ظني به، ورجائي فيه، وإن بدل وغير فالخير أردت ولا أعلم الغيب، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب سينقلبون»[1].

وهنا يدعونا الأستاذ (سلهب) للوقوف عند هذا العهد ودراسته بكل روية مع ضرورة مقارنته بأحداث ماضية تتعلق بموقف أبي بكر من قضية استخلاف علي عليه السلام ومناصرة عمر له في ذلك الموقف، وأكثر ما يدعونا الأستاذ (سلهب) للوقوف عنده في هذا العهد هو قول أبي بكر في عهده لعمر: «... فإن بدل وغير فالخير أردت. ولا أعلم الغيب...». إنه يدعونا لدراسة هذه العبارة كجزء لا يتجزأ من العهد الكامل، ثم يقول موضحاً رأيه فيه: «إن في هذه الكلمات لشعوراً خفياً عند أبي بكر بأن عمر ليس الرجل المهيأ لأن يكون خليفة لمحمد بن عبد الله، الرسول والنبي والإنسان الذي أراده الله على (خلق عظيم)»[2].

وبالطبع، لا أقصد هنا أن بقية الأدباء والمفكرين كانوا مفتقدين إلى عنصر الجرأة في كتاباتهم ومؤلفاتهم، ولكن ما أقصده هو أن البعض منهم لم يشأ أن

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٤١.

(٢) نفس المصدر السابق: ص١٤١.

يظهر أمام القارئ بمظهر المحلل الانفعالي أو الباحث المفتقد للروح في تقييم الأحداث، ولذلك اكتفوا باستعراض الوقائع والحقائق كما حدثت فعلاً لكن دون اللجوء إلى إثارة مشاعر القراء الذين ينتمون لهذه الجهة أو تلك وذلك عن طريق غض النظر عن ذكر النتائج المباشرة وغير المباشرة للتجاوزات الكثيرة التي حدثت في سجل التاريخ الإسلامي الطويل.

ولذا نرى أن البعض يركز في كتاباته على الواقعة ذاتها ويسعى إلى إثباتها ولكن دون الدخول في المرحلة التحليلية لخلفيات الحدث أو لنتائجه المترتبة عليه. وعلى سبيل المثال، نرى أن المؤرخ والباحث (فيليب حتي) قد تطرق إلى قضية الغدير واحتفال المسلمين الشيعة بذكرى ذلك اليوم المبارك، وقد اعتمد الأستاذ (حتي) في ذكر قضية البيعة قرب غدير خم على ما جاء في كتب السيرة والتاريخ، وبالدرجة الأولى على ما جاء عن طريق السنة، وقد ذكر في كتابه (History of The Arabs) أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله قال مصرحاً أمام الملأ بولاية الإمام علي عليه السلام بعده على كل من يعتبر أن محمداً هو وليه حقاً[1].

إذاً، فالحادثة بالنسبة للباحث والمؤرخ (فيليب حتي) هي حادثة لها وجود تاريخي ثابت خاصة وأن المصادر السنية تعترف بها ولا تنكر حدوثها، ولكن، كما نرى، فإن تعامل الباحث والمؤرخ (حتي) مع تلك الواقعة هو تعامل تاريخي بحت. وربما يرجع الأمر في ذلك إلى أن الأستاذ (حتي) هو في نهاية المطاف باحث ومؤرخ، ويهمه بالدرجة الأولى تسجيل وقوع الأحداث أو عدم وقوعها ضمن السياق التاريخي العام. ولذلك فإن التحليل أو النقد للأحداث التاريخية يأتي

---

(١)Philip Hatti, History of the Arabs p.471

عنده في المرتبة الثانية من الأهمية والاعتبار.

هذا هو الحال عند المؤرخ المسيحي (فيليب حتي)، أما بالنسبة للباحثة المستشرقة (كارين آرمسترونغ)، فإن الأمر مختلف تماماً. فالباحثة (آرمسترونغ) لا يهمها تسجيل الأحداث التاريخية فحسب، بل يهمها أيضاً الولوج إلى داخل الحدث، بل إلى أعمق ما يمكن الوصول إليه في عملية البحث والتحليل وذلك لأن عملية الدراسة والتحليل للنتائج المترتبة على الحدث لا تقل أهمية عن معرفة الحدث ذاته.

ولذلك، فباستطاعتنا أن نقرأ كيف أن الباحثة (آرمسترونغ) قد ذكرت في كتابها (الإسلام في مرآة الغرب) أن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قد أعلن أن الإمام علياً عليه السلام هو الوصي والولي على كل المسلمين منذ انبثاق الخيوط الأولى لفجر الرسالة الإسلامية وذلك في ما يعرف تاريخياً ببيعة الدار حيث عرض الرسول الكريم صلى الله عليه وآله دعوته الجديدة على المدعوين قائلاً:

«أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»، ولما ساد الصمت المربك، وقف الإمام علي عليه السلام وقال بجرأةٍ وثبات وبإيمان كامل: «أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه».

وبعد أن تذكر الباحثة (آرمسترونغ) هذا الحدث بدقةٍ وأمانة، نراها تستمر في عرض المشهد الأخير من ذلك الحدث، وهو المشهد الذي يصور الرسول الكريم صلى الله عليه وآله يقف بجانب الإمام علي عليه السلام ويقول على مسمع من الجميع: «إن

هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»(١).

نعم، إن الباحثة (كارين آرمسترونغ) تذكر هذه الحادثة وغيرها أيضاً من الحوادث المهمة والحاسمة في التاريخ الإسلامي، ولكنها لا تكتفي بذكر هذه الحادثة أو تلك من منطلق تاريخي فحسب، بل نراها تعمل فكرها بحثاً وتحليلاً في أبعاد تلك الحوادث الهامة وفي نتائجها وأصدائها المستقبلية اللاحقة.

وانطلاقا من ذلك، فإن الباحثة (آرمسترونغ) تعتبر أن الإمام علياً عليه السلام هو من الناحية الفعلية الإمام والوصي الشرعي على كل المسلمين. وبالتالي، فإن مخالفته تعني مخالفة الرسول نفسه صلى الله عليه وآله. بل يمكننا أن نلاحظ في كتاباتها المتعددة التركيز الواضح على وصاية علي عليه السلام وولايته.

وحتى عندما تتكلم (أرمسترونغ) عن قضية زواج فاطمة عليها السلام من الإمام علي عليه السلام، نراها تؤكد للقارئ أن هناك إرادة وحكمة تفرضان أن يكون الإمام علي عليه السلام، الوصي، هو الشخص الوحيد المؤهل لأن يكون قريناً مناسباً للبتول الزهراء عليها السلام دون غيره ممن تقدم لها. وقد صرحت بذلك عندما قالت: «صارت فاطمة في العشرين من عمرها وحان وقت زواجها. طلب أبو بكر وعمر يدها لكن محمد كان قد قرر تزويجها من وصيه الشاب علي»(٢).

إذاً، فقضية الولاية أو الخلافة والوصاية التي أسندها الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله إلى الإمام علي عليه السلام هي قضية بديهية ومسلم بها في كتابات

---

(١) كارين آرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، مصدر سابق، ص١٢٢.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢١١.

الباحثة (كارين آرمسترونغ)، ولكن، مهما يكن من أمر، وعلى ما يبدو فإن الباحثة (كارين آرمسترونغ) حاولت قدر إمكانها أن تبقى على مسافة متساوية مع كافة الأطراف الإسلامية، ولذلك فإن لغتها في البحث والحوار مع التاريخ وأحداثه ورجاله بقيت لغة بعيدة عن الإبداء المباشر للنتائج المستخلصة من الحادثة أو الموقف المطروح للنقاش والبحث والاستعاضة عن ذلك بترك إبداء الرأي، بعد دراسة الواقعة وتحليلها، إلى القارئ ذاته كي يستخلص هو شخصياً النتائج المترتبة عليها بكامل أبعادها.

وهنا تحديداً، يجب أن ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنني قد خططت بشكل مسبق لجعل محطتنا الأخيرة مع واحد من أعظم الباحثين والمفكرين الغربيين في القرن العشرين، إنه الباحث والمفكر (ميرسيا إلياد) (Mircea Eliade) المصنف كأحد أهم علماء الميثولوجيا ودراسة الأديان المقارنة في العالم.

ولهذا السبب لم يأت تخطيطي المسبق لوضعه وجعله الحلقة الأخيرة في مجال بحثنا عن عبث. ولكن قبل أن نتعرف على رأي هذا العالم والمفكر العملاق في ما يتعلق بإمامة وولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام، لا بد لنا من أن نعرف القارئ الكريم به ولو من خلال سطورٍ قليلة بهدف الوقوف على مكانته الفكرية العالية والمتميزة على المستوى العالمي.

يحتل (ميرسيا إلياد) مكانة هامة بين علماء الميثولوجيا والأديان المقارنة في القرن العشرين. وقد ولد في بوخارست، عاصمة رومانيا، عام (١٩٠٧). وقد أمضى الفترة الواقعة بين ١٩٢٨-١٩٣٢ في الهند حيث أعد رسالة الدكتوراه عن

اليوغا. وبعد عودته إلى بوخارست بعدة سنوات تم تعيينه في منصب الملحق الثقافي لسفارة رومانيا في لندن ومن ثم بعد ذلك في لشبونة، عاصمة البرتغال. وفي عام (١٩٤٥) عين أستاذاً في معهد الدراسات العليا في باريس، ثم درس في جامعة السوربون وفي جامعات أوروبية مختلفة. وفي عام (١٩٥٧) انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليدرس في جامعة شيكاغو مادتي الميثولوجيا وتاريخ الأديان، وقد استمر في هذا العمل حتى وفاته عام (١٩٨٦).

وكان من نتاج العلامة (إلياد) ما ينوف على الأربعين كتاباً في تاريخ وعلوم الأديان وعن أصول الميثولوجيا عند جميع الأمم والشعوب. ومن أشهر مؤلفاته التي خلفها : (دراسة في تاريخ الأديان)، (أسطورة العود الأبدي)، (صور ورموز)، (ملامح من الأسطورة)، (التنسيب والولادات الصوفية)، (اليوغا خلود وحرية)، (تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية) وهو عبارة عن عدة مجلدات تتناول أهم وأخطر القضايا في كل دين ومذهب.

وبعد هذه المقدمة الموجزة عن العلامة (إلياد)، نستطيع أن ندخل الآن إلى عالمه الفكري الرحيب بكل ثقةٍ واطمئنان كي نتعرف من خلاله على ما يتعلق بمسألة الولاية والخلافة في الرسالة الإسلامية وذلك من خلال وصايا وتعاليم الرسول الكريم ﷺ كما يراها ويعتقدها العلامة (إلياد) نفسه.

وقبل كل شيء، يعتقد (إلياد) أن الرسالة الإسلامية رسالة مبنية حقاً على دور الوحي الإلهي في تبليغ محتوى هذه الرسالة السماوية إلى النبي محمد ﷺ من خلال كتاب مقدس هو القرآن الكريم. يرى (إلياد) أيضاً أن أول شخصين،

ذكر وأنثى، آمنا بالرسالة الإسلامية هما خديجة، زوجة الرسول ﷺ، والإمام علي عليه السلام، ابن عمه[1].

ورب قائل يقول: ولكن هذا شيء متفق عليه عند كل الأدباء والمفكرين والمستشرقين المسيحيين الذي درسوا وبحثوا في التاريخ الإسلامي وفي أعلامه البارزين، فما هو الشيء الجديد الذي جاء به ؟؟!

ولا يسعنا إلا أن نقول لذلك المتسائل: نعم، أنت محق في قولك: إن كل المفكرين المسيحيين المعاصرين يؤمنون بأن الإمام علياً عليه السلام هو أول من آمن بالرسالة السماوية التي جاء بها الرسول المصطفى ﷺ عن الروح الأمين عليه السلام. ولكن ما يفرق المفكرين المسيحيين عموماً حول إيمانهم بهذه الفكرة عن بعض المفكرين المسلمين أنفسهم هو أن أولئك البعض من المفكرين المسلمين يصرون في حديثهم عن مسألة أول الناس إيماناً برسالة محمد المصطفى ﷺ على فكرة أن الإمام علياً عليه السلام كان حقاً أول المؤمنين برسالة محمد ﷺ ولكنه كان أول الناس إيماناً من الصبيان، في حين كان غيره أول الناس إيماناً من الرجال. وهم يريدون بهذا أن ينفوا صفة العقلانية عن إيمان علي عليه السلام، أو بتعبير آخر، يريدون أن يظهروا للقارئ أن الإمام علياً عليه السلام كان صبياً صغيراً مدفوعاً بعاطفته وبروحه العشائرية للإيمان بما يقول به ابن عمه محمد ﷺ إيمان الإنسان العاطفي الذي لم يثن أوانه ليعمل وفق ما يمليه عليه عقله ومنطقه.

هذا هو حال بعض المفكرين المسلمين في حديثهم عن مسألة الأسبقية في

---

(١) ميرسا إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق - دمشق، ١٩٨٧، ج٣ ص٧٧.

الإيمان برسالة الإسلام السماوية، أما حال المفكرين المسيحيين المعاصرين فهو - كما أوضحنا سابقاً- قائم على أن الإمام علياً عليه السلام هو المؤمن الحقيقي الأول برسالة محمد صلى الله عليه وآله وذلك لأنه كان يتعبد معه صلى الله عليه وآله فترة ليست بالقصيرة قبل إعلان أمر الرسالة على الملأ.

وسواء كان الحديث الآن عن آراء ووجهات نظر العلامة (إلياد) أم عن آراء غيره من المفكرين المسيحيين المعاصرين بشأن خلافة علي عليه السلام، فالأمر واحد. نعم، الأمر واحد عندما يربطون حادثتي إيمان علي عليه السلام وبيعته الأولى المعروفة باسم بيعة الدار والتي أسفرت عن تعيينه أخاً للرسول صلى الله عليه وآله وولياً ووصياً وخليفة له على كل المسلمين في المستقبل مع النتائج المستقبلية اللاحقة التي من شأنها أن تزيد التأكيد واليقين على أن الرسول الحكيم صلى الله عليه وآله قد أشار، بالفعل، في أكثر من موضع وموقفٍ على أن الإمام علياً عليه السلام هو الشخص الجدير بحمل أعباء الرسالة ومسؤولياتها من بعده.

ويرى العديد منهم أيضاً أن تلك العلاقة الروحية بين الرسول صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام والمبنية على أساس الاستخلاف والولاية، إنما هي علاقة عميقة ذات قيمة دينية عظيمة لا يستطيع أحد أن يدرك قيمتها الحقيقية ما لم يعرف أيضاً حقيقة العلاقة القائمة بين الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله والإمام المرتضى عليه السلام من جهة وبين السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام (الابنة- والزوجة) من جهة ثانية، إنها فاطمة (أم أبيها) التي تلعب دور الوسيط الجامع لأنوار الرسالة والإمامة.

ويتحدث العلامة (إلياد) بصدقٍ وصراحة عن إيثار الرسول محمد صلى الله عليه وآله لابنته البتول فاطمة الزهراء عليها السلام ولولديها الحسن والحسين عليهما السلام، ويتحدث

أيضاً، بنفس الوقت، عن موقع الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام بالنسبة لكل المؤمنين، إذ إن موقعه موقع الوسيط بين التعاليم الإلهية الشاملة وبين أولئك المؤمنين، فهو خليفة الرسول صلى الله عليه وآله، يكمل عمله ويستأنف مهامه ومسؤولياته. وقد علق (إلياد) على هذه النظرة الإسلامية الشيعية لمفهوم الإمام بقوله: «وهذا المفهوم جريء وأصلي، لأنه يترك مستقبل التجربة الدينية مفتوحاً»[1].

وبالطبع، فإن هذا الكلام عن مكانة الإمام ومنزلتها- بالنسبة للعلامة (إلياد)- لا ينطبق على الإمام علي عليه السلام فحسب، وإنما ينطبق أيضاً على كل الأئمة من نسله ونسل فاطمة الزهراء عليها السلام بنت الرسول محمد صلى الله عليه وآله، صاحب الرسالة وسيدها.

ولذلك، فإن هذا الكلام عن موقع الإمامة عند العلامة (إلياد) ووصفه للنظرة الإسلامية الشيعية المتعلقة بالإمام بأنها نظرة جريئة وأصلية، فالمقصود منها أنها نظرة تخالف الإسلام التقليدي الجاف وتتجاوزه إلى حالة السبر العميق لمفهوم الإمامة بحيث تعطينا صورة واضحة ومقنعة عن حقيقة أن الإمامة عبارة عن مفهوم (أصيل) في الرسالة الإسلامية لدرجة أنه لا يمكن تجاوزه أو تجاهله. ولا ريب في أن هذا الكلام الدقيق من العلامة (إلياد) يذكرنا بقول المفكر الفرنسي المعاصر (جان موريون) عندما يتحدث عن أفكار المستشرق (لويس ماسينيون) حول دور فاطمة الزهراء (عليها السلام) في ربط وتأكيد عمق الصلة بين مفهومي النبوة والإمامة من خلال ذريتها المقدسة الجامعة لنوريهما.

وقد عبر المفكر (موريون) عن ذلك بقوله في كتابه (لويس ماسينيون) الذي

---

(١) نفس المصدر السابق: ج٣ ص١٣٤.

يستعرض من خلاله أفكار هذا المستشرق الشهير: «لقد خص ماسينيون فاطمة بمكانة بارزة في أعماله، وأبرزها في أربعة من بحوثه... لقد لقبت فاطمة تحبباً بأم أبيها، وهذا يدل على مدى حب الرسول لها، فهي التي سيستمر توارث الرسالة الإسلامية عبرها حتى يوم الدين.. فهي الرابطة الجسدية الوحيدة بين أبيها وزوجها وأبنائه»(١).

وهذا بالضبط ما أراد العلامة (إلياد) قوله أيضاً عند كلامه عن أصالة فكرة الإمامة العامة في الرسالة الإسلامية. وبالطبع فإن العلامة (إلياد) لم يتوقف عند طرح هذه الفكرة والتعليق عليها بإيمانه بها كفكرةٍ جريئة وأصيلة في الإسلام، بل توصل من خلالها أيضاً إلى نتيجة هامة جداً تتعلق بحقيقة استخلاف الرسول محمد صلى الله عليه وآله لابن عمه وزوج ابنته (أم أبيها)، الإمام علي عليه السلام.

ويمكننا القول عن تلك النتيجة الهامة التي توصل إليها (ميرسيا إلياد) بعد عناء طويل من الدراسات والتحليلات العميقة التي قام بها عن الكثير من المفاهيم الإسلامية والحوادث التاريخية المتعلقة بمسيرة رسالة الإسلام: إنه، وبكل جرأةٍ، أطلق حكمه الأخير- وهو الباحث المتمرس والخبير المستحق للقب (علامة) عن جدارة- قائلاً ومؤكداً أن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله قد اختار فعلاً الإمام علياً عليه السلام وصياً وخليفة له على كل المسلمين. فالإمام علي عليه السلام هو زوج ابنته فاطمة، أم الأئمة، وهي بطبيعة الحال والدة حفيديه اللذين كانا حيين في حياته، الحسن والحسين، وهو (أي علي) الأكثر قرباً منه والمؤهل أن يكون خليفته، ولذلك فمن المرجح تماماً -كما يقول العلامة (إلياد)- «أن يكون محمد

(١) جان موريون: لويس ماسينيون، مصدر سابق، ص٨٠-٨١.

قد اختار علياً كخليفةٍ»[١].

هذا هو الحكم الأخير للعلامة (إلياد) والذي يؤيد من خلاله ما جاء به معظم المفكرين والباحثين من المسيحيين المعاصرين حول هذه النقطة الحساسة والمفصلية في تاريخ الحركة الفكرية الإسلامية نظرياً وعملياً، وأثر هذه المسألة الهامة على المجريات والأحداث المستقبلية للمسلمين أنفسهم وللرسالة الإسلامية ذاتها.

وفي نهاية المطاف نقول: لئن كان هناك عدد من المستشرقين أو الأدباء الغربيين الذين هاجموا الإسلام ورسالته، وركزوا هجومهم على محمد ﷺ وعلى خليفته الشرعي علي عليه السلام، كما هو الحال عند الشاعر الإيطالي (دانتي) الذي ذكرناه في بداية هذا الفصل كمثالٍ ونموذج لأولئك المتحاملين على الإسلام وعلى رموزه الحقيقية، فإن هناك العديد من المفكرين والأدباء والباحثين المسيحيين الذي دافعوا عن الإسلام وعن رسالته الإنسانية التي حرص محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام على تبليغها بصدقٍ وأمانةٍ على أكمل وجه.

ونقول أيضاً، وهو شيء جدير بالقول: إن المفكر المسيحي الراحل (إدوارد سعيد) هو أحد أولئك المفكرين المسيحيين الذين وقفوا في وجه كل من يقول بعدم أصالة الرسالة الإسلامية وعدم إنسانيتها، وهو أيضاً واحد من الذين رفضوا الموقف الذي تبناه (دانتي) رفضاً قاطعاً، بل إنه عاب على (دانتي) هجومه غير المنطقي وغير المبرر على محمد ﷺ وعلى الإمام علي عليه السلام[٢].

---

(١) ميرسيا إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج٣ ص٩٠.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمه إلى العربية: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، ط١/١٩٨١، ص٩٧.

ولا يسعنا الآن إلا أن نقول هنا إن الإسلام الذي بدأ غريباً، فلم يستقبله ويحتضنه أحد مثلما فعل الإمام علي عليه السلام، وهو أول معانق له، قد عاد غريباً حقاً كما بدأ وذلك عندما ابتعد المسلمون وأداروا ظهورهم لوصايا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في ما يتعلق بولاية علي عليه السلام وخلافته التي هي تاج الإسلام وخاتمته مثلما أن الإسلام ذاته هو تاج الرسالات السماوية السابقة وخاتمتها.

ولئن يحاول اليوم بعض المفكرين (المسلمين) تغييب الحقائق وتهميشها، فإن هناك الكثير من الأقلام المسيحية النظيفة التي تأبى أن تنطق إلا بالحق، وترفض أن تبوح إلا بالصدق ولو كره المنافقون.

ماذا خسرت الإنسانية برحيل الإمام علي عليه السلام؟!

ها قد وصلنا إلى نهاية رحلتنا الشيّقة في محاولة متواضعة لرسم صورة متكاملة لشخصية الإمام علي عليه السلام كما جاء وصفها في الفكر المسيحي المعاصر.

وهذه هي محطتنا الأخيرة في كتابنا هذا والتي جعلنا مطلع عنوانها (ماذا خسرت الإنسانية..) ولم نجعله (ماذا خسر المسلمون..) وذلك لأن المسيحيين أنفسهم يرفضون أن يكون الإمام علي عليه السلام ملكاً للمسلمين فقط، بل يعتبرون إن الإمام علياً عليه السلام ملك عام وإرث إنساني عظيم خلفته رحمة وحكمة السماء لعموم أهل الأرض، وبالتالي فإن فقدانه يعني خسارة الإنسانية لا خسارة المسلمين فحسب.

وعندما نقول: إن المفكرين والأدباء المسيحيين الكبار يعتبرون أن الإمام علياً عليه السلام إرث إنساني عظيم وكنز عميم، فعلينا أن نعرف أن تلك العظمة الخالدة ليست مجرد شعارات وأقوال نطلقها على من نشاء ومن نهوى. فالعظمة، كما يعرفها الناس، يمكن للإنسان أن يحصل عليها بعد صعوبات كثيرة وعقبات مريرة وبعد عمليات مخاض طويلة يمكن أن تتكلل بالولادة السليمة والنجاح المتألق وبالحصول على تاج العظمة التي ولدتها مآثر صاحبها

الجليلة أو أعماله المتميزة أو إنجازاته المتفردة التي لم يسبقه أحد إليها.

والعظمة، في حقيقتها أيضاً، لوحة جدارية جميلة معلقة على صدر الزمان. فهي تحفر اسم الفنان الذي رسمها ولونها وأبدع خطوطها وحركاتها وأحسن تنظيمها في سجل الأبد وفي طيات الخواطر والأفئدة المتعطشة للكمال والخلود.

وعلينا ألا ننسى ما للعظمة من نصيب وحصة، من الألم والمرارة، فالعظمة، في بعض وجوهها، بنت الألم والمعاناة، ولهذا السبب، قلما نرى عظمة حقيقية إلا ويكون وراءها فيض من الآلام والأحزان، وهموم وتطول وتمتد بمقدار عظمة ذلك المرء العظيم.

أليست الهموم على قدر الهمم؟!!

أليست آلام (سقراط) وأحزانه على قدر مكانته؟!!

ألم تكن هموم الزعيم الهندي (غاندي) والنهاية المأساوية التي انتهى إليها أمره في حالة تتناسب مع حجم طموحاته وآماله؟

وهل ننسى حجم الآلام والعذاب الذي لقيه الأنبياء والرسل عليهم السلام على يد الطواغيت والجبابرة الذين أرادوا إطفاء نور الله بأفواههم وبسياطهم اللاهبة؟!!

هل ننسى سيدنا إبراهيم عليه السلام، خليل الله، وما لاقاه من أجل رسالته، وهل ننسى أحزان أيوب وهموم يعقوب ومعاناة عيسى وعذاب محمد (عليهم السلام أجمعين)؟!

ألم يدفع الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ضريبة رسالته ومبادئه العظيمة عناء ودماء؟!

ألم يقف حبيب الله صلى الله عليه وآله وقد خضب قومه وجهه الكريم بالدم، وهو يقول: ما أفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدماء!!

ألم يقل أيضاً صلى الله عليه وآله: وما أوذي نبي قط في قومه مثلما أوذيت؟!!

ألم يمثل الإمام علي عليه السلام، أمير المؤمنين عليه السلام، العظمة ذاتها، تلك العظمة الناهضة والمندفعة من تحت رماد الأحزان والآلام؟

وهل مر يوم على الإمام علي عليه السلام دون مصيبة في النهار أو هم في الليل؟

وهل صقل تلك العظمة العلوية إلا الإيمان العميق بالله والصبر الطويل على تلك الآلام والمصائب والأحزان؟!

لقد استطاع الإمام علي عليه السلام بإيمانه وصبره، وبروحه وبفكره وبما حباه الله به من خصال وخصائص لم يعطها لغيره، أن يحول المعاناة والآلام إلى مشاريع حضارية وإلى قيم وآمال. واستطاع أيضاً أن يحول ما أراده (الآخرون) له من هموم ونقم إلى مبادئ سامية نبيلة وإلى تعاليم خالدة تقود من اتبعها إلى الفوز والنعم.

ومن هنا كانت العظمة عند الإمام علي عليه السلام هي العظمة التي تتجلى في حياة البشر أقوالاً وأفكاراً وأفعالاً. إنها القدرة على معرفة الذات واستكشاف عالم (الأنا) الذي تحكمه النفس وتحركه الروح. إن العظمة عند أمير المؤمنين علي عليه السلام هي أن تقهر نفسك في الوقت الذي تحاول فيه نفسك أن تقهرك. إنها إخراج القلب من الحياة قبل أن يدعو الموت أجسادنا للخروج من دائرة الحياة. فالعظمة الحقيقية هي أن تكون عبداً. نعم، أن تكون عبداً لا حراً، ولكن لتكن عبوديتك خالصة لمن خلقك حراً من أجل أن تبقى حراً دائماً ودون أن تتحول

إلى عبدٍ ذليل أمام مخلوق مثلك، بل لتكن عبداً لمن في عبوديتك له كمال خلاصك وتمام حريتك.

فالعظمة الحقيقة عند الإمام علي عليه السلام هي أن تثور على الظلم من أجل العدل، أن تصرخ في وجه الباطل وتشهر سيفك عليه من أجل كلمة الحق ورفع رايته، أن تمنع متكبراً متجبراً من أن يحرم مظلوماً ضعيفاً شربة ماء في فصل الشتاء. فالعظمة عنده عليه السلام أن تثور على كل نقيصة في الأرض من أجل كل فضيلة ينادي بها كتاب ورسول السماء.

وإذا كانت هذه هي الخطوط العريضة والعامة لمعاني العظمة والرفعة عن الإمام علي عليه السلام في حياته، فما هي، إذاً، الخسارة التي حاقت بالإنسانية نتيجة استشهاد الإمام علي عليه السلام الذي كان يجسد كل معاني العظمة في حياته؟!!!

يرى المفكر المسيحي عموماً أن استشهاد علي عليه السلام ليس نهاية العظمة عنده، بل إن استشهاده هو الاستمرار الحقيقي لتلك العظمة وذلك لأن استشهاد العظيم لا يعني نهاية الحياة، بل هو وجه جديد من وجوه الحياة واستمراريتها.

فالمفكر والأديب المسيحي (نصري سلهب) يرى أن الإمام علياً عليه السلام كان دائماً وأبداً أقوى من الزمن وأكثر امتداداً، بعظمته، منه.

وهنا يتساءل الأستاذ (سلهب) مستحضراً صورة الإمام علي عليه السلام أمامه، قائلاً:

«فتشت في الدنيا عن سر خلودك فلم أجد عند أهل الأرض جواباً.

ألعلك من أبناء السماء. أم لعل أهل الأرض ما استحقوا أن تكون عليهم أميراً، فسلخك الله عن قلوبهم فأدماها، ولا تزال، إلى اليوم، تتضور شوقاً

إليك وحنينا؟!».

وبعد هذا التساؤل ومحاولة البحث عن جواب مقنع وشافٍ، يعود ليتحدث وكأنه أمسك ببعض ما كان يبحث عنه، فيقول مصوراً بعضاً مما خسرته الإنسانية برحيله عن هذا العالم مع بقاء عظمته وسر خلوده فيه:

«وفي بيت الله قتلوك، وأنت راكع تصلي، وباسمه تسبح وتستغفر، فمضيت من أجلهم تصلي وتستغفر، وإلى ربك عدت راضياً مرضياً، وتركت أهل الأرض يئنون ويتحسرون، لا لأنهم خسروك فحسب، بل لأنهم أدركوا أن ينبوع الروح شحّ بموتك، وكحاد يجفّ، وإنهم إلى أقوالك وأفعالك سيعطشون، وهيهات أن يجدوا ينبوعاً كروحك منه يرتوون»[1].

حقاً، يا أمير المؤمنين، إن الذين عادوك وعاندوك ووقفوا في وجهك لينالوا من عظمتك حياً وشهيداً، كانوا صغاراً. والمشكلة دائماً، يا سيدي ومولاي، أن الصغار لا يغفرون للكبار أن يكونوا كباراً.

نعم، إن الإمام علياً عليه السلام قد رحل عن أهل الأرض وتركهم يئنون ويتحسرون على فقدان ينبوع الروح، وعلى ضياع كنز الوجود ضياعاً لا يتم معه تعويض ولا يعوض عنه بديل.

وهنا يبين لنا الأستاذ (سلهب) كيف يمكننا أن نفهم عمق المأساة الإنسانية والتراجيديا البشرية العامة الناتجة عن فقدان الإمام علي عليه السلام ورحيله قبل أوانه ومحاولة إنهاء دوره الأساسي على مسرح الحياة من خلال محاربته ومعاداته ومن

---

(١) نصري سلهب: في خطى علي، ص٢٨.

ثم اغتياله غدراً في أحد بيوت الله وهو في حالة سجود لله، في حالة محو لذاته أمام الوجود الإلهي الكلي المطلق.

فالمأساة الإنسانية الحقيقية يمكن فهمها من خلال الآثار التي خلفتها يد التشويه المتعمد الذي لحق بوجه الرسالة السماوية الأخيرة وبجوهرها بعد رحيل الإمام علي عليه السلام الذي ما برح قبل رحيله يقاتل على تأويل كلمات الله الخالدة مثلما قاتل أيضاً على تنزيلها بين يدي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

ومن هنا تتفتق جراح الإنسانية المدماة بالظلم والقهر والعنف على يدي من لعبوا بالكلمات الإلهية وحرفوا التعاليم والمبادئ السماوية وأعادوا الحكم حكم جاهلية.

لقد أراد أمير المؤمنين علي عليه السلام شيئاً ولكن القوم أرادوا أشياء أخرى. لقد أراد الإمام علي عليه السلام أن يرفعهم ويسمو بهم إلى السماء، لكنهم أرادوا أن يبقوا مقيدين إلى الأرض بسلاسل من الأطماع وبقيودٍ من نوازع الشر والشهوات يتحركون وفق قوانين الغاب لا وفق مبادئ وآداب السماء. ولذلك، كان أعداء علي عليه السلام هم من يملكون متاع الأرض، أما علي عليه السلام فكان هو من يملك مفاتيح السماء.

أما الآن، فدعونا نصغي إلى ما يقوله الأستاذ الأديب (سلهب) حول ما يمكن أن يمثله الإمام علي عليه السلام في حياة كل مسيحي يؤمن بمبادئ علي عليه السلام وبنهجه في الحياة. يقول الأستاذ (سلهب) مفتتحاً كلامه عن طبيعة حياة علي عليه السلام الممتزجة بعبق الخلود الإلهي وبأريج الكلام السماوي الندي:

«إن امرءاً يعيش كتاب الله قولاً وفعلاً، فلا يغيب عن باله وخاطره آية من

آياته ولا كلمة من كلماته، يذكرها فرادى وزمراً، يسبر أعماقها، يدرك أبعادها، يستوعب معانيها، يحفظها ويرددها في قلبه، حتى غدت غذاءً روحياً له، بل زاداً لحياته والمعاد، ودستوراً يستوحي منه أحكامه ومواقفه، إن امرءاً هذا شأنه لا يمكن إلا أن يكون تعبيراً حياً للحق والخير، للشجاعة والمروءة، للتسامح والمحبة، للرفق والدعة، للزهد والطهر، للبطولة الحقة، لجميع القيم الروحية والأخلاقية والفكرية والعملية التي أنزلها الله كتاباً مبيناً يهدي العالمين»[1].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام كما يراه الأستاذ (سلهب)، هو خلاصة القرآن، وهو مجمع الكلمات الإلهية الخالدة التي تدعو لكل فضيلة روحية وأخلاقية وفكري من شأنها أن تسمو بالإنسانية جمعاء، وليس بالمسلمين وحدهم كما يظن ويعتقد البعض. فالإمام علي عليه السلام هو صوت القرآن وروحه، وبما أن القرآن قد نزل للعالمين أجمعين، فإن هذا يعني أن الإمام علياً عليه السلام قد جاء أيضاً، كالقرآن لكل العالمين.

وإذا أردنا أن نقف قليلاً مع هذا الكلام، نقرأه ونحلله مرة بعد مرة، ألن تكون النتيجة المنطقية، عندئذٍ، قائمة على فكرة لطيفة وهامة، ويمكن أن تلخص هذه الفكرة بالقول: إن الإنسانية التي خسرت علياً عليه السلام هي الإنسانية التي خسرت القرآن.

لن نجبر أبداً، لا أنا ولا الأستاذ (سلهب)، أي قارئ على اعتناق هذه النتيجة التي تبدو في أبسط مقوماتها ومقدماتها منطقية وعقلانية، وبعيدة عن

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٦١.

روح العاطفة والانفعال.

وعلى كل حال، فإن الأستاذ (سلهب) ابن الديانة المسيحية والذي قرأ القرآن ودرسه جملةً وتفصيلاً، رأى أن سماحة علي عليه السلام ورحمته هي وليدة الرحمة القرآنية التي ترسم في مقدمة كل سورة قرآنية شريفة بالقول الخالد: (بسم الله الرحمن الرحيم) والتي تدل عل عمق الرحمة الإلهية التي تتسع لكل الوجود. فعلي عليه السلام هو إمام الرحمة والمغفرة. إنه الإمام الذي أوصى ابنه الحسن عليه السلام وهو على فراش الموت، بعد أن طعنه ابن ملجم تلك الطعنة القاتلة، أوصى ابنه الحسن عليه السلام بألا يمثل بقاتله وألا يغل له يداً وألا يقيد له رجلاً، بل على العكس، فقد أوصاه بأن يطعم القاتل مما يأكل وأن يسقيه مما يشرب!!.

وعن أحداث ذلك اليوم المشؤوم الذي تم فيه اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام وعن تبعات وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام بشأن قاتله، يقول الأستاذ (سلهب):

«ولا شك في أن علياً، لو نجا، لكان عفا عن ابن ملجم، وتركه حراً طليقاً يحدث المؤمنين عن خلق أمير المؤمنين»[1]، يحدثهم عن تلك الأخلاق الرسالية السامية كي يهتدوا بهديه ويقتدوا بمبلغ رحمته التي وسعت كل شي حتى طعنة قاتله.

ولذلك، علينا ألا نستغرب عشق هذا المفكر المسيحي (نصري سلهب)

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٢٣٦.

للإمام علي عليه السلام، للإمام الشهيد أبي الأئمة الشهداء عليه السلام. فعشقه له ينبع من كل القيم التي وجدها فيه حياً وشهيداً.

لقد خلقه الله بحكمته «ليكون الشهيد، أبا الشهداء، غاسلي الأرض من أرجاسها بدمائهم، فاتحين في السماء أبواباً ليدخلها المؤمنون أفواجاً»[1].

وهنا أريد ان أقف مع عبارة كان يرددها دائماً الشيخ والمفكر (جمال الدين الأفغاني) إنها قوله: «المعاشرة حجاب»، وهي عبارة عن إشارة منه إلى أن كل عظيم من العظماء لا يقدر في عصره حق قدره، ولا يعرف قيمته الحقيقية في زمانه إلا القلة القليلة، أما المعرفة الحقيقية لتلك القيمة فلن تولد إلا مع أبناء الأجيال اللاحقة.

وهذا الكلام، بلا ريب، لا يخلو من نسبة عالية من الصحة والدقة. فالتاريخ يحدثنا عن الكثير من العظماء الذين رحلوا عن أوطانهم وأقوامهم إلى أمكنة أخرى وأقوام آخرين لأنهم كانوا يشعرون بالغربة وبفقدان القيمة الحقيقية بين أقرب الناس إليهم، ولكن سرعان ما اكتشف أقوامهم، ذوو العقول منهم، مبلغ الخسارة وفداحتها بفقدانها هذا البطل أو ذاك الحكيم أو العالم، أو حتى الشاعر والأديب أو الفنان الذي ارتحل عنهم نادباً حظه السيئ لوجوده بين قوم لا يعرفون مقداره ومكانته ولا يقيمون وزناً لأفكاره ومآثره.

فالتاريخ علمنا أن هذه الفكرة ليست وليدة اليوم، بل هي فكرة قديمة جداً وهي فكرة ثابتة عند كل الأقوام والشعوب، حتى إن العالم الإغريقي القديم

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٨٢.

(بطليموس) قال مرة: «ما مات من أحيا علماً، ولا افتقر من ملك فهماً، والعلماء غرباء لكثرة الجهال حولهم». وإذا كان التاريخ قد علمنا هذا، فإن الحياة علمتنا أيضاً، وبالرغم من كل ذلك، أن مقام العظيم في قومه، ولو بعد رحيله، كمقام الحرية أو الهواء والماء والضوء. والمرء لن يعرف قيمة الحرية حتى يفقدها، ولن يعرف ذلك الإنسان قيمة الهواء إلا وهو يغرق أو يختنق، ولن يعرف أيضاً قيمة الماء إلا وهو تائه ضائع ساعة الهاجرة بين كثبان الرمال ووحشة الصحراء.

هكذا يعرف الناس عظماءهم وهكذا يشتاقونهم، ولكن للأسف، ففي معظم الأحيان يكون الشوق إليهم والمعرفة بهم بعد فوات الأوان.

ألم يؤكد الأديب الفيلسوف (جبران خليل جبران) هذه الحقيقة عندما ربط الكلام عنها بالكلام عن الإمام علي عليه السلام وعن عدم إعطائه حقوقه ومعرفة قدره في موطنه وبين قومه؟

ألم يحدثنا (جبران)، الأديب شكلاً وظاهراً والفيلسوف فكراً ومضموناً، أن علياً عليه السلام كان عند الفرس بمقام الجوهرة المتلألئة التي ليس لها مثيل أو شبيه، في حين كان عند بني قومه بمثابة حجرة عثرة تقف جاثمة فوق صدورهم، تمنعهم من العودة إلى عالم البداوة وأحكام الجاهلية؟

ألم يعتبر (جبران) أن الصراع بين علي عليه السلام ومناوئيه هو صراع بين الحق والباطل، بين الإنسانية والهمجية، بين الحضارة والبداوة المشبعة بروح الجاهلية، أليس (جبران) هو القائل عن هذا الصراع بين علي عليه السلام ومناوئيه:

«من خاصمه كان من أبناء الجاهلية»؟!!![1]

ألم يبايع الأديب والشاعر المسيحي (خليل فرحات) الإمام علياً عليه السلام إماماً وسيداً لأنه رأى فيه كل عناوين الرقي والسمو والحضارة؟ الم يقل مخاطباً إياه عليه السلام:

لأجلِكَ واكبتُ الحضارةَ شاعراً　　وأنزلتُ أحمالَ البداوةِ عن ظهري
كأني على الدنيا، لأنك ملهمي　　أجرُّ ذيولَ الفَخْرِ كالماردِ النَّمر
وما كنتَ إلاّ السيِّدَ الضابطَ الدُّنى　　عجيباً غريباً مفرداً وَبِلا نِظْرِ[2]

هذا هو الإمام علي عليه السلام وهذا شيء مما خسرته الإنسانية برحيل أمير المؤمنين عليه السلام وفق المنظور الجبراني لشخصية الإمام علي عليه السلام، ووفق معايير الفكر وقيم الروح عند الأديب الشاعر خليل فرحات. ولكن لو أردنا أن نتعمق أكثر في المنظور الجبراني للتراجيديا الأليمة التي حاقت بالإنسانية إثر اغتيال الإمام علي عليه السلام وإراقة دمه الطاهر المطهر، فبإمكاننا أن نقول بشكل مباشر: إن التحليلات الأدبية التي قام بها النقاد والباحثون حول آثار (جبران) الفكرية تؤكد كلها على أن (جبران) كان يؤمن إيماناً مطلقاً لا ريب فيه أن الإمام علي عليه السلام لم يكن أقل أهمية من أي نبي أو رسول، بل إن تلك الدراسات والتحليلات كانت ترى بمجملها أن استشهاد علي عليه السلام ورحيله المبكر قبل أوانه قد أدى إلى انكسار جناحي الروح في كل إنسان يرنو بعينيه إلى عالم السماء بعد إتمام وإكمال دوره الفاعل والبناء في عملية الاستخلاف الإلهي والحضاري

(١) روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص١٠.

(٢) خليل فرحات: في محراب علي، ص١٨.

الرفيع على امتداد وجوده الإنساني في هذه الحياة.

فالإمام علي عليه السلام بالنسبة لجبران، كما يرى المحللون والدارسون لأقوال (جبران) في علي عليه السلام هو«نبي شأنه شأن جميع الأنبياء الذين يستشعرون الغربة بين الأهل، والوحدة بين الناس، والوحشة في الوطن، إذ يأتون إلى قوم ليس بقومهم في زمن ليس بزمنهم، ويحيون بروحية أنى لأولئك الناس أن يدركوها فيوالوا بإدراكهم هذا، وينتصروا لمن يحيا من أجلهم، وفي سبيلهم يموت شهيداً»[1].

وهنا علينا أن نعلم أن رؤية (جبران) الفلسفية لما خسرته الإنسانية باستشهاد علي عليه السلام وتطهيره الأرض من الرجس والدنس بدمائه الزكية، هي نظرة عميقة تتصل بشكل مباشر مع قضية دماء ابنه الإمام الحسين عليه السلام شهيد كربلاء المقدسة.

فدم علي عليه السلام المهدور يمثل الكوثر المهدور، ولكن هذا الكوثر الذي يصفي النفوس من أدرانها والأرواح من أهوائها، هو كوثر ممتد في جريانه على طول خط الولاية والإمامة. فالرؤية الجبرانية ترفض أن تفصل دماء الإمام علي عليه السلام المهدورة في مسجد الكوفة عن دماء الإمام الحسين عليه السلام المسفوحة فوق رمال كربلاء. ولذلك، فإن (جبران) الذي تعمق في دراسة الفكر الإسلامي مثلما تعمق في الدراسة وتحليل الفكر المسيحي الكنسي، رأى أن عذاب وآلام السيد المسيح عليه السلام عبارة عن حلقة من حلقات معاناة وهموم أخيه الرسول المصطفى عليه السلام وهذه المعاناة والآلام بدورها جزء لا يتجزأ من الوحدة الكلية

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٢٦.

لدائرة الشهادة الدمائية التي ساهم الإمام علي عليه السلام برسمها في محاولة منه لإفهام العالم أن دماء العظماء الذين أرسلتهم السماء هي الزيت النوراني لتلك الزيتونة المباركة التي تأبى أن ترسل ضوءها لجهة واحدة فقط، وإنما تضيء بنورها لأهل المشرق ولأهل المغرب على حدٍّ سواء.

ومن هذا الخط الدمائي المرسوم بألوان الشهادة وبأطياف عظمة الشهداء الذين اختارتهم إرادة السماء كي يكونوا رموزاً أبدية لكل الأجيال المتعاقبة، فقد رأى (جبران) أن دماء الإمام الحسين عليه السلام ما هي في حقيقتها إلا الاستمرار الطبيعي لجريان الكوثر الدامي الذي يسطر مجد الإنسانية ويرفعها من طور التيه والضياع إلى طور الوجود وإثبات الهوية وتأكيد الانتماء. ولذلك، فإن (جبران) الفيلسوف قد أعلن هذه الحقيقة مؤكداً عليها بقوله المأثور المؤثر: «لم أجد إنساناً كالحسين سطر مجد البشرية بدمائه»[(١)].

إذاً فجبران الأديب لم يكن مجرد أديب يكتب النثر وينظم الشعر كغيره من الأدباء والشعراء، بل كان الأدب عنده عبارة عن رداء شفاف جذاب قد حمل تحته الكثير من الأفكار الفلسفية والقيم الفكرية الثمينة، وربما هذا ما دفع الأديب الأمريكي (E.s.hayman) إلى القول بضرورة وضع (جبران خليل جبران) ضمن قائمة الفلاسفة الذي ساهموا في إغناء تاريخ الفلسفة

---

(١) راجع على سبيل المثال:

أ) مجلة الموسم: العدد ٣، المجلد ٤، المجلة تصدر في هولندا، صدر العدد عام ١٩٩٢، ص٣٥٤.

ب) راجي أنور هيفا، مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام: ص١٣٠.

ج) راجي أنور هيفا: النزعة الإسلامية في فلسفة جبران، مجلة النور، العدد ١١٨، آذار ٢٠٠١، لندن، ص٧٥.

الأمريكية[١]. إذ من المعروف تماماً أن (جبران) قد عاش ردحاً من الزمن في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد ساهم هناك في إنشاء الرابطة القلمية إلى جانب ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وكلودفيس مقصود وغيرهم.

ولذلك نقول: إن الفلسفة الجبرانية التي أسيء فهمها من قبل النظام الكنسي المتزمت إلى أن وصل سوء الفهم إلى درجة القطيعة التامة مع جبران وإلى المقاطعة الكاملة مع مؤلفاته وأفكاره الأدبية عموماً والفلسفية خصوصاً، هي فلسفة تحترم إلى درجة كبيرة الفلسفة الإسلامية عموماً والأيديولوجيا الإسلامية الشيعية خصوصاً، تلك الأيديولوجيا التي تأثر بها (جبران) بشكل كبير في موطنه لبنان قبل رحيله إلى بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية. وما العبارات التي قالها (جبران) في الإمام علي عليه السلام وفي ابنه الإمام الحسين عليه السلام، هذا بالإضافة إلى أفكاره الفلسفية الأخرى التي تحترم الفكر العرفاني والأيديولوجيا الشيعية كما هو الحال في (إرم ذات العماد)، إلا دلالة واضحة على أن تلك الأقوال والأفكار هي في حقيقتها تمجيد وتقديس لرمز الجلال ولأعلام القداسة الذين قدموا جلائل المآثر للإنسانية في حياتهم، وكذلك في استشهادهم من أجل إنزال الصليب الثقيل عن كاهل الإنسان الباحث عن الحرية والخلاص.

وعلى الرغم من أن الأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) يتفق مع (جبران) في نقاط عديدة حول هذه المسائل، إلا أنه يرى أن الإمام علياً عليه السلام قد

(١)E.S Hyman Dictionary of American Philosophical.Library Newyork 1973.

قدم للإنسانية عموماً دروساً لا تنسى ولا يمكن للزمان أن يمحوها وإن علت أمواجه أو اشتدت عواصفه، وأول هذه الدروس التي علمها الإمام المرتضى عليه السلام للإنسانية هي إن الإنسان لا يكون إنساناً حقاً ما لم يأنس بالحق، فإذا أنس به بعد أن عرفه، عليه عندئذٍ أن يكون مستعداً للتماهي معه حتى يكون قادراً على نقله من حالة التجريد إلى حالة التجسيد، ولا هم بعد ذلك إن كان الثمن دموعاً ودماءً.

وباختصار شديد، يمكن القول: إن الأستاذ (العزيزي) قد رأى في الإمام علي عليه السلام وجه الحق وصوته الذي أراده الله أن يترجم عملياً على مسرح الحياة في مرحلة عصيبة من مراحل الرسالة الإسلامية، ولكن هذا لا يعني أن المستفيد من ذلك الدرس هم أولئك الذين عاصروا الإمام علياً عليه السلام وشهدوا كيفية ترجمته لمبادئ الحق ولأسس العدل، بل المستفيد الدائم من ذلك هو كل جيل جاء بعد الإمام علي عليه السلام، هذا إذا كان أبناء الجيل يهتمون طبعاً، نذر له علي عليه السلام نفسه.

ولذلك، فالذي خسرته الإنسانية باستشهاد علي عليه السلام هو دواء النفوس وبلسم الروح، فالإمام علي عليه السلام، بالنسبة للأستاذ (العزيزي) جاء في مرحلة حرجة ليداوي أمراض النفوس التي لم تلتزم بوصايا وقيم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ولم تقم أي وزن أو اعتبار لأبسط المبادئ الإسلامية القائمة على احترام الأخوة الإنسانية والروحية.

ولهذا يرى الأستاذ (العزيزي) أن مهمة الإمام علي عليه السلام كانت من أصعب المهام التي يمكن أن يحملها أي راعٍ مسؤول عن رعية أو عن أمة كاملة. لقد جاء

علي عليه السلام وهو يعلم أن الوازع الديني والضمير الاجتماعي قد بدأ يخف صوتهما في النفوس، لقد جاء علي عليه السلام بعد أن بدأت الأرواح، التي تاهت بسبب الهوة العظيمة بين تعاليم ووصايا الرسول صلى الله عليه وآله من جهة وبين ما حدث في الأمة الإسلامية بعد رحيله مباشرة من جهة أخرى، تفقد قوة معنوياتها وحرارة إيمانها، وبدأت تطلب الدنيا على حساب الآخرة، ووجوه الباطل العديدة على حساب وجه الحق الواحد. ومن هنا كان لا بد للإمام علي عليه السلام أن يأتي ويرمم ما حدث من دمار في النفوس وفساد في الأرواح وخراب في العقول. ولهذا السبب كان الإمام علي مستعداً لدفع ثمن الإصلاح والعودة بالأمة إلى المبادئ والقيم التي أرادها رسول السماء صلى الله عليه وآله لهم، وهذا ما عبر عنه الأستاذ (العزيزي) بقوله: «كان لا بد للإمام علي بما عرف عنه من استقامة لا تعرف الالتواء، وصراحة لا تعرف المراوغة أن يواجه التحدي بما يعتقد أنه الحق، وليس يهمه بعد ذلك أن يكون دمه الزكي ثمناً لهذا الحق»[1].

وعندما يتحدث الأستاذ (العزيزي) عن استشهاد الإمام علي عليه السلام وعن الأهداف الرفيعة التي استشهد علي عليه السلام من أجلها، فهو لا يقصد بهذا الكلام التعبير عن وجهة نظره الشخصية فحسب، بل هو يمثل بذاك الكلام الشريحة الأوسع من المجتمع المسيحي المستنير روحاً وفكراً. وقد أكد هو على ذلك شخصياً من خلال تأكيده، على أن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام الذي يمثل، بالنسبة للمجتمع المسيحي، الجانب المشرق من الفكر الإسلامي، وهو عليه السلام أيضاً، بالنسبة لهم، الإمام الذي استطاع أن يثبت ذاته ووجوده بينهم كإمام

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، ص٩٠.

وكمثال وقدوة لهم في الفضائل والمناقب وفي كل ميدان من ميادين الحياة. وليس هذا فحسب، بل وكما يقول الأستاذ العزيزي عن علاقة المسيحيين بعلي عليه السلام: «قد فاق الهيام بعلي عند أهل العلم والفن والأدب والخلق الرضي حدود التصوير ولا سيما عند المسيحيين الذين يفهمون من دينهم هذه المفاهيم المتجلية في شخصية أمير المؤمنين»[1].

وغني عن القول، إن هذه العبارات والجمل الصادقة التي سطرها الأديب (العزيزي) عن استشهاد علي عليه السلام هي في الحقيقة بعض مما كتبه الأستاذ (العزيزي) عن مسألة العشق المسيحي لشخصية الإمام علي عليه السلام في سيرة حياته وفي خط استشهاده.

وعلى كل حال، فإن كل فرد مثقف في المجتمع المسيحي، وكل أديب أو باحث أو مفكر من أبناء الديانة المسيحية لا يفصلون في خط الشهادة بين الدم العلوي والدم الحسيني، بل يرون أن هناك وحدة دمائية بينهما في خط الاستشهاد مثلما أن هناك وحدة روحية وفكرية في مسيرة حياتهما ونهجهما فيها.

ولولا خوف الإطالة والخروج عن جوهر بحثنا، لكنا قد أوردنا (العشرات) من الشواهد من كتب الأدباء والمفكرين المسيحيين في الشرق والغرب والتي تؤكد أن أهداف النهج الحسيني جزء لا يتجزأ من أهداف النهج العلوي في رسم خطوط الشهادة الخالدة، حتى إن البعض منهم يرى أن دم علي والحسين عليهما السلام وآلامهما وشدائدهما تشكل مع آلام السيد المسيح عليه السلام الإطار العام للتراجيديا

---

(١) نفس المصدر السابق: ص١٠.

الإنسانية الباحثة عن الحرية والخلاص والعودة إلى مملكة الخلود السماوية بعد تطهير الأرض بدمائهم الزكية من الأرجاس والنقائص.

وعلى أي حال، إن هذا الموضوع الشيق هو نواة لكتاب آخر نوينا الإقدام عليه سائلين الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى إتمامه بالشكل اللائق وأن يتقبله منا قبولاً حسناً.

ولذلك، ومنعاً للتشعب والابتعاد عن جوهر بحثنا، أود العودة إلى موضوعنا الأساسي حول مسألة استشهاد الإمام علي عليه السلام في مسجد الكوفة، وكيف رأى الفكر المسيحي هذه الحادثة المؤلمة وأبعادها المترتبة عليها.

فالفيلسوف والمؤرخ الإنكليزي (توماس كارلايل) الذي درس الإسلام بشكل جيد ووقف على الكثير من الوقائع في التاريخ الإسلامي كجزء من التاريخ العالمي العام، قد رأى في مسألة استشهاد الإمام علي عليه السلام إثر اغتياله غدراً، اغتيالاً عملياً لكل القيم والفضائل والخصال التي تجسدت بشكلها الأكمل في شخصيته المتميزة الفريدة.

غير أن (كارلايل) قد اعتبر أيضاً أن العامل الأهم الذي قاد الإمام عليه السلام إلى تلك النهاية المفجعة هو عدل الإمام علي عليه السلام المطلق، حيث اعتبر الفيلسوف (كارلايل) أن الإمام علياً عليه السلام الذي كان يأمل من كل إنسان أن يكون عادلاً مثله، أو على الأقل عالماً بأبسط قواعد وأسس العدل، فإنما كان يعكس بذلك صفاء نفسه ونقاء روحه التي طبعت على حب العدل وتقديسه. وقد لخص الفيلسوف (كارليل) هذه النظرة بقوله في كتاب (Heroes And Heroworship) والذي ترجم إلى اللغة العربية تحت عنوان (الأبطال) :

«وقد قتل (الإمام علي عليه السلام) بالكوفة غيلةً، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله، وقد قال قبل موته حينما أومر في قاتله: «إن أعش فالأمر إلي وإن أمت فالأمر لكم. فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة، وإن تعفوا أقرب للتقوى»[١].

إذاً، فالإمام علي عليه السلام هو شهيد الحق والعدل، وهو إمام الرحمة الذي فضل العفو على القصاص، والغفران على الانتقام.

وهنا تحديداً أود أن أذكر نقطة هامة برؤية الغرب تجاه الإسلام عموماً، وقد أردت أن أذكرها هنا في هذا الفصل الأخير من كتابي هذا كي تبقى ذات أكثر أكبر في نفوس القراء الكرام، وأقصد بالرؤية الغربية تحديداً الرؤية الاستشراقية.

لقد كتب الكثير من المستشرقين عن الشرق وعن الإسلام كديانة شرقية ولدت في مهد الشرق الساحر والغامض بنفس الوقت. ومعظم أولئك المستشرقين قد ذكروا في كتاباتهم وأبحاثهم الكثير من الأشياء التي تتنافى مع روح الإسلام ومع تعاليم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن البعض منهم قد حاول بشتى الوسائل أن يكيد للإسلام وللمسلمين وذلك من خلال مهاجمته ومحاولة النيل منه ومن كتابه السماوي ومن رسوله المصطفى الكريم صلى الله عليه وآله كما هو الحال عند المستشرق المجري (جولدزيهر) والإنكليزي، (مرجليوث) وحتى المستشرق (هاملتون جب) نفسه الذي أجهد نفسه في قلب الكثير من المفاهيم والأحداث الإسلامية مقابل حفنات من النقود كانت تصله من دولة عربية خليجية تحت عنوان التشجيع على نشر الفكر الإسلامي الأصيل

(١) توماس كارلايل: الأبطال، مصدر سابق، ص٧٦.

من خلال رؤية استشراقية جديدة.

وبالرغم من ذلك، فإن الفكرة التي أريد أن أطرحها هنا هي عدم اتفاقي الكامل مع المفكر والباحث الدكتور (إدوارد سعيد) حول رؤيته الماركسية للاستشراق.

ففي عام (١٩٧٨) صدر في الولايات المتحدة الأمريكية كتاب نقدي هام للمفكر الدكتور (إدوارد سعيد) بعنوان (ORIENTALISM) (الاستشراق)، وقد ترك هذا الكتاب أثراً قوياً على الساحة الفكرية في أمريكا وأوروبا وفي الوطن العربي أيضاً بعد أن تمت ترجمته إلى اللغة العربية[١].

ويرى الدكتور (سعيد) في كتابه المذكور أن «نواة العملية الاستشراقية هي التمييز الذي لا يزول بين التفوق الغربي والانحطاط الشرقي» [٢] وهذه القناعة التي تبناها الدكتور (سعيد) في كتابه (الاستشراق) عبارة عن قناعة مبنية على عقيدة متجذرة في رؤيتها لعلاقة الغرب بالشرق، وهي رؤية بناها، بالأساس، الاستشراق الأكاديمي الثقافي الغربي في رؤيته للشرق، وتقوم تلك الرؤية، كما يراها الدكتور (سعيد)، على اعتناق فكرة أن هناك طباعاً ثابتة تفصل بين الشرق والغرب.

وباختصار، يرى الدكتور (سعيد) أن العملية الاستشراقية قائمة في جوهرها على ترسيخ فكرة أن الطباع الاجتماعية والقابليات الثقافية الغربية هي في

---

(١) هوية النسخة الأصلية لكتاب الدكتور إدوارد سعيد هي:
E.W.Said. Orientalism Pantheon books. New Yourk, N.Y. 1978.
(٢) نفس المصدر السابق (باللغة الإنكليزية): ص٤٢.

حقيقتها أعلى مقاماً وأكثر سمواً من الطباع الشرقية ومن الاستعدادات الثقافية عند أبناء الشرق.

وهنا أقول: إن هذا التعميم من الباحث الدكتور (إدوارد سعيد) خاطئ، وإذا كان هذا الكلام يصدق على كثيرين منهم في ميادين العلوم والمعارف، وحتى الفلسفة والدين، إلا أن ذلك لا يعني أنهم لم يقدموا للشرق خدمات جليلة من خلال انتشال تراث الشرق من تحت الأنقاض وإزالة غبار الزمان ورماد الحروب عنه. فكم من عالم أو شاعر أو فيلسوف في الشرق كانت آثاره ومآثره في طريقها إلى الزوال والاندثار لولا حركة المستشرقين وجهودهم الفكرية الواضحة!!

نعم، نحن لا ننكر أن الكثير منهم كانوا يمثلون طلائع الاستعمار، ولكن هذا لا يعني أن الجميع كانوا كذلك. ونحن لا ننكر أن كثيرين منهم حاولوا النيل من الإسلام، رسالة ورسولاً، ولكن هذا لا يعني أن كل المستشرقين كانوا يناصبون الإسلام العداء أو أنهم كانوا يريدون تطهير الأرض من أبناء الديانة المحمدية، كما يسميها البعض منهم.

هذه هي النقطة الأولى، أما النقطة الثانية فهي متعلقة بنا نحن العرب والمسلمين، وهي نقطة تمثل علاقتنا الذاتية بتاريخنا وتراثنا. وهذه النقطة هي تحديداً النقطة التي أغفل الدكتور (سعيد) ذكرها في كتابه. فالمستشرقون عموماً لم يكتبوا تاريخنا ولم يصنعوه، بل إنهم استخرجوه من تحت غبار التاريخ ورماد الأيام ومن ثم أعملوا مباضعهم فيه تشريحاً وتحليلاً واستنتاجاً. ولذلك، فإن غالبية الاتهامات التي يرمي المستشرقون بها الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم هي في

الحقيقة اتهامات مبنية، في بعض وجوهها، على أسس موجودة في كتب تاريخنا التي كتبها الأسلاف بأيديهم لغايات واضحة تخدم هذا الخليفة الأموي أو ذاك الخليفة العباسي.

ولا داعي للخوض كثيراً في هذه النقطة وذلك لأننا تطرقنا إليها في بداية كتابنا هذا، ولكن أحببت فقط أن أذكر القارئ بها للمرة الثانية والأخيرة نظراً للأهمية التي تنطوي عليها وللأبعاد التي تتشعب عنها. وآخر ما يمكن أن أقوله هنا هو أنني لا ألوم الطبري ولا ابن الأثير ولا حتى ما كتبه البخاري ومسلم وغيرهم في كتبهم التاريخية وفي مؤلفاتهم التي تتعلق بالسيرة النبوية بقدر ما ألوم بعض المفكرين المعاصرين من المسلمين من أمثال الدكتور المغربي (محمد عابد الجابري) صاحب كتاب (بنية العقل العربي) وكتاب (تكوين العقل العربي)، ذلك الكاتب والمفكر الذي يقدم للقارئ عموماً ثقافة ممسوخة وأفكاراً مشوهة تحت عناوين براقة وشعارات زائفة تجرف القارئ معها للانضمام إلى تيار الثقافة المقزمة والمعكوسة. فهو، وبكل بساطة ووضوح، يقوم بالكتابة عن الإسلام والفكر الإسلامي بيمينه، ولكنه سرعان ما ينثر الغبار والرمال بيساره على ما كتبه بيمينه هادفاً من وراء ذلك إلى تقديم بنى ثقافية وقيم فكرية سلبية المضمون تتناسب مع عمق التناقض الفكري الذي يعيشه الكاتب نفسه[1].

---

(١) راجي أنور هيفا: العرب والعقل وأوهام عقلانية (الجابري)، مجلة النبأ، العدد ٦٣، ويحتوي هذا العدد على الجزء الأول من المقال المذكور، وهو صادر بتاريخ تشرين الثاني ٢٠٠١، ص٢٨-٣٧، أما الجزء الثاني من المقال فمنشور في العدد ٦٦، الصادر بتاريخ نيسان ٢٠٠٢، ص١٥-٢٥، تصدر المجلة عن المستقبل للثقافة والإعلام - بيروت.

وهنا يمكنني أن أعود ثانية إلى تراجيديا استشهاد الإمام علي عليه السلام في نظر المسيحيين في الشرق وفي نظرهم كمفكرين ومستشرقين في الغرب. وحتى نثبت أنه ليس كل المستشرقين أو المفكرين الغربيين كانوا في خندق العداء للإسلام، يكفي أن نذكر هنا، وبعد الشواهد العديدة التي ذكرناها سابقاً، هذه الرائعة للمفكر الفرنسي البارون (كارادي فو) صاحب المؤلفات الشهيرة عن الإسلام، وبشكل خاص كتابه (مفكرو الإسلام) المكون من أجزاء عديدة. يقول البارون (دي فو) عن التراجيديا الأليمة التي حاقت بالإنسانية إثر استشهاد الإمام علي عليه السلام:

« وعلي هو ذلك البطل الموجع المتألم، والفارس الصوفي، والإمام الشهيد ذو الروح العميقة القرار التي يكمن في مطاويها سر العذاب الإلهي»[1].

إن هذه العبارات للبارون (كارادي فو) تستحضر في أذهاننا الكثير من العبارات الأخرى التي قالها العديد من المستشرقين حول قضية استشهاد الإمام علي عليه السلام وفداحة الخسارة التي لحقت بالأجيال المتعاقبة من بعده.

وحتى ذلك الصنف من المستشرقين الذين اشتكل عليهم الأمر في دراسة وتحليل الكثير من الحوادث الهامة في التاريخ الإسلامي، قد أبدوا شديد أسفهم لرحيل الإمام علي عليه السلام عن مسرح الأحداث السياسية في أحرج فترة مر بها التاريخ الإسلامي المبكر. فوجود شخص كالإمام علي عليه السلام وبقاؤه حياً يدير شؤون المسلمين بحكمته وبسياسته الأخلاقية والمبدئية كان كفيلاً بأن يعيد التوازن للإسلام وأن يستحضر صورة محمد صلى الله عليه وآله ومبادئه بشكل دائم في أذهان الناس.

---

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص٢٣٣.

وإذا كان المستشرق (ليوبولد فايس) قد نوه إلى مسألة استشهاد علي عليه السلام والنتائج المترتبة على رحيله في تلك الفترة (الراشدية) بشكل سريع[١] فإن المستشرق (دومينيك سورديل) قد ركز على حجم المآسي الفردية والجماعية التي لاقاها الإمام علي وزوجته فاطمة الزهراء عليهما السلام وذريتهما وأشياعهما على يد أعدائهم[٢] وما نتج عن ذلك من تعاطف إسلامي كبير مع مبادئ وقضايا أهل البيت النبوي الشريف.

أما المستشرق (دوايت رونالدسن)، فقد اعتمد في حديثه عن استشهاد الإمام علي عليه السلام على كتاب (الأخبار الطوال) لأبي حنيفة الدينوري (ت٨٩٥م)، وقد ركز في ذلك على نقطة هامة تتعلق بالصلة الوثيقة بين استشهاد الإمام علي عليه السلام وبين مبايعة الناس عموماً لابنه الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة والولاية. وقد نقل (رونالدسن) ذلك عن (الدينوري) قائلاً:

«ودفن علي عليه السلام ليلاً وصلى عليه الحسن عليه السلام وكبر خمساً، فلم يعلم أحد أين دفن. ولما توفي علي خرج الحسن إلى المسجد الأعظم فاجتمع الناس إليه فبايعوه، ثم خطب بالناس، فقال:

«أفعلتموها؟ قتلتم أمير المؤمنين، أما والله لقد قتل في الليلة التي نزل فيها القرآن ورفع فيها الكتاب وجف القلم، وفي الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران وعرج فيها بعيسى»[٣].

---

(١) ليوبولد فايس: منهاج الإسلام في الحكم، مصدر سابق، ص٦٤.

(٢) دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، مصدر سابق، ص١٣٧.

(٣) دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، مصدر سابق، ص٨٥.

وبالطبع، فإن المستشرق (رونالدسن)، كبقية المستشرقين، لم ينس أن يذكر في حديثه عن استشهاد علي عليه السلام أن الإمام عليه السلام كان ميّالاً إلى مسامحة قاتله والعفو عنه رغم تلك الطعنة القاتلة الغادرة التي تلقاها منه وهو يؤدي صلاة الصبح في مسجد الكوفة. أما المستشرق الفرنسي المعاصر (يان ريشار)، فقد رأى أن الإمام علياً عليه السلام قد وصل بالفعل إلى مقامه العالي الرفيع عندما قبل أن يسير بكامل حريته وإرادته على خط الشهادة حيث كان على موعد مع ذلك اليوم الذي سيستشهد فيه في مسجد الكوفة. وقد استشهد الأستاذ (ريشار) على عمق معاني استشهاد الإمام علي عليه السلام وبلوغه المقام العالي بالعبارة الخالدة التي قالها الإمام علي عليه السلام إثر تلقيه تلك الطعنة القاتلة: «أقسم برب الكعبة أنني نجوت وانتصرت»[1].

وغني عن القول أن نجاة الإمام علي عليه السلام وانتصاره هما حقاً ثمرتان فعليتان من ثمار السير الإرادي الحر على نهج الشهادة وعلى خط الأنبياء المرسوم بالدماء والآلام، ذلك الخط الذي استطاع أن يرتقي بمحمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام إلى مستوى مسؤولية حمل راية الكلمة السماوية التوحيدية ونشرها فوق صدر البسيطة جيلاً بعد جيل.

وإذا كان بعض المستشرقين قد نظروا إلى عملية استشهاد الإمام علي عليه السلام من منظار الربح والخسارة المادية، فإن الأدباء والمفكرين المسيحيين في الشرق كانوا أبعد الناس عن قياس شهادة الإمام علي عليه السلام بالمقياس الدنيوي أو أن ينظروا إليها من منظار تاجر ممسك بورقة حساباته يقوم بعمليات حساب

(١) يان ريشار: الإسلام الشيعي، مصدر سابق، ص٣٨.

الخسائر والأرباح المالية التي سيجنيها حالاً من هذه الصفقة أو تلك.

ومن المعروف تماماً بالنسبة لكل مثقفٍ مسيحي وليس فقط بالنسبة لتلك الطبقة المميزة من الأدباء والمفكرين، أن الإمام علياً عليه السلام قد طلق الدنيا ثلاثاً وقد اكتفى منها بقرصيه وطمريه، أي إنه كان بذلك أخاً للسيد المسيح عليه السلام في زهده وتقواه وفي تعلقه بأهداب السماء. وما ذلك إلا من أجل ابتغاء مرضاة الله والابتعاد عن سياسة التجارة القائمة على مبدأ الأخذ والعطاء الماديين وعلى أساس حساب الأرباح والخسائر الدنيوية الزائلة. وبالتالي، فالزهد والتقوى والعبادة والشهادة، بالنسبة للإمام علي عليه السلام، كل ذلك من أجل الله ذاته لا من أجل الطمع بالجنة أو الخوف من النار. وهذا هو التأله الحقيقي وتلك هي عبادة الأحرار الصادقة.

وعلى هذا الأساس، كان لاستشهاد الإمام علي عليه السلام مكانة متميزة في شعر الأدباء العرب المسيحيين. ولو قلبنا، على سبيل المثال، صفحات كتاب (ملحمة الإمام علي عليه السلام) للسياسي والأديب الشاعر (عبد المسيح الإنطاكي)، فماذا عسانا نجد في تلك الملحمة العلوية المباركة عن استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام؟!!

بالطبع، يمكننا أن نجد الكثير من الأشعار التي تتناول تلك المأساة المفجعة، ولا نبالغ إذا قلنا: إن الأشعار التي تناول فيها الشعراء المسيحيون نهاية الإمام علي عليه السلام الدامية واستشهاده في شهر رمضان ليست بأقل من الأبيات التي تناولت آلام وعذاب السيد المسيح عليه السلام على يد أعدائه وظالميه.

فبعد أن يذكر الأستاذ الأديب (الإنطاكي) الأحداث المفصلة لليلة التي

اغتيل فيها أمير المؤمنين علي عليه السلام في مسجد الكوفة بأسلوب نثري رقيق، نراه يحول تلك الأحداث التي رواها نثراً الى أشعار وقصائد مطولة بالغة الدقة في التصوير وفي التأثير. وبعد أن يقول (الإنطاكي) في بداية حديثه عن رحيل الإمام عليه السلام:

أمَّا تفاصيلُ مأساة الإمام فقدْ جَرَتْ كما نَقَلَ الرَّائي لراويها

فبعد أن يقول ذلك، نراه يسارع إلى وصف أحداث عملية الاغتيال الغادرة بدءاً من دخول القاتل (لع) عليه في المسجد عند صلاة الفجر وانتهاء بالضربة الغادرة القاتلة التي طالت رأسه الشريف وهو في حالة السجود. ولكن الأستاذ (الإنطاكي) يركز كثيراً على الدرس الذي أعطاه الإمام علي عليه السلام للإنسانية من خلال تسامحه عن قاتله، وهو الإمام العارف أن تلك الضربة من ابن ملجم (لع) لن تجعله يعيش أكثر من ساعات قليلة. ولذلك، فإن الأديب (الإنطاكي) قد ركز على وصية الإمام علي عليه السلام لابنيه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام وللمسلمين الذين حضروا اللحظات الأخيرة من عمر الإمام عليه السلام وهو على فراش الرحيل إلى ملكوت السماء ومملكة الخلود.

وها هو يترجم شعراً قول الإمام علي عليه السلام الأخير«.. إن أبق، فأنا ولي دمي، وإن أفْنَ فالفناء ميعادي، وإن أعف فالعفو لي قربة، وهو لكم حسنة. فاعفوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟..»، فقال عن لسان الإمام عليه السلام:

وفي غَدٍ يا بني أمّي مُفَارقكم بغربةٍ لم أكن يوماً مُباليها
وإنْ فَنيتُ فميعادي الفناءُ وقد بَلَغْتُهُ وحياتي الله مُفنيها
وإنْ عفوتُ فَزُلفى للمهيمن عفوي بل مَبرَّتُهُ عنكم أؤدِّيها

فاعفوا، ففي العفو خيرٌ ثم مثوبةٌ إنَّ الكرامَ لتَعَفو عن مُسيئيها[١]

وبالطبع، ليس هذا كل ما قاله الأديب الشاعر (الإنطاكي) عن وصية الإمام عليه السلام بعد ضربة ابن ملجم (لع) له. ولكن هناك تركيز واضح على الوصية الأخرى التي أوصى بها الإمام علي عليه السلام أبناءه الحسن والحسين وابن الحنفية عليهم السلام وخاصة أصحابه المجتمعين حوله بعد نقله من المسجد إلى منزله بهدف المحاولة اليائسة لعلاجه ومداواته من جراحاته القاتلة.

ولا ريب في أن هدف الأستاذ (الإنطاكي) من التركيز على هذه الوصية الثانية هو التأكيد للقراء على أن الأهداف التي كافح الإمام علي عليه السلام من أجلها هي الأهداف الإنسانية التي كان يجاهد من أجلها كل الرسل والأنبياء، ولذلك فإن خسارة الإنسانية للإمام علي عليه السلام لا تعني إلا فقدان ذلك الإمام الذي كان مجمعاً كل الأنبياء والرسل عليهم السلام بعلومه وسلوكه وفضائله وسيرته الطيبة وبالمبادئ والقيم التي نادى بها ودعا إليها وجاهد من أجلها واستلم زمام أمورها بعد رحيل خير رسل الله وخاتمتهم صلى الله عليه وآله.

ورب قائل يقول: وما هي تلك الوصية التي أوصى بها الإمام علي عليه السلام أبناءه والمسلمين المحيطين به وهو جريح على فراشه في داره، وهل ذكرها ذلك الأديب المسيحي في ملحمته العلوية مثلما ذكر الوصية الأولى التي ذكرناها قبل إيراد الأبيات الشعرية السابقة؟

والجواب بكل بساطة: نعم، لقد ذكرها الأستاذ (الإنطاكي) في ملحمته

---

(١) عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي عليه السلام، مصدر سابق، ص٥٩٦.

مثلما ذكر الوصية الأولى، ونحن بدورنا سنذكرها نقلاً عنه وذلك لسبب واحدٍ لا يخلو من الأهمية، وهذا السبب هو أن الأستاذ (الإنطاكي) يرى أن خسارة الإنسانية للإمام علي عليه السلام تعني الخسارة الأكيدة المبنية على كل مضامين تلك الوصية العلوية الخالدة.

ولذلك، نرى من الواجب علينا أن نذكر هذه الوصية الخالدة لأنها كانت آخر ما نطق به الإمام علي عليه السلام قبل أن يغمض عينيه الحزينتين عن هذا العالم الذي كان يرى فيه، بعين بصيرته القارئة للمستقبل، عالماً مضنى بالهموم والآلام والحروب الجائرة واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

وها هو نص الوصية العلوية الأخيرة التي أوردها الأديب (الإنطاكي) في ملحمته المباركة، إنها تلك الوصية التي رأى فيها الأديب (الإنطاكي) سبباً مباشراً لاستشهاد الإمام علي عليه السلام الذي جاهد طوال حياته من أجل تحقيق مضامينها الروحية والأخلاقية:

« أوصيكما- تخصيصاً للحسن والحسين عليهما السلام - بتقوى الله، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء زوي عنكما، وقولا الحق، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، أوصيكما وجميع ولدي وأهلي، ومن بلغه قولي هذا، بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول: (إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام).

الله الله في الأيتام، فلا تغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم، الله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، وما زال يوصي بهم، حتى ظننا أنه سيورثهم،

الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم، الله الله في الصلاة، فإنها عمود لدينكم، الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا، الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم، في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيولى عليكم أشراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[1].

وانطلاقاً من المضامين الإنسانية النبيلة التي تحملها هذه الوصية، يرى الأديب (الإنطاكي) أن ذلك الخطب العظيم بفقدان علي عليه السلام لم يكن مقتصراً على المسلمين أبداً، بل كان رحيله عليه السلام خطباً أليماً حاق بأهل الأرض جميعاً، كان خطباً بالغاً لأن الإنسانية عموماً قد خسرت برحيله إمام الإنسانية كلها وليس إمام المسلمين فحسب، وإن أبسط ما يثبت ذلك هو أن أهل الذمة قد ارتضوه إماماً لهم كما ارتضاه المسلمون سواءً بسواء. وقد عبر الأديب (الإنطاكي) عن هذه المجموعة من النقاط بقوله في قصيدته التي تحمل عنوان (وفاة أمير المؤمنين ورثاؤه)، والتي افتتحها بقوله:

في ليلة الأحَدِ المشؤومِ طالِعُها   في ساعةٍ لم تُخلَقْ ثوانيها

وبعد ذلك يتابع قوله:

خَطْبٌ ألمَّ بأهل الأرض إذْ خسرتْ   بـه حَنيفَتُهـا أسـنى دَرَاريها
وأورث الحـزن أبنـاء الزمـانِ مـدى   الأجيال ما أنْ يُلاشى أو يُلاشيها
لمثلـه خلـق الـدمع الـسجين بـأعين   الـورى فهـو هـامٍ مـن مآقيهـا
تبكي علـى أمةٍ قـد ضـاع مرشـدها   ودولـةٍ عـن حمِاهـا غـابَ حاميهـا

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٠٣.

من للحنيفة من بعد الوصي يفيها حقَّها حسبما قد شاء موحيها؟!
مَن للخلافة من بعد الخليفة يرعى عهدَ مسلمها عَدْلاً وذُمِّيها؟!
نفسٌ مطهَّرةٌ قد نُوِّرت بسنا القرآن واللهُ بالإيهامِ مُسْنيها[1]

وهكذا، فإن الخطب - كما يقول (الإنطاكي)- هو (خطب ألم بأهل الأرض) جميعاً ولم يكن خطباً ملمّاً بالمسلمين فقط. وعندما يتساءل (الإنطاكي) أيضاً عن الخلافة الحقيقية، فهو يتساءل بذلك عن الخليفة الإمام الوحيد الذي كان قادراً على إحقاق الحق وإمضاء العدل في أمةٍ تجمع بين المسلمين والذميين على حد سواء.

أما الأديب الشاعر (بولس سلامة) صاحب ملحمة (عيد الغدير)، فله الكثير من الأبيات الشعرية المؤثرة حول مسألة استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وحول رحيله عن هذا العالم الذي لا يستحقه والذي أضناه وأتعبه مثلما أتعب وأنهك كل الأنبياء والمرسلين قبله بما في ذلك أول خلق الله وخاتم رسله، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، الصوت السماوي الأخير الذي وصفه الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله أبلغ وصفٍ بقوله: ﴿**يا أيّهَا النَّبيّ إنّـا أرْسَلْنَاكَ شَاهداً وَمُبَشّراً وَنَذيراً * وَدَاعياً إلَى الله بإذْنه وَسرَاجاً مّنيراً**﴾[2].

فالأديب الشاعر (سلامة) كان يدرك ويؤكد أن العالم لم يكن يستحق الإمام علياً عليه السلام، أو على الأقل، لم يكن قومه يستحقه. وكيف يمكن للإمام

(١) نفس المصدر السابق: ص٦٠٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥-٤٦.

علي عليه السلام أن يحقق كل ما يريده في قوم لم يتركوه يفتح عينيه كل صباح إلا على المصائب والمتاعب، ولم يتركوه يضع رأسه على وسادته ليلاً إلا على الهموم والآلام ؟!!

فهل مر يوم على الإمام علي عليه السلام دون بلاءٍ في النهار وهم في الليل؟!!

والجواب بكل بساطة ويسر: كلا، أبداً.

وما كلامنا إلا بمثابة التأكيد على قول الأديب والشاعر (بولس سلامة): «فلم ير أصبر منه على المكاره. إذ كانت حياته موصولة بالآلام منذ فتح عينيه على النور في الكعبة حتى أغمضهما على الحق في مسجد الكوفة»[1].

ولذلك، فإن الأديب الشاعر (سلامة) يختلف عن الكثير من الأدباء والشعراء المسيحيين الذين نظموا قصائدهم وأشعارهم في رثاء وفي وصف أبعاد استشهاد الإمام علي عليه السلام في سبيل الحق والإنسان.

وإن أبرز نقطة تناولها الأستاذ (سلامة) في ملحمته (عيد الغدير) هي تصوير الحالة النفسية للإمام علي عليه السلام قبل ليلة استشهاده وليس أثناءها. ولذلك، فإن الذي يقرأ قصيدة (الحلم الأخير) ضمن تلك الملحمة الشعرية الرائعة، يستطيع أن يتبين بكل وضوح كيف أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام رأى في منامه قبيل استشهاده رسول الله المصطفى صلى الله عليه وآله، فشكا أمير المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ما لاقاه من أمته من الآلام والعداوة وارتداد الناس عن وصاياه النبوية الكريمة، فكان، نتيجة لذلك، أن طلب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله من علي المرتضى عليه السلام أن

---

(١) بولس سلامة: عيد الغدير، راجع المقدمة، ص١١.

يدعو عليهم، فقال علي عليه السلام:

«اللهم أبدلني بهم خيراً لي منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني».

ويتابع الأستاذ (سلامة) هذه الرواية نثراً كمقدمة توضيحية لقصيدته ا (الحلم الأخير)، ويقول متابعاً الرواية: إن أمير المؤمنين عليه السلام قد خطب بالناس قبل ليلة مقتله وأنبأهم بما سيأتي بعده، وما سيجره بنو أمية على الأمة من المظالم والمساوئ والجور وتغيير معالم الدين وتشويه أهداف الرسالة، وكيف أنهم سيسبونه ويشتمونه عليه السلام ويقتلون أولاده ويهجرون ما يتبقى من ذريته ويطاردونهم في أقطار الأرض وأمصارها دون أدنى شفقة أو رحمة.

وبعد هذه المقدمة النثرية التوضيحية لقصيدة (الحلم الأخير)، ينطلق الأستاذ (سلامة) في قصيدته الشعرية بأسلوب مؤثرٍ بالغ الرهافة في الحس وفي صدق التعبير. ويفتتح الأستاذ (سلامة) قصيدته بقوله واصفاً حال أمير المؤمنين عليه السلام قبيل رحيله:

أرِقَ الليلَ لا يَذوقُ المناما ... غير ما تخطفُ العيونُ لِماما

ليلة تصبغُ النجومَ بِلَوْنِ الهَمِّ ... حتى الظلام يخشى الظلاما

ثم ينتقل إلى رؤية أمير المؤمنين عليه السلام الرسول الله صلى الله عليه وآله في منامه، وقوله له:

وَشَكا للرسول شَعباً عقوقاً ... عاد أعمى أو مبصراً يتعامى

«خاصموني كأن صهرك لم ... يسلل حساماً فينصر الإسلاما»

وبعد أن نطول شكوى أمير المؤمنين عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله ينتقل بنا الأستاذ (سلامة) ليصور لنا جملة الأهداف الإنسانية السامية التي نذر الإمام علي عليه السلام نفسه من أجلها والتي سيقدم روحه الطاهرة أيضاً فدية لها.

فيقول عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام:

مُنيتي نصرةُ الحقيقة أفديها بنفسي أجِلُّها أن تُضَاما
كلُّ بندٍ غير الحقيقة مطويٌّ ويبقى حمُاتها أعلاما
أطلبُ الحق كي أذودَ عن الإسلام والعدل ناصراً قوّاما
أمسحُ الدمعَ عن جفون الحزانى وعن الزّاد لا أصدُّ الأيامى
واستفاقَ الكئيبُ يغرق في الرؤيا ويَستشعِرُ المماتَ الزُّؤاما[1]

هذا بإيجاز شديد التصوير الشعري الذي قام به الأستاذ (سلامة) للحالة النفسية التي عاشها الإمام علي عليه السلام قبيل استشهاده بفترة قصيرة جداً، وهو بنفس الوقت تصوير للأهداف التي نادى بها أمير المؤمنين عليه السلام في مسيرة حياته وفي لحظات استشهاده، إنها: إحقاق الحق وترسيخ العدل وبذل الرحمة والرفق بالإنسان.

فأية أهداف أسمى من هذه الأهداف ؟!!

وأية خسارة عظيمة لحقت بالإنسانية التي فقدت ذاك الإمام الذي كان كل همه وجل اهتمامه منصباً على تحقيق وترجمة تلك الأهداف النبيلة الرفيعة ولو بخوض اللّجج وسفك المهج؟!

أما الأشعار الأخرى للأستاذ (سلامة) في رثاء أمير المؤمنين عليه السلام فهي كثيرة ومؤثرة ولا يمكن اجتزاء بعض الأبيات منها لأن ذلك يشوه معانيها ويفسد صورها، ولكن ننصح القارئ الكريم بقراءة القصيدة التالية لقصيدة (الحلم

(١) نفس المصدر السابق: راجع القصيدة كاملة، ص١٧٧ حتى ص١٨٢.

الأخير) والتي تحمل عنوان (رثاء أمير المؤمنين عليه السلام) ففيها ما يبكي القلوب قبل العيون.

ولكن، وقبل أن ننهي وقفتنا مع الأديب الشاعر (بولس سلامة)، نرى أن خير ما ننهي به حديثنا عن موقف الأستاذ (سلامة) من استشهاد علي عليه السلام، بل من شخصية الإمام علي عليه السلام في وحدتها الكلية المتكاملة منذ الولادة وحتى الشهادة، هي تلك العبارة المميزة المأخوذة من مقدمة ملحمته (علي والحسين) السابقة على ملحمته الثانية (عيد الغدير)، وهذه العبارة بمثابة التعريف الواضح لشخصية الإمام علي عليه السلام بكل أبعادها الفكرية والروحية. يقول (بولس سلامة) في تلك الجملة الرائعة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«سدرة المنتهى في الكمال الإنساني علي بن أبي طالب»[1].

فمن الجدير بالكثير من المفكرين والأدباء المسلمين المعاصرين أن يقفوا عند هذه الجملة الرائعة وأن يتفهموها جيداً، خاصة وأنها قد خرجت من مفكرٍ وأديبٍ مسيحي كبير.

وهنا تحديداً أحب أن أذكر حديثاً للإمام علي عليه السلام قاله لعموم المسلمين بعد أن أدرك تماماً أن الجاهلية قد أطلت برأسها من جديد في مجتمع مؤهل للتعامل والتفاعل مع كل التجاوزات التي حدثت في العهود السابقة على عهده عليه السلام. لقد أدرك الإمام علي عليه السلام أنه إن كان هناك من ارتد عن الإسلام وعاد إلى ما كان عليه قبل إسلامه بسبب استعداداته النفسية والاجتماعية، فإن التجاوزات

(١) روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، راجع المقدمة، ص١٢.

الواضحة من الخلفاء السابقين، وتغيير المفاهيم وتبديلها، بالإضافة إلى تجاهل أهم وصايا الرسول ﷺ، هي التي ساهمت المساهمة الكبرى في تشكيك الناس بالدين وفي تشكيكهم بصدق إيمان من عطل العمل بوصايا الرسول ﷺ في ما يتعلق بمسألة الخلافة والولاية مما دفهم، بالفعل، إلى الانسحاب الفوري من الدين الجديد.

ولذلك، فعندما خاطب الإمام علي عليه السلام عموم المسلمين قبل رحيله بفترة قصيرة، وذلك بعد أن أعياه التعامل بالحسنى وبالكلمة الطيبة مع أولئك الدخلاء في الدين الجديد الذين كانوا يكيدون للإسلام من الداخل أسوة بمن سبقهم من علية القوم وأصحاب القرار، كان عليه السلام محقاً تماماً في رؤيته المستقبلية المتعلقة بالأمة، وفي أن الإنسانية كلها ستفتقده يوماً ما بعد رحيله. وها هو يقول معبراً عن ذلك:

«غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعد خلو مكاني، وقيام غيري مقامي»[(١)].

وعلى معاني هذه العبارة النابعة من المنطق القويم والقلب النقي السليم، فقد بنى الأستاذ الأديب (سليمان كتاني) منظومته الفكرية بشأن افتقاد الإنسانية لشخصية الإمام علي عليه السلام التي نحتاجها، أو على الأقل، نحتاج أن نستحضرها روحاً وفكراً ونهجاً مستقيماً في زمننا الحاضر الجديب القاحل.

يرى الأديب المسيحي (سليمان كتاني) أن الأرض كانت صحراء صفراء

(١) سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس (ضمن مجموعة محمد شاطئ وسحاب)، ص٤٦٤.

قاحلة تنتظر من يأتي ليحيل ويغير ذلك الاصفرار الكئيب المفعم برائحة اليأس والقنوط إلى اخضرارٍ ربيعي مليء بأنفاس الروح والحياة، فما كان منها إلا أن توسلت إلى السماء من أجل أن تنتشلها من محنتها وضيقها، فاستجابت السماء لها وأمطرتها بعلي بن أبي طالب عليه السلام. وليس هذا كل شيء بالنسبة للأستاذ (كتاني)، بل الشيء الهام أيضاً هو أن نقف جميعنا أمام مرايا ذواتنا الصادقة ونطرح هذا السؤال على أنفسنا قائلين: ما الأثر الذي تركته ضربة ابن ملجم على مسار التاريخ الإنساني ؟؟

هذا هو السؤال الذي يمكن أن يجيب عليه كل واحد منا بطريقته الخاصة ووفق منظوره الذاتي الخاص. ولكن مهما تباينت الآراء وتفاوتت الإجابات، إلا أنها بشكلٍ عام ستتفق، بشكل أو بآخر، مع ما قاله الأستاذ (كتاني) في جوابه على ذلك السؤال المطروح.

يقول الأستاذ (كتاني): «ولكن الضربة التي هوت على رأس هذا العبقري، رغماً عن أنها لم تصب منه إلا التافه من كيانه، فإنها لا تزال تعتبر طعنة في صميم الكرامة الإنسانية، ووصمة على عصرٍ يتنازل عن حقه، تاركاً للأجيال شرف تقييم الرجل الذي أهملت تقديره... من حيث أصبح ابن أبي طالب أوسع واحة يهفو إليها عطش الإنسان، إذ يلهث به تجواله عبر العصور»[1].

فالإنسان الباحث عن هويته الإنسانية الحقيقية، والجاد في سعيه أيضاً من أجل الوقوف على النبع الصافي القادر على أن يروي عطش كل لاهث مضنٍ،

(١) نفس المصدر السابق: ص٤٦١.

وكل متعب مكلوم مظلوم باحثٍ عن خلود روحه وصفاء وجدانه وسلامة سريرته، لن يرى مطلبه العزيز إلا في نهج علي عليه السلام وفي اعتناق مبادئه وتعاليمه، والسير على خطاه فكراً وعملاً.

ولذلك، فإن أمير المؤمنين علياً عليه السلام، سيرة ونهجاً وأهدافاً، هو ضمان استمرار تدفق تيار الروح الإنسانية العظيمة في أوردة وشرايين جميع الأجيال المتعاقبة وعبر كل العصور.

لقد أصبح اسم الإمام علي عليه السلام في العصر الحديث، عند الكثير من المفكرين والأدباء المسيحيين المعاصرين، مقترناً بالعظمة والرفعة المشيدة على أسس ثابتة من الآداب الإلهية والقيم النبوية. لقد أصبح اسم علي عليه السلام مرادفاً لكل صلاحٍ ودواءٍ يريده الناس في مواطن الضعف والفساد، وبات مرادفاً أيضاً لمعاني الخير والعدل والفضيلة في كل مجتمع يتوق لتحقيق هذه المعاني النبيلة. لقد بات التشيع لعلي عليه السلام، بنظر أهل الفكر المسيحي المعاصر، «موئلاً يلوذ به كل مضطهد ومظلوم ومحروم، وينضوي تحت لوائه كل ثائر في سبيل الحق المهدور»[(١)].

وقبل أن نسدل الستارة على هذه التراجيديا الأليمة وعلى تداعياتها وآثارها في الفكر المسيحي المعاصر، نرى أن أفضل ما يمكن أن نقوم به الآن هو أن نعطي الستارة للأستاذ الأديب (جورج جرداق) كي يسدلها هو بنفسه وينهي تصوير تلك الفاجعة الدامية التي امتدت بآلامها وأحزانها لتلف العالم والوجود البشري بوشاح الأحزان ورايات الأسف والندم على فقدان ذلك الكوثر العلوي

(١) جورج جرداق: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٥ ص١٨٦.

المهدور.

وها هو الأديب والمفكر (جورج جرداق) يمسك بالستارة استعداداً لإسدالها، ولكن ها هو يخاطبنا قبل إسدالها قائلاً: «قضى العظيم الذي آذاه خصومه وأنصاره على السواء! العظيم الغريب الذي عاش شهيداً ومات أباً للشهداء!

قضى شهيد الاستقامة والدعوة إلى الخير. شهيد العبقرية التي أبت وترفعت ومضت في طريق الكرم الإنساني لا تهادن وتلين! قضى العظيم وما قامت له دولة، لتقوم بعد أجيال باسمه الدول»[1].

نعم، إن استشهاد الإمام علي عليه السلام كان حدثاً مفجعاً وأليماً، ولم يكن أثر ذلك الاستشهاد محصوراً ضمن نطاق الدائرة الإسلامية، بل كان أثره واسعاً وعميقاً حتى أنه شمل كل دوائر الوجود البشري، أفراداً وجماعات ودولاً، لم يكن أثر استشهاده العظيم مقتصراً على أبناء عصره، بل كان استشهاده ولا يزال عميقاً وباقياً في ضمائر كل الأجيال الحاضرة واللاحقة.

فسيرة الإمام علي عليه السلام ومسيرة حياته الممتدة من مهد ولادته وحتى مكان استشهاده، هي مسيرة مرتبطة مع الله سبحانه وتعالى بخيطين متعانقين مع بعضهما البعض عناق الحبيب لحبيبه، إنهما خيط الحب والألم. فالإمام علي عليه السلام لم يجعل من قلبه الكبير إلا حرماً مقدساً مخصصاً لمحبة الله. فالحب عند علي عليه السلام هو الحب في الله، والكره عنده هو الكره من أجل الله.

(١) نفس المصدر السابق: ج٤ ص٢٨٠.

أما الخيط الثاني، فهو الألم. فبالألم وصل علي إلى السماء، وبالألم أيضاً استطاع أن يوصل أهل بيته، بيت النبوة الشريف، إلى المقام العلي الذي وصل هو إليه.

فمن من أهل بيته عليه السلام لم يقض شهيداً؟!!

ومن هو الإمام من أئمة ذلك البيت النبوي الطاهر المطهر لم يرتفع إلى مقام الشهداء ومنزلة الصديقين؟

أليس علي عليه السلام هو من علم الإمام الحسين عليه السلام فلسفة وأسس الشهادة من أجل (لا إله إلا الله. محمد رسول الله)؟؟

أليس الدم الحسيني المسفوح في كربلاء هو الامتداد الطبيعي للدم العلوي المراق في الكوفة وللدم المحمدي الذي خضب وجه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في مكة المكرمة؟؟؟

فما ثورة الحسين وما دم الحسين عليه السلام إلا الوعاء الذي ضم ووحد الدماء المحمدية والدماء العلوية، فهو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أيضاً ابن علي عليه السلام، خليفة ووصي رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي، فإن ثورة الإمام الحسين قد قامت على مخاطبة الضمير الإنساني بكل صدقٍ وإيمان مخبرةً إياه أن أهداف وغايات الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله هي ذات الأهداف والغايات التي أرادها ونادى به الإمام المرتضى عليه السلام. ولئن كان محمد صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام متحدين - قبل خلق الله لسيدنا آدم عليه السلام- بالنور والضياء، فإن الثورة الحسينية قد أكدت على هذه الوحدة الوثيقة، ولكن هذه المرة، أكدت أيضاً على وحدتهما بالحب والألم والدماء.

وقد صدق ذلك القسيس المسيحي - كما جاء في كتاب (الحسين في الفكر المسيحي) للمفكر الأستاذ (أنطون بارا)- عندما قال: «لو كان الحسين لنا، لرفعنا له في كل بلدٍ بيرقاً ولنصبنا له في كل قرية منبراً، ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين»[1].

فهذه الثورة الحسينية العظيمة التي ألهبت ضمائر الأحرار في العالم، هي الثورة التي مهد لها الإمام علي عليه السلام وهيأ لها الصانع والمفجر كي يعود ويطرح، من جديد الأهداف والمبادئ ذاتها التي أرادها الإمام علي عليه السلام أن تتحقق وتعم مساحة الوجود الآدمي بكامله.

ولذلك، فقد كان الأديب (رئيف خوري)، وهو أحد الوجوه الثقافية السورية في أربعينيات القرن الماضي، محقاً عندما كان يستفيض في حديثه مع طلابه وأصدقائه عن مآثر علي عليه السلام وعن فضائله، وغالباً ما كان يقول عندما يعرج على مسألة استشهاده: «إنه (اغتياله) الجرح الذي أصاب كرامة الإنسان على مدى الأزمان»[2].

وأخيراً، وبعد أن وصلنا إلى نهاية رحلتنا مع الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر، ليس لي إلا أن أقول: إن الإمام علياً عليه السلام الذي بدأ حياته مبصراً النور في الكعبة العظيمة، وهي أول بيت لله سبحانه وتعالى، وانتهت حياته الشريفة في بيت من بيوت الله، وما كان بين الولادة والشهادة من مآثر عظيمة، لهو إمام يعجز اللسان أو القلم عن وصفه والإحاطة به وبعظمته سواء

(١) أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، مصدر سابق، ص٧٢.

(٢) خليل فرحات: في محراب علي، راجع المقدمة، ص١٢.

كان ذلك القلم إسلامياً أم مسيحياً.

ولكن أقول وبكل صراحة: إن المفكرين والأدباء والباحثين المسيحيين، وتحديداً في الشرق، كانوا أكثر إنصافاً وأكثر صدقاً في التعامل مع الحوادث الإسلامية ومع الشخصيات والأعلام في التاريخ الإسلامي من الكثير من المفكرين الإسلاميين المعاصرين. ولا أجد أي حرج في قول ذلك.

بل إني وجدت من خلال دراساتي وتحليلاتي المتروية لمعظم مؤلفات المفكرين والأدباء المسيحيين أن معظمهم كان ينزل الإمام علياً عليه السلام بمنزلة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وأن البعض منهم أيضاً كان يرى في الإمام علي عليه السلام، وفي أهدافه وغاياته، وفي امتلاء قلبه الرحيب بالمحبة وصدره العظيم بالآلام والجراح أنه الشقيق التوأم للسيد المسيح عليه السلام. فحياته ومبادئه وتعاليمه الصادقة التي نادى بها طوال حياته، تلك الحياة المليئة بالجراح والآلام والهموم، لم تكن في يوم من الأيام إلا من أجل مرضاة الله ومن أجل نشر قيم الحق والخير والفضيلة والمحبة بين الناس، ومن أجل فتح الطريق للإنسان إلى السماء من خلال تفعيل الشعور بالمسؤولية والارتقاء بتلك المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان كي يكون خليفة حقيقياً لله سبحانه وتعالى في أرضه.

وخلاصة القول: إن الإمام علي عليه السلام، عند المسيحيين المستنيرين، هو العروة الوثقى التي تربط أهل الأرض بالسماء.

وقبل أن أضع قلمي المتعب جانباً، لا يمكنني إلا أن أرفع يديّ ضارعاً مبتهلاً إلى الله العزيز الرحمن الرحيم أن يتقبل هذا العمل مني وأن يرفعه إليه ويجعله عدةً وذخراً لي في صحيفتي يوم ألقاه بقلب سليم. إنه سميع مجيب وهو

أقرب إلينا من حبل الوريد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله أجمعين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وخاصة على آخر من بشر بمجيء سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وآله، سيدنا عيسى المسيح عليه السلام، عليه الصلاة والسلام وعلى والدته الطاهرة المطهرة البتول، مريم العذراء.

راجي أنور هيفا

اللاذقية ٢٠٠٥/٤/١٨م

المراجع المستخدمة

١- القرآن الكريم

٢- العهد الجديد: الإنجيل.

٣- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد المعتزلي.

٤- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده.

بقية المراجع العربية والأجنبية حسب تسلسل استخدامها:

٥- مايكل كاريذرس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ (سلسلة عالم المعرفة) ترجمة: شوقي جلال، العدد (٢٢٩)، الكويت ١٩٩٨.

٦- سامي الكيالي: السهروردي (نوابغ الفكر العربي)، دار المعارف - مصر ١٩٦٦.

٧- الإمام السهروردي: الديوان، تحقيق وتقديم: أحمد مصطفى الحسن، دار يعقوب د.ت.

٨- يان ريشار: الإسلام الشيعي، ترجمة: حافظ الجمالي، دار عطية - بيروت ط١/١٩٩٦.

٩- الدكتور عبد الرحمن زكي : بناة القاهرة في ألف عام ، دار الكتاب العربي- القاهرة ١٩٦٩.

١٠- نبيل فياض : يوم انحدر الجمل من السقيفة ، إصدار exact - بيروت - ليماسول ، ط٣/د.ت.

١١- صائب عبد الحميد : حوار في العمق ، الغدير للدراسات والنشر - بيروت ط٢/١٩٩٥.

١٢- الشيخ الأزهري محمود أبو رية : شيخ المضيرة أبو هريرة ، دار المعارف - مصر ط٣/١٩٦٩.

١٣- راجي أنور هيفا : محاكمة العقل العربي ، (النور) العدد١٠٧ ، دار النور- لندن ، نيسان ٢٠٠٠.

١٤- إسماعيل العرفي : مقالة في العروبة والإسلام ، دار الفكر - دمشق ١٩٨٠.

١٥- السيد نعمة الله الجزائري : قصص الأنبياء ، دار البلاغة - بيروت ط٢/١٩٩٣.

١٦- علي فكري : أحسن القصص ، ج١ ، دار الكتب العلمية - بيروت ط٥/١٩٧٥.

١٧- محمد باقر الصدر : اقتصادنا ، دار التعارف - بيروت ط١٦/١٩٨٢.

١٨- محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٢ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان - بيروت د.ت.

١٩- حامد حسن : وجهاً لوجه أمام التاريخ ، مطبعة عكرمة - دمشق ١٩٩٢.

٢٠- مارسيل بوازار : إنسانية الإسلام ، ترجمة : د. عفيف دمشقية ، منشورات

دار الآداب - بيروت، ط١/ ١٩٨٠.
٢١- موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة، دار الأفكار - بيروت ط١/١٩٩١.
٢٢- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: د.السيد الباز العريني، دار الثقافة - بيروت ط١/١٩٦٧.
٢٣- المحب الطبري: الرياض النضرة، مطبعة الاتحاد المصري، الطبعة الأولى.
٢٤- الحافظ زين الدين المناوي الشافعي: كنوز الحقائق، مكتبة الزهراء - القاهرة ١٩٨٥.
٢٥- توفيق أبو علم: الإمام علي بن أبي طالب، دار المعارف - مصر ط٢/١٩٨٦.
٢٦- محمد رضا الأنصاري: مختارات من الأحاديث النبوية، منشورات معاونية العلاقات الدولية - طهران ١٩٨٦.
٢٧- الشيخ محمد بن علي الصبّان الشافعي: إسعاف الراغبين (مطبوع بهامش كتاب نور الأبصار للشيخ مؤمن الشبلنجي الشافعي)، طبع دار الفكر - بيروت، د.ت.
٢٨- تقي الدين المقريزي: معرفة ما يجب لآل البيت النبوي، دار ذو الفقار ـ بيروت.
٢٩- الشيخ مؤمن بن حسن الشبلنجي الشافعي: نور الأبصار في مناقب آل النبي المختار، دار الفكر - بيروت.
٣٠- الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: إحياء الميت بفضائل أهل البيت،

نشر منظمة الإعلام الإسلامي - طهران ١٩٨٨.

٣١- الشيخ كاظم محمد الأحسائي النجفي: السفينة السائرة في فضائل العترة الطاهرة، مؤسسة الهادي - بيروت ١٩٩٩.

٣٢- السيد مرتضى الفيروز آبادي: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، دار الكتب الإسلامية - طهران ١٤١٣هـ.

٣٣ الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٩ مكتبة القدسي - مصر ١٣٥٢هـ.

٣٤- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، تحقق: د. صبحي الصالح، دار الكتاب المعاصر - بيروت.

٣٥- مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ١٩٩٣.

٣٦- الشهيد حسن الشيرازي: كلمة الإمام الحسن عليه السلام، مؤسسة الوفاء - بيروت ١٩٨٣.

٣٧ راجع كتاب (كتابي لقصص الكتاب المقدس): النسخة العربية، إصدار:
Watchtower Bibble and Tract Society of New York I N C. Inerntaional Bibble students Association, Brookhyn, New York, USA, 1989.

٣٨- الحافظ الموفق بن أحمد الحنفي (أخطب خوارزم): المناقب، مكتبة نينوى الحديثة - طهران د.ت.

٣٩- تامر مير مصطفى: بشائر الأسفار بمحمد وآله الأطهار عليهم السلام، مؤسسة الغدير - بيروت ١٩٩٨.

٤٠- البروفيسور القسيس دافيد بنيامين الكلداني: محمد في الكتاب المقدس،

دار الضياء - قطر ط٢/١٩٨٥.
٤١- روكس بن زايد العزيزي: علي أسد الإسلام وقديسه، دار الكتاب العربي -بيروت ١٩٧٩.
٤٢- عبد الباقي العمري: ديوان (الترياق الفاروقي)، دار النعمان - النجف الأشرف ط٢/١٩٦٤.
٤٣- سليمان القندوزي الحنفي: ينابيع المودة، مؤسسة الأعلمي - بيروت.
٤٤- الإمام جلال الدين السيوطي الشافعي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور. المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٤هـ.
٤٥- المتقي الهندي الحنفي: كنز العمال، ج١ دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد- دكن ١٣١٢هـ.
٤٦- ابن المغازلي الشافعي: مناقب علي بن أبي طالب، المكتبة الإسلامية طهران ط٢/١٣٠٢ق.
٤٧- الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: تاريخ الخلفاء، دار الفكر - بيروت د.ت.
٤٨- ميرزا جواد الملكي التبريزي: السير إلى الله، ترجمة: ياسين الموسوي، دار التعارف - بيروت ١٩٩٠.
٤٩- محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر - بيروت د.ت.
٥٠- راجي أنور هيفا: مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت ٢٠٠٣.
٥١- الفيض الكاشاني: تفسير الصافي، مكتبة الصدر - طهران ط٢/١٣٧٤هـ.

٥٢- دومينيك وجانين سورديل: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، ترجمة: حسني زينه، دار الحقيقة - بيروت ١٩٨٠.

٥٣- الدكتور عادل العوا والمستشرق هاملتون جب: علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، منشورات عويدات - بيروت ١٩٨٩.

٥٤ - ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة، دار الكتب التجارية -النجف د.ت.

٥٥- عبد الرحمن الشرقاوي: علي إمام المتقين، مكتبة غريب- القاهرة د.ت.

٥٦- نصري سلهب: في خطى علي، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣.

❖ موسوعة (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) تأليف: جورج جرداق. وتضم الكتب التالية:

٥٧- علي وحقوق الإنسان.

٥٨- بين علي والثورة الفرنسية.

٥٩- علي وسقراط.

٦٠- علي وعصره.

٦١- علي والقومية العربية.

وهذه الموسوعة من منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٠.

٦٢- عبد المسيح الإنطاكي: الملحمة العلوية، مؤسسة الأعلمي - بيروت ط١٩٩١/٢.

٦٣- أحمد الرحماني الهمداني: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، المنير للطباعة والنشر - طهران ١٣٧٥هـ.

٦٤- الشيخ جعفر النقدي: غزوات أمير المؤمنين عليه السلام، منشورات الشريف

الرضي - إيران ١٤٢١هـ.
٦٥- محمد كاظم القزويني: الإمام علي عليه السلام من المهد إلى اللحد، دار التيار الجديد - بيروت ١٩٩٢.
٦٦- بولس سلامة: عيد الغدير، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٦.
٦٧- خليل فرحات: في محراب علي (مطولة شعرية)، وهي منشورة بالكامل تقريباً في مجلة (الموسم) العدد السابع، صَدَر العدد في هولندا (١٩٩٠). أما القصيدة الكاملة فمطبوعة بشكل مستقل وتحمل نفس العنوان أيضاً مع مقدمة بقلم الشاعر اللبناني نجيب جمال الدين.
٦٨- دوايت رونالدسن: عقيدة الشيعة، تعريب: ع.م. مؤسسة المفيد - بيروت ط١/ ١٩٩٠.
٦٩- مجموعة من المفكرين والأدباء: في رحاب مهرجان الإمام علي عليه السلام، الفردوس للثقافة والإعلام، دمشق ٢٠٠١.
٧٠- كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة: د.بدر الدين القاسم، دار الحقيقة - بيروت ١٩٧٢.
٧١- د. نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة ط١/ ١٩٥٩.
٧٢- جميل جبر: من الأدب الألماني، دار الريحان للطباعة والنشر - بيروت د.ت.
٧٣- عباس محمود العقاد: مجموعة أعلام الشعر، دار الكتاب العربي - بيروت ط١/ ١٩٧٠.

٧٤- يوهان غوته: الشعر والحقيقة، ترجمة: محمد جديد، وزارة الثقافة- دمشق ١٩٩٢.

٧٥- كاتارينا مومزن: غوته والعالم العربي، (عالم المعرفة)، العدد ١٩٤ ترجمة: د. عدنان عباس علي، الكويت، عدد شباط ١٩٩٥.

٧٦- راجي أنور هيفا: أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله في فكر الفيلسوف غوته، مجلة النور، العدد (١١٠) لندن، تموز ٢٠٠٠.

٧٧- العلامة سيديو: خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار - بيروت ١٤٠٠هـ.

٧٨- الدكتور علي شريعتي: منهج التعرف على الإسلام، طهران ١٩٨٠.

٧٩- مكسيم رودنسون: العرب، ترجمة: د. خليل أحمد، خليل دار الحقيقة - بيروت ط١/١٩٨٠.

٨٠- ليوبولد فايس: منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور ماضي، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥٧.

٨١-يوهان غوته: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ط٢/١٩٨٠.

٨٢- عبد الله المنتفكي: الثورة الحسينية في الفكر العالمي، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد (٥٠)، إصدار المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق، عدد تموز ١٩٩٣.

٨٣- محمد علي: حياة محمد ورسالته، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت ط٣/١٩٧٦.

٨٤- د. نوري جعفر: الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام، مطبوعات

النجاح بالقاهرة ط٢/١٩٧٨.

٨٥- العلامة السيد هاشم البحراني : حلية الأبرار/ مؤسسة المعارف الإسلامية -قم ١٤١٣هـ.

❖ مجموعة (محمد شاطئ وسحاب)تأليف : سليمان كتاني. وتضم الكتب التالية :

٨٦- محمد شاطئ وسحاب.

٨٧- الإمام علي نبراس ومتراس.

٨٨- الإمام الحسن الكوثر المهدور.

٨٩- فاطمة الزهراء وتر في غمد.

وهذه المجموعة صادرة عن دار المرتضى - بيروت ط٢/١٩٩٠.

٩٠- الجاحظ : ١٠٠ كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، طبع دار المختارات العربية - بيروت.

٩١- أبو المعالي صدر الدين القونوي : شرح الأربعين حديثاً، تحقيق : د. حسن يلماز، انتشارات بيدار - قم المقدسة ١٣٧٢هـ.

٩٢- السيد محمد حسين الطباطبائي : الشيعة.. نص الحوار مع المستشرق كوربان، ترجمة : جواد علي كسار، طبع : مؤسسة أم القرى- بيروت ط٢/١٤١٨هـ.

٩٣- الفيلسوف توماس كارلايل : الأبطال، ترجمة : محمد السباعي، دار الرائد العربي - بيروت ط٤/١٩٨٢.

٩٤- تاريخ أبي الفداء : الجزء الأول، طبع دار الفكر - بيروت ١٩٥٦.

٩٥- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٢٦ دار الكتب الإسلامية - طهران ١٣٦٣هـ.

٩٦- الفونس إيتين دينيه: محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية - صيدا.

٩٧- خليل ياسين: محمد عند علماء الغرب، مؤسسة الوفاء - بيروت ط١٩٨٣/٢.

٩٨- ابن أبي الحديد المعتزلي: القصائد العلويات، مؤسسة الأعلمي - بيروت د.ت.

٩٩- محمد بن يوسف الكنجي الشافعي: كتاب الطالب، دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام - طهران ط١٤٠٤/٣هـ.

١٠٠- جرجي زيدان: ١٧ رمضان (سلسلة روايات تاريخ الإسلام)، مطبعة كرم - دمشق.

١٠١- سليمان كتاني: الإمام زين العابدين عنقود مرصع، دار الروضة - بيروت ١٩٩٣.

١٠٢- محمد علي إسبر: الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ونهجه في الحياة، مطبعة النور - جبلة ٢٠٠٢.

١٠٣- صحيح الإمام البخاري: مطابع الشعب - القاهرة ط١٩٨٥/١.

١٠٤- د. مهدي أمبيرش: نحو الإنسان الكامل، منشورات كلية الدعوة الإسلامية. طرابلس - ليبيا ١٩٨٧.

١٠٥- ميشيل عفلق: في سبيل البعث، دار الطليعة - بيروت ط١٩٦٣/٣.

١٠٦- الشيخ عبد الله العلايلي: أيام الحسين عليه السلام، دار العلم للملايين- بيروت.

١٠٧- لويس غارديه: أهل الإسلام، ترجمة: صلاح الدين برمدا، وزارة الثقافة -دمشق ١٩٨١.

١٠٨- السيد حسن الشيرازي: كلمة الله، دار الصادق - بيروت ط١/١٩٦٩.

١٠٩- ابن جرير الطبري: تفسير القرآن (جامع البيان)، الجزء السادس، ط١/مصر.

١١٠- الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي: أسباب النزول (ج١)، سلسلة كتاب الجمهورية - القاهرة.

١١١- جرهارد كونسلمان: سطوع نجم الشيعة، ترجمة: محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٩٢.

١١٢- الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد (الواحدي): أسباب النزول، مطبعة هندية ١٣١٥هـ.

١١٣- الإمام (الرازي) محمد فخر الدين: مفاتح الغيب المعروف بـ(التفسير الكبير)، دار الطباعة العامرة.

١١٤- الحافظ أبو بكر أحمد بن خطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩هـ.

١١٥- محمد بهاء الدين البيطار: كتاب النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية، دار الجيل - بيروت، د.ت.

١١٦- عبد الحميد جودة السحار: أهل بيت النبي، دار مصر - القاهرة د.ت.

١١٧- توفيق أبو علم: الحسن بن علي، دار المعارف بمصر - القاهرة ط٣/١٩٩٠.
١١٨- أنطون بارا: الحسين في الفكر المسيحي، انتشارات الهاشمي - قم١٩٨٤.
١١٩- ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق طرق، ترجمة: د. عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٥٥.
١٢٠- توفيق أبو علم: الحسين بن علي، دار المعارف بمصر - القاهرة ط٢/١٩٨٢.
١٢١- آية الله علي المشكيني: الهادي إلى موضوعات نهج البلاغة، وزارت إرشاد إسلامي - طهران ١٣٦٣هـ.
١٢٢- الإمام الخميني: الأربعون حديثاً، ترجمة: محمد الغروي، دار التعارف - بيروت ط٥/١٩٩٦.
١٢٣- Dago Berk D.Runes Treasury of Philosophy: Philosophical Library, New York, 1955, p.361.
١٢٤- خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء، مطبوعات دار الشعب - القاهرة ١٩٦٨.
١٢٥- راجي أنور هيفا: رحلة المستشرق كوربان مع المذهب الشيعي، مجلة النبأ العدد (٦٢)، المستقبل للثقافة والإعلام - بيروت ٢٠٠١.
١٢٦- روجيه غارودي: ما يعد به الإسلام، ترجمة: قصي أتاسي- ميشيل واكيم، دار الوثبة - دمشق د.ت.
١٢٧ د. خضر خضر: مدخل إلى الحريات العامة وحقوق الإنسان، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان د.ت.

١٢٨- جون كيهو: العقل الباطن، ترجمة د. مصطفى دليلة، دار الحوار - اللاذقية ٢٠٠١.

١٢٩- آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي: الصياغة الجديدة، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت ط٣/١٩٩٢.

١٣٠- آية الله السيد محمد الحسيني الشيرازي: اللاعنف في الإسلام، مؤسسة المجتبى - بيروت ط١/٢٠٠٣.

١٣١- فان فلوتن: أبحاث في السيطرة العربية، ترجمة: د. إبراهيم بيضون. وهذا الكتاب مطبوع بشكل ملحق مع كتاب (الدولة الأموية والمعارضة) للدكتور إبراهيم بيضون، طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت ١٩٨٥.

١٣٢- فؤاد الشايب: كيف عرفت الشاعر مجلة (الثقافة)، العدد (٦) - دمشق تشرين أول ١٩٥٨.

١٣٣- عبد الرحمن صدقي: الشرق والإسلام في أدب غوته (سلسلة كتاب الهلال)، العدد (١٩٥) القاهرة ١٩٦٧.

١٣٤- مجموعة من الباحثين الألمان: قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة: محمد خياطة دار مكتبة سومر - حلب ١٩٨٧.

١٣٥- د. موسى الخطيب: سيدات نساء أهل الجنة، دار التضامن - بيروت ١٩٩٢.

١٣٦- عبد الرحمن بدوي (إعداد وترجمة): شخصيات قلقة في الإسلام، وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٨.

١٣٧- الفيلسوف محمد إقبال: ديوان جناح جبريل، دار طلاس - دمشق ١٩٨٧.
١٣٨- حجة الإسلام ميرزا محمد تقي: صحيفة الأبرار، دار الصراط - طهران.
١٣٩- سبط ابن الجوزي الحنفي: تذكرة الخواص، منشورات الشريف الرضي - قم ١٤١٨هـ.
١٤٠- Fred A.Reed: Shattered Images, Talon books, Vancouver, Canada, 2003.
١٤١- شوقي أبو خليل: الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر - دمشق ١٩٨٢.
١٤٢- محمد جواد مغنية: نفحات محمدية، دار ومكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٦م.
١٤٣- قدري حافظ طوقان: مقام العقل عند العرب، وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٣.
١٤٤ روجيه غارودي: الإسلام دين المستقبل، ترجمة: عبد المجيد بارودي، دار الإيمان - بيروت، د.ت.
١٤٥- جوزف شاخت (وآخر) -إعداد-: تراث الإسلام، ج٢ (عالم المعرفة) العدد (٢٣٤) الكويت، حزيران ١٩٨٨.
١٤٦- شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ (سلسلة مختارات /٧/)، وزارة الثقافة - دمشق نيسان ٢٠٠٤.
١٤٧- جبران خليل جبران: النبي، ترجمة وتقديم: ثروت عكاشة، دار طلاس -دمشق ١٩٨٤.
١٤٨- راجي أنور هيفا: النزعة الإسلامية في فلسفة جبران، مجلة (النور)،

العدد (١١٨) مؤسسة النور - لندن ٢٠٠١.

١٤٩- جبران خليل جبران: المجموعة (العربية) الكاملة. دار صادر - بيروت، د.ت.

١٥٠- د. خليل أحمد خليل: المعرفة الاجتماعية في أدب جبران، دار ابن خلدون - بيروت ١٩٨١.

١٥١- نديم نعيمة: الفن والحياة، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٣.

١٥٢- مجلة (الموسم): العدد ٣، المجلد٤ تصدر في هولندا، صدر عام ١٩٩٢.

١٥٣- عفيف فراج: استشراق إدوارد سعيد، ملحق جريدة السفير، العدد (٩٦١٥) ٣ تشرين الأول ٢٠٠٣.

١٥٤- جان موريون: لويس ماسينيون ترجمة: منى النجار المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١

١٥٥- فرانسوا أوبرال: جورج سعد، معجم الفلاسفة الميسر، دار الحداثة - بيروت ١٩٩٣.

١٥٦- الشيخ محيي الدين بن عربي: الحكم الإلهية، دار الإرشاد - حمص ١٩٧٩.

١٥٧- Philip Hitti: History of the Arabs, Macmillan - London 1938.

١٥٨- الحافظ النسائي: خصائص مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، مطبعة التقدم العلمية بمصر.

١٥٩- الدكتور نظمي لوقا: أبو بكر، (كتاب الهلال) العدد /٢٤٢/، القاهرة مارس ١٩٧١.

١٦٠- كارين آرمسترونغ: الله والإنسان، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد - دمشق ١٩٩٦.

١٦١- بربارا براون: نظرة عن قرب في المسيحية، ترجمة: مناف الياسري، شركة التوحيد للنشر ١٩٩٥.

١٦٢- مسند أحمد بن حنبل: ج٥، المطبعة الميمنية بمصر ط/١٣١٣هـ.

١٦٣- السيد مرتضى الفيروزآبادي: فضائل الخمسة من الصحاح الستة، دار الكتب الإسلامية - طهران ١٤١٣هـ.

١٦٤- راجي أنور هيفا: الإسلام والغرب.. حوار الحروف وصدام السيوف، دار العلوم - بيروت ٢٠٠٤.

١٦٥- الشيخ أحمد حسن الباقوري: علي إمام الأئمة، مطبوعات مكتبة مصر - القاهرة ١٩٧٧.

١٦٦- جمال الدين الزرندي الحنفي: نظم درر السمطين، مكتبة نينوى الحديثة - طهران د.ت.

١٦٧- ابن كثير الدمشقي: تفسير ابن كثير، ج٢ دار المعرفة - بيروت ط٢/١٤٨٠هـ.

١٦٨- محمد بن علي الشوكاني: تفسير فتح القدير، ج٢ دار المعرفة - بيروت.

١٦٩- مروان خليفات: أكرمتني السماء، رابطة أهل البيت عليهم السلام - لندن ط٣/٢٠٠١.

١٧٠- محمود جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف، ج٤ دار المعرفة - بيروت.

١٧١- يوليوس فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ترجمة: د. محمد أبو ريدة،

نشر لجنة التأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٨.

١٧٢- د. سمير سليمان: الإسلام والغرب.. إشكالية التعايش والصراع، دار الحق - بيروت ١٩٨٨.

١٧٣- السيد مجتبى اللاري: الإسلام والحضارة الغربية، ترجمة: محمد هادي اليوسفي، دار الأمير - بيروت ١٩٩٢.

١٧٤- أليكسي جوزافسكي: الإسلام والمسيحية، (سلسلة عالم المعرفة)، العدد (٢١٥)، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، الكويت، تشرين ثاني ١٩٩٦.

١٧٥- الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج٢٥، دار إحياء التراث - بيروت.

١٧٦- ابنا بسطام النيسابوريان: طب الأئمة عليهم السلام، دار المحجة البيضاء - بيروت.

١٧٧- محسن عقيل: طب الإمام علي عليه السلام، دار المحجة البيضاء - بيروت ١٩٩٦.

١٧٨- أسعد دوراكوفيتش: نظرية الإبداع المهجرية، اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٧.

١٧٩- محمد رضا الحكيمي: سلوني قبل أن تفقدوني، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٩٧٣.

١٨٠- ليليان هيرلاندز وآخرون: دليل القارئ إلى الأدب العالمي، ترجمة: محمد الجورا، دار الحقائق - بيروت ١٩٨٦.

١٨١- جون ماكليش: العدد، (سلسلة عالم المعرفة)، العدد (٢٥١)، ترجمة:

د.خضر الأحمد، الكويت تشرين ثاني ١٩٩٩.

١٨٢- دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، (سلسلة عالم المعرفة)، العدد (٣٠٥)، ترجمة: د. أحمد فؤاد باشا، الكويت، يوليو ١٩٩٩.

١٨٣- د. محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء، المؤسسة السورية العراقية ١٩٥٩.

١٨٤- آ.س.رابوبرت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: أحمد أمين دار الكتاب العربي بيروت، د.ت.

١٨٥- د. محمد التيجاني السماوي: فاسألوا أهل الذكر، مؤسسة الفجر - لندن ١٩٩١.

١٨٦- هاملتون جب: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب- دمشق، د.ت.

١٨٧- J.Aitchison: The Seed Of Speech, Cambridge University Press, 1996.

١٨٨- حسن الصفار: أئمة أهل البيت رسالة وجهاد، دار المحجة البيضاء - بيروت ط٢/٢٠٠٣.

١٨٩- يوسف مروة: العلوم الطبيعية في تراث الإمام علي عليه السلام، منشورات مروة العلمية - بيروت ١٩٦٨.

١٩٠- د. محمد عبد الرحمن مرحبا: آينشتاين، مكتبة النهضة - بغداد ط٢/١٩٦٢.

١٩١- ج. سوليفان: قيمة العلم، ترجمة: لجنة الدار، الدار العلمية - بيروت

١٩٧٢.
١٩٢- أندريه كريسون: باسكال، ترجمة: نهاد رضا، منشورات عويدات - بيروت - باريس ١٩٨٢.
١٩٣- عباس الموسوي: الإمام علي منتهى الكمال البشري، مؤسسة الأعلمي - بيروت ١٩٨٣.
١٩٤- د. زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون، المكتب التجاري - بيروت ١٩٧٩.
١٩٥- أحمد عبد الحليم عطية: هنري كوربان بين الفلسفة والاستشراق، مجلة الاجتهاد، العددان (٥٠-٥١)، دار الاجتهاد - بيروت ٢٠٠١.
١٩٦- راجع تقرير ندوة هنري كوربان: حواريات الروح والدين. مجلة الكلمة، العدد (٣٩)، دار منتدى الكلمة - بيروت ٢٠٠٣.
١٩٧- جاك لانغاد: من القرآن إلى الفلسفة، ترجمة: وجيه أسعد، وزارة الثقافية - دمشق ٢٠٠٠.
١٩٨- رامي كلاوي: روجيه غارودي من الإلحاد إلى الإسلام، دار قتيبة - دمشق ط٢/١٩٩٤.
١٩٩- مجلة الصياد: العدد ١٥٣٨، تاريخ ١٥ آذار ١٩٧٤ (مقابلة مع البطريرك إلياس الرابع) أجراها معه الصحافي جبران عكاوي.
٢٠٠- الشيخ محمد حسن آل ياسين: نهج البلاغة.. لمن؟، منشورات المكتب العلمي - بيروت ١٩٧٨.
٢٠١- أمين نخلة: كتاب المئة، الدار الإسلامية - بيروت ط١/٢٠٠٢.

٢٠٢- سعيد عقل: الأعمال الكاملة، المجلد٦، منشورات نوبليس - بيروت، د.ت.

٢٠٣- د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في التراث العربي، دار الشروق - بيروت.

٢٠٤- لويس معلوف اليسوعي وفردينان توتل اليسوعي: المنجد في اللغة والأعلام. راجع كتاب المنجد في الأعلام المطبوع بشكل مستقل. إصدار: انتشارات ذوي القربى- طهران ١٤٢٣هـ.

٢٠٥- د. كمال اليازجي: روافد الأدب العربي في عصوره القديمة، المطبعة المخلصية - بيروت ١٩٦١.

٢٠٦- كارين آرمسترونغ: الإسلام في مرآة الغرب، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد - دمشق ط٢/٢٠٠٢.

٢٠٧- مجلة الموسم: العدد (٧)، الصادر عام ١٩٩٠، تصدر في هولندا بشكل فصلي.

٢٠٨- مجلة المستقبل: العدد (٣١٤)، الصادر بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٨٣ تصدر في باريس.

٢٠٩- عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام علي، المكتبة العصرية - بيروت ١٩٦٧.

٢١٠- فؤاد إفرام البستاني: نهج البلاغة (درس ومنتخبات)، المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٣٢.

٢١١- Dante: The Divine Comedy Vol.1 (Hell), Penguin Books, London, 1981.

٢١٢- د. مكارم الغمري: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، (سلسلة عالم المعرفة)، العدد (١٥٥)، الكويت تشرين ثاني ١٩٩١.

٢١٣- العلامة عبد الحسين الأميني: موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج١ دار الكتب الإسلامية - طهران ١٣٧٤هـ.

٢١٤- دومينيك سورديل: الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة: علي المقلد، دار التنوير - بيروت ١٩٨٣.

٢١٥- توفيق الحكيم: محمد رسول البشر (مسرحية)، طبع القاهرة ١٩٣٦.

٢١٦- الدكتور عادل العوا: معالم الكرامة في الفكر العربي، مطبعة الأمل - دمشق ١٩٦٩.

٢١٧- السيد محمد إبراهيم القزويني: عيد الغدير، مؤسسة الإمامة - بيروت ط١٩٩٩/٦.

٢١٨- آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي: عيد الغدير، مؤسسة المجتبى - بيروت ط٢٠٠١/١.

٢١٩- ميرسيا إلياد: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق - دمشق ١٩٨٧.

٢٢٠- إدوارد سعيد: الاستشراق، تعريب: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨١.

٢٢١- E.S. Hayman: Dictionary of American Philosophy, Philosophical Library, New York, 1973.

٢٢٢- النسخة الإنكليزية الأصلية لكتاب (الاستشراق)، وهي:

W.W.Said: Orientalism Pantheon Books, New York, N.Y 1978.

٢٢٣- ويمكننا أن نضيف إلى المراجع السابقة، رسالة من المفكر والأديب اللبناني الكبير، الدكتور (مصطفى الرافعي) أرسلها إلي بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٢٠ وهي عبارة عن ردودٍ على مجموعة أسئلة متنوعة كنت قد وجهتها إليه قبل ذلك بعشرة أيام.

الفهرس

المؤلف في سطور

* راجي أنور هيفا من مواليد اللاذقية ١٨/٤/١٩٦٥
* حاز على إجازة جامعية (بكالوريوس) في اللغة الإنكليزية وآدابها من جامعة تشرين في اللاذقية عام ١٩٨٨
* حاز على دبلوم تربية بدرجة جيد جداً من جامعة تشرين ١٩٩٢
* حاز على علومه الإسلامية من معهد (حوزة) الرسول الأكرم ﷺ للعلوم الإسلامية في بيروت بعد أن انتسب إليه عام ١٩٩٣
* له العديد من الكتابات في المجلات المحلية والعربية والدولية
* عضو وباحث في مركز الإمام الشيرازي للدراسات العالمية.
* صدر له:
- صفحات من الفكر (لندن ٢٠٠٢).
- مقدمة في معرفة الإمام علي عليه السلام (بيروت ٢٠٠٣).
- نظرية اللاعنف في الإسلام.« بحث مقدم إلى هيئة الأمم المتحدة بتكليف من مركز الإمام الشيرازي للدراسات العالمية». ٢٠٠٤
- الإسلام والغرب: حوار الحروف وصدام السيوف بيروت ٢٠٠٤
- الإمام علي عليه السلام في الفكر المسيحي المعاصر. بيروت ٢٠٠٥
* قيد الإعداد :
- فاجعة كربلاء في الضمير العالمي